

الجامع لأحكام القرآن

والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان

تأليف

أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي

(ت ٦٧١ هـ)

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

شارك في تحقيق هذا الجزء

محمد أنس مصطفى الخن محمد معتز كريم الدين

الجزء الثالث عشر

مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجامع الأحكام القرآن

وَالْبَيِّنُ مَا تَصَمَّنَهُ مِنَ الشَّيْءِ وَآيِ الْقُرْآنِ

جميع الحقوق محفوظة للنّاشر

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م



طى المصيبة - شارع حبيب أبي شهلا - بناية المسكن، بيروت-لبنان
للطباعة والنشر والتوزيع تلفاكس: ٣١٩٠٣٩-٨١٥١١٢ فاكس: ٨١٥٦١٥ ص.ب: ١١٧٤٦٠

Al-Resalah

PUBLISHERS

BEIRUT/LEBANON-Telefax:815112-319039 Fax:818615-P.O.Box:117460
Email:Resalah@Cyberia.net.lb

تفسير سورة الإسراء

هذه السورة مكية، إلا ثلاث آيات: قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ﴾ [الآية: ٧٦] نزلت حين جاء رسول الله ﷺ وفد ثقيف، وحين قالت اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء. وقوله عز وجل: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الآية: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ الآية [٦٠]. وقال مقاتل: وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ الآية [١٠٧]. وقال ابن مسعود ؓ في بني إسرائيل والكهف: إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي؛ يريد: من قديم كسبه^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١)
فيه ثمان^(٢) مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ﴾ «سبحان»: اسمٌ موضوعٌ موضع المصدر، وهو غير مُتمكّن؛ لأنه لا يجري بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام، ولم يجر منه فعلٌ، ولم ينصرف؛ لأنَّ في آخره زائدتين، تقول: سَبَّحْتُ تَسْبِيحاً وَسُبْحَاناً، مثل: كَفَرْتُ اليمين تكفيراً وكُفْراناً^(٣). ومعناه: التنزيه والبراءة لله عز وجل من كلِّ

(١) المحرر الوجيز ٤٣٤/٣، وأثر ابن مسعود أخرجه البخاري (٤٧٣٩) وفيه زيادة: ومريم وطه والأنبياء.

(٢) كذا في جميع النسخ، والملاحظ أن المسائل ست.

(٣) ينظر مشكل إعراب القرآن ٤٢٧/١، والمحرر الوجيز ٤٣٥/٣، وتفسير الرازي ١٤٥/٢٠.

نقص. فهو ذكرُ تعظيم^(١) لله تعالى لا يصلح لغيره؛ فأما قول الشاعر:
أقول لَمَّا جَآءَنِي فَخْرُهُ سَبْحَانَ مِنْ عَلَقْمَةِ الْفَاخِرِ
فإنما ذكره على طريق النادر^(٢). وقد روى طلحة بن عبيد الله الفَيَّاضُ أحدَ العشرة
أنه قال للنبي ﷺ: ما معنى سبحانَ الله؟ فقال: «تنزيهُ الله من كلِّ سوء»، والعامل فيه
على مذهب سيبويه الفعل الذي من معناه لا من لفظه، إذ لم يَجْرِ من لفظه فِعْلٌ،
وذلك مثل: قَعَدَ الْقُرْفُصَاءُ، واشتمَلَ الصَّمَاءُ، فالتقدير عنده: أُنْزِهُ اللهَ تنزيهاً، فوقع
«سبحانَ الله» مكانَ قولك: تنزيهاً^(٣).

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ «أسرى» فيه لغتان: سرى وأسرى^(٤)،
كسقى وأسقى، كما تقدّم^(٥). قال:
أُسْرْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوْزَاءِ سَارِيَةً تُزْجِي الشَّمَالَ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرْدِ
وقال آخر:

حَيِّ النَّصِيرَةِ رَبَّةَ الْخِذْرِ أُسْرْتُ إِلَيَّ وَلَمْ تَكُنْ تَسْرِي
فجمع بين اللغتين في البيت^(٦). والإسراء: سير الليل؛ يقال: سَرَيْتُ مَسْرَى
وَسُرَيْ، وأسريتُ إسرائاً؛ قال الشاعر:
وَلَيْلَةٌ ذَاتِ نَدَى سَرَيْتُ وَلَمْ يَلِثْنِي مِنْ سُرَاهَا لَيْثُ^(٧)

(١) في جميع النسخ: عظيم، والتصويب من النكت والعيون.

(٢) النكت والعيون ٢٢٣/٣، والبيت قائله الأعشى الكبير، وقد سلف ٤١٢/١.

(٣) المحرر الوجيز ٤٣٥/٣، والحديث سلف ٤١٢/١.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/٣١١، وإعراب القرآن للنحاس ٢/٤٣١.

(٥) ١٣٥/٢.

(٦) سلف هذا الكلام ١٨٢/١١، والبيت الأول قائله النابغة الذبياني، والبيت الثاني قائله حسان بن ثابت.

(٧) ينظر النكت والعيون ٢٢٤/٣، والبيت نسبه ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ١٥٣ إلى روبة بن

العجاج، ولم نقف عليه في ديوانه، ونسبه أبو علي القالي في أماليه ٢/٢٤٤ إلى ابن الأعرابي.

وقيل: أسرى: سار من أول الليل، وسرى: سار من آخره، والأول أعرف^(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُهُ﴾ قال العلماء: لو كان للنبي ﷺ اسمٌ أشرف منه لسمّاه به في تلك الحالة العلية. وفي معناه أنشدوا:

يا قوم قلبي عند زهراء يعرفه السامعُ والرائي
لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرفُ أسمائي
وقد تقدّم^(٢). قال القشيري: لما رفعه الله تعالى إلى حضرته السنية، وأرقاه فوق الكواكب العلوية، ألزمه اسم العبودية تواضعاً للأمة.

الرابعة: ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث، ورُوي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام، فهو من المتواتر بهذا الوجه، وذكر النقّاش ممن رواه عشرين صحابياً^(٣). روى الصحيح عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «أتيتُ بالبراق وهو دابةٌ أبيضُ [طويلٌ] فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه - قال - فركبته حتى أتيتُ بيت المقدس - قال - فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء - قال - ثم دخلتُ المسجد فصليتُ فيه ركعتين، ثم خرجتُ، فجاءني جبريلُ عليه السلام بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبنٍ، فاخترتُ اللبن، فقال جبريل: اخترتَ الفطرة - قال - ثم عرجَ بنا إلى السماء...» وذكر الحديث^(٤). ومما ليس في الصحيحين ما خرّجه الآجريُّ والسمرقنديُّ^(٥)، قال الآجريُّ عن أبي سعيد الخدري في قوله تعالى:

(١) سلف هذا الكلام ١٨٢/١١.

(٢) ٣٤٩/١ من غير نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٤٣٤/٣.

(٤) صحيح مسلم (١٦٢) (٢٥٩) وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أحمد (١٢٥٠٥).

(٥) الآجري في الشريعة (١٠٢٧)، وأبو الليث السمرقندي في تفسيره ٢٥٨/٢، ولم يذكر إسناده، أما الآجري فرواه من طريق أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري؛ به. أبو هارون العبدي: اسمه عمارة بن جوين، وهو متروك، ومنهم من كذّبه. تهذيب التهذيب ٢٠٧/٣ - ٢٠٨.

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ قال أبو سعيد: حدثنا رسول الله ﷺ عن ليلة أُسْرِىَ به، قال النبي ﷺ: «أُتِيَتْ بدابةٌ هي أشبهُ الدوابِّ بالبغل، له أذنانِ مضطربتان^(١)، وهو البراق الذي كانت الأنبياء تركبهُ قبلُ، فركبتهُ، فانطلقَ تَقَعُ يداه عند منتهى بصره، فسمعتُ نداءً عن يميني: يا محمد، على رِسْلِكَ حتى أسألكَ، فمَضِيتُ ولم أُعْرِجْ عليه، ثم سمعتُ نداءً عن يساري: يا محمد، على رِسْلِكَ، فمَضِيتُ ولم أُعْرِجْ عليه، ثم استقبلتُني امرأةٌ عليها من كلِّ زينة الدنيا، رافعةٌ يديها تقول: على رِسْلِكَ حتى أسألكَ، فمَضِيتُ ولم أُعْرِجْ، ثم أُتِيَتْ بيت المقدس الأقصى، فنزلتُ عن الدابة، فأوثقتهُ في الحَلَقَةِ التي كانت الأنبياء تُوثِقُ بها، ثم دخلتُ المسجدَ وصَلَّيْتُ فيه، فقال لي جبريل عليه السلام: ما سمعتَ يا محمد؟ فقلتُ: سمعتُ نداءً عن يميني: يا محمد، على رِسْلِكَ حتى أسألكَ، فمَضِيتُ ولم أُعْرِجْ، فقال: ذلك داعي اليهود، ولو وقفتَ لتهودتَ أُمَّتَكَ - قال - ثم سمعتُ نداءً عن يساري: على رِسْلِكَ حتى أسألكَ، فمَضِيتُ ولم أُعْرِجْ عليه، فقال: ذلك داعي النصارى، أما إِنَّكَ لو وقفتَ لتنصرتَ أُمَّتَكَ - قال - ثم استقبلتُني امرأةٌ عليها من كلِّ زينة الدنيا، رافعةٌ يديها تقول: على رِسْلِكَ، فمَضِيتُ ولم أُعْرِجْ عليها، فقال: تلك الدنيا لو وقفتَ لاخترتَ الدنيا على الآخرة - قال - ثم أُتِيَتْ بِناءين أحدهما فيه لبنٌ والآخرُ فيه خمرٌ، فقيل لي: خُذْ فاشربْ أَيُّهُمَا شِئْتَ، فأخذتُ اللبنَ فشربتهُ، فقال لي جبريل: أصَبْتَ الفِطْرَةَ، ولو أَنَّكَ أخذتَ الخمرَ عَوْتُ أُمَّتِكَ، ثم جاء بالمعراج الذي تعرَّجُ فيه أرواح بني آدم فإذا هو أحسنُ ما رأيْتُ، ألم^(٢) تروا إلى الميت كيف يُجَدُّ بصره إليه؟ فعُرِجَ بنا حتى انتهينا إلى^(٣) باب السماء الدنيا، فاستفتحَ جبريلُ، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل. قالوا: وَمَنْ معك؟

(١) في النسخ الخطية: يخطر فان، وفي (م): يضطربان، والمثبت من الشريعة للأجري.

(٢) في (م): أو لم.

(٣) في (م): أتينا، وفي النسخ الخطية سقطت كلمة إلى، والمثبت من الشريعة.

قال: محمد. قيل^(١): وقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم. ففتحوا لي، وسلّموا عليّ، وإذا مَلَكٌ يحرسُ السماء يُقال له: إسماعيل، معه سبعون ألف مَلَك، مع كلِّ مَلَكٍ مئة ألف - قال - ﴿وما يعلمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ...﴾ [المدر: ٣١] - وذكر الحديث إلى أن قال - ثم مضينا إلى السماء الخامسة، فإذا أنا بهارون بن عمران المُحَبَّبُ في قومه، وحولَه تَبَعٌ كثيرٌ من أُمته - فوصفَه النبي ﷺ وقال - طويلُ اللَّحْيَةِ، تكاد لِحْيَتُهُ تضربُ في سُرَّتِهِ، ثم مضينا إلى السماء السادسة، فإذا أنا بموسى، فسلم عليّ ورَحَّبَ بي - فوصفَه النبي ﷺ فقال - رجلٌ كثيرُ الشعر لو^(٢) كان عليه قميصان خرجَ شعرُهُ منهما... الحديث.

وروى البزار^(٣) أن رسول الله ﷺ أتى بفرسٍ فحملَ عليه، كلُّ خُطوةٍ منه أقصى بصره... وذكر الحديث.

وقد جاء في صفة البراق من حديث ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا نائمٌ في الحِجْرِ إذ أتاني آتٍ فحرّكني برجله، فأتبعْتُ الشخصَ فإذا هو جبريل عليه السلام قائمٌ على باب المسجد معه دابةٌ دون البغل وفوق الحمار، وجهُها وجهُ إنسان، وخُفُّها خُفُّ حافر، وذَنبُها ذنبُ ثور، وعُرْفُها عُرْفُ الفرس، فلما أدناها مني جبريل عليه السلام نفَرْتُ ونَفَسْتُ عُرْفَها، فمسحها جبريل عليه السلام وقال: يا بُرْقَةُ، لا تَنفِري من محمد، فوالله ما ركبتُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ أَفْضَلُ من محمد ﷺ ولا أكرمُ على الله منه. قالت: قد علمتُ أنه كذلك، وأنه صاحبُ الشفاعة، وإني أُحِبُّ أن أكون في شفاعته. فقلت: أنتِ في شفاعتي إن شاء الله تعالى...» الحديث^(٤).

(١) في (م): قالوا، وفي النسخ الخطية: قال، والمثبت من الشريعة.

(٢) في (م): ولو.

(٣) كما في «كشف الأستار» (٥٥) من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية أو غيره، عن أبي هريرة، مرفوعاً. أبو جعفر الرازي سيئ الحفظ. تهذيب التهذيب ٥٠٣/٤. ثم إن الربيع رواه على الشك، فيحتمل أن يكون عن رجلٍ مبهم.

(٤) ذكر الطبرسي في مجمع البيان ٩/١٦ بعضه، وذكر صاحب السيرة الحلبية ٧٨/٢ بأن الثعلبي رواه في تفسيره بسند ضعيف.

وذكر أبو سعيد عبد الملك بن محمد النيسابوري^(١) عن أبي سعيد الخدري قال: لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِإَدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ قَالَ: «مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ الَّذِي وَعَدْنَا أَنْ نَرَاهُ فَلَمْ نَرَهُ إِلَّا اللَّيْلَةَ - قَالَ - فَإِذَا فِيهَا مَرِيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ لَهَا سَبْعُونَ قَصْرًا مِنْ لَوْلُؤٍ، وَلَأُمُّ مُوسَى بِنْتُ عِمْرَانَ سَبْعُونَ قَصْرًا مِنْ مَرْجَانَةٍ حُمْرَاءٍ مُكَلَّلَةٍ بِاللَّوْلُؤِ، أَبْوَابُهَا وَأَسْرَتُهَا مِنْ عِزِّ وَاحِدٍ، فَلَمَّا عَرَجَ الْمَعْرَاجَ إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ - وَتَسْبِيحُ أَهْلِهَا: سُبْحَانَ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الثَّلَجِ وَالنَّارِ، مِنْ قَالِهَا مَرَّةً وَاحِدَةً كَانَ لَهُ مِثْلُ ثَوَابِهِمْ - اسْتَفْتَحَ الْبَابَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَفُتِّحَ لَهُ، فَإِذَا هُوَ بِكَهْلٍ لَمْ يَرَ قَطُّ كَهْلٌ أَجْمَلُ مِنْهُ، عَظِيمُ الْعَيْنَيْنِ، تَضَرَّبُ لَحِيَّتُهُ قَرِيبًا مِنْ سُرَّتِهِ، قَدْ كَادَ أَنْ تَكُونَ شَمْطَةً^(٢)، وَحَوْلَهُ قَوْمٌ جُلُوسٌ يَقْصُّ عَلَيْهِمْ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ، مِنْ هَذَا؟ قَالَ: هَارُونَ الْمُحَبَّبُ فِي قَوْمِهِ...» وذكر الحديث.

فهذه نبذة مختصرة من أحاديث الإسراء خارجة عن الصحيحين، ذكرها أبو الربيع سليمان بن سُبُعٍ بكمالها في كتاب «شفاء الصدور»^(٣) له. ولا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما فُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ فِي حِينَ الْإِسْرَاءِ حِينَ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ. واختلفوا في تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة، وهل كان إسراء بروحه أو جسده، فهذه ثلاث مسائل تتعلق بالآية، وهي مما ينبغي الوقوف عليها والبحث عنها، وهي أهم من سرد تلك الأحاديث، وأنا أذكر ما وقفت عليه فيها من أقاويل العلماء واختلاف الفقهاء بعون الله تعالى:

فأما المسألة الأولى: وهي هل كان إسراء بروحه أو جسده؟ اختلف في ذلك

(١) هو أبو سعيد الواعظ الحافظ، صاحب كتاب «شرف المصطفى»، توفي سنة ٤٠٦ هـ. كشف الظنون ١٠٤٥/٢.

(٢) مِنَ الشَّمَطِ: وهو بياض شعر الرأس يخالطه سواده. الصحاح (شمط).

(٣) قال صاحب مشارع الأشواق: وقفت عليه - يعني كتاب «شفاء الصدور» - في نحو أربعة أسفار، يشتمل على أحاديث في فضائل الأعمال، وضع فيه مؤلفه من عجائب الغرائب أصولاً وفروعاً، جمع فيه وأدعى، وأودع أحاديث عريضة عن الإسناد. كشف الظنون ١٠٥٠/٢.

السلف والخلف، فذهبت طائفةً إلى أنه إسرائٌ بالروح، ولم يفارق شخصه مضجعه، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق، ورؤيا الأنبياء حقٌ. ذهب إلى هذا معاوية وعائشة، وحكي عن الحسن وابن إسحاق. وقالت طائفة: كان الإسراء بالجسد يقظةً إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء. قالوا: ولو كانوا الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فإنه كان يكون أبلغ في المدح. وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسرائٌ بالجسد وفي اليقظة، وأنه ركب البراق بمكة، ووصل إلى بيت المقدس وصلى فيه ثم أُسري بجسده. وعلى هذا تدلُّ الأخبار التي أشرنا إليها والآية. وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يُعدَّلُ عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، ولو كان مناماً لقال: بروح عبده، ولم يقل: بعبده. وقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] يدلُّ على ذلك، ولو كان مناماً لما كانت فيه آيةٌ ولا معجزة، ولما قالت له أم هانئ: لا تُحدِّثِ النَّاسَ فَيَكْذُبُوكَ، ولا فَضَّلَ أبو بكر بالتصديق، ولما أمكن قريشاً التشنيع والتكذيب، وقد كذبه قريش فيما أخبر به حتى ارتدَّ أقوامٌ كانوا آمنوا، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر^(١)، وقد قال له المشركون: إن كنت صادقاً فخبِّرنا عن غيرنا أين لقينها؟ قال: «بمكان كذا وكذا مررتُ عليها، ففرغَ فلانٌ، فقيل له: ما رأيتَ يا فلان؟ قال: ما رأيتُ شيئاً، غيرَ أنَّ الإبل قد نفرت». قالوا: فأخبِّرنا متى تأتينا العير؟ قال: «تأتيكم يومٌ كذا وكذا». قالوا: آيةٌ ساعة؟ قال: «ما أدري، طلوعُ الشمس من هاهنا أسرع أم طلوعُ العير من هاهنا». فقال رجلٌ: ذلك اليوم، هذه الشمس قد طلعت. وقال رجلٌ: هذه عيركم قد طلعت. واستخبروا النبي ﷺ عن صفة بيت المقدس، فوصفه لهم، ولم يكن رآه قبل ذلك^(٢). روى الصحيح عن أبي هريرة قال: قال

(١) الشفا للقاضي عياض ٣٥٩/١ و ٣٦٠ و ٣٦٢ و ٣٦٣، والمحرم الوجيز ٣/٤٣٤ - ٤٣٥ مع تقديم وتأخير وإدخال كلام بعضهما في بعض. وقول أم هانئ أخرجه ابن سعد ١/٢١٥.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٧١٤٢)، والبيهقي في الدلائل ٢/٣٥٥-٣٥٧ من حديث شداد بن أوس، وقال: إسناده صحيح.

رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجرِ وقريشٌ تسألني عن مَسْرَائي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكُربْتُ كُرباً ما كُربْتُ مثله قط - قال - فرفعه الله لي أنظرُ إليه، فما سألوني عن شيءٍ إلا أنبأتهم به» الحديث^(١). وقد اعترضَ قولُ عائشة ومعوية: «إنما أسريَ بنفسِ رسول الله ﷺ» بأنها كانت صغيرةً لم تُشاهد، ولا حَدَّثت عن النبي ﷺ. وأما معاوية فكان كافراً في ذلك الوقت غيرَ مشاهدٍ للحال، ولم يُحدِّث عن النبي ﷺ^(٢). ومن أراد الزيادة على ما ذكرنا فليقف على كتاب «الشفاء»^(٣) للقاضي عياض يجد من ذلك الشفاء. وقد احتجَّ لعائشة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الآية ٦٠ من هذه السورة] فسَمَّاهَا رؤيا. وهذا يرُدُّه قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ ولا يُقال في النوم: أسرى^(٤). وأيضاً فقد يقال لرؤية العين: رؤيا، على ما يأتي بيانه في هذه السورة. وفي نصوص الأخبار الثابتة دلالة واضحة على أنَّ الإسراء كان بالبدن، وإذا ورد الخبرُ بشيءٍ هو مُجَوِّزٌ في العقل في قدرة الله تعالى فلا طريقَ إلى الإنكار، ولا سيما في زمن خرق العوائد، وقد كان للنبي ﷺ معارجُ، فلا يبعدُ أن يكون البعض بالرؤيا، وعليه يُحمل قوله عليه الصلاة والسلام في الصحيح: «بيننا أنا عند البيت بين النائم واليقظان» الحديث^(٥). وَيَحْتَمِلُ أن يُرَدَّ من الإسراء إلى نوم. والله أعلم.

المسألة الثانية: في تاريخ الإسراء، وقد اختلف العلماء في ذلك أيضاً، واختلفَ في ذلك على ابن شهاب؛ فروى عنه موسى بن عُقبة أنه أسريَ به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة. وروى عنه يونس عن عروة عن عائشة قالت: تُوفيت

(١) صحيح مسلم (١٧٢).

(٢) المحرر الوجيز ٤٣٥/٣.

(٣) ٣٧٤ - ٣٤٣/١.

(٤) الشفاء ٣٦٨/١.

(٥) صحيح البخاري (٣٢٠٧)، وصحيح مسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة، وأخرجه أحمد

خديجةً قبل أن تُفَرَّضَ الصلاة. قال ابن شهاب: وذلك بعد مبعث النبي ﷺ بسبعة أعوام. وروى عنه الواقسي قال: أُسْرِيَ به بعد مبعثه بخمس سنين^(١). قال ابن شهاب: وفُرِضَ الصيام بالمدينة قبل بدر، وفُرِضَت الزكاة والحج بالمدينة، وحُرِّمَت الخمرُ بعد أُحُد. وقال ابن إسحاق: أُسْرِيَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس، وقد فشا الإسلام بمكة وفي^(٢) القبائل. وروى عنه يونس ابن بكير قال: صَلَّتْ خديجةً مع النبي ﷺ^(٣). وسيأتي. قال أبو عمر^(٤): وهذا يدلُّك على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام؛ لأنَّ خديجةً قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: بثلاث، وقيل: بأربع. وقول ابن إسحاق مخالفٌ لقول ابن شهاب، على أنَّ ابن شهاب قد اختلف عنه كما تقدَّم.

وقال الحرَّبي: أُسْرِيَ به ليلة سبع وعشرين من^(٥) ربيع الأول^(٦) قبل الهجرة بسنة^(٧). وقال أبو بكر محمد بن علي بن القاسم الذهبي في تاريخه: أُسْرِيَ به من مكة إلى بيت المقدس، وعُرِّجَ به إلى السماء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً. قال أبو عمر^(٨): لا أعلم أحداً من أهل السير قال ما حكاه الذهبي، ولم يُسْنِدْ قوله إلى أحدٍ ممَّن يُضافُ إليه هذا العلمُ منهم، ولا رَفَعَهُ إلى من يُحْتَجُّ به عليهم.

(١) التمهيد لابن عبد البر ٨/ ٥٠ - ٥١، وقد أسند رواية موسى بن عقبة، وأما رواية يونس فقد تابعه عليها

معمر بن راشد فيما أخرجه ابن سعد ٨/ ١٨.

(٢) في (م) و(د) و(ز): في.

(٣) التمهيد ٨/ ٥١ - ٥٢، وأسند قول الزهري.

(٤) في التمهيد ٨/ ٥٢ - ٥٣.

(٥) بعدها في (م) كلمة شهر، وهي ليست في النسخ الخطية.

(٦) في (م): الآخرة، وفي (د) و(ز) و(ف): الآخر، والمثبت من (ظ) ومن التمهيد، وينظر طبقات ابن

سعد ١/ ٢١٤.

(٧) التمهيد ٨/ ٤٩.

(٨) في التمهيد ٨/ ٤٨.

المسألة الثالثة: وأما فرض الصلاة وهيئتها حين فرضت، فلا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير أنَّ الصلاة إنما فُرِضَتْ بمكة ليلة الإسراء حين عُرِجَ به إلى السماء، وذلك منصوص في الصحيح وغيره، وإنما اختلفوا في هيئتها حين فُرِضَتْ؛ فروي عن عائشة رضي الله عنها أنها فُرِضَتْ ركعتين ركعتين، ثم زيدَ في صلاة الحضر فأُكِمِلَتْ أربعاً، وأُفِرَّتْ صلاةُ السفر على ركعتين. وبذلك قال الشَّعْبِيُّ وميمون ابن مِهْران ومحمد بن إسحاق^(١).

قال الشَّعْبِيُّ: إلا المغرب^(٢).

قال يونس بن بكير: وقال ابن إسحاق: ثم إن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ حين فُرِضَتْ عليه الصلاة - يعني في الإسراء - فهمزَ له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت عين ماء، فتوضأ جبريل ومحمد ينظر عليهما السلام، فوضأ وجهه، واستنشق، وتمضمض، ومسح برأسه وأذنيه ورجليه إلى الكعيين، ونضح فرجه، ثم قام يُصَلِّي ركعتين بأربع سجادات، فرجع رسول الله ﷺ وقد أقرَّ الله عينه، وطابت نفسه، وجاءه ما يُحِبُّ من أمر الله تعالى، فأخذ بيد خديجة، ثم أتى بها العين، فتوضأ كما توضأ جبريل، ثم ركع ركعتين وأربع سجادات هو وخديجة، ثم كان هو وخديجة يُصَلِّيَانِ سواء^(٣).

وروي عن ابن عباس أنها فُرِضَتْ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين. وكذلك قال نافع بن جُبَيْر والحسن بن أبي الحسن البصري، وهو قول ابن جُرَيْج، وروي عن النبي ﷺ ما يوافق ذلك^(٤). ولم يختلفوا في أنَّ جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة

(١) التمهيد ٣٣/٨، وحديث عائشة أخرجه بنحوه البخاري (٣٥٠)، ومسلم (٦٨٥).

(٢) التمهيد ٤٧/٨.

(٣) التمهيد ٥٢/٨.

(٤) وهو قوله ﷺ: «إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة» وأخرجه أحمد (١٩٠٤٧)، والترمذي

(٧١٥) واللفظ له، وابن ماجه (١٦٦٧) من حديث أنس بن مالك رجل من بني عبد الله بن كعب.

الإسراء عند الزوال، فعَلَّمَ النبي ﷺ الصلاة ومواقيتها^(١).

وروى يونس بن بكير عن سالم مولى أبي المهاجر قال: سمعتُ ميمون بن مِهْرَانَ يقول: كان أوَّل الصلاة مثني، ثم صَلَّى رسول الله ﷺ أربعاً فصارت سُنَّة، وأُقرَّت الصلاة للمسافر، وهي تمام. قال أبو عمر^(٢): وهذا إسنادٌ لا يُحتَجُّ بمثله، وقوله: «فصارت سُنَّة» قولٌ منكر، وكذلك استثناءُ الشعبيِّ المغربَ وحدها ولم يذكرِ الصبح قولٌ لا معنى له. وقد أجمع المسلمون أنَّ فرض الصلاة في الحضر أربعٌ إلا المغرب والصبح، ولا يَعْرِفون غيرَ ذلك عملاً ونقلًا مستفيضاً، ولا يضرُّهم الاختلاف فيما كان أصلُ فرضها.

الخامسة: قد مضى الكلام في الأذان في «المائدة»^(٣) والحمد لله. ومضى في «آل عمران»^(٤) أنَّ أوَّل مسجدٍ وُضِعَ في الأرض المسجدُ الحرام، ثم المسجدُ الأقصى، وأنَّ بينهما أربعين عاماً من حديث أبي ذرٍّ، وبناء سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو، ووجهُ الجمع في ذلك، فتأمَّلْه هناك فلا معنى للإعادة. ونذكر هنا قوله ﷺ: «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إلى ثلاثة مساجد: إلى المسجد الحرام، وإلى مسجدي هذا، وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس». خرَّجه مالك من حديث أبي هريرة^(٥). وفيه ما يدلُّ على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد؛ لهذا قال العلماء: من نذرَ صلاةً في مسجد لا يَصِلُ إليه إلا برحلةٍ وراحلةٍ فلا يفعل، ويصلي في مسجده، إلا في الثلاثة المساجد المذكورة، فإنه من نذرَ صلاةً

(١) التمهيد ٨/ ٣٣ - ٣٤.

(٢) في التمهيد ٨/ ٤٧ - ٤٨ بعد أن ذكر تلك الرواية.

(٣) ٨/ ٥٩ - ٧٤.

(٤) ٥/ ٢٠٦ وما بعدها.

(٥) الموطأ ١/ ١٠٨ - ١٠٩، وأخرجه من طريقه أحمد (٢٣٨٤٨)، ولفظه: «لا تُعْمَلُ المَطِيُّ إِلَّا إلى ثلاثة مساجد»، ووقع في رواية مالك هذه أن أبا هريرة رواه عن بصرة بن أبي بصرة الغفاري، فتعقبها ابن عبد البر في الاستيعاب ٢/ ٣٩ - ٤٠ فقال: إنما الحديث لأبي هريرة، وأظنُّ الوهم جاء فيه من يزيد بن الهاد - يعني شيخ مالك - والله أعلم.

فيها خرج إليها. وقد قال مالك وجماعة من أهل العلم فيمن نذر رباطاً في ثَغْرِ يَسْءُهُ: فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط؛ لأنه طاعة لله عزَّ وجلَّ^(١). وقد زاد أبو البَخْتَرِيُّ في هذا الحديث: مسجد الجند، ولا يصحُّ وهو موضوع^(٢)، وقد تقدَّم في مقدِّمة الكتاب^(٣).

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ سُمِّيَ الْأَقْصَى لِبُعْدِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ المسجد الحرام، وكان أبعد مسجدٍ عن أهل مكة في الأرض يُعَظَّمُ بالزيارة، ثم قال: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ قيل: بالثمار وبمجاري الأنهار. وقيل: بمن دُفِنَ حوله من الأنبياء والصالحين؛ وبهذا جعله مقدَّساً. وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: يا شامُ، أنتِ صفوتي من بلادِي، وأنا سائقٌ إليك صفوتي من عبادِي»^(٤). ﴿لَنُرِيَنَّكَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ هذا من باب تلوين الخطاب. والآيات التي أراه الله من العجائب التي أخبر بها الناس، وإسراؤه من مكة إلى المسجد الأقصى في ليلةٍ وهو مسيرة شهر، وعروجه إلى السماء، ووصفه الأنبياء واحداً واحداً^(٥)، حسبما ثبت في «صحيح مسلم» وغيره^(٦). ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقدَّم^(٧).

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾

أي: كَرَّمْنَا محمداً ﷺ بالمعراج، وأكْرَمْنَا موسى بالكتاب: وهو التوراة^(٨).

(١) الاستذكار ٤١/٢ .

(٢) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ٣٨/٢٣ وليس في إسناده أبو البختري، وإنما فيه محمد بن خالد الجندي والمثنى بن الصباح، ثم قال ابن عبد البر: هذا حديث منكر لا أصل له، ومحمد بن خالد الجندي والمثنى بن الصباح متروكان، ولا يثبت من جهة النقل.

(٣) ١٢٥/١ - ١٢٦ ، والذي تقدم ليس الحديث، وإنما الكلام على أبي البختري.

(٤) أخرجه الدليمي في فردوس الأخبار (٨١٢٥).

(٥) النكت والعيون ٢٢٦/٣ - ٢٢٧ .

(٦) وقد تقدم في أول السورة.

(٧) ٢٦٢/٢ و ٣٩٦ .

(٨) الوسيط ٩٦/٣ ، وزاد المسير ٦/٥ .

﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: ذلك الكتاب. وقيل: موسى^(١). وقيل: معنى الكلام: سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً وآتى موسى الكتاب، فخرج من الغيبة إلى الإخبار عن نفسه جلَّ وعزَّ^(٢). وقيل: إنَّ معنى سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً، معناه: أسرينا، يدلُّ عليه ما بعده من قوله: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأْتَنَّا﴾ فحمل ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ على المعنى. ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ قرأ أبو عمرو: «يتخذوا» بالياء. الباقون بالتاء^(٣). فيكون من باب تلوين الخطاب. ﴿وَكَيْلًا﴾ أي: شريكاً. عن مجاهد. وقيل: كفيلاً بأموالهم. حكاه الفراء. وقيل: ربّاً يتوكلّون عليه في أمورهم. قاله الكلبي^(٤). وقال الفراء^(٥): كافياً. والتقدير: عهدنا إليه في الكتاب ألا تتخذوا من دوني وكيلًا. وقيل: التقدير: لثلاثاً تتخذوا^(٦). والوكيل: من يوكل إليه الأمر^(٧).

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿٢﴾

أي: يا ذرية من حملنا، على النداء. قاله مجاهد، ورواه عنه ابن أبي نجيع^(٨). والمراد بالذرية كلُّ من احتج عليه بالقرآن، وهم جميع من على الأرض؛ ذكره المهدويُّ. وقال الماورديُّ^(٩): يعني: موسى وقومه من بني إسرائيل. والمعنى: يا ذرية من حملنا مع نوح لا تُشركوا. وذكر نوحاً ليذكّرهم نعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم^(١٠).

(١) النكت والعيون ٢٢٧/٣، والمححر الوجيز ٤٣٦/٣.

(٢) ينظر الوسيط ٩٦/٣، وزاد المسير ٦/٥.

(٣) السبعة ص ٣٧٨، والتيسير ص ١٣٩.

(٤) النكت والعيون ٢٢٧/٣، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٤٥٠/١٤.

(٥) في معاني القرآن له ١١٦/٢.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤١٤/٢.

(٧) تفسير البغوي ١٢٤/٣.

(٨) معاني القرآن للنحاس ١٢٠/٤.

(٩) في النكت والعيون ٢٢٨/٣.

(١٠) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢٣٠/٣.

وروى سفيان، عن حميد، عن مجاهد أنه قرأ: «ذَرِيَّةٌ» بفتح الذال وتشديد الراء والياء. وروى هذه القراءة عامر بن عبد الواحد، عن زيد بن ثابت. ورُوي عن زيد بن ثابت أيضاً «ذَرِيَّةٌ» بكسر الذال وشَدَّ الراء^(١).

ثم بيَّن أن نوحاً كان عبداً شكوراً يشكر الله على نعمه، ولا يرى الخير إلا من عنده. قال قتادة: كان إذا لَبِسَ ثوباً قال: بسم الله، فإذا نزعَه قال: الحمد لله. كذا روى عنه معمر^(٢). وروى معمر عن منصور عن إبراهيم قال: شُكْرُهُ إذا أَكَلَ قال: بسم الله، فإذا فرَغَ من الأكل قال: الحمد لله^(٣). قال سلمان الفارسي: لأنه كان يحمَدُ الله على طعامه^(٤). وقال عمران بن سليم^(٥): إنما سُمِّيَ نوحاً عبداً شكوراً؛ لأنه كان إذا أَكَلَ قال: الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء لأجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو شاء لأظماني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء لأعراني، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذاني ولو شاء لأحفاني، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني الأذى ولو شاء لحبسه في^(٦). ومقصود الآية: إنكم من ذرية نوحٍ وقد كان عبداً شكوراً، فأنتم أحقُّ بالافتداء به دون آبائكم الجُهَّال. وقيل: المعنى: أن موسى كان عبداً شكوراً إذ جعله الله تعالى من ذرية نوح^(٧). وقيل: يجوز أن يكون «ذرية» مفعولاً ثانياً لـ «تتخذوا»، ويكون قوله: «وكيلاً» يُرادُّ به الجمعُ، فيسوغُ ذلك في القراءتين جميعاً، أعني الياء والتاء في «تتخذوا». ويجوز أيضاً في القراءتين جميعاً أن يكون «ذرية» بدلاً من قوله: «وكيلاً»؛ لأنه بمعنى

(١) سلف ٣٦٨/٢ من قراءتي زيد بن ثابت، ووقع هنا في (م): عامر بن الواحد.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٧٣/١ - ٣٧٤، والطبري ٤٥٤/١٤، وعندهما: «أخلقه» بدل «نزعته».

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد ص ٦١.

(٤) أخرجه الطبري ٤٥٢/١٤ - ٤٥٣، والحاكم ٣٦٠/٢، والبيهقي في الشعب (٤٤٧١).

(٥) هو قاضي من قضاة حمص، قال فيه مكحول الشامي: ما نزل الشام قاضي مثله. التاريخ الكبير ٤١٢/٦.

(٦) أخرجه الطبري ٤٥٣/١٤ - ٤٥٤.

(٧) النكت والعيون ٢٢٨/٣.

الجمع، فكأنه قال: لا تَتَّخِذُوا ذُرِيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ. ويجوزُ نصبُها بإضمار أعني وأمدحُ، والعرب قد تنصبُ على المدح والذمِّ. ويجوز رفعُها على البدل من المضمَر في «تَتَّخِذُوا» في قراءة من قرأ بالياء، ولا يحسُنُ ذلك لمن قرأ بالتاء؛ لأنَّ المخاطَب لا يُبدَلُ منه الغائب^(١). ويجوزُ جرُّها على البدل من بني إسرائيل في الوجهين. فأما «أن» من قوله: «ألا تتخذوا» فهي على قراءة من قرأ بالياء في موضع نصبٍ بحذف الجار، التقدير: هديناهم لئلا يتخذوا. ويصلحُ على قراءة التاء أن تكون زائدة، والقولُ مضمَرٌ كما تقدَّم. ويصلحُ أن تكون مفسَّرةً بمعنى أي، لا موضع لها من الإعراب، وتكون «لا» للنهي، فيكون خروجاً من الخبر إلى النهي^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلَنَّٰ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ وقرأ سعيد بن جبير وأبو العالية: «في الكتاب» على لفظ الجمع^(٣). وقد يرُدُّ لفظ الواحد ويكون معناه الجمع، فتكون القراءةان بمعنى واحد. ومعنى «قَضَيْنَا»: أعلمنا وأخبرنا. قاله ابن عباس^(٤). وقال قتادة: حكمنا^(٥). وأصل القضاء الإحكام للشيء والفراغ منه^(٦). وقيل: قضينا أوحينا^(٧)؛ ولذلك قال: «إلى بني إسرائيل». وعلى قول قتادة يكون «إلى» بمعنى

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢٢٦/٣، وإعراب القرآن للنحاس ٤١٤/٢، ومشكل إعراب القرآن ٤٢٧/١-٤٢٨، والبيان ٨٦/٢، وزادوا وجهاً آخر، وهو نصب على النداء لمن قرأ: «تتخذوا» بالتاء.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٤٢٨/١ - ٤٢٩، وزاد وجهاً ثالثاً لمن قرأ: «تتخذوا» بالتاء، وهو أن تكون (أن) في موضع نصب، و(لا) زائدة، والمعنى: كراهة أن تتخذوا.

(٣) القراءات الشاذة ص ٧٤ - ٧٥.

(٤) زاد المسير ٧/٥.

(٥) النكت والعيون ٢٢٨/٣.

(٦) ينظر تهذيب اللغة ٢١٣/٩.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٢٢٧/٣، والوسيط ٩٧/٣.

على، أي: قضينا عليهم وحكمنا. وقاله ابن عباس أيضاً. والمعني بالكتاب: اللوح المحفوظ^(١).

﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ وقرأ ابن عباس: «لَتُفْسِدُنَّ». عيسى التَّقْفِي: «لَتُفْسِدُنَّ». والمعنى في القراءتين قريب؛ لأنهم إذا أفسدوا فسدوا^(٢). والمراد بالفساد: مخالفة أحكام التوراة^(٣). ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يريد أرض الشام وبيت المقدس وما والاها^(٤). ﴿مَرَّتَيْنِ وَلَعَلَّنَّ﴾ اللام في «لَتُفْسِدُنَّ وَلَعَلَّنَّ» لام قسم مُضْمَرٍ كما تقدم^(٥). ﴿عَلَّوْا كَيْدًا﴾ أراد التكبر والبغي والطغيان والاستطالة والغلبة والعدوان.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي: أولى المرّتين من فسادهم^(٦). ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: هم أهل بابل، وكان عليهم بُخْتَنْصَرُ في المرة الأولى حين كذبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه. قاله ابن عباس وغيره^(٧). وقال قتادة: أرسل عليهم جالوت فقتلهم، فهو وقومه أولو بأسٍ شديد^(٨). وقال مجاهد: جاءهم جندٌ من فارس يتجسسون أخبارهم ومعهم بُخْتَنْصَرُ، فَوَعَى حديثهم من بين أصحابه، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال، وهذا في المرة الأولى^(٩)، فكان منهم جوسٌ

(١) زاد المسير ٧/٥.

(٢) المحتسب ١٤/٢. وهما قراءتان شاذتان.

(٣) الوسيط ٩٧/٣، وزاد المسير ٧/٥.

(٤) تفسير البغوي ١٠٦/٣.

(٥) ١١٦/١٢.

(٦) النكت والميون ٢٢٩/٣.

(٧) تفسير الطبري ٤٧٢/١٤ - ٤٧٥ من رواية سعيد بن جبير.

(٨) أخرجه بنحوه الطبري ٤٧٢/١٤.

(٩) أخرجه الطبري ٤٧٦/١٤.

خلال الديار لا قتل. ذكره القشيري أبو نصر. وذكر المهدي عن مجاهد أنه جاءهم بُخْتَنَصْرُ فهزمه بنو إسرائيل، ثم جاءهم ثانية فقتلهم ودمرهم تدميراً. ورواه ابن أبي نجيع عن مجاهد. ذكره النحاس^(١). وقال محمد بن إسحاق في خبر فيه طول: إنَّ المهزوم سَنَحَارِيبَ ملك بابل، جاء ومعه ستُّ مئة ألف راية، تحت كلِّ راية مئة ألف فارس، فنزل حول بيت المقدس، فهزمه الله تعالى، وأمات جميعهم إلا سَنَحَارِيبَ وخمسة نفر من كتَّابه، وبعث ملك بني إسرائيل - واسمه صِدِّيقَة - في طلب سَنَحَارِيبَ، فأخذ مع الخمسة، أحدهم بُخْتَنَصْرُ، فطرح في رقابهم الجوامع، وطاف بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس وإيلياء، ويرزقهم كلَّ يوم خُبْزَتَيْنِ من شعير لكلِّ رجلٍ منهم، ثم أطلقهم، فرجعوا إلى بابل، ثم مات سَنَحَارِيبَ بعد سبع سنين، واستُخْلِفَ بُخْتَنَصْرُ، وعظمت الأحداث في بني إسرائيل، واستحلُّوا المحارمَ، وقتلوا نبيَّهم شُعْيَا، فجاءهم بُخْتَنَصْرُ ودخل هو وجنوده بيت المقدس، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم^(٢). وقال ابن عباس وابن مسعود: أوَّلُ الفساد قتلُ زكريا^(٣). وقال ابن إسحاق: فسأدهم في المرة الأولى قتلُ شُعْيَا نبيِّ الله في الشجرة؛ وذلك أنه لما مات صِدِّيقَة مَلِكُهُمْ مَرَجَ أمرهم وتنافسوا على المُلْكِ وقتل بعضهم بعضاً، وهم لا يسمعون من نبيَّهم؛ فقال الله تعالى له: قُمْ في قومك أَوْحِ على لسانك، فلما فرغ ممَّا أوحى الله إليه عَدُوا عليه ليقتلوه، فهرب، فانفلقت له شجرة فدخلَ فيها، وأدركه الشيطانُ، فأخذ هُدْبَةً من ثوبه فأراهم إيَّاهَا، فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها^(٤). وذكر ابن إسحاق أنَّ بعض العلماء أخبره أنَّ زكريا مات موتاً

(١) في معاني القرآن له ١٢٢/٤ .

(٢) أخرجه الطبري ٤٥٩/١٤ - ٤٦٨ . والجوامع جمع جامعة: وهي الغُلُّ؛ لأنها تجمع اليدين إلى العنق. الصحاح (جمع).

(٣) أخرجه الطبري ٤٥٦/١٤ - ٤٥٧ .

(٤) هو تمة رواية ابن إسحاق السابقة. مَرَجَ الأمر: اختلط. الصحاح (مرج).

ولم يُقْتَلْ، وإنما المقتول شَعِيًّا^(١).

وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾: هو سَنَحَارِيْبٌ من أهل نَيْنَوَى بالمَوْصِل ملكٌ بابل. وهذا خلاف ما قال ابن إسحاق، فאלله أعلم. وقيل: إنهم العمالقة وكانوا كُفَّارًا. قاله الحسن^(٢).

ومعنى جاسوا: عاثوا وقتلوا، وكذلك جاسوا وهاسوا وداسوا. قاله ابن عَزِيز، وهو قول القُتَيْبِيِّ^(٣). وقرأ ابن عباس: «حاسوا» بالحاء المهملة^(٤). قال أبو زيد: الحَوَسُ والحَجُوسُ والعَوَسُ والهَوَسُ: الطواف بالليل. وقال الجوهري^(٥): الحَجُوسُ مصدرٌ قولك: جاسوا خلال الديار، أي: تخلَّلوها فطلبوا ما فيها، كما يجوس الرجلُ الأخبار، أي: يطلبها، وكذلك الاجتِياس. والجَوَسَان - بالتحريك -: الطَّوْفَان بالليل. وهو قول أبي عبيدة^(٦). وقال الطبري^(٧): طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين. فجمع بين قولي^(٨) أهل اللغة. قال ابن عباس: مشوا وتردَّدوا بين الدُّور والمساكن^(٩). وقال الفراء: قتلوكم بين بيوتكم^(١٠). وأنشِدَ لحَسَّان:

(١) أخرجه أيضاً الطبري ٤٦٩/١٤ .

(٢) زاد المسير ٩/٥ .

(٣) في غريب القرآن ص ٢٥١ ، وعنده: أي: عاثوا بين الديار وأفسدوا، يقال: جاسوا وحاسوا، فهم يجوسون ويحوسون.

(٤) ذكر في المحتسب ١٥/٢ هذه القراءة لأبي السَّمَّال. وهي قراءة شاذة.

(٥) في الصحاح (جوس).

(٦) نقل الماوردي في النكت و العيون ٣/ ٢٣٠ عن أبي عبيدة أنه قال: معناه: فَتَشَّوا وطلبوا خلال الديار. وذهب الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٢٧ إلى مثل قول الجوهري.

(٧) في تفسيره ٤٧١/١٤ .

(٨) في (م) و(د): قول.

(٩) تفسير الطبري ٤٧٠/١٤ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٢٩ .

(١٠) معاني القرآن للفراء ١١٦/٢ .

ومئاً الذي لاقى بسيف محمد فجاس به الأعداء عَرْضَ العساكر
وقال قطرب: نزلوا؛ قال:

فَجُسْنَا ديارَهُمْ عَنوةً وَأُبْنَا بَساداتِهِمْ مُوثِقينا^(١)
﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ أي: قضاء كائنًا لا خُلْفَ فيه^(٢).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الدولة والرجعة؛ وذلك لما بُثِمَ وأطعتم^(٣). ثم قيل: ذلك بقتل داود جالوت أو بقتل غيره، على الخلاف في من قتلهم^(٤). ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ حتى عاد أمركم كما كان. ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي: أكثر عدداً ورجالاً من عدوكم^(٥). والنفير: مَنْ يَنْفِرُ مع الرجل من عشيرته؛ يقال: نفير ونافر، مثل: قدير وقادر^(٦). ويجوز أن يكون النفير جمع نَفَر كالكليب والمعيز والعبيد^(٧)؛ قال الشاعر:

فَأَكْرِمَ بِقَحْطَانٍ مِنَ الْوَيْدِ وَجَمِيرَ أَكْرِمٍ بِقَوْمٍ نَفِيرًا^(٨)
والمعنى: أنهم صاروا بعد هذه الواقعة الأولى أكثر انضماماً وأصلح أحوالاً، جزاءً من الله تعالى لهم على عَوْدِهِم إلى الطاعة.

(١) النكت والعيون ٢٢٩/٣ - ٢٣٠.

(٢) تفسير البغوي ١٠٦/٣.

(٣) تفسير أبي الليث ٢٦٠/٢، وتفسير البغوي ١٠٦/٣، وزاد المسير ١٠/٥.

(٤) النكت والعيون ٢٣٠/٣، وزاد المسير ١٠/٥.

(٥) الوجيز على هامش مراح لبيد ٤٧٢/١.

(٦) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٥١.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٢٢٨/٣، ومعاني القرآن للنحاس ١٢٤/٤.

(٨) قائله تبع بن بكر الحميري كما في النكت والعيون ٢٣٠/٣، والمحضر الوجيز ٤٣٩/٣ - ٤٤٠.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عَلَوُا تَتْبِرًا ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: نفعُ إحسانكم عائدٌ عليكم. ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فعلِها^(١)، نحو: سلامٌ لك، أي: سلامٌ عليك. قال: * فخرٌ صريعاً لليدين وللنفس^(٢) *

أي: على اليدين وعلى النفس. وقال الطبري^(٣): اللام بمعنى إلى، يعني: وإن أسأتم فإليها، أي: فإليها ترجع الإساءة؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْنْ رَبُّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] أي: إليها. وقيل: فلها الجزاء والعقاب^(٤). وقال الحسين بن الفضل: فلها ربٌّ يغفر الإساءة.

ثم يحتمل أن يكون هذا خطاباً لبني إسرائيل في أول الأمر؛ أي: أسأتم فحلَّ بكم القتلُ والسَّبيُّ والتَّخريبُ، ثم أحسنتم فعاد إليكم الملك والعُلُوُّ وانتظامُ الحال. ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو إسرائيل في زمن محمد ﷺ^(٥)، أي: عرفتم استحقاقَ أسلافكم للعقوبة على العصيان فارتقبوا مثله. أو يكون خطاباً لمشركي قريش على هذا الوجه.

(١) مجمع البيان ١٦/١٥ .

(٢) عجز لبيت، صدره: وهتكت بالرمح الطويل إهابه. ينظر أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٥١١، وعجز البيت اختلف على صدره اختلافاً كبيراً، وكذلك اختلف على قائله، فيقال: هو لجابر بن خني كما في المفضليات ص ٢١٢، ويقال: للمقشعر بن جديع النصري كما في الحماسة البصرية ٦٩/١، ويقال: لربيعة بن مُكْدَم كما في زهر الأكم ١٠٤/١، ويقال: لعصام بن مقشعر البصري، أو لشداد بن معاوية العيسي، أو لكعب بن مدلج الأسدي، أو للأشتر النخعي كما في معجم الشعراء ص ١١٤، ويقال: لكعب بن حدير كما في شرح أدب الكاتب للجواليقي ص ٣٥٩، ويقال: للمكعب الأسدي، أو للمكعب الضبي، أو لشريح بن أوفى، أو للأشعث بن قيس كما في الاقتضاب ص ٤٣٩، ويقال غير ذلك.

(٣) في تفسيره ٤٧٨/١٤ .

(٤) تفسير البغوي ١٠٦/٣ .

(٥) مجمع البيان ١٦/١٥ .

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ من إفسادكم، وذلك أنهم قتلوا في المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما السلام، قتله ملك من بني إسرائيل يقال له لاخت. قاله القُتَيْبِيُّ. وقال الطبري: اسمه هيردوس. ذكره في التاريخ^(١)، حمله على قتله امرأة اسمها أزييل^(٢). وقال السُّدِّي: كان ملك بني إسرائيل يُكْرِمُ يحيى بن زكريا ويستشير به في الأمر، فاستشاره الملك أن يتزوَّج بنت امرأة له، فنهاه عنها وقال: إنها لا تحِلُّ لك، فحقدت أمُّها على يحيى عليه السلام، ثم أَلْبَسَتْ ابنتها ثياباً حُمْراً رَقَاقاً، وطَيَّيْتها وأرسلتها إلى الملك وهو على شرا به، وأمرتها أن تتعرَّضَ له، وإن أرادها أثبت حتى يُعْطِيَهَا ما تسألُه، فإذا أجاب سألت أن يؤتى برأس يحيى بن زكريا في طَسَّتْ من ذهب، ففعلت ذلك، حتى أتى برأس يحيى بن زكريا والرأس يتكلَّم، حتى وُضِعَ بين يديه وهو يقول: لا تحِلُّ لك، لا تحِلُّ لك، فلمَّا أصبح إذ دُمُه يَغْلِي، فألقى عليه التراب فغلى فوقه، فلم يزل يلقي عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يَغْلِي. ذكره الثعلبي وغيره^(٣). وذكر ابن عساكر الحافظ في «تاريخه» عن الحسين بن علي قال: كان ملك من هذه الملوك مات وترك امرأته وابنته، فورث مَلَكُه أخوه، فأراد أن يتزوَّج امرأة أخيه، فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك - وكانت الملوك في ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء - فقال له: لا تتزوَّجها فإنها بَغِيٌّ، فعرفت ذلك المرأة أنه قد ذكرها وصرَّفه عنها، فقالت: من أين هذا؟ حتى بلغها أنه من قِبَلِ يحيى، فقالت: لَيَقْتُلَنَّ يحيى أو ليُخْرِجَنَّ من ملكه، فعمدت إلى ابنتها وصنَّعتها، ثم قالت: اذهبي إلى عمك عند المَلَأ فإنه إذا رَأَى سيدعوك ويُجْلِسُكَ في حَجَرِه، ويقول: سليني ما شئت، فإنك لن تسأليني شيئاً إلا أعطيتُك، فإذا قال لك ذلك فقولي: لا أسأل إلا رأس يحيى. قال: وكانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشيء على رؤوس المَلَأ ثم لم يَمُضْ له

(١) ٥٩٠/١، وفي (م) و(د): هردوس، والمثبت من تاريخ الطبري، ومن باقي النسخ الخطية.

(٢) تفسير البغوي ٣٦/٤.

(٣) الثعلبي في عرائس المجالس ص ٣٨٢، وأخرجه الطبري ٤٨٠/١٤ - ٤٨١.

نَزَعَ من ملكه، ففعلت ذلك. قال: فجعل يأتيه الموت من قتله يحيى، وجعل يأتيه الموت من خروجه من ملكه، فاختر ملكه فقتله. قال: فساخَتْ بأمِّها الأرضُ. قال ابن جُدعان: فحدَّثْتُ بهذا الحديث ابنَ المُسيَّبِ فقال: أفما أخبرَكَ كيف كان قَتْلُ زكريا؟ قلت: لا. قال: إِنَّ زكريا حيث قُتِلَ ابنُه انطلقَ هارباً منهم، وأتبعوه حتى أتى على شجرة ذاتِ ساقٍ، فدَعَتْهُ إليها، فانطَوَّت عليه، وبقيت من ثوبه هُدْبَةٌ تكفَّتْها الرياح، فانطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثره بعدها، ونظروا بتلك الهُدْبَةِ، فدَعَوْا بالمنشار، فقطعوا الشجرة فقطعوه معها^(١).

قلت: وقع في «التاريخ الكبير» للطبري^(٢): فحدَّثني أبو السائب قال: حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: بعَثَ عيسى ابنُ مريم يحيى بنَ زكريا في اثني عشر من الحواريِّين يُعلِّمون الناس. قال: كان فيما نَهَوْهم عنه نكاحُ ابنةِ الأخ. قال: وكان لمليحهم ابنةٌ أخٍ تُعجبه... وذكر الخبر بمعناه. وعن ابن عباس قال: بُعِثَ يحيى بنُ زكريا في اثني عشر من الحواريِّين يُعلِّمون الناس، وكان فيما يُعلِّمونهم ينهونهم عن نكاح بنتِ الأخت، وكان لمليحهم بنتُ أُخْتٍ تُعجبه، وكان يريد أن يتزوَّجها، وكان لها كلُّ يوم حاجةٌ يقضيها، فلما بلغ ذلك أمُّها أنهم نهَوْا عن نكاح بنتِ الأخت قالت لها: إذا دخلتِ على الملكِ فقال: أَلَيْكَ حاجةٌ؟ فقولِي: حاجتي أن تذبج يحيى بن زكريا، فقال: سليمانى سوى هذا. قالت: ما أسألك إلا هذا. فلَمَّا أَبَتْ عليه دعا بِطُسْتٍ ودعا به فذبجه، فنَدَرَتْ قطرةٌ من دمه على وجه الأرض، فلم تزل تَغْلِي حتى بعَثَ اللهُ عليهم بُخْتَنَصْرَ، فَأُلْقِيَ في نفسه أن يَقْتُلَ على ذلك الدَّمِ منهم حتى يسكن ذلك الدم، فَقَتَلَ عليه منهم سبعين ألفاً، وفي رواية: خمسةٌ وسبعين ألفاً^(٣). قال سعيد بن المُسيَّب: هي دِيَّةُ كل نبيٍّ^(٤). وعن ابن عباس

(١) تاريخ دمشق ٢٠٦/٦٤، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. تهذيب التهذيب ١٦٢/٣ - ١٦٤.

(٢) ٥٨٦/١.

(٣) أخرجه ابن عساكر ٢٠٧/٦٤، وهو من نفس الطريق الذي رواه الطبري.

(٤) أخرجه ابن عساكر ٢١٠/٦٤، وفيه: سعيد بن عبد العزيز بدل ابن المسيب.

قال: أوحى الله إلى محمد ﷺ أنني قتلْتُ يحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وإنني قاتلُ بَابِنِ ابْنَتِكَ سبعين ألفاً وسبعين ألفاً^(١). وعن شِمْر بن عطية قال: قُتِلَ على الصخرة التي في بيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيى بن زكريا^(٢). وعن زيد بن واقد^(٣) قال: رأيتُ رأس يحيى عليه السلام حيث أرادوا بناء مسجد دمشق أخرجَ من تحت ركنٍ من أركان القُبَّةِ التي تلي المحراب مما يلي الشرق، فكانتِ البشرةُ والشعرُ على حاله لم يتغيَّر^(٤). وعن قُرَّة بن خالد^(٥) قال: ما بكَّتِ السماءُ على أحدٍ إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن عليٍّ؛ وحُمِرتُها بكاؤها^(٦). وعن سفيان بن عُيينة قال: أوحشُ ما يكونُ ابنُ آدمَ في ثلاثة مواطن: يومٌ وُلِدَ فيخرجُ إلى دارِهم، وليلةٌ يبيتُ مع الموتى فيُجاوِرُ جيراناً لم يَرَ مثْلهم، ويومٌ يُبعَثُ فيشهدُ مشهداً لم يَرَ مثله؛ قال الله تعالى ليحيى في هذه الثلاثة المواطن: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْثَرُ حَيًّا﴾^(٧) [مريم: ١٥]. كلُّه من التاريخ المذكور.

واختُلِفَ فيمن كان المبعوث عليهم في المرة الآخرة، فقليل: بُخْتَنْصَر. وقاله القشيري أبو نصر، لم يذكر غيره^(٨).

قال السُّهَيْلِيُّ: وهذا لا يصح؛ لأنَّ قَتْلَ يحيى كان بعدَ رَفْعِ عيسى، وبُخْتَنْصَر كان قبل عيسى ابن مريم عليهما السلام بزمانٍ طويل، وقبل الإسكندر، وبين الإسكندر

(١) أخرجه الحاكم ٢/٢٩٠ و ٥٩٢ و ٣/١٧٨، والخطيب في تاريخه ١/١٤٢، وابن عساكر ٤/٢٢٥ و ٢١٦/٦٤، وابن الجوزي في المنتظم ٥/٣٤٦.

(٢) أخرجه ابن عساكر ٦٤/٢١٧، وتحرف اسم شمر في جميع النسخ إلى سمير.

(٣) أبو عمر - ويقال: أبو عمرو - القرشي مولاها، الدمشقي الفقيه. توفي سنة (١٣٨هـ). السير ٦/٢٩٦.

(٤) أخرجه ابن عساكر ٢/٢٤١ و ٦٤/٢١٨.

(٥) الحافظ، أبو خالد، ويقال: أبو محمد السدوسي البصري. توفي سنة (١٥٤هـ). السير ٧/٩٥.

(٦) أخرجه ابن عساكر ٦٤/٢١٧.

(٧) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٥٩٨)، وابن عساكر ٦٤/١٧٤.

(٨) ونقله في النكت والعيون ٣/٢٣٠، وفي زاد المسير ٥/١١ عن مجاهد.

وعيسى نحوًا من ثلاث مئة سنة، ولكنه أريدَ بالمرّة الأخرى حين قتلوا شُعيا، فقد كان بُخْتَنْصَرُ إذ ذاك حيًّا، فهو الذي قتلهم وخرَّبَ بيتَ المقدس، وأتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها^(١).

وقال الثعلبي^(٢): ومن روى أنَّ بُخْتَنْصَرَ هو الذي غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا فغلَّظَ عند أهل السَّيْرِ والأخبار؛ لأنَّهم مُجمعون على أنَّ بُخْتَنْصَرَ إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم شُعيا وفي عهد إزمياء. قالوا: ومن عهد إزمياء وتخریبِ بُخْتَنْصَرَ بيتَ المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا عليهما السلام أربع مئة سنة وإحدى وستون سنة، وذلك أنَّهم يعدُّون من عهد تخریبِ بيت المقدس إلى عمارته في عهد كوسك^(٣) سبعين سنة، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانية وثمانين سنة، ثم من بعد مملكة الإسكندر إلى مولد يحيى ثلاث مئة وثلاثاً وستين سنة^(٤).

قلت: ذكر جميعه الطبري في التاريخ^(٥) رحمه الله. قال الثعلبي^(٦): والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق قال: لَمَّا رَفَعَ اللهُ عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى - وبعض الناس يقول: لَمَّا قتلوا زكريا - بعثَ اللهُ إليهم ملكاً من ملوك بابل يُقال له: خردوس، فسار إليهم بأهل بابل وظهر عليهم بالشام، ثم قال لرئيس جنوده: كنتُ حلفتُ بالهي لئن أظهرني اللهُ على بيت المقدس لأقتلنَّهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري، وأمرَ أن يقتلهم حتى يبلغَ ذلك منهم، فدخل الرئيسُ بيتَ المقدس فوجد

(١) زاد المسير ١١/٥ ، وتفسير الرازي ١٥٨/٢٠ .

(٢) في عرائس المجالس ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٣) في مطبوع العرائس: كربن.

(٤) في مطبوع العرائس: ثلاث مئة وثلاثون سنة.

(٥) ٥٧١/١ - ٥٧٩ .

(٦) ص ٣٤٤ .

فيها دماءٌ تَغلي، فسألهم فقالوا: دُمُ قُرْبَانٍ قَرِيبًا فلم يُتَقَبَّلْ مِنَّا منذ ثمانين^(١) سنة. قال: ما صَدَقْتُموني. فذَبَحَ على ذلك الدم سبع مئة وسبعين رجلاً من رؤسائهم فلم يهدأ، فأمر^(٢) بسبعة آلاف من سَبِيهِمْ^(٣) وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يبرُد، فقال: يا بني إسرائيل، أصدُقوني قبل ألا أترك منكم نافعَ نارٍ من أنثى ولا من ذكرٍ إلا قتلته. فلمَّا رأوا الجَهد قالوا: إنَّ هذا دُمُ نبيٍّ مِنَّا كان ينهانا عن أمورٍ كثيرةٍ من سَخَطِ الله فقتلناه، فهذا دمه، كان اسمه يحيى بن زكريا، ما عصى الله قطُّ طرفه عينٍ ولا همَّ بمعصية. فقال: الآن صدَقْتُموني. وخرَّ ساجداً، ثم قال: لِمِثْلِ هذا يُنتَقَمُ منكم. وأمر بغلق الأبواب وقال: أخرجوا من كان هاهنا من جيش خردوس. وخلا في بني إسرائيل وقال: يا نبيَّ الله، يا يحيى بن زكريا، قد عَلِمَ ربي وربُّكَ ما قد أصاب قومَكَ من أجلك، فاهداً بإذن الله قبل ألا أبقى منهم أحداً. فهذا دُمُ يحيى بن زكريا بإذن الله عزَّ وجلَّ، ورفع عنهم القتل وقال: ربِّ، إني آمَنْتُ بما آمَنَ به بنو إسرائيل وصدَّقْتُ به. فأوحى الله تعالى إلى رأسٍ من رؤوس الأنبياء: إنَّ هذا الرئيس مؤمنٌ صدوق. ثم قال: إنَّ عدوَّ الله خردوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره، وإني لا أعصيه، فأمرهم فحفروا خَنْدَقاً وأمر بأموالهم من الإبل والخيل والبغال والحمير والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم إلى العسكر، وأمر بالقتلى الذين كانوا قُتِلوا قبل ذلك فطَرِحوا على ما قُتِلَ من مواشيهم، ثم انصرف عنهم إلى بابل، وقد كاد أن يُفني بني إسرائيل.

قلت: قد ورد في هذا الباب حديث مرفوع فيه طولٌ من حديث حُذيفة، وقد كتبناه في كتاب «التذكرة»^(٤) مقطَّعاً في أبوابٍ في أخبار المَهْدِيِّ، نذكر منها هنا ما

(١) في مطبوع العرائس: ثمان مئة.

(٢) قبلها في (م): «فأتى بسبع مئة غلام من غلمانهم فذبحوا فلم يهدأ».

(٣) في مطبوع العرائس: بنهم.

(٤) ص ٦٢٠ - ٦٢١.

يُبَيِّنُ معنى الآية ويُفسِّرُها حتى لا يحتاج معه إلى بيان، قال حذيفة: قلت: يا رسول الله، لقد كان بيت المقدس عند الله عظيماً جسيماً الخطرِ عظيمَ القدر. فقال رسول الله ﷺ: «هو من أجل البيوت، ابتناه الله لسليمان بن داود عليهما السلام من ذهبٍ وفضَّةٍ وذرَّ وياقوتٍ وزمردٍ» وذلك أنَّ سليمان بن داود لمَّا بناه سَخَّرَ اللهُ له الجِنَّ فأتوه بالذهب والفضَّة من المعادن، وأتوه بالجواهر والياقوت والزمرد، وسَخَّرَ اللهُ تعالى له الجِنَّ حتى بنوه من هذه الأصناف. قال حذيفة: فقلت: يا رسول الله، وكيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ بني إسرائيل لمَّا عصوا الله وقتلوا الأنبياء سلَّطَ اللهُ عليهم بُخْتَنَصْرَ وهو من المجوس، وكان ملكه سبع مئة سنة، وهو قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ أُولَئِهِمَا بِمَتَىٰ عَلَيْهِمْ لَآئِيَ الْيَوْمِ﴾ فَبَاسُوا شَدِيدَ فَجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ فدخلوا بيت المقدس، وقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال، وأخذوا الأموال وجميع ما كان في بيت المقدس من هذه الأصناف، فاحتملوها على سبعين ألفاً ومئة ألف عَجَلَةٍ حتى أودعوها أرض بابل، فأقاموا يستخدمون بني إسرائيل ويستملكونهم بالخزي والعقاب والنكال مئة عام، ثم إنَّ الله عزَّ وجلَّ رَحِمَهُم، فأوحى إلى ملكٍ من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس في أرض بابل، وأن يستنقِذَ مَنْ في أيديهم من بني إسرائيل، فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل، فاستنقِذَ مَنْ بقي من بني إسرائيل من أيدي المجوس، واستنقِذَ ذلك الحُلِيِّ الذي كان من بيت المقدس، وردَّه الله إليه كما كان أول مرة، وقال لهم: يا بني إسرائيل إنَّ عُدَّتُمْ إلى المعاصي عُدْنَا عليكم بالسَّيِّئِ والقتل، وهو قوله: ﴿عَنَى رَكُوزًا أَن يَرْجَعَهُ وَإِنَّ عُدَّتُمْ عُدْنَا﴾ فلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصي، فسَلَّطَ اللهُ عليهم ملك الروم قَيْصَرَ، وهو قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عَلَوُا تَتَبَرَّكُوا﴾ فغزاهم في البر والبحر، فسباهم وقتلهم، وأخذ أموالهم ونساءهم، وأخذ حُلِيِّ جميع بيت المقدس، واحتمله على سبعين ألفاً ومئة ألف عَجَلَةٍ حتى أودعه في كنيسة الذهب - فهو فيها

الآن - حتى يأخذه المهديُّ فيردّه إلى بيت المقدس ، وهو ألف سفينة وسبع مئة سفينة يُرْسَى بها على يافا ، حتى تُنقل إلى بيت المقدس . وبها يجمع الله الأولين والآخرين...» وذكر الحديث^(١).

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: من المرّتين^(٢)، وجواب «إذا» محذوف، تقديره: بعثناهم، دلّ عليه «بعثنا» الأوّل. ﴿لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ﴾ أي: بالسّبي والقتل فيظهر أثر الحزن في وجوهكم؛ ف«ليسوؤوا» متعلّق بمحذوف، أي: بعثنا عبداً ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم^(٣). قيل: المراد بالوجوه السادة، أي: لِيَذِلُّوَهُمْ^(٤). وقرأ الكسائي: «لنساء» بنون وفتح الهمزة، فعلٌ مُخْبِرٌ عن نفسه مُعْظَمٌ؛ اعتباراً بقوله: «وقضينا» و«بعثنا» و«رددنا» ونحوه عن عليّ. وتصديقها قراءة أبيّ: «لنساء» بالنون وحرف التوكيد^(٥). وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثّاب وحمزة وابن عامر: «ليسوء» بالياء على التوحيد وفتح الهمزة^(٦)، ولها وجهان: أحدهما: ليسوء الله

(١) أخرجه بنحوه الطبري ١٤/٤٥٧ - ٤٥٩ عن عصام بن رواد، عن أبيه رواد بن الجراح، عن سفيان الثوري، عن منصور بن المعتمر، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة. عصام بن رواد ليّنه أبو أحمد الحاكم فيما ذكره الذهبي في الميزان ٣/٦٦. ورواد بن الجراح قال فيه ابن حجر في التّريب: اختلط بأخرة فترك، وفي حديثه عن الثوري ضعف شديد. وقال ابن كثير متعقّباً الطبري: هو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث، والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته، وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي رحمه الله بأنّه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب.

(٢) المحرر الوجيز ٣/٤٤٠.

(٣) ينظر الوسيط ٣/٩٧ - ٩٨.

(٤) ينظر مجمع البيان ١٤/١٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/٤١٦، والمحرر الوجيز ٣/٤٤٠، وينظر الوسيط ٣/٩٨، وقراءة الكسائي في السبعة ص ٣٧٨، والتيسير ص ١٣٩، وأما قراءة أبيّ فقد ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٧٥، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/١٥: «لنساء» بالتّوين. وقال النحاس في المعاني ٤/١٢٥: بالنون الخفيفة واللام المفتوحة والوقف عليه مثل: «لنسفاً».

(٦) النشر ٢/٣٠٦، وإعراب القرآن للنحاس ٢/٤١٦، والمحرر الوجيز ٣/٤٤٠.

وجوهكم. والثاني: ليسوء الوعد وجوهكم^(١). وقرأ الباقون: «ليسوؤوا» بالياء وضمّ الهمزة على الجمع، أي: ليسوء العباد الذين هم أولو بأسٍ شديد وجوهكم^(٢).

﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا﴾ أي: ليُدْمروا ويُهْلِكوا. وقال

قُطْرُب: يهدموا؛ قال الشاعر:

فما الناسُ إلا عاملانِ فعاملٌ يُتَبَرُّ ما يَبْنِي وآخرُ رافع^(٣)

﴿مَا عَلَوْا﴾ أي: غلبوا عليه من بلادكم ﴿تَنْبِيْرًا﴾^(٤).

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُثِرْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ

حَصِيرًا ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ وهذا مما أخبروا به في كتابهم. و«عسى» وعدٌ من الله أن يكشف عنهم، و«عسى» من الله واجبة. ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد انتقامه منكم، وكذلك كان؛ فكثّر عددهم وجعل منهم الملوك. ﴿وَإِنْ عُثِرْتُمْ عُدْنَا﴾ قال قتادة: فعادوا، فبعث الله عليهم محمداً ﷺ، فهم يُعطون الجزية بالصَّغار. ورُوي عن ابن عباس^(٥). وهذا خلاف ما تقدّم في الحديث وغيره. وقال القُشَيْرِيُّ: وقد حلَّ العقاب ببني إسرائيل مرتين على أيدي الكفار، ومرّةً على أيدي المسلمين. وهذا حين عادوا فعاد الله عليهم، وعلى هذا يصحُّ قولُ قتادة.

(١) معاني القرآن للفراء ١١٦/٢ - ١١٧ وعنده في الوجه الثاني: ليسوء العذاب وجوهكم. والوسيط ٩٨/٣ ، وزاد المسير ١١/٥ ، وعندهما: ليسوء البعث وجوهكم.

(٢) تفسير الطبري ٤٧٨/١٤ - ٤٧٩ ، وتفسير البغوي ١٠٦/٣ ، وينظر السبعة ص ٣٧٨ ، والتيسير ص ١٣٩ .

(٣) النكت والعيون ٢٣١/٣ ، والبيت قائله ليبد، وهو في ديوانه ص ٨٩ .

(٤) تفسير الطبري ٥٠٤/١٤ ، وتفسير البغوي ١٠٧/٣ .

(٥) النكت والعيون ٢٣١/٣ ، والوسيط ٩٨/٣ ، وتفسير البغوي ١٠٧/٣ ، ومجمع البيان ١٨/١٤ ، وزاد المسير ١١/٥ - ١٢ . وقول ابن عباس مختصر، أخرجه الطبري ٥٠٦/١٤ ، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٧٣/١ ، وفي مصنفه (٩٨٨٢)، والطبري ٥٠٦/١٤ .

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: مخبئاً وسجنًا، من الحَصْر وهو الحبس^(١). قال الجوهري: يُقال: حصره يحصره حصراً: ضيق عليه وأحاط به. والحصير: الضيق البخيل. والحصير: الباريّة. والحصير: الجنب، قال الأضْمَعِيُّ: هو ما بين العِرْقِ الذي يظهر في جنب البعير والفرس معترضاً فما فوقه إلى مُنْقَطَعِ الجنب. والحصير: الملك؛ لأنه محجوب. قال لبيد:

وقمائم غلب الرقاب كأنهم جنٌ لدى بابِ الحصير قيامٌ
ويُروى:

* ومقامة غلب الرقاب^(٢) ... *

على أن يكون «غلب» بدلاً من «مقامة» كأنه قال: ورُبَّ غلبِ الرقاب. وروى غير^(٣) أبي عبيدة:

* ... لدى طرفِ الحصير قيامٌ *

أي: عند طرف البساط للنعمان بن المنذر. والحصير: المخبئ؛ قال الله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾^(٤). قال القشيري: ويقال للذي يُفترش: حصير؛ لَحَصْرٍ بعضه على بعض بالنسج. وقال الحسن: أي: فراشاً ومهاداً^(٥). ذهب إلى الحصير الذي يُفترش؛ لأنَّ العرب تسمي البساط الصغير حصيراً^(٦). قال الثعلبي: وهو وجه حسن^(٧).

(١) معاني القرآن للزجاج ٢٢٨/٣ ، وتفسير أبي الليث ٢٦١/٢ ، والنكت والعيون ٢٣١/٣ ، والوسيط ٩٨/٣ ، والمححر الوجيز ٤٤٠/٣ ، وزاد المسير ١٢/٥ ، وهو قول ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم ، وأخرجه عنهم الطبري ٥٠٧/١٤ - ٥٠٨ .

(٢) وهكذا في ديوانه ص ١٦١ .

(٣) في (م) و(د) و(ز): عن.

(٤) الصحاح (حصر)، ومن قوله: «الحصير: الملك» إلى نهاية البيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٧١/١ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٧٤/١ ، والطبري ٥٠٨/١٤ .

(٦) تفسير الطبري ٥٠٩/١٤ .

(٧) وكذا قال الطبري.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْمِعْرَاجَ ذَكَرَ مَا قَضَى إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ ذَلِكَ دِلَالَةً عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ سَبَبُ اهْتِدَاءٍ. وَمَعْنَى ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أَي: الطَّرِيقَةُ الَّتِي هِيَ أَسَدُّ وَأَعْدَلُ وَأَصُوبٌ، فَ«الَّتِي» نَعَتْ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ، أَي: الطَّرِيقَةُ إِلَى نَصِّ أَقْوَمٍ^(١). وَقَالَ الزَّجَاجُ^(٢): لِلْحَالِ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ الْحَالَاتِ، وَهِيَ تَوْحِيدُ اللَّهِ، وَالْإِيمَانُ بِرَسُولِهِ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ وَالْفَرَّاءُ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ تَقَدَّمَ^(٤). ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أَي: بِأَنَّ لَهُمْ ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أَي: الْجَنَّةَ. ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أَي: وَيُبَشِّرُهُمْ بِأَنَّ لَأَعْدَائِهِمُ الْعِقَابَ. وَالْقُرْآنُ مُعْظَمُهُ وَعْدٌ وَوَعِيدٌ. وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ: «وَيُبَشِّرُ» مَخْفَفًا بَفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّ الشَّيْنِ، وَقَدْ ذُكِرَ^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: هُوَ دُعَاءُ الرَّجُلِ عَلَى نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ عِنْدَ الضُّجُرِ بِمَا لَا يُحِبُّ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ: اللَّهُمَّ أَهْلِكْهُ، وَنَحْوَهُ. ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أَي: كَدَعَايِهِ رَبَّهُ أَنْ يَهَبَ لَهُ الْعَافِيَةَ، فَلَوْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِالشَّرِّ هَلَكَ، لَكِنْ بِفَضْلِهِ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ فِي ذَلِكَ^(٦). نَظِيرُهُ: ﴿وَلَوْ يُعْجِلُ

(١) تفسير الرازي ١٦١/٢٠ .

(٢) في معاني القرآن ٣/٢٢٩ .

(٣) معاني القرآن للفراء ١١٧/٢ ، ونقله في النكت والعيون ٣/٢٣٢ عن الكلبى .

(٤) ٣٥٨/١ - ٣٥٩ .

(٥) ١١٣/٥ .

(٦) تفسير الطبرى ٥١٢/١٥ .

اللَّهُ لِلنَّاسِ أَلْسَرَ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ ﴿١﴾ وقد تقدّم (١).

وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، كان يدعو ويقول: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» (٢). وقيل: هو أن يدعو في طلب المحظور كما يدعو في طلب المباح (٣)، قال الشاعر وهو ابن جاع:
أطوف بالبيت فيمن يطوف وأرفع من مئزري المسبل
وأسجد بالليل حتى الصباح وأتلو من المحكم المنزل
عسى فارح الهمة عن يوسف يسخر لي ربّة المحمل (٤)
قال الجوهري (٥): يقال: ما على فلان محمل، مثال مجلس، أي: معتمد.
والمحمل أيضاً: واحد محامل الحاج. والمحمل مثال الميرجل: علاقة السيف.

وحذفت الواو من «ويذع الإنسان» في اللفظ والخط ولم تحذف في المعنى؛ لأن موضعها رفع، فحذفت لاستقبالها اللام الساكنة، كقوله تعالى: ﴿سَنَعُ الزَّيَّاتَةَ﴾ [العلق: ١٨]، ﴿وَيَمَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤]، ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّادُ﴾ [ق: ٤١]، ﴿فَمَا تَعْنِ النَّذْرُ﴾ (٦) [القمر: ٥].

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ أي: طبعه العجلة (٧)، فيعجل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير (٨). وقيل: أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تُركب فيه الروح على

(١) ٤٦١/١٠.

(٢) نقله في زاد المسير ١٣/٥ عن مقاتل.

(٣) مجمع البيان ٢٠/١٥.

(٤) الأبيات في عيون الأخبار ٩١/٤ - ٩٢، والعقد الفريد ٩/٦ - ١٠.

(٥) في الصحاح (حمل).

(٦) معاني القرآن للفراء ١١٧/٢ - ١١٨، وليس عنده آية الشورى.

(٧) تفسير البغوي ٣/٢٤٤.

(٨) الوسيط ٣/٩٩.

الكمال^(١). قال سلمان: أَوَّلُ ما خلقَ الله تعالى من آدم رأسه، فجعلَ ينظر وهو يُخلَقُ جسده، فلما كان عند العصر بقيت رجلاه لم يُنفَخَ فيهما الروحُ، فقال: يا ربَّ عَجِّلْ قبل الليل؛ فذلك قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(٢). وقال ابن عباس: لما انتهت النفخة إلى سُرَّتِه نظر إلى جسده، فذهب لينهض فلم يقدر، فذلك قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(٣). وقال ابن مسعود: لَمَّا دخل الروحُ في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلَمَّا دخل في جوفه اشتهى الطعام، فوثبَ قبل أن يبلغَ الروحُ رجليه عَجَلانَ إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ذكره البيهقي^(٤). وفي «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك، أن رسولَ الله ﷺ قال: «لَمَّا صَوَّرَ الله تعالى آدمَ في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعلَ إبليسُ يُطِيفُ به ينظرُ ما هو، فلما رآه أجوفَ عَرَفَ أنه خُلِقَ خلقاً لا يتمالك» وقد تقدّم^(٥). وقيل: سلَّمَ عليه الصلاة والسلام أسيراً إلى سودة، فبات يئنُّ، فسألته فقال: أنيني لِشِدَّةِ القِدِّ والأسر. فأرخت من كتافه، فلما نامت هرب، فأخبرت النبي ﷺ، فقال: «قطعَ الله يديك» فلما أصبحت كانت تتوقَّع الآفة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إني سألتُ الله تعالى أن يجعلَ دعائي على من لا يستحيُّ من أهلي رحمةً؛ لأنني بشرٌ أغضبُ كما يغضبُ البشر» ونزلت الآية. ذكره القشيري أبو نصر رحمه الله^(٦). وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ يَغْضَبُ كما يغضبُ البشرُ، وإني قد اتَّخَذْتُ عندَكَ عهداً لن تُخْلِفَنِيهِ، فأَيُّما مؤمِنٍ آذِيْتُهُ أو سَبَيْتُهُ أو جلدتُهُ فاجعلْها

(١) النكت والعيون ٢٣٣/٣، ومجمع البيان ٢١/١٥.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١١٠/١٤ - ١١١، والطبري ٥١٤/١٤.

(٣) أخرجه الطبري ٥١٤/١٤.

(٤) في الأسماء والصفات (٧٧٣)، وقد تقدم مطولاً ٤١٧/١ - ٤١٩.

(٥) صحيح مسلم (٢٦١١)، وسلف ٢٠٧/١٢.

(٦) وذكره الزجاج في معاني القرآن ٢٢٩/٣، والرازي في تفسيره ١٦٢/٢٠، وفي رواية أن المستودعة هي عائشة رضي الله عنها كما في المسند (٢٤٢٥٩) ومسند إسحاق بن راهويه (١١٢٥)، وسنن البيهقي ٨٩/٩، وفي رواية أخرى أنها حفصة كما في المسند (١٢٤٣١)، والأحاديث المختارة (١٦٢٠).

له كفارة وقُرْبَةٌ تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١). وفي الباب عن عائشة وجابر^(٢).

وقيل: معنى ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْبُولًا﴾ أي: يؤثر العاجل وإن قلَّ، على الآجل وإن جَلَّ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّاعَاتِ وَالْحِسابِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ أي: علامتين على وحدانيتنا ووجودنا وكمال علمنا وقدرتنا، والآية فيهما: إقبال كل واحد منهما من حيث لا يعلم، وإدباره إلى حيث لا يعلم، ونقصان أحدهما بزيادة الآخر وبالعكس آية أيضاً، وكذلك ضوء النهار وظلمة الليل. وقد مضى هذا^(٥).

﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ ولم يقل: فمحونا الليل، فلما أضاف الآية إلى الليل والنهار دلَّ على أنَّ الآيتين المذكورتين لهما لاهما^(٥). و«مَحَوْنَا» معناه: طمسنا^(٦). وفي الخبر: أنَّ الله تعالى أمر جبريل عليه السلام فأمر جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء، وكان كالشمس في النور، والسواد الذي يرى في القمر من أثر المحو. قال ابن عباس: جعل الله الشمس سبعين جزءاً والقمر سبعين جزءاً، فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءاً، فجعله مع نور الشمس، فالشمس على مئة وتسع^(٧) وثلاثين جزءاً والقمر على جزء واحد. وعنه أيضاً: خلق الله شمسين من نور عرشه، فجعل ما سبق

(١) صحيح مسلم (٢٦٠١)، وأخرجه أحمد (٧٣١١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤١٧٩)، ومسلم (٢٦٠٠) عن عائشة، وأحمد (١٤٧٥٠)، ومسلم (٢٦٠٢) عن جابر.

(٣) ينظر تفسير الرازي ١٦٢/٢٠.

(٤) ٤٩٠/٢ - ٤٩٤.

(٥) ينظر الكشف ٤٤٠/٢.

(٦) الوسيط ٩٨/٣.

(٧) كلمة (وتسع) ليست في النسخ، وأثبتت من المصادر؛ إذ لا يستقيم المعنى إلا بإثباتها.

في علمه أن يكون شمساً مثل الدنيا على قَدْرِها ما بين مشارقها إلى مغاربها ، وجعل القمرَ دون الشمس ، فأرسل جبريلَ عليه السلام فأمرَ جناحَه على وجهه ثلاث مرات - وهو يومئذٍ شمسٌ - فطُمِسَ ضوءُه وبقي نورُه ؛ فالسواد الذي ترونه في القمر أثرُ المحو ، ولو تركه شمساً لم يُعرفَ الليلُ من النهار. ذكر عنه الأول الثعلبي^(١) والثاني المهدوي^(٢) ، وسيأتي مرفوعاً. وقال عليٌّ ؑ وقتادة: يريد بالمحو اللطخة السوداء التي في القمر؛ ليكون ضوء القمر أقلَّ من ضوء الشمس ، فيتميز به الليل من النهار^(٣).

﴿وَجَعَلْنَا آيَةً النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: جعلنا شمسَه مضيئةً للأبصار^(٣). قال أبو عمرو ابن العلاء: أي: يُبَصِّرُ بها^(٤). قال الكسائي: وهو من قول العرب: أبصرَ النهارَ إذا أضاء، وصار بحالِهِ يُبَصِّرُ بها، وقيل: هو كقولهم خبيثٌ مُخْبِثٌ إذا كان أصحابُه خُبثاء. ورجلٌ مُضْعِفٌ إذا كانت دوابُّه ضِعافاً؛ فكذلك النهار مُبْصِراً إذا كان أهله بُصَراء^(٥).

﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّيْكُمْ﴾ يريد التصرُّف في المعاش. ولم يذكر السكونَ في الليل اكتفاءً بما ذكر في النهار. وقد قال في موضع آخر: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ [يونس: ٦٧].

﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْحَسَابَ﴾ أي: لو لم يفعل ذلك لما عُرفَ الليلُ من النهار، ولا كان يُعرفَ الحساب والعدد^(٦).

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ أي: من أحكام التكليف؛ وهو كقوله: ﴿يَبَيِّنَا لِكُلِّ

(١) وذكره البغوي في تفسيره ١٠٧/٣ ، وذكره أيضاً السيوطي في الدر المنثور ١٦٧/٤ لكن نسبته إلى عكرمة.

(٢) النكت والعيون ٢٣٢/٣ ، وأخرجه الطبري ٥١٥/١٤ من قول علي ؑ.

(٣) النكت والعيون ٢٣٢/٣ .

(٤) وهو قول ابن قتيبة في الغريب ص ٢٥٢ ، وتأويل المشكل ص ٢٢٨ .

(٥) وهو قول أبي عبيدة كما ذكر الرازي في تفسيره ١٦٥/٢٠ - ١٦٦ .

(٦) الوسيط ٩٩/٣ ، وزاد المسير ١٤/٥ .

شَيْءٌ ﴿[النحل: ٨٩]، ﴿مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لما أبرم الله خلقه فلم يبقَ من خلقه غير آدم خلق شمساً من نور عرشه وقمرأ، فكانا جميعاً شمسين، فأما ما كان في سابق علم الله أن يدعها شمساً فخلقها مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها، وأما ما كان في علم الله أن يخلقها قمرأ فخلقها دون الشمس في العِظَم، ولكن إنما يُرى صِغَرُهُما من شدة ارتفاع السماء وبُعْدِها من الأرض، فلو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يُعرف الليل من النهار، ولا كان الأجير يدري إلى متى يعمل، ولا الصائم إلى متى يصوم، ولا المرأة كيف تعتد، ولا تُدري أوقات الصلوات والحج ولا تحل الديون، ولا حين يبذرون ويزرعون، ولا متى يسكنون للراحة لأبدانهم، وكأن الله نظر إلى عباده - وهو أرحم بهم من أنفسهم - فأرسل جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات - وهو يومئذ شمس - فطمس عنه الضوء، وبقي فيه النور، فذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ﴾ الآية (١).

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال الزجاج (٢): ذكر العُنُقِ عبارة عن اللزوم كلزوم القِلادة للعنق.

وقال ابن عباس: «طائره»: عمله وما قُدِّر عليه من خيرٍ وشر، وهو ملازمه أينما كان (٣). وقال مقاتل والكلبي: خيرُهُ وشرُّهُ معه لا يفارقه حتى يُحاسِبَ به (٤). وقال

(١) أخرجه الطبري في تاريخه ٦٥/١ - ٦٦ ، وفي إسناده أبو نعيم عمر بن صبح، وهو متروك، وقد أتهم بالوضع. الميزان ٢٠٦/٣ - ٢٠٧ .

(٢) في معاني القرآن ٢٣٠/٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٥١٩/١٤ .

(٤) تفسير البغوي ١٠٨/٣ .

مجاهد: عمله ورزقه^(١). وعنه: ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة فيها مكتوب: شَقِيٌّ أو سعيد^(٢). وقال الحسن: «ألزمنه طائرته» أي: شقاوته وسعاده، وما كُتِبَ له من خيرٍ وشرٍّ وما طار له من التقدير^(٣)، أي: صار له عند القسمة في الأزل. وقيل: أراد به التكليف، أي: قدرناه إلزام الشرع، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به وينتجر عما رُجِر به أمكنه ذلك.

﴿وَنُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ يعني: كتاب طائرته الذي في عنقه^(٤). وقرأ الحسن وأبو رجاء ومجاهد: «طيره» بغير ألف^(٥)؛ ومنه ما روى في الخبر: «اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا ظَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا رَبَّ غَيْرُكَ»^(٦).

وقرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن مُحَيِّصٍ وأبو جعفر ويعقوب: «وَيُخْرِجْ» بفتح الياء وضمّ الراء^(٧)، على معنى: وَيَخْرِجْ له الطائر كتاباً؛ فـ «كتاباً» منصوبٌ على الحال. وَيَحْتَمِلُ أن يكون المعنى: وَيَخْرِجُ الطائرُ فيصيرُ كتاباً. وقرأ يحيى بن وثّاب: «وَيُخْرِجْ» بضمّ الياء وكسر الراء، ورُوي عن مجاهد^(٨)، أي: يُخْرِجُ الله. وقرأ شيبه ومحمد بن السَّمِيفِغِ، ورُوي أيضاً عن أبي جعفر: «وَيُخْرِجْ» بضمّ الياء وفتح الراء

(١) أخرجه الطبري ١٤/٥٢٠، والبيهقي في الشعب (٢١٦١)، ولم يُذكر: رزقه، وهو كذلك في تفسير مجاهد ١/٣٥٩.

(٢) أخرجه الطبري ١٤/٥٢٠، وهو في تفسير مجاهد ١/٣٥٩.

(٣) زاد المسير ٥/١٥.

(٤) النكت والعيون ٣/٢٣٣.

(٥) الشواذ ص ٧٥، والمححر الوجيز ٣/٤٤٢، وزاد المسير ٥/١٦.

(٦) أخرجه أحمد (٧٠٤٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/١١٨، ومعاني القرآن للنحاس ٤/١٣١، وتفسير الطبري ١٤/٥٢٢، والمححر الوجيز ٣/٤٤٣، وزاد المسير ٥/١٦، والنشر ٢/٣٠٦، ولم يذكروا هذه القراءة عن أبي جعفر.

(٨) هذه القراءة في معاني القرآن للفراء ٢/١١٨، وفي النشر ٢/٣٠٦ عن أبي جعفر، وهي من العشرة. وهي في زاد المسير ٥/١٦ عن قتادة وأبي المتوكل.

على الفعل المجهول^(١)، ومعناه: ويُخْرِجُ له الطائرُ كتاباً. الباقون: «وُخْرِجُ» بنونٍ مضمومةٍ وكسرِ الراء، أي: ونحن نخرج. واحتجَّ أبو عمرو في هذه القراءة بقوله: «ألزمناه».

وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر «يُلْقَاهُ» بضمِّ الياء وفتح اللام وتشديد القاف^(٢)، بمعنى: يؤتاه^(٣). الباقون: بفتح الياء خفيفة، أي: يراه منشوراً. وقال: «منشوراً»: تعجيلاً للبشرى بالحسنة والتوبيخ بالسيئة^(٤). وقال أبو السَّوَّار العدوي^(٥) وقرأ هذه الآية: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَتْهُ طَلَبُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال: هما نشرتان وَطِيَّةٌ، أما ما حييت يا بن آدم فصحيفتك المنشورة فأمل فيها ما شئت، فإذا مَتَّ طُوبِيتُ حتى إذا بُعِثْتَ نُشِرَتْ^(٦). ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ قال الحسن: يقرأ الإنسان كتابه أُمِّيًّا كان أو غير أُمِّيٍّ^(٧). ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي: محاسباً^(٨). وقال بعض الصلحاء: هذا كتابٌ، لسانك قلمه، وريقك مداده، وأعضاؤك قرطاسه، أنت كنت المُمْلِي على حَفَظَتِكَ، ما زيد فيه ولا نُقِصَ منه، ومتى أنكرت منه شيئاً يكون فيه الشاهد منك عليك.

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: إنما كلُّ

(١) زاد المسير ١٦/٥، والنشر ٣٠٦/٢ عن أبي جعفر، وهي من العشرة.

(٢) السبعة ص ٣٧٨، والتيسير ص ١٣٩ عن ابن عامر، والنشر ٣٠٦/٢ عن أبي جعفر وابن عامر، والمحرم الوجيز ٤٤٣/٣ عن ابن عامر والحسن.

(٣) تفسير البغوي ١٠٨/٣.

(٤) النكت والعيون ٢٣٣/٣.

(٥) البصري، وقد اختلف في اسمه، ف قيل: حسان بن حريث، وقيل: حريث بن حسان، وقيل غير ذلك، وهو من التابعين الثقات، وله رواية في الصحيحين. تهذيب التهذيب ٥٣٥/٤.

(٦) أخرجه أحمد في الزهد ص ٣٨٣، وأبو نعيم في الحلية ٢٥٠/٢.

(٧) الوسيط ١٠٠/٣، وزاد المسير ١٦/٥.

(٨) تفسير أبي الليث ٢٦٢/٢، وزاد المسير ١٦/٥.

أَحَدٍ يُحَاسِبُ عَنْ نَفْسِهِ لَا عَنْ غَيْرِهِ، فَمَنْ اهْتَدَى فُتُوْبُ اهْتِدَائِهِ لَهُ، وَمَنْ ضَلَّ فَعَقَابُ كُفْرِهِ عَلَيْهِ^(١).

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ تَقَدَّمَ فِي الْأَنْعَامِ^(٢). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ ابْنِ الْمَغِيرَةِ، قَالَ لِأَهْلِ مَكَّةَ: اتَّبِعُونِ وَاكْفُرُوا بِمُحَمَّدٍ وَعَلَيَّ أَوْزَارَكُمْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، أَيْ: إِنْ الْوَلِيدُ لَا يَحْمِلُ أَثَامَكُمْ، وَإِنَّمَا إِيْثُمْ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ^(٣). يُقَالُ: وَزَرَ يَزِرُ وَزْرًا وَوِزْرَةً، أَيْ: أَثِمَ^(٤). وَالْوِزْرُ: الثَّقْلُ الْمَثْقِلُ وَالْجَمْعُ أَوْزَارٌ، وَمِنْهُ: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١] أَيْ: أَثْقَالُ ذُنُوبِهِمْ^(٥). وَقَدْ وَزَرَ إِذَا حَمَلَ فَهُوَ وَازِرٌ؛ وَمِنْهُ وَزِيرُ السُّلْطَانِ الَّذِي يَحْمِلُ ثِقْلَ دَوْلَتِهِ^(٦). وَالْهَاءُ فِي قَوْلِهِ كِنَايَةٌ عَنِ النَّفْسِ، أَيْ: لَا تَوْخِذْ نَفْسَ أَثِمَّةٍ بِأَثَمِ أُخْرَى^(٧)، حَتَّى إِنَّ الْوَالِدَةَ تَلْقَى وَلَدَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَقُولُ: يَا بَنِيَّ، أَلَمْ يَكُنْ حَاجِرِي لَكَ وَطَاءٌ؟ أَلَمْ يَكُنْ ثُدِي لَكَ سِقَاءٌ؟ أَلَمْ يَكُنْ بَطْنِي لَكَ وَعَاءٌ؟ فَيَقُولُ: بَلَى يَا أُمَّةَ. فَتَقُولُ: يَا بَنِيَّ، فَإِنْ ذُنُوبِي أَثْقَلَتْني فَاحْمِلْ عَنِي مِنْهَا ذَنْبًا وَاحِدًا. فَيَقُولُ: إِلَيْكَ عَنِي يَا أُمَّةَ، فَإِنِّي بِذُنُوبِي عَنكَ الْيَوْمَ مُشْغُولٌ^(٨).

مَسْأَلَةٌ: نَزَعَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي الرَّدِّ عَلَى ابْنِ عَمْرِو حَيْثُ قَالَ: «إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبَكَاءِ أَهْلِهِ»^(٩). قَالَ عُلَمَاؤُنَا: وَإِنَّمَا حَمَلَهَا عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ تَسْمَعْهُ، وَأَنَّهُ مُعَارِضٌ لِلْآيَةِ. وَلَا وَجْهَ لِانْكَارِهَا، فَإِنَّ الرُّوَاةَ لِهَذَا الْمَعْنَى كَثِيرٌ، كَعَمْرٍ

(١) الوسيط ١٠٠/٣، والمحرم الوجيز ٤٤٣/٣، وزاد المسير ١٦/٥.

(٢) ١٤٥/٩ - ١٤٧.

(٣) المحرم الوجيز ٤٤٣/٣، وسبب النزول في الوسيط ١٠٠/٣، وزاد المسير ١٦/٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢٣١/٣.

(٥) ينظر ما تقدم ٣٥٩/٨.

(٦) المحرم الوجيز ٤٤٣/٣.

(٧) ينظر مجاز القرآن ٣٧٢/١.

(٨) سيورده المؤلف من كلام الفضيل بن عياض عند تفسير الآية (١٨) من سورة فاطر.

(٩) المحرم الوجيز ٤٤٣/٣، وقول ابن عمر إنما هو مرفوعٌ إلى النبي ﷺ كما أخرجه أحمد (٤٩٥٩)،

والبخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٧): (١٦).

وابنه والمغيرة بن شعبة وقيلة بنت مخزومة^(١)، وهم جازمون بالرواية، فلا وجه لتخطئتهم، ولا معارضة بين الآية والحديث؛ فإن الحديث محمله على ما إذا كان النوح من وصية الميت وسنته، كما كانت الجاهلية تفعله، حتى قال طرفة:
إذا مت فانعيني بما أنا أهله وشُقِّي عليَّ الجيب يا بنت مَعْبِدٍ^(٢)
وقال آخر^(٣):

إلى الحَوْلِ ثم اسمُ السلامِ عليكما ومن يَبْكُ حولاً كاملاً فقدِ اعتَذَرَ^(٤)
وإلى هذا نحا البخاري^(٥). وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم داود إلى اعتقاد ظاهر الحديث، وأنه إنما يُعَذَّبُ بَنُو حِمٍّ؛ لأنه أهملَ نهيهم عنه قبل موته وتأديبهم بذلك، فيُعَذَّبُ بتفريطه في ذلك، ويترك ما أمره الله به من قوله: ﴿فَوَا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] لا بذنبٍ غيره، والله أعلم^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أي: لم نترك الخلق سُدى، بل أرسلنا الرسل. وفي هذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع، خلافاً للمعتزلة القائلين بأن العقل يُقْبَحُ وَيُحَسَّنُ وَيُبَيِّحُ وَيُحْظَرُ. وقد تقدّم في البقرة القول فيه^(٧). والجمهور على أن هذا في حكم الدنيا، أي: أن الله لا يهلك أمةً بعذابٍ إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار. وقالت فرقة: هذا عامٌّ في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى:

(١) حديث عمر أخرجه أحمد (١٨٠)، والبخاري (١٢٨٧)، ومسلم (٩٢٧). وحديث ابن عمر ذكره المؤلف. وحديث المغيرة أخرجه أحمد (١٨١٤٠)، والبخاري (١٢٩١)، ومسلم (٩٣٣). وحديث قيلة أخرجه ابن سعد ٢٣٠/١ في حديث طويل.

(٢) ينظر إكمال المعلم للقاضي عياض ٣/ ٣٧٠ - ٣٧١، والبيت في ديوان طرفة ص ٣٩.

(٣) كلمة «آخر» من (ظ)، وهي ليست في باقي النسخ.

(٤) قائله لبيد، وهو في ديوانه ص ٧٩. ونُسب في خزانة الأدب ٤/ ٣٤٢ إلى زوجة الحسن بن الحسن بن علي، وإلى أرطاة بن سُهَيْة المري.

(٥) فقال بعد الحديث (١٢٨٢): باب قول النبي ﷺ: «يُعَذَّبُ الميت ببعض بكاء أهله عليه» إذا كان النوح من سنته.

(٦) إكمال المعلم ٣/ ٣٧٢.

(٧) ٣٧٧/١ - ٣٧٨.

﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُنَا آلَنَ بَآئِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا﴾ [الملك: ٨-٩]. قال ابن عطية^(١): والذي يعطيه النظر أنَّ بعثة آدم عليه السلام بالتوحيد وبثَّ المعتقدات في بنيهِ مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفطر توجبُ على كلِّ أحدٍ من العالمِ الإيمانَ واتباعَ شريعة الله، ثم تجدد ذلك في زمن نوح عليه السلام بعد غرق الكفار، وهذه الآية أيضاً يُعطي احتمالُ ألفاظها نحو هذا في الذين لم تصلهم رسالة، وهم أهل الفترات الذين قد قَدَّرَ وجودهم بعضُ أهل العلم، وأما ما رُوِيَ من أنَّ الله تعالى يبعثُ إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديثٌ لم يصحَّ، ولا يقتضي ما تعطيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف.

قال المهدوي^(٢): ورُوِيَ عن أبي هريرة أنَّ الله عزَّ وجلَّ يبعثُ يومَ القيامة رسولاً إلى أهل الفترة والأبكم والأخرس والأصمَّ، فيُطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه في الدنيا، وتلا الآية. رواه معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة. ذكره النحاس^(٣).

قلت: هذا موقوف، وسيأتي مرفوعاً في آخر سورة طه^(٣) إن شاء الله تعالى، ولا يصحُّ. وقد استدللَّ قومٌ في أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى، وهذا صحيح، ومن لم تبلغه الدعوة فهو غيرُ مستحقٍّ للعذاب من جهة العقل، والله أعلم^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١١)

فيه ثلاث مسائل:

(١) في المحرر الوجيز ٤٤٤/٣.

(٢) في معاني القرآن ١/١٣٢، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/٣٧٤ عن معمر، به.

(٣) عند تفسير الآية (١٣٤)، وينظر الكلام عليه هناك.

(٤) أحكام القرآن للكنيا الطبري ٢٥٢/٣.

الأولى: أخبر الله تعالى في الآية التي قبلُ أنه لم يُهلك القرى قبل ابتعاث الرسل، لا لأنه يقبح منه ذلك إن فعل، ولكنه وعدٌ منه، ولا خُلِفَ في وعده، فإذا أراد إهلاك قريةٍ مع تحقيق وعده على ما قاله تعالى أمرَ مترفياً بالفِسق والظلم فيها، فحقَّ عليها القولُ بالتدمير. يُعَلِّمُكَ أَنَّ من هلكَ فإنما هلكَ بإرادته، فهو الذي يسببُ الأسبابَ ويسوقُها إلى غاياتها، ليَحَقِّقَ القولُ السابقُ من الله تعالى^(١).

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا﴾ قرأ أبو عثمان النَّهْدِيُّ وأبو رجاء وأبو العالية والربيع ومجاهد والحسن: «أَمَرْنَا» بالتشديد، وهي قراءة عليٍّ عليه السلام^(٢)، أي: سلَّطنا شرارها فعصَّوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم^(٣). وقال أبو عثمان النَّهْدِيُّ: «أَمَرْنَا» بتشديد الميم: جعلناهم أمراء مسلَّطين^(٤). وقاله ابنُ عَزِيزٍ^(٥). وتأمرُ عليهم: تسلَّط عليهم^(٦). وقرأ الحسن أيضاً وقتادة وأبو حَيوة الشامي ويعقوب، وخارجة عن نافع، وحماد بن سَلَمَةَ عن ابن كثير، وعليٍّ وابنُ عباس باختلافٍ عنهما «أَمَرْنَا» بالمدِّ والتخفيف^(٧)، أي: أَكثَرْنَا جبابرتَها وأمراءها. قاله الكسائي^(٨). وقال أبو عبيدة: أمرته بالمدِّ وأمرته، لغتان بمعنى كَثَّرته؛ ومنه الحديث «خير المال مُهَرَّةٌ مأبورة، أو سِكَّةٌ مأبورة» أي: كثيرة النَّتاج والنَّسل^(٩). وكذلك قال ابن عزيز: أَمَرْنَا وأمرنا بمعنى واحد، أي: أَكثَرْنَا^(١٠). وعن الحسن أيضاً ويحيى بن يَغَمَر: «أَمَرْنَا» بالقصر وكسر

(١) المصدر السابق.

(٢) معاني القرآن للنحاس ١٣٣/٤، والمحتسب ١٦/٢، والمحزر الوجيز ٤٤٤/٣، وهي قراءة شاذة.

(٣) أخرجه الطبري ٥٢٩/١٤، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٢٣) من قول ابن عباس عليه السلام.

(٤) النكت والعيون ٢٣٥/٣.

(٥) في نزهة القلوب ص ٨٣.

(٦) الصحاح (أمر).

(٧) تفسير البغوي ١٠٩/٣، وزاد المسير ١٩/٥، والنشر ٣٠٦/٢، وقراءة يعقوب من العشرة.

(٨) وقاله أبو الليث السمرقندي في تفسيره ٢٦٣/٢.

(٩) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٧٣/١ بمعناه، والحديث سلف ١٣٤/١٢.

(١٠) نزهة القلوب ص ٨٣.

الميم على فَعَلْنَا، وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١) قَالَ قَتَادَةُ وَالْحَسَنُ: الْمَعْنَى: أَكْثَرْنَا، وَحَكَى نَحْوَهُ أَبُو زَيْدٍ وَأَبُو عُبَيْدٍ، وَأَنْكَرَهُ الْكَسَائِيُّ وَقَالَ: لَا يُقَالُ مِنَ الْكَثْرَةِ إِلَّا أَمَرْنَا بِالْمَدِّ. قَالَ: وَأَصْلُهَا «أَمَرْنَا» فَخَفَفَ، حَكَاهُ الْمَهْدَوِيُّ^(٢). وَفِي «الصَّحَاحِ»: وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ: أَمَرَ مَالَهُ (بِالْكَسْرِ) أَي: كَثُرَ. وَأَمَرَ الْقَوْمُ، أَي: كَثُرُوا؛ قَالَ الشَّاعِرُ:

أَمْرُونَ لَا يَرِثُونَ سَهْمَ الْقُعْدُدِ

وَأَمَرَ اللَّهُ مَالَهُ (بِالْمَدِّ)^(٣). الثَّعْلَبِيُّ: وَيُقَالُ لِلشَّيْءِ الْكَثِيرِ: أَمَرٌ، الْفِعْلُ مِنْهُ: أَمَرَ الْقَوْمُ بِأَمْرٍ أَمَرًا إِذَا كَثُرُوا. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: كُنَّا نَقُولُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِلْحَيِّ إِذَا كَثُرُوا: أَمَرَ أَمْرُ بَنِي فَلَانٍ؛ قَالَ لَبِيدٌ:

كُلُّ بَنِي حُرَّةٍ مَصِيرُهُمْ قُلٌّ وَإِنْ أَكْثَرَتْ مِنَ الْعَدَدِ
إِنْ يُغَبِّطُوا يَهْبِطُوا وَإِنْ أَمَرُوا يَوْمًا يَصِيرُوا لِلْهَلْكِ وَالنَّكَدِ^(٤)

قُلْتُ: وَفِي حَدِيثِ هِرَقْلِ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: لَقَدْ أَمَرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ لِيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ^(٥). أَي: كَثُرَ. وَكُلُّهُ غَيْرُ مُتَعَدٍّ، وَلِذَلِكَ أَنْكَرَهُ الْكَسَائِيُّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. قَالَ الْمَهْدَوِيُّ: وَمَنْ قَرَأَ: «أَمَرَ» فَهِيَ لُغَةٌ، وَوَجْهٌ تَعْدِيَةٌ «أَمَرَ» أَنَّهُ شَبَّهَ بِعَمَرَ مِنْ حَيْثُ كَانَتْ الْكَثْرَةُ أَقْرَبَ شَيْءٍ إِلَى الْعِمَارَةِ، فَعَدَّى كَمَا عَدَّى عَمَرَ.

الْبَاقُونَ: «أَمَرْنَا» مِنَ الْأَمْرِ؛ أَي: أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَةِ^(٦) إِعْذَارًا وَإِنْذَارًا وَتَخْوِيفًا وَوَعِيدًا. ﴿فَفَسَقُوا﴾ أَي: فَخَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ عَاصِينَ لَنَا. ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ﴾: فَوَجِبَ

(١) معاني القرآن للنحاس ١٣٣/٤، والقراءات الشاذة ص ٧٥، والمحاسب ١٦/٢.

(٢) ينظر معاني القرآن للنحاس ١٣٥/٤.

(٣) الصحاح (أمر)، وصدر البيت: طرفون ولّا دون كل مبارك، وقائله الأعشى كما في الصحاح واللسان (أمر). والقعد: القليل الآباء إلى الجد الأكبر. اللسان (قعد).

(٤) مجاز القرآن ٣٧٢/١ - ٣٧٣، وتفسير الطبري ٥٣١/١٤ - ٥٣٢، وتهذيب اللغة ٢٩١/١٥ - ٢٩٢، والبيتان في ديوان لبید ص ٥٠.

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٧٠)، والبخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) وهو من كلام أبي سفيان لأصحابه.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢٣١/٣، والمحرم الوجيز ٤٤٤/٣.

عليها الوعيد. عن ابن عباس^(١). وقيل: «أَمَرْنَا» جعلناهم أمراء؛ لأن العرب تقول: أمير غير مأمور^(٢)، أي: غير مؤمر. وقيل: معناه: بعثنا مستكبريها؛ قال هارون: وهي قراءة أبيي: «بعثنا أكابر مجرميها ففسقوا» ذكره الماوردي^(٣). وحكى النحاس: وقال هارون في قراءة أبيي: «وإذا أردنا أن نهلك قرية بعثنا فيها أكابر مجرميها فمكروا فيها فحق عليها القول»^(٤).

ويجوز أن يكون «أمرنا» بمعنى أكثرنا؛ ومنه: «خير المال مَهْرَةٌ مأمورة» على ما تقدّم.

وقال قوم: مأمورة اتباع لمأبورة؛ كالغدايا والعشايا^(٥)، وكقوله: «إِرْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ»^(٦). وعلى هذا لا يُقال: أمرهم الله، بمعنى كثرهم، بل يُقال: أمره وأمره. واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة العامة^(٧). قال أبو عبيد: وإنما اخترنا «أمرنا» لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة^(٨). والمُتَرَف: المُنْعَم؛ وَخُصُّوا بالأمر لأنَّ غيرهم تَبِعَ لهم^(٩).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَاهَا﴾ أي: استأصلناها بالهلاك^(١٠). ﴿تَدْمِيرًا﴾ ذكر المصدر للمبالغة في العذاب الواقع بهم. وفي الصحيح من حديث زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: خرج رسول الله ﷺ يوماً فَرَعَا مُخَمَّرًا وجهه يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترَب، فُتِحَ اليومَ من رَدَمٍ يأجوج ومأجوج مثلُ هذه»

(١) ينظر الوسيط ١٠١/٣، ومجمع البيان ٣٠/١٥.

(٢) تفسير الطبري ٥٢٨/١٤.

(٣) في النكت والعيون ٢٣٥/٣ وهي قراءة شاذة.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١٣٧/٤، وهي قراءة شاذة أيضاً.

(٥) مجمع البيان ٢٩/١٥.

(٦) ينظر تفسير الطبري ٥٢٨/١٤، وتهذيب اللغة ٢٩٢/١٥. والحديث سلف ٤٩/٦.

(٧) وكذلك الطبري في تفسيره ٥٣٢/٤.

(٨) نقله عنه البغوي ١٠٩/٣ لكن وقع في مطبوعه: أبو عبيدة.

(٩) الوجيز على هامش مراج لبيد ٤٧٥/١، وزاد المسير ١٩/٥.

(١٠) الوسيط ١٠١/٣.

وَحَلَّقَ بِأَصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا. قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبْثُ». وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْبَابِ^(١)، وَأَنَّ الْمَعَاصِيَ إِذَا ظَهَرَتْ وَلَمْ تُغَيَّرْ كَانَتْ سَبَبًا لِهَلَاكِ الْجَمِيعِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ رِيبَكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ ٧ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ أي: كم من قوم كفروا حل بهم البوار. يخوف كفار مكة^(٢). وقد تقدم القول في القرون في أول سورة الأنعام^(٣)، والحمد لله. ﴿وَكَفَىٰ رِيبَكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ «خبيراً»: عليمًا بهم. «بصيراً»: يُبْصِرُ أعمالهم. وقد تقدم^(٤).

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ ٨ ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ٩ ﴿

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ يعني الدنيا، والمراد: الدارُ العاجلة، فعبر بالنعى عن المنعوت. ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أي: لم نعطه منها إلا ما نشاء، ثم نؤاخذه بعمله، وعاقبته دخول النار^(٥). ﴿مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ أي: مُطْرَدًا مُبْعَدًا من رحمة الله^(٦). وهذه صفة المنافقين الفاسقين، والمرائين المُدَاجِين، يلبسون الإسلام والطاعة؛ لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا يُقْبَلُ ذَلِكَ الْعَمَلُ مِنْهُمْ

(١) ٤٨٧/٩.

(٢) الوسيط ١٠١/٣.

(٣) ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٤) ٣٣٦/٨ معنى الخير، و٢٦١/٢ معنى البصير.

(٥) زاد المسير ٢٠/٥.

(٦) الوسيط ١٠١/٣، وتفسير البغوي ١٠٩/٣.

في الآخرة، ولا يُعطون في الدنيا إلا ما قُسم لهم. وقد تقدّم في «هود»^(١) أنّ هذه الآية تُقيّد تلك الآيات المطلقة، فتأمّله.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أي: الدار الآخرة. ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: عَمِلَ لها عملها من الطاعات. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن الطاعات لا تُقبل إلا من مؤمن. ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ أي: مقبولا غير مردود^(٢). وقيل: مضاعفاً^(٣)؛ أي: تُضاعف لهم الحسنات إلى عشر، وإلى سبعين، وإلى سبع مئة ضعف، وإلى أضعاف كثيرة؛ كما روي عن أبي هريرة وقد قيل له: أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله ليَجْزي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة؟» فقال سمعته يقول: «إنَّ الله ليَجْزي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة»^(٤).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدِّدُ هُوَآءًا وَهَوَآءًا مِّنْ عَطَايَ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾^(٥) أنظر كيف فضّلنا بعضهم على بعضٍ وللآخرة أكبر درجتٍ وأكبر تفضيلاً ﴿لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّحْذُورًا﴾^(٦)

قوله تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدِّدُ هُوَآءًا وَهَوَآءًا مِّنْ عَطَايَ رَبِّكَ﴾ أعلم الله تعالى أنه يرزق المؤمنين والكافرين^(٥). ﴿وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: محبوساً ممنوعاً؛ من حَظَر يَحْظُر حَظَرًا وَحِظَارًا^(٦).

ثم قال تعالى: ﴿أَنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الرزق والعمل؛ فمن مُقِلٍّ ومكثَر^(٧). ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي: للمؤمنين؛ فالكاfer وإن وسَّع

(١) ٨٥/١١ - ٨٦.

(٢) زاد المسير ٢٠/٥.

(٣) الوسيط ١٠١/٣.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) نقله في الوسيط ١٠١/١ - ١٠٢ عن الزجاج، ولفظ الجلالة أثبت من (ظ)، والوسيط.

(٦) الوسيط ١٠٢/١.

(٧) زاد المسير ٢١/٥.

عليه في الدنيا مرة، وقُتِرَ على المؤمن مرّةً، فالآخرة لا تُقسم إلا مرةً واحدةً بأعمالهم، فمن فاتته شيءٌ منها لم يستدرّكه فيها.

وقوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته^(١). وقيل: الخطاب للإنسان^(٢). ﴿فَتَقَعْدَ﴾ أي: تبقى^(٣). ﴿مَذْمُومًا مَخْدُومًا﴾ لا ناصر لك ولا ولياً^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لِمَا أُنْفِيَ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ﴾ (٢٢) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴿

فيه ست عشرة مسألة:

الأولى: ﴿قَضَىٰ﴾ أي: أمر وألزم وأوجب^(٥). قال ابن عباس والحسن وقتادة: وليس هذا قضاء حُكْم، بل هو قضاء أمر^(٦). وفي مصحف ابن مسعود: «ووصى» وهي قراءة أصحابه وقراءة ابن عباس أيضاً وعليّ وغيرهما، وكذلك عند أبي بن كعب^(٧). قال ابن عباس: إنما هو «ووصى ربك» فالتصقت إحدى الواوين فقرأت: «وقضى ربك» إذ لو كان على القضاء ما عصى الله أحد^(٨). وقال الضحاك: تصحفت

(١) الوسيط ١٠٢/٣، والمحزر الوجيز ٤٤٧/٣، وزاد المسير ٢١/٥.

(٢) الوجيز على هامش مراح لبيد ٤٧٦/١، ومجمع البيان ٣/١٥.

(٣) تفسير أبي الليث ٢٦٤/٢.

(٤) الوسيط ١٠٢/٣، وزاد المسير ٢١/٥، ومجمع البيان ٣/١٥.

(٥) المحزر الوجيز ٤٤٧/٣.

(٦) ينظر النكت والعيون ٢٣٧/٣، ومجمع البيان ٣٦/١٥.

(٧) المحزر الوجيز ٤٤٧/٣، وعنده «النخعي» بدل «علي»، لكن الرازي نقل هذه القراءة في تفسيره ٢٠/١٨٤ عن علي، وهي قراءة شاذة.

(٨) تفسير الرازي ١٨٤/٢٠.

على قوم «وصى بقضى» حين اختلطت الواو بالصاد وُثِتَ كُتِبَ المصحف. وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثل قول الضحاك. وقال عن ميمون بن مهران أنه قال: إِنَّ عَلَى قول ابن عباس لنوراً؛ قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣] ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابنُ عباس قال ذلك، وقال: لو قلنا هذا لَطَعَنَ الزنادقةُ في مصحفنا^(١). ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم: القضاء يستعمل في اللغة على وجوه: فالقضاء بمعنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ معناه أمر. والقضاء بمعنى الخلق، كقوله: ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] يعني: خلقهن. والقضاء بمعنى الحكم، كقوله تعالى: ﴿فَأَقِضْ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] يعني: احكم ما أنت تحكم. والقضاء بمعنى الفراغ، كقوله: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] أي: فُرِغَ منه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ [الجمعة: ١٠]. والقضاء بمعنى الإرادة، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَوْا أَمرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]. والقضاء بمعنى العهد، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرَسَيْنِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾^(٢) [القصص: ٤٤].

فإذا كان القضاء يَحْتَمِلُ هذه المعاني فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصي بقضاء الله؛ لأنه إن أُريدَ به الأمرُ فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك؛ لأنَّ الله تعالى لم يأمر بها، فإنه لا يأمر بالفحشاء. وقال زكريا بن سلام: جاء رجلٌ إلى الحسن فقال: إِنَّهُ طَلَّقَ امرأته ثلاثاً. فقال: إنك قد عصيتَ ربَّكَ وبانتَ منك زوجتُك. فقال الرجل: قضى الله ذلك عليّ. فقال الحسن وكان فصيحاً: ما قضى الله ذلك. أي: ما أمر الله به، وقرأ هذه الآية: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٣).

(١) المحرر الوجيز ٤٤٧/٣.

(٢) ينظر معنى القضاء في مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص ٦٧٤ - ٦٧٥.

(٣) أخرجه الطبري ٥٤٢/١٤، وكلمة «زوجتك» أثبتت منه ومن نسخة (ظ).

الثانية: أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل برّ الوالدين مقروناً بذلك، كما قرّن شكرهما بشكره فقال: ﴿وَقَفَّيْ رُكَّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وقال: ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَّا الْمَاصِرُ﴾^(١) [لقمان: ١٤]. وفي «صحيح البخاري» عن عبد الله قال: سألت النبي ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله عزَّ وجلَّ؟ قال: «الصلاة على وقتها» قال: ثم أي؟ قال: «ثم برُّ الوالدين» قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»^(٢) فأخبر ﷺ أنَّ برَّ الوالدين أفضلُ الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام. ورُتّب ذلك بـ «ثم» التي تُعطي الترتيب والمهلة.

الثالثة: من البرِّ بهما والإحسانِ إليهما ألا يتعرّضَ لِسبِّهما ولا يُعقِّهما؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف، وبذلك وردت السنة الثابتة، ففي «صحيح مسلم» عن عبد الله ابن عمرو أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إن من الكبائر شتم الرجل والديه» قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم؛ يسبُّ الرجلُ أبا الرجل، فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمّه، فيسبُّ أمّه»^(٣).

الرابعة: عقوب الوالدين مخالفتُهما في أغراضهما الجائزة لهما، كما أن برَّهما موافقتُهما على أغراضهما. وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمرٍ وجبت طاعتُهما فيه، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله، وكذلك إذا كان من قبيل المندوب. وقد ذهب بعض الناس إلى أنَّ أمرَهما بالمباح يُصيرُه في حقِّ الولد مندوباً إليه، وأمرَهما بالمندوب يزيده تأكيداً في نَدْبِيَّتِه.

الخامسة: روى الترمذي عن ابن عمر قال: كانت تحتي امرأةٌ أُحِبُّها، وكان أبي يكرهها، فأمرني أن أطلقها، فأبَيْتُ، فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ فقال: «يا عبد الله بن

(١) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٤، وأحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٩٦.

(٢) صحيح البخاري (٥٢٧)، وأخرجه أحمد (٣٨٩٠)، ومسلم (٨٥).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦، والحديث في صحيح مسلم (٩٠)، وأخرجه أحمد (٦٥٢٩).

عمر، طَلَّقِ امْرَأَتَكَ». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح^(١).

السادسة: روى الصحيح عن أبي هريرة قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «ثُمَّ أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «ثُمَّ أَبُوك»^(٢). فهذا الحديث يدلُّ على أنَّ محبةَ الأمِّ والشفقةَ عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب؛ لذكر النبي ﷺ الأمَّ ثلاث مرات، وذكر الأب في الرابعة فقط. وإذا تَوَصَّلَ هذا المعنى شهد له العيان؛ وذلك أنَّ صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب، فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب. ورُوي عن مالكٍ أنَّ رجلاً قال له: إن أبي في بلد السودان، وقد كتب إليَّ أن أقدم عليه، وأمِّي تمنعني من ذلك، فقال له: أطع أباك، ولا تَغْصِ أُمَّكَ. فدلَّ قول مالك هذا أن برَّهما متساوٍ عنده. وقد سئل الليث عن هذه المسألة فأمره بطاعة الأم، وزعم أنَّ لها ثلثي البر^(٣). وحديث أبي هريرة يدل على أن لها ثلاثة أرباع البر، وهو الحجة على من خالف^(٤). وقد زعم المحاسبي في «كتاب الرعاية» له أنه لا خلاف بين العلماء أنَّ للأم ثلاثة أرباع البر، وللأب الربع^(٥)؛ على مقتضى حديث أبي هريرة ﷺ. والله أعلم.

السابعة: لا يختصُّ برُّ الوالدين بأن يكونا مُسْلِمِينَ، بل إن كانا كافِرَيْن يَبْرُهُمَا وَيُحْسِنُ إِلَيْهِمَا إذا كان لهما عهد؛ قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّوهُمْ﴾^(٦) [المتحنة: ٨]. وفي «صحيح البخاري» عن

(١) سنن الترمذي (١١٨٩)، وأخرجه - أيضاً - بهذا اللفظ أحمد (٥٠١١).

(٢) صحيح البخاري (٥٩٧١)، وصحيح مسلم (٢٥٤٨). وأخرجه أحمد (٨٣٤٤).

(٣) ينظر إكمال المعلم ٥/٨.

(٤) ينظر المفهم ٥٠٨/٦.

(٥) قول المحاسبي في الرعاية ص ١٠٢: فليبدأ العبد بحاجة والدته؛ لأن برَّها مقدَّم في سنة النبي ﷺ، واجتماع العلماء على تقديمها في البر والطاعة على الوالد.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٨٦.

أسماء قالت: قَدِمْتُ أُمِّي وهي مشركةٌ في عهد قريشٍ ومُدَّتْهم إذ عاهدوا النبي ﷺ مع أبيها، فاستفتيتُ النبي ﷺ، فقلتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وهي راغبةٌ أَفَصِلُهَا؟ قال: «نعم صلي أُمَّكَ». وروى أيضاً عن أسماء قالت: أَتَتْنِي أُمِّي راغبةٌ في عهد النبي ﷺ، فسألتُ النبي ﷺ: أَأَصِلُهَا؟ قال: «نعم». قال ابن عُيينة: فأنزل الله عزَّ وجلَّ فيها: ﴿لَا يَنْهَكُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾. الأوَّل معلقٌ والثاني مسندٌ^(١).

الثامنة: من الإحسان إليهما والبرَّ بهما إذا لم يتعيَّن الجهادُ إلَّا يُجاهدُ إلَّا بإذنهما. روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد فقال: «أَحْيٍ والذاك؟» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد». لفظ مسلم^(٢). في غير الصحيح قال: نعم، وتركتهما يبيكان. قال: «اذْهَبْ فَأُضْحِكْهُمَا كما أبكيتَهُمَا»^(٣). وفي خبرٍ آخر أنه قال: «نَوْمُكَ مع أبويك على فراشهما يُضاحِكُكَ ويُلاعِبُكَ أَفْضَلُ لَكَ من الجهادِ معي». ذكره ابن خُوَيزَمَداد. ولفظ البخاري في كتابِ بَرِّ الوالدين^(٤): أخبرنا أبو نُعَيْمٍ، أخبرنا سفيان، عن عطاء بن السائب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ يُبَايِعُهُ على الهجرة، وتَرَكَ أبويه يبيكان، فقال: «ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأُضْحِكْهُمَا كما أبكيتَهُمَا». قال ابن المنذر: في هذا الحديث النَّهْيُ عن الخروجِ بغيرِ إذنِ الأبوين ما لم يَقَعْ النَّفِيرُ، فإذا وَقَعَ وجَبَ الخروجُ على الجميع، وذلك بَيِّنٌ في حديث أبي قَتَادَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بعث جيشَ الأُمراء...؛ فذكر قصة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وابن رَوَاحَةَ، وَأَنَّ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نادى بعد ذلك: أَنِ الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، فَاجْتَمِعِ النَّاسُ فحَمِدَ اللَّهَ وَأَتْنَى عَلَيْهِ، ثم قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، اخْرُجُوا فَأَمِدُّوا إِخْوَانَكُمْ وَلَا يَتَخَلَّفَنَّ أَحَدٌ» فخرج النَّاسُ مُشَاةً وَرُكْبَانًا فِي حَرٍّ

(١) صحيح البخاري (٥٩٧٨) مسنداً، و(٥٩٧٩) معلقاً. وأخرجه مسنداً أحمد (٢٦٩١٥)، ومسلم (١٠٠٣).

(٢) صحيح البخاري (٣٠٠٤)، وصحيح مسلم (٢٥٤٩): (٥)، وأخرجه أحمد (٦٧٦٥).

(٣) أخرجه أحمد (٦٤٩٠)، وأبو داود (٢٥٢٨)، والنسائي ١٤٣/٧، وابن ماجه (٢٧٨٢).

(٤) من كتاب الأدب المفرد (١٣).

شديد^(١). فدلّ قوله: «أخرجوا فأمّدوا إخوانكم» أنّ العذر في التخلّف عن الجهاد إنما هو ما لم يقع التّفير، مع قوله عليه الصلاة والسلام: «فإذا استنفرتم فأنفروا»^(٢).

قلت: وفي هذه الأحاديث دليلٌ على أنّ المفروض أو المندوبات متى اجتمعت قدّم الأهمّ منها. وقد استوفى هذا المعنى المحاسبى في كتاب الرعاية.

التاسعة: واختلفوا في الوالدين المشركين هل يخرج بإذنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية، فكان الثوري يقول: لا يغزو إلا بإذنهما. وقال الشافعي: له أن يغزو بغير إذنهما^(٣). قال ابن المنذر: والأجداد آباء، والجدّات أمهات فلا يغزو المرء إلا بإذنهم، ولا أعلم دلالةً تُوجبُ ذلك لغيرهم من الإخوة وسائر القرابات. وكان طاوس يرى السّعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ.

العاشرة: من تمام برّهما صلة أهل ودّهما، ففي الصحيح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ من أبرّ البرّ صلة الرجل أهل ودّ أبيه بعد أن يُولّي». وروى أبو أسيد - وكان بدرياً - قال: كنتُ مع النبيّ ﷺ جالساً فجاءه رجلٌ من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي من برّ والدَيّ من بعد موتهما شيءٌ أبرّهما به؟ قال: «نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما بعدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرّحم التي لا رَحِمَ لك إلا من قبلهما، فهذا الذي بقي عليك». وكان ﷺ يُهدي لصدائقي خديجة برّاً بها ووفاءً لها وهي زوجته، فما ظنّك بالوالدين^(٤).

(١) أخرجه أحمد (٢٢٥٥١)، والنسائي في الكبرى (٨١٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٩١)، والبخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣): (٨٥) ١٤٨٧/٣ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأحمد (١٥٣٠٦) من حديث صفوان بن أمية ؓ، ومسلم (١٨٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) إكمال المعلم ٧/٨.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٨٩ - ١١٩٠، وحديث ابن عمر في صحيح مسلم (٢٥٥٢)، وأخرجه أحمد (٥٦١٢). وأما حديث أبي أسيد فقد أخرجه أحمد (١٦٠٥٩)، وأبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٦٤) من طريق أسيد بن علي، عن أبيه علي بن عبيد، عن أبي أسيد، به. إسناده ضعيف؛ =

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَلَفَنَ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ خصَّ حالة الكِبَر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى برِّه؛ لتغيُّر الحال عليهما بالضعف والكِبَر؛ فالزمه في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل؛ لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلاً عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكِبَر ما كان يحتاج في صِغَره أن يلياً منه؛ فلذلك خصَّ هذه الحالة بالذكر^(١).

وأيضاً فطول المكث للمرء يوجب الاستئصال للمرء عادةً، ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالة البُؤة وقلة الديانة، وأقلُّ المكروه ما يُظهره بتنفسه المتردد من الضجر، وقد أُمِر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب^(٢)، فقال: ﴿فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا يَكْرِيهُمَا﴾. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُهُ، رَغِمَ أَنْفُهُ، رَغِمَ أَنْفُهُ» قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «مَنْ أدرك والدَيْه عند الكِبَر أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ»^(٣). وقال البخاري في كتاب بر الوالدين: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا بشر بن المُفَضَّل، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد^(٤) المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أدرك أبويه عند الكِبَرِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ». حدثنا ابن أبي أُوَيْس، حدثني أخِي، عن سليمان بن بلال، عن محمد بن هلال، عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عُجْرَةَ السَّالِمِيِّ، عن أبيه ﷺ قال: إِنَّ كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ ﷺ قال: قال النبي ﷺ:

= قال الذهبي في الميزان ٣/ ١٤٤: علي بن عبيد لا يُعرف. وأما حديث الإهداء لصداق خديجة، فقد أخرجه أحمد (٢٤٣١٠)، والبخاري (٣٨١٦)، ومسلم (٢٤٣٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١) أحكام القرآن للكنيا الطبري ٢/ ٢٥٣.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦.

(٣) صحيح مسلم (٢٥٥١)، وأخرجه أحمد (٨٥٥٧).

(٤) قبلها في (م) زيادة كلمة «أبي».

«أحضروا المنبر» فلما خرج رقي إلى المنبر، فرقي في أول درجة منه قال: آمين، ثم رقي في الثانية فقال: آمين، ثم لماً رقي في الثالثة قال: آمين، فلما فرغ ونزل من المنبر قلنا: يا رسول الله، لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كُنَّا نسمعه منك؟ قال: «وسمِعْتُمُوهُ؟» قلنا: نعم. قال: «إِنَّ جبريل عليه السلام اعترض قال: بَعْدَ من أدركَ رمضان فلم يُغْفَرْ له، فقلتُ: آمين، فلما رقيتُ في الثانية قال: بَعْدَ من ذُكِرَتْ عنده فلم يُصَلِّ عليك، فقلتُ: آمين، فلماً رقيتُ في الثالثة قال: بَعْدَ من أدركَ عنده أبواه الكبَر أو أحدهما فلم يُدْخِلْهُ الجَنَّةَ، قلتُ: آمين». حدثنا أبو نُعيم، حدثنا سلمة بن وَرْدان، سمعتُ أنساً رضي الله عنه يقول: ارتقى رسولُ الله ﷺ على المنبرِ درجةً فقال: آمين، ثم ارتقى درجةً فقال: آمين، ثم ارتقى الدرجة الثالثة فقال: آمين، ثم استوى وجلس، فقال أصحابه: يا رسول الله، علامَ آمَنْتَ؟ قال: «أتاني جبريل عليه السلام فقال: رَغِمَ أنْفُ من ذُكِرَتْ عنده فلم يُصَلِّ عليك، فقلتُ: آمين، ورَغِمَ أنْفُ من أدركَ أبويه أو أحدهما فلم يدْخُلِ الجَنَّةَ، فقلتُ: آمين» الحديث^(١).

فالسعيد الذي يُبادر اغتنام فرصة يرهما؛ لثلاث تفرّقه بموتهما فيندم على ذلك. والشقي من عقهما، لا سيما مَنْ بلغه الأمرُ ببرهما.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِّمَآ أَفِي﴾ أي: لا تقلْ لهما ما يكون فيه أدنى تبرُّم^(٢). وعن أبي رجاء العطاردي قال: الأُفُّ: الكلامُ القَدَحُ الرديء الخفي. وقال مجاهد: معناه: إذا رأيتَ منهما في حالِ الشَّيْخِ الغائِظِ والبَوْلِ الذي رأياه منك في الصغر فلا تَقْدَرْهُما وتقول: أُف. والآية أعْمُ من هذا^(٣). والأُفُّ والتُّفُّ: وسخ

(١) لم نقف على هذه الأحاديث في المطبوع من كتاب الأدب المفرد للبخاري، وقد أخرج حديث كعب بن عجرة في كتابه التاريخ الكبير ٢٢٠/٧ بهذا الإسناد. وأما حديث أبي هريرة فقد أخرجه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي (١٦) عن مسدد، به. وأخرجه أحمد (٧٤٥١) من طريق آخر عن عبد الرحمن بن إسحاق، به. وأما حديث أنس فأخرجه إسماعيل القاضي أيضاً (١٥) عن عبد الله بن سلمة، عن سلمة بن وردان، به.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/٢٣٤.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٤٤٨، وأثر مجاهد أخرجه الطبري ١٤/٥٤٥.

الأظفار^(١). ويُقال لكل ما يُضجر ويُستقل: أَفَّ له^(٢). قال الأزهري: والثَّفُّ أيضاً: الشيء الحقيقير^(٣). وقُرئ: «أَفَّ» منوناً مخفوضاً، كما تُخفَضُ الأصوات وتُنَوَّن، تقول: صَبِهَ ومِه. وفيه عشر لغات: أَفَّ، وَأَفَّ، وَأَفَّ، وَأَفَّا وَأَفَّ، وَأَفَّ، وَأَفَّه، وإف لك (بكسر الهمزة)، وَأَفَّ (بضم الهمزة وتسكين الفاء)، وَأَفَّا (مخففة الفاء)^(٤). وفي الحديث: «فألقي طرف ثوبه على أنفه ثم قال: أف أف أف»^(٥). قال أبو بكر: معناه: استقدارٌ لما شَمَّ. وقال بعضهم: معنى أَفَّ: الاحتقار والاستقلال، أُخِذَ من الأَفَف: وهو القليل^(٦). وقال القُتَيْبِيُّ: أصله نَفَحُك الشيء يَسْقُط عليك من رَمَادٍ وترابٍ وغير ذلك، وللمكان تريد إماطة شيء لتتعد فيه؛ فقلت هذه الكلمة لكل مُسْتَقَلٍّ^(٧). وقال أبو عمرو بن العلاء: الأَفُّ: وسخٌ بين الأظفار، والثَّفُّ: قُلامتها. وقال الزجاج^(٨): معنى أَفَّ: النَّتْن. وقال الأصمعيُّ: الأَفُّ: وسخ الأذن، والثَّفُّ: وسخ الأظفار؛ فكثرت استعماله حتى ذُكِرَ في كلِّ ما يُتَأَذَّى به^(٩). ورُويَ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «لو علمَ الله من العقوق شيئاً أردأ من «أَفَّ» لذكره، فليعملِ البارُّ ما شاء أن يعمل، فلن يَدْخُلَ النار، وليعملِ العاقُّ ما شاء أن

(١) ينظر زاد المسير ٥/ ٢٤ - ٢٥. وقد فَرَّقَ أهل اللغة بينهما، ومن ذلك قول الليث والأصمعي: الأَفُّ: وسخ الأذن، والثَّفُّ: وسخ الأظفار. تهذيب اللغة ١٤/ ٢٥٥ و ١٥/ ٥٨٩.

(٢) قاله ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص ١١١.

(٣) لم نقف عليه في تهذيب اللغة، وقد قاله الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٣٤، والنحاس في معاني القرآن ٤/ ١٤٠.

(٤) نقلها ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٣ - ٢٤ عن ابن الأنباري.

(٥) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٣٢٠ من حيث أم سلمة رضي الله عنها. وفي إسناده عمار بن علقم، قال البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٢٧: لا يُتابع على حديثه.

(٦) نقله ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٤ عن ابن الأنباري.

(٧) تأويل مشكل القرآن ص ١١١.

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٤.

(٩) نقله عنه الأزهري في تهذيب اللغة ٥/ ٥٨٩.

يعمل فلن يَدْخُلَ الجنة»^(١). قال علماؤنا: وإنما صارت قولة «أف» للأبوين أردأ شيء؛ لأنه رفضهما رفض كفر النعمة، وجحد التربية، وردّ الوصية التي أوصاه في التنزيل. و«أف» كلمة مقولة لكل شيء مرفوض؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه: ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٧] أي: رفض لكم ولهذه الأصنام معكم.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ النهر: الزجر والغلظة^(٢). ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: ليناً لطيفاً^(٣)، مثل: يا أبتاه ويا أمّاه، من غير أن يُسمّيهما ويكنّيهما قاله عطاء^(٤). وقال أبو الهدّاج^(٥) التّجيبّي: قلت لسعيد بن المسيّب: كل ما في القرآن من برّ الوالدين قد عرفته إلا قوله: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ما هذا القول الكريم. قال ابن المسيّب: قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ^(٦).

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما، والتذلل لهما تذلل الرعية للأمير، والعبيد للسادة - كما أشار إليه سعيد بن المسيّب - وضرب خفض الجناح ونصبه مثلاً لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده. والذلّ: هو اللين^(٧).

وقراءة الجمهور بضمّ الذال، من ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا وَذِلَّةً وَمَذَلَّةً فهو ذالٌّ وذليلٌّ. وقرأ

(١) أخرجه أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥ من حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما، وفي إسناده أصرم بن حوشب، وهو متروك، واتهمه بعضهم بالوضع. ميزان الاعتدال ١/ ٢٧٢.

(٢) ينظر الوسيط ٣/ ١٠٤.

(٣) الوسيط ٣/ ١٠٤، وزاد المسير ٥/ ٢٥.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ١١٠ لكن عزاه إلى مجاهد، وذكره الرازي في تفسيره ٢٠/ ١٩٠ وعزاه إلى عمر بن الخطاب.

(٥) في النسخ: ابن البداح، والتصويب من المصادر وكتب التراجم.

(٦) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٤٩، أبو الهداج مجهول، تفرد بالرواية عنه حرمله بن عمران، وترجم له البخاري في الكنى ص ٨١، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩/ ٤٥٥، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في ثقافته ٦/ ٦٦٧ على عادته في توثيق المجاهيل.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦.

سعيد بن جبير وابن عباس وعروة بن الزبير «الذَّلُّ» بكسر الذال، ورُويت عن عاصم^(١)؛ من قولهم: دَابَّةٌ ذُلُولٌ بينة الذَّلِّ، والذَّلُّ في الدوابِّ المنقَادُ السهلُ دون الصعب، فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذَلَّةٍ، في أقواله وسكناته ونظره، ولا يُحَدِّ إليهما بصره، فإن تلك هي نظرة الغاضب.

الخامسة عشرة: الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ والمرادُ به أُمَّتُهُ؛ إذ لم يكن له عليه الصلاة والسلام في ذلك الوقت أبوان. ولم يذكر الذَّلُّ في قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ أَبْعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وذكره هنا بحسب عِظَمِ الحقِّ وتأكيده.

و«مِن» في قوله: «مِنَ الرَّحْمَةِ» لبيان الجنس، أي: إنَّ هذا الخفض يكون من الرحمة المستَكِنَّة في النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالاً، ويصحُّ أن يكون لانتهاه الغاية، ثم أمر تعالى عباده بالترخُّم على آبائهم والدعاء لهم^(٢)، وأنَّ ترخُّمهما كما رَحِمَاكَ، وتَرَفَّقَ بهما كما رَفَّقَا بك؛ إذ وَلِيَاكَ صغيراً جاهلاً محتاجاً، فأثراك على أنفسهما، وأسهرَا ليلَهما، وجاعَا وأشبعَاكَ، وتعَرَّيَا وكَسَوَاكَ، فلا تجزيهما إلا أن يبلغَا من الكِبَر الحدَّ الذي كنتَ فيه من الصُّغَر، فتَلِي منهما ما وَلِيَا منك، ويكون لهما حينئذٍ فضل التقدُّم^(٣). قال ﷺ: «لَا يَجْزِي وَلَدٌ والدًا إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيهِ فَيُعْتِقَهُ»^(٤). وسيأتي في سورة «مريم»^(٥) الكلام على هذا الحديث.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿كَا رَبَّانِي﴾ خصَّ التربية بالذكر ليتذكر العبدُ شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيده ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما، وهذا كُلُّهُ في الأبوين المؤمنين. وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشرِّكين الأموات ولو كانوا أولي

(١) المحرر الوجيز ٤٤٩/٣، والقراءات الشاذة ص ٧٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤٤٩/٣.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١١٨٦/٣ - ١١٨٧.

(٤) أخرجه أحمد (٧١٤٣)، ومسلم (١٥١٠) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٥) عند تفسير الآية (٩٣).

قُرْبَى، كما تقدم^(١). وذكر عن ابن عباس وقتادة أنَّ هذا كله منسوخ بقوله: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَبْرِ﴾^(٢) فإذا كان والد المسلم ذميين استعمل معهما ما أمره الله به هاهنا، إلا الترحم لهما بعد موتهما على الكفر؛ لأن هذا وحده نُسِخ بالآية المذكورة. وقيل: ليس هذا موضع نسخ، فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيَّين، كما تقدم. أو يكون عموم هذه الآية خُصَّ بتلك، لا رحمة الآخرة، لا سيما وقد قيل: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ نزلت في سعد بن أبي وقاص، فإنه أسلم، فألقت أمه نفسها في الرمضاء متجرّدة، فذكر ذلك لسعد، فقال: لَتَمُتْ، فنزلت الآية. وقيل: الآية خاصة في الدعاء للأبوين المسلمين. والصواب أنَّ ذلك عمومٌ كما ذكرنا، وقال ابن عباس قال النبي ﷺ: «من أمسى مُرضياً لوالديه وأصبح، أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة، وإن واحداً فواحداً، ومن أمسى وأصبح مُسَخِطاً لوالديه، أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار، وإن واحداً فواحداً» فقال رجل: يا رسول الله، وإن ظلماه؟ قال: «وإن ظلماه، وإن ظلماه، وإن ظلماه»^(٣). وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أبي أخذ مالي. فقال النبي ﷺ للرجل: «فأنتي بأبيك» فنزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ فقال: إِنَّ

(١) ٣٩٨/١٠ - ٤٠١.

(٢) المحرر الوجيز ٤٤٩/٣.

(٣) أخرجه هناد في الزهد (٩٩٣) من طريق سعيد بن سنان، عن رجل، عن ابن عباس مرفوعاً. وفي إسناده رجل مبهم.

وأخرجه ابن أبي حاتم في العلل ٢/٢١١ من طريق المغيرة بن مسلم، عن عطاء، عن ابن عباس مرفوعاً. ثم قال: قال أبو زرعة: المغيرة لم يسمع من عطاء شيئاً، وهو مرسل. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٠١٢٨) من طريق أبان، عن سعد بن مسعود القيسي أو غيره، عن ابن عباس مرفوعاً. أبان: هو ابن أبي عياش، وهو متروك الحديث. ميزان الاعتدال ١٠/١ - ١١، وسعد بن مسعود فيه جهالة، فقد ذكروا في الرواة عنه اثنين، وذكره ابن حبان في ثقافته ٢٩٦/٤ على عادته في توثيق المجاهيل. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧) من طريق سليمان التيمي، عن سعد بن مسعود أيضاً، عن ابن عباس موقوفاً. وتحرف اسم سعد في مطبوعه إلى سعيد.

الله عزَّ وجلَّ يُقْرِئَكَ السلام ويقول لك: إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه. فلما جاء الشيخ قال له النبي ﷺ: «ما بال ابنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله؟» فقال: سلّه يا رسول الله، هل أنفقّه إلا على إحدى عمّاته أو خالاته أو على نفسي؟! فقال له رسول الله ﷺ: «إيه، دُعنا من هذا، أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك» فقال الشيخ: واللّه يا رسول الله، ما زال الله عزَّ وجلَّ يزيدنا بك يقيناً، لقد قلت في نفسي شيئاً ما سمعته أذناي. قال: «قُلْ وأنا أسمع» قال: قلت:

عَذْوُكَ مَوْلُوداً وَمُنْتُكَ يَافِعاً	تُعَلُّ بِمَا أَجْنِي عَلَيْكَ وَتُنْهَلُّ
إِذَا لَيْلَةٌ ضَافَتْكَ بِالسُّقْمِ لَمْ أَبِثْ	لِسُقْمِكَ إِلَّا سَاهِراً أَتَمَلَّمُ
كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي	طَرِقتَ بِهِ دُونِي فَعَيْنِي تَهْمَلُ
تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْكَ وَإِنَّهَا	لَتَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ وَقْتُ مُوجَلُّ
فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي	إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَوْمَلُّ
جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَقَظَاطَةً	كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ
فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَزَعْ حَقَّ أَبَوَتِي	فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُصَاقِبُ يَفْعَلُ
فَأَوْلَيْتَنِي حَقَّ الْجَوَارِ وَلَمْ تَكُنْ	عَلَيَّ بِمَالٍ دُونَ مَالِكَ تَبْخَلُ

قال: فحينئذٍ أخذ النبي ﷺ بتلابيب ابنه وقال: «أنت ومالك لأبيك»^(١). قال

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٥٦٦)، وفي الصغير (٩٤٧) من طريق عبيد بن خصفة، عن عبد الله بن نافع المدني، عن المنكدر بن محمد بن المنكدر، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله، به. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٥٥/٤: رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه من لم أعرفه، والمنكدر بن محمد ضعيف وقد وثقه أحمد، والحديث بهذا التمام منكر.

وأخرج ابن ماجه (٢٢٩١) من طريق يوسف بن إسحاق، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي مالاً وولداً، وإن أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال: «أنت ومالك لأبيك». قال البوصيري: إسناده صحيح، ورجاله ثقات على شرط البخاري. قلنا: ولهذا الحديث شواهد عدة تنظر في مسند أحمد (٦٦٧٨).

وأما الأبيات فقائلها امرؤ القيس وهي في ديوانه ص ١٨٠ - ١٨١، وفيه في البيت الأول: «وعلئك» بدل «وميتك»، وفي البيت الثاني: «نابتك بالشكوى» بدل «ضافتك بالسقم»، و«الشكوك» بدل «لِسُقْمِكَ»، وفي البيت الرابع: «وإني لأعلم» بدل «وإنها لتعلم»، و«حتم» بدل «وقت».

الطبراني اللّخميّ: لا يُروى - يعني هذا الحديث - عن ابن المُنكدر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد، وتفرّد به عُبيد^(١) بن خَلْصة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي: من اعتقاد الرحمة بهما والخُنو عليهما، أو من غير ذلك من العقوق، أو من جعل ظاهر برّهما رياء^(٢). وقال ابن جُبَيْر: يريد البادرة التي تبدر، كالفلّنة والرّلة، تكون من الرجل إلى أبويه أو أحدهما، لا يريد بذلك بأساً^(٣)؛ قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أي: صادقين في نية البرّ بالوالدين فإنّ الله يغفر البادرة.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ وعدّ بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى^(٤). قال سعيد بن المسيّب: هو العبد يتوب ثم يُذنب ثم يتوب ثم يُذنب. وقال ابن عباس ؓ: الأواب: الحفيظ الذي إذا ذكر خطاياهم استغفر منها. وقال عُبيد بن عُمير: هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء، ثم يستغفرون الله عزّ وجلّ. وهذه الأقوال متقاربة^(٥). وقال عَوْنُ الْعُقَيْلِيّ: الأوابون: هم الذين يُصَلُّون صلاة الضُّحى^(٦). وفي الصحيح: «صلاة الأوابين حين تَرْمَضُ

(١) في النسخ: عبيد الله.

(٢) المحرر الوجيز ٤٤٩/٣.

(٣) أخرجه بمعناه الطبري ٥٥٦/١٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤٤٩/٣.

(٥) معاني القرآن للنحاس ١٤٣/٤، وقول سعيد بن المسيّب أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٧٦/١، والطبري ٥٥٨/١٤ - ٥٥٩. وقول عبيد بن عمير أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٤٠)، والطبري

٥٦٠/١٤، وأبو نعيم في الحلية ٢٦٨/٣.

(٦) أخرجه الطبري ٥٥٨/١٤.

الفصل»^(١). وحقيقة اللفظ من آب يؤوب إذا رجع^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا بُدَّزْ تَبْذِيرًا ۖ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۖ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا﴾ أي: كما راعيت حق الوالدين فصل الرحمة، ثم تصدق على المسكين وابن السبيل^(٣). وقال علي بن الحسين في قوله تعالى: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا﴾: هم قرابة النبي ﷺ، أمر ﷺ بإعطائهم حقوقهم من بيت المال^(٤). أي: من سهم ذوي القربى من الغزو والغنيمة، ويكون خطاباً للولادة أو من قام مقامهم^(٥). والحق في هذه الآية ما يتعين من صلة الرحم، وسد الخلة، والمواساة عند الحاجة بالمال، والمعونة بكل وجه^(٦).

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا بُدَّزْ﴾ أي: لا تُسرف في الإنفاق في غير حق^(٧). قال الشافعي رحمه الله: والتبذير: إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير^(٨). وهذا قول الجمهور. وقال أشهب عن مالك: التبذير: هو أخذ المال من حقه ووضع في غير حقه، وهو الإسراف، وهو حرام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ

(١) أخرجه مسلم (٧٤٨) من حديث زيد بن أرقم رحمه الله: رمض الفصل: أن تحترق الرضاء - وهي الرمل - فتترك الفصل من شدة حرها وإحراقها أخفافها. إكمال المعلم ٩٩/٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢٣٥/٣، ومعاني القرآن للنحاس ١٤٣/٤.

(٣) تفسير الرازي ١٩٣/٢٠.

(٤) المحرر الوجيز ٤٥٠/٣، وأخرجه بمعناه الطبري ٥٦٣/١٤.

(٥) تفسير الرازي ١٩٣/٢٠.

(٦) المحرر الوجيز ٤٥٠/٣.

(٧) أخرجه بمعناه ابن أبي شيبة ٩٥/٩، والبخاري في الأدب المفرد (٤٤٤)، والطبري ٥٦٥/١٤ - ٥٦٧ عن ابن مسعود رحمه الله، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٤٥)، والطبري ٥٦٧/١٤ عن ابن عباس رحمه الله.

(٨) أحكام القرآن للكلبي الطبري ٢٥٥/٣.

الشَّيَاطِينِ»^(١). وقوله «إخوان» يعني أنهم في حكمهم؛ إذ المبدّر ساع في فساد كالشياطين، أو أنهم يفعلون ما تُسوّله لهم أنفسهم، أو أنهم يُقرنون بهم غداً في النار. ثلاثة أقوال^(٢). والإخوان هنا جمع أخ من غير النسب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي: احذروا متابعتة والتشبّه به في الفساد. والشيطان اسم الجنس. وقرأ الضحاك: «إخوان الشيطان» على الانفراد، وكذلك ثبت في مصحف أنس بن مالك رضي الله عنه^(٣).

الثالثة: مَنْ أنفق ماله في الشهوات زائداً على قدر الحاجات وعرضه بذلك للنّفاق فهو مبدّر، وَمَنْ أنفق ربح ماله في شهواته وحفظ الأصل أو الرّقبة فليس بمبدّر، وَمَنْ أنفق درهماً في حرام فهو مبدّر، ويحجر عليه في نفقته الدرهم في الحرام، ولا يُحجر عليه إن بذله في الشهوات إلا إذا خيف عليه النّفاق^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَتِّعَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: وهو أنه سبحانه وتعالى خصّ نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَتِّعَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ وهو تأديبٌ عجيبٌ وقولٌ لطيفٌ بديع، أي: لا تُعرض عنهم إعراضاً مُستهيناً عن ظهر الغنى والقدرة فتُخزيمهم، وإنما يجوز أن تُعرض عنهم عند عجزٍ يُعْرِضُ وعائقي يعوق، وأنت عند ذلك ترجو من الله سبحانه وتعالى فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل، فإن قعد بك الحال فقلّ لهم قولاً ميسوراً^(٥).

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩١.

(٢) القول الأول ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠، والقول الثاني ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٠٥، والقول الثالث ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٥/ ٤٠.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩١.

(٥) أحكام القرآن للكبلي الطبري ٣/ ٢٥٦.

الثانية: في سبب نزولها؛ قال ابن زيد: نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيأبى أن يعطيهم؛ لأنه كان يعلم منهم نفقة المال في فساد، فكان يعرض عنهم رغبة في الأجر في منعهم؛ لئلا يعينهم على فسادهم^(١). وقال عطاء الخراساني في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تَعْرِضَنَّهُمْ أَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ قال: ليس هذا في ذكر الوالدين، جاء ناس من مُزَيْنَةَ إلى النبي ﷺ يستحملونه، فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَمَّا تَعْرِضَنَّهُمْ أَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ والرحمة الفیء^(٢).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ أمره بالدعاء لهم، أي: يسر فقرهم عليهم بدعائك لهم. وقيل: ادع لهم دعاء يتضمنُ الفتح لهم والإصلاح^(٣). وقيل: المعنى: «وإما تعرضن» أي: إن أعرضت يا محمد عن إعطائهم لضيق يد فقل لهم قولاً ميسوراً، أي: أحسن القول وبسط العذر، وادع لهم بسعة الرزق، وقل: إذا وجدت فعلت وأكرمت؛ فإن ذلك يعمل في مسرة نفسه عمل المواساة^(٤). وكان عليه الصلاة والسلام إذا سُئِلَ وليس عنده ما يُعطي سكت انتظاراً للرزق يأتي من الله سبحانه وتعالى كراهة الرد، فنزلت هذه الآية، فكان ﷺ إذا سُئِلَ وليس عنده ما يُعطي قال: «يرزقنا الله وإياكم من فضله»^(٥). فالرحمة على هذا التأويل: الرزق المنتظر. وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة. والضمير في «عنهم» عائذ على من تقدم ذكرهم من الآباء والقراة والمساكين وأبناء السبيل^(٦). و﴿قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ أي: لينا لطيفاً

(١) المحرر الوجيز ٤٥٠/٣.

(٢) زاد المسير ٢٨/٥، وينظر ما تقدم ٣٣٤/١٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤٥٠/٣.

(٤) تفسير الرازي ١٩٤/٢٠ بمعناه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٢٣٥ - ٢٣٦، والحديث أورده الديلمي في الفردوس ٣٢٢/١ من حديث عائشة، و ٢٦/٥ من حديث أنس.

(٦) المحرر الوجيز ٤٥٠/٣، وتفسير الرحمة هنا بأنها الرزق المنتظر أخرجه الطبري ٥٧٠/١٤ - ٥٧١ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٣٦١/١.

طيباً، مفعول بمعنى الفاعل، من لفظ اليسر كالميمون، أي: وعداً جميلاً^(١)، على ما بيّناه. ولقد أحسن من قال:

إِلَّا تَكُنْ وَرَقٌ يَوْمًا أَجُودُ بِهَا لِّلسَّائِلِينَ فَلِإِنِّي لِيُنَّ الْعُودُ
لَا يَغْدُمُ السَّائِلُونَ الْخَيْرَ مِنْ خُلُقِي إِمَّا نَوَالِي وَإِمَّا حَسَنُ مَرْدُودِي^(٢)
تقول: يَسْرَتْ لَكَ كَذَا إِذَا أَعْدَدْتَهُ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ ﴿٢٨﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ هذا مجازٌ عبّر به عن البخل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله، فضرب له مثل الغلّ الذي يمنع من التصرف باليد. وفي «صحيح البخاري» ومسلم عن أبي هريرة ؓ قال: ضرب رسول الله ﷺ مَثَلَ الْبَخِيلِ وَالْمَتَّصِدِّ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ قَدْ اضْطَرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَىٰ تَدْيِيهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا، فَجَعَلَ الْمَتَّصِدُّ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ حَتَّىٰ تَغْشَىٰ أَنَامِلَهُ وَتَغْفُوَ أَثَرَهُ، وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ بِمَكَانِهَا. قال أبو هريرة ؓ: فأنا رأيتُ رسولَ الله ﷺ يقول بأصبعيه هكذا في جيبه، فلو رأيته يُوسِّعُهَا وَلَا تَتَوَسَّعُ^(٤).

(١) النكت والعيون ٢٣٩/٣، والوسيط للواحدى ١٠٥/٣، والمحزر الوجيز ٤٥٠/٣، وزاد المسير ٢٩/٥.

(٢) البيتان في الكامل ١٠٧٢/٣ دون نسبة.

(٣) المحزر الوجيز ٤٥٠/٣.

(٤) صحيح البخاري (٥٧٩٧) واللفظ له، وصحيح مسلم (١٠٢١). وأخرجه أحمد (٩٠٥٧). ووقع في بعض الروايات لهذا الحديث عند مسلم وغيره: «جُبَّتَانِ» بدل «جُبَّتَانِ» ووقع في بعضها الآخر بالوجهين على أنه شك من بعض الرواة؛ قال السندي في حاشية على مسند أحمد ٤٥٤/١٢: الجُبَّةُ بالبه: هو ثوب مخصوص، والجُبَّةُ بالنون: هي الدرع، وصُوبَ النون؛ لقوله: «من حديد»، ولقوله: «اتسعت =

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْسُطُهَا كُلُّ الْيَسْطِرِّ﴾ ضربَ بَسْطَ اليد مثلاً لذهاب المال، فَإِنَّ قَبْضَ الكَفِّ يَحِسُّ ما فيها، وَبَسْطُهَا يُذْهِبُ ما فيها، وهذا كُلُّه خطابٌ للنبي ﷺ والمرادُ أُمَّتُهُ، وكثيراً ما جاء في القرآن؛ فَإِنَّ النبي ﷺ لَمَّا كَانَ سَيِّدَهُمْ وَوَاسِطَتَهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ عَبَّرَ بِهِ عَنْهُمْ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ^(١). وأيضاً فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يَذْخِرُ شيئاً لغد، وكان يجوع حتى يَشُدَّ الحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ مِنَ الْجُوعِ، وكان كثيرٌ من الصحابة ينفقون في سبيل الله جميع أموالهم، فلم يُعْنَفْهُمْ النبي ﷺ ولم يُنَكِّرْ عليهم؛ لصحة يقينهم وشِدَّةِ بصائرهم، وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط في الإنفاق، وإخراج ما حَوَّثَهُ يَدُهُ مِنَ الْمَالِ مَنْ خِيفَ عَلَيْهِ الْحَسْرَةُ عَلَى مَا خَرَجَ مِنْ يَدِهِ، فَأَمَّا مَنْ وَثَّقَ بِمَوْعِدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ فِيمَا أَنْفَقَهُ فَغَيْرُ مُرَادٍ بِالْآيَةِ، والله أعلم^(٢). وقيل: إِنَّ هَذَا الْخَطَابَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ، عَلَّمَهُ فِيهِ كَيْفِيَةَ الْإِنْفَاقِ، وَأَمَرَهُ بِالْاِقْتِصَادِ^(٣). قال جابر وابن مسعود: جاء غلامٌ إِلَى النبي ﷺ فقال: إِنَّ أُمِّي تَسْأَلُكَ كَذَا وَكَذَا. فقال: «ما عندنا اليوم شيء». قال: فتقولُ لَكَ: اكْسُنِي قَمِيصَكَ. فخلع قميصه فدفعه إليه، وجلس في البيت عرياناً. وفي رواية جابر: فَأَذَّنَ بِلَالٌ لِلصَّلَاةِ وَانْتَظَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ^(٤) يَخْرُجْ، وَاشْتَغَلَتْ الْقُلُوبُ، فَدَخَلَ بَعْضُهُمْ إِذَا هُوَ عَارٍ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^(٥). وكلُّ هَذَا فِي إِنْفَاقِ الْخَيْرِ، وَأَمَّا إِنْفَاقُ الْفَسَادِ فَقَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ حَرَامٌ، كَمَا تَقَدَّمَ^(٦).

الثالثة: نهت هذه الآية عن استفراغ الوُجْدِ فيما يطرأ أولاً من سؤال المؤمنين؛

= الحلقة»، نعم، إطلاق الجُبَّةِ عَلَى الْجُبَّةِ بِالنُّونِ مجازاً غير بعيد. وقوله: تعفو أثره: تستر أثره. قلصت: تضاوت واجتمعت. فتح الباري ٣/٣٠٦.

(١) من بداية المسألة الأولى إلى هنا من أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٩٢.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/١٩٩، وأحكام القرآن للكنيا الطبري ٣/٢٥٧.

(٣) أحكام القرآن للطبري ٣/٢٥٨.

(٤) كلمة «فلم» من (ظ).

(٥) زاد المسير ٢٩/٥ - ٣٠، والروايتان لم تقف على من أخرجهما.

(٦) المحرر الوجيز ٣/٤٥١، وقد تقدم عند تفسير الآية (٢٦) من هذه السورة.

لئلا يبقى مَنْ يأتي بعد ذلك لا شيء له، أو لئلا يُضَيِّعَ الْمُتَفِقُ عِيَالَهُ. ونحوه من كلام الحكمة: ما رأيت قط سرفاً إلا ومعه حقٌ مُضَيِّعٌ. وهذه من آيات فقه الحال، فلا يُبَيَّنُ حكمها إلا باعتبار شخصٍ من الناس^(١).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَلَقَعْدُ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ قال ابن عرفة: يقول: لا تُسْرِفْ ولا تُتْلِفْ مَالَك فتبقى محسوراً منقطعاً عن النفقة والتصرف، كما يكون البعير الحسير، وهو الذي ذهب قوته فلا انبعاث به؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَقْلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤] أي: كليل منقطع^(٢). وقال قتادة: أي: نادماً على ما سلف منك^(٣). فجعله من الحسرة، وفيه بُعْدٌ؛ لأن الفاعل من الحسرة حَسِيرٌ وحسران، ولا يُقال: محسور. والمعلوم: الذي يُلام على إتلاف ماله، أو يلومه مَنْ لا يُعْطيه^(٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُمْ كَانُوا بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا أَوْلَدْنَاكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَوْلَهُمْ كَانَ خِطْأًا كَبِيرًا﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قد مضى الكلام في هذه الآية في الأنعام^(٥)، والحمد لله. والإملاق: الفقر وعدم الملك. أمْلَقَ الرجلُ أي: لم يبق له إلا المَلَقَات؛ وهي الحجارة العظام المُلْسُ^(٦). قال الهذلي يصف صائداً:

(١) المحرر الوجيز ٤٥١/٣، والحكمة التي ذكرت قائلها معاوية بن أبي سفيان كما ذكر الجاحظ في البيان والتبيين ٢٦٧/٣.

(٢) وبنحوه قال الفراء في معاني القرآن ١٢٢/٢.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٧٧/١، والطبري ٥٧٥/١٤ - ٥٧٦.

(٤) تفسير البغوي ١١٣/٣ بمعناه.

(٥) ١٠٧/٩.

(٦) المحرر الوجيز ٤٥١/٣.

أَتِيحَ لَهَا أَقْيَدِرُ ذُو حَشِيفٍ إِذَا سَامَتْ عَلَى الْمَلَقَاتِ سَامَا
 الواحدة مَلَقَةٌ^(١). والأَقْيَدِرُ تصغير الأَقْدَر، وهو الرجل القصير. والحَشِيف من
 الثياب: الخَلَق. وسامت: مَرَّت^(٢). وقال شَمِير: أَمَلَقَ لَازِمٌ ومَتَعَدٌ، أَمَلَقَ إِذَا افْتَقَرَ،
 وأَمَلَقَ الدَّهْرُ مَا بِيَدِهِ. قال أَوْس:
 وَأَمَلَقَ مَا عِنْدِي خَطُوبٌ تَنْبَلُ^(٣)

الثانية: قوله تعالى: ﴿خَطَا﴾ قراءة الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء
 وبالهمزة والقصر. وقرأ ابن عامر: «خَطَأً» بفتح الخاء والطاء والهمزة مقصورة، وهي
 قراءة أبي جعفر يزيد^(٤). وهاتان قراءتان مأخوذتان من «خطئ» إِذَا أَتَى الذَّنْبَ عَلَى
 عَمَدٍ^(٥). قال ابن عرفة: يُقَالُ: خَطِئَ فِي دِينِهِ^(٦) خَطَأً إِذَا أِثْمَ فِيهِ، وَأَخْطَأَ: إِذَا سَلَكَ
 سَبِيلَ خَطَأٍ عَامِداً أَوْ غَيْرَ عَامِداً^(٧). قال: وَيُقَالُ: خَطِئَ فِي مَعْنَى أَخْطَأَ^(٨). وقال
 الأزهري: يُقَالُ خَطِئَ يَخْطِئُ خِطْئاً إِذَا تَعَمَّدَ الْخَطَأَ؛ مِثْلُ أَثِمَ يَأْثِمُ إِثْماً، وَأَخْطَأَ إِذَا لَمْ
 يَتَعَمَّدْ، إِخْطَاءً وَخَطَأً^(٩)؛ قال الشاعر:
 دَعَيْنِي إِنَّمَا خَطِئْتُ وَصَوَّبِي عَلَيَّ وَإِنْ مَا أَهْلَكْتُ مَا^(١٠)

(١) تهذيب اللغة ١٨٢/٩، والهذلي هو صخر الغي، والبيت في ديوان الهذليين ٦٣/٢.

(٢) اللسان (قدر).

(٣) تهذيب اللغة ١٨٢/٩، وهذا عجزُ بيتِ صدره:

«لَمَّا رَأَيْتُ الْعُدْمَ قَيْدَ نَائِلِي» وهو في ديوان أوس بن حجر ص ٩٤.

(٤) السبعة ص ٣٧٩ - ٣٨٠، والتيسير ص ١٣٩ - ١٤٠، والنشر ٣٠٧/٢، وسيذكر المصنف أن ابن كثير - وهو من السبعة - كان يقرؤها: «خِطَاءً».

(٥) معاني القرآن للنحاس ١٤٧/٤.

(٦) في (م) و(د): ذنبه.

(٧) نقله عن ابن عرفة الصغاني في العباب الزاخر واللباب الفاخر (خطأ).

(٨) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن: ٣٧٦/١: خَطِئْتُ وَأَخْطَأْتُ لَفْتَانِ.

(٩) تهذيب اللغة ٤٩٦/٧ - ٤٩٧ بمعناه.

(١٠) قائله أوس بن غلفاء كما في طبقات فحول الشعراء ١٦٧/١، وخزانة الأدب ٣١٣/٨، وعندهما:

«ذريني» بدل «دعيني»، وفي الخزانة: «أنفقت» بدل «أهلكت».

والخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء، وهو ضد الصواب^(١). وفيه لغتان: القصر وهو الجيد، والمد وهو قليل. ورؤي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «خَطَأٌ بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة^(٢)». وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومدّ الهمزة^(٣). قال النحاس: ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً^(٤)، ولذلك جعلها أبو حاتم غلطاً. قال أبو علي: هي مصدرٌ من خاطأ يُخاطِئُ، وإن كُنَّا لا نجدُ خاطأً، ولكن وجدنا تخاطأً، وهو مطاوعُ خاطأً، فدلَّنا عليه؛ ومنه قول الشاعر:

تَخَاطَاتِ النَّبْلُ أَحْشَاءُهُ وَأَخْرَيَوْمِي فَلَـمْ أَعْجَلِ
وقول الآخر في وصف مهابة:

تخاطأه القَنَاصُ حتى وجدته وخرطومُه في مَنَقِعِ المَاءِ رَاسِبُ^(٥)
الجوهرى: تخاطأه أي: أخطأه؛ وقال أوفى بن مطر المازني:

أَلَا أَبْلِغَا خُلَّتِي جَابِراً بَأَنَّ خَلِيلَكَ لَمْ يُقْتَلِ
تخاطأت النَّبْلُ أَحْشَاءُهُ وَأَخْرَيَوْمِي فَلَـمْ يَعْجَلِ^(٦)

وقرأ الحسن: «خَطَاءٌ» بفتح الخاء والطاء والمد في الهمزة. قال أبو حاتم: لا يُعرف هذا في اللغة، وهي غلطٌ غيرُ جائز^(٧). وقال أبو الفتح^(٨): الخطأ من أخطأت بمنزلة العطاء من أعطيتُ، هو اسم بمعنى المصدر. وعن الحسن أيضاً: «خَطَى» بفتح

(١) تقدم عند المصنف ٨/٧ - ٩ .

(٢) هذه القراءة ذكرها ابن جني في المحتسب ١٩/٢ عن ابن عامر.

(٣) السبعة ص ٣٧٩ ، والتيسير ص ١٣٩ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ١٤٧/٤ بمعناه.

(٥) الحجة في القراءات لأبي علي الفارسي ٩٦/٥ - ٩٧ بمعناه، ومن قوله قرأ ابن كثير إلى هذا الموضع في المحرر الوجيز ٤٥٢/٣ ، والبيت الأول قائله أوفى بن مطر كما سيأتي، والبيت الثاني قائله رجلٌ من بني بكر كما نسبته الراغب الأصبهاني في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء ٦١٢/٢ .

(٦) الصحاح (خطأ)، والبيتان في كتاب الأمثال للمفضل الضبي ص ٦٨ .

(٧) المحرر الوجيز ٤٥٢/٣ .

(٨) في المحتسب ٢٠/٢ .

الخاء والطاء منونة من غير همز^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَانُمْ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٠﴾

فيه مسألة واحدة:

قال العلماء: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ أبلغ من أن يقول: ولا تزنوا؛ فإن معناه: لا تدنوا من الزنى.

والزنى يُمدُّ ويُقصر، لغتان. قال الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كما كان الزناء فريضة الرجم^(٢)

﴿سَبِيلًا﴾ نصب على التمييز؛ التقدير: وساء سبيله سبيلاً. أي: لأنه يؤدي إلى النار^(٣). والزنى من الكبائر، ولا خلاف فيه وفي قبحه ولا سيما بحليلة الجار، وينشأ عنه استخدام ولد الغير واتخاذُه ابناً وغير ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه. وفي الصحيح أن النبي ﷺ أتى بامرأة مُجَحِّجٍ على باب فسطاطٍ فقال: «لعله يريد أن يُلمَّ بها» فقالوا: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «لقد هممتُ أن ألعنه لعنأ يدخل معه قبره، كيف يُورثُه وهو لا يحِلُّ له؟! كيف يستخدمه وهو لا يحِلُّ له؟!»^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ

جَعَلْنَا لِرِوْلِهِ سُلْطٰنًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّكُمْ كَانُمْ مَنصُورًا﴾ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قد مضى الكلام فيه في

(١) المحرر الوجيز ٤٥٢/٣.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٧٧/١ - ٣٧٨، والبيت قائله النابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص ٢٣٥.

(٣) المحرر الوجيز ٤٥١/٣.

(٤) صحيح مسلم (١٤٤١) من حديث أبي الدرداء ؓ. وأخرجه أحمد (٢٧٥١٩). قال السندي في حاشيته على المسند: قوله: «مُجَحِّجٌ» هي القرية الولادة. «يُلمُّ بها» من الإلمام، أي: يجامعها قبل الاستبراء. «كيف يورثه» من التورث، أي: كيف يجعل ما في بطنها وارثاً له، أي: ربما تأتي بمولود في مدة يشبه أن الولد له، أو للزوج السابق، وحينئذ لا يحل التورث لاحتمال أن لا يكون منه، ولا الاستخدام لاحتمال أنه منه، والحاصل أنه إذا اشتبه الأمر فلا يحل له أن يدعو ابناً ولا عبداً.

الأنعام^(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أي: بغير سبب يوجب القتل^(٢). ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ﴾ أي: لمستحق دمه^(٣).

قال ابن خُوَيْزَمَنْدَاد: الولي يجب أن يكون ذكراً؛ لأنه أفرده بالولاية بلفظ التذكير.

وذكر إسماعيل بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ﴾ ما يدل على خروج المرأة عن مطلق لفظ الولي، فلا جرم، ليس للنساء حق في القصاص لذلك ولا أثر لعفوها، وليس لها الاستيفاء^(٤).

وقال المخالف: إن المراد هاهنا بالولي الوارث؛ وقد قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وقال: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] فافتضى ذلك إثبات القود لسائر الورثة^(٥)، وأما ما ذكره من أن الولي في ظاهره على التذكير وهو واحد، كأن ما كان بمعنى الجنس يستوي المذكر والمؤنث فيه^(٦)، وتتمته في كتب الخلاف.

﴿سُلْطَانًا﴾ أي: تسليطاً، أي: إن شاء قتل، وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدية.

(١) ١٠٩/٩.

(٢) النكت والعيون ٢٤٠/٣.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٢٣٧/٣، وزاد المسير ٣٢/٥.

(٤) أحكام القرآن للكميا الطبري ٢٥٩/٣.

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٢٠١/٣، وأحكام القرآن للكميا الطبري ٢٥٩/٣ - ٢٦٠.

(٦) أحكام القرآن للكميا الطبري ٢٦٠/٣، وأحكام القرآن لابن العربي ١١٩٥/٣.

قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والضحاك وأشهب والشافعي. وقال ابن وهب: قال مالك: السلطانُ أمر الله. ابن عباس: السلطان: الحُجَّة. وقيل: السلطان: طلبه حتى يدفع إليه. قال ابن العربي: وهذه الأقوال متقاربة، وأوضحها قول مالك: إنه أمر الله، ثم إنَّ أمرَ الله عزَّ وجلَّ لم يَقَعْ نَصًّا، فاختلف العلماء فيه، فقال ابن القاسم عن مالك وأبي حنيفة: القتل خاصَّةً. وقال أشهب [عنه]: الخيرة؛ كما ذكرنا آنفاً، وبه قال الشافعي^(١). وقد مضى في سورة البقرة^(٢) هذا المعنى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: لا يَقْتُلْ غيرَ قاتله. قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبیر. الثاني: لا يَقْتُلْ بدلَ وَلِيَّه اثنين كما كانت العرب تفعله. الثالث: لا يُمَثَّلُ بالقاتل. قاله طلق بن حبيب. وكلُّه مراد؛ لأنه إسرافٌ منه^(٣). وقد مضى في «البقرة» القول في هذا مستوفى.

وقرأ الجمهور «يُسْرِفُ» بالياء^(٤)، يريد الولي^(٥)، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: «تسرف» بالتاء من فوق، وهي قراءة حذيفة^(٦). وروى العلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال: هو للقاتل الأول، والمعنى عنده^(٧): فلا تسرف أيها

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩٦ - ١١٩٧، ولم يعزُ القول الأول لابن عباس، وما بين حاصرتين منه. والقول الأول أخرجه الطبري ١٤/ ٥٨٣ عن ابن عباس والضحاك.

(٢) ٣/ ٦٤ وما بعدها.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩٧، وعزا القول الأول إلى الحسن وحده، والقول الثاني إلى مجاهد. وقد أخرج ابن أبي شيبة ٩/ ٤٢٣، والطبري ١٤/ ٥٨٥ - ٥٨٦ القول الأول والثالث عن طلق ابن حبيب، وأخرجهما أيضاً عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٧، والطبري ١٤/ ٥٨٧ عن قتادة. وأما القول الثاني فأخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٧٧، وابن أبي شيبة ٩/ ٤٢٣، والطبري ١٤/ ٥٨٦ عن سعيد بن جبیر.

(٤) السبعة ص ٣٨٠.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٣، والنكت والعيون ٣/ ٢٤٠.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٣، وينظر السبعة ص ٣٨٠، والنشر ٢/ ٣٠٧ وذكر أنها قراءة خلف ولم يذكر ابن عامر، وقد ذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٢٣ هذه القراءة بإسنادها عن حذيفة.

(٧) في (م) و(د): عندنا.

القاتل^(١). وقال الطبري: هو على معنى الخطاب للنبي ﷺ والأئمة من بعده. أي: لا تقتلوا غير القاتل^(٢). وفي حرف أبيي: «فلا تُسْرِفُوا فِي الْقَتْلِ»^(٣).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْسُورًا﴾ أي: مُعَانًا، يعني الولي. فإن قيل: وكم من وليٍّ مخذولٍ لا يصلُ إلى حقِّه. قلنا: المعونة تكون بظهور الحجة تارةً وباستيفائها أخرى، وبمجموعهما ثالثة، فأَيُّها كان فهو نصرٌ من الله سبحانه وتعالى^(٤).

وروى ابن كثير عن مجاهد قال: إن المقتول كان منصوراً. النحاس: ومعنى قوله: إن الله نصره بوليِّه. وروى أنه في قراءة أبيي «فلا تسْرِفُوا فِي الْقَتْلِ إِنْ وَلِيَّ المقتول كان منصوراً». قال النحاس: الأتيُّ بالياء ويكون للولي؛ لأنه إنما يقال: «لا يُسْرِف» لمن^(٥) كان له أن يقتل، فهذا للولي. وقد يجوز بالتاء ويكون للولي أيضاً، إلا أنه يحتاج فيه إلى تحويل المخاطبة^(٦).

قال الضحاك: هذا أوَّل ما نزل من القرآن في شأن القتل، وهي مكية^(٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(٨)

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قد مضى الكلام فيه في الأنعام^(٨).

(١) معاني القرآن للنحاس ١/١٥١.

(٢) نقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٤٥٣، وينظر تفسير الطبري ١٤/٥٨٥ - ٥٨٦.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/١٢٣، وهي قراءة شاذة.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٩٧.

(٥) في (م) و(د): إن.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/١٥١ - ١٥٢.

(٧) أخرجه الطبري ١٤/٥٨٦.

(٨) ١١١/٩ - ١١٣.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ قد مضى الكلام فيه في غير موضع^(١). قال الرِّجَّاج: كلُّ ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد^(٢). ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ عنه، فحذف؛ كقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ به. وقيل: إِنَّ الْعَهْدَ يُسألُ تَبَكُّيتاً لناقضه، فيقال: نُقِضَتْ، كما تُسألُ المؤثَّودة تَبَكُّيتاً لوائدها^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ تقدّم الكلام فيه أيضاً في الأنعام^(٤). وتقتضي هذه الآية أَنَّ الكيل على البائع، وقد مضى في سورة «يوسف»^(٥) فلا معنى للإعادة. والقُسْطاس (بضم القاف وكسرها): الميزان بلغة الروم. قاله ابن عَزِيز^(٦). وقال الرِّجَّاج: القُسْطاس: الميزان صغيراً كان أو كبيراً. وقال مجاهد: القُسْطاس: العدل، وكان يقول: هي لغة رومية، وكأنَّ الناس قيل لهم: زِنُوا بِمَعْدِلَةٍ فِي وَزْنِكُمْ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: «القُسْطاس» بضم القاف، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم بكسر القاف، وهما لغتان^(٧).

الثانية: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وفاء الكيل وإقامة الوزن خيرٌ

(١) ينظر ٨/٢ و ١١٥/٩.

(٢) نقله عنه الواحدي في الوسيط ١٠٧/٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٣٤/٥.

(٣) تفسير الرازي ٢٠٦/٢٠.

(٤) ٢١٤/٩.

(٥) ٤٤٠/١١.

(٦) وذكره أبو الليث في تفسيره ٢٦٨/٢، وابن الجوزي في زاد المسير ٣٤/٥.

(٧) المحرر الوجيز ٤٥٥/٣، لكنه لم ينسب القول الأول في معنى القُسْطاس إلى الرِّجَّاج، والذي قاله الرِّجَّاج في معاني القرآن ٢٣٨/٣: القُسْطاس: ميزان العدل، أيُّ ميزانٍ كان من موازين الدراهم أو غيرها. وقول مجاهد في تفسيره ٣٦٢/١. وتنظر القراءتان في السبعة ص ٣٨٠، والتيسير ص ١٤٠.

عند ربك وأبرك. «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» أي: عاقبة^(١). قال الحسن: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَقْدِرُ رَجُلٌ عَلَى حَرَامٍ ثُمَّ يَدْعُهُ لَيْسَ بِهِ»^(٢) إِلَّا مَخَافَةُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا أَبْدَلَهُ اللَّهُ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ذَلِكَ»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي: لا تتبّع ما لا تعلم ولا يعينك^(٤). قال قتادة: لا تقل: رأيت، وأنت لم تر، وسمعت، وأنت لم تسمع، وعلمت، وأنت لم تعلم^(٥). وقاله ابن عباس رضي الله عنهما^(٦). وقال مجاهد: لا تَرَمِ أحداً بما ليس لك به علم^(٧). وقاله ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً^(٨). وقال محمد ابن الحنفية: هي شهادة الزور^(٩). وقال القُتَيْبِيُّ: المعنى: لا تُتْبِعِ الحَدَّثَ وَالظُّنُونَ^(١٠). وكلها متقاربة. وأصل القَفْوُ البَهْتُ والقَذْفُ بالباطل^(١١)؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «نحن بنو النضر

(١) عزاه في الدر المنثور ٤/١٨٢ إلى سعيد بن جبير.

(٢) في (م) و(د): لديه.

(٣) أخرجه الطبري ١٤/٥٩٣ ولكن من طريق قتادة، عن ابن عباس، مرفوعاً. وإسناده منقطع؛ لأن قتادة لم يسمع من أحدٍ من الصحابة سوى أنس بن مالك. المراسيل ص ١٣٩.

(٤) تفسير الطبري ١٤/٥٩٤.

(٥) أخرجه الطبري ١٤/٥٩٤.

(٦) زاد المسير ٥/٣٥.

(٧) تفسير مجاهد ١/٣٦٣، وذكره النحاس في معاني القرآن ٤/١٥٥ - ١٥٦، وأخرجه الطبري ١٤/٥٩٤ - ٥٩٥.

(٨) أخرجه الطبري ١٤/٥٩٤.

(٩) ذكره النحاس أيضاً ٤/١٥٥، وأخرجه الطبري ١٤/٥٩٤.

(١٠) غريب القرآن ص ٢٥٤.

(١١) تفسير الطبري ١٤/٥٩٥ بمعناه.

ابن كنانة لا تَقْفُوا أَمَّنًا، ولا ننتفي من أَيْبِنَا»^(١) أي: لا نَسُبُّ أَمَّنًا. وقال الكُمَيْت:
 فلا أرمي البريء بغير ذنبٍ ولا أَقْفُو الحواصِنَ إن قُفِينَا^(٢)
 يقال: قَفَوْتُهُ أَقْفُوهُ، وَقَفْتُهُ أَقْفُوهُ، وَقَفَيْتُهُ إِذَا اتَّبَعْتُ أثره^(٣). ومنه القافة؛ لتتبعهم
 الآثار^(٤). وقافية كلِّ شيءٍ آخره، ومنه قافية الشَّعر؛ لأنها تقفو البيت^(٥). ومنه اسمُ
 النَّبِيِّ ﷺ الْمُقَفِّي؛ لأنه جاء آخر الأنبياء. ومنه القائف، وهو الذي يتبع أثر الشَّبه.
 يقال: قاف القائف يقوف إذا فعل ذلك^(٦). وتقول: قَفَوْتُ الأثر، بتقديم الفاء على
 القاف. ابنُ عطية: ويشبه أن يكون هذا من تلَّعبِ العرب في بعض الألفاظ، كما
 قالوا: رَعَمَلِي فِي لَعَمْرِي. وحكى الطبريُّ عن فرقةٍ أنها قالت: قَفَا وقاف مثل عَثَا
 وعَاثَ. وذهب منذر بن سعيد إلى أن قَفَا وقاف مثلُ جَبَدَ وجَذَبَ. وبالجمله فهذه الآية
 تنهى عن قول الزُّور والقذف، وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة. وقرأ بعض
 الناس فيما حكى الكسائي «تَقْفُ» بضم القاف وسكون الفاء، وقرأ الجراح: «والقَاد»
 بفتح الفاء، وهي لغةٌ لبعض الناس، وأنكرها أبو حاتم وغيره^(٧).

الثانية: قال ابن خُوَيْزَمَنْدَاد: تضمنت هذه الآية الحكم بالقافة؛ لأنه لما قال:
 ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ دلَّ على جواز ما لنا به علم، فكلُّ ما عَلِمَهُ الإنسان أو
 غلب على ظنُّه جاز أن يحكم به، وبهذا احتججنا على إثبات القُرعة والخُرُص؛ لأنه
 ضربٌ من غَلْبة الظنِّ، وقد يُسَمَّى علماً اتساعاً. فالقائف يُلْحِقُ الولد بأبيه من طريق
 الشبه بينهما، كما يُلْحِقُ الفقيه الفرع بالأصل من طريق الشَّبه. وفي الصحيح عن

(١) أخرجه أحمد (٢١٨٣٩)، وابن ماجه (٢٦١٢) من حديث الأشعث بن قيس ؓ.

(٢) ذيل ديوان الكميّ ص ٤٦٦. الحواصن جمع حصان: وهي المرأة العفيفة المتزوجة. اللسان (حصن).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٠.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١١٤.

(٥) تهذيب اللغة ٩/ ٣٢٧.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٠.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٦، وهي قراءة شاذة. وقول الطبري في تفسيره ١٤/ ٥٩٦.

عائشة: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيَّ مَسْرُوراً تَبَرَّقَ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ، فَقَالَ: «أَلَمْ تَرَيَ أَنَّ مُجَزَّراً نَظَرَ إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ عَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ قَدْ عَطَّيَا رُؤُوسَهُمَا وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا فَقَالَ: إِنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأَقْدَامِ لَمِنْ بَعْضٍ»^(١). وفي حديث يونس بن يزيد: وَكَانَ مُجَزَّراً قَائِماً^(٢).

الثالثة: قال الإمام أبو عبد الله المازري: كانت الجاهلية تقدح في نسب أسامة لكونه أسود شديد السواد، وكان زيد أبوه أبيض من القطن، هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح. قال القاضي عياض: وقال غير أحمد: كان زيد أزهر اللون، وكان أسامة شديد الأدمة، وزيد بن حارثة عربي صريح من كلب، أصابه سيباء^(٣)، حسبما يأتي في سورة الأحزاب^(٤) إن شاء الله تعالى.

الرابعة: استدلل جمهور العلماء على الرجوع إلى القافة عند التنازع في الولد بسرور النبي ﷺ بقول هذا القائف، وما كان عليه السلام بالذي يسر بالباطل ولا يعجبه. ولم يأخذ بذلك أبو حنيفة وإسحاق والثوري وأصحابهم، متمسكين بإلغاء النبي ﷺ الشبه في حديث اللعان^(٥)؛ على ما يأتي في سورة النور^(٦) إن شاء الله تعالى.

الخامسة: واختلف الآخذون بأقوال القافة، هل يؤخذ بذلك في أولاد الحرائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء، على قولين: فالأول: قول الشافعي ومالك رضي الله عنهما في رواية ابن وهب عنه، ومشهور مذهبه قصره على ولد الأمة، والصحيح ما رواه ابن وهب عنه وقاله الشافعي ﷺ؛ لأن الحديث الذي هو الأصل في الباب إنما وقع في الحرائر، فإن أسامة وأباه حران فكيف يلغى السبب الذي خرج

(١) صحيح البخاري (٦٧٧١)، وصحيح مسلم (١٤٥٩): (٣٩). وأخرجه أحمد (٢٤٠٩٩).

(٢) صحيح مسلم بإثر الرواية (١٤٥٩): (٤٠).

(٣) إكمال المعلم ٦٥٦/٤.

(٤) عند تفسير الآية (٤).

(٥) المفهم ٢٠٠/٤.

(٦) عند تفسير الآية (١٠).

عليه دليلُ الحكم وهو الباعثُ عليه، هذا مما لا يجوز عند الأصوليين. وكذلك اختلف هؤلاء، هل يُكتفى بقول واحدٍ من القافة أو لأبَدٍّ من اثنين لأنها شهادة، وبالأول قال ابن القاسم وهو ظاهر الخبر بل نصّه. وبالثاني قال مالك والشافعي رضي الله عنهما^(١).

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي: يُسأل كل واحدٍ منهم عما اكتسب، فالفؤاد يُسأل عما افترق فيه واعتقده، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع^(٢). وقيل: المعنى أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده^(٣)؛ ونظيره قوله ﷺ: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته»^(٤) فالإنسان راعٍ على جوارحه، فكأنه قال: كلُّ هذه كان الإنسان عنه مسؤولاً، فهو على حذف مضاف. والمعنى الأول أبلغ في الحجة؛ فإنه يقع تكذيبه من جوارحه، وتلك غاية الخزي، كما قال: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَنصِتُ أَزْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

وعبر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك؛ لأنها حواسُّ لها إدراك، وجعلها في هذه الآية مسؤولة، فهي حالة من يعقل؛ فلذلك عبّر عنها بأولئك. وقال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]: إنما قال: «رأيتهم» في نجوم؛ لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعلٍ مَنْ يَعْقِلُ عبّر عنها بكناية مَنْ يَعْقِلُ^(٥). وقد تقدّم. وحكى الزّجاج^(٦) أن العرب تُعبّر عمّا يَعْقِلُ وعمّا لا يَعْقِلُ بأولئك، وأنشد هو

(١) المفهم ٢٠١/٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١٢٠٠/٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤٥٦/٣.

(٤) سلف ٤٢٧/٦.

(٥) ينظر معناه في كتاب سيبويه ٤٧/٢.

(٦) في معاني القرآن له ٢٣٩/٢.

والطبري^(١):

ذُمَّ المنازلَ بعد منزلة اللوى والعيشَ بعد أولئك الأيام^(٢)
وهذا أمرٌ يوقف عنده، وأما البيت فالرواية فيه «الأقوام»^(٣)، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هذا نهْيٌ عن الحَيَلَاءِ وأمرٌ بالتواضع. والمَرَحُ: شِدَّةُ الفرح. وقيل: التكبرُ في المشي. وقيل: تجاوز الإنسان قَدْرَهُ. وقال قتادة: هو الحَيَلَاءُ في المشي. وقيل: هو البطر والأشر. وقيل: هو النشاط^(٤). وهذه الأقوال متقاربة، ولكنها منقسمة قسمين: أحدهما مذمومٌ والآخر محمود؛ فالتكبرُ والبطرُ والحَيَلَاءُ وتجاوزُ الإنسانِ قَدْرَهُ مذمومٌ، والفرح والنشاط محمود. وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما، ففي الحديث الصحيح: «للهُ أفرحُ بتوبة العبد من رجل...» الحديث^(٥). والكسل مذمومٌ شرعاً والنشاط ضِدُّه. وقد يكون التكبرُ وما في معناه محموداً، وذلك على أعداء الله والظَّلمة^(٦).

أسند أبو حاتم محمد بن حَبَّان عن ابن جابر بن عتيك، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ

(١) في تفسيره ٥٩٦/١٤.

(٢) قائله جرير، وهو في شرح ديوانه ٩٩٠/٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤٥٦/٣.

(٤) النكت والعيون ٢٤٤/٣، وأحكام القرآن لابن العربي ١٢٠١/٣.

(٥) أخرجه أحمد (٣٦٢٧)، والبخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤) من حديث عبد الله بن مسعود ؓ.

وأحمد (١٣٢٢٧)، والبخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك ؓ. وأحمد

(١٨٤٢٣)، ومسلم (٢٧٤٥) من حديث النعمان بن بشير ؓ. وأحمد (١٨٤٩٢)، ومسلم (٢٧٤٦) من

حديث البراء بن عازب ؓ.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ١٢٠١/٣.

أنه قال: «إِنَّ مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُبْغِضُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ومنها مَا يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ومن الْخِيَلَاءِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ومنها مَا يُبْغِضُ اللَّهُ، فأما الْغَيْرَةُ التي يُحِبُّ اللَّهُ الْغَيْرَةَ فِي الدِّينِ، وَالْغَيْرَةُ التي يُبْغِضُ اللَّهُ الْغَيْرَةَ فِي غير دينه، وَالْخِيَلَاءُ التي يُحِبُّ اللَّهُ اخْتِيَالُ الرَّجُلِ بِنَفْسِهِ عِنْدَ الْقِتَالِ وَعِنْدَ الصَّدَقَةِ، وَالْاخْتِيَالُ الذي يُبْغِضُ اللَّهُ الْخِيَلَاءُ فِي الْبَاطِلِ» وأخرجه أبو داود في مصنّفه وغيره^(١). وأنشدوا:

ولا تَمْشِ فوقَ الأرضِ إلا تواضِعاً فكم تحتها قومٌ همُ منك أرفعُ
وإن كنتَ في عزٍّ وحِرْزٍ ومَنَعَةٍ فكم ماتَ من قومٍ همُ منك أَمْنَعُ^(٢)

الثانية: إقبال الإنسان على الصيد ونحوه تنزّهاً^(٣) دون حاجة إلى ذلك داخل في هذه الآية، وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنى. وأما الرجل يستريح في اليوم النادر والساعة من يومه، يُجَمُّ فيها نفسه في التطرُّح والراحة؛ ليستعين بذلك على شُغْلٍ من البرِّ، كقراءة علم أو صلاة، فليس بداخل في هذه الآية^(٤).

قوله تعالى: ﴿مَرَحاً﴾ قراءة الجمهور بفتح الراء. وقرأت فرقة فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بناء اسم الفاعل^(٥). والأول أبلغ، فإن قولك: جاء زيدٌ رَكُضاً أبلغُ من قولك: جاء زيدٌ رَاكِضاً، فكذلك قولك: مَرَحاً. والمَرَحُ المصدَرُ أبلغُ من أن يُقال: مَرِحاً^(٦).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ يعني: لن تتولَّج باطنها فتعلم ما فيها

(١) صحيح ابن حبان (٢٩٥)، وسنن أبي داود (٢٦٥٩)، وسنن النسائي ٧٨/٥ - ٧٩، ومسنَد أحمد (٢٣٧٤٧).

(٢) ذكرهما ابن حبان في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ٦١، وذكر أن الكريزي أنشده إياهما.

(٣) في (م): ترفعاً.

(٤) المحرر الوجيز ٤٥٧/٣ دون قوله: وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنى.

(٥) المحرر الوجيز ٤٥٧/٣.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢٤٠/٣ بمعناه.

﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ أي: لن تساويَ الجبالَ بطولك ولا تطاولك^(١). ويقال: خرق الثوب أي: شقّه، وخرق الأرض: قطعها، والخرقُ: الواسع من الأرض^(٢). أي: لن تخرق الأرض بكبرك ومشيك عليها، ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ بعظمتك^(٣)، أي: بقدرتك لا تبلغ هذا المبلغ، بل أنت عبدٌ ذليل، مُحاطٌ بك من تحتك ومن فوقك، والمُحاط محصورٌ ضعيف، فلا يليقُ بك التكبر. والمرادُ بخرق الأرض هنا نقيبها لا قطعها بالمسافة^(٤)، والله أعلم. وقال الأزهري: معناه: لن تقطعها^(٥). النحاس^(٦): وهذا أبين؛ لأنه مأخوذٌ من الخرق: وهي الصحراء الواسعة. ويُقال: فلانٌ أخرقٌ من فلان، أي: أكثر سفرًا وغزوًا منه^(٧).

ويُروى أن سبأ دَوَّخَ الأرض بأجناده شرقاً وغرباً وسَهلاً وجبلاً، وقتل سادةً وسبى - وبه سُمِّيَ سبأ - ودانَ له الخلق، فلَمَّا رأى ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيام، ثم خرج إليهم فقال: إني لَمَّا نِلْتُ ما لم ينل أحدٌ رأيْتُ الابتداء بشكر هذه النعم، فلم أرَ أوقع في ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت، فسجدوا لها، وكان ذلك أولَ عبادة الشمس، فهذه عاقبة الخيلاء والتكبر والمرح^(٨)، نعوذُ بالله من ذلك.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ «ذلك» إشارة إلى جملة ما تقدّم ذكره مما أمر به ونهى عنه^(٩). و«ذلك» يصلح للواحد والجمع والمؤنث

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠١.

(٢) تهذيب اللغة ٧/ ٢١ - ٢٢، والمحور الوجيز ٣/ ٤٥٧.

(٣) الوسيط ٣/ ١٠٨، وزاد المسير ٥/ ٣٦ عن ابن عباس.

(٤) وردَّ هذا القول أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٨٠.

(٥) تهذيب اللغة ٧/ ٢١ بمعناه.

(٦) في معاني القرآن له ٤/ ١٥٧.

(٧) في (م) و(د): وعزة ومنعة.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠١.

(٩) الوسيط للواحد ٣/ ١٠٨.

والمذكر.

وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ومسروق: «سَيِّئُهُ» على إضافة سَيِّئٍ إلى الضمير؛ ولذلك قال: «مَكْرُوهًا» نصب على خبر كان^(١). والسَيِّئُ: هو المكروه، وهو الذي لا يرضاه الله عزَّ وجلَّ ولا يأمر به^(٢). وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾ مأمورات بها ومنهيات عنها، فلا يُخْبِرُ عن الجميع بأنه سيئة فيدخل المأمور به في المنهي عنه^(٣). واختار هذه القراءة أبو عبيد^(٤). ولأن في قراءة أبي: «كلُّ ذَلِكَ كان سيئاته»^(٥) فهذه لا تكون إلا للإضافة.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «سَيِّئَةً» بالتنوين، أي: كلُّ ما نهى الله ورسوله عنه سيئة. وعلى هذا انقطع الكلام عند قوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾، ثم قال: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كان سيئة﴾ بالتنوين^(٦).

وقيل: إن قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ إلى هذه الآية كان سيئة لا حسنة فيه، فجعلوا «كُلًّا» محيطاً بالمنهي عنه دون غيره. وقوله: ﴿مَكْرُوهًا﴾ ليس نعتاً لسيئة، بل هو بدلٌ منه، والتقدير: كان سيئة وكان مكروهاً^(٧). وقد قيل: إن «مكروهاً» خبر ثانٍ لكان حُمِلَ على لفظة كلٍّ، و«سيئة» محمولٌ على المعنى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبل. وقال بعضهم: هو نعتٌ لسيئة؛ لأنه لما كان تأنيثها غير حقيقي جاز أن تُوصَفَ بمذكر. وضعَّف أبو علي الفارسي هذا وقال: إن المؤنث إذا ذُكِرَ فإنما ينبغي

(١) المحرر الوجيز ٣/٤٥٧، والقراءة عن الأربعة دون مسروق في السبعة ص ٣٨٠، والتيسير ص ١٤٠.

(٢) تفسير الطبري ١٤/٦٠٠.

(٣) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ٥/١٠٢ - ١٠٣.

(٤) تفسير أبي الليث، ووقع في مطبوعه: أبو عبيدة.

(٥) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٧٦ - ٧٧ ونسبها إلى أبي إسحاق.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/٢٤٠ - ٢٤١، والقراءة في السبعة ص ٣٨٠، والتيسير ص ١٤٠.

(٧) الوسيط للواحدي ٣/١٠٨.

أن يكون ما بعده مذكراً، وإنما التساهل أن يتقدم الفعل المسند إلى المؤنث وهو في صيغة ما يُسند إلى المذكر، ألا ترى قول الشاعر:

فلا مُزنَةٌ ودَقْتُ ودَقَّها ولا أرضَ أبْقَلَ إِبْقَالَها^(١)

مستقبَّح عندهم. ولو قال قائل: «أبْقَلَ أرضَ» لم يكن قبيحاً. قال أبو علي: ولكن يجوز في قوله: «مكروهاً» أن يكون بدلاً من «سيئة». ويجوز أن يكون حالاً من الضمير الذي في «عند ربك» ويكون «عند ربك» في موضع الصفة لسيئة^(٢).

الخامسة: استدلل العلماء بهذه الآية على ذم الرقص وتعاطيه. قال الإمام أبو الوفاء بن عقيل: قد نص القرآن على النهي عن الرقص فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ وذم المختال. والرقص أشدُّ المرح والبطر، أولسنا الذين قسنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما في الإطراب والسُّكْر؟ فما بالنا لا نقيس القضيْب وتلحين الشَّعر معه على الطنبور والمِزمار والطُّبل لاجتماعهما؟! فما أقبح من ذي لَحْيَةٍ، وكيف إذا كان شبيبةً، يرقص ويُصَفِّق على إيقاع الألحان والقضبان، وخصوصاً إن كانت أصواتُ لنسوانٍ ومُردانٍ، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط، ثم هو إلى إحدى الدارين، يَشْمُسُ^(٣) بالرقص شمس البهائم، ويُصَفِّق تصفيق النسوان، ولقد رأيتُ مشايخَ في عمري ما بان لهم سِنَّ من التَّبَسُّم فضلاً عن الضحك مع إدمان مخالطتي لهم. وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله: ولقد حدَّثني بعض المشايخ عن الإمام الغزالي رحمته أنه قال: الرقص حماقة بين الكتفين لا تزول إلا باللعب^(٤).

(١) قائله عامر بن جوين الطائي، وهو في كتاب سيبويه ٤٦/٢، والكامل ٨٤١/٢، والخصائص ٤١١/٢، والخزانة ٤٥/١.

(٢) المحرر الوجيز ٤٥٧/٣ - ٤٥٨، وينظر كلام أبي علي الفارسي بمعناه في الحجة للقراء السبعة ١٠٢/٥ - ١٠٣.

(٣) يقال: شَمَسَتِ الدابة: إذا شردت وجمحت ومنعت ظهرها. اللسان (شمس).

(٤) تلبس إبليس ص ٢٥٠ - ٢٥١.

وسياتي لهذا الباب مزيد بيان في الكهف^(١) وغيرها^(٢) إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ ﴿٣٩﴾

الإشارة: بـ «ذلك» إلى هذه الآداب والقصص والأحكام التي تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التي نزل بها جبريل عليه السلام، أي: هذه من الأفعال المحكمة التي تقتضيها حكمة الله عز وجل في عباده، وخلقه لهم من محاسن الأخلاق، والحكمة: قوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة. ثم عطف قوله: «ولا تجعل» على ما تقدّم من النواهي. والخطاب للنبي ﷺ والمراد كل من سمع الآية من البشر. والمدحور: المهان المبعد المفضى^(٣). وقد تقدّم في هذه السورة^(٤). ويقال في الدعاء: اللهم اذكر عنا الشيطان؛ أي: أبعده^(٥).

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيْنِ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٠﴾

هذا يراد على من قال من العرب: الملائكة بنات الله، وكان لهم بنات أيضاً مع البنين، ولكنه أراد: أفأخلص لكم البنين دونه، وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه^(٦). ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي: في الإثم عند الله عز وجل^(٧).

(١) عند تفسير الآية (١٤) في الكلام على المسألة الثانية.

(٢) عند تفسير الآية (٦) من سورة لقمان.

(٣) المحرر الوجيز ٢٥٨/٣، وفي النسخ: «وخلقها» بدل «وخلقه»، و«قوانين» بدل «قوانين».

(٤) ٤٨/١٣.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٥٥، ومعاني القرآن للنحاس ١٥٨/٤.

(٦) زاد المسير ٣٧/٥، ومجمع البيان ٥١/١٥.

(٧) الوسيط ١٠٨/٣، ومجمع البيان ٥١/١٥.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: بيّنا. وقيل: كرّرنا. ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ قيل: «في» زائدة، والتقدير: ولقد صرّفنا هذا القرآن^(١)؛ مثل: ﴿وَأَصْلَحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف: ١٥] أي: أصلح ذريتي. والتصريف: صرف الشيء من جهة إلى جهة^(٢). والمراد بهذا التصريف البيان والتكرير. وقيل: المغايرة، أي: غايرنا بين المواعظ ليذكروا ويعتبروا ويتّعظوا^(٣). وقراءة العامة: «صرّفنا» بالتشديد على التكرير حيث وقع. وقرأ الحسن بالتخفيف^(٤). وقوله: ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ يعني الأمثال والعبر والحكم والمواعظ والأحكام والإعلام^(٥). قال الثعلبي: سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبي الطيب: لقوله تعالى: «صرّفنا» معنيان؛ أحدهما: لم يجعله نوعاً واحداً، بل وعداً ووعداً، ومُحكماً ومتشابهاً، ونهياً وأمرأ، وناسخاً ومنسوخاً، وأخباراً وأمثالاً، مثلُ تصريف الرياح من صَباً ودُبُور وجنوب وشمال، وتصريف الأفعال من الماضي والمستقبل والأمر والنهي والفعل والفاعل والمفعول ونحوها. والثاني: أنه لم ينزل مرةً واحدةً بل نجومأً، نحو قوله: ﴿وَقَرَأْنَاكَ فُورَةً﴾ [الإسراء: ١٠٦] ومعناه: أكثرنا صرف جبريل عليه السلام إليك. ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ قراءة يحيى والأعمش وحمزة والكسائي: «لِيَذَكَّرُوا» مخففاً، وكذلك في الفرقان [الآية: ٥٠]: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا إِلَيْهِمْ لِيَذَكَّرُوا﴾. الباكون بالتشديد^(٦). واختاره أبو عبيد؛ لأنَّ معناه: ليتذكروا وليتّعظوا. قال المهدوي: من شدّد «لِيَذَكَّرُوا» أراد التدبر. وكذلك من قرأ «لِيَذَكَّرُوا». ونظير

(١) المحرر الوجيز ٤٥٨/٣، وضعفه.

(٢) تفسير الرازي ٢٠/٢١٦.

(٣) النكت والعيون ٣/٢٤٤.

(٤) المحتسب ٢/٢١، وهي قراءة شاذة.

(٥) تفسير الطبري ١٤/٦٠٢، والمحرر الوجيز ٣/٤٥٨.

(٦) السبعة ٣٨٠، والتيسير ص ١٤٠، والمحرر الوجيز ٣/٤٥٨.

الأول ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١] والثاني: ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣]. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: التصريف والتذكير ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: تباعداً عن الحقّ وغفلة عن النظر والاعتبار؛ وذلك لأنهم اعتقدوا في القرآن أنه حيلةٌ وسحرٌ وكهانةٌ وشعر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ ﴿٤١﴾
 سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ﴾ هذا متصل بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ وهو ردٌّ على عبّاد الأصنام. ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ قرأ ابن كثير وحفص: «يقولون» بالياء. الباقون: «تقولون» بالتاء على الخطاب^(١). ﴿إِذَا لَأَبْتَغُوا﴾ يعني الآلهة. ﴿إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ قال ابن العباس رضي الله تعالى عنهما: لَطلبوا مع الله منازعةً وقتالاً كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض^(٢). وقال سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه: المعنى: إذا لَطلبوا طريقاً إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه؛ لأنهم شركاؤه^(٣). وقال قتادة: المعنى: إذا لَابتَغَتِ الآلهَةُ القُرْبَةَ إلى ذي العرش سبيلاً، والتمستِ الزُلْفَةَ عنده؛ لأنهم دونهُ^(٤)، والقوم اعتقدوا أنَّ الأصنام تُقرِّبهم إلى الله زلفى، فإذا اعتقدوا في الأصنام أنها محتاجةٌ إلى الله سبحانه وتعالى فقد بطل أنها آلهة. ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ نَزَّهَ سبحانه نفسه وقُدَّسه ومجَّده عما لا يليق به. والتسبيح: التنزيه. وقد تقدّم^(٥).

(١) السبعة ص ٣٨١، والتيسير ص ١٤٠.

(٢) مجمع البيان ٥٣/٢٠، وذكره أبو الليث ٢٦٩/٢ عن مقاتل.

(٣) النكت والعيون ٢٤٥/٣.

(٤) مجمع البيان ٥٣/١٥.

(٥) ٤١٢/١.

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا عَفُورًا ۝٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أعاد على السماوات والأرض ضمير من يعقل، لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح. وقوله: ﴿وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن، ثم عمَّ بعد ذلك الأشياء كلها في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(١). واختلف في هذا العموم، هل هو مخصص أم لا، فقالت فرقة: ليس مخصوصاً، والمراد به تسبيح الدلالة، وكلُّ مُحَدِّثٍ يشهد على نفسه بأنَّ الله عزَّ وجلَّ خالقٌ قادرٌ^(٢). وقالت طائفة: هذا التسبيح حقيقة، وكلُّ شيءٍ على العموم يُسَبِّحُ تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهه، ولو كان ما قاله الأولون^(٣) من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمراً مفهوماً^(٤)، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقهه. وأجيبوا بأن المراد بقوله: «لا تفقهون» الكفار الذين يُعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى في الأشياء. وقالت فرقة: قوله «مِنْ شَيْءٍ» عموم، ومعناه الخصوص في كلِّ حيٍّ ونامٍ، وليس ذلك في الجمادات. ومن هذا قول عكرمة: الشجرة تُسَبِّحُ والأسطوان لا يُسَبِّحُ. وقال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام وقد قُدِّمَ الخوان: أيسبِّح هذا الخوان يا أبا سعيد؟ فقال: قد كان يُسَبِّحُ مرةً. يريد أنَّ الشجرة في زمن ثمرها واعتدالها كانت تُسَبِّحُ، وأما الآن فقد صار خواناً مدهوناً^(٥).

قلت: ويُستدلُّ لهذا القول من السُّنَّة بما ثبت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ مرَّ على قبرين فقال: «إنهما ليُعَذَّبَانِ، وما يُعَذَّبَانِ في كبير، أما

(١) المحرر الوجيز ٤٥٩/٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢٤٢/٣، والوسيط للواحدي ١٠٩/٣.

(٣) في المحرر الوجيز: الآخرون.

(٤) في المحرر الوجيز: مفقوهاً.

(٥) المحرر الوجيز ٤٥٩/٣، وأثر عكرمة أخرجه الطبري ٦٠٥/١٤، وأثر الحسن أخرجه الطبري

أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول» قال: فدعا بعسيب رطب فشقه اثنين، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً، ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبس»^(١). فقوله عليه الصلاة والسلام: «ما لم ييبس» إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبحان، فإذا يبسا صارا جماداً. والله أعلم. وفي «مسند أبي داود الطيالسي»: فوضع على أحدهما نصفاً وعلى الآخر نصفاً، وقال: «لعله أن يهون عليهما العذاب ما دام فيهما من بلولتهما شيء»^(٢). قال علماؤنا: ويستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خفف عنهم بالأشجار، فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن؟! وقد بينّا هذا المعنى في كتاب «التذكرة»^(٣) بياناً شافياً، وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يهدى إليه. والحمد لله على ذلك. وعلى التأويل الثاني لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن كل شيء من الجماد وغيره يسبح.

قلت: ويستدل لهذا التأويل وهذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَرْنَا لِحَالِ مَعَهُ يُسَيِّحُ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٧-١٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] - على قول مجاهد - وقوله: ﴿وَنَحْنُ لِحَالِ هَذَا * أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩١]. وذكر ابن المبارك في «رقائقه»: أخبرنا مسعر، عن عبد الله بن واصل، عن عون^(٤) بن عبد الله قال: قال عبد الله بن مسعود: «إِنَّ الْجِبَلَ لَيَقُولُ لِلْجِبَلِ: يَا فُلَانُ، هَلْ مَرَّ بِكَ الْيَوْمَ ذَاكِرٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، سُرَّ بِهِ. ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨] الآيات. قال: أفتراهنَّ يَسْمَعْنَ الرُّوْرَ وَلَا يَسْمَعْنَ الْخَيْرَ»^(٥). وفيه عن أنس

(١) أخرجه أحمد (١٩٨٠)، والبخاري (٦٠٥٢)، ومسلم (٢٩٢).

(٢) مسند الطيالسي (٨٦٧) من حديث أبي بكرة. وأخرجه أحمد (٢٠٤١١).

(٣) ص ١٥٠.

(٤) تصحف اسم عون في النسخ سوى (ظ) إلى عوف.

(٥) الزهد لابن المبارك (٣٣٣)، عبد الله بن واصل مجهول تفرد بالرواية عنه مسعر بن كدام كما في التاريخ الكبير ٢١٩/٥، والجرح والتعديل ١٩٢/٥، وذكره ابن حبان في الثقات ٥٧/٧ على عادته في توثيق المجاهيل. وعون بن عبد الله لم يدرك عبد الله بن مسعود. قاله الترمذي في سنته عقب الحديث (١٢٧٠).

ابن مالك رحمه الله قال: ما من صباح ولا رواح إلا تُنادي بقاع الأرض بعضها بعضاً: يا جاره، هل مرَّ بك اليوم عبدٌ فصلَّى لله أو ذكر الله عليك؟ فمن قائلة: لا، ومن قائلة: نعم، فإذا قالت: نعم، رأت لها بذلك فضلاً عليها^(١). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يسمع صوت المؤذن جنٌّ ولا إنسٌ ولا شجرٌ ولا حجرٌ ولا مدَّرٌ ولا شيءٌ إلا شهد له يوم القيامة». رواه ابن ماجه في «سننه»، ومالك في «موطئه» من حديث أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه^(٢). وخرَّج البخاريُّ عن عبد الله رضي الله عنه قال: لقد كُنَّا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل^(٣). في غير هذه الرواية عن ابن مسعود رضي الله عنه: كُنَّا نأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيحه^(٤). وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن سُمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسَلِّمُ عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»^(٥). قيل: إنه الحجر الأسود، والله أعلم. والأخبار في هذا المعنى كثيرة؛ وقد أتينا على جملة منها في التلخيص اللؤلؤي في شرح العشرينات النبوية للفاداري رحمه الله، وخبر الجذع أيضاً مشهور في هذا الباب خرَّجه البخاري في مواضع من كتابه^(٦). وإذا ثبت ذلك في جمادٍ واحدٍ جاز في جميع الجمادات، ولا استحالة في شيءٍ من ذلك، فكلُّ شيءٍ يُسَبِّحُ للعموم. وكذا قال النَّحَعِيُّ وغيره: هو عامٌّ فيما فيه روحٌ وفيما لا روح فيه حتى صرير الباب^(٧). واحتجُّوا بالأخبار التي ذكرنا. وقيل: تسبيح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول: سبحان الله! لعدم الإدراك منها. وقال الشاعر:

(١) الزهد لابن المبارك (٣٣٥) عن صالح المري، عن جعفر بن زيد، عن أنس. صالح المري: هو ابن بشير، وهو ضعيف جداً. الميزان ٢٨٩/٢ - ٢٩٠.

(٢) سنن ابن ماجه (٧٢٣)، والموطأ ١/٦٩. وأخرجه أحمد (١١٣٠٥)، والبخاري (٦٠٩).

(٣) صحيح البخاري (٣٥٧٩). وأخرجه أحمد (٤٣٩٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٦٣٣)، وابن خزيمة (٢٠٤)، والطبراني في الأوسط (٤٤٩٨).

(٥) صحيح مسلم (٢٢٧٧).

(٦) صحيح البخاري (٣٥٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد (٥٨٨٦).

(٧) التكت والعيون ٣/٢٤٥، وزاد المسير ٥/٣٩.

تُلْقَى بِتَسْبِيحَةٍ مِنْ حَيْثُ مَا انْصَرَفْتَ وَتَسْتَفِرُّ حَشَا الرَّائِي بِتَرْعَادٍ^(١)
 أي: يقول من رآها: سبحانَ خالقِها. فالصحيح أن الكلَّ يُسَبِّحُ؛ للأخبار الدالة
 على ذلك، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأيُّ تخصيصٍ لداود، وإنما ذلك تسبيح
 المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا. وقد نصَّت السُّنَّةُ على ما دلَّ عليه
 ظاهر القرآن من تسبيح كلِّ شيءٍ، فالقول به أولى. والله أعلم.

وقرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وحفص وحمزة والكسائي وخلف: «تفقهون»
 بالتاء لتأنيث الفاعل. الباقون بالياء^(٢)، واختاره أبو عبيد، قال: للحائل بين الفعل
 والتأنيث. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا﴾ عن ذنوب عباده في الدنيا ﴿عَفُورًا﴾ للمؤمنين في الآخرة.
 قوله تعالى: ﴿وَلِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا
 مَسْتُورًا﴾ ﴿٤٥﴾

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت: لما نزلت سورة ﴿تَبَّتْ
 يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فِهْرٌ وهي
 تقول:

* مُدَمَّمًا أَبِينَا * وَدَيْنَهُ قَلِينَا * وَأَمْرَهُ عَصِينَا *

والنبي ﷺ قاعدٌ في المسجد ومعه أبو بكر ؓ، فلما رآها أبو بكر قال:
 يا رسول الله، لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك! قال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني»
 وقرأ قرآنًا فاعتصم به كما قال. وقرأ: ﴿وَلِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

(١) ينظر النكت والعيون ٢٤٥/٣، والبيت قائله بشار بن برد، وهو في ديوانه ٢٣١/٢ بلفظ:

تُلْقَى بِتَسْبِيحَةٍ مِنْ حُسْنٍ مَا خُلِقَتْ وَتَسْتَفِرُّ حَشَا الرَّائِي بِإِرْعَادٍ

(٢) لم نقف على من قرأ «تفقهون» بالياء، والظاهر أن المصنف وهم في ذلك، والصحيح أن كلامه هذا
 ينبغي أن يعود على قوله: «تسبح»، فقد قرأها هكذا أبو عمرو وعاصم في رواية حفص وحمزة
 والكسائي، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر: «يُسَبِّحُ» بالياء. ينظر المحرر
 الوجيز ٤٦٠/٣.

بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿١﴾ فوقف على أبي بكر ؑ ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، أخبرني أن صاحبك هجاني. فقال: لا ورب هذا البيت ما هجائك. قال: فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها^(١). وقال سعيد بن جبيرة ؓ: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جاءت امرأة أبي لهب إلى النبي ﷺ ومعه أبو بكر ؓ، فقال أبو بكر: لو تَنَحَّيْتَ عنها لثلاث سمعك ما يؤذك، فإنها امرأة بذيّة. فقال النبي ﷺ: «إنه سيُحال بيني وبينها» فلم تره. فقالت لأبي بكر: يا أبا بكر، هجانا صاحبك. فقال: والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله. فقالت: وإنك لمُصدّقه. فاندفعت راجعة. فقال أبو بكر ؓ: يا رسول الله، أما رأيتك؟ قال: «لا، ما زال ملكٌ بيني وبينها يسترني حتى ذهبت»^(٢). قال كعب ؓ في هذه الآية: كان النبي ﷺ يستتر من المشركين بثلاث آيات: الآية التي في الكهف [٥٧] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، والآية التي في النحل [١٠٨] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾، والآية التي في الجاثية [٢٣] ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَفَّمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ الآية. فكان النبي ﷺ إذا قرأهن يستتر من المشركين. قال كعب رضي الله تعالى عنه: فحدثت بهنّ رجلاً من أهل الشام، فأتى أرض الروم فأقام بها زماناً، ثم خرج هارباً، فخرجوا في طلبه، فقرأ بهنّ، فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه. قال الثعلبي: وهذا الذي يروونه عن كعب حدثت به رجلاً من أهل الريّ فأسير بالديلم، فمكث فيهم زماناً، ثم خرج هارباً، فخرجوا في طلبه، فقرأ بهنّ حتى جعلت ثيابهنّ لتلمس ثيابه فما يبصرونه.

(١) أخرجه الحميدي (٣٢٣)، والأزرقي في أخبار مكة ٣١٦/١، وأبو يعلى (٥٣)، والحاكم ٣٦١/٢. وفي المصادر بعد قوله: «ودينه قلينا» وأمره عصينا. اللولة: صوت متابع بالويل والاستغاثة. والفهر: هو الحجر ملء الكف، أو الحجر مطلقاً. اللسان (ولول) و(فهر).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٤٩٨/١١ - ٤٩٩، وأبو نعيم في الدلائل (١٤٠) من طريق محمد بن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة.

وأخرجه البزار (١٥)، وأبو يعلى (٢٥)، وابن حبان (٦٥١١) من طريق عبد السلام بن حرب، عن عطاء، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس.

قلت: ويزاد إلى هذه الآي أول سورة يس إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾. فإنَّ في السيرة في هجرة النبي ﷺ ومقام عليّ عليه السلام في فراشه قال: وخرج رسول الله ﷺ فأخذ حَفْنَةً من تراب في يده، وأخذ الله عزَّ وجلَّ على أبصارهم عنه فلا يَرَوْنَهُ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس: ﴿يَس . وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلَ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكْنًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ حتى فرغ رسول الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبقَ منهم رجلٌ إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيثُ أراد أن يذهب^(١).

قلت: ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منشور^(٢) من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أني هربت أمام العدوَّ وانحزْتُ إلى ناحية عنه، فلم أَلْبَثْ أن أخرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعدٌ ليس يسترنني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن، فعبرا عليَّ ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا دَيْبُلُهُ، يعنون شيطاناً. وأعمى الله عزَّ وجلَّ أبصارهم فلم يروني، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك.

وقيل: الحجاب المستور: طَبْعُ اللَّهِ على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة. قاله قتادة. وقال الحسن: أي: إنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجابٌ في عدم رؤيته لك حتى كأنَّ على قلوبهم أغطية^(٣). وقيل: نزلت في قوم كانوا يؤذون رسولَ الله ﷺ إذا قرأ القرآن، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأم جميل - امرأة أبي لهب - وحويطب، فحجب الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يمرُّون به ولا

(١) سيرة ابن هشام ٤٨٣/١ .

(٢) كذا في جميع النسخ، ولم نقف على مكان بهذا الاسم، ولعله «حصن المدور» كما في معجم البلدان ٧٧/٥، والكامل ١٢٦/٥، ونفح الطيب ٥٥/١ و ٣٨/٣ .

(٣) النكت والعيون ٢٤٦/٣ .

يرونه^(١). قاله الرَّجَّاج وغيره^(٢). وهو معنى القول الأوَّل بعينه، وهو الأظهر في الآية، والله أعلم.

وقوله: ﴿مَسْتَوْرًا﴾ فيه قولان: أحدهما - أنَّ الحجاب مستور عنكم لا ترونه. والثاني - أنَّ الحجاب ساترٌ عنكم ما وراءه، ويكون مستوراً بمعنى ساتر^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ «أكِنَّة» جمع كِنَان، وهو ما ستر الشيء. وقد تقدم في «الأنعام»^(٤). ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفقهوه، أو كراهية أن يفقهوه^(٥)، أي: أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم والمعاني. وهذا ردٌّ على القدرة. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمماً وثقلًا^(٦). وفي الكلام إضمار، أي: أن يسمعه. ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي: قلت: لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن^(٧). وقال أبو الجوزاء أوس بن عبد الله: ليس شيء أظردَ للشيطان من القلب من قول لا إله إلا الله، ثم تلا: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾^(٨). وقال علي بن الحسين: هو قوله: بسم الله الرحمن الرحيم. وقد تقدم هذا في البسملة^(٩). ﴿وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ قيل: يعني: بذلك المشركين. وقيل: الشياطين^(١٠). و«نُفُورًا» جمع نافر،

(١) زاد المسير ٤١/٥.

(٢) قول الزجاج في معاني القرآن له ٢٤٣/٣ بلفظ: الحجاب: منع الله إِيَّاهم من النبي عليه الصلاة والسلام.

(٣) النكت والعيون ٢٤٦/٣.

(٤) ٣٤٤/٨ - ٣٤٥.

(٥) تفسير البغوي ١١٧/٣، وينظر ٣٤٥/٨.

(٦) تفسير أبي الليث ٢٧٠/٢.

(٧) الوسيط للواحدي ١١٠/٣.

(٨) ذكره النحاس في معاني القرآن ١٦٠/٤ بمعناه.

(٩) ١٤٣/١.

(١٠) زاد المسير ٤١/٥، وذكر الأول عن ابن زيد والثاني عن ابن عباس.

مثل: شهود جمع شاهد، وقعود جمع قاعد، فهو منصوبٌ على الحال. ويجوز أن يكون مصدراً على غير الصدر، إذ كان قوله: «وَلَوْأ» بمعنى نفروا، فيكون معناه: نفروا نفوراً^(١).

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الْفَلَّامُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ قيل: الباء زائدة في قوله: «به» أي: يستمعونه^(٢). وكانوا يستمعون من النبي ﷺ القرآن، ثم ينفرون فيقولون: هو ساحر ومسحور، كما أخبر الله تعالى به عنهم. قاله قتادة وغيره. ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ أي: مُتَنَاجُونَ في أمرك^(٣). قال قتادة: وكانت نجواهم قولهم: إنه مجنون، وإنه ساحر، وإنه يأتي بأساطير الأولين، وغير ذلك^(٤). وقيل: نزلت حين دعا عُتْبَةُ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ إلى طعام صنع له، فدخل عليهم النبي ﷺ وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله؛ فتناجوا، يقولون: ساحر ومجنون. وقيل: أمر النبي ﷺ علياً أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أَشْرَافَ قُرَيْشٍ من المشركين، ففعل ذلك عليٌّ، ودخل عليهم رسولُ الله ﷺ، وقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى التوحيد، وقال: «قولوا لا إله إلا الله؛ لِيُطِيعَكُمُ الْعَرَبُ وتدين لكم العجم» فأبوا، وكانوا يستمعون من النبي ﷺ ويقولون بينهم مُتَنَاجِينَ: هو ساحرٌ وهو مسحور، فنزلت الآية^(٥).

وقال الزَّجَّاج: النَّجْوَى اسم للمصدر، أي: وإذ هم دَوُو نجوى^(٦)، أي: سرار^(٧).

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢٤٣/٣، وإعراب القرآن للنحاس ٤٢٦/٢، وزاد المسير ٤١/٥. وقول النصب على الحال قاله مكي بن أبي طالب في مشكل إعراب القرآن ٤٣٢/١.

(٢) الوسيط للواحد ١١١/٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٤٢/٥.

(٣) تفسير البغوي ١١٨/٣.

(٤) أخرجه الطبري ٦١٢/١٤.

(٥) الوسيط للواحد ١١١/٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٤٢/٥، وتفسير الرازي ٢٢٣/٢٠.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢٤٣/٣.

(٧) معاني القرآن للنحاس ١٦١/٤.

﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ أبو جهل والوليد بن المُغيرة وأمثالهما. ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أي: مَطْبُوبًا قد خبَله السَّحَرُ فاختلط عليه أمره، يقولون ذلك لينفروا عنه الناس^(١). وقال مجاهد: «مسحوراً» أي: مخدوعاً، مثلُ قوله: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩] أي: من أين تُخدعون^(٢).

وقال أبو عبيدة: «مسحوراً» معناه أن له سَحْرًا، أي رِثَةً، فهو لا يستغني عن الطعام والشراب، فهو مثلكم وليس بملك. وتقول العرب للجبان: قد انتفع سَحْرُهُ. ولكلِّ مَنْ أَكَلَ من آدميٍّ وغيره أو شربَ: مسحورٌ ومُسَحَّرٌ؛ قال ليبيد^(٣):
فإن تسألينا فيم نحنُ فإننا عَصَافِيرُ من هذا الأنامِ المُسَحَّرِ
وقال امرؤ القيس:

أرانا مُوضَعِينَ لأمْرِ غَيْبٍ ونُسَحَرُ بالطعامِ وبالشَّرَابِ^(٤)
أي: نُعَذَى ونُعَلَّل^(٥). وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: مَنْ هذه التي تُساميني من أزواج النبي ﷺ، وقد تُوفِّي رسول الله ﷺ بين سَحْري ونَحْري^(٦)!

(١) تفسير البغوي ١١٨/٣.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٥٦، وقول مجاهد ذكره النحاس في معاني القرآن ١٦١/٤، والبغوي ١١٨/٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٤٢/٥.

(٣) في ديوانه ص ٥٦.

(٤) ديوان امرئ القيس ص ٩٧. قال شارحه: «نرى أنفسنا موضعين» أي: مسرعين. «لأمر غيب» أي: للموت المُغِيب، أي: نسرع في آجالنا وقد غُيِّب عنا وقت انقضائها.

(٥) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٨١-٣٨٢/١، والمحزر الوجيز ٤٦١/٣، وزاد المسير ٤٢/٥-٤٣. واستدل ابن قتيبة في الغريب ص ٢٥٦، والنحاس في المعاني ١٦١/٤ بهذا البيت لقول مجاهد، والمعنى: نُخدع. وتعقَّب ابنُ قتيبة أبا عبيدة في تفسيره فقال: ولست أدري ما اضطرَّه إلى هذا التفسير المُستكْرَه! وقد سبق التفسير من السلف بما لا استكراه فيه.

(٦) لم نقف على من خرَّجه بهذا اللفظ، وقولها: «توفي رسول الله ﷺ بين سَحْري ونَحْري» أخرجه أحمد (٢٤٩٠٥)، والبخاري (١٣٨٩).

قوله تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ عَجَبَهُ مِنْ صَنَعِهِمْ كَيْفَ يَقُولُونَ تَارَةً سَاحِرٌ وَتَارَةً مَجْنُونٌ وَتَارَةً شَاعِرٌ^(١). ﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: حِيلَةً فِي صَدِّ النَّاسِ عَنْكَ^(٢). وَقِيلَ: ضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ فَلَا يَجِدُونَ سَبِيلًا، أَيِ إِلَى الْهَدْيِ^(٣). وَقِيلَ: مَخْرَجًا؛ لِتَنَاقُضِ كَلَامِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: مَجْنُونٌ، سَاحِرٌ، شَاعِرٌ^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا﴾ أي: قَالُوا وَهُمْ يَتَنَاجَوْنَ لَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ وَسَمِعُوا أَمْرَ الْبَعْثِ: لَوْ لَمْ يَكُنْ مَسْحُورًا مَخْدُوعًا لَمَّا قَالَ هَذَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الرَّفَاتُ: الْغُبَارُ^(٥). مُجَاهِدٌ: التَّرَابُ^(٦). وَالرَّفَاتُ: مَا تَكَسَّرَ وَبَلَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، كَالْفُتَاتِ وَالْحُطَامِ وَالرُّضَاضِ. عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ وَالْكَسَائِيِّ وَالْفَرَّاءِ وَالْأَخْفَشِ^(٧). تَقُولُ مِنْهُ: رُفِتَ الشَّيْءُ رَفْتًا، أَيِ حُطِمَ؛ فَهُوَ مَرْفُوتٌ^(٨). ﴿أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ «إِنَّا» اسْتِفْهَامٌ وَالْمُرَادُ بِهِ الْجَعْدُ وَالْإِنْكَارُ^(٩). وَ«خَلْقًا» نُصِبَ لِأَنَّهُ مُصَدَّرٌ^(١٠)؛ أَيِ: بَعَثًا جَدِيدًا. وَكَانَ هَذَا غَايَةَ الْإِنْكَارِ مِنْهُمْ.

(١) تفسير الطبري ٦١٣/١٤ .

(٢) مجمع البيان ٥٧/١٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٤٦٢/٣ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢٧١/٢ ، وأخرجه الطبري ٦١٣/١٤ عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري ٦١٤/١٤ .

(٦) وهو في تفسيره ٣٦٣/١ ، وأخرجه عنه الطبري ٦١٤/١٤ .

(٧) معاني القرآن للفراء ١٢٥/٢ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٨٢/١ ، ومعاني القرآن للنحاس ١٦٢/٤ -

١٦٣ ، وهو قول الزجاج في المعاني ٢٤٤/٣ .

(٨) تفسير الطبري ٦١٥/١٤ ، والمحرر الوجيز ٤٦٢/٣ .

(٩) ينظر الوسيط للواحيدي ١١١/٣ .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٤٢٧/٢ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۖ ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مِمَّ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۖ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ أي: قل لهم يا محمد: كونوا - على جهة التعجيز - حجارة أو حديدًا في الشدة والقوة^(١). قال الطبري: أي: إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاماً ولحمًا فكونوا أنتم حجارة أو حديدًا إن قدرتم. وقال علي بن عيسى: معناه: أنكم لو كنتم حجارة أو حديدًا لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم، إلا أنه خرج مخرج الأمر؛ لأنه أبلغ في الإلزام. وقيل: معناه: لو كنتم حجارة أو حديدًا لأعادكم كما بدأكم، ولأما نكم ثم أحياكم^(٢). وقال مجاهد: المعنى: كونوا ما شئتم فستعادون^(٣). النحاس^(٤): وهذا قول حسن؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة، وإنما المعنى أنهم قد أقرؤا بخالقهم وأنكروا البعث، ف قيل لهم: استشعروا أن تكونوا ما شئتم، فلو كنتم حجارة أو حديدًا لبُعِثْتُمْ كما خُلِقْتُمْ أَوَّلَ مرة.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال مجاهد: يعني السماوات والأرض والجبال^(٥)؛ لِعَظَمِهَا فِي النُّفُوسِ. وهو معنى قول قتادة، يقول: كونوا ما شئتم، فإن الله يميّتكم ثم يبعثكم^(٦). وقال ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن جبير ومجاهد أيضاً وعكرمة وأبو صالح والضحاك: يعني الموت^(٧)؛ لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه؛ قال أمية بن أبي الصلت:

(١) مجمع البيان ٥٨/١٥ .

(٢) النكت والعيون ٣/٢٤٨ ، وينظر قول الطبري في تفسيره ٦١٥/١٤ بمعناه.

(٣) وهو في تفسيره ٣٦٣/١ ، وأخرجه عنه الطبري ٦١٨/١٤ .

(٤) في معاني القرآن له ١٦٣/٤ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٧٩/١ .

(٦) أخرجه الطبري ٦١٨/١٤ .

(٧) أخرجه الطبري ٦١٦/١٤ - ٦١٧ عن جميعهم سوى مجاهد وعكرمة.

وَلِلْمَوْتِ خَلْقٌ فِي النَفْسِ فَطِيعٌ^(١)

يقول: إنكم لو خلقتكم من حجارة أو حديد أو كتتم الموت لأميتكم ولا بعثكم؛ لأن القدرة التي بها أنشأتكم بها نعيدكم^(٢). وهو معنى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مِنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. وفي الحديث أنه «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار»^(٣). وقيل: أراد به البعث؛ لأنه كان أكبر في صدورهم. قاله الكلبي^(٤). ﴿فَطَرَكُمْ﴾ خلقكم وأنشأكم. ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يحركون رؤوسهم استهزاء^(٥)، يقال: نَغَضَ رَأْسَهُ يَنْغِضُ وَيَنْغِضُ نَغْضًا وَنُغُوضًا، أي: تحرك. وَأَنْغَضَ رَأْسَهُ أي: حرّكه، كالمتعجب من الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾^(٦).

قال الراجز:

أَنْغَضَ نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَقْنَعَا^(٧)

ويقال أيضاً: نَغَضَ فلانُ رَأْسَهُ أي: حرّكه، يتعدّى ولا يتعدّى. حكاه الأخفش^(٨). ويقال: نَغَضْتُ سِنَّهُ، أي: تحرّكت وانقلعت.

قال الراجز:

وَنَغَضْتُ مِنْ هَرَمِ أَسْنَانِهَا

(١) من أول الفقرة إلى هنا في النكت والعيون ٢٤٨/٣، و صدر البيت: «نادوا إلههم ليُسرعَ خلقهم».

(٢) تفسير أبي الليث ٢٧٢/٢ بمعناه.

(٣) سلف ١٠/١٩٢.

(٤) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٢٤٨/٣.

(٥) تفسير أبي الليث ٢٧٢/٢، والنكت والعيون ٢٤٨/٣، وتفسير البغوي ١١٩/٣. وأخرجه الطبري

٦٢٠/١٤ عن ابن عباس وقتادة.

(٦) الصحاح (نغض).

(٧) تمته: «كأنما أبصر شيئاً أطمعاً»، وقد سلف ١٥٩/١٢.

(٨) الصحاح (نغض).

وقال آخر:

لَمَّا رَأَيْتَنِي أَنْغَضْتَ لِي الرَّأْسَ^(١)

وقال آخر:

لا ماء في المَفْرَاقِ إن لم تنهضِ بِمَسَدٍ فَوْقَ الْمَحَالِ النُّغْضِ^(٢)
المحال والمحالة: البكرة العظيمة التي تَسْقِي بها الإبل^(٣).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ أي: البعث والإعادة. وهذا الوقت ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: هو قريب؛ لأنَّ عسى واجب^(٤)، نظيره: ﴿وَمَا يَذُرُّكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. و﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]. وكلُّ ما هو آتٍ فهو قريب.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥١﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ بِحَمْدِهِ﴾ الدعاء النداء إلى المحشر بكلامٍ تسمعه الخلائق، يدعوهم الله تعالى فيه بالخروج. وقيل: بالصيحة التي يسمعونها، فتكون داعية لهم إلى الاجتماع في أرض القيامة^(٥). قال ﷺ: «إنكم تُدْعَوْنَ يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم»^(٦). ﴿فَتَسْجُدُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: باستحقاقه الحمد على الإحياء، وقال أبو سهل: أي: والحمد لله، كما قال:

فإنني بحمد الله لا ثوبَ فاجرٍ لِيَسْتُ ولا من عَذْرَةٍ أَتَقَنَّعُ^(٧)

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٨٢، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٢٠.

(٢) الصحاح (نغض).

(٣) الصحاح (محل).

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٦٢١، والوسيط للواحدي ٣/ ١١١.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٤٨.

(٦) أخرجه أحمد (٢١٦٩٣)، وأبو داود (٤٩٤٨) من طريق عبد الله بن أبي زكريا الخزاعي، عن أبي الدرداء مرفوعاً؛ إسناده منقطع؛ عبد الله بن أبي زكريا لم يسمع من أبي الدرداء. المراسيل ص ٩٨.

(٧) قائله غيلان بن سلمة الثقفي كما في تفسير البغوي ٤/ ٤١٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٨/ ٤٠٠.

وقيل: حامدين لله تعالى بالسنتكم^(١). قال سعيد بن جبير: يخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون: سبحانك وبحمدك، ولكن لا ينفعهم اعتراف ذلك اليوم^(٢). وقال ابن عباس: «بحمده»: بأمره^(٣)، أي: تُقَرُّون بأنه خالقكم^(٤). وقال قتادة: بمعرفته وطاعته^(٥). وقيل: المعنى: بقدرته. وقيل: بدعائه إياكم^(٦). قال علماؤنا: وهو الصحيح؛ فإنَّ النفخ في الصور إنما هو سببٌ لخروج أهل القبور، وبالحقيقة إنما هو خروج الخلق بدعوة الحق؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ فيقومون يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك. قال: فيوم القيامة يوم يُبدأ بالحمد ويُختم به؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ وقال في آخره: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

﴿وَتَقُلُّونَ إِن لَّيْنَتُهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني بين النفختين؛ وذلك أنَّ العذاب يُكفَّ عن المعذبين بين النفختين، وذلك أربعون عاماً فينامون، فذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدٍ﴾ [يس: ٥٢] فيكون خاصاً للكفار. وقال مجاهد: للكافرين هَجْعَةٌ قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم، فإذا صَبَحَ بأهل القبور قاموا مذعورين^(٧). وقال قتادة: المعنى: أنَّ الدنيا تحاقت في أعينهم وقلَّتْ حين رأوا يوم القيامة. الحسن: ﴿وَتَقُلُّونَ إِن لَّيْنَتُهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في الدنيا؛ لطول لبثكم في الآخرة^(٨).

(١) النكت والعيون ٢٤٩/٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤٢٧/٢، والوسيط للواحيدي ١١٢/٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٤٥/٥.

(٣) أخرجه الطبري ٦٢٢/١٤.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢٤٥/٣.

(٥) أخرجه الطبري ٦٢٢/١٤.

(٦) ذكرهما الطبري في تفسيره ٦٢٢/١٤ قولاً واحداً.

(٧) أخرجه هناد في الزهد (٣١٧).

(٨) النكت والعيون ٢٤٩/٣، وأخرج قول قتادة الطبري ٦٢٣/١٤.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ تقدم إعرابه^(١). والآية نزلت في عمر بن الخطاب، وذلك أن رجلاً من العرب شتمه، وسبه عمر وهم بقتله، فكادت تثير فتنة، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ذكره الثعلبي والماوردي وابن عطية والواحي^(٢). وقيل: نزلت لما قال المسلمون: إيدن لنا يا رسول الله في قتالهم فقد طال إيذاؤهم إيانا. فقال: «لم أؤمر بعد بالقتال» فأنزل الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. قاله الكلبي^(٣). وقيل: المعنى: قل لعبادي الذين اعترفوا بأنني خالقهم وهم يعبدون الأصنام، يقولوا التي هي أحسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوة. وقيل: المعنى: قل لعبادي المؤمنين إذا جادلوا الكفار في التوحيد، أن يقولوا الكلمة التي هي أحسن. كما قال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(٤) [الأنعام: ١٠٨]. وقال الحسن: هو أن يقول للكافر إذا تشطط: هداك الله! يرحمك الله! وهذا قبل أن أمروا بالجهاد^(٥). وقيل: المعنى قل لهم يأمرؤا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه^(٦)؛ وعلى هذا تكون الآية عامة في المؤمن والكافر، أي: قل للجميع. والله أعلم. وقالت طائفة: أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصة بحسن الأدب، وإلانة القول، وخفض الجناح، وأطراح نزغات الشيطان، وقد قال ﷺ: «وكونوا عباد الله إخوانا»^(٧). وهذا أحسن،

(١) ١٤٣/١٢.

(٢) النكت والعيون ٣/٢٤٩، والمحرم الوجيز ٣/٤٦٤، ولم نقف عليه عند الواحي.

(٣) ونقله عنه الواحي في الوسيط ٣/١١٢.

(٤) تفسير الرازي ٢٠/٢٢٨ بمعناه.

(٥) تفسير البغوي ٣/١١٩، وقول الحسن في المحرم الوجيز ٣/٤٦٤، والوسيط للواحي ٣/١١٢، وزاد المسير ٥/٤٧، وأخرجه الطبري بنحوه ١٤/٦٢٣ - ٦٢٤.

(٦) مجمع البيان ١٥/٦١.

(٧) المحرم الوجيز ٣/٤٦٤. والحديث أخرجه أحمد (٧٧٢٧)، والبخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة ؓ.

وتكون الآية محكمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بالفساد وإلقاء العداوة والإغواء. وقد تقدّم في آخر الأعراف ويوسف^(١). يقال: نزغ بيننا أي: أفسد. قاله اليزيدي. وقال غيره: النزغ: الإغراء. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي: شديد العداوة. وقد تقدّم في البقرة^(٢). وفي الخبر «أَنَّ قَوْمًا جَلَسُوا يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَجَاءَ الشَّيْطَانُ لِيَقْطَعَ مَجْلِسَهُمْ، فَمَنْعَهُ الْمَلَائِكَةُ، فَجَاءَ إِلَى قَوْمٍ جَلَسُوا قَرِيبًا مِنْهُمْ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ، فَحَرَّشَ بَيْنَهُمْ، فَتَخَاصَمُوا وَتَوَاتَبُوا، فَقَالَ هَؤُلَاءِ الذَّاكِرُونَ: قَوْمُوا بِنَا نُصَلِّحْ بَيْنَ إِخْوَانِنَا، فَقَامُوا وَقَطَعُوا مَجْلِسَهُمْ، وَفَرَحَ بِذَلِكَ الشَّيْطَانُ». فهذا من بعض عداوته.

قوله تعالى: ﴿زُبُكُمُ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿زُبُكُمُ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ هذا خطابٌ للمشرّكين، والمعنى: إن يشأ يوفّقكم للإسلام فيرحمكم، أو يميّتكم على الشرك فيعذبكم. قاله ابن جريج^(٣).

و«أعلم» بمعنى عليم، نحو قولهم: الله أكبر، بمعنى كبير^(٤).

وقيل: الخطاب للمؤمنين، أي: إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من كفار مكة، أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم، قاله الكلبي. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: وما وكنّاك في منعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم. وقيل: ما جعلناك كفيلاً لهم تؤخّذ بهم. قاله الكلبي. وقال الشاعر:

(١) ٤٢٢/٩ - ٤٢٥ - ٤٦٠/١١ .

(٢) ١٣/٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٦٢٤/١٤ - ٦٢٥ .

(٤) سلف هذا المعنى ٤٠٠/٦ .

ذَكَرْتُ أَبَا أَرْوَى فَبِتُّ كَأَنِّي بِرَدِّ الْأُمُورِ الْمَاضِيَاتِ وَكَيْلُ
أَي: كَفِيلٌ^(١).

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى
بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۝٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾
أعاد بعد أن قال: «ربكم أعلم بكم» ليبين أنه خالقهم وأنه جعلهم مختلفين في
أخلاقهم وصورهم وأحوالهم ومآلهم^(٢)؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]. وكذا
النبيون فضل بعضهم على بعض عن علم منه بحالهم. وقد مضى القول في هذا في
«البقرة»^(٣). ﴿وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ الزبور: كتاب ليس فيه حلال ولا حرام، ولا
فرائض ولا حدود، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد^(٤). أي: كما آتينا داود الزبور فلا
تذكروا أن يؤتى محمد القرآن^(٥). وهو في مُحاجة اليهود.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ
وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِي﴾ لما ابتليت قريش بالقحط وشكوا إلى
رسول الله ﷺ أنزل الله هذه الآية، أي: ادعوا الذين تعبدون من دون الله وزعمتم
أنهم آلهة^(٦). وقال الحسن: يعني الملائكة وعيسى وعزيرأ. ابن مسعود: يعني

(١) النكت والعيون ٢٥٠/٣، والبيت تُسب إلى شقران العلامي كما في بهجة المجالس ١١٢/٣. وذكر
المبرد في التعاوي والمراثي ص ٢٠٥ أنَّ علياً عليه السلام تمثل هذا البيت عند قبر فاطمة عليها السلام بعد دفنها.

(٢) تفسير البغوي ١١٩/٣، وفي مطبوعه: «ومللهم» بدل «ومآلهم» كما هو المثبت من نسخة (ظ)، وفي
بقية النسخ: «ومآلهم».

(٣) ٢٥٧ - ٢٥٢/٤.

(٤) الوسيط للواحد ١١٢/٣ ونسبه إلى قتادة، وتفسير البغوي ١٢٠/٣ من غير نسبة.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٢٤٥/٣.

(٦) الوسيط للواحد ١١٢/٣. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤٢٨/٢. وتفسير البغوي ١٢٠/٣.

الجن^(١). ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ﴾ أي: القحط سبع سنين، على قول مقاتل^(٢). ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ من الفقر إلى الغنى، ومن السَّقَم إلى الصحة^(٣).

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رِيبَهُمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ «أولئك» مبتدأ، «الذين» صفة «أولئك» وضمير الصلة محذوف، أي: يدعونهم. يعني: أولئك المدعوون. و﴿يَبْتَغُونَ﴾ خبر^(٤)، أو يكون حالاً، و«الذين يَدْعُونَ» خبر، أي: يدعون إليه عباداً إلى عبادته. وقرأ ابن مسعود «تدعون» بالتاء على الخطاب^(٥). الباقيون بالياء على الخبر. ولا خلاف في «يبتغون» أنه بالياء. وفي «صحيح مسلم»^(٦) من كتاب التفسير عن عبد الله ابن مسعود في قوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رِيبَهُمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: نفر من الجن أسلموا وكانوا يُعْبَدُونَ، فَبَقِيَ الذين كانوا يَعْبُدُونَ على عبادتهم، وقد أسلم النفر من الجن. وفي رواية قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون، فنزلت: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رِيبَهُمُ الْوَسِيلَةَ﴾.

وعنه أيضاً أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائل من العرب. ذكره الماوردي^(٧). وقال ابن عباس ومجاهد: هم عُزَيْرٌ وعيسى^(٨). و«يبتغون»: يطلبون من الله الزُّلْفَةَ

(١) مجمع البيان ٦٢/١٥.

(٢) زاد المسير ٤٩/٥.

(٣) الوسيط للواحد ١١٣/٣ ونسبه إلى ابن عباس.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢٤٦/٣، وإعراب القرآن للنحاس ٤٢٨/٢، والبيان ٩٢/٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٢٤٦/٣، ومعاني القرآن للنحاس ١٦٥/٤، وهي قراءة شاذة.

(٦) (٣٠٣٠): (٢٨) و(٣٠).

(٧) في النكت والعيون ٢٥١/٣.

(٨) أخرجه الطبري ٦٣٠/١٤ - ٦٣١ عنهما.

والقربة، ويتضرعون إلى الله تعالى في طلب الجنة، وهي الوسيلة^(١) أعلمهم الله تعالى أنَّ المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم، والهاء والميم في «ربهم» تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعاً، وأما «يدعون» فعلى العابدين، «ويبتغون» على المعبودين^(٢). ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ ابتداء وخبر، ويجوز أن يكون «أيُّهم أقرب» بدلاً من الضمير في «يبتغون»، والمعنى يبتغي أيُّهم أقرب الوسيلة إلى الله^(٣). ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: مَخُوفاً لا أمانَ لأحدٍ منه، فينبغي أن يُحذر منه ويُخاف^(٤). وقال سهل بن عبد الله: الرجاء والخوف ميزانان^(٥) على الإنسان، فإذا استويا استقامت أحواله، وإن رجح أحدهما بطل الآخر^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلِفِكَمَةٍ أَوْ مَعَذِبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي: مُخْرِبُوهَا^(٧). ﴿قَبْلَ يَوْمِ آلِفِكَمَةٍ أَوْ مَعَذِبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال مقاتل: أما الصالحة فبالموت، وأما الطالحة فبالعذاب^(٨). وقال ابن مسعود: إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذنَّ الله في هلاكهم^(٩). فقيل: المعنى: وإن من قرية ظالمة، يقوِّي ذلك قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى

(١) الوسيط للواحد ١١٣/٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٤٦٥/٣ - ٤٦٦ بمعناه.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٢٤٥/٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤٢٨/٢ ، ومشكل إعراب القرآن ٤٣٢/١ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢٧٣/٢ .

(٥) في جميع النسخ: زمانان، والتصويب من النكت والعيون.

(٦) النكت والعيون ٢٥٢/٣ .

(٧) تفسير البغوي ١٢٠/٣ .

(٨) الوسيط للواحد ١١٣/٣ .

(٩) أخرجه الطبري ٦٣٤/١٤ ، وهو في الوسيط ١١٣/٣ .

﴿لَا وَاهِلَهَا ظَلِيلُوتٌ﴾ [القصص: ٥٩]. أي: فليتيّ المشركون، فإنه ما من قرية كافرة إلا سيحلّ بها العذاب. ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي: في اللوح. ﴿مَسْطُورًا﴾ أي: مكتوباً^(١). والسَّطْرُ: الخط والكتابة، وهو في الأصل مصدر. والسَّطْرُ - بالتحريك - مثله. قال جرير:

مَنْ شَاءَ بَايَعْتُهُ مَالِي وَخُلَعْتُهُ مَا تُكْمِلُ التَّيْمُ فِي دِيَوَانِهِمْ سَطْرًا
الخُلعة بضمّ الخاء: خيار المال. والسَّطْر جمع أسطر، مثل سبب وأسباب، ثم يُجمع على أساطير، وَجَمْعُ السَّطْرِ اسْطَرٌّ وَسُطُور، مثل أَفْلَسَ وفلوس^(٢). والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ وَأَيْنَا نُمُودُ
الْثَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا ﴿٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ في الكلام حذف، والتقدير: وما منعنا أن نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ التي اقترحوها إلا أن يُكَذِّبُوا بها فيهلكوا كما فَعَلَ بمن كان قبلهم^(٤). قال معناه قتادة وابن جريج وغيرهما^(٥). فأخَرُ الله تعالى العذاب عن كفار قريش؛ لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمناً^(٦). وقد تقدّم في «الأنعام»^(٧) وغيرها أنهم طلبوا أن يُحوَّلَ اللهُ لَهُمُ الصِّفَا ذهباً وتتنحَّى الجبال عنهم، فنزل جبريل وقال: إن شئتَ كان ما سأل قومك، ولكنهم إن لم يؤمنوا

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٨٣، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٧.

(٢) الصحاح (سطر) و(خلع)، والبيت في إصلاح المنطق ص ١٠٩.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٦٣٤.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٦٧.

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٤/ ٦٣٦ - ٦٣٧.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣٠.

(٧) ٨/ ٤٩٤.

لم يُمهلوا، وإن شئت استأنيتُ بهم. فقال: «لا، بل استأن بهم»^(١). و«أن» الأولى في محل نصب بوقوع المنع عليهم، و«أن» الثانية في محل رفع^(٢). والباء في «بالآيات» زائدة. ومجاز الكلام: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين^(٣)، والله تعالى لا يكون ممنوعاً عن شيء، فالمعنى المبالغة في أنه لا يفعل، فكأنه قد منع عنه.

ثم بين ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمن بها فقال: ﴿وَأَنَّا نُمَوِّدُ الْفَالِقَ مُبْصِرَةً﴾ أي: آية دالة مضيئة نيرة على صدق صالح، وعلى قدرة الله تعالى^(٤). وقد تقدّم ذلك^(٥). ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: ظلموا بتكذيبها^(٦). وقيل: جحدوا بها وكفروا أنها من عند الله، فاستأصلهم الله بالعذاب^(٧).

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ فيه خمسة أقوال: الأول - العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذّبين. الثاني - أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي. الثالث - أنها تقلّب الأحوال من صغرٍ إلى شبابٍ، ثم إلى تكهّلٍ، ثم إلى مشيبٍ؛ لتعتبر بتقلّب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك. وهذا قول أحمد بن حنبل رحمته الله. الرابع - القرآن. الخامس - الموت الذريع. قاله الحسن^(٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّيَا أَلْفَ ارْتَبِكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّثُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾^(٩)
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ قال ابن عباس: الناس هنا أهل

(١) أخرجه أحمد (٢٣٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) معاني القرآن للفراء ١٢٦/٢، وإعراب القرآن للنحاس ٤٢٩/٢، وتفسير الطبري ٦٣٧/١٤.

(٣) تفسير الطبري ٦٣٧/١٤.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١٦٧/٤.

(٥) ٢٦٦/٩ - ٢٦٧ و ١٥٤/١١.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢٤٧/٣.

(٧) تأويل مشكل القرآن ص ٣٥٩.

(٨) زاد المسير لابن الجوزي ٥٢/٥، وذكر الماوردي ٢٥٢/٣ الأقوال الثلاثة الأولى، وأخرج أحمد في الزهد ص ٣٢٨، والطبري ٦٣٩/١٤ قول الحسن - ومعنى الذريع: السريع. الصحاح (ذرع).

مكة، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم، أي: أن الله سيهلكهم. وذكره بلفظ الماضي؛ لتحقيق كونه. وعننى بهذا الإهلاك الموعود ما جرى يوم بدر ويوم الفتح.

وقيل: معنى «أحاط بالناس» أي: أحاطت قدرته بهم، فهم في قبضته لا يقدرّون على الخروج من مشيئته. قاله مجاهد وابن أبي نجيح. وقال الكلبي: المعنى: أحاط علمه بالناس. وقيل: المرادُ عصمته من الناس أن يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه^(١)، أي: وما أرسلناك عليهم حفيظاً، بل عليك التبليغ، فبلغ بجدك فإننا نعصمك منهم ونحفظك، فلا تهّبهم، وأمض لما أمرك به من تبليغ الرسالة، فقدرتُنا محيطَةٌ بالكل. قال معناه الحسن وعروة وقتادة وغيرهم^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ لَمَّا بَيَّنَّ أَنَّ إِنْزَالَ آيَاتِ الْقُرْآنِ تَتَضَمَّنُ التَّخْوِيفَ ضَمَّ إِلَيْهِ ذِكْرَ آيَةِ الْإِسْرَاءِ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي صَدْرِ السُّورَةِ. وَفِي الْبُخَارِيِّ وَالتِّرْمِذِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ، أَرَاهَا النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ. قَالَ: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾: هِيَ شَجَرَةُ الزُّقُومِ. قَالَ أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ^(٣). وَبِقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَتْ عَائِشَةُ وَمَعَاوِيَةُ وَالْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضُّحَّاكُ وَابْنُ أَبِي نَجِيحٍ وَابْنُ زَيْدٍ. وَكَانَتِ الْفِتْنَةُ ارْتِدَادَ قَوْمٍ كَانُوا أَسْلَمُوا حِينَ أَخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ^(٤). وَقِيلَ: كَانَتِ رُؤْيَا نَوْمٍ. وَهَذِهِ الْآيَةُ تَقْضِي بِفْسَادِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ رُؤْيَا الْمَنَامِ لَا فِتْنَةَ فِيهَا، وَمَا كَانَ أَحَدٌ لِيُنْكِرَهَا. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الرُّؤْيَا الَّتِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ هِيَ رُؤْيَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ يَدْخُلُ مَكَّةَ فِي سَنَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَرَدَّ، فَافْتَنَّ الْمُسْلِمُونَ لَذَلِكَ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ^(٥)، فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلَ

(١) النكت والعيون ٢٥٣/٣، وذكر أبو الليث في تفسيره ٢٧٤/٢ قول الكلبي.

(٢) وأخرجه عنهم الطبري ٦٣٨/١٤ - ٦٣٩.

(٣) صحيح البخاري (٣٨٨٨)، وسنن الترمذي (٣١٣٤).

(٤) النكت والعيون ٢٥٣/٣ دون ذكر عائشة ومعاوية.

(٥) المحرر الوجيز ٤٦٨/٣. وخبر ابن عباس أخرجه الطبري ٦٤٦/١٤.

دخلها، وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧]. وفي هذا التأويل ضعف؛ لأنَّ السورة مكية وتلك الرؤيا كانت بالمدينة^(١). وقال في رواية ثالثة: إنه عليه السلام رأى في المنام بني مروان يَنْزُونَ على منبره نَزْوُ الْقِرْدَةِ، فساء ذلك، فقيل: إنما هي الدنيا أعطوها، فُسِّرِي عنه^(٢). وما كان له بمكة منبرٌ ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة^(٣). وهذا التأويل الثالث قاله أيضاً سهل بن سعد رضي الله عنه. قال سهل: إنما هذه الرؤيا هي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى بني أمية ينزون على منبره نَزْوُ الْقِرْدَةِ، فاغتم لذلك، وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات صلى الله عليه وسلم. فنزلت الآية مخبرة أنَّ ذلك من ملكهم^(٤) وصعودهم يجعلها الله فتنَةً للناس وامتحاناً. وقرأ الحسن ابن عليّ في خطبته في شأن بيعته لمعاوية: ﴿وَلِنْ أَدْرِي لَعَلَّمُ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَنْعُ إِلَيَّ حِينَ﴾ [الأنبياء: ١١١]. قال ابن عطية: وفي هذا التأويل نظر، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ فيه تقديم وتأخير، أي: ما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنَةً للناس^(٦)، وفتنتها أنهم لما خُوفوا بها قال أبو جهل استهزاء: هذا محمد يتوعّدكم بنارٍ تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر والنار تأكل الشجر، وما نعرف الرُّقُوم إلا التمر والزُّبْد، ثم أمر أبو جهل جارية

(١) تفسير الرازي ٢٣٦/٢٠ بمعناه.

(٢) تفسير أبي الليث ٢٧٦/٢ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٥٤/٥ .

(٣) تفسير الرازي ٢٣٦/٢٠ .

(٤) في (م): تملكهم.

(٥) المحرر الوجيز ٤٦٨/٣ ، وخبر سهل بن سعد أخرجه الطبري ٦٤٦/١٤ عن محمد بن الحسن بن زباله، عن عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد، عن أبيه، عن جده سهل بن سعد، فذكر الخبر. وقد نقله ابن كثير في تفسيره عن الطبري بإسناده ومثله ثم قال: وهذا السند ضعيف جداً؛ فإن محمد بن زباله متروك، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية.

(٦) الوسيط للواحد ١١٤/٣ ، وتفسير الرازي ٢٣٦/٢٠ .

فأحضرت تمرأ وزُبدأ وقال لأصحابه: تَزَقَّمُوا^(١). وقد قيل: إِنَّ القائل: ما نَعْلَمُ الزَّقُّومَ إلا التمرَ والزُّبدَ ابْنُ الزُّبَيْرِ^(٢)، حيث قال: كَثُرَ الله من الزَّقُّومِ في داركم؛ فإنه التمرُ بالزُّبْدِ بِلُغَةِ اليَمَنِ^(٣). وجائز أن يقول كلاهما ذلك. فافتتن أيضاً لهذه المقالة بعض الضعفاء، فأخبر الله تعالى نبيّه عليه الصلاة والسلام أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزَّقُّومِ فِتْنَةً واختباراً لِيَكْفُرَ مَنْ سَبَقَ عليه الكفرُ وَيُصَدِّقَ مَنْ سَبَقَ له الإيمان، كما رَوَى أَنَّ أبا بكرٍ الصَّدِيقَ ؓ قيل له صبيحة الإسراء: إِنَّ صاحبك يزعم أنه جاء البارحة من بيت المقدس! فقال: إن كان قال ذلك فلقد صدّق. فقيل له: أَتُصَدِّقُهُ قبل أن تسمعَ منه؟ فقال: أين عقولكم؟ أنا أُصَدِّقُه بخبر السماء، فكيف لا أُصَدِّقُه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعدُ منها بكثير^(٤).

قلت: ذكر هذا الخبر ابنُ إسحاق، ونصّه: قال: كان من الحديث فيما بلغني عن مسراه ؓ عن عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخُدْرِيِّ وعائشة ومعاوية بن أبي سفيان والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزُّهْرِيِّ وقتادة وغيرهم من أهل العلم وأمّ هانئ بنت أبي طالب، ما اجتمع في هذا الحديث، كُلُّ يُحَدِّثُ عنه بعض ما ذكر من أمره حين أُسْري به ؓ، وكان في مسراه وما ذُكِرَ عنه بلاءٌ وتمحيصٌ وأمرٌ من أمر الله عزَّ وجلَّ في قدرته وسلطانه فيه عبرةٌ لأولي الألباب، وهُدًى ورحمةٌ وثباتٌ لمن آمن وصدّقَ وكان من أمر الله تعالى على يقين، فأسرى به ؓ كيف شاء وكما شاء؛ لِيُريه

(١) المحرر الوجيز ٤٦٨/٣. وأخرج أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا جهل قال: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم! هاتوا تمرأ وزُبدأ فتزقّموا.

(٢) كما في الوسيط ١١٤/٣، وتفسير الرازي ٢٣٦/٢٠.

(٣) لم نقف عليه هكذا، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٥٤/٥ أن ابن الزُّبَيْرِ قال: إن الزقوم بلسان البربر التمر والزبد. وذكر الخطابي في غريب الحديث ٤٨٧/١، والزمخشري في الفائق ١١٧/٢ أن ذلك بلغة إفريقية.

(٤) المحرر الوجيز ٤٦٨/٣، والخبر أخرجه الحاكم ٦٢/٣، والبيهقي في الدلائل ٣٦٠/٢ - ٣٦١ عن عائشة رضي الله عنها.

من آياته ما أراد، حتى عاينَ ما عاينَ من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التي يصنع بها ما يريد. وكان عبد الله بن مسعود فيما بلغني عنه يقول: أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بالبراق - وهي الدابة التي كانت تُحْمَلُ عليها الأنبياء قبله تضع حافرها في منتهى طرفها - فحُمِلَ عليها، ثم خرج به صاحبُه يُرى الآياتِ فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفرٍ من الأنبياء قد جُمِعوا له، فصلَّى بهم، ثم أُتِيَ بثلاثة آية: إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء. قال: فقال رسول الله ﷺ: «فسمعتُ قائلاً يقول حين عُرِضْتُ عليَّ: إن أخذ الماء فَعَرِقَ وَغَرِقَتْ أُمَّتُهُ، وإن أخذ الخمر فَعَوِيَ وَغَوَتْ أُمَّتُهُ، وإن أخذ اللبن فهُدِيَ وَهُدِيتْ أُمَّتُهُ. قال: فأخذتُ إناء اللبن فشريتُ، فقال لي جبريل: هُدِيتَ وَهُدِيتْ أُمَّتُكَ يا محمد».

قال ابن إسحاق: وَحُدِّثْتُ عن الحسن أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا نائمٌ في الحِجْرِ جاءني جبريل عليه السلام فهمزني بقدمه، فجلستُ فلم أَر شيئاً، ثم عُدْتُ لمضجعي، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه، فجلستُ فلم أَر شيئاً، فَعُدْتُ لمضجعي، فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلستُ، فأخذ بعَضْدي، فقامتُ معه، فخرج إلى باب المسجد، فإذا دابةٌ أبيضُ، بين البغل والحمار، في فخذه جناحان يَحْفِزُ بهما^(١) رجليه، يضع حافرَه في منتهى طَرْفه، فحملني عليه، ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته».

قال ابن إسحاق: وَحُدِّثْتُ عن قتادة أنه قال: حُدِّثْتُ أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا دنوتُ منه لأركبه شَمَسَ^(٢)، فوضع جبريلُ يده على مَعْرِفَتِهِ^(٣)، ثم قال: ألا تستحي يا بُراقُ مما تصنع، فوالله ما ركبتُك عبدٌ لله قبلَ محمدٍ أكرمُ عليه منه. قال: فاستحيا

(١) أي: يدفع بهما. الصحاح (حفز).

(٢) يقال: شمسَتِ الدابة: إذا شردت وجمحت ومنعت ظهرها. اللسان (شمس).

(٣) المعرفة: الموضع الذي ينبت عليه العُرف. الصحاح (عرف).

حتى ارفَضَّ عَرَقاً^(١)، ثم قرَّ حتى ركبته.

قال الحسن في حديثه: فمضى رسول الله ﷺ ومضى معه جبريل حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفرٍ من الأنبياء، فأَمَّهم رسول الله ﷺ فصَلَّى بهم، ثم أتى بنائين: في أحدهما خمرٌ، وفي الآخر لبن، قال: فأخذ رسول الله ﷺ إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر. قال: فقال له جبريل: هُدَيْتَ الْفِطْرَةَ وَهُدَيْتَ أُمَّتَكَ، وَحُرِّمْتَ عَلَيْكَ الْخَمْرَ. ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة، فلَمَّا أصبح غداً على قريش فأخبرهم الخبر، فقال أكثر الناس: هذا والله الإمر^(٢) البين! والله إنَّ العيرَ لَتُطْرَدُ شهراً من مكة إلى الشام، مُدْبِرَةً شهراً ومُقْبِلَةً شهراً، فيذهب ذلك محمدٌ في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة! قال: فارتدَّ كثيرٌ ممَّن كان أسلم، وذهب الناس إلى أبي بكرٍ فقالوا: هل لك يا أبا بكرٍ في صاحبك؟! يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس، وصَلَّى فيه، ورجع إلى مكة. قال: فقال أبو بكر الصديق ؓ: إنكم تكذبون عليه. فقالوا: بلى، هاهو ذا في المسجد يُحَدِّثُ به الناس. فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يُعْجِبُكم من ذلك؟! فوالله إنه ليخبرني أنَّ الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ فأصدِّقه، فهذا أبعدُ مما تعجبون منه. ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله، أ حَدَّثْتُ هَؤُلَاءِ أَنَّكَ جِئْتَ بَيْتَ الْمَقْدَسِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ؟ قال «نعم» قال: يا نبيَّ الله، فَصِفْهُ لِي فَإِنِّي قَدْ جِئْتُهُ؟ فقال الحسن: فقال رسول الله ﷺ: «رُفِعَ لِي حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ» فجعل رسول الله ﷺ يَصِفُهُ لِأَبِي بَكْرٍ وَيَقُولُ أَبُو بَكْرٍ ؓ: صَدَقْتَ، أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ. كُلَّمَا وَصَفَ لَهُ مِنْهُ شَيْئاً قَالَ: صَدَقْتَ، أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: حَتَّى إِذَا انْتَهَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ ؓ: «وَأَنْتَ يَا أبا بَكْرٍ الصَّدِيقُ» فَيَوْمِئِذٍ سَمَّاهُ الصَّدِيقَ. قَالَ الْحَسَنُ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فَيَمَنْ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ لَذَلِكَ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا

(١) أي: جرى عرقه وسال. النهاية (رفض).

(٢) أي: العجب. النهاية (أمر).

الرُّبِّيَا الَّذِي أَرْسَلَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُفُوهُهُمْ فَمَا يَرِيذُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿١﴾. فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله ﷺ وما دخل فيه من حديث قتادة^(١). وذُكِرَ باقي الإسراء عمن تقدّم في السيرة.

وقال ابن عباس: هذه الشجرة بنو أمية، وأن النبي ﷺ نفى الحكم^(٢). وهذا قول ضعيفٌ مُحدث^(٣)، والسورة مكية، فيبعد هذا التأويل، إلا أن تكون هذه الآية مدنية، ولم يثبت ذلك. وقد قالت عائشة لمروان: لعن الله أباك وأنت في صلبه، فأنت قطعة^(٤) من لعنة الله^(٥). ثم قال: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ ولم يجر في القرآن لعن هذه الشجرة، ولكن الله لعن الكفار وهم آكلوها. والمعنى: والشجرة الملعونة في القرآن آكلوها، ويمكن أن يكون هذا على قول العرب لكل طعامٍ مكروه ضارٌّ: ملعون^(٦). وقال ابن عباس: الشجرة الملعونة: هي هذه الشجرة التي تلتوي على الشجر فتقتله، يعني الكشوث^(٧). ﴿وَنُفُوهُهُمْ﴾ أي: بالزقوم ﴿فَمَا يَرِيذُهُمْ﴾ التخويف إلا الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿١٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ تقدّم ذكر كَوْنِ الشيطان عدوّ

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٩٦ - ٣٩٩.

(٢) تفسير الرازي ٢٠/٢٣٧.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٤٦٨.

(٤) في (م): «بعض»، وفي (د) و(ز): «قطط»، والمثبت من (ظ)، فقد وقعت في رواية النسائي والخطابي «ففضض»: وهي القطعة. النهاية (فضض)، وتصحفت في مطبوع الحاكم إلى «قصص».

(٥) تفسير الرازي ٢٠/٢٣٧، وقول عائشة أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٢٧)، والخطابي في غريب الحديث ٢/٥١٧، والحاكم ٤/٤٨١ من طريق محمد بن زياد، عن عائشة. وصححه الحاكم! لكن تعبه الذهبي بقوله: فيه انقطاع، محمد لم يسمع من عائشة.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/٢٤٨.

(٧) النكت والعيون ٣/٢٥٤، وأخرجه الطبري ١٤/٦٥٢.

الإنسان، فانجرَّ الكلام إلى ذكر آدم. والمعنى: اذكر بتمادي هؤلاء المشركين وعتوهم على ربهم قصة إبليس حين عصى ربّه وأبى السجود، وقال ما قال، وهو ما أخبر الله تعالى في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي: من طين^(١). وهذا استفهام إنكار^(٢). وقد تقدّم القول في خلق آدم في البقرة والأنعام^(٣) مستوفى. ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ﴾ أي: قال إبليس^(٤). والكاف لتوكيد المخاطبة. ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: فضّلته عليّ^(٥). ورأى جوهر النار خيراً من جوهر الطين ولم يعلم أنّ الجواهر متماثلة. وقد تقدّم هذا في الأعراف^(٦). و«هذا» نُصِبَ بأرأيت، «الذي» نعت^(٧). والإكرام: اسم جامع لكل ما يُحمد^(٨). وفي الكلام حذف تقديره: أخبرني عن هذا الذي فضّلته عليّ، لِمَ فضّلته وقد خلقتني من نارٍ وخلقته من طين؟ فحذف لعلم السامع^(٩). وقيل: لا حاجة إلى تقدير الحذف، أي: أترى هذا الذي كَرَّمته عليّ لأفعلنّ به كذا وكذا. ومعنى ﴿لَأَخْتَنِكَ﴾ في قول ابن عباس: لأستولينّ عليهم^(١٠). وقاله الفراء^(١١). مجاهد: لأحتويّنهم^(١٢). ابن زيد: لأضِلّنّهم^(١٣). والمعنى متقارب،

(١) تفسير الطبري ٦٥٣/١٤.

(٢) مجمع البيان ٧٠/١٥، وتفسير الرازي ٣/٢١.

(٣) ٤١٧/١ - ٤١٨ - ٣١٨/٨ - ٣١٩.

(٤) الوسيط للواحد ١١٥/٣.

(٥) تفسير البغوي ١٢٢/٣، وفي النسخ سوى (ظ): توكيد للمخاطبة.

(٦) ١٦٥/٩.

(٧) إملاء ما منّ به الرحمن على هامش الفتوحات الإلهية ٤٨٨/٣، وإعراب «هذا» ذكره الزجاج في معاني القرآن ٢٤٩/٣.

(٨) في اللسان (كرم): الكريم: اسم جامع لكل ما يحمد.

(٩) معاني القرآن للنحاس ١٧١/٤.

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٤٣٢/٢.

(١١) في معاني القرآن له ١٢٧/٢، وأخرجه الطبري ٦٥٥/١٤.

(١٢) أخرجه الطبري ٦٥٤/١٤ - ٦٥٥، وهو في تفسير مجاهد ٣٦٥/١.

(١٣) أخرجه الطبري ٦٥٥/١٤.

أي: لأستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال، ولأجتاحتهم^(١). ورؤي عن العرب: إحتنك الجرادُ الزرعَ إذا ذهب به كله. وقيل: معناه: لأسوقنهم حيث شئت وأقودنهم حيث أردت^(٢). من قولهم: حنكتُ الفرسَ أحنكه وأحنكه حنكاً إذا جعلتُ في فيه الرّسن. وكذلك احتنكه^(٣). والقول الأول قريبٌ من هذا؛ لأنه إنما يأتي على الزرع بالحنك. وقال الشاعر:

أشكو إليك سنةً قد أجحفتُ جهداً إلى جهدِ بنا وأضعفتُ
واحتنكتُ أموالنا واجتلفتُ^(٤)

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني المعصومين، وهم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^(٥) [الحجر: ٤٢] وإنما قال إبليس ذلك ظناً، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنُّهُ﴾ [سبأ: ٢٠] أو علم من طبع البشر تركب الشهوة فيهم^(٦)، أو بنى على قول الملائكة: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾^(٧) [البقرة: ٣٠]. وقال الحسن: ظنّ ذلك لأنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عزماً^(٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾^(٩) قوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ﴾ هذا أمر إهانة، أي: اجهد جهداً فقد أنظرناك. ﴿فَمَنْ يَبْعَكَ﴾ أي: أطاعك من ذرية آدم^(٩). ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ أي: وافراً.

(١) الوسيط للواحيدي ١١٥/٣.

(٢) معاني القرآن للنحاس ١٧١/٤.

(٣) الصحاح (حنك) وعنده: إذا جعلت فيه الرسن.

(٤) الرجز في مجاز القرآن ١/٣٨٤، والمحزر الوجيز ٣/٤٧٠ من غير نسبة.

(٥) الوسيط للواحيدي ١١٥/٣، وتفسير البغوي ١٢٢/٣.

(٦) تفسير الرازي ٤/٢١.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤٣٢/٢.

(٨) مجمع البيان ٧٠/١٥.

(٩) الوسيط للواحيدي ١١٥/٣، وزاد المسير ٥٧/٥.

عن مجاهد وغيره. وهو نصبٌ على المصدر، يقال: وفَرْتُهُ أفره وفَرَأً، ووفَر المَالُ بنفسه يَقِرُّ وفوراً فهو وافر، فهو لازمٌ ومُتَعَدٌّ^(١)

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ مَا يُعَدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿٦٤﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾ أي: استزَلَّ واستخَفَّ^(٢)، وأصله القطع، ومنه تَفَزَّرَ الثوب إذا انقطع^(٣). والمعنى استزَلَّه بِقَطْعِكَ إِيَّاهُ عن الحق. واستَفَزَّهُ الخوف أي: استَحَفَّهُ. وقعد مُسْتَوْفَزاً أي: غير مطمئن^(٤). «وَأَسْتَفْزِرُ» أمر تعجيز، أي: أنت لا تقدر على إضلال أحد، وليس لك على أحد سلطان فافعل ما شئت.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِصَوْتِكَ﴾ وصوته كلُّ داع يدعو إلى معصية الله تعالى. عن ابن عباس. مجاهد: الغناء والمزامير واللهو. الضحاك: صوت المزمارة^(٥). وكان آدم عليه السلام أسكن أولاد هابيل أعلى الجبل، وأولاد قابيل أسفله، وفيهم بنات حسان، فزَمَرَ اللعين فلم يتمالكوا أن انحدروا فزَنُوا. ذكره الغزنوي. وقيل: «بصوتك»: بوسوستك^(٦).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أصل الإجلاب السوق بجلبة

(١) تفسير الرازي ٥/٢١.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/٢٧٥، والنكت والعيون ٣/٢٥٥، وزاد المسير ٥/٥٨.

(٣) هذا المعنى لم نجده في معاجم اللغة في «تفز» بزايين، وإنما وجدناه في «تفرز» بزاي بعدها راء. ينظر الصحاح (تفرز).

(٤) الصحاح (فزز)، وفي مطبوعه: «مستفزاً» بدل «مستوفزاً»، وهو خطأ، ينظر الصحاح (وفز).

(٥) النكت والعيون ٣/٢٥٥، وأخرج الطبري ١٤/٦٥٧ قولي ابن عباس ومجاهد.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/٢٧٥.

من السائق^(١)؛ يقال: أَجْلَبَ إِجْلَابًا.

وَالْجَلَبُ وَالْجَلْبَةُ: الأصوات، تقول منه: جَلَّبُوا بِالتَّشْدِيدِ. وَجَلَّبَ الشَّيْءُ يَجْلِبُهُ وَيَجْلِبُهُ جَلْبًا وَجَلْبًا. وَجَلَبْتُ الشَّيْءَ إِلَى نَفْسِي وَاجْتَلَبْتُهُ بِمَعْنَى^(٢). وَأَجْلَبَ عَلَى الْعَدُوِّ إِجْلَابًا، أَي: جَمَعَ عَلَيْهِمْ^(٣). فَالْمَعْنَى: أَجْمَعَ عَلَيْهِمْ كُلَّ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ مَكَايِدِكَ^(٤). وَقَالَ أَكْثَرُ الْمَفْسَرِينَ: يَرِيدُ كُلُّ رَاكِبٍ وَمَاشٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: إِنَّ لَهُ خَيْلًا وَرَجُلًا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، فَمَا كَانَ مِنْ رَاكِبٍ وَمَاشٍ يَقَاتِلُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ خَيْلِ إِبْلِيسَ وَرَجَالَتِهِ^(٥). وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَمُجَاهِدٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُلُّ خَيْلٍ سَارَتْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَكُلُّ رَجُلٍ مَشَتْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَكُلُّ مَالٍ أُصِيبَ مِنْ حَرَامٍ، وَكُلُّ وَلَدٍ بَغِيَّةٍ فَهُوَ لِلشَّيْطَانِ^(٦). وَالرَّجُلُ جَمْعُ رَاجِلٍ، مِثْلُ صَخْبٍ وَصَاحِبٍ^(٧). وَقَرَأَ حَفْصٌ: «وَرَجَلِكُ» بِكسْرِ الْجِيمِ وَهِيَ لَفْتَانٌ^(٨)، يُقَالُ: رَجُلٌ وَرَجُلٌ بِمَعْنَى رَاجِلٍ^(٩). وَقَرَأَ عِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ: «وَرَجَالُكَ» عَلَى الْجَمْعِ^(١٠).

الرابعة: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أَي: اجْعَلْ لِنَفْسِكَ شَرَكَةً فِي ذَلِكَ. فَشَرَكْتُهُ فِي الْأَمْوَالِ إِتِّفَاقُهَا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ. قَالَهُ الْحَسَنُ. وَقِيلَ: هِيَ الَّتِي أَصَابُوهَا مِنْ غَيْرِ حِلِّهَا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ. ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا كَانُوا يَحْرُمُونَهُ مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/٢٠٥ ، والنكت والعيون ٣/٢٥٥ .

(٢) الصحاح (جلب).

(٣) تفسير الرازي عن الزجاج ٦/٢١ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/٢٥٠ .

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٣/٢٠٥ ، وأخرجه عنهم الطبري ١٤/٦٥٨ - ٦٥٩ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/١٧٣ .

(٧) مجاز القرآن ٣/٣٨٤ ، وغريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٥٨ ، وأحكام القرآن للجصاص ٣/٢٠٥ .

(٨) تفسير البغوي ٣/١٢٤ ، وينظر السبعة ص ٣٨٣ ، والتيسير ص ١٤٠ .

(٩) الوسيط للواحدي ٣/١١٦ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٣/١١٦ .

(١٠) المحتسب ٢/٢٢ ، والقراءات الشاذة ص ٧٧ .

والحام. وقاله قتادة. الضحاك: ما كانوا يذبحونه لألهتهم. والأولاد قيل: هم أولاد الزنى. قاله مجاهد والضحاك وعبد الله بن عباس. وعنه أيضاً: هو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم من الجرائم. وعنه أيضاً: هو تسميتهم عبد الحارث وعبد العزى وعبد اللات وعبد الشمس ونحوه. وقيل: هو صبغة أولادهم في الكفر حتى هوّدوهم ونصّروهم، كضنع النصارى بأولادهم بالغمس في الماء الذي لهم. قاله قتادة^(١). وقول خامس - روي عن مجاهد قال: إذا جامع الرجل ولم يُسمَّ انطوى الجنُّ على إخليله فجامع معه^(٢)، فذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئُنْ إِنْشَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦ و٧٤] وسيأتي. وروي من حديث عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «إن فيكم مُعَرِّبين» قلت: يا رسول الله، وما المُعَرِّبون؟ قال: «الذين يشترك فيهم الجنُّ». رواه الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول»^(٣). قال الهروي: سُمُّوا مُعَرِّبين لأنه دخل فيهم عِرْقٌ غريب^(٤). قال الترمذي الحكيم: فللجنِّ مسامة^(٥) بآدم في الأمور والاختلاط؛ فمنهم من يتزوَّج فيهم، وكانت بلقيس ملكة سبأ أحد أبويها من الجنِّ. وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى^(٦).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَعِدُّهُمْ﴾ أي: منَّهم الأمانى الكاذبة، وأنه لا قيامة ولا حساب، وأنه إن كان حسابٌ وجنةٌ ونارٌ فأنتم أولى بالجنة من غيركم. يقويه قوله تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢] أي: باطلاً^(٧).

(١) النكت والعيون ٢٥٥/٣ - ٢٥٦ ، وتفسير البغوي ١٢٢/٣ ، وزاد المسير ٥٨/٥ - ٥٩ ، وأخرج هذه الأقوال كلها الطبري ١٤/٦٦٠ - ٦٦٥ .

(٢) تفسير البغوي ١٢٣/٣ بمعناه عن جعفر بن محمد.

(٣) لم نقف عليه في المطبوع من نوادر الأصول، وقد ذكره البغوي ١٢٣/٣ .

(٤) قاله الأزهرى في تهذيب اللغة ٨/١١٩ .

(٥) أي: مفاخرة. اللسان (سما).

(٦) عند تفسير الآية (٢٢) من سورة النمل، في المسألة التاسعة.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/٢٧٦ .

وقيل: «وَعَذُّهُمْ» أي: عَذُّهُمْ النُّصْرَةَ على من أرادهم بسوء^(١). وهذا الأمر للشيطان تهذُّدٌ ووَعْدٌ له^(٢). وقيل: استخفافٌ به وبمن اتبعه.

السادسة: في الآية ما يدلُّ على تحريم المزامير والغناء واللَّهو؛ لقوله: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ يَصَوْتُكَ وَاجْلِبَ عَلَيْهِمْ﴾ على قول مجاهد. وما كان من صوت الشيطان أو فعله وما يستحسنه فواجب التنزُّه عنه. وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوتَ زَمَّارَةٍ فوضع أصبعيه في أذنيه، وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول: يا نافع، أسمع؟ فأقول: نعم. فمضى حتى قلتُ له: لا. فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق وقال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ سمعَ صوتَ زَمَّارَةٍ راعٍ فصنع مثلَ هذا^(٣). قال علماؤنا: إذا كان هذا فعلُهم في حقِّ صوتٍ لا يخرج عن الاعتدال، فكيف بغناء أهل هذا الزمان وزَمْرِهِمْ. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة لقمان إن شاء الله تعالى^(٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ قال ابن عباس: هم المؤمنون. وقد تقدَّم الكلام فيه^(٥). ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي: عاصماً من القبول من إبليس، وحافظاً من كيده وسوء مكره^(٦).

قوله تعالى: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ الإزجاء: السَّوق^(٧)،

(١) تفسير الطبري ١٤/٦٦٦.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/٢٥١.

(٣) أخرجه أحمد (٤٥٣٥)، وأبو داود (٤٩٢٤).

(٤) عند تفسير الآية (٦).

(٥) ١٢/٢١٣.

(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/٢٥١، والوسيط للواحدي ٣/١١٦، وتفسير الرازي ٢١/٩.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/١٧٤.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣]. وقال الشاعر:

يا أيها الراكبُ المُزْجِي مَطِيَّتُهُ سائلُ بني أسدٍ ما هذه الصَّوْتُ^(١)

وإزجاء الفلك: سوقه بالرياح اللينة^(٢). والفلك هنا جمع، وقد تقدّم^(٣). والبحر:

الماء الكثير عذباً كان أو مالحاً، وقد غلب هذا الاسم على المشهور. وهذه الآية

توقيفٌ على آلاء الله وفضله عند عباده^(٤)، أي: ربكم الذي أنعم عليكم بكذا وكذا

فلا تشركوا به شيئاً.

﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: في التجارات^(٥). وقد تقدّم^(٦). ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُكْهَمُونَ

رَجِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه فَلَمَّا بَلَغَكُمُ الْإِلَٰهَ

الْبَرَّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ «الضُّرُّ» لفظ يعمُّ خوف الغرق والإمساك

عن الجري، وأهول^(٧) حالاته: اضطرابه وتموُّجه. ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه﴾ «ضلَّ»

معناه تَلَفَ وفُقد، وهي عبارة تحقير لمن يُدعى إلهاً من دون الله. والمعنى في هذه

الآية: أنَّ الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأنَّ لها فضلاً، وكلُّ واحدٍ

منهم بالفطرة يعلم علماً لا يقدر على مدافعته أنَّ الأصنام لا فعل لها في الشدائد

العظام، فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحِيل^(٨).

(١) البيت قائله رويشد بن كثير الطائي، وقد سلف ٩١/٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤٧١/٣.

(٣) ٤٩٤/٢.

(٤) المحرر الوجيز ٤٧١/٣.

(٥) الوسيط للواحد ١١٧/٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٦٠/٥.

(٦) ٣٣١/٢.

(٧) في (ظ): أحوال، وفي بقية النسخ: أهوال، والمثبت من المحرر الوجيز.

(٨) المحرر الوجيز ٤٧١/٣.

﴿فَلَمَّا بَلَغْنَاكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: عن الإخلاص. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ الإنسان هنا الكافر^(١). وقيل: وطبع الإنسان كفوراً للنعم إلا مَنْ عَصَمَهُ الله، فالإنسان لفظ الجنس.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ بَيَّنَّ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى هَلَاكِهِمْ فِي الْبَرِّ وَإِنْ سَلِمُوا مِنَ الْبَحْرِ^(٢). وَالْخُسْفُ: أَنْ تَنْهَارَ الْأَرْضُ بِالشَّيْءِ؛ يُقَالُ: بَثْرٌ خُسِيفٌ إِذَا انْهَدَمَ أَصْلُهَا^(٣). وَعَيْنٌ خَاسِفَةٌ أَيْ: غَارَتْ حَدَقَتُهَا فِي الرَّأْسِ. وَعَيْنٌ مِنَ الْمَاءِ خَاسِفَةٌ أَيْ: غَارَ مَآوُهَا. وَخُسْفَتِ الشَّمْسُ أَيْ: غَابَتْ عَنِ الْأَرْضِ^(٤). وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: وَالْخُسِيفُ: الْبَثْرُ الَّتِي تُحْفَرُ فِي الْحِجَارَةِ فَلَا يَنْقُطِعُ مَآوُهَا كَثْرَةً، وَالْجَمْعُ خُسُفٌ^(٥). وَجَانِبُ الْبَرِّ: نَاحِيَةُ الْأَرْضِ، وَسَمَاءُ جَانِبًا لِأَنَّهُ يَصِيرُ بَعْدَ الْخُسْفِ جَانِبًا، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْبَحْرَ جَانِبُ الْبَرِّ جَانِب. وَقِيلَ: إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَسَاحِلُهُ جَانِبُ الْبَرِّ، وَكَانُوا فِيهِ آمِنِينَ مِنْ أَهْوَالِ الْبَحْرِ، فَحَذَّرَهُمْ مَا أَمْنُوهُ مِنَ الْبَرِّ كَمَا حَذَّرَهُمْ مَا خَافُوهُ مِنَ الْبَحْرِ^(٦). ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ يَعْنِي: رِيحًا شَدِيدَةً، وَهِيَ الَّتِي تَرْمِي بِالْحَصْبَاءِ، وَهِيَ الْحَصَى الصَّغَارُ. قَالَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْقُتَيْبِيُّ^(٧). وَقَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي: حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ تَحْصِبُهُمْ، كَمَا فَعَلَ بِقَوْمٍ لُوطٌ^(٨). وَيُقَالُ لِلْسَحَابَةِ الَّتِي تَرْمِي

(١) الوسيط للواحدي ١١٧/٣ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٦٠/٥ .

(٢) الوجيز على هامش مراح لبيد ٤٨٤/١ .

(٣) ينظر جمهرة اللغة (خسف).

(٤) تفسير الرازي ١١/٢١ .

(٥) الصحاح (خسف).

(٦) النكت والعيون ٢٥٧/٣ ، ومجمع البيان ٧٣/١٥ .

(٧) مجاز القرآن ٣٨٥/١ ، وغريب القرآن ص ٢٥٩ .

(٨) النكت والعيون ٢٥٧/٣ ، وأخرجه الطبري ٦٦٩/١٤ .

بالبَرَد: حاصب، وللريح التي تحمل التراب والحصباء: حاصِبٌ وَحَصْبَةٌ أَيضاً^(١).
قال لبيد:

جَرَّتْ عَلَيْهَا أَنْ خَوَتْ مِنْ أَهْلِهَا أَذْيَالُهَا كُلُّ عُصُوفٍ حَصْبَةٍ^(٢)
وقال الفرزدق:

مستقبلين شَمال الشامِ يضربُنا بحاصِبٍ كَنَدِيفِ القطنِ منشورٍ^(٣)
﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً ونصيراً يمنعكم من بأس الله^(٤).

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ
فَيَغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ يعني: في البحر^(٥). ﴿فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ القاصف: الريح الشديدة التي تكسر بشدة؛ من قَصَفَ الشيءَ
يَقْصِفُهُ، أي: كسره بشدة^(٦). والقصف: الكسر؛ يقال: قَصَفَتِ الرِّيحُ السفينة. وريحٌ
قَاصِفٌ: شديدة. ورعدٌ قاصف: شديد الصوت. يقال: قَصَفَ الرعدُ وغيره قَصِيفًا.
والقَصِيف: هشيمُ الشجر. والتَقَصَّفُ التكسُّر. والقصفُ أيضاً: اللُّهُو واللعب، يقال:
إنها مُولَّدة^(٧).

﴿فَيَغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بكفركم.

(١) تهذيب اللغة ٤/ ٢٦٠ - ٢٦١.

(٢) ديوان لبيد (دار صادر) ص ٣٩. خَوَتْ: أمحلت. العُصُوف: الريح الشديدة. الصحاح (خوى)
و(عصف).

(٣) ديوان الفرزدق (دار صادر) ١/ ٢١٣.

(٤) الوسيط للواحد ٣/ ١١٧ بمعناه.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٦.

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ١١.

(٧) الصحاح (قصف).

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «نَخْصِفْ بِكُمْ» «أو نُرْسِلْ عَلَيْكُمْ» «أَنْ نُعِيدَكُمْ» «فَنُرْسِلْ عَلَيْكُمْ» «فَنُغْرِقَكُمْ» بالنون في الخمسة على التعظيم؛ ولقوله: «علينا». الباقيون بالياء؛ لقوله في الآية قبل: «إياه»^(١). وقرأ أبو جعفر وشيبة ورؤيس ومجاهد: «فَنُغْرِقَكُمْ» بالتاء نعتاً للريح^(٢). وعن الحسن وقتادة: «فيغرقكم» بالياء مع التشديد في الراء^(٣). وقرأ أبو جعفر: «الرياح» هنا وفي كل القرآن.

وقيل: إن القاصف المهلكة في البر، والعاصف المغرقة في البحر. حكاه الماوردي^(٤).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ عَيْنًا يَدُ يَتَّبِعَا﴾ قال مجاهد: ثائراً. النحاس: وهو من الثأر. وكذلك يُقال لكل من طلب بثأراً أو غيره: تبع وتابع؛ ومنه ﴿فَاتَّبَعُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨] أي: مطالبة^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٥)
فيه ثلاث مسائل^(٦):

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الآية. لما ذكر من الترهيب ما ذكر بين النعمة عليهم أيضاً. «كَرَّمْنَا» تضعيف كَرَمَ، أي: جعلنا لهم كراماً، أي: شرفاً وفضلاً. وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال^(٧). وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم

(١) الحجة لأبي علي الفارسي ١١١/٥ ، وينظر السبعة ص ٣٨٣ ، والتيسير ص ١٤٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٤٧٢/٣ ، والنشر ٣٠٨/٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٤٧٢/٣ عن الحسن وأبي رجاء ، وهي قراءة شاذة .

(٤) في النكت والعيون ٢٥٧/٣ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ١٧٥/٤ - ١٧٦ وقول مجاهد أخرجه الطبري ٦٧٢/١٤ ، وهو في تفسيره ٣٦٦/١ .

(٦) هكذا في جميع النسخ ، والمسائل التي سيذكرها المصنف أربع .

(٧) المحرر الوجيز ٤٧٢/٣ .

على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة^(١)، وحملهم في البر والبحر مما لا يصلح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتديره، وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس، وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بني آدم؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب، ويأكلون المرغبات من الأطعمة. وغاية كل حيوان يأكل لحماً نيئاً أو طعاماً غير مرغّب. وحكى الطبري عن جماعة أن التفضيل هو أن يأكل بيده، وسائر الحيوان بالفم^(٢). ورؤي عن ابن عباس: ذكره المهدوي والنحاس^(٣)، وهو قول الكلبي ومقاتل. ذكره الماوردي^(٤). وقال الضحّاك: كرمهم بالنطق والتمييز. عطاء: كرمهم بتعديل القامة وامتدادها. يمان: بحسن الصورة. محمد بن كعب: بأن جعل محمداً ﷺ منهم. وقيل: أكرم الرجال باللّحي والنساء بالذوائب. وقال محمد بن جرير الطبري: بتسليطهم على سائر الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم^(٥). وقيل: بالكلام والخط^(٦). وقيل: بالفهم والتمييز^(٧). والصحيح الذي يُعَوَّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يُعرَف الله ويُفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه^(٨) وتصديق رسله، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بُعِثَت الرسلُ وأنزلت الكتب، فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين، فإذا فُتحت وكانت سليمة رأت الشمس^(٩)، وأدركت

(١) تفسير الرازي ١٦/٢١ .

(٢) المحرر الوجيز ٤٧٣/٣ ، وكلام الطبري في تفسيره ١٥/٥ .

(٣) في معاني القرآن ١٧٦/٤ .

(٤) في النكت والعيون ٢٥٧/٣ .

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ٦٣/٥ ، وقول الطبري في تفسيره ٥/١٥ .

(٦) النكت والعيون ٢٥٧/٣ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ١٧٦/٤ .

(٨) المحرر الوجيز ٤٧٣/٣ .

(٩) تلييس إبليس ص ٥ .

تفاصيل الأشياء. وما تقدّم من الأقوال بعضه أقوى من بعض. وقد جعل الله في بعض الحيوان خصالاً يُفْضَلُ بها ابن آدم أيضاً، كجري الفرس وسمعه وإبصاره، وقوّة الفيل، وشجاعة الأسد، وكرم الديك. وإنما التكريم والتفضيل بالعقل كما بيّناه^(١). والله أعلم.

الثانية: قالت فرقة: هذه الآية تقتضي تفضيل الملائكة على الإنس والجن من حيث إنهم المستثنون في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَلْمَلِكُ الْمُقْرَبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]. وهذا غير لازم من الآية، بل التفضيل فيها بين الإنس والجن؛ فإن هذه الآية إنما عدّد الله فيها على بني آدم ما خصّهم به من سائر الحيوان، والجنّ هو الكثير المفضول، والملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول، ولم تتعرّض الآية لذكرهم، بل يحتمل أن الملائكة أفضل، ويحتمل العكس، ويحتمل التساوي^(٢). وعلى الجملة فالكلام لا ينتهي في هذه المسألة إلى القطع، وقد تحاشى قوم من الكلام في هذا كما تحاشوا من الكلام في تفضيل بعض الأنبياء على بعض؛ إذ في الخبر «لا تُخايروا بين الأنبياء ولا تُفضّلوني على يونس بن مَتَّى»^(٣). وهذا ليس بشيء؛ لوجود النص في القرآن في التفضيل بين الأنبياء، وقد بيّناه في «البقرة»^(٤) ومضى فيها الكلام في تفضيل الملائكة والمؤمن^(٥).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: لذيذ المطاعم والمشارب؛ قال مقاتل: السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها^(٦). ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي:

(١) المحرر الوجيز ٤٧٣/٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سلف ٢٥٣/٤ و ٢٥٤.

(٤) ٢٥٨ - ٢٥٣/٤.

(٥) ٤٣٢ - ٤٣٠/١.

(٦) تفسير البغوي ١٢٥/٣.

على البهائم والدواب والوحش والطير^(١)، بالغلبة والاستيلاء، والثواب والجزاء، والحفظ والتميز، وإصابة الفراسة^(٢).

الرابعة: هذه الآية تردُّ ما رُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِخْرِمُوا أَنْفُسَكُمْ طَيِّبَ الطَّعَامِ، فَإِنَّمَا قَوِيَ الشَّيْطَانُ أَنْ يَجْرِيَ فِي الْعُرُوقِ مِنْهَا»^(٣). وبه يستدلُّ كثيرٌ من الصُّوفية في ترك أكل الطيبات، ولا أصل له؛ لأنَّ القرآن يردُّه، والسنة الثابتة بخلافه، على ما تقرَّر في غير موضع.

وقد حكى أبو حامد الطُّوسِيُّ قال: كان سهلٌ يقاتُ ورق النَّبِقِ^(٤) مدةً، وأكل دُقاقَ ورق التين ثلاث سنين. وذكر إبراهيم بن البنا قال: صحبتُ ذا النُّون من إخميم^(٥) إلى الإسكندرية، فلما كان وقتُ إفطاره أخرجتُ قرصاً ومِلْحاً كان معي، وقلت: هَلَمْ. فقال لي: مِلْحُكَ مدقوق؟ قلت: نعم. قال: لست تُفْلِح! فنظرتُ إلى ميزوذه^(٦) وإذا فيه قليل سَوِيْقٍ شعير يَسْفُ منه. وقال أبو يزيد: ما أكلتُ شيئاً مما يأكله بنو آدم أربعين سنة. قال علماؤنا: وهذا مما لا يجوز حملُ النفسِ عليه؛ لأنَّ الله تعالى أكرم آدميَّ بالحنطة، وجعل قشورها لبهائمهم، فلا يصحُّ مزاحمةَ الدوابِّ في أكل التبن، وأما سَوِيْق الشعير فإنه يورث القُولنج^(٧)، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجَرِيش^(٨) فإنه ينحرف مزاجه؛ لأنَّ خبز الشعير باردٌ مجفَّف، والملح

(١) الوسيط للواحدى ١١٨/٣ .

(٢) النكت والعيون ٢٥٨/٣ .

(٣) أخرجه ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٠٤ . قال ابن عراق في تنزيه الشريعة ٢٤٠/٢ : رواه ابن الجوزي، وفيه بزيع أبو الخليل البصري، وهو المتهم به.

(٤) النَّبِق: ثمر السدر. اللسان (نبق).

(٥) بلد بالصعيد في مصر. معجم البلدان ١٢٩/١ .

(٦) المَزُود: وعاء يُحمل فيه الزاد. تهذيب اللغة ٢٣٦/٣ .

(٧) هو مرض معوي مؤلم، يعسر معه خروج الثَّقل والريح. القاموس المحيط (القولنج).

(٨) أي: المجروش، كأنه حَكَّ بعضه بعضاً فَتَفَّت. تهذيب اللغة ٥٢٧/١٠ .

يابس قابض يضرب الدماغ والبصر، وإذا مالت النفس إلى ما يصلحها فمُنعت فقد قوومت بحكمة البارئ سبحانه بردها، ثم يؤثر ذلك في البدن، فكان هذا الفعل مخالفاً للشرع والعقل. ومعلوم أن البدن مطية الآدمي، ومتى لم يرفق بالمطية لم تبلغ. ورؤي عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبداً وعسلاً وخبز حواري، فقيل له: هذا كله؟ فقال: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عديمنا صبرنا صبر الرجال. وكان الثوري يأكل اللحم والجنب والفالودج ثم يقوم إلى الصلاة^(١). ومثل هذا عن السلف كثير. وقد تقدم منه ما يكفي في المائدة^(٢) والأعراف^(٣) وغيرهما. والأول غلو في الدين إن صح عنهم ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمْنِمٍ فَمَنْ أَوْقَىٰ كَتَبَهُ يَمِينِهِ. فَأُولَٰئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمْنِمٍ﴾ روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمْنِمٍ﴾ قال: «يُدعى أحدهم فيعطى كتابه يمينه، ويمد له في جسمه ستون ذراعاً، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألاً، فينطلق إلى أصحابه فيروونه من بعيد، فيقولون: اللهم اثبتنا بهذا، وبارك لنا في هذا، حتى يأتيهم فيقول: أبشروا، لكل منكم مثل هذا» قال: «وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له في جسمه ستون ذراعاً على صورة آدم، ويلبس تاجاً فيراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من شر هذا، اللهم لا تأتينا بهذا» قال: «فيأتيهم فيقولون: اللهم أخزِه. فيقول: أبعدكم الله، فإن لكل رجل منكم مثل هذا». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب^(٤). ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا

(١) تلبس إبليس ص ٢٠١ و ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٢٠٧ و ٢١٠.

(٢) ١١٦/٨.

(٣) ٢٠٢/٩.

(٤) سنن الترمذي (٣١٣٦).

أَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» [الجاثية: ٢٨]. والكتاب يسمى إماماً؛ لأنه يُرْجَعُ إليه في تعرّف أعمالهم. وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك: «بإمامهم» أي: بكتابهم^(١)، أي: بكتاب كل إنسانٍ منهم الذي فيه عمله، دليله ﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُكُمُ بِمِيزَانِهِ﴾^(٢). وقال ابن زيد: بالكتاب المنزّل عليهم^(٣). أي: يُدعى كل إنسانٍ بكتابه الذي كان يتلوه؛ فيُدعى أهل التوراة بالتوراة، وأهل القرآن بالقرآن، فيقال: يا أهل القرآن، ماذا عملتم؟ هل امثلتم أوامرهم؟ هل اجتنبتم نواهيه؟ وهكذا^(٤). وقال مجاهد: «بإمامهم»: بنبّيهم^(٥)، والإمام من يؤتمّ به. فيقال: هاتوا متّبعي إبراهيم عليه السلام، هاتوا متّبعي موسى عليه السلام، هاتوا متّبعي الشيطان، هاتوا متّبعي الأصنام. فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم، ويقوم أهل الباطل فيأخذون كتابهم بشمالهم^(٦). وقاله قتادة^(٧). وقال عليّ عليه السلام: «بإمام عصرهم»^(٨). وروي عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئَانِهِمْ﴾ فقال: «كلُّ يدعى بإمام زمانهم، وكتاب ربهم، وسنة نبّيهم، فيقول: هاتوا متّبعي إبراهيم، هاتوا متّبعي موسى، هاتوا متّبعي عيسى، هاتوا متّبعي محمداً - عليهم أفضل الصلوات والسلام - فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم، ويقول: هاتوا متّبعي الشيطان، هاتوا متّبعي رؤساء الضلالة إمام هدى وإمام ضلالة»^(٩). وقال الحسن وأبو العالية: «بإمامهم» أي: بأعمالهم^(١٠). وقاله ابن عباس.

(١) أخرجه الطبري ٧/١٥ عن الحسن والضحاك.

(٢) معاني القرآن للنحاس ١٧٧/٤ ، وتفسير أبي الليث ٢٧٧/٢ ، وتفسير البغوي ١٢٦/٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٨/١٥ .

(٤) الوسيط للواحد ١١٨/٣ بمعناه.

(٥) أخرجه الطبري ٦/١٥ .

(٦) الوسيط للواحد ١١٨/٣ بمعناه.

(٧) أخرجه الطبري ٧/١٥ بلفظ مجاهد.

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٩٦/٤ عن علي، وذكره البغوي في تفسيره ١٢٦/٣ عن ابن عباس.

(٩) أورده السيوطي في الدر المنثور ٤٠٤/٩ مختصراً ونسبه لابن مردويه عن علي عليه السلام.

(١٠) أخرجه الطبري ٧/١٥ - ٨ عنها.

فيقال: أين الراضون بالمقدور؟ أين الصابرون عن المحذور؟. وقيل: بمذاهبهم، فيُدْعَوْنَ بمن كانوا يَأْتُمُونَ به في الدنيا: يا حنفي، يا شافعي، يا معتزلي، يا قدرّي، ونحوه، فيتبعونه في خيرٍ أو شرٍّ، أو على حقٍّ أو باطل، وهذا معنى قول أبي عبيدة^(١). وقد تقدّم^(٢). وقال أبو هريرة: يُدعى أهل الصدقة من باب الصدقة، وأهل الجهاد من باب الجهاد... الحديث بطوله^(٣). أبو سهل: يقال: أين فلان المصلّي والصوّام، وعكسه الزَّفَافُ^(٤) والنَّمَام. وقال محمد بن كعب: «بِإِمَامِهِمْ» بِأُمَّهَاتِهِمْ، وإمام جمع آم. قالت الحكماء: وفي ذلك ثلاثة أوجه من الحكمة؛ أحدها - لأجل عيسى. والثاني - إظهاراً لشرف الحسن والحسين. والثالث - لئلا يفتضح أولاد الزنى^(٥).

قلت: وفي هذا القول نظر؛ فإن في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمعَ الله الأولين والآخرين يوم القيامة يُرفع لكل غادرٍ لواءٌ فيقال: هذه غَدْرَةُ فلان بن فلان» خرّجه مسلم والبخاري^(٦). فقلوه: «هذه غَدْرَةُ فلان ابن فلان» دليلٌ على أن الناس يُدْعَوْنَ في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وهذا يردُّ على من قال: إنما يُدْعَوْنَ بأسماء أمّهاتهم؛ لأن في ذلك سِتْراً على آبائهم^(٧). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ كَيْفَ يُبَيِّنُ﴾ هذا يقوّي قول من قال: «بِإِمَامِهِمْ» بكتابهم. ويقوّيه أيضاً قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. ﴿فَأُولَٰئِكَ

(١) في مجاز القرآن ٣٨٦/١، ولفظه: أي بالذي اقتدوا به وجعلوه إماماً.

(٢) ٣٦٧/٢.

(٣) أخرجه أحمد (٧٦٣٣)، والبخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧) مرفوعاً.

(٤) هكذا في النسخ، ولعلها الدَّفَاف: وهو الذي يضرب بالدف.

(٥) تفسير البغوي ١٢٦/٣، والكشاف ٤٥٩/٢.

(٦) صحيح مسلم (١٧٣٥) واللفظ له، وصحيح البخاري (٦١٧٧)، وأخرجه أحمد (٤٨٣٩).

(٧) تفسير الرازي ١٧/٢١.

يَقْرَهُونَ كَتَبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ الفَتِيل: الذي في شقِّ النواة^(١). وقد مضى في «النساء»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ أي: في الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق. ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: في أمر الآخرة ﴿أَعْمَى﴾^(٣). وقال عكرمة: جاء نفرٌ من أهل اليمن إلى ابن عباس فسأله عن هذه الآية، فقال: اقرؤوا ما قبلها: ﴿وَرَبِّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ﴾ إلى ﴿تَقْضِيلاً﴾. قال ابن عباس: مَنْ كان في هذه النعم والآيات التي رأى أعمى فهو عن الآخرة التي لم يُعَين أعمى وأضلَّ سبيلاً^(٤). وقيل: المعنى: مَنْ عَمِيَ عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى^(٥). وقيل: المعنى: مَنْ كان في الدنيا التي أُمِهلَ فيها وفُسِّحَ له ووُعِدَ بقبول التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبةَ فيها أعمى^(٦). وقال الحسن: مَنْ كان في هذه الدنيا كافراً ضالاً فهو في الآخرة أعمى وأضلَّ سبيلاً^(٧). وقيل: مَنْ كان في الدنيا أعمى عن حُجج الله يبعثه الله يوم القيامة أعمى^(٨)، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤] الآيات. وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾^(٩) [الإسراء: ٩٧]. وقيل: المعنى في قوله: ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ في

(١) معاني القرآن للنحاس ١٧٧/٤ ، وإعراب القرآن له ٤٣٤/٢ .

(٢) ٤١٠/٦ .

(٣) النكت والعيون ٢٥٩/٣ بنحوه.

(٤) تفسير الرازي ١٨/٢١ - ١٩ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢٧٨/٢ عن مقاتل.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢٥٣/٣ ، ومعاني القرآن للنحاس ١٧٨/٤ .

(٧) الوسيط للواحدي ١١٩/٣ ، وتفسير البغوي ١٢٦/٣ .

(٨) تفسير أبي الليث ٢٧٨/٢ عن مجاهد.

(٩) تفسير الرازي ١٩/٢١ .

جميع الأقوال: أَشَدُّ عَمَى^(١)؛ لأنه من عَمَى القلب، ولا يُقال مثله في عَمَى العين. قال الخليل وسيبويه: لأنه خِلْقَةٌ بمنزلة اليد والرُّجُل، فلم يقل: ما أعماه، كما لا يُقال: ما أيداه. الأَخْفَش: لم يقل فيه ذلك لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف، وأصله أَعْمَى^(٢). وقد أجاز بعض التَّحويين ما أعماه وما أعشاه؛ لأنَّ فعله عَمِيَ وَعَشِيَ. وقال الفراء: حدثني بالشام شيخٌ بصريُّ أنه سمع العرب تقول: ما أَسَوَدَ شعره^(٣). قال الشاعر:

ما في المعالي لكم ظلٌّ ولا ثمرُ وفي المخازي لكم أشباحُ أشياخِ
أما الملوكةُ فأنْتَ اليومَ الأُمهُم لؤماً وأبيضُهم سِرْبَالُ طَبَّاخِ^(٤)
وأمال أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف الحرفين «أعمى» و«أعمى»، وفتح الباكون، وأمال أبو عمرو الأوّل وفتح الثاني^(٥). ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يعني أنه لا يجد طريقاً إلى الهداية^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَا كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَنا إِلَيْكَ لِيفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرٌ وَإِذاً لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيفًا﴾ ﴿٧٢﴾

قال سعيد بن جبیر: كان النبی ﷺ يستلم الحجرَ الأسودَ في طوافه، فمنعته قريشٌ وقالوا: لا ندعُكَ تستلم حتى تُلَمَّ بالهتْنا. فحدّث نفسه وقال: «ما عليّ أن أَلَمَّ بها بعدَ أن يدعُوني أستلمُ الحجرَ، واللّه يعلم أني لها كاره» فأبى الله تعالى ذلك، وأنزل عليه هذه الآية. قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت في وفد ثَقِيف،

(١) مجاز القرآن ١/٣٨٦، ومعاني القرآن للزجاج ٣/٢٥٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/٤٣٤ - ٤٣٥. وينظر كتاب سيبويه ٤/٩٧ - ٩٨.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/١٢٨.

(٤) قائلهما طرفة بن العبد، والبيت الأول في ديوانه ص ١٨. والبيت الثاني في اللسان (بيض).

(٥) السبعة ص ٣٨٣، وتحرير التيسير ص ١٣٦.

(٦) مجمع البيان ١٥/٧٩.

أتوا النبي ﷺ فسألوه شططاً، وقالوا: متّعنا بآلهتنا سنةً حتى نأخذ ما يُهدى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وحرّم وادينا كما حرّمت مكة، حتى تعرّف العرب فضلنا عليهم. فهم رسول الله ﷺ أن يُعطيههم ذلك، فنزلت هذه الآية^(١). وقيل: هو قول أكابر قريش للنبي ﷺ: اطرّد عنا هؤلاء السُّقّاط والموالي حتى نجلس معك ونسمع منك. فهم بذلك حتى نُهي عنه^(٢). وقال قتادة: ذُكر لنا أن قريشاً خلّوا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصبح يُكلمونه ويُفخّمونه، ويُسودونه ويُقاربونه، فقالوا: إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس، وأنت سيّدنا يا سيّدنا، وما زالوا به حتى كاد يُقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى هذه الآية^(٣). ومعنى ﴿لِفَتْنُونَكَ﴾ أي: يزيلونك. يُقال: فتنتُ الرجل عن رأيه إذا أزلته عما كان عليه. قاله الهروي^(٤). وقيل: يصرفونك، والمعنى واحد. ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: حكم القرآن؛ لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفةً لحكم القرآن. ﴿لِنَفْتَرِي عَلَيْكَ غَيْبٌ﴾ أي: لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك^(٥)، وهو قول ثقيف: وحرّم وادينا كما حرّمت مكة، شجرها وطيرها ووحشها، فإن سألتك العرب لم خصّصتهم، فقل: الله أمرني بذلك، حتى يكون عذراً لك. ﴿وَإِذَا لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلاً﴾ أي: لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلاً^(٦)، أي: والوك وصافوك^(٧)، مأخوذة من الخلّة - بالضم - وهي الصداقة

(١) النكت والعيون ٢٥٩/٣ - ٢٦٠، وزاد المسير ٦٧/٥، وتعقب ابن الجوزي هذين القولين بقوله: وهذا باطل لا يجوز أن يُظنّ برسول الله ﷺ، وكلّ ذلك مُحال في حقه وفي حق الصحابة أنهم رَوّاه. قلنا: والقول الأول أخرجه الطبري ١٣/١٥.

(٢) معاني القرآن للزجاج ١٥٤/٣.

(٣) تفسير أبي الليث ٢٧٨/٢، وزاد المسير ٦٨/٥. وأخرجه الطبري ١٣/١٥ - ١٤.

(٤) وذكره الأزهر في تهذيب اللغة ٢٩٧/١٤ - ٢٩٨.

(٥) تفسير الرازي ٢١/٢١.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢٥٤/٣.

(٧) تفسير البغوي ١٢٧/٣، وزاد المسير ٦٨/٥.

لممايلته لهم. وقيل: ﴿لَا تَخْذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي: فقيراً. مأخوذاً من الحلة - بفتح الخاء - وهي الفقر؛ لحاجته إليهم^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّتَكَ﴾ أي: على الحق وعصمتك من موافقتهم. ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تميل. ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾^(٢). قال قتادة: لَمَّا نزلت هذه الآية قال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»^(٣). وقيل: ظاهر الخطاب للنبي ﷺ، وباطنه إخبار عن ثقيف. والمعنى: وإن كادوا ليركنونك، أي: كادوا يخبرون عنك بأنك ملت إلى قولهم، فنسب فعلهم إليه مجازاً واتساعاً، كما تقول لرجل: كِدْتَ تقتل نفسك، أي: كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت. ذكره المهدوي. وقيل: ما كان منه هم بالركون إليهم، بل المعنى: ولولا فضل الله عليك لكان منك ميل إلى موافقتهم، ولكن تم فضل الله عليك فلم تفعل. ذكره القشيري.

وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصوماً، ولكن هذا تعريف للأمة؛ لثلاث يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائع^(٤).

وقوله: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي: لو ركنت لأذقناك مثلي عذاب الحياة في الدنيا ومثلي عذاب الممات في الآخرة. قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وهذا غاية الوعيد، وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم. قال الله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي مَن يَأْتِ مِنْكُنْ بِفَحْشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾^(٥) [الأحزاب: ٣٠] وضيعف الشيء مثله مرتين، وقد يكون الضعف

(١) النكت والعيون ٢٦٠/٣.

(٢) الوسيط للواحد ١٢٠/٣، وتفسير الرازي ٢١/٢١.

(٣) تفسير الرازي ٢١/٢١. إسناده منقطع.

(٤) الوسيط للواحد ١٢٠/٣، وزاد المسير ٦٩/٥.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٢٥٤/٣. وينظر النكت والعيون ٢٦٠/٣.

النصيب، كقوله عز وجل: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ أي: نصيب. وقد تقدّم في الأعراف^(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٧٦﴾

هذه الآية قيل: إنها مدنية، حسبما تقدّم في أول السورة. قال ابن عباس: حَدَّثَ الْيَهُودَ مَقَامَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، فَقَالُوا: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ إِنَّمَا بُعِثُوا بِالشَّامِ، فَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا فَالْحَقُّ بِهَا، فَإِنَّكَ إِنْ خَرَجْتَ إِلَيْهَا صَدَقْنَاكَ وَأَمَّا بِكَ. فوقع ذلك في قلبه؛ لِمَا يُحِبُّ مِنْ إِسْلَامِهِمْ، فَرَحَلَ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى مَرَحَلَةٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ. وقال عبد الرحمن بن غنم: غزا رسول الله ﷺ غزوة تُبُوكَ لَا يَرِيدُ إِلَّا الشَّامَ، فَلَمَّا نَزَلَ تَبُوكَ نَزَلَ ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ بعد ما ختمت السورة، وأمر بالرجوع^(٢). وقيل: إنها مكية. قال مجاهد وقتادة: نزلت في هَمِّ أَهْلِ مَكَّةَ بِإِخْرَاجِهِ، وَلَوْ أَخْرَجُوهُ لَمَّا أُمِّهَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِالْهَجْرَةِ فَخَرَجَ^(٣). وهذا أصح؛ لَأَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، وَلَأَنَّ مَا قَبْلَهَا خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَلَمْ يَجْرِ لِلْيَهُودِ ذِكْرٌ^(٤). وقوله: ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ يريد أرض مكة. كقوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ [يوسف: ٨٠] أي: أرض مصر؛ دليله: ﴿وَكَايْنِ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ [محمد: ١٣] يعني مكة. معناه: هَمُّ أَهْلِهَا بِإِخْرَاجِهِ؛ فَلِهَذَا أَضَافَ إِلَيْهَا^(٥) وقال: «أخرجتك»^(٦). وقيل: هَمُّ الْكُفَّارِ كُلِّهِمْ أَنْ يَسْتَخِفُّوهُ مِنْ أَرْضِ الْعَرَبِ بِتَظَاهَرِهِمْ عَلَيْهِ، فَمَنْعَهُ اللَّهُ، وَلَوْ أَخْرَجُوهُ مِنْ أَرْضِ الْعَرَبِ لَمْ يُمَّهَلُوا، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٧).

(١) ٢١٧/٩.

(٢) زاد المسير ٦٩/٥، وحديث عبد الرحمن بن غنم أخرجه البيهقي في الدلائل ٢٥٤/٥.

(٣) الوسيط للواحدي ١٢٠/٣، وتفسير الرازي ٢٣/٢١. وقول مجاهد أخرجه عنه الطبري ١٩/١٥-٢٠. وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٨٣/١ - ٣٨٤، والطبري ١٩/١٥.

(٤) تفسير الطبري ٢٠/١٥، وتفسير البغوي ١٢٧/٣.

(٥) في النسخ: إليهم.

(٦) تفسير الرازي ٢٣/٢١.

(٧) تفسير البغوي ١٢٧/٣.

وقرأ عطاء بن أبي رباح: «لا يُكَبِّثُونَ» الباء مشددة^(١). «خلفك» نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو، ومعناه: بعدك. وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي: ﴿خَلْفَكَ﴾^(٢) واختاره أبو حاتم؛ اعتباراً بقوله: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١] ومعناه أيضاً: بعدك؛ قال الشاعر:

عَفَّتِ الدِّيارُ خِلافَهُمْ فَكأنَّما بسطَ الشَّواطِطُ بَيْنَهُنَّ حَصيراً^(٣)
«بسط البواسط» في الماوردي^(٤). يقال: شطبت المرأة الجريد إذا شقته لتعمل منه الحصر. قال أبو عبيد: ثم تلقى الشاطبة إلى المنقبة^(٥). وقيل: «خلفك» بمعنى بعدك. «وخلافك» بمعنى مخالفتك. ذكره ابن الأنباري. ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ فيه وجهان: أحدهما أن المدة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر. وهذا قول من ذكر أنهم قريش. الثاني: ما بين ذلك وقتل بني قريظة وجلاء بني النضير. وهذا قول من ذكر أنهم اليهود^(٦).

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي: يُعَذَّبُونَ كَسُنَّةِ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا؛ فهو نصبٌ بإضمارٍ يعذبون، فلما سقط الخافض عَمِلَ الفعل. قاله الفراء^(٧). وقيل: انتصب على معنى سنناً سنة مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا^(٨). وقيل: هو منصوبٌ على تقدير

(١) القراءات الشاذة ص ٧٧.

(٢) السبعة ص ٣٨٤، والتيسير ص ١٤١.

(٣) قاله الحارث بن خالد المخزومي كما في العين واللسان (خلف). ومن قوله: وقرأ عطاء إلى هذا الموضع في المحرر الوجيز ٤٧٦/٣.

(٤) في مطبوع النكت والعيون ٢٦١/٣ للماوردي بمثل رواية المصنف: بسط الشواطط.

(٥) الصحاح (شطب).

(٦) النكت والعيون ٢٦٠/٣ - ٢٦١.

(٧) في معاني القرآن له ١٢٩/٢.

(٨) مشكل إعراب القرآن ٤٣٤/١.

حذف الكاف^(١)؛ التقدير: لا يلبثون خلقتك إلا قليلاً كسنة من قد أرسلنا، فلا يوقف على هذا التقدير على قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ويوقف على الأول والثاني. ﴿قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ وقف حسن. ﴿وَلَا يَحْدُ لِسَنَيْنَا نَحْيَلًا﴾ أي: لا خُلْفَ في وعدنا^(٢).

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ لما ذكر مكايد المشركين أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر والمحافظة على الصلاة، وفيها طلب النصر على الأعداء. ومثله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(٣) [الحجر: ٩٧-٩٨]. وتقدم القول في معنى إقامة الصلاة في أول سورة البقرة^(٤). وهذه الآية بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة^(٥). واختلف العلماء في الدلوك على قولين: أحدهما: أنه زوال الشمس عن كبد السماء قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علماء التابعين وغيرهم. الثاني: أن الدلوك هو الغروب. قاله عليّ وابن مسعود وأبي بن كعب، ورؤي عن ابن عباس^(٦). قال الماوردي: من جعل الدلوك اسماً لغروبها فلا أن الإنسان يدلوك عينيه براحتة لتبينها حالة المغيب، ومن جعله اسماً لزوالها فلا أنه يدلوك عينيه لشدة شعاعها^(٧). وقال أبو

(١) تفسير البغوي ١٢٨/٣.

(٢) الوسيط للواحي ١٢٠/٣.

(٣) تفسير الرازي ٢٥/٢١.

(٤) ٢٥٣/١ وما بعدها.

(٥) المحرر الوجيز ٤٧٧/٣.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ١٢٠٧/٣.

(٧) النكت والعيون ٢٦٣/٣.

عبيد: دلوها غروبها. ودلكت برّاح يعني الشمس، أي: غابت^(١). وأنشد قُطْرِب: هذا مُقَامٌ قَدَمَي رِبَاحٍ ذَبَبَ حَتَّى دَلَكْتُ بَرَّاحٍ برّاح - بفتح الباء - على وزن حَزَامٍ وَقَطَامٍ وَرَقَاشٍ، اسمٌ من أسماء الشمس. ورواه الفراء - بكسر الباء - وهو جمع راحة وهي الكف^(٢)، أي: غابت وهو ينظر إليها، وقد جعل كَفَّهُ على حاجبه. ومنه قول العجاج: والشمسُ قد كَادَتْ تكون دَنَفًا أَدْفَعُهَا بِالرَّاحِ كَي تَزْخَلِفَا^(٣) قال ابن الأعرابي: الزُّخْلُوفَةُ مَكَانٌ مَنَحْدَرٌ أَمْلَسٌ؛ لأنهم يتزحلفون فيه. قال: والزُّخْلُوفَةُ كَالدَّحْرَجَةِ والدَّفْعِ؛ يقال: زَحْلَفْتُهُ فَتَزْخَلَفَ^(٤). ويقال: دَلَكْتُ الشَّمْسُ إِذَا غَابَتْ^(٥). قال ذو الرُّمَّة^(٦):

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللُّوَاتِي تَقُودُهَا نَجُومٌ وَلَا بِالْأَفْلَاتِ الدَّوَالِكِ قال ابن عطية: الدلوك هو الميل - في اللغة - فأول الدلوك هو الزوال، وآخره هو الغروب. ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوها؛ لأنها في حالة ميل. فذكر الله تعالى الصلوات التي تكون في حالة الدلوك وعنده، فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب، ويصح أن تكون المغرب داخلة في عَسَقَ الليل^(٧). وقد ذهب قومٌ إلى أن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب؛ لأن الله سبحانه علّق وجوبها على الدلوك، وهذا دلوها كله قاله الأوزاعي وأبو حنيفة في تفصيل. وأشار إليه مالك

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٣٧٠ - ٣٧١.

(٢) الصحاح (ذلك)، وقول الفراء في معاني القرآن له ١٢٩/٢. رباح: اسم ساق. وذَبَبَ النهار: إذا لم يبق منه إلا بقية: اللسان (ربح) و(ذب).

(٣) غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٣٧١.

(٤) الصحاح (زحلف).

(٥) الفائق ١/ ٤٣٦.

(٦) في ديوانه ٤/ ١٧٣٤.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٧.

والشافعي في حالة الضرورة^(١).

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَسَىٰ أَلَّيْلٌ﴾ روى مالك عن ابن عباس قال: دلوك الشمس: ميلها، وغسق الليل: اجتماع الليل وظلمته^(٢). وقال أبو عبيدة: الغسق: سواد الليل. قال ابن قيس الرقيّات^(٣):

إِنَّ هَذَا اللَّيْلَ قَدْ غَسَقَا واشتَكَيْتُ الْهَمَّ وَالْأَرْقَا^(٤)

وقد قيل: غسق الليل: مغيب الشفق^(٥). وقيل: إقبال ظلمته. قال زهير:

ظَلَلْتُ تَجَوُّدَ يَدَاها وَهِيَ لَا هِيَّةَ حَتَّى إِذَا جَنَحَ الْإِظْلَامُ وَالْغَسَقُ^(٦)

يقال: غسق الليل غسوقا^(٧). والغسق اسمٌ بفتح السين. وأصل الكلمة من

السيلان؛ يقال: غَسَقَتِ العين إذا سالت، تَغْشِقُ^(٨). وغسق الجرح غَسَقَانًا، أي:

سال منه ماءٌ أصفر. وأغسق المؤذن، أي: أَخَّرَ المغرب إلى غَسَقِ الليل^(٩). وحكى

الفراء: غَسَقَ الليل وأغسق، وظَلِمَ وأظلم، ودجا وأدجى، وغَبَسَ وأغبس، وغَبِشَ

وأغْبَشَ^(١٠). وكان الربيع بن خثيم يقول لمؤذنه في يومٍ غَيمٍ: أَغْشِقْ أَغْشِقْ. يقول:

أَخَّرَ الْمَغْرِبَ حَتَّى يَغْشِقَ اللَّيْلَ، وَهُوَ إِظْلَامُهُ^(١١).

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٩.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٧، وهو في الموطأ ١/ ١١.

(٣) في ديوانه ص ١٨١.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٨٨.

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٠٦ عن ابن مسعود.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٦٢.

(٧) اللسان (غسق).

(٨) ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٦٨.

(٩) الصحاح (غسق).

(١٠) ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٦٨.

(١١) تهذيب اللغة ١٦/ ١٢٧.

الثالثة: اختلف العلماء في آخر وقت المغرب، فقيل: وقتها وقت واحد لا وقت لها إلا حين تحجب الشمس، وذلك بين في إمامة جبريل؛ فإنه صلاًها باليومين لوقت واحد وذلك غروب الشمس، وهو الظاهر من مذهب مالك عند أصحابه. وهو أحد قولي الشافعي في المشهور عنه أيضاً، وبه قال الثوري. وقال مالك في «الموطأ»^(١): فإذا غاب الشفق فقد خرجت من وقت المغرب ودخل وقت العشاء. وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن حي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وداود؛ لأن وقت الغروب إلى الشفق غسق كله، ولحديث أبي موسى، وفيه: أن النبي ﷺ صلى بالسائل المغرب في اليوم الثاني، فأخر حتى كان عند سقوط الشفق. خرجه مسلم^(٢). قالوا: وهذا أولى أخبار إمامة جبريل؛ لأنه متأخر بالمدينة، وإمامة جبريل بمكة، والمتأخر أولى من فعله وأمره؛ لأنه ناسخ لما قبله^(٣). وزعم ابن العربي^(٤) أن هذا القول هو المشهور من مذهب مالك، وقوله في «موطئه» الذي أقرأه طول عمره وأمله في حياته.

والنكتة في هذا أن الأحكام المتعلقة بالأسماء هل تتعلق بأوائلها أو بآخرها أو يرتبط الحكم بجميعها؟ والأقوى في النظر أن يرتبط الحكم بأوائلها؛ لثلاث يكون ذكرها لغواً، فإذا ارتبط بأوائلها جرى بعد ذلك النظر في تعلقه بالكل إلى الآخر.

قلت: القول بالتوسعة أرجح، وقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث الأجلح بن عبد الله الكندي عن أبي الزبير عن جابر قال: خرّج رسول الله ﷺ من مكة قريباً من غروب الشمس، فلم يصل المغرب حتى أتى سرف، وذلك تسعة أميال^(٥). وأما القول بالنسخ فليس بالبين، وإن كان التاريخ معلوماً؛ فإن

(١) ١٣/١.

(٢) في صحيحه (٦١٤). وأخرجه أحمد (١٩٧٣٣).

(٣) من بداية المسألة إلى هذا الموضع في الاستذكار ١٩٧/١ - ٢٠٠، والتمهيد ٧٩/٨ و ٨١ و ٨٣ و ٨٤.

(٤) في أحكام القرآن ٣/١٢٠٧.

(٥) وأخرجه أحمد (١٤٢٧٤) من طريق الأجلح، به.

الجمع ممكن. قال علماؤنا: تُحمل أحاديثُ جبريل على الأفضلية في وقت المغرب، ولذلك اتفقت الأمة فيها على تعجيلها والمبادرة إليها في حين غروب الشمس^(١). قال ابن خُوَيزِمَنَدَاد: ولا نعلم أحداً من المسلمين تأخّر بإقامة المغرب في مسجد جماعة عن وقت غروب الشمس^(٢). وأحاديث التوسعة تُبين وقت الجواز، فيرتفع التعارضُ ويصحُّ الجمع، وهو أولى من الترجيح باتفاق الأصوليين؛ لأنَّ فيه إعمال كل واحد من الدليلين، والقول بالنسخ أو الترجيح فيه إسقاط أحدهما. والله أعلم^(٣).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَقَرَأَنَ الْفَجْرَ﴾ انتصب «قرآن» من وجهين: أحدهما أن يكون معطوفاً على الصلاة، المعنى: وأقم قرآن الفجر أي: صلاة الصبح. قاله الفراء. وقال أهل البصرة: انتصب على الإغراء، أي: فعليك بقرآن الفجر^(٤). قاله الزَّجَّاج^(٥). وعبرَ عنها بالقرآن خاصةً دون غيرها من الصلوات؛ لأنَّ القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلاً مجهورٌ بها حسبما هو مشهورٌ مسطور. عن الزَّجَّاج أيضاً^(٦).

قلت: وقد استقرَّ عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة في الصبح قَدراً لا يضرُّ بمن خلفه - يقرأ فيها بطوال المفصل، ويليهما في ذلك الظهر والجمعة - وتخفيف القراءة في المغرب وتوسطها في العصر والعشاء. وقد قيل في العصر: إنها تخفَّف كالْمغرب. وأما ما ورد في «صحيح مسلم» وغيره من الإطالة فيما استقرَّ فيه التقصير،

(١) المفهم ٢٣٧/٢ بمعناه.

(٢) الاستذكار ٢٠١/١، والتمهيد ٨٤/٨.

(٣) المفهم ٢٣٧/٢ - ٢٣٨.

(٤) تفسير البغوي ١٢٨/٣. وكلام الفراء في معاني القرآن له ١٢٩/٢.

(٥) لم نقف على نسبة هذا القول إلى الزجاج في أي من المصادر.

(٦) في معاني القرآن ٢٥٥/٣ - ٢٥٦، ولفظ كلامه: في هذا الموضع فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة؛ لأن قوله: «أقم الصلاة، أقم قرآن الفجر» قد أمر أن نقيم الصلاة، حتى سميت الصلاة قرآناً، فلا تكون صلاةً إلا بقراءة.

أو من التقصير فيما استقرت فيه الإطالة، كقراءته في الفجر بالمعوذتين كما رواه النسائي^(١)، وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور في المغرب^(٢)، فمتروك بالعمل، ولإنكاره على معاذ التطويل حين أمّ قومه في العشاء فافتتح سورة البقرة. خرّجه الصحيح^(٣). وبأمره الأئمة بالتخفيف فقال: «أيها الناس، إن منكم منقرين، فأياكم أم الناس فليخفف فإن فيهم الصغير والكبير والمريض والسقيم والضعيف وذا الحاجة»^(٤)، وقال: «إذا صلى أحدكم وحده فليطوّل ما شاء»^(٥). كلّ مسطور في صحيح الحديث.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ دليل على أنه لا صلاة إلا بقراءة؛ لأنه سمى الصلاة قرآناً^(٦).

وقد اختلف العلماء في القراءة في الصلاة، فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والفد في كلّ ركعة، وهو مشهور قول مالك. وعنه أيضاً أنها واجبة في جُل الصلاة. وهو قول إسحاق. وعنه أيضاً تجب في ركعة واحدة. قاله المغيرة وسُحْنُون. وعنه أن القراءة لا تجب في شيء من الصلاة. وهو أشد الروايات عنه. وحكي عن مالك أيضاً أنها تجب في نصف الصلاة وإليه ذهب الأوزاعي. وعن الأوزاعي أيضاً وأيوب أنها تجب على الإمام والفد والمأموم على كلّ حال. وهو أحد

(١) سنن النسائي ١٥٨/٢ من حديث عقبة بن عامر ؓ.

(٢) حديث قراءته بالأعراف أخرجه أحمد (٢١٦٤٦) من حديث زيد بن ثابت ؓ. وحديث قراءته بالمرسلات أخرجه أحمد (٢٦٨٦٨)، والبخاري (٤٤٢٩)، ومسلم (٤٦٢) من حديث أم الفضل رضي الله عنها. وحديث قراءته بالطور أخرجه أحمد (١٦٧٣٥)، والبخاري (٧٦٥)، ومسلم (٤٦٣) من حديث جبير بن مطعم ؓ.

(٣) صحيح البخاري (٧٠٥)، وصحيح مسلم (٤٦٥) من حديث جابر بن عبد الله ؓ. وأخرجه أحمد (١٤١٩٠).

(٤) أخرجه أحمد (١٧٠٦٥)، والبخاري (٩٠)، ومسلم (٤٦٦) من حديث أبي مسعود الأنصاري ؓ.

(٥) أخرجه أحمد (١٠٣٠٦)، والبخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/٢٥٥ - ٢٥٦.

قولي الشافعي^(١). وقد مضى في الفاتحة مستوفى^(٢).

السادسة: قوله تعالى: ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ روى الترمذي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار» هذا حديث حسن صحيح^(٣). ورواه علي بن مسهر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي ﷺ^(٤). وروى البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «فُضِّلَ صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح». يقول أبو هريرة: إقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٥). ولهذا المعنى يُبَكِّرُ بهذه الصلاة، فمن لم يُبَكِّرْ لم تشهّد صلاته إلا إحدى الفئتين من الملائكة^(٦). ولهذا المعنى أيضاً قال مالك والشافعي: التغليس بالصبح أفضل. وقال أبو حنيفة: الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار، فإن فاتّه ذلك فالإسفار أولى من التغليس. وهذا مخالف لما كان عليه الصلاة والسلام يفعله من المداومة على التغليس^(٧). وأيضاً فإن فيه تفويت شهود ملائكة الليل^(٨). والله أعلم.

السابعة: استدلل بعض العلماء بقوله ﷺ: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار» على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار^(٩).

(١) المفهم ٢٤/٢ - ٢٥.

(٢) ١٨٠/١ - ١٩٣.

(٣) سنن الترمذي (٣١٣٥) من طريق أسباط بن محمد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، به. وأخرجه من هذه الطريق أحمد (١٠١٣٣).

(٤) أخرجه الترمذي بإثر الحديث (٣١٣٥) من طريق علي بن مسهر، به.

(٥) صحيح البخاري (٦٤٨). وأخرجه أحمد (٧١٨٥)، ومسلم (٦٤٩): (٢٤٦).

(٦) تفسير الرازي ٢٨/٢١.

(٧) المفهم ٢٤٠/٢.

(٨) تفسير الرازي ٢٨/٢١.

(٩) النكت والعيون ٣/٢٦٤.

قلت: وعلى هذا فلا تكون صلاةُ العصر أيضاً لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار؛ فإن في الصحيح عن النبيّ الفصيح عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو هريرة: «يتعاقبون فيكم ملائكةُ بالليل وملائكةُ بالنهار، فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر» الحديث^(١). ومعلومٌ أنَّ صلاة العصر من النهار، فكَذلك تكون صلاة الفجر من الليل، وليس كذلك، وإنما هي من النهار كالعصر، بدليل الصيام والأيمان، وهذا واضح.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٧٩)

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ «من» للتبويض^(٢). والفاء في قوله: «فتَهَجَّدْ» ناسقةٌ على مضمر، أي: قم فتَهجد. ﴿بِهِ﴾ أي: بالقرآن. والتَهَجَّد من الهجود وهو من الأضداد. يقال: هجد نام، وهجد سهر؛ على الضدِّ. قال الشاعر:

ألا زارَتْ وأهلٌ مِنِّي هُجودٌ وليتَ خيالها بمنِّي يعودُ^(٣)

آخر:

ألا طرقتنا والرِّفاق هُجودٌ فباتتِ بَعْلَاتُ النِّوَالِ تجودُ^(٤)

يعني نياماً^(٥). وهجد وتهجَّد بمعنًى. وهجَّده أي: أنمَّته، وهجَّده أي: أيقظته^(٦). والتهجَّد التيقُّظ بعد رُقْدة، فصار اسماً للصلاة؛ لأنه يُتَنَبَّهُ لها. فالتهجد

(١) صحيح البخاري (٥٥٥)، وصحيح مسلم (١٣٢). وأخرجه أحمد (١٠٣٠٩).

(٢) المحرر الوجيز ٤٧٨/٣.

(٣) قائله جرير، وهو في ديوانه ٣١٨/١.

(٤) قائله خارجة بن فليح كما في أمالي أبي علي القالي ١٤/١. وقوله: «بَعْلَاتُ» من التَّعْلَةِ والتَّحْلَالَةِ: وهو ما يُتَعَلَّلُ به. اللسان (علل).

(٥) من قوله: والفاء في قوله إلى هذا الموضع في النكت والعيون ٢٦٤/٣ بمعناه.

(٦) تهذيب اللغة ٣٦/٦.

القيام إلى الصلاة من النوم. قال معناه الأسود وعلقمة وعبد الرحمن بن الأسود وغيرهم^(١). وروى إسماعيل بن إسحاق القاضي من حديث الحجاج بن عمر صاحب النبي ﷺ أنه قال: «أيحسب أحدكم إذا قام من الليل كله أنه قد تهجد؟ إنما التهجد الصلاة بعد رَقْدَةٍ، ثم الصلاة بعد رَقْدَةٍ، ثم الصلاة بعد رَقْدَةٍ» كذلك كانت صلاة رسول الله ﷺ^(٢). وقيل: الهُجود: النوم. يقال: تهجد الرجل إذا سهر^(٣)، وألقى الهجود وهو النوم. ويُسمَّى من قام إلى الصلاة متهجداً؛ لأنَّ المتهجِّد هو الذي يُلقى الهجود الذي هو النوم عن نفسه^(٤). وهذا الفعل جارٍ مجرى تحوُّبٍ وتحَرُّجٍ وتأثُّمٍ وتحثُّ وتقدَّر وتنجَّس؛ إذا ألقى ذلك عن نفسه، ومثله قوله تعالى: ﴿فَطَلْتُمْ نَفَكَهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥] معناه: تنذِّمون، أي: تطرحون الفكاهة عن أنفسكم، وهي انبساط النفوس وسرورها؛ يقال: رجلٌ فِكَةٌ إذا كان كثيرَ السرور والضحك. والمعنى في الآية: ووقتاً من الليل اسهر به في صلاة وقراءة^(٥).

الثانية: قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: كرامة لك. قاله مقاتل.

واختلف العلماء في تخصيص النبي ﷺ بالذكر دون أمته، فقليل: كانت صلاة الليل فريضة عليه؛ لقوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: فريضة زائدة على الفريضة الموظفة على الأمة^(٦).

قلت: وفي هذا التأويل بُعِدَ لوجهين: أحدهما - تسمية الفرض بالنفل، وذلك مجازٌ لا حقيقة. الثاني - قوله ﷺ: «خمس صلواتٍ فرضهنَّ الله على العباد»^(٧)، وقوله

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢٦٤، والآثار عن هؤلاء أخرجها الطبري ٣٩/ ١٥.

(٢) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ١/ ١٩٤ - ١٩٥، والطبراني في الكبير (٣٢١٦)، وفي الأوسط (٨٦٦٥).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٨٤.

(٤) تهذيب اللغة ٦/ ٣٧.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٨.

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٣٠.

(٧) أخرجه أحمد (٢٢٦٩٣) من حديث عبادة بن الصامت ؓ.

تعالى: «هَرَجَ خَمْسٌ وَهَرَجَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ»^(١) وهذا نص. فكيف يُقال: افترض عليه صلاة زائدة على الخمس؟! هذا ما لا يصح، وإن كان قد رُوي عنه عليه الصلاة والسلام: «ثَلَاثٌ عَلَيَّ فَرِيضَةٌ وَلَأَمْتِي تَطَوُّعٌ: قِيَامُ اللَّيْلِ، وَالْوَتَرُ، وَالسَّوَاكُ»^(٢). وقيل: كانت صلاة الليل تطوعاً منه، وكانت في الابتداء واجبةً على الكل، ثم نُسِخَ الوجوب، فصار قِيَامُ الليل تطوعاً بعد فريضة^(٣)، كما قالت عائشة، على ما يأتي مبيناً في سورة «المزمل»^(٤) إن شاء الله تعالى. وعلى هذا يكون الأمر بالتنفل على جهة الندب ويكون الخطاب للنبي ﷺ^(٥)؛ لأنه مغفور له، فهو إذا تطوَّع بما ليس بواجبٍ عليه كان ذلك زيادةً في الدرجات، وغيره من الأمة تطوَّعهم كفاراتٍ وتداركٌ لخللٍ يقع في الفرض. قال معناه مجاهد وغيره^(٦).

وقيل: عطية؛ لأن العبد لا ينال من السعادة عطاءً أفضلَ من التوفيق في العبادة.
الثالثة: قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ اختُلِفَ في المقام المحمود على أربعة أقوال:

الأول - وهو أصحها - الشفاعةُ للناس يوم القيامة. قاله حذيفة بن اليمان^(٧). وفي «صحيح البخاري» عن ابن عمر قال: إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُنًّا كُلُّ أُمَّةٍ تَتَّبِعُ نَبِيَّهَا تَقُولُ: يَا فُلَانُ اشْفَعْ، حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَلِكَ يَوْمٌ يَبْعَثُهُ اللَّهُ

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رضى الله عنه. وأخرجه عبد الله بن أحمد في زياداته على المسند (٢١٢٨٨) من حديث أبي بن كعب رضى الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٢٩٠)؛ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٤: فيه موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، وهو كذاب.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٢٩.

(٤) عند المسألة السادسة من تفسير الآيات (١-٤) منها.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٨.

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٣٠ بمعناه.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٦٥.

المقام المحمود^(١). وفي «صحيح مسلم» عن أنس قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ قال: «إذا كان يومُ القيامةِ ما جَ الناسُ بعضهم إلى بعض، فيأتون آدمَ فيقولون له: اشْفَعْ لَدُنِّيكَ. فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليلُ الله، فيأتون إبراهيمَ فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بموسى فإنه كليمُ الله. فيؤتى موسى فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روحُ الله وكلمته. فيؤتى عيسى فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بمحمدٍ ﷺ. فأوتى فأقول: أنا لها» وذكر الحديث^(٢). وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ سئل عنها قال: «هي الشفاعة» قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح^(٣).

الرابعة: إذا ثبت أنَّ المقام المحمود هو أمرُ الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء عليهم السلام، حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمدٍ ﷺ، فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف، ليعجل حسابهم ويُرأحوا من هول موقفهم، وهي الخاصة به ﷺ، ولأجل ذلك قال: «أنا سيدُ ولد آدم ولا فخر». قال النقاش: لرسول الله ﷺ ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعةُ في السبق إلى الجنة، وشفاعةُ في أهل الكباثر. ابن عطية: والمشهور أنهما شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة في إخراج المذنبين من النار. وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء^(٤).

وقال القاضي أبو الفضل عياض: شفاعات نبينا ﷺ يوم القيامة خمسُ شفاعات: العامة. والثانية في إدخال قوم الجنة دون حساب. الثالثة في قوم من موحدي أمته استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفع فيهم نبينا ﷺ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يشفع، ويدخلون الجنة - وهذه الشفاعة هي التي أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم

(١) صحيح البخاري (٤٧١٨).

(٢) صحيح مسلم (١٩٣). وأخرجه البخاري (٧٥١٠).

(٣) سنن الترمذي (٣١٣٧). وأخرجه أحمد (٩٧٣٥).

(٤) المحرر الوجيز ٤٧٨/٣ - ٤٧٩. وحديث: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» سلف ٢٥٤/٤ و ١٢٩/٥.

الفاسدة، وهي الاستحقاق العقلي المبني على التحسين والتقبيح - الرابعة فيمن دخل النار من المذنبين، فيخرجون بشفاعتنا ﷺ وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم المؤمنين. الخامسة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترفيعها، وهذه لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعتنا الحشر الأول.

الخامسة: قال القاضي عياض: وعُرفَ بالنقل المستفيض سؤالُ السلف الصالح لشفاعة النبي ﷺ ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يلتفت لقول من قال: إنه يكره أن تسأل الله أن يرزقك شفاعتنا النبي ﷺ؛ لأنها لا تكون إلا للمذنبين، فإنها قد تكون كما قدّمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات. ثم كلُّ عاقلٍ معترفٌ بالتقصير محتاجٌ إلى العفو، غيرُ معتدٍّ بعمله، مشفقٌ أن يكون من الهالكين، ويلزم هذا القائل ألا يدعو بالمغفرة والرحمة؛ لأنها لأصحاب الذنوب أيضاً، وهذا كله خلاف ما عُرفَ من دعاء السلف والخلف^(١).

روى البخاري عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمداً - ﷺ - الوسيلة والفضيلة، وابعته مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»^(٢).

القول الثاني - أن المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة^(٣).

قلت: وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأول؛ فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع. روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذٍ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي» الحديث^(٤).

(١) إكمال المعلم ١/ ٥٦٦.

(٢) صحيح البخاري (٦١٤). وأخرجه أحمد (١٤٨١٧).

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٦٦.

(٤) سنن الترمذي (٣١٤٨).

القول الثالث - ما حكاه الطبري عن فرقة - منها مجاهد - أنها قالت: المقام المحمود هو أن يُجْلِسَ الله تعالى محمداً ﷺ معه على كرسيه. وروث في ذلك حديثاً^(١). وعَصَدَ الطبري جواز ذلك بشطط من القول، وهو لا يخرج إلا على تلطّف في المعنى، وفيه بُعد. ولا يُنكر مع ذلك أن يروى، والعلم يتأوّل. وذكر النقّاش عن أبي داود السّجستاني أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا مُتَّهَم، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا، من أنكر جوازه على تأويله^(٢). قال أبو عمر: ومجاهد وإن كان أحد الأئمة بتأويل القرآن، فإنّ له قولين مهجورين عند أهل العلم: أحدهما هذا، والثاني في تأويل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْرُفُ عَنْ رُبِّهَا نَاطِرَةً﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] قال: تنتظر الثواب؛ ليس من النظر^(٣).

قلت: ذكر هذا في باب: ابن شهاب في حديث التنزيل. وروى عن مجاهد أيضاً في هذه الآية قال: يُجْلِسُهُ على العرش^(٤). وهذا تأويل غير مستحيل؛ لأنّ الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلّها والعرش قائماً بذاته، ثم خلق الأشياء من غير حاجة إليها، بل إظهاراً لقدرته وحكمته، وليُعرف وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بكل أفعاله المحكمة، وخلق لنفسه عرشاً استوى عليه كما شاء من غير أن صار له مماساً، أو كان العرش له مكاناً. قيل: هو الآن على الصفة التي كان عليها من قبل أن يُخْلَقَ المكان والزمان، فعلى هذا القول سواء في الجواز أقعد محمدٌ على العرش أو على

(١) أخرجه الطبري ٥٣/١٥، والخلال في السنة ٢٣٦ و ٢٣٧ و ٢٣٨ و ٣٠٧ و ٣٠٨ و ٣٠٩ من طريق سيف السدوسي، عن عبد الله بن سلام قال: إن محمداً ﷺ يوم القيامة على كرسي الرب بين يدي الرب تبارك وتعالى. سيف السدوسي لم نقف له على ترجمة، لكن البخاري قال في التاريخ الكبير ١٥٨/٤: لا يُعرف لسيف سماعٌ من عبد الله بن سلام.

(٢) من بداية القول إلى هذا الموضع في المحرر الوجيز ٤٧٩/٣. وينظر كلام الطبري في تفسيره ٥٤ - ٥١/١٥.

(٣) التمهيد ١٥٧/٧.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٤٣٦/١١، والطبري ٤٧/١٥، والخلال (٢٤١ و ٢٤٤ و ٢٤٦ و ٢٦٧ و ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٨٨ و ٢٩٦ و ٢٩٨ و ٣٠١).

الأرض؛ لأنَّ استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التي تشغل العرش، بل هو مستوٍ على عرشه كما أخبر عن نفسه بلا كَيْفٍ. وليس إقاعده محمداً على العرش موجباً له صفة الربوبية أو مُخرجاً له عن صفة العبودية، بل هو رفعٌ لمحله وتشريفٌ له على خلقه. وأما قوله في الإخبار: «معه» فهو بمنزلة قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، و﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحریم: ١١]، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ونحو ذلك. كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والحُظوة والدرجة الرفيعة، لا إلى المكان^(١).

الرابع - إخراجه من النار بشفاعته من يخرج. قاله جابر بن عبد الله. ذكره مسلم^(٢). وقد ذكرناه في كتاب التذكرة^(٣) والله الموفق.

السادسة: اختلف العلماء في كون القيام بالليل سبباً للمقام المحمود على قولين: أحدهما - أنَّ الباري تعالى يجعل ما شاء من فعله سبباً لفضله من غير معرفة بوجه الحكمة فيه، أو بمعرفة وجه الحكمة. الثاني - أنَّ قيام الليل فيه الخلوة مع الباري والمناجاة دون الناس، فأعطى الخلوة به ومناجاته في قيامه وهو المقام المحمود، ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم، فأجلُّهم فيه درجة محمد ﷺ؛ فإنه يُعطى ما لا يُعطى أحدٌ، ويشفع ما لا يشفع أحدٌ^(٤). و«عسى» من الله عزَّ وجلَّ واجبة. و«مقاماً» نصب على الظرف^(٥). أي: في مقام أو إلى مقام. وذكر الطبري عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «المقام المحمود هو المقام الذي أشفعُ فيه لأمتي»^(٦). فالمقام

(١) هذا تأويل غير صحيح، والصواب إثبات صفة العندية لله عز وجل، واستحقاق بعض أشراف مخلوقاته مكاناً عنده، والله أعلم.

(٢) في صحيحه (١٩١).

(٣) ص ٢٤٨.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢١١.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٩.

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٤٧ - ٤٨. وأخرجه أحمد (٩٦٨٤).

الموضع الذي يقوم فيه الإنسان للأمور الجليلة كالمقامات بين يدي الملوك.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ ﴿٨٠﴾

قيل: المعنى: أمتني إمامة صدق، وابعثني يوم القيامة مبعث صدق^(١)؛ ليتصل بقوله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَّعْطَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو لِيُنْجِزَ له الوعد. وقيل: أدخلني في المأمور وأخرجني من المنهي^(٢). وقيل: علّمه ما يدعو به في صلاته وغيرها من إخراجها من بين المشركين وإدخاله موضع الأمن، فأخرجه من مكة وصيّره إلى المدينة^(٣). وهذا المعنى رواه الترمذي عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فنزلت: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ قال: هذا حديث حسن صحيح^(٤). وقال الضحّاك: هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح آمناً^(٥). أبو سهل: حين رجع من تبوك وقد قال المنافقون: ﴿يُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] يعني: إدخال عز وإخراج نصر إلى مكة.

وقيل: المعنى: أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوة مدخل صدق، وأخرجني منه مخرج صدق إذا أمتني. قال معناه مجاهد^(٦). والمدخل والمخرج - بضم الميم - بمعنى الإدخال والإخراج، كقوله: ﴿أَنْزَلْنِيْ مُزَلًّا مُّبٰرَكًا﴾ [المؤمنون: ٢٩] أي:

(١) تفسير الطبري ٥٥/١٥ .

(٢) النكت والعيون ٢٦٧/٣ ، وتفسير البغوي ١٣٢/٣ .

(٣) تفسير الطبري ٥٤/١٥ بمعناه.

(٤) سنن الترمذي (٣١٣٩) من طريق قابوس أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس. وأخرجه كذلك أحمد (١٩٤٨)، والحاكم ٣/٣ وصححه، لكن الذهبي ضعفه بقابوس.

(٥) معاني القرآن للنحاس ١٨٥/٤ ، والنكت والعيون ٢٦٦/٣ ، وأخرجه الطبري ٥٧/١٥ .

(٦) تفسير البغوي ١٣٢/٣ .

إنزالاً لا أرى فيه ما أكره^(١). وهي قراءة العامة. وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم: «مدخل» و«مخرج» بفتح الميمين بمعنى الدخول والخروج^(٢)؛ فالأول رباعي وهذا ثلاثي. وقال ابن عباس: أدخلني القبر مدخل صدق عند الموت وأخرجني مخرج صدق عند البعث^(٣). وقيل: أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق، أي: لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه؛ فإنَّ ذا الوجهين لا يكون وجيهاً عندك^(٤). وقيل: الآية عامة في كل ما يُتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال، ويُنتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة. فهي دعاء، ومعناه: ربِّ أصلح لي وردي في كل الأمور وصدري^(٥). وقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيرًا﴾ قال الشعبي وعكرمة: أي: حجة ثابتة. وذهب الحسن إلى أنه العز والنصر وإظهار دينه على الدين كله^(٦). قال: فوعده الله لَيَنْزِعَنَّ مُلْكَ فَارِسَ وَالرُّومَ وَغَيْرَهَا فَيَجْعَلَهُ لَه^(٧).

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿٨١﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: روى البخاري والترمذي عن ابن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلاث مئة وستون نضبا، فجعل النبي ﷺ يطعن بها بِمَخْصَرَةٍ في يده - وربما قال: بعود - ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا، جاء

(١) تفسير الرازي ٣٣/٢١.

(٢) إتحاف فضلاء البشر ص ٣٦٠ عن الحسن، وفي المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٠ عن أبي حيوه وقتادة وحמיד، وهي قراءة شاذة.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٦٧.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٣٢.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٩.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٨٦.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٣٢. وأخرجه الطبري ١٥/ ٥٨.

الحقُّ وما يُبدئُ الباطلُ وما يعيدُ» لفظ الترمذي. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح^(١). وكذا في حديث مسلم: «نُصِباً». وفي رواية: «صنماً»^(٢). قال علماؤنا: إنما كانت بهذا العدد؛ لأنهم كانوا يُعظِّمون في يومِ صنماً ويخصُّون أعظمَها بيومين. وقوله: «فجعل يطعنها بعودٍ في يده» يقال: إنها كانت مثبتةً بالرصاص، وأنه كلما طعن منها صنماً في وجهه خرَّ لقفاه، أو في قفاه خرَّ لوجهه، وكان يقول: «جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زهوقاً» حكاه أبو عمر^(٣) والقاضي عياض. وقال القشيري: فما بقي منها صنمٌ إلا خرَّ لوجهه، ثم أمر بها فكُسِرَت.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على كسر نُصب المشركين وجميع الأوثان إذا غلب عليهم، ويدخل بالمعنى كسرُ آلة الباطل كُله، وما لا يصلح إلا لمعصية الله، كالطناير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى قال ابن المنذر: وفي معنى الأصنام الصُّورُ المَتَّخَذَةُ مِنَ الْمَدَرِ والخشب وشبهها، وكلُّ ما يَتَّخِذُهُ النَّاسُ مِمَّا لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ إِلَّا اللَّهُ الْمُنْهَيَّ عَنْهُ. ولا يجوز بيع شيءٍ منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص، إذا غُيِّرَت عما هي عليه وصارت تُشْرَحُ نُقْراً^(٤) أو قطعاً فيجوز بيعها والشُّراء بها. قال المهلب: وما كُسِرَ من آلات الباطل وكان في حبسها بعد كسرها منفعةٌ فصاحبها أولى بها مكسورة، إلا أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المال.

وقد تقدَّم حرق ابن عمر رضي الله عنه^(٥). وقد همَّ النبي ﷺ بتحريق دُورٍ من تخلف عن صلاة الجماعة^(٦). وهذا أصلٌ في العقوبة في المال مع قوله عليه السلام في الناقة

(١) صحيح البخاري (٢٤٧٨)، وسنن الترمذي (٣١٣٨). وأخرجه أحمد (٣٥٨٤).

(٢) صحيح مسلم (١٧٨١).

(٣) في الدرر في اختصار المغازي والسير ٢/٢٦٢.

(٤) أي: مُذابة. تهذيب اللغة ٨٩/٩.

(٥) كذا في النسخ، والذي سلف ٥/٣٩٤ أن الذي حرق هو الوليد بن هشام.

(٦) سلف ١٧٩/٤.

التي لعنتها صاحبها: «دعوها فإنها ملعونة»^(١) فأزال ملكها عنها تأديباً لصاحبها، وعقوبة لها فيما دعت عليه بما دعت به. وقد أراق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبناً شيب بماء على صاحبه^(٢).

الثالثة: ما ذكرنا من تفسير الآية يُنظر إلى قوله ﷺ: «والله لينزلن عيسى بن مريم حكماً عادلاً، فليُكسرنَّ الصليب، وليقتلنَّ الخنزيرَ وليضعنَّ الجزيةَ ولتتركنَّ القلاصُ فلا يُسعى عليها» الحديث. خرَّجه الصحيحان^(٣). ومن هذا الباب هنكُ النبي ﷺ الستر الذي فيه الصور، وذلك أيضاً دليلٌ على إفساد الصور وآلات الملاهي كما ذكرنا. وهذا كله يحظر المنع من اتخاذها ويوجب التغيير على صاحبها. إن أصحاب هذه الصور يُعذبون يوم القيامة ويُقال لهم: أحيوا ما خلقتُم، وحسبك! وسيأتي هذا المعنى في «النمل»^(٤) إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي: الإسلام. وقيل: القرآن. قاله مجاهد. وقيل: الجهاد. ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ قيل: الشرك. وقيل: الشيطان. قاله مجاهد. والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة، فيكون التفسير: جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه^(٥). ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾: بطل الباطل^(٦). ومن هذا زهوقُ النفس وهو بطلانها. يقال: زَهَقَتْ نَفْسُهُ تَزَهَقُ زُهُوقاً، وأزهقتها^(٧). ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زُهُوقاً﴾ أي: لا بقاء له، والحق الذي يثبت^(٨).

(١) أخرجه أحمد (١٩٨٧٠)، ومسلم (٢٥٩٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) سلف ٣٩٦/٥.

(٣) لم يخرج به البخاري، وإنما خرجه مسلم (١٥٥): (٢٤٣)، وقد سلف ١٥٥/٥.

(٤) ٢٧٣/١٧ - ٢٧٤.

(٥) المحرر الوجيز ٤٨٠/٣.

(٦) مجمع البيان ٨٩/١٥.

(٧) ينظر تهذيب اللغة ٣٩٢/٥.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤٣٧/٢.

قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٨٢﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ﴾ قرأ الجمهور بالنون^(١). وقرأ مجاهد: «ويُنْزِل» بالياء خفيفة، ورواها المروزي عن حفص^(٢). و«مِن» لا ابتداء الغاية، ويصح أن تكون لبيان الجنس؛ كأنه قال: ونزل ما فيه شفاء من القرآن. وفي الخبر: «من لم يَسْتَشْفِ بالقرآن فلا شفاء الله»^(٣). وأنكر بعض المتأولين أن تكون «مِن» للتبعية؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه أن بعضه لا شفاء فيه. ابن عطية: وليس يلزمه هذا، بل يصح أن تكون للتبعية بحسب أن إنزاله إنما هو مُبْعَضٌ، فكأنه قال: ونزل من القرآن شيئاً شفاءً، ما فيه كله شفاء.

الثانية: اختلف العلماء في كونه شفاءً على قولين: أحدهما - أنه شفاءٌ للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الرِّيب، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى. الثاني - شفاءٌ من الأمراض الظاهر بالرقي والتعوذ ونحوه^(٤). وقد روى الأئمة - واللفظ للدارقطني - عن أبي سعيد الخدري قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سَرِيَّةٍ ثلاثين راكباً. قال: فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يُضيفونا فأبَوْا. قال: فَلَدِغَ سَيْدُ الْحَيِّ، فأتونا فقالوا: فيكم أحدٌ يَرْقِي من العُقر؟ - في رواية ابن قتَّة: إِنَّ الْمَلِكَ يَمُوتُ - قال: قلتُ أنا: نعم، ولكن لا أفعل

(١) وتشديد الزاي، وقرأ أبو عمرو ويعقوب: «وَنُزِّلَ» بالنون وتخفيف الزاي. إتحاف فضلاء البشر ص ٣٦٠، والنشر ٢/٣٠٨.

(٢) وهي قراءة شاذة، والمشهور عن حفص بمثل قراءة الجمهور.

(٣) عزاه في كنز العمال (٢٨١٠٦) إلى الدارقطني في الأفراد، وأورده الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار ٢٨٨/٢ وعزاه إلى الثعلبي وساق إسناده من طريق أحمد بن الحارث الغساني، عن ساكنة بنت الجعد، عن رجاء الغنوي مرفوعاً. أحمد بن الحارث الغساني متروك، وساكنة بنت الجعد مجهولة. الميزان ٨٨/١ و ٤٤/٢. وقال ابن عبد البر في الاستيعاب ص ٢٣٧: رجاء الغنوي لا يصح حديثه ولا تصح له صحة.

(٤) من بداية المسألة الأولى إلى هذا الموضع - دون ذكر الحديث - في المحرر الوجيز ٣/٤٨٠.

حتى تعطونا. فقالوا: فإننا نُعطيكُم ثلاثين شاةً. قال: فقرأت عليه: «الحمد لله ربِّ العالمين» سبع مرات، فبرأ. - في رواية سليمان بن قتة عن أبي سعيد: فأفاق وبرأ - فبعث إلينا بالنزل، وبعث إلينا بالشاء، فأكلنا الطعام أنا وأصحابي، وأبوا أن يأكلوا من الغنم، حتى أتينا رسول الله ﷺ فأخبرته الخبر، فقال: «وما يُدريك أنها رُقية» قلت: يا رسول الله، شيءٌ أُلقي في رُوعي. قال: «كلوا وأطعمونا من الغنم» خرَّجه في كتاب السنن^(١). وخرَّج في كتاب «المُدَبَّج»^(٢) من حديث السَّريِّ بن يحيى قال: حدثني المعتمر بن سليمان، عن ليث بن أبي سُليم، عن الحسن، عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينفَعُ بإذن الله تعالى من البرص والجنون والجذام والبطن والسُّلِّ والحُمى والنَّفَس أن تُكتبَ بزعفرانٍ أو بِمَشَقٍ - يعني المَغْرَة - أعوذ بكلمات الله التامة، وأسمائه كُلِّها عامَّةً، من شرِّ السَّامةِ والغامَّةِ، ومن شرِّ العين اللامةِ، ومن شرِّ حاسِدٍ إذا حسد، ومن أبي فَرَوَة وما ولد». كذا قال، ولم يقل: من شرِّ أبي قِترَة^(٣). العين اللامةُ: التي تصيب بسوء. تقول: أُعِيْذه من كلِّ هامةٍ لامةٍ. وأما قوله: أُعِيْذه من حادثات اللَّمة فيقول: هو الدهر. ويقال: الشدة. والسَّامةُ: الخاصَّة. يقال: كيف السَّامةُ والعامَّة. والسَّامةُ: السُّم. ومن أبي فَرَوَة وما ولد. وقال: «ثلاثةٌ وثلاثون من الملائكة أتوا ربَّهم عزَّ وجلَّ فقالوا: وَصَبَّ بأرضنا. فقال: خذوا تربةً من أرضكم فامسحوا نواصيكم - أو قال: بِوَصِيْكم^(٤) - رقية محمد ﷺ، لا أفلَحَ من كتَمها أبداً،

(١) سنن الدارقطني (٣٠٣٤) و(٣٠٣٥) من طريق أبي نضرة، و(٣٠٣٦) من طريق أبي المتوكل، و(٣٠٣٧) من طريق سليمان بن قتة، ثلاثهم عن أبي سعيد الخدري، به. وأخرجه أحمد (١١٠٧٠) من طريق أبي نضرة، و(١١٤٧٢) من طريق سليمان بن قتة، و(١٠٩٨٥)، والبخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١) من طريق أبي المتوكل.

(٢) تصحف في (م) إلى المديح. وقد سلف اسمه على الصواب ٦١/٨. والحديث المدبَّج: هو أن يروي أحد القرنيين عن الآخر، ولا يروي الآخر عنه. مقدمة ابن الصلاح ص ٣١٠.

(٣) وهي كنية إبليس. العين (قتر).

(٤) في (م): نوصيكم، وهو خطأ. والوصب: المرض. الصحاح (وصب).

أو أخذَ عليها صَفْدًا^(١). ثم يكتبُ فاتحةَ الكتابِ وأربعَ آياتٍ من أولِ البقرة، والآية التي فيها تصريفُ الرياح، وآية الكرسي، والآيتين اللتين بعدها، وخواتيم سورة البقرة من موضع ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخرها، وعشرًا من أول آل عمران، وعشرًا من آخرها، وأول آية من النساء، وأول آية من المائدة، وأول آية من الأنعام، وأول آية من الأعراف، والآية التي في الأعراف [٥٤]: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ حتى تختم الآية، والآية التي في يونس [٨١] من موضع ﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُكَ بِالسِّحْرِ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، والآية التي في طه [٦٩] ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾، وعشرًا من أول الصفات، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمعوذتين. تكتبُ في إناءٍ نظيفٍ، ثم تغسلُ ثلاثَ مراتٍ بماءٍ نظيفٍ، ثم يحثو منه الوجعُ ثلاثَ حثواتٍ، ثم يتوضأُ منه كوضوئه للصلاة، ويتوضأُ قبل وضوئه للصلاة حتى يكون على طهر قبل أن يتوضأ به، ثم يصبُّ على رأسه وصدره وظهره ولا يستنجي به، ثم يُصلي ركعتين، ثم يستشفي الله عزَّ وجلَّ، يفعل ذلك ثلاثة أيام، قدر ما يكتب في كلِّ يومٍ كتاباً^(٢). - في رواية: ومن شرَّ أبي قِثرة وما ولد - وقال: «فامسحوا بِوَصْبِكُمْ»^(٣) ولم يشك^(٤). وروى البخاريُّ عن عائشة، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَنْفُثُ على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات، فلما ثَقُلَ كُنْتُ أَنْفُثُ عليه بهنَّ، وأمسحُ بيدِ نفسي لبركتها. فسألت

(١) أي: عطاء. الصحاح (صفد).

(٢) في إسناده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف. الميزان ٣/ ٤٢٠ - ٤٢١. والحسن لم يثبت سماعه من أبي أمامة.

(٣) المثبت من (ز) ومن المصادر، وفي بقية النسخ: نواصيكم.

(٤) وقد أخرج هذه الرواية - بالمرفوع منها فقط - أبو يعلى (٢٤١٦)، والطبراني في الأوسط (٦٠٨٩)، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٨٧) من طريق معتمر، عن ليث بن أبي سليم، عن أبي فزارة، عن سعيد بن جبير أو مقسم، عن ابن عباس مرفوعاً. وفي رواية أخرى لأبي يعلى (٢٤١٧): عن أبي فزارة، عن مقسم، عن سعيد، عن ابن عباس، وفي رواية لابن أبي الدنيا: عن أبي فزارة، عن مقسم، عن ابن عباس. قلنا: ومدار الإسناد على ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف كما تقدم آنفاً.

الزُّهريَّ كيف كان يَنْفِثُ؟ قال: كان يَنْفِثُ على يديه ثم يَمْسَحُ بهما وجهه^(١). وروى مالك عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه المعوذتين وتَقَلَّ أو نَفَثَ^(٢). قال أبو بكر بن الأنباري: قال اللغويون: تفسير «نفث» نفخ نفخاً ليس معه ريق. ومعنى «تَقَلَّ» نفخ نفخاً معه ريق^(٣). قال الشاعر:

فإن يَبْرأ فلم أنْفِثْ عليه وإن يُفْقَدَ فحَقَّ له المُقودُ^(٤)

وقال ذو الرُّمَّة:

وَمِنْ جَوْفِ ماءٍ عَرَمَضُ الحَوْلِ فوقَهُ متى يَحْسُ منه مائِحُ القومِ يَتَقَلُّ^(٥)

أراد: ينفخ بريق. وسيأتي ما للعلماء في النفث في سورة الفلق إن شاء الله تعالى.

الثالثة: روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يكره الرُّقى إلا بالمعوذات^(٦). قال الطبري: وهذا حديث لا يجوز الاحتجاج بمثله في الدين؛ إذ في نَقْلِهِ من لا يُعرف. ولو كان صحيحاً لكان إما غلطاً وإما منسوخاً؛ لقوله عليه الصلاة والسلام في الفاتحة «ما أدراك أنها رُقية». وإذا جاز الرُّقى بالمعوذتين وهما سورتان من القرآن كانت الرقية بسائر القرآن مثلهما في الجواز؛ إذ كُلُّه قرآن. وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «شفاء أمتي في ثلاث: آية من كتاب الله، أو لعقة من عسل، أو شرطة من مِحْجَم»^(٧). وقال رجاء الغنوي: ومن لم يَسْتَشْفِ بالقرآن فلا شفاء له^(٨).

(١) صحيح البخاري (٥٧٣٥)، والسائل الذي سأل الزهري هو معمر بن راشد الراوي عنه. فتح الباري ١٩٧/١٠ - ١٩٨.

(٢) الموطأ ٢/ ٩٤٢ - ٩٤٣. وأخرجه من طريقه أحمد (٢٤٧٢٨)، والبخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢): (٥١).

(٣) زاد المسير لابن الجوزي ٩/ ٢٧٥.

(٤) قائله عترة، وهو في ديوانه ص ٤٢.

(٥) ديوان ذي الرمة ٣/ ١٤٨٧. وقال شارحه: الجوف: المظمن من الأرض. والعَرَمَضُ: الخضرة على رأس الماء، وعَرَمَضُ الحَوْلِ: أتى عليه حَوْلٌ. والمائِح: الذي يغرف بيده.

(٦) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٥٧٣).

(٧) سلف ٣٧١/١٢.

(٨) سلف قريباً في الصفحة ١٥٦ مرفوعاً، ولا يصح.

الرابعة: واختلف العلماء في النُّشْرَة، وهي أن يكتب شيئاً من أسماء الله أو من القرآن ثم يغسله بالماء، ثم يمسح به المريض أو يسقيه، فأجازها سعيد بن المسيّب؛ قيل له: الرجل يؤخذ عن امرأته، أَيَحْلُ عنه ويُنْشَر؟ قال: لا بأس به، وما ينفع لم يُنْه عنه^(١). ولم يرَ مجاهدٌ أن تُكْتَبَ آياتٌ من القرآن، ثم تُغْسَلَ، ثم يُسْقَاه صاحبُ الفزع. وكانت عائشة تقرأ بالمعوذتين في إناء، ثم تأمر أن يُصَبَّ على المريض^(٢). وقال المازريُّ أبو عبد الله: النُّشْرَة أمرٌ معروفٌ عند أهل التعزيم، وسُمِّيت بذلك لأنها تنشر عن صاحبها، أي: تَحُلُّ. ومنعها الحسن^(٣) وإبراهيم النَّخَعِيُّ؛ قال النَّخَعِيُّ: أخاف أن يصيبه بلاء. وكأنه ذهب إلى أنه ما يجيء به القرآن فهو إلى أن يعقب بلاء أقرب منه، إلى أن يفيد شفاء. وقال الحسن: سألت أنساً فقال: ذكروا عن النبي ﷺ أنها من الشيطان^(٤). وقد روى أبو داود من حديث جابر بن عبد الله قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن النُّشْرَة فقال: «من عمل الشيطان»^(٥). قال ابن عبد البر: وهذه آثارٌ لينَّةٌ ولها وجوهٌ مُحْتَمِلَة^(٦)، وقد قيل: إنَّ هذا محمولٌ على ما إذا كانت خارجةً عما في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وعن مداواة المعروفة. والنُّشْرَة من جنس الطب^(٧). فهي غُسالَة شيءٍ له فضل، فهي كوضوء رسول الله ﷺ.

(١) المفهم ٥/ ٥٩٠.

(٢) أخرجهما ابن أبي شيبة ٨/ ٢٨.

(٣) المفهم ٥/ ٥٩٠.

(٤) أخرجه البزار «كشف الأستار» (٣٠٣٤)، والحاكم ٤/ ٤١٨ من طريق مسكين بن بكير، عن أبي رجاء، عن الحسن، به موصولاً.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٢٩، وأبو داود في المراسيل (٤٥٣) من طرق عن شعبة، عن أبي رجاء، عن الحسن، عن النبي ﷺ مرسلاً.

ورجح المرسل أبو حاتم فيما نقل عنه ابنه في العلل ٢/ ٢٩٥، لكن يشهد له حديث جابر الآتي.

(٥) سنن أبي داود (٣٨٦٨)، وأخرجه أحمد (١٤١٣٥).

(٦) التمهيد ٥/ ٢٧٣.

(٧) المفهم ٥/ ٥٩٠.

وقال ﷺ: «لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك» و«من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»^(١).

قلت: قد ذكرنا النص في النشرة مرفوعاً، وأن ذلك لا يكون إلا من كتاب الله، فليعتمد عليه.

الخامسة: قال مالك: لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله عز وجل على أعناق المرضى على وجه التبرك بها، إذا لم يرد معلقها بتعليقها مُدافعة العين. وهذا معناه قبل أن ينزل به شيء من العين. وعلى هذا القول جماعة أهل العلم، لا يجوز عندهم أن يعلق على الصحيح من البهائم أو بني آدم شيء من العلائق خوف نزول العين، وكل ما يعلق بعد نزول البلاء من أسماء الله عز وجل وكتابه رجاء الفرج والبرء من الله تعالى، فهو كالرقى المباح الذي وردت السنة بإباحته من العين وغيرها^(٢).

وقد روى عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فزع أحدكم في نومه فليقل: أعوذ بكلمات الله التامة غضبه وسوء عقابه، ومن شر الشياطين وأن يحضروا» وكان عبد الله يعلمها ولده من أدرك منهم ومن لم يدرك، كتبها وعلقها عليه^(٣). فإن قيل: فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «من علق شيئاً وكل إليه»^(٤)، ورأى ابن مسعود على أم ولده تيممة مربوطة، فحبذها حبذاً شديداً فقطعها، وقال: إن آل ابن مسعود لأغنياء عن الشرك، ثم قال: إن التماائم والرقى والتولة من الشرك. قيل: ما التولة؟ قال: ما تحببت به لزوجها^(٥). وروي عن عقبة بن عامر الجهني قال:

(١) الحديث الأول أخرجه مسلم (٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك ؓ، والثاني أخرجه مسلم أيضاً (٢١٩٩) عن جابر بن عبد الله ؓ.

(٢) التمهيد ١٧/ ١٦٠ - ١٦١.

(٣) أخرجه أحمد (٦٦٩٦)، وأبو داود (٣٨٩٣)، والترمذي (٣٥٢٨)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٦٦).

(٤) أخرجه أحمد (١٨٧٨١)، والترمذي (٢٠٧٢) من حديث عبد الله بن عكيم.

(٥) أخرجه أحمد (٣٦١٥)، وأبو داود (٣٨٨٣) دون قوله: ما التولة...

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من علّق تميمةً فلا أتمّ الله له، ومن علّق ودعةً فلا ودّع الله له»^(١). قلنا^(٢): قال الخليل بن أحمد: التميمة: قلادة فيها عودٌ، والودعة: خرزٌ. وقال أبو عمر: التميمة في كلام العرب: القلادة، ومعناه عند أهل العلم: ما علّق في الأعناق من القلائد خشية العين أو غيرها أن تنزل أو لا تنزل قبل أن تنزل. فلا أتمّ الله عليه صحته وعافيته، ومن تعلّق ودعةً - وهي مثلها في المعنى - فلا ودّع الله له، أي: فلا بارك الله له ما هو فيه من العافية. والله أعلم. وهذا كله تحذيرٌ مما كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التمام والقلائد، ويظنون أنها تقيهم وتصرف عنهم البلاء، وذلك لا يصرفه إلا الله عزّ وجلّ، وهو المعافي والمبتلي، لا شريك له. فنهاهم رسول الله ﷺ عما كانوا يصنعون من ذلك في جاهليتهم. وعن عائشة قالت: ما تعلّق بعد نزول البلاء فليس من التمام. وقد كره بعض أهل العلم تعليق التميمة على كلّ حالٍ قبل نزول البلاء وبعده. والقول الأوّل أصحّ في الأثر والنظر إن شاء الله تعالى^(٣).

وما روي عن ابن مسعود يجوز أن يريد بما كره تعليق غير القرآن أشياء مأخوذة عن العرافين والكهّان؛ إذ الاستشفاء بالقرآن مُعلّقاً وغير مُعلّق لا يكون شركاً، وقوله عليه الصلاة والسلام: «من علّق شيئاً وُكِلَ إليه» فمن علّق القرآن ينبغي أن يتولّاه الله ولا يكلّه إلى غيره؛ لأنه تعالى هو المرغوب إليه والمُتوكّل عليه في الاستشفاء بالقرآن. وسُئِلَ ابنُ المسيّب عن التعويذ: أيُعلّق؟ قال: إذا كان في قصبةٍ أو رقعةٍ يُحرّز فلا بأس به. وهذا على أن المكتوب قرآن. وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأساً أن يُعلّق الرجلُ الشيء من كتاب الله إذا وضعه عند الجماع وعند الغائط. ورخص أبو جعفر محمد بن عليّ في التعويذ يُعلّق على الصبيان. وكان ابن سيرين لا يرى بأساً

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠٤). ونصّ السندي على أن كلمة «ودّع» ضُبِطت بالتشديد.

(٢) في (م): قلباً. واعتُبرت هناك على أنها من الحديث!

(٣) التمهيد ١٧/١٦٢ - ١٦٤.

بالشيء من القرآن يُعلِّقه الإنسان^(١).

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تفريج الكرب، وتطهير العيوب، وتكفير الذنوب، مع ما تفضَّل به تعالى من الثواب في تلاوته؛ كما روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: آلم حرف، بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف». قال: هذا حديث حسن صحيح غريب^(٢). وقد تقدَّم^(٣). ﴿وَلَا يَزِيدُ الْظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لتكذيبهم^(٤). قال قتادة: ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، ثم قرأ: ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية^(٥). ونظير هذه الآية قوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]. وقيل: شفاء في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أي: هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خساراً صفتهم الإعراض عن تدبر آيات الله والكفران لنعمه. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. ومعنى «نأى بجانبه» أي: تكبر وتباعد. وناء مقلوب منه، والمعنى: بُعد عن القيام بحقوق الله عز وجل؛ يقال: نأى الشيء، أي: بُعد^(٧). ونأيتُه ونأيتُ

(١) المنهاج في شعب الإيمان ٣٩/٢.

(٢) سنن الترمذي (٢٩١٠).

(٣) ١٢/١.

(٤) النكت والعيون ٢٦٨/٣.

(٥) تفسير البغوي ١٣٣/٣ - ١٣٤، لكن أخرجه الحاكم ٣٦٥/٢، والواحي في الوسيط ١٢٣/٣ عن أويس القرني.

(٦) النكت والعيون ٢٦٨/٣.

(٧) الوسيط للواحي ١٢٤/٣ بمعناه.

عنه بمعنى، أي: بَعُدْتُ. وأنايئُهُ فانتأى، أي: أبعدتُهُ فَبَعُدَ. وتَنَاءَوْا تَبَاعَدُوا. والمُنْتَأَى: الموضع البعيد. قال النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مُذْرِكِي وإن خِلْتُ أَنَّ المُنْتَأَى عنك واسعٌ^(١)

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان: «نَاء» مثل باع، الهمزة مؤخرة، وهو على طريقة القلب من نأى، كما يقال: راء ورأى^(٢). وقيل: هو من النَّوْء وهو النهوض والقيام^(٣). وقد يقال أيضاً للوقوع والجلوس: نوء، وهو من الأضداد^(٤). وقرئ «ونئِي» بفتح النون وكسر الهمزة^(٥). والعامية: «نأى» في وزن رأى^(٦). ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ كَانَ يَتُوسَّأُ أي: إذا ناله شدة من فقرٍ أو سقمٍ أو بؤسٍ يشس وقنط؛ لأنه لا يثق بفضل الله تعالى^(٧).

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قال ابن عباس: ناحيته. وقاله الضحاك. مجاهد: طبيعته. وعنه: حَدَّتْه. ابن زيد: على دينه. الحسن وقتادة: نيته. مقاتل: جِبِلَّتْه. الفراء: على طريقته ومذهبه الذي جُبِلَ عليه^(٨). وقيل: قل كلٌّ يعمل على ما هو أشكلٌ عنده وأولى بالصواب في اعتقاده^(٩). وقيل: هو مأخوذٌ من الشَّكْل؛

(١) الصحاح (نأى)، والبيت في ديوان النابغة - وهو الذبياني - ص ٨١.

(٢) الوسيط للواحد ١٢٤/٣. وينظر السبعة ص ٣٨٤، والتيسير ص ١٤١.

(٣) تفسير البغوي ١٣٤/٣.

(٤) اللسان (نوا).

(٥) وهي قراءة حمزة في روايتي خلاد وأبي عمر عن سليم. السبعة ص ٣٨٤، والتيسير ص ١٤١.

(٦) المصدر السابق.

(٧) الوسيط للواحد ١٢٤/٣.

(٨) معاني القرآن للنحاس ١٨٨/٤، والمححر الوجيز ٤٨١/٣، وتفسير البغوي ١٣٤/٣.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٣٨/٢.

يقال: لست على شكلي ولا شاكلي^(١). قال الشاعر:

كلُّ امرئٍ يُشَبِّهه فِعْلُهُ ما يفعل المرءُ فهو أهْلُهُ^(٢)
فالشَّكل هو المثل والنظير والضرب، كقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا﴾
[ص: ٥٨]. والشَّكل (بكسر الشين): الهيئة؛ يُقال: جارية حسنة الشَّكل. وهذه الأقوال
كلُّها متقاربة.

والمعنى: أن كلَّ أحدٍ يعمل على ما يُشاكل أصله وأخلاقه التي أَلْفَهَا^(٣)، وهذا
ذمٌّ للكافر ومدحٌ للمؤمن. والآية والتي قبلها نزلتا في الوليد بن المغيرة ذكره المهدويُّ.
﴿فَرَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أي: بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كلِّ
واحدٍ منهم. وقيل: ﴿أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أي: أسرع قبولاً. وقيل: أحسن ديناً.

وحكي أن الصحابة رضوان الله عليهم تذكروا القرآن، فقال أبو بكر الصديق ؓ:
قرأتُ القرآن من أوله إلى آخره فلم أرَ فيه آيةَ أرجى وأحسنَ من قوله تبارك وتعالى:
﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾ فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان، ولا يشاكل بالرب إلا
الغفران. وقال عمر بن الخطاب ؓ: قرأتُ القرآن من أوله إلى آخره فلم أرَ فيه آيةَ
أرجى وأحسنَ من قوله تعالى: ﴿يُنَادِي أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ١-٣] قدَّم غفران
الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول ﴿[غافر: ١-٣] قدَّم غفران
الذنوب على قبول التوبة، وفي هذا إشارةٌ للمؤمنين. وقال عثمان بن عفان ؓ: قرأتُ
جميعَ القرآن من أوله إلى آخره فلم أرَ آيةَ أحسنَ وأرجى من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْعِثُ
أَيُّهَا أَنَا الْعَفْوَ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]. وقال عليُّ بن أبي طالب ؓ: قرأتُ القرآن من
أوله إلى آخره فلم أرَ آيةَ أحسنَ وأرجى من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٦٠.

(٢) التمثيل والمحاضرة ص ١٧ دون نسبة.

(٣) الوسيط للواحدي ١٥٤/٣.

أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُمْ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨٤﴾
[الزمر: ٥٣].

قلت: وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أَرِ آيةً أحسنَ وأرجى من قوله تعالى:
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا
قَلِيلًا﴾ (٨٥)

روى البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حَرْثٍ وهو متكى على عسيبٍ إذ مرَّ اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال: ما رابكم^(١) إليه؟ وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سلوه. فسألوه عن الروح، فأمسك النبي ﷺ فلم يردَّ عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمْتُ مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لفظ البخاري. وفي مسلم: فأسكت النبي ﷺ. وفيه: وما أوتوا^(٢).

وقد اختلف الناس في الروح المسؤول عنه أي الروح هو؟ فقيل: هو جبريل. قاله قتادة. قال: وكان ابن عباس يكتمه. وقيل: هو عيسى^(٣). وقيل: القرآن، على ما يأتي بيانه في آخر السُورى^(٤). وقال علي بن أبي طالب: هو مَلَكٌ من الملائكة له سبعون ألف وجه، في كلِّ وجه سبعون ألف لسان، في كلِّ لسان سبعون ألف لغة، يُسَبِّحُ الله تعالى بكل تلك اللغات، يخلق الله تعالى من كل تسبيحة مَلَكاً يطير مع الملائكة إلى

(١) من الرِّيب: وهو الشك. النهاية (ريب).

(٢) صحيح البخاري (٤٧٢١)، وصحيح مسلم (٢٧٩٤)، وسنن الترمذي (٣١٤١). وأخرجه أحمد (٣٦٨٨).

(٣) المحرر الوجيز ٤٨١/٣.

(٤) عند تفسير الآية (٥٢) منها.

يوم القيامة. ذكره الطبري^(١). قال ابن عطية^(٢): وما أظنُّ القولَ يصحُّ عن عليٍّ عليه السلام.

قلت: أسند البيهقي: أخبرنا أبو زكريا، عن أبي إسحاق، أخبرنا أبو الحسن الطرائفي، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ يقول: الروح ملك. وبإسناده عن معاوية بن صالح حدثني أبو هران - بكسر الهاء - يزيد بن سُمرة، عمَّن حدثه عن علي بن أبي طالب أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ قال: هو ملكٌ من الملائكة، له سبعون ألف وجه... الحديث بلفظه ومعناه^(٣). وروى عطاء عن ابن عباس قال: الروح ملك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه، يسبح الله إلى يوم القيامة. ذكره النحاس^(٤). وعنه: جندٌ من جنود الله لهم أيدي وأرجلٌ يأكلون الطعام. ذكره العزّوني. وقال الخطابي: وقال بعضهم: هو ملكٌ من الملائكة بصفةٍ وضعوها من عظم الخَلقة. وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد. وقال أهل النظر منهم: إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه في بدن الإنسان، وكيف امتزّجه بالجسم واتصال الحياة به، وهذا شيء لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ^(٥). وقال أبو صالح: الروح خَلقٌ كخلق بني آدم وليسوا ببني آدم، لهم أيدي وأرجل^(٦). والصحيح الإبهام؛ لقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(٧) أي: هو أمرٌ عظيمٌ

(١) في تفسير ٧١/١٥ بمثل إسناد البيهقي الآتي، وفيه رجل مبهم. وقال ابن كثير في تفسيره: هذا أثر غريب عجيب.

(٢) في المحرر الوجيز ٤٨٢/٣.

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (٧٨٠) و(٧٨١)، وفي إسناد الأول علي بن أبي طلحة، وهو ضعيف، وهو لم يسمع من ابن عباس. التهذيب ١٧١/٣. وفي إسناد الثاني رجل مبهم.

(٤) في معاني القرآن له ١٨٩/٤.

(٥) أعلام الحديث ١٨٧٤/٣.

(٦) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٧٨٢).

(٧) وقع بعدها في النسخ عبارة: «دليل على خلق الروح»، والظاهر أنها مقحمة؛ إذ لا معنى لها هنا، ثم إنها لم ترد في المصدر الذي نقل منه المصنف.

وشأن كبير من أمر الله تعالى، مُبهِمًا له وتاركًا تفصيله؛ ليعرف الإنسان على القطع عَجْزَهُ عن عِلْمِ حَقِيقَةِ نَفْسِهِ مع العلم بوجودها، وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حَقِيقَةِ الْحَقِّ أُولَى^(١). وحكمة ذلك تعجيزُ العقل عن إدراك معرفة مخلوقٍ مجاورٍ له، دلالةً على أنه عن إدراك خالقه أعْجَزُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ اختُلِفَ فيمن خُوطِبَ بذلك؛ فقالت فرقة: السائلون فقط. وقال قوم: المراد اليهود بجملتهم. وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود: «وما أوتوا»^(٢)، ورواها عن النبي ﷺ. وقالت فرقة: المراد العالم كله. وهو الصحيح، وعليه قراءة الجمهور: «وما أوتيتم». وقد قالت اليهود للنبي ﷺ: كيف لم نُؤْتِ من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة، ومن يُؤْتِ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فعارضهم رسول الله ﷺ بعلم الله فغلبوا. وقد نصَّ رسولُ الله ﷺ بقوله في بعض الأحاديث: «كُلًّا» يعني أن المراد بـ «ما أوتيتم» جميع العالم. وذلك أن يهوداً قالت له: نحنُ عَنِيتْ أم قومك؟ فقال: «كُلًّا». وفي هذا المعنى نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ [القمان: ٢٧]. حكى ذلك الطبري رحمه الله^(٣) وقد قيل: إن السائلين عن الروح هم قريش، قالت لهم اليهود: سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح، فإن أخبركم عن اثنين وأمستك عن واحدة فهو نبي. فأخبرهم خبر أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين على ما يأتي. وقال في الروح: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من الأمر الذي لا يعلمه إلا الله. ذكره المهدوي وغيره من المفسرين عن ابن عباس^(٤).

(١) المفهم ٣٥٦/٧ - ٣٥٧.

(٢) وهي قراءة شاذة.

(٣) المحرر الوجيز ٤٨٢/٣، وكلام الطبري في تفسيره ٧٢/١٥ وهو من قوله: وذلك أن يهود... إلخ.

(٤) وذكره ابن الجوزي أيضاً في زاد المسير ٨١/٥ عن عطاء عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۖ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن. أي: كما قدرنا على إنزاله نقدرُ على إذهابه حتى ينساه الخلق. ويتصل هذا بقوله: ﴿وَمَا أَوْثَقْتُم مِّنَ الْعَالَمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولو شئتُ أن أذهبَ بذلك القليلَ لقدِرتُ عليه. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي: ناصراً يرُدُّه عليك.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ يعني: لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك؛ فهو استثناء ليس من الأول^(١). وقيل: إلا أن يرحمك ربُّك فلا يذهبُ به^(٢).

﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ إذ جعلك سيِّدَ ولدِ آدم، وأعطاك المقامَ المحمود وهذا الكتاب العزيز^(٣). وقال عبد الله بن مسعود: أوَّل ما تَفْقِدُونَ من دينكم الأمانة، وآخر ما تَفْقِدُونَ الصلاة، وأنَّ هذا القرآنَ كأنَّه قد نُزِعَ منكم، تُصْبِحُونَ يوماً وما معكم منه شيء. فقال رجل: كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن وقد ثبَّتْناه في قلوبنا، وأثبَّتْناه في مصاحفنا، نُعَلِّمُه أبنائنا، ويعلِّمه أبنائنا أبنائهم إلى يوم القيامة؟! قال: يُسْرَى به في ليلةٍ فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب، فتصبح الناس كالبهائم. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية^(٤). أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه قال: أخبرنا أبو الأخوص، عن عبد العزيز بن رُفيع، عن شدَّاد بن مَعْقِلٍ قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: إنَّ هذا القرآنَ الذي بين أظهرِكم يوشِكُ أن يُنَزَعَ منكم. قال: قلتُ: كيف يُنَزَعُ مِنَّا وقد أثبَّتْه الله في قلوبنا وثبَّتْناه في مصاحفنا؟! قال: يُسْرَى عليه في ليلةٍ واحدةٍ، فيُنَزَعُ ما في القلوب، ويذهب ما في

(١) تفسير البغوي ٣/ ١٣٥.

(٢) إعراب القرآن ٢/ ٤٣٩.

(٣) الوسيط للواحيدي ٣/ ١٢٦.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥٩٨٠)، والطبراني في «الكبير» (٨٦٩٨).

المصاحف، ويصبحُ الناسُ منه فقراء. ثم قرأ: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾^(١) وهذا إسناد صحيح. وعن ابن عمر: لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له ذَوِيٌّ كدويّ النحل، فيقول الله: ما بالك؟ فيقول: يا ربّ منك خرجتُ وإليك أعود، أتلى فلا يُعَمَلُ بي، أتلى ولا يُعَمَلُ بي^(٢).

قلت: قد جاء معنى هذا مرفوعاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص^(٣) وحذيفة؛ قال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: «يُدرَسُ الإسلامُ كما يُدرَسُ وشي الثوب، حتى لا يُدرَى ما صيامٌ ولا صلاةٌ ولا نُسكٌ ولا صدقةٌ، فيُسرَى على كتاب الله تعالى في ليلةٍ فلا يبقى منه في الأرض آيةٌ، وتبقى طوائفٌ من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آبائنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحن نقولها»^(٤). قال له صلة^(٥): ما تغني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاةٌ ولا صيامٌ ولا نُسكٌ ولا صدقة؟! فأعرض عنه حذيفة، ثم ردّها ثلاثاً، كلُّ ذلك يُعرضُ عنه حذيفة، ثم أقبل عليه حذيفة فقال: يا صلة، تُنجيهم من النار. ثلاثاً. خرّجه ابن ماجه في السنن^(٦). وقال عبد الله بن عمر: خرج النبي ﷺ وهو معصوبُ الرأس من وجع، فضحك، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، ما هذه الكتب التي تكتبون؟ أكتابٌ غيرُ كتاب الله؟! يوشِكُ أن يغضبَ اللهُ لكتابه، فلا يدعَ ورقاً ولا قلباً إلا أخذ منه» قالوا: يا رسول الله، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذ؟ قال: «مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خيراً أبقي في قلبه لا إله إلا الله» ذكره الثعلبي والغزنوي وغيرهما

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٠/٥٣٤ - ٥٣٥.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٣/١٣٥، وفيه: عن ابن عمرو.

(٣) هكذا وقع في النسخ: والحديث إنما هو عن عبد الله بن عمرو كما سيأتي.

(٤) في جميع النسخ: «وهم لا يدرون ما صلاةٌ ولا صيامٌ ولا نُسكٌ» بدلاً من «فنحن نقولها».

(٥) وهو ابن زُفر، وهو أحد الرواة للأحاديث.

(٦) سنن ابن ماجه (٤٠٤٩). وأخرجه الحاكم ٤/٤٧٣ و ٥٤٥.

في التفسير^(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ ﴿٨٨﴾

أي: عوناً ونصيراً، مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعر فيقيمونه. نزلت حين قال الكفار: لو نشاء لقلنا مثل هذا، فأكذبهم الله تعالى^(٢). وقد مضى القول في إعجاز القرآن في أول الكتاب^(٣)، والحمد لله. و﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جواب القسم في «لئن» وقد يُجرَمُ على إرادة الشرط؛ قال الشاعر:

لِئِنْ كَانَ مَا حَدَّثْتِهِ الْيَوْمَ صَادِقاً أَقِمَّ فِي نَهَارِ الْقَيْظِ لِلشَّمْسِ بَادِيَاً^(٤)

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: وجَّهنا القول فيه بكلِّ مثلٍ يجب به الاعتبار؛ من الآيات والعبر، والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهي، وأقاصيص الأولين، والجنة والنار والقيامة. ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ يريد أهل مكة؛ بيّن لهم الحق، وفتح لهم وأمهلهم حتى تبيّن لهم أنه الحق، فأبوا إلا الكفر وقت تبيّن الحق. قال المهدوي: ولا حجة للقدريّ في قولهم: لا يُقال أبى إلا لمن أبى فعل ما هو قادرٌ عليه؛ لأنَّ الكافر وإن كان غير قادرٍ على الإيمان بحُكم الله عليه بالإعراض عنه وطبعه على قلبه، فقد كان قادراً وقت الفُسْحَةِ

(١) وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧٥١٠)، والدعاء (١٤٨٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٥٠: في إسناده عيسى بن ميمون الواسطي، وهو متروك، وقد وثقه حماد بن سلمة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٣٥.

(٣) ٣٥٢ - ٣٥١/١.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٠ - ١٣١ بمعناه. والبيت قائلته امرأة من بني عقيل، وهو في خزانة الأدب ٣٢٨/١١. وفيهما «أَصُمُّ» بدل «أَقْمُ».

والمُهْملة على طلب الحق وتمييزه من الباطل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۖ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفْقِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ﴾ (٩٣)

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الآية نزلت في رؤساء قريش مثل عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبي سفيان والنضر بن الحارث، وأبي جهل وعبد الله بن أبي أمية، وأمّية بن خلف وأبي البَخْتَرِيِّ، والوليد بن المغيرة وغيرهم. وذلك أنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن ولم يرضوا به معجزة، اجتمعوا - فيما ذكر ابن إسحاق وغيره - بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد - ﷺ - فكلّموه وخاصّموه حتى تُغَدِّروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشرف قومك قد اجتمعوا لك^(١) ليكلّموك فأتيهم، فجاءهم رسول الله ﷺ وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلّمهم فيه بُدُوٌّ، وكان رسول الله ﷺ حريصاً يحبّ رشدَهم ويعزّز عليه عَثَّتْهم، حتى جلس إليهم فقالوا له: يا محمد، إنّا قد بعثنا إليك لنكلّمك، وإنّا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبّت الدين، وشتمت الآلهة، وسفّهت الأحلام، وفرّقت الجماعة، فما بقي أمرٌ قبيحٌ إلا وقد جثته فيما بيننا وبينك - أو كما قالوا له - فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نُسَوِّدُكَ علينا، وإن كنت تريد به مُلْكاً مَلَكْنَاكَ علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا تراه قد غَلَبَ عليك - وكانوا يُسمُّون التابع من الجن رَئِيًّا،

(١) في (م): إليك.

فربما كان ذلك - بذلنا أموالنا في طلب الطبِّ لك حتى تُبرِّثَكَ منه أو نُعَذِّرَ فِيك. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتُ بما جئْتُكم به أطلب أموالكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا الملكَ عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغْتُكم رسالاتِ ربي، ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا مني ما جئْتُكم به فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» أو كما قال ﷺ. قالوا: يا محمد، فإن كنتَ غيرَ قابلٍ مِنَّا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك قد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أضيقَ بلدًا ولا أقلَّ ماءً ولا أشدَّ عيشاً مِنَّا، فسَلْ لنا ربَّكَ الذي بعثك بما بعثك به، فليُسيِّرَ عنا هذه الجبال التي قد ضيقتَ علينا، وليبسُطْ لنا بلادنا، وليخرقْ لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام، وليبعث لنا من مضي من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قُصَيَّ بن كلاب؛ فإنه كان شيخَ صدقٍ فنسألهم عما تقول، أحقُّ هو أم باطل، فإن صدَّقوك وصنعتَ ما سألناكَ صدَّقناكَ، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولاً كما تقول. فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه: «ما بهذا بُعثتُ إليكم، إنما جئْتُكم من الله تعالى بما بعثني به وقد بلَّغْتُكم ما أُرسلْتُ به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخذْ لنفسِكَ، سَلْ رَبَّكَ أن يبعثَ معكَ مَلَكاً يُصدِّقُكَ بما تقول، ويُراجعنا عنكَ، واسأله فليجعلْ لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهبٍ وفضةٍ يُغنيكَ بها عمَّا نراك تبتغي، فإنك تقومُ بالأسواق وتلتبسُ المعاشَ كما نلتبسُهُ، حتى نعرفَ فضلكَ ومنزلتَكَ من ربِّكَ إن كنتَ رسولاً كما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعلٍ، وما أنا بالذي يسألُ ربَّه هذا، وما بُعثتُ بهذا إليكم، ولكنَّ الله بعثني بشيراً ونذيراً - أو كما قال - فإن تقبلوا مني ما جئْتُكم به فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» قالوا: فأسقطِ السماءَ علينا كِسفاً كما زعمتَ أنَّ ربَّكَ إن شاء فعل؛ فإنَّا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. قال: فقال رسول الله ﷺ: «ذلك

إلى الله عزَّ وجلَّ، إن شاء أن يفعلَه بكم فعل» قالوا: يا محمد، أفما عَلِمَ رَبُّكَ أَنَّا سَنَجْلِسُ معَكَ ونَسْأَلُكَ عما سألناكَ عنه، ونَطْلُبُ مِنْكَ ما نَطْلُبُ، فَيَتَقَدَّمُ إِلَيْكَ فَيُعَلِّمُكَ بما تُرَاجِعُنَا به، ويخبرُكَ ما هو صانعٌ في ذلك بنا إذ لم نقبل مِنْكَ ما جئنا به؟! إنه قد بَلَّغْنَا أَنَّكَ إِنَّمَا يُعَلِّمُكَ هذا رجلٌ مِنَ اليمامة يُقال له: الرحمن، وإِنَّا والله لا نؤمنُ بالرحمن أبداً، فقد أَعَذَرْنَا إِلَيْكَ يا محمد، وإِنَّا والله لا نتركُكَ وما بَلَغْتَ منا حَتَّى نُهْلِكَكَ أو تُهْلِكَنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلًا. فلَمَّا قالوا ذلك لرسول الله ﷺ، قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، هو لعاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد، عرضَ عَلَيْكَ قومُكَ ما عرضوا فلم تقبَلْهُ منهم، ثم سألوكَ لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتكَ مِنَ الله كما تقول، ويَصْدُقُوكَ وَيَتَّبِعُوكَ فلم تفعل! ثم سألوكَ أن تأخذَ لِنَفْسِكَ ما يعرفون به فضلكَ عليهم ومنزلتكَ مِنَ الله فلم تفعل! ثم سألوكَ أن تُعَجِّلَ لَهُمْ بعضَ ما تُخَوِّفُهُمْ به مِنَ العذاب فلم تفعل! - أو كما قال له - فوالله لا أؤمنُ بِكَ أبداً حَتَّى تَتَّخِذَ إِلَى السَّمَاءِ سُلَّمًا، ثم تَرْقَى فِيهِ وَأَنَا أَنْظُرَ حَتَّى تَأْتِيَهَا، ثم تأتي معكَ بَصَكٌ معه أربعةٌ مِنَ الملائكة يشهدون لَكَ أَنَّكَ كما تقول. وإيْمُ اللهِ لو فعلتَ ذلك ما ظننتُ أَنِّي أَصْدَقُكَ! ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً آسِفاً لِمَا فَاتَهُ مما كان يطمع به من قومه حين دَعَوَهُ، ولَمَّا رَأَى من مِباعدِهِمْ إِيَّاهُ. كُلُّهُ لَفْظُ ابْنِ إِسْحاقَ^(١).

وذكر الواحدِيُّ عن عكرمة، عن ابن عباس: فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾^(٢). ﴿يَنْبُوعًا﴾ يعني العيون عن مجاهد^(٣). وهي يَفْعُول، من نَبَعَ يَنْبَعُ^(٤). وقرأ عاصم وحزمة والكسائي: «تَفْجُرُ لَنَا» مخففة، واختاره

(١) كما في سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٥ - ٢٩٨. وأخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٨٧ - ٩٠.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٣٠٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٩٣. وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٧٨، وهو في تفسيره ١/ ٣٧٠.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٩، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ١٦٥.

أبو حاتم؛ لأنَّ الينبوع واحد. ولم يختلفوا في «تُفَجَّر الأنهار» أنه مُشَدَّد. قال أبو عبيد: والأولى مثلها. قال أبو حاتم. ليست مثلها؛ لأنَّ الأولى بعدها يَنْبوعٌ وهو واحد، والثانية بعدها الأنهار وهي جمع، والتشديد يدلُّ على التثنية^(١). أُجِيبَ بأنَّ «ينبوعاً» وإن كان واحداً فالمراد به الجمع، كما قال مجاهد. الينبوع: عين الماء، والجمع الينابيع^(٢). وقرأ قتادة: «أو يكون لك جنة»^(٣). ﴿خَلَّلَهَا﴾ أي: وسطها^(٤).

﴿أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ﴾ قراءة العامة. وقرأ مجاهد: «أو تَسْقُطَ السماء» على إسناد الفعل إلى السماء^(٥). ﴿كِسْفًا﴾ قِطْعًا. عن ابن عباس وغيره^(٦). والكِسْف - بفتح السين - جمع كِسْفَةٍ، وهي قراءة نافع وابن عامر وعاصم. الباكون: «كِسْفًا» بإسكان السين^(٧). قال الأخفش: من قرأ كِسْفًا من السماء جعله واحداً، ومن قرأ كِسْفًا جعله جمعاً^(٨). قال المهدوي: ومن أسكن السين جاز أن يكون جمع كِسْفَةٍ، وجاز أن يكون مصدرأ؛ مِنْ كَسَفَتَ الشيء إذا غَطَّيْتَهُ. فكانهم قالوا: أسقطها طبقاً علينا^(٩). وقال الجوهري^(١٠): الكِسْفَةُ: القطعة من الشيء؛ يُقال: أعطني كِسْفَةً من ثوبك، والجمع كِسْفٌ وكِسْفٌ. ويقال: الكِسْفُ والكِسْفَةُ واحد. ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾

(١) تفسير الرازي ٥٧/٢١ بمعناه. وينظر السبعة ص ٣٨٥، والتيسير ص ١٤١.

(٢) تهذيب اللغة ٨/٣.

(٣) لم نقف على من ذكرها سوى المصنف، وهي قراءة شاذة.

(٤) تفسير أبي الليث ٢٨٣/٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٨٧/٥.

(٥) القراءات الشاذة ص ٧٧.

(٦) النكت والعيون ٢٧٣/٣.

(٧) تفسير البغوي ١٣٧/٣. وينظر السبعة ص ٣٨٥، والتيسير ص ١٤١.

(٨) نقله عنه الجوهري في الصحاح (كسف).

(٩) المحرر الوجيز ٤٨٥/٣ بمعناه.

(١٠) في الصحاح (كسف).

فَقِيلَ ﴿٢﴾ أَي: معانية. عن قتادة وابن جريج^(١). وقال الضحاك وابن عباس: كفيلاً^(٢). قال مقاتل: شهيداً. مجاهد: هو جمع القبيلة؛ أي: بأصناف الملائكة قبيلةً قبيلةً^(٣). وقيل: ضمناً يضمنون لنا إتيانك به.

﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُرِّيَّتٍ﴾ أي: من ذهب. عن ابن عباس وغيره. وأصله الزينة^(٤). والمُزَخَّرَف: المُزَيَّن. وزخارف الماء: طرائقه^(٥). وقال مجاهد: كنت لا أدري ما الرُّخْرُف حتى رأيتُه في قراءة ابن مسعود: «بَيْتٌ مِّنْ ذَهَبٍ»^(٦) أي: نحن لا نقاد لك مع هذا الفقر الذي نرى.

﴿أَوْ تَرَفَّى فِي السَّمَاءِ﴾ أي: تصعد^(٧)؛ يقال: رَقَيْتُ فِي السَّلْمِ أَرْقَى رَقِيًّا وَرُقِيًّا إِذَا صَعِدْتُ، وارتقيت مثله^(٨). ﴿وَلَنْ تُؤْمِنَ لِرُقِّيكَ﴾ أي: من أجل رُقِّيكَ^(٩)، وهو مصدر؛ نحو مضى يمضي مُضِيًّا، وهوى يهوي هُويًّا، كذلك رقى يرقى رُقِيًّا.

﴿حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُكُمْ﴾ أي: كتاباً من الله تعالى إلى كلِّ رجلٍ منا؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُوَفَّى صُحُفًا مِّنْشَرَةٍ﴾^(١٠) [المدرثر: ٥٢]. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وقرأ أهل مكة والشام: «قال سُبْحَانَ رَبِّي» يعني النبي ﷺ^(١١)؛ أي: قال ذلك

(١) النكت والعيون ٢٧٣/٣ ، وزاد المسير ٨٧/٥ .

(٢) تفسير البغوي ١٣٧/٣ عن ابن عباس .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

(٥) الصحاح (زخرف) .

(٦) معاني القرآن للنحاس ١٩٥/٤ . وأخرجه الطبري ٨٥/١٥ ، وهي قراءة شاذة .

(٧) زاد المسير ٨٨/٥ .

(٨) الصحاح (رقى) .

(٩) مجمع البيان ٩٩/١٥ ، وتفسير الرازي ٥٨/٢١ .

(١٠) مجمع البيان ٩٩/١٥ .

(١١) تفسير البغوي ١٣٧/٣ . وينظر السبعة ص ٣٨٥ ، والتيسير ص ١٤١ .

تنزيهاً لله عزَّ وجلَّ عن أن يعجزَ عن شيءٍ وعن أن يُعترضَ عليه في فعل. وقيل: هذا كله تعجُّب عن فرط كفرهم واقتراحاتهم. الباقون «قل» على الأمر؛ أي: قل لهم يا محمد ﴿هَلْ كُنْتُ﴾ أي: ما أنا ﴿إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^(١) أتبع ما يوحى إليَّ من ربِّي، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التي ليست في قدرة البشر، فهل سمعتم أحداً من البشر أتى بهذه الآيات؟! وقال بعض الملحدين: ليس هذا جواباً مُقنعاً، وغلِطوا؛ لأنه أجابهم فقال: إنما أنا بشرٌ لا أقدر على شيءٍ مما سألتُموني، وليس لي أن أتخير على ربي، ولم تكن الرسل قبلي يأتون أممهم بكلِّ ما يريدونه ويبغونه، وسبيلي سبيلهم، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوتهم، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها، ولو وجب على الله أن يأتهم بكلِّ ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتهم بمن يختارونه من الرسل، ولوجب لكلِّ إنسانٍ أن يقول: لا أؤمنُ حتى أُوتى بآيةٍ خلاف ما طلب غيري. وهذا يؤول إلى أن يكون التدبير إلى الناس. وإنما التدبير إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ يعني الرسل والكتب من عند الله بالدعاء إليه. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ جهلاً منهم^(٣): ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي: الله أجلُّ من أن يكون رسوله من البشر^(٤). فبيَّن الله تعالى فرط عنادهم؛ لأنهم قالوا: أنت مثلنا فلا يلزمنا الانقياد، وغفلوا عن المعجزة. فـ «أن» الأولى في محلِّ نصبٍ بإسقاط حرف الخفض. و«أن» الثانية في محلِّ رفع بـ «منع» أي: وما منع الناس من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا قولهم: أبعث الله بشراً رسولاً^(٥).

(١) المصادر السابقة.

(٢) تفسير الطبري ٩١/١٥.

(٣) الوسيط للواحدي ١٢٩/٣.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢٦١/٣.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۝٩٥﴾

أعلم الله تعالى أن المَلَك إنما يُرْسَلُ إلى الملائكة؛ لأنه لو أُرْسِلَ ملكاً إلى الآدميين لم يقدروا أن يروه على الهيئة التي خُلِقَ عليها، وإنما أقدَرَ الأنبياء على ذلك وخلق فيهم ما يقدرون به؛ ليكون ذلك آية لهم ومعجزة^(١). وقد تقدّم في «الأنعام» نظير هذه الآية، وهو قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ وَلَوْ أُنزِلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ۝٩٦﴾ وقد تقدّم الكلام فيه^(٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّمَا كَانَ عِبَادِيهِ خَيْرًا بَصِيرًا ۝٩٦﴾

يُروى أن كفار قريش قالوا حين سمعوا قوله: ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾: فمن يشهد لك أنك رسول الله؟ فنزل: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّمَا كَانَ عِبَادِيهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَيَكْمَأُ وَصْنًا مَّاوَلَهُمْ جَهَنَّمَ كَلَمًا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أي: لو هداهم الله لا هتدوا. ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: لا يهديهم أحد.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما - أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم؛ من قول العرب: قَدِمَ القوم على وجوههم إذا أسرعوا. الثاني -

(١) قاله الطبرسي في مجمع البيان ١٥/١٠١ بمعناه.

(٢) ٣٢٧/٨ - ٣٢٨.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/٢٨٤ ، وفيه أن ذلك بعد أن سمعوا قوله: «لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً».

أنهم يُسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يُبَالغ في هوانه وتعذيبه^(١). وهذا هو الصحيح؛ لحديث أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، الذين يُحشرون على وجوههم، يُحشَرُ الكافرُ على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: «أليس الذي أمشاه على الرجلين قادراً على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة؟». قال قتادة حين بلغه: بلى وعِزَّةٌ رَبَّنَا. أخرجه البخاري ومسلم^(٢). وحسبك.

﴿عُمِيََا وَبُكِّمَا وَصُمِّيَا﴾ قال ابن عباس والحسن: أي: عُمِيَ عَمَّا يَسُرُّهُمْ، بُكِّمَ عن التكلم بحجة، صُمِّيَ عما ينفعهم. وعلى هذا القول حواسُّهم باقية على ما كانت عليه. وقيل: إنهم يُحشرون على الصفة التي وصفهم الله بها؛ ليكون ذلك زيادةً في عذابهم، ثم يخلق ذلك لهم في النار، فأبصروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَوَا أَلْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] وتكلموا؛ لقوله تعالى: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، وسمعوا؛ لقوله تعالى: ﴿سَمِعُوا هَا تَقِظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]. وقال مقاتل بن سليمان: إذا قيل لهم: «إخسُّوا فيها وَلَا تُكَلِّمُونِ» [المؤمنون: ١٠٨] صاروا عُمِيًّا لَا يَبْصُرُونَ، صُمًّا لَا يَسْمَعُونَ، بُكِّمًا لَا يَفْقَهُونَ^(٣). وقيل: عموا حين دخلوا النار لشدة سوادها، وانقطع كلامهم حين قيل لهم: اخسُّوا فيها ولا تكلمون. وذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئاً.

﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مستقرُّهم ومقامهم. ﴿كُلَّمَا حَبَّتْ﴾ أي: سكنت، عن الضحاك. وغيره. مجاهد: طَفِنْتُ^(٤): يقال: حَبَّتِ النَّارُ تَخْبُو خَبْوًا، أي: طَفِنَتْ، وأخبيتُها أنا^(٥). ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً تَتَلَهَّبُ^(٦). وسكونُ التهَابِها من غير نقصانٍ

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٧٤ - ٢٧٥.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٦٠)، وصحيح مسلم (٢٨٠٦).

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٧٥.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٧٥. وقول الضحاك أخرجه الطبري ٩٦/١٥، وأخرجه أيضاً ٩٥/١٥ عن ابن عباس ومجاهد.

(٥) الصحاح (خبا).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٩٨، وزاد المسير ٩١/٥.

في آلامهم ولا تخفيف عنهم من عذابهم^(١). وقيل: إذا أرادت أن تحبوا. كقوله: ﴿وَلِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ [الآية ٤٥ من هذه السورة].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَذَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفْنًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: ذلك العذاب جزاء كفرهم. ﴿وَقَالُوا أَذَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفْنًا﴾ أي: تراباً^(٢). ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قيل: في الكلام تقديم وتأخير، أي: أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه قادرٌ على أن يخلق مثلهم. والأجل: مدة قيامهم في الدنيا ثم موتهم، وذلك ما لا شك فيه إذ هو مشاهد. وقيل: هو جواب قولهم: ﴿أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتِ عَلَيْنَا كَسَفًا﴾. وقيل: هو يوم القيامة.

﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي المشركون إلا جحوداً بذلك الأجل وبآيات الله. وقيل: ذلك الأجل هو وقت البعث^(٣)، ولا ينبغي أن يُشكَّ فيه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أي: خزائن الأرزاق. وقيل: خزائن النعم، وهذا أعم^(٤). ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ من البخل، وهو جواب

(١) النكت والعيون ٢٧٥/٣.

(٢) تفسير أبي الليث ٣٧٥/٢ بمعناه.

(٣) الوسيط للواحد ١٣٠/٣.

(٤) النكت والعيون ٢٧٦/٣.

قولهم: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا﴾^(١) حتى نتوسع في المعيشة. أي: لو توسعتم لبخلتم أيضاً. وقيل: المعنى: لو ملك أحد المخلوقين خزائن الله لما جاد بها كجود الله تعالى؛ لأمرين: أحدهما - أنه لا بُدَّ أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته. الثاني - أنه يخاف الفقر ويخشى العدم، والله تعالى يتعالى في وجوده عن هاتين الحاليتين^(٢). والإنفاق في هذه الآية بمعنى الفقر؛ قاله ابن عباس وقتادة^(٣). وحكى أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم وأقتر إذا قلَّ ماله.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أي: بخيلاً مضيقاً^(٤). يقال: قَتَرَ على عياله يَقْتِرُ وَيَقْتَرُ قَتْرًا وَقُتُورًا إذا ضَيَّقَ عليهم في النفقة، وكذلك التقتير والإقتار، ثلاث لغات^(٥). واختلَفَ في هذه الآية على قولين: أحدهما - أنها نزلت في المشركين خاصة. قاله الحسن. والثاني - أنها عامة. وهو قول الجمهور، وذكره الماوردي^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَّ بِئْسَ الْإِسْرَافُ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ اختلَفَ في هذه الآيات، فقيل: هي بمعنى آيات الكتاب، كما روى الترمذي والنسائي عن صفوان بن عَسَّال المُرَادِي أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: إِذْهَبْ بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ نَسْأَلُهُ. فقال: لَا تَقُلْ لَهُ: نَبِيٌّ، فَإِنَّهُ إِنْ سَمِعْنَا كَانَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَعْيُنٍ. فأتيا النَّبِيَّ ﷺ، فسألاه عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فقال ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا

(١) معاني القرآن للزجاج ٢٦١/٣.

(٢) النكت والعيون ٢٧٦/٣.

(٣) أخرجه عنهما الطبري ٩٨/١٥.

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٥١.

(٥) الصحاح (قتر).

(٦) في النكت والعيون ٢٧٦/٣.

تقتلوا النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحقِّ، ولا تَسْرِقُوا، ولا تسحروا، ولا تمشوا ببيريء إلى سلطانٍ فيقتله، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنةً، ولا تَفِرُّوا من الزحف - شك شعبة - وعليكم يا معشر^(١) اليهود خاصَّةً ألا تعدوا في السبت «فَقَبْلًا يَدِيهِ وَرَجْلَيْهِ وَقَالَا: نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ. قَالَ: «فَمَا يَمْنَعُكُمَا أَنْ تُسَلِّمَا؟» قَالَ: «إِنْ دَاوُدَ دَعَا اللَّهَ أَلَّا يَزَالَ فِي ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ، وَإِنَّا نَخَافُ أَنْ أَسْلَمْنَا أَنْ تَقْتُلَنَا الْيَهُودَ. قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٢). وَقَدْ مَضَى فِي الْبَقْرَةِ^(٣). وَقِيلَ: الْآيَاتُ بِمَعْنَى الْمَعْجَزَاتِ وَالِدَّلَالَاتِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ: الْآيَاتُ التَّسْعُ: الْعَصَا وَالْيَدِ وَاللِّسَانُ وَالْبَحْرُ وَالطُّوفَانُ وَالْجَرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ وَالْدَّمَ؛ آيَاتٌ مَفْصَّلَاتٍ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَالشَّعْبِيُّ: الْخَمْسُ الْمَذْكُورَةُ فِي «الْأَعْرَافِ»^(٤)، يَعْنِيَانِ الطُّوفَانَ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِ، وَالْيَدِ وَالْعَصَا وَالسِّنِينَ وَالنَّقْصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ. وَرُويَ نَحْوُهُ عَنِ الْحَسَنِ، إِلَّا أَنَّهُ يَجْعَلُ السِّنِينَ وَالنَّقْصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَاحِدَةً، وَجَعَلَ التَّاسِعَةَ: تَلَقُّفُ الْعَصَا مَا يَأْكُونُ. وَعَنْ مَالِكٍ كَذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهُ جَعَلَ مَكَانَ السِّنِينَ وَالنَّقْصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ: الْبَحْرَ وَالْجَبَلَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: هِيَ الْخَمْسُ الَّتِي فِي «الْأَعْرَافِ» وَالْبَحْرَ وَالْعَصَا وَالْحَجَرَ وَالطَّمْسَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ^(٥). وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُ هَذِهِ الْآيَاتِ مُسْتَوْفَى وَالْحَمْدُ لِلَّهِ. ﴿فَسَتَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ أَي: سَلَّهِمْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِهَذِهِ الْآيَاتِ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي يُونُسَ^(٦). وَهَذَا سُؤَالُ اسْتِفْهَامٍ؛ لِيَعْرِفَ الْيَهُودُ صَحَّةَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ. ﴿فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ

(١) قوله: «يا معشر» ليس في النسخ، وقد أثبت من سنن الترمذي.

(٢) سنن الترمذي (٢٧٣٣)، والمجتبى ١١١/٧، وسنن النسائي الكبرى (٣٥٢٧).

(٣) ١٦٨/٢ - ١٦٩.

(٤) عند تفسير الآية (١٣٣).

(٥) المحرر الوجيز ٤٨٨/٣، وتفسير البغوي ١٣٩/٣ - ١٤٠، وزاد المسير ٩٢/٥. وقول ابن عباس

أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٩٠/١، والطبري ١٠١/١٥ - ١٠٢. وقول الشعبي أخرجه الطبري

١٠١/١٥، وقول الحسن الثاني أخرجه عبد الرزاق ٣٩١/١، والطبري ١٠٢/١٥.

(٦) ٥٢/١١.

يَمْوَسَّىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ أي: ساحراً بغرائب أفعالك. قاله الفراء وأبو عبيدة. فوضع المفعول موضعَ الفاعل، كما تقول: هذا مشؤوم وميمون، أي: شائم ويامن^(١). وقيل: مخدوعاً^(٢). وقيل: مغلوباً. قاله مقاتل. وقيل غير هذا؛ وقد تقدّم. وعن ابن عباسٍ وأبي نَهِيكَ أنهما قرأا: «فَسَالَ بنِي إِسْرَائِيلَ» على الخبر، أي: سأل موسى فرعون أن يُخْلِي بنِي إِسْرَائِيلَ وَيُطْلِقَ سَبِيلَهُمْ ويرسلهم معه^(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرَعُونَ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ يعني الآيات التسع. و«أنزل» بمعنى أوجد. ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرَ﴾ أي: دلالات يُستدلُّ بها على قدرته ووحدانيته. وقراءة العامة: «عَلِمْتَ» بفتح التاء، خطاباً لفرعون. وقرأ الكسائي بضمّ التاء، وهي قراءة عليّ ؑ، وقال: واللّه ما علِمَ عدوّ الله ولكنّ موسى هو الذي علِمَ، فبلغت ابنَ عباس فقال: إنها «لقد عَلِمْتَ»، واحتجّ بقوله تعالى: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ونسب فرعونَ إلى العناد^(٤). وقال أبو عبيد: والمأخوذ به عندنا فتح التاء، وهو الأصحُّ للمعنى الذي احتجّ به ابن عباس؛ ولأن موسى لا يحتجّ بقوله: علمتُ أنا، وهو الرسول الداعي، ولو كان مع هذا كلّ تصحُّ به القراءة عن عليّ لكانت حجة، ولكن لا تثبت عنه، إنما هي عن كلّثوم المراديّ وهو مجهول لا يُعرف، ولا نعلم أحداً قرأ بها غير الكسائي^(٥). وقيل: إنما أضاف موسى

(١) الوسيط للواحد ١٣١/٣، وزاد المسير ٩٤/٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤٤٣/٢، وتفسير البغوي ١٤٠/٣، وزاد المسير ٩٤/٥.

(٣) المحرر الوجيز ٤٨٩/٣ بنحوه. وهذه القراءة في القراءات الشاذة ص ٧٧ عن ابن عباس وحده.

(٤) الوسيط للواحد ١٣١/٣، وتفسير البغوي ١٤٠/٣، وزاد المسير ٩٤/٥. وينظر السبعة ص ٣٨٥-٣٨٦، والتيسير ص ١٤١.

(٥) قاله النحاس في معاني القرآن ٢٠١/٤ - ٢٠٢ بمعناه. وقد ذكر الفراء في معاني القرآن ١٣٢/٢ إسناد القراءة عن عليّ، وفيه الرجل المجهول الذي ذكره المصنف.

إلى فرعون العلم بهذه المعجزات؛ لأنَّ فرعون قد علم مقدار ما يتهيأ للسحرة فعله، وأنَّ مثل ما فعل موسى لا يتهيأ لساحر، وأنه لا يقدرُ على فعله إلا من يفعل الأجسام ويملك السماوات والأرض. وقال مجاهد: دخل موسى على فرعون في يوم شاتٍ وعليه قطيفة له، فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان، فرأى فرعون جانبي البيت بين فُقميها^(١)، ففزع وأحدث في قطيفته.

﴿وإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ الظنُّ هنا بمعنى التحقيق. والثبور: الهلاك والخسران أيضاً. قال الكميت:

ورأت قُضاعة في الأيا مِن رَأْيِ مَثْبُورٍ وَثَابِرٍ
أي: مخسورٍ وخاسرٍ، يعني في انتسابها إلى اليمين^(٢). وقيل: ملعوناً. رواه المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس^(٣). وقاله أبان بن تغلب، وأنشد:

يا قومنا لا تروموا حَرْبَنَا سَفْهًا إِنَّ السَّفْهَاءَ وَإِنَّ الْبَغْيَ مَثْبُورُ
أي: ملعون^(٤). وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس: «مَثْبُوراً»: ناقص العقل^(٥). ونظر المأمون رجلاً فقال له: يا مَثْبُور، فسُئِلَ عنه، قال فقال الرشيد: قال المنصور لرجل: مَثْبُور؛ فسأله فقال: حدثني ميمون بن مهران... فذكره. وقال قتادة: هالكا^(٦). وعنه أيضاً والحسن ومجاهد: مُهْلَكًا^(٧). والثبور: الهلاك؛ يقال: ثَبَّرَ الله

(١) الفُقْمُ، بالضم والفتح: اللحي. النهاية (فقم).

(٢) الصحاح (ثبر).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٢٠٣/٤، وأخرجه الطبري ١٠٨/١٥ - ١٠٩.

(٤) النكت والعيون ٢٧٨/٣.

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ٩٤/٥ - ٩٥.

(٦) النكت والعيون ٢٧٨/٣.

(٧) ذكره النحاس في معاني القرآن ٢٠٣/٤ عن قتادة، وأبو الليث في تفسيره ٢٨٦/٢ عن قتادة والحسن،

وهو في تفسير مجاهد ٣٧١/١.

العدو ثُبوراً أهلكه^(١). وقيل: ممنوعاً من الخير. حكى أهل اللغة: ما ثَبَرَكَ عن كذا، أي: ما منعَكَ منه^(٢). وثَبَرَهُ اللهُ يُثَبِّرُهُ ثَبِيراً^(٣). قال ابنُ الزُّبَيْرِ^(٤):

إِذَا جَارِيَ الشَّيْطَانُ فِي سَنَنِ الْغَدِّ يَوْمِنِ مَالٍ مَيْلَهُ مَثْبُورٌ
الضحاك: «مَثْبُوراً»: مسحوراً. ردَّ عليه مثل ما قال له باختلاف اللفظ. وقال ابن
زيد: «مَثْبُوراً»: مخبولاً لا عقلَ له^(٥).

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ۖ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَتَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أراد فرعون أن يُخْرِجَ موسى وبني إسرائيل من أرض مصر بالقتل أو الإبعاد، فأهلكه الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد إغراقه ﴿لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَتَسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ أي: أرض الشام ومصر. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: من قبوركم مختلطين من كلِّ موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر، لا يتعارفون، ولا ينحاز أحدٌ منكم إلى قبيلته وحيِّه^(٦). وقال ابن عباس وقتادة: جئنا بكم جميعاً من جهاتٍ شتى^(٧). والمعنى واحد. قال الجوهري: واللَّفِيفُ: ما اجتمع من الناس من قبائل شتى؛ يقال: جاء القوم بلففهم ولفيفهم، أي: وأخلاطهم. وقوله تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: مجتمعين مُختلطين. وطعامٌ لَفِيفٌ: إذا كان مخلوطاً من جنسين فصاعداً. وفلانٌ لفيفٌ

(١) تاج العروس (ثبر).

(٢) معاني القرآن للفراء ١٣٢/٢.

(٣) الصحاح (ثبر).

(٤) في ديوانه ص ٣٦.

(٥) مجمع البيان ١٠٧/١٥.

(٦) المصدر السابق، لكن بمعناه.

(٧) النكت والعيون ٢٧٨/٣.

فلان، أي: صديقه^(١). قال الأصمعي: اللفيف: جمع وليس له واحد، وهو مثل الجميع^(٢). والمعنى: أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر، مختلطين لا يتعارفون. وقال الكلبي: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ يعني مجيء عيسى عليه السلام من السماء^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ﴾ هذا متصل بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن. والكناية ترجع إلى القرآن^(٤). ووجه التكرير في قوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ﴾ يجوز أن يكون معنى الأول: أوجبنا إنزاله بالحق. ومعنى الثاني: ونزل وفيه الحق، كقوله: خرج بثيابه، أي: وعليه ثيابه.

وقيل: الباء في «وبالحق» الأول بمعنى مع، أي: مع الحق؛ كقولك: ركب الأمير بسيفه، أي: مع سيفه. ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ﴾ أي: بمحمد ﷺ، أي: نزل عليه؛ كما تقول: نزلت بزيد^(٥). وقيل: يجوز أن يكون المعنى: وبالحق قدرنا أن ينزل، وكذلك نزل.

قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ مذهب سيبويه أن «قرآنًا» منصوبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ يُفْسِّرُهُ الظاهر. وقرأ جمهور الناس: «فَرَقْنَاهُ» بتخفيف الراء، ومعناه: بَيَّنَّاهُ وأوضحناه^(٦)، وفرقنا فيه بين الحق والباطل. قاله الحسن^(٧). وقال ابن

(١) الصحاح (لف).

(٢) معاني القرآن للنحاس ٢٠٤/٤.

(٣) تفسير البغوي ١٤١/٣.

(٤) زاد المسير ٩٦/٥.

(٥) تفسير الرازي ٦٨/٢١ بمعناه.

(٦) المحرر الوجيز ٤٩٠/٣.

(٧) أخرجه الطبري ١١٥/١٥.

عباس : فَصَّلْنَاهُ^(١).

وقرأ ابن عباس وعليّ وابن مسعود وأبيّ بن كعب وقَتَادَة وأبو رجاء والشَّعْبِيّ : «فَرَّقْنَاهُ» بالتشديد^(٢) أي : أنزلناه شيئاً بعد شيءٍ لا جملةً واحدة، إلا أن في قراءة ابن مسعود وأبيّ : «فَرَّقْنَاهُ عَلَيْكَ»^(٣).

واختُلِفَ في كم نزل القرآن من المدة، فقليل : في خمسٍ وعشرين سنة. ابن عباس : في ثلاث وعشرين. أنس : في عشرين. وهذا بحسب الخلاف في سنّ رسول الله ﷺ^(٤)، ولا خلاف أنه نزل إلى السماء الدنيا جملةً واحدة، وقد مضى هذا في «البقرة»^(٥).

﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي : تطاول في المدة شيئاً بعد شيء، ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود^(٦)، أي : أنزلناه آيةً آيةً، وسورةً سورةً^(٧). وأمّا على القول الأوّل فيكون «عَلَىٰ مُكْثٍ» أي : على ترسلٍ في التلاوة وترتيل. قاله مجاهد وابن عباس وابن جريج^(٨). فيُعطي القارئ القراءة حقّها من ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحينٍ ولا تطريبٍ مُؤدٍّ إلى تغيير لفظ القرآن بزيادةٍ أو نقصانٍ، فإن ذلك حرامٌ على ما تقدّم أوّل الكتاب. وأجمع القُراء على ضمّ الميم من «مُكْثٍ»^(٩) إلا ابن مُحَيِّصٍ فإنه قرأ : «مَكْثٍ» بفتح الميم^(١٠). ويقال. مَكْثٍ ومُكْثٍ ومِكْثٍ؛ ثلاث

(١) أخرجه الطبري ١١٤/١٥ .

(٢) وهذه القراءة في الشاذة ص ٧٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤٩٠/٣ - ٤٩١ .

(٤) المحرر الوجيز ٤٩١/٣ ، لكن وقع في مطبوعه وفي الوسيط ١٣٢/٣ : «قَتَادَة» بدلاً من «أنس».

(٥) ١٦١/٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٤٩١/٣ .

(٧) مجمع البيان ١٠٩/١٥ .

(٨) المحرر الوجيز ٤٩١/٣ .

(٩) المحرر الوجيز ٤٩١/٣ .

(١٠) زاد المسير ٩٧/٥ عن ابن محيصة وغيره، وهي قراءة شاذة.

لغات^(١). قال مالك: «على مُكث»: على تَثَبُّتٍ وترسُّلٍ^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَازِلًا﴾ مبالغة وتأكيد بالمصدر للمعنى المتقدم^(٣)، أي: أنزلناه نَجْمًا بعد نجم^(٤)؛ ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقتٍ واحدٍ لنفروا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ يعني القرآن. وهذا من الله عزَّ وجلَّ على وجه التبكيت لهم والتهديد، لا على وجه التخيير^(٥). ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل نزول القرآن وخروج النبي ﷺ، وهم مؤمنو أهل الكتاب^(٦). في قول ابن جريج وغيره. قال ابن جريج: معنى «إذا يُتْلَىٰ عليهم» كتابهم^(٧). وقيل: القرآن^(٨). ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾. وقيل: هم قومٌ من ولد إسماعيل تمسَّكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبيَّ عليه الصلاة والسلام، منهم: زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل. وعلى هذا ليس يريد: أوتوا الكتاب، بل يريد: أوتوا عِلْمَ الدين^(٩). وقال الحسن: الذين أوتوا العلم أمةٌ محمدٍ ﷺ. وقال مجاهد: إنهم ناس من اليهود. وهو أظهر؛ لقوله: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾. ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني القرآن في قول مجاهد. كانوا إذا سمعوا

(١) المحرر الوجيز ٤٩١/٣.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢٧٩/٣ لكن نسبه إلى مجاهد.

(٣) المحرر الوجيز ٤٩١/٣.

(٤) الوسيط للواحد ١٣٢/٣.

(٥) النكت والعيون ٢٨٠/٣.

(٦) تفسير البغوي ١٤١/٣.

(٧) أخرجه الطبري ١٢١/١٥.

(٨) تفسير البغوي ١٤٢/٣.

(٩) قال الواحدي في الوسيط ١٣٢/٣: يعني طلاب الدين مثل: أبي ذر وسلمان وورقة بن نوفل وزيد بن عمرو. وعلى هذا فإن هؤلاء ليس كلُّهم من ولد إسماعيل.

ما أنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا: «سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا»^(١). وقيل: كانوا إذا تلو كتابهم وما أنزل عليه من القرآن خشعوا وسجدوا وسبّحوا، وقالوا: هذا هو المذكور في التوراة، وهذه صفته، ووعد الله به واقع لا محالة، وجنحوا إلى الإسلام، فنزلت الآية فيهم. وقالت فرقة: المراد بالذين أوتوا العلم من قبله محمد ﷺ، والضمير في «قَبْلَهُ» عائذ على القرآن حسب الضمير في قوله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ﴾. وقيل: الضميران لمحمد ﷺ، واستأنف ذكر القرآن في قوله: ﴿إِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾^(٣)

دليل على جواز التسبيح في السجود. وفي «صحيح مسلم» وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول ﷺ يُكثِرُ أن يقول في سجوده وركوعه: «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَيَحْزَنُونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾^(٤)

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَيَحْزَنُونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ﴾ هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم. وحق لكل من توسم بالعلم وحصل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة^(٤)، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل. وفي «مسند الدارمي أبي محمد» عن التيمي قال: من أوتي من العلم ما لم يُبَكِّهِ لَخَلِيقٍ ألا يكون أوتي علماً؛ لأن الله تعالى نعت العلماء، ثم تلا هذه الآية. ذكره الطبري أيضاً^(٥). والأذقان: جمع ذقن،

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٨٠. وأخرجه بنحوه الطبري ١٢١/ ١٥.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١.

(٣) صحيح مسلم (٧٨٤). وأخرجه البخاري - أيضاً - (٨١٧)، وهو في مسند أحمد (٢٤١٦٣).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٢.

(٥) سنن الدارمي (٢٩١)، وتفسير الطبري ١٢٢/ ١٥.

وهو مجتمع اللَّخِين^(١). وقال الحسن: الأذقان عبارة عن اللَّحَى^(٢)، أي: يضعونها على الأرض في حال السجود، وهو غاية التواضع.

واللام بمعنى على^(٣)؛ تقول: سقط لِفِيهِ، أي: على فيه. وقال ابن عباس: ﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجْدًا﴾ أي: للوجوه^(٤)، وإنما خصَّ الأذقان بالذكر؛ لأنَّ الذَّقْنَ أقربُ شيءٍ من وجه الإنسان^(٥). قال ابن خُوَيْرَمَنَدَاد: ولا يجوز السجود على الذقن؛ لأنَّ الذقن هاهنا عبارة عن الوجه، وقد يُعَبَّرُ بالشيء عما جاوره وبيعه عن جميعه، فيقال: خرَّ لوجهه ساجدًا وإن كان لم يسجد على خدّه ولا عينه. ألا ترى إلى قوله:

فخرَّ صَرِيْعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ^(٦)

فإنما أراد: خرَّ صريعاً على وجهه ويديه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَبْكُونَ﴾ دليلٌ على جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالى، أو على مصيبة^(٧) في دين الله، وأنَّ ذلك لا يقطعها ولا يضرُّها. ذكر ابن المبارك عن حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشَّخِير، عن أبيه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو يُصَلِّي وَلِجَوْفِهِ أَزِيْرٌ كَأَزِيْرِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ. وفي كتاب أبي داود: وفي صدره أَزِيْرٌ كَأَزِيْرِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ^(٨).

الثالثة: واختلف الفقهاء في الأنين، فقال مالك: الأنين لا يقطع الصلاة للمريض، وأكرهه للصحيح. وبه قال الثوري. وروى ابن الحكم عن مالك: التنحنُّ

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٩٢.

(٢) المحرر الوجيز ٣/٤٩١، والنكت والعيون ٣/٢٨٠.

(٣) زاد المسير ٥/٩٧.

(٤) المحرر الوجيز ٣/٤٩١، والنكت والعيون ٣/٢٨٠، وزاد المسير ٥/٩٧.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/٢٦٤.

(٦) سلف ١٣/٢٤.

(٧) في (د) و(م) و(ز): معصيته.

(٨) الزهد لابن المبارك (١٠٩)، وسنن أبي داود (٩٠٤). وهو في مسند أحمد (١٦٣١٢).

والأنين والنفخ لا يقطع الصلاة. وقال ابن القاسم: يقطع. وقال الشافعي: إن كان له حروف تُسمَع وتُفْهَم يقطع الصلاة. وقال أبو حنيفة: إن كان من خوف الله لم يقطع، وإن كان من وجع قطع. ورؤي عن أبي يوسف أن صلاته في ذلك كله تامة؛ لأنه لا يخلو مريض ولا ضعيف من أنين^(١).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ تقدّم القول في الخشوع في «البقرة»^(٢) ويأتي.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ سبب نزول هذه الآية أن المشركين سمعوا رسول الله ﷺ يدعو: «يا الله يا رحمن» فقالوا: كان محمدٌ يأمرنا بدعاءٍ إليه واحدٍ وهو يدعو إلهين. قاله ابن عباس. وقال مكحول: تهجد رسول الله ﷺ ليلةً فقال في دعائه: «يا رحمن يا رحيم» فسمعه رجلٌ من المشركين، وكان باليمامة رجلٌ يُسمَّى الرحمن، فقال ذلك السامع: ما بال محمدٍ يدعو رحمان اليمامة. فنزلت الآية مبينةً أنهما اسمان لمسمًى واحد، فإن دعوتهم بالله فهو ذاك، وإن دعوتهم بالرحمن فهو ذاك^(٣). وقيل: كانوا يكتبون في صدر الكتب: باسمك اللهم، فنزلت: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَنَ وَإِنَّكُمْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] فكتب رسول الله ﷺ «بسم الله الرحمن الرحيم»^(٤)، فقال المشركون: هذا الرحيم نعرفه، فما الرحمن؟ فنزلت الآية. وقيل: إن اليهود قالت: ما لنا لا نسمع في القرآن اسماً هو في التوراة كثيرٌ - يعنون الرحمن - فنزلت الآية^(٥). وقرأ طلحة بن

(١) هاتان المسألتان الثانية والثالثة في التمهيد ١٣٤/٢٢.

(٢) ٧٢ - ٧٠/٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤٩٢/٣. وأخرجه عنهما الطبري ١٢٣/١٥ - ١٢٤.

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٩٩/٥ عن ميمون بن مهران.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢٨٠/٣ عن الكلبي.

مُصْرَفٌ: «أَيًّا مَنْ تدعو فله الأسماء الحسنی» أي: التي تقتضي أفضل الأوصاف وأشرف المعاني^(١). وحُسْنُ الأسماء إنما يتوجّه بتحسين الشرع؛ لإطلاقها والنص عليها. وانضاف إلى ذلك أنها تقتضي معاني حسناً شريفةً، وهي بتوقيف لا يصحُّ وضع اسمٍ لله بنظرٍ إلا بتوقيفٍ من القرآن أو الحديث أو الإجماع، حسبما بيّناه في الكتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنی»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: اختلفوا في سبب نزولها على خمسة أقوال:

الأول: ما روى ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ قال: نزلت ورسولُ الله ﷺ مُتَوَارِ بِمَكَّةَ، وكان إذا صَلَّى بأصحابه رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فإذا سَمِعَ ذلك المشركون سَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ؛ فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ فيسمع المشركون قراءتك ﴿وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ عن أصحابك، أسمعهم القرآن، ولا تجهر ذلك الجهر ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ قال: يقول بين الجهر والمخافتة. أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم، واللفظ لمسلم^(٣). والمخافتة: خفضُ الصوتِ والسكون؛ يقال للميت إذا برد: خَفَّتْ^(٤). قال الشاعر:

لَمْ يَبْقَ إِلَّا نَفْسٌ خَافَتْ وَمُقَلَّةٌ إِنْسَانُهَا بَاهَتْ
رَأَى لَهَا الشَّامِتُ مِمَّا بَهَا يَا وَنَحَ مِنْ يَرْثِي لَهَا الشَّامِتُ

الثاني: ما رواه مسلم أيضاً عن عائشة في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ قالت: أنزلَ هذا في الدعاء^(٥).

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٢. وهذه قراءة شاذة.

(٢) ص ٣٥.

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٢)، وصحيح مسلم (٤٤٦)، وسنن الترمذي (٣١٤٦). وهو في مسند أحمد (١٥٥).

(٤) تهذيب اللغة ٧/ ٣٠٤ - ٣٠٥ بنحوه.

(٥) صحيح مسلم (٤٤٧).

الثالث: قال ابن سيرين: كان الأعراب يجهرون بتشهدهم، فنزلت الآية في ذلك^(١). قلت: وعلى هذا فتكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد، وقد قال ابن مسعود: مِنَ السُّنَّةِ أَنْ تُخْفِيَ التَّشْهَدَ. ذكره ابن المنذر.

الرابع: ما روي عن ابن سيرين أيضاً: أن أبا بكر رضي الله عنه كان يُسرُّ قراءته، وكان عمر يجهرُ بها، فقليل لهما في ذلك، فقال أبو بكر: إنما أنا جاري ربي، وهو يعلم حاجتي إليه. وقال عمر: أنا أطرُدُ الشيطانَ، وأوقِظُ الوَسْوَنةَ. فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر: ارفع قليلاً. وقيل لعمر: اخفض أنت قليلاً. ذكره الطبري وغيره^(٢).

الخامس: ما روي عن ابن عباس أيضاً أن معناها: ولا تجهَرُ بصلاة النهار، ولا تُخَافُتْ بصلاة الليل. ذكره يحيى بن سلام والزهراوي^(٣). فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة في النوافل والفرائض، فأما النوافل فالمصلي مخيرٌ في الجهر والسر في الليل والنهار، وكذلك روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يفعل الأمرين جميعاً. وأما الفرائض فحكمها في القراءة معلومٌ ليلاً ونهاراً.

وقولُ سادس: قال الحسن: يقول الله: لا ترائي بصلاتك تُحسِّنُها في العلانية، ولا تُسيئُها في السرِّ. وقال ابن عباس: لا تُصَلِّ مرئياً للناس، ولا تَدْعُها مخافة الناس^(٤).

الثانية: عبَّر تعالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبَّر بالقراءة عن الصلاة في قوله: ﴿وَقَرَأَ أَلْفَ فَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما مرتبطٌ بالآخر؛ لأنَّ الصلاة تشتمل على قراءةٍ وركوعٍ وسجودٍ، فهي من جملة أجزائها؛ فعبَّر بالجزء

(١) المحرر الوجيز ٤٩٢/٣.

(٢) تفسير الطبري ١٣٢/١٥، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٦١٢).

(٣) المحرر الوجيز ٢٩٢/٣.

(٤) ذكرهما ابن الجوزي في زاد المسير ١٠٠/٥، وأخرجهما الطبري ١٣٤/١٥ - ١٣٥.

عن الجملة، وبالجملة عن الجزء، على عادة العرب في المجاز، وهو كثير^(١)؛ ومنه الحديث الصحيح: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي» أي: قراءة الفاتحة على ما تقدّم^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذاً: عزيزٌ وعيسى والملائكة ذرية الله سبحانه، تعالى الله عن أقوالهم! ^(٣) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ لأنه واحد لا شريك له في ملكه ولا في عبادته. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ﴾ قال مجاهد: المعنى: لم يُحَالِفْ أحداً، ولا ابتغى نصرَ أحدٍ^(٤)، أي: لم يكن له ناصرٌ يُجِيرُهُ مِنَ الذَّلِّ فيكون مدافعاً. وقال الكلبي: لم يكن له وليٌّ من اليهود والنصارى؛ لأنهم أدلُّ الناس^(٥)؛ ردّاً لقولهم: نحن أبناء الله وأجباؤه^(٦). وقال الحسن بن الفضل: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ﴾ يعني: لم يُدَلَّ فيحتاج إلى وليٍّ، ولا ناصرٍ لعزته وكبريائه.

﴿وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: عظمه عظمة تامة^(٧). ويقال: أبلغُ لفظاً للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر^(٨). أي: صِفُهُ بأنه أكبرُ من كلِّ شيء. قال الشاعر:

رَأَيْتُ اللَّهَ أَكْبَرَ كُلِّ شَيْءٍ مُحَاوَلَةً وَأَكْثَرَهُمْ جُنُودًا

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢١٥ .

(٢) ١٤٥/١ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٣ .

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ١٣٨ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٧٢ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٨٢ .

(٦) مجمع البيان ١٥/ ١١٢ بمعناه .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦٥ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٣ .

وكان النبي ﷺ إذا دخل في الصلاة قال: «الله أكبر» وقد تقدّم أوّل الكتاب^(١). وقال عمر بن الخطاب. قول العبد: «الله أكبر» خير من الدنيا وما فيها.

وهذه الآية هي خاتمة التوراة؛ روى مُطَرِّف عن عبد الله بن كعب قال: افْتُتِحَتِ التوراةُ بفاتحة سورة الأنعام، وخُتِمَت بِخاتمة هذه السورة^(٢). وفي الخبر أنها آية العزّ. رواه معاذ بن أنس^(٣) عن النبي ﷺ^(٤). وروى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان النبي ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علّمه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي﴾ الآية^(٥). وقال عبد الحميد بن واصل: سمعتُ عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الآية، كتبَ الله له من الأجر مثلَ الأرض والجبال، لأنَّ الله تعالى يقول فيمن زعم أنَّ له ولداً: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾^(٦) [مريم: ٩٠]. وجاء في الخبر: أنَّ النبي ﷺ أمر رجلاً شكاً إليه بالدين بأن

(١) ٢٧٠/١، والبيت قائله خدّاش بن زهير، وقد ورد هناك بلفظ: «وأعظمه» بدل «وأكثرهم».

(٢) هكذا في المحرر الوجيز ٤٩٣/٣، لكن الأثر أخرجه ابن أبي شيبة ٥٥٥/١٠، والدارمي (٣٤٠٢)، وأبو نعيم في الحلية ٣٧٨/٥ من طريق عبد الله بن رباح عن كعب بلفظ: فاتحة التوراة فاتحة سورة الأنعام، وخاتمة التوراة خاتمة سورة هود. وقد سلف ٣١١/٨.

وورد في رواية أخرى عند أبي نعيم بأن خاتمة التوراة خاتمة الإسراء، دون ذكر فاتحتها.

(٣) وقع في جميع النسخ: معاذ بن جبل، وهو خطأ.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٦٢٤) من طريق زبّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه مرفوعاً. زبّان بن فائد ضعيف.

(٥) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٢٤) من طريق عبد الكريم أبي أمية، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ موصولاً.

وأخرجه ابن أبي شيبة ٣٤٨/١ و ٥٥٦/١٠ من طريق عبد الكريم، عن عمرو، عن النبي ﷺ معضلاً. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٧٩٧٦) من طريق عبد الكريم، عن النبي ﷺ معضلاً دون ذكر عمرو بن شعيب.

(٦) لم نقف على من أخرجه بهذا الإسناد، وفيه إبهام الراوي الذي روى عنه عبد الحميد بن واصل. وأخرجه بنحوه الطبراني (٦٧٦) عن أبي هريرة ؓ بإسناد مسلسل بالعلل، ففيه مجهولان، وضعيف وهو محمد بن سلمة، ومدلس وهو محمد بن إسحاق، وفيه انقطاع، فقد رواه موسى بن يسار عن أبي هريرة وهو لم يدركه.

يقرأ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾... إلى آخر السورة، ثم يقول: توكلتُ على الحيِّ الذي لا يموت. ثلاث مرات^(١).

تَمَّتْ سورةُ الإسراء، والحمد لله وحده،
والصلاة والسلام على مَنْ لا نبيَّ بعده.

(١) أورده بهذا اللفظ أبو الليث في تفسيره ٢/٢٨٧.

وأخرجه بنحوه أبو يعلى (٦٦١)، وابن السني (٥٤٦) من حديث أبي هريرة ؓ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥٢/٧: فيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الكهف

وهي مكِّيَّة في قول جميع المفسرين. ورُوي عن فرقة أنَّ أوَّل السورة نزل بالمدينة إلى قوله: ﴿جُرْنَا﴾ [الآية: ٨]، والأوَّل أصحُّ. ورُوي في فضلها من حديث أنسٍ أنَّه قال: مَنْ قرأ بها أُعطي نوراً بين السماء والأرض، ووُقي بها فتنة القبر^(١).

وقال إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ألا أدُلُّكم على سورة شيعها سبعون ألفَ ملكٍ، ملأَ عِظْمُها ما بين السماء والأرض، لتاليها مثلُ ذلك». قالوا: بلى يا رسول الله؟ قال: «سورة أصحاب الكهف، مَنْ قرأها يومَ الجمعة، غُفِرَ له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيَّام، وأُعطي نوراً يبلغ السماء، ووُقي فتنة الدجال» ذكره الثعلبي، والمهدويُّ أيضاً بمعناه^(٢). وفي «مسند الدارمي»^(٣) عن أبي سعيد الخدريِّ قال: مَنْ قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة، أضاء له من النور

(١) المحرر الوجيز ٤٩٤/٣.

(٢) وأخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (٢٠٣) عن إسماعيل بن أبي رافع قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: ألا أخبركم بسورة ملأ عظمها ما بين السماء والأرض... الخبر بنحوه. وإسماعيل بن أبي رافع يروي عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وكلاهما ضعيف، تنظر ترجمتهما في تهذيب الكمال وغيره من كتب التراجم.

(٣) برقم (٣٤١٠)، وأخرجه أيضاً القاسم بن سلام في فضائل القرآن ص ١٣١، وابن الضريس في فضائل القرآن (٢١١). وأخرجه مرفوعاً الحاكم في المستدرک ٣٦٨/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

فيما بينه وبين البيت العتيق.

وفي «صحيح مسلم»^(١) عن أبي الدرداء أن نبي الله ﷺ قال: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ». وفي رواية: «مَنْ آخَرَ الْكَهْفِ»^(٢). وفي «مسلم»^(٣) أيضاً من حديث النّوّاسِ بْنِ سَمْعَانَ: «فَمَنْ أَدْرَكَهُ - يَعْنِي الدَّجَالَ - فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ». وذكره الثعلبي.

قال سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ: قال النبي ﷺ: «مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ حِفْظًا، لَمْ تَضُرَّهُ فِتْنَةُ الدَّجَالِ، وَمَنْ قَرَأَ السُّورَةَ كُلَّهَا، دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٤).

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ۖ قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُنَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ مَلَائِكِينَ فِيهِ أَبَدًا ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ۖ قِيمًا﴾ ذكر ابن إسحاق^(٥) أن قريشاً بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود وقالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجوا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالوا لهم: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن، فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فرؤا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان

(١) برقم (٨٠٩).

(٢) مسلم (٨٠٩) إثر الرواية السابقة.

(٣) في كتاب الفتن وأشراف الساعة برقم (٢١٣٧) إثر الحديث (٢٩٣٦).

(٤) لم نقف عليه.

(٥) ونقله عنه ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٣٠٠ - ٣٠٦ بتمامه.

أمرهم، فإنه قد كان لهم حديثٌ عَجَبٌ؟ وَسَلَّوْهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، مَا كَانَ نَبْؤُهُ؟ وَسَلَّوْهُ عَنِ الرُّوحِ، مَا هِيَ؟ فَإِذَا أَخْبَرَكُمْ بِذَلِكَ فَاتَّبِعُوهُ؛ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ، فَهُوَ رَجُلٌ مَتَقَوْلٌ، فَاصْنَعُوا فِي أَمْرِهِ مَا بَدَأَ لَكُمْ.

فَأَقْبَلَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ وَعَقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ حَتَّى قَدَمَا مَكَّةَ عَلَى قَرِيشٍ فَقَالَا: يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ! قَدْ جِئْنَاكُمْ بِفَضْلِ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ، قَدْ أَمَرْنَا أَحْبَارَ يَهُودَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ أَشْيَاءَ أَمَرُونَا بِهَا، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ عَنْهَا فَهُوَ نَبِيٌّ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ، فَالرَّجُلُ مَتَقَوْلٌ، فَارْوَا فِيهِ رَأْيَكُمْ.

فَجَاؤُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنَا عَنْ فِتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ، قَدْ كَانَتْ لَهُمْ قِصَّةٌ عَجَبٌ؟ وَعَنْ رَجُلٍ كَانَ طَوَّافًا قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا؟ وَأَخْبِرْنَا عَنِ الرُّوحِ مَا هِيَ؟

قَالَ: فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَخْبِرْكُمْ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ غَدًا» وَلَمْ يَسْتَشِنْ. فَانصَرَفُوا عَنْهُ، فَمَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا يَزْعُمُونَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، لَا يُحْدِثُ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ وَحْيًا، وَلَا يَأْتِيهِ جِبْرِيلُ، حَتَّى أَرْجَفَ^(١) أَهْلُ مَكَّةَ وَقَالُوا: وَعَدْنَا مُحَمَّدًا غَدًا، وَالْيَوْمَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَقَدْ أَصْبَحْنَا مِنْهَا لَا يُخْبِرُنَا بِشَيْءٍ مِمَّا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ، وَحَتَّى أَحْزَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُكُثَ الْوَحْيِ عَنْهُ، وَشَقَّ عَلَيْهِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ، ثُمَّ جَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِسُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، فِيهَا مَعَاتِبُهُ إِيَّاهُ عَلَى حَزْنِهِ عَلَيْهِمْ، وَخَبَرُ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ الْفِتْيَةِ، وَالرَّجُلِ الطَّوَّافِ، وَالرُّوحِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَذَكَرَ لِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَجِبْرِيلَ: «لَقَدْ احْتَبَسْتَ عَنِّي يَا جِبْرِيلُ حَتَّى سَوَتْ ظَنًّا» فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: «وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ مَّا بَكَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلَفْنَا وَمَا بَيْنَكَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» [مريم: ٦٤].

فافتتح السورة تبارك وتعالى بحمده، وذكّر نبوة رسوله ﷺ لِمَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ مِنْ

(١) أَرْجَفَ الْقَوْمُ: إِذَا خَاضُوا فِي الْأَخْبَارِ السَّيِّئَةِ وَذَكَرَ الْفِتْنِ. لِسَانَ الْعَرَبِ (رَجَفَ).

ذلك فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ يعني: محمداً، إِنَّكَ رَسُولٌ مِنِّي، أي: تحقيقاً لما سألوا عنه من نبوتك. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا فِتْنًا﴾ أي: معتدلاً لا اختلاف فيه.

﴿يُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَّدُنْهُ﴾ أي: عاجلاً عقوبته في الدنيا، وعذاباً أليماً في الآخرة، أي: من عند ربك الذي بعثك رسولاً.

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: دار الخلد لا يموتون فيها، الذين صدقوك بما جئت به مما كذبت به غيرهم، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال.

﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ يعني: قريشاً في قولهم: إِنَّا نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وهي بنات الله. ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ الذين أعظموا فراقهم وعُيِبَ دينهم.

﴿كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: لقولهم إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ. ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾. فَلَئِكَ يَنْجِعُ نَفْسَكَ عَلَى مَا نَرَاهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجوه منهم، أي: لا تفعل. قال ابن هشام^(١): «باخع نفسك» أي: مهلك نفسك، فيما حدثني أبو عبيدة^(٢). قال ذو الرمة^(٣):

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه بشيء نَحْنُهُ عَنْ يَدَيْهِ الْمَقَادِرُ
وجمعها: باخعون وبخعة. وهذا البيت في قصيدة له. وتقول العرب: قد بخعت له
نُضْجِي ونُفْسِي، أي: جَهِدْتُ له^(٤).

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال ابن إسحاق^(٥):

(١) في السيرة النبوية ١/٣٠٢.

(٢) في مجاز القرآن ١/٣٩٣.

(٣) ديوانه ٢/١٠٣٧.

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٩٣.

(٥) ونقله عن ابن هشام في السيرة النبوية ١/٣٠٣.

أي: أيُّهم أتبعُ لأمرِي، وأعملُ بطاعتي.

﴿وَأَنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي: الأرض، وإنَّ ما عليها لفانٍ وزائل، وإنَّ المرجعَ إليَّ فأجزِي كلًّا بعمله، فلا تأس ولا يحزنُك ما ترى وتسمع فيها. قال ابنُ هشام: الصَّعيد: وَجْهُ الأرض، وجمعه: صُعد. قال ذو الرِّمَّة يصف ظليًّا صغيراً:

كأنه بالضُّحَى ترمي الصَّعيدَ به دَبَابَةٌ فِي عِظَامِ الرَّأْسِ خُرْطُومٌ^(١)

وهذا البيت في قصيدة له. والصَّعيد أيضاً: الطريق، وقد جاء في الحديث: «يَأْخُذُكُمْ وَالْقَعُودَ عَلَى الصُّعْدَاتِ»^(٢) يريد: الطُّرُق. والجُرُز: الأرض التي لا تُنبت شيئاً، وجمعها: أجزاز. ويقال: سَنَةُ جُرُز، وَسُنُونُ أَجْرَاز؛ وهي التي لا يكون فيها مطرٌ، وتكون فيها جُدوبةٌ ويس وشِدَّةٌ^(٣). قال ذو الرِّمَّة يصف إبلاً:

طَوَى النَّحْزُ وَالْأَجْرَازُ مَا فِي بَطُونِهَا فَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضَّلُوعُ الْجَرَّاشِعُ^(٤)

قال ابنُ إسحاق: ثم استقبل قصَّةَ الخبرِ فيما سأله عنه من شَأْنِ الفتية فقال: ﴿أَمَرَ حَسِبْتُ أَنَّ أَصْحَبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي: قد كان من آياتي فيما وضعتُ على العبادِ مِنْ حِجَّتِي ما هو أعجبُ من ذلك. قال ابنُ هشام^(٥): والرَّقِيم: الكتابُ الذي رُقِمَ بخبرهم، وجمعه: رُقْم. قال العَجَّاج^(٦):

(١) ديوان ذي الرمة ٣٨٩/١، وقال شارحه: والدبابة: الخمر، والخرطوم: أول ما ينزل ويؤخذ من اللدْن، والمعنى: كأن هذا الولد - يعني الظبي - بالضحي يطح به خمر من النعاس، وإنما ينال لرِيه من اللبن.

(٢) أورده بهذا اللفظ ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (صعد)، وأخرجه أحمد (٢٧١٦٣) عن أبي شريح الخزاعي بلفظ: «يأكم والجلوس على الصعدات...» مطولاً، وعنون له البخاري في كتاب المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات، وأخرج حديث أبي سعيد الخدري (٢٤٦٥) عن النبي ﷺ قال: «يأكم والجلوس على الطرقات».

(٣) سيرة ابن هشام ٣٠٣/١، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ص ٣٩٥ - ٣٩٦.

(٤) ديوان ذي الرمة ١٢٩٦/٢ بنحوه، قال شارحه: والنحز: ضرب الأعقاب والاستحثاث في السير، والجراشع: المتفخ الجنين.

(٥) في السيرة النبوية ٣٠٣/١ - ٣٠٤.

(٦) ديوانه ص ٢٨٥، والعجَّاج هو: عبد الله بن روبة بن لبید.

وَمُسْتَقَرَّ الْمُضْحَفِ الْمُرْقَمِ

وهذا البيت في أرجوزة له.

قال ابن إسحاق: ثم قال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾. ثم قال: ﴿ثُمَّ نَفَّسْ عَلَىكَ بَنَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: بصديق الخبر: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أي: لم يشركوا بي كما أشركتم بي ما ليس لكم به علم. قال ابن هشام^(١): وَالشَّطَطُ: الغُلُوُّ ومجاورة الحق. قال أعشى بني^(٢) قيس بن ثعلبة^(٣):

أَتَنْتَهُونَ وَلَا يَنْهَى ذَوِي شَطِيطٍ كَالطَّنَنِ يَذْهَبُ فِيهِ الرِّيثُ وَالْفُتْلُ

وهذا البيت في قصيدة له، قاله ابن إسحاق.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُواكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ بَيِّنٌ﴾. قال ابن إسحاق: أي: بحجة بالغة. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا . وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾. قال ابن هشام: تزاوَر: تميل، وهو من الزَّوَر. وقال أبو الزحف الكلبي يصف بلداً:

جَذَبَ الْمُنْدَى عَنْ هَوَانَا أَزْوَرُ يُنْضِي الْمَطَايَا خِمْسُهُ الْعَشْنَزَرُ^(٤)

(١) في السيرة النبوية ١/ ٣٠٤ .

(٢) في (ظ): بن.

(٣) ديوانه ص ١١٣ .

(٤) السيرة النبوية ١/ ٣٠٤ - ٣٠٥ ، وهو في الصحاح: (عشزر)، والمندى: حيث يُرْتَع، والخميس من أظلمة الإبل: أن ترعى ثلاثة أيام وترد اليوم الرابع. الصحاح (خمس).

وهذان الشيطان في أرجوزة له.

﴿تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ تجاوزهم وتركهم عن شمالها. قال ذو الرُّمَّة:

إلى طُعْنٍ يَقْرِضُنْ أَقْوَارَ مُشْرِفٍ شِمَالاً وعن أَيْمَانِهِنَّ الْفَوَارِسُ^(١)

وهذا البيت في قصيدة له. وَالْفَجْوَة: السَّعَة، وجمعها: الْفُجَاء. قال الشاعر:

أَلْبَسْتَ قَوْمَكَ مَخْزَاءً وَمَنْقَصَةً حَتَّى أَبِیْحُوا وَحَلُّوا فَجْوَةَ الدَّارِ^(٢)

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: في الحجة على من عَرَفَ ذلك من أمورهم من أهل

الكتاب مِمَّنْ أَمَرَ هَؤُلَاءَ بِمَسْأَلَتِكَ عَنْهُمْ فِي صِدْقِ نَبَوَّتِكَ بِتَحْقِيقِ الْخَبَرِ عَنْهُمْ.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَحْدِلْ﴾ وَلِيَّا مُرْشِدًا . وَتَحْسِبُهُمْ أَفْكَاطًا

وَهُمْ رُقُودٌ وَتَقْلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قال ابنُ

هشام: الوصيد: الباب. قال العبيسي، واسمه عبدُ بنُ وهب:

بَارِضٍ فَلَاةٍ لَا يُسَدُّ وَصِيدُهَا عَلِيٌّ وَمَعْرُوفِي بِهَا غَيْرُ مُنْكَرٍ^(٣)

وهذا البيت في أبيات له. والوصيد أيضاً: الْفَنَاء، وجمعه: وصائد، ووُصِد،

وَوُصِدَان.

﴿لَوْ أَطْلَقْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ أهلُ

السلطان والملِك منهم. ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ سَيَقُولُونَ﴾ يعني: أحبار اليهود

الذين أمروهم بالمسألة عنهم. ﴿ثَلَاثَةَ رِأْسٍ لَهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادَتْهُمْ كَلْبُهُمْ

رَجَمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةُ وَفَأَمْنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا

تُمَارٍ فِيهِمْ﴾ أي: لا تُكابرهم. ﴿إِلَّا مَرَّةً ظَهَرَ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فَإِنَّهُمْ لَا

عِلْمَ لَهُمْ بِهِمْ.

(١) السيرة النبوية ٣٠٥/١، والبيت في ديوان ذي الرمة ١١٢٠/٢، وجاء فيه: أجواز، بدل: أقواز، والفوز: الكتيب الصغير من الرمل، والفوارس: رملٌ بالدهناء. وينظر الصحاح (قوز).

(٢) السيرة النبوية ٣٠٥/١، وفيه: وحلُّوا، بدل: وحلُّوا.

(٣) السيرة النبوية ٣٠٥/١ وفيه وفي (ظ): عبيد، بدل: عبد، وأورده أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب ١١٩/١ ونسبه إلى زهير بن أبي سلمى، ولم نقف عليه في ديوانه.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾^(١) إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْخُلْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أي: لا تقولن لشيء سألوك عنه كما قلت في هذا: إنني مخبركم غداً، واستثنى مشيئة الله، وادّكر ربك إذا نسيت، وقل عسى أن يهديني ربي لخبر ما سألتُموني عنه رَشَدًا، فإنك لا تدري ما أنا صانعٌ في ذلك.

﴿وَلْيُتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أي: سيقولون ذلك. ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَتُوا لَهُمْ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمِعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أي: لم يخف عليه شيء مما سألوك عنه^(٢).

قلت: هذا ما وقع في السيرة من خبر أصحاب الكهف ذكرناه على نسقه. ويأتي خبرُ ذي القرنين، ثم نعود إلى أول السورة فنقول: قد تقدّم معنى «الحمد لله»^(٣).

وزعم الأخفش والكسائي والفراء وأبو عبيد وجمهور المتأولين أن في أول هذه السورة تقديمًا وتأخيرًا، وأنَّ المعنى: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً^(٤).

و﴿قِيَمًا﴾ نصب على الحال^(٥) - وقال قتادة: الكلام على سياقه من غير تقديم ولا تأخير، ومعناه: ولم يجعل له عوجاً ولكن جعلناه قيماً^(٦) - وقول الضحاك فيه حسن، وأنَّ المعنى: مستقيم، أي: مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فساد ولا

(١) ما بين حاصرتين في (ظ).

(٢) السيرة النبوية ١/ ٣٠٥ - ٣٠٦، والخبر أخرجه الطبري في التفسير ١٥/ ١٤٣ - ١٤٤ عن ابن عباس مختصراً.

(٣) ١/ ٢٠٢ وما بعدها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٧، وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦١٦، وللغراء ٢/ ١٣٣.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٧.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٤٤.

تناقض^(١). وقيل: «قيماً» على الكتب السابقة يُصدّقها. وقيل: «قيماً» بالحُجج أبداً.

﴿عَوَجًا﴾ مفعول به، والعَوَج، بكسر العين: في الدِّين والرأي والأمر والطريق. وافتحها في الأجسام كالخشب والجدار، وقد تقدّم^(٢). وليس في القرآن عَوَجٌ، أي: عيبٌ، أي: ليس متناقضاً مختلفاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وقيل: أي: لم يجعله مخلوقاً، كما روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] قال: غير مخلوق^(٣). وقال مقاتل: «عَوَجًا»: اختلافاً. قال الشاعر:

أدوم بودي للصدیق تکرماً ولا خيرَ فيمن كان في الودّ أغوجاً^(٤)

﴿لِيُنْذَرَ بَآسًا شَدِيدًا﴾ أي: لينذر محمّداً أو القرآن. وفيه إضمارٌ، أي: لينذر الكافرين عقابَ الله. وهذا العذاب الشديد قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة.

﴿مِنْ لَّدُنْهُ﴾ أي: من عنده^(٥). وقرأ أبو بكرٍ عن عاصم: «من لدنه» بإسكان الدال وإشمامها الضمّ وكسر النون، والهاء موصولةٌ بباء. الباقون «لدنّه» بضمّ الدال وإسكان النون وضمّ الهاء^(٦). قال الجوهري: وفي «اللدن» ثلاث لغات: لدُن، ولدَى، ولدُ. وقال:

مِنْ لَدُنْ لَخِيْنِهِ إِلَى مُنْخُورِهِ^(٧)

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤٤٧/٢، وأخرجه عنه الطبري ١٤١/١٥.

(٢) ٢٣٣/٥ - ٢٣٤، وينظر النكت والعيون ٢٨٤/٤، والمحرم الوجيز ٤٩٤/٣.

(٣) تفسير البغوي ١٤٤/٣، والنكت والعيون ٢٨٣/٣.

(٤) النكت والعيون ٢٨٣/٣.

(٥) تفسير الطبري ١٤٥/١٥ وعزاه إلى قتادة.

(٦) السبعة ص ٣٨٨، والتيسير ص ١٤٢.

(٧) الصحاح (لدن)، وأورد البيت ابن منظور في لسان العرب (لدن) ونسبه إلى غيلان بن حريث، وقال: قال ابن بري: وأنشده سيبويه: إلى منخوره، أي: منخره. اهـ، وكذا جاء في الصحاح، وفي (ظ) و(د).

الْمُنْحُور: لغة في المنخر^(١).

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْكُوتُونَ صَلَاحَاتٍ أَنْ لَهُمْ﴾ أي: بأن لهم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهي الجنة. ﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾ دائمين. ﴿فِيهِ أَبَدًا﴾ لا إلى غاية. وإن حملت التبشير على البيان، لم يحتج إلى الباء في «بأن». والأجر الحسن: الثواب العظيم الذي يؤدي إلى الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَنُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۖ ﴿١﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وهم اليهود، قالوا: عزيز ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله. وقریش قالت: الملائكة بنات الله^(٢). فالإنذار في أول السورة عام، وهذا خاص فيمن قال لله ولد.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ «من» صلة، أي: ما لهم بذلك القول علم؛ لأنهم مقلدة، قالوه بغير دليل. ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ أي: أسلافهم.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ «كلمة» نصب على البيان، أي: كبرت تلك الكلمة كلمة. وقرأ الحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق «كلمة» بالرفع، أي: عظمت كلمة، يعني قولهم: «اتخذ الله ولدا»^(٣). وعلى هذه القراءة فلا حاجة إلى إضمار. يقال: كبر الشيء: إذا عظم. وكبر الرجل: إذا أسن^(٤). ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ في موضع الصفة. ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي: ما يقولون إلا كذباً.

(١) في (ظ) و(د): المنخور لغة في المنخر.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٥ ، وتفسير الرازي ٢١/ ٧٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٧ - ٤٤٨ ، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢٤ ، ومختصر شواذ القرآن لابن خالويه ص ٧٨ .

(٤) الصحاح (كبر).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَبِخْتُ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَبِخْتُ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ﴾ «باخع» أي: مُهْلِكٌ وقَاتِلٌ، وقد تقدّم^(١). «آثَرِهِمْ»: جمع أثر، ويقال: إِثْرٌ^(٢). والمعنى: على أثر توليهم وإعراضهم عنك. «إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ» أي: القرآن. ﴿أَسَفًا﴾ أي: حزنًا وغضبًا على كفرهم، وانتصب على التفسير^(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿٧﴾
قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا﴾ «ما» و«زينة» مفعولان^(٤). والزينة: كلُّ ما على وجه الأرض، فهو عمومٌ؛ لأنَّه دالٌّ على بارئه. وقال ابن جُبَيْر عن ابن عباس: أراد بالزينة الرجال، وقاله مجاهد. وروى عكرمة عن ابن عباس أنَّ الزينةَ الخلفاء والأمرأء^(٥). وروى ابنُ أبي نَجِيح عن مجاهد عن ابنِ عباس في قوله تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا» قال: العلماءُ زينةُ الأرض^(٦). وقالت فرقة: أراد النَّعم والملابس والثَّمار والخُضرة والمياه، ونحو هذا مما فيه زينة، ولم يدخل فيه الجبالُ الصُّمُّ، وكلُّ ما لا زينة فيه كالحياتِ والعقارب. والقول بالعموم أولى، وأنَّ كلَّ ما على الأرض فيه زينةٌ من جهة خَلْقِهِ وصنْعِهِ وإحكامه^(٧). والآيةُ

(١) معاني القرآن للزجاج ٢٦٨/٣، وينظر ما تقدم أول السورة ص ٢٠٠.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤٤٨/٢.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٢٦٨/٣ - ٢٦٩.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤٤٨/٢.

(٥) المحرر الوجيز ٤٩٦/٣.

(٦) ينظر زاد المسير ١٠٥/٥ - ١٠٦.

(٧) المحرر الوجيز ٤٩٦/٣ - ٤٩٧.

بَسْطُ فِي التَّسْلِيَةِ، أَي: لَا تَهْتَمَّ يَا مُحَمَّدُ لِلدُّنْيَا وَأَهْلِهَا؛ فَإِنَّمَا جَعَلْنَا ذَلِكَ امْتِحَانًا
وَإِخْتِبَارًا لِأَهْلِهَا، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَدَبَّرُ وَيُؤْمِنُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْفُرُ، ثُمَّ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ، فَلَا يَعْظُمَنَّ عَلَيْكَ كُفْرُهُمْ، فَإِنَّا نُجَازِيهِمْ.

الثانية: معنى هذه الآية ينظر إلى قول النبي ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلُوءَةٌ، وَاللَّهُ
مُسْتَخْلَفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ». وقوله ﷺ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا
يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا» قالوا: وما زهرة الدنيا؟ قال: «بَرَكَاتُ الْأَرْضِ»
خَرَّجَهُمَا مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ^(١). والمعنى: أَنَّ الدُّنْيَا مُسْتَطَابَةٌ
فِي ذَوِقِهَا، مُعْجِبَةٌ فِي مَنْظَرِهَا، كَالثَّمَرِ الْمُسْتَحْلَى^(٢) الْمُعْجِبِ الْمَرَأَى^(٣)، فَابْتَلَى اللَّهُ
بِهَا عِبَادَهُ؛ لِيَنْظُرَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. أَي: مَنْ أَزْهَدُ فِيهَا وَأَتْرَكَ لَهَا، وَلَا سَبِيلَ لِلْعِبَادِ
إِلَى مَعْصِيَةِ مَا زَيَّنَهُ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَعِينَهُ عَلَى ذَلِكَ. ولهذا كَانَ عَمْرُو يَقُولُ فِيمَا ذَكَرَ
الْبُخَارِيُّ^(٤): «اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ نَفْرَحَ بِمَا زَيَّنْتَهُ لَنَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ أَنْفِقَهُ
فِي حَقِّهِ. فَدَعَا اللَّهَ أَنْ يَعِينَهُ عَلَى إِتْفَاقِهِ فِي حَقِّهِ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:
«فَمَنْ أَخَذَهُ بِطَيْبِ نَفْسٍ، بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ، كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا
يَشْبَعُ»^(٥). وَهَكَذَا هُوَ الْمَكْثَرُ مِنَ الدُّنْيَا لَا يَقْنَعُ بِمَا يَحْصِلُ لَهُ مِنْهَا، بَلْ هَمَّتْ جَمْعُهَا؛
وَذَلِكَ لِعَدَمِ الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ مَعَهَا حَاصِلَةٌ، وَعَدَمُ السَّلَامَةِ
غَالِبَةٌ، وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كِفَافًا، وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ.

وقال ابنُ عطية^(٦): كَانَ أَبِي ﷺ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: «أَحْسَنُ عَمَلًا»: أَحْسَنُ الْعَمَلِ

(١) صحيح مسلم (٢٧٤٢) و(١٠٥٢): (١٢٢) على الترتيب، والأول أخرجه أيضاً أحمد (١١١٤٣)،
والترمذي (٢١٩١)، وابن ماجه (٤٠٠٠)، والثاني أحمد (١١٠٣٥)، وابن ماجه (٣٩٩٥). وهما عند
البخاري (١٤٦٥) و(٢٨٤٢) بنحوهما.

(٢) في (د) و(ظ): كالتمر المستجلي.

(٣) في (ظ): للرأي. والكلام من المفهم ٣١٢/٧.

(٤) في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: هذا المال خضرة حلوة، قبل حديث (٦٤٤١).

(٥) تقدم آنفاً.

(٦) في المحرر الوجيز ٤٩٧/٣.

أخذُ بحقٍّ، وإنفاقٌ في حقٍّ مع الإيمان، وأداءُ الفرائضِ، واجتنابُ المحارمِ، والإكثارُ من المندوبِ إليه.

قلت: هذا قولٌ حسنٌ، وجيزٌ في ألفاظه، بليغٌ في معناه، وقد جمعه النبي ﷺ في لفظٍ واحد، وهو قوله لسفيان بن عبد الله الثَّقَفِيُّ لما قال: يا رسولَ الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدك - في رواية: غيرك - قال: «قل: آمَنْتُ بالله ثم استقيمتُ» خرَّجه مسلم^(١). وقال سفيان الثَّورِيُّ: «أحسنُ عملاً»: أزهدُهم فيها^(٢). وكذلك قال أبو عصام العسقلاني: «أحسنُ عملاً»: أتركُ لها^(٣).

وقد اختلفت عباراتُ العلماء في الزهد فقال قوم: قَصُرُ الأملِ وليس بأكل الخَشِنِ ولبسِ العَبَاءِ، قاله سفيان الثَّورِيُّ^(٤). قال علماؤنا: وَصَدَقَ ﷺ! فَإِنَّ مَنْ قَصُرَ أَمَلُهُ، لَمْ يَتَأَنَّقْ فِي الْمَطْعُمَاتِ، وَلَا يَتَفَتَّنَ فِي الْمَلْبُوسَاتِ، وَأَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا مَا تيسَّرَ، وَاجْتَرَأَ مِنْهَا بِمَا يُبْلَغُ.

وقال قومٌ: بُغْضُ المحمِدةِ وَحُبُّ الشَّاءِ. وهو قول الأوزاعيِّ ومن ذهب إليه.

وقال قومٌ: تَرَكُ الدُّنْيَا كُلِّهَا هو الزهد، أَحَبُّ تَرَكِهَا أم كَرِهَ. وهو قول فضيل. وعن بشر بن الحارث قال: حُبُّ الدُّنْيَا: حُبُّ لِقَاءِ النَّاسِ، وَالزَّهْدُ فِي الدُّنْيَا: الزَّهْدُ فِي لِقَاءِ النَّاسِ. وعن الفضيل أيضاً: علامةُ الزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا الزَّهْدُ فِي النَّاسِ. وقال قومٌ: لَا يَكُونُ الزَّاهِدُ زَاهِداً حَتَّى يَكُونَ تَرَكُ الدُّنْيَا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَخْذِهَا، قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ^(٥). وقال قومٌ: الزَّهْدُ: أَنْ تَزْهَدَ فِي الدُّنْيَا بِقَلْبِكَ، قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: الزَّهْدُ: حُبُّ الْمَوْتِ^(٦). والقول الأوَّلُ يعمُّ هذه الأقوالَ بالمعنى، فهو أولى.

(١) برقم (٣٨)، وهو عند أحمد (١٥٤١٦).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٤٥ (١٢٧٠٧).

(٣) أخرجه الطبري ١٥٢/١٥.

(٤) الرسالة القشيرية ١٦٦/٢ - ١٦٨.

(٥) أخرجه عنه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٩/٨.

(٦) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٣٠٦.

قوله تعالى: ﴿وَيَا لَجَعَلُون مَّا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ﴿٨﴾

تقدّم بيانه^(١). وقال أبو سهل: تراباً لا نبات به، كأنه قُطع نباته. والجُرز: القَطع، ومنه سنة جُرُز. قال الرازي:

قد جَرَفْتَهُنَّ السُّنُونُ الْأَجْرَازَ^(٢)

والأَرْضُ الْجُرُزُ: التي لا نبات فيها ولا شيء من عمارة وغيرها، كأنه قُطِعَ وأزيل. يعني: يوم القيامة، فإنَّ الأرض تكون مستوية لا مستتر فيها^(٣). النحاس^(٤): والجُرُزُ في اللغة: الأرض التي لا نبات بها. قال الكسائي: يقال: جُرِزَتِ الأرضُ تَجْرُز، وجرزها القوم يَجْرُزونها: إذا أكلوا كلَّ ما جاء فيها من النبات والزرع، فهي مَجْرُوزة وجُرُز^(٥).

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيِّمِ كَانُوا مِنَّا يَئِينَ عَجَبًا﴾ ﴿٩﴾

مذهب سيبويه أنَّ «أَمْ» إذا جاءت دون أن يتقدّمها ألفٌ استفهامٌ أنها بمعنى «بل» وألف الاستفهام، وهي المنقطعة. وقيل: «أَمْ» عطف على معنى الاستفهام في «لعلك»، أو بمعنى ألف الاستفهام على الإنكار. قال الطبري: وهو تقرير للنبي ﷺ على حسابه أنَّ أصحاب الكهف كانوا عجباً، بمعنى إنكار ذلك عليه، أي: لا يعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة، فإنَّ سائر آيات الله أعظم من قصّتهم وأشيع، هذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن إسحاق^(٦). والخطاب

(١) في بداية هذه السورة.

(٢) أورده أبو عبيدة في مجاز القرآن ٣/ ٣٩٤، والطبري ١٥/ ١٥٤، والجوهري في الصحاح (جرز) ولم ينسبه.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧، والتعريف والإعلام ص ١٠٠، وزاد المسير ٥/ ١٠٦ - ١٠٧.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢١٦، والجرز فيها أربع لغات كما في الصحاح (جرز).

(٥) ينظر تهذيب اللغة ١٠/ ٦٠٧.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧، وينظر الكتاب لسيبويه ٣/ ١٧٢ - ١٧٨، وتفسير الطبري ١٥/ ١٥٥ - ١٥٦، وتفسير مجاهد ١/ ٣٧٣.

لِلنَّبِيِّ ﷺ، وذلك أَنَّ المشركين سألوه عن فِتْنَةٍ فُقدوا، وعن ذي القرنين، وعن الروح، وأبطأ الْوَحْيُ على ما تقدَّم^(١). فلما نزل قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: أَحَسِبْتَ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا، أي: ليسوا بِعَجَبٍ مِنْ آيَاتِنَا، بل فِي آيَاتِنَا مَا هُوَ أَعْجَبُ مِنْ خَبَرِهِمْ^(٢). الْكَلْبِيُّ: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَعْجَبُ مِنْ خَبَرِهِمْ. الضَّحَاكُ: مَا أَطْلَعْتُكَ عَلَيْهِ مِنَ الْغَيْبِ أَعْجَبُ. الْجُنَيْدُ: شَأْنُكَ فِي الْإِسْرَاءِ أَعْجَبُ. الْمَاورِدِيُّ: مَعْنَى الْكَلَامِ الْغَيْبِيِّ، أي: مَا حَسِبْتَ لَوْلَا إِخْبَارُنَا^(٣). أَبُو سَهْلٍ: اسْتَفْهَمُ تَقْرِيرٍ، أي: أَحَسِبْتَ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ عَجَبٌ.

وَالْكَهْفُ: النَّقْبُ الْمَتَّسِعُ فِي الْجَبَلِ، وَمَا لَمْ يَتَّسِعْ مِنْهَا فَهُوَ غَارٌ. وَحَكَى النَّقَاشُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: الْكَهْفُ: الْجَبَلُ، وَهَذَا غَيْرُ شَهِيرٍ فِي اللُّغَةِ^(٤).

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الرَّقِيمِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ أَعْلَمَهُ إِلَّا أَرْبَعَةً: غَسْلِينَ وَحَنَانَ وَالْأَوَّاهَ وَالرَّقِيمَ^(٥). وَسُئِلَ مَرَّةً عَنِ الرَّقِيمِ فَقَالَ: زَعَمَ كَعْبٌ أَنَّهَا قَرْيَةٌ خَرَجُوا مِنْهَا^(٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الرَّقِيمُ: وَادٍ^(٧). وَقَالَ السُّدِّيُّ: الرَّقِيمُ: الصَّخْرَةُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى الْكَهْفِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الرَّقِيمُ: [كِتَابٌ غَمَّ اللَّهُ عَلَيْنَا أَمْرَهُ، وَلَمْ يَشْرَحْ لَنَا قِصَّتَهُ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: الرَّقِيمُ]^(٨): كِتَابٌ فِي لَوْحٍ مِنْ نُحَاسٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي لَوْحٍ مِنْ رِصَاصٍ كُتِبَ فِيهِ الْقَوْمُ الْكَفَّارُ - الَّذِينَ فَرَّ الْفِتْنَةَ مِنْهُمْ - قِصَّتَهُمْ وَجَعَلُوهَا

(١) فِي أَوَّلِ السُّورَةِ.

(٢) يَنْظُرُ النَّكَتَ وَالْعَيُونَ ٢٨٧/٣، وَالْوَسِيطَ ١٣٧/٣، وَتَفْسِيرَ الْبَغْوِيِّ ١٤٥/٣، وَزَادَ الْمَسِيرَ ١٠٨/٥.

(٣) النَّكَتَ وَالْعَيُونَ ٢٨٧/٣.

(٤) الْمَحْرُورُ الْوَجِيزَ ٤٩٧/٣، وَفِيهِ: وَحَكَى النُّحَاسَ، بَدَلُ: وَحَكَى النَّقَاشَ.

(٥) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي التَّفْسِيرِ ٣٩٧/١، وَذَكَرَهُ أَبُو الْلَيْثِ فِي التَّفْسِيرِ ٢٨٩/٢ - ٢٩٠، وَابْنُ عَطِيَّةٍ فِي الْمَحْرُورِ الْوَجِيزَ ٤٩٨/٣ بِنَحْوِهِ.

(٦) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي التَّفْسِيرِ ٣٩٧/١، وَالطَّبْرِيُّ ١٥٨/١٥.

(٧) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي التَّفْسِيرِ ٣٩٦/١ - ٣٩٧، وَالطَّبْرِيُّ ١٥٨/١٥.

(٨) مَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ لَيْسَ فِي (ظ).

تاريخاً لهم، ذكروا وقتَ فَقْدِهِمْ، وكم كانوا، وبين من كانوا^(١). وكذا قال الفراء، قال: الرقيم: لوحٌ من رصاص، كُتِبَ فيه أسماءُهم وأنسابُهم ودينُهم وممَّنْ هربوا^(٢). قال ابنُ عطية^(٣): ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوماً مؤرخين للحوادث، وذلك من نبل المملكة، وهو أمرٌ مفيدٌ. وهذه الأقوال مأخوذة من الرِّقْم، ومنه: ﴿يَكْتُبُ مَرْقُومًا﴾ [المطففين: ٢٠] ومنه الأرقم؛ لتخطيطه. ومنه رَقْمَةُ الوادي، أي: مكان جري الماء وانعطافه.

وما روي عن ابن عباس ليس بمتناقض؛ لأنَّ القولَ الأوَّلَ إنما سمعه من كعب. والقول الثاني يجوز أن يكون عَرَفَ الرقيمَ بعده. وروى عنه سعيد بن جبيرة قال: ذكر ابن عباس أصحابَ الكهف فقال: إنَّ الفتيةَ فُقِدُوا، فطلبهم أهلُهم فلم يجدوهم، فرفع ذلك إلى الملك فقال: ليكوننَّ لهم نَبَأٌ، وأحضر لوحاً من رصاصٍ فكتب فيه أسماءَهم وجعله في خزانته، فذلك اللوح هو الرقيم^(٤).

وقيل: إنَّ مؤمنين كانا في بيت الملك فكتبا شأنَ الفتية وأسماءَهم وأنسابَهم في لوح من رصاص، ثم جعلاه في تابوتٍ من نحاس وجعلاه في البنيان، فإله أعلم^(٥). وعن ابن عباس أيضاً: الرقيم: كتابٌ مرقومٌ كان عندهم فيه الشَّرْعُ الذي تمسَّكوا به من دينِ عيسى عليه السلام. وقال النقَّاش عن قتادة: الرقيم: ذراهمهم. وقال أنس بن مالك والشَّعْبِيُّ: الرقيم: كلُّهم. وقال عكرمة: الرقيم: الدَّوَاءُ^(٦). وقيل: الرقيم: اللوح من الذهب تحت الجدار الذي أقامه الخضر. وقيل: الرقيم: أصحابُ الغار

(١) المحرر الوجيز ٤٩٧/٣.

(٢) معاني القرآن ١٣٤/٢.

(٣) في المحرر الوجيز ٤٩٧/٣ - ٤٩٨.

(٤) زاد المسير ١٠٩/٥ بنحوه.

(٥) عرائس المجالس ص ٤٢٦.

(٦) المحرر الوجيز ٤٩٧/٣ - ٤٩٨، وينظر النكت والعيون ٢٨٧/٣، وزاد المسير ١٠٨/٥.

الذي انطبق عليهم، فذكر كل واحد منهم أصلح عمله^(١).

قلت: وفي هذا خبر معروف أخرجه الصحيحان^(٢)، وإليه نحا البخاري. وقال قوم: أخبر الله عن أصحاب الكهف، ولم يُخبر عن أصحاب الرقيم بشيء. وقال الضحاك: الرقيم: بلدة بالرُّوم فيها غارٌ فيه أحدَ وعشرون نفساً، كأنَّهم نيامٌ على هيئة أصحاب الكهف، فعلى هذا هم فتيّة آخرون جرى لهم ما جرى لأصحاب الكهف^(٣). والله أعلم. وقيل: الرقيم: وادٍ دون فلسطين فيه الكهف^(٤)، مأخوذ من رَقْمَة الوادي: وهي موضعُ الماء، يقال: عليك بالرقمة ودع الضفة، ذكره الغزنوي^(٥). قال ابن عطية^(٦): وبالشام - على ما سمعتُ به من ناسٍ كثير - كهف فيه موتى، يزعم مجاوروه أنَّهم أصحاب الكهف، وعليهم مسجدٌ وبناءٌ يسمَّى الرقيم، ومعهم كلبٌ رَمَّة. وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تسمَّى «لَوْشَة» كهفٌ فيه موتى ومعهم كلبٌ رَمَّة، وأكثرهم قد تجرَّد لحمه، وبعضهم متماسك، وقد مضت القرون السالفة، ولم نجد من علم شأنهم أثارة، ويزعم ناسٌ أنَّهم أصحاب الكهف، دخلت إليهم ورأيتهم سنة أربع وخمس مئة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجدٌ، وقربٌ منهم بناء رومي يسمَّى الرقيم، كأنَّه قَصْرٌ مُخْلِيق قد بقي بعض جدرانها، وهو في فلاةٍ من الأرض خربة،

(١) أخرج أحمد (١٨٤١٧)، والطبراني في الأحاديث الطوال (٤١)، وفي الأوسط (٢٣٢٨)، وأبو نعيم في الحلية ٧٩/٨ عن النعمان بن بشير أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن الرقيم: أن ثلاثة نفر دخلوا في كهف فوق قطعة من الجبل على باب الكهف فأوَّصد عليهم... الحديث. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٤٠/٨: رواه أحمد والطبراني في الأوسط والكبير، والبخاري بنحوه من طرق، ورجال أحمد ثقات.

(٢) أخرج البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم... الحديث.

(٣) النكت والعيون ٢٨٧/٣، والمحرم الوجيز ٤٩٨/٣ بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري ١٥٧/١٥ - ١٥٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وينظر عرائس المجالس ص ٤١٥ - ٤١٦.

(٥) تفسير الطبري ١٦١/١٥، والمحرم الوجيز ٤٩٨/٣ بنحوه.

(٦) في المحرم الوجيز ٥١١/٣.

وبأعلى غرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها: مدينة دقيوس، وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها.

قلت: ما ذكر من رؤيته لهم بالأندلس فإنما هم غيرهم؛ لأن الله تعالى يقول في حق أصحاب الكهف: ﴿لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِثْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾. وقال ابن عباس لمعاوية لما أراد رؤيتهم: قد منع الله من هو خير منك عن ذلك، وسيأتي في آخر القصة^(١).

وقال مجاهد في قوله: «كانوا من آياتنا عجبا» قال: هم عجب. كذا روى ابن جريج عنه، يذهب إلى أنه ليس بإنكار على النبي ﷺ أن يكون عنده أنهم عجب. وروى ابن نجيب عنه قال: يقول ليس بأعجب آياتنا^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ ﴿١٥﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ روي أنهم قوم من أبناء أشراف مدينة دقيوس الملك الكافر، ويقال فيه: دقيوس. وروي أنهم كانوا مطوقين مسورين بالذهب ذوي ذوائب، وهم من الروم واتباعوا دين عيسى. وقيل: كانوا قبل عيسى، والله أعلم^(٣).

وقال ابن عباس: إن ملكاً من الملوك - يقال له: دقيانوس - ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لها: أفسوس. وقيل هي: طرسوس، وكان بعد زمن عيسى عليه السلام فأمر بعبادة الأصنام، فدعا أهلها إلى عبادة الأصنام، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله سراً، فرفع خبرهم إلى الملك وخافوه، فهربوا ليلاً، ومروا براح معه كلب

(١) عند تفسير الآية (٢٧) من هذه السورة، وتخريج كلام ابن عباس هناك.

(٢) أخرجه الطبري ١٥٥/١٥ - ١٥٦، وهو في تفسير مجاهد ٣٧٣/١.

(٣) المحرر الوجيز ٤٩٨/٣.

فَتَّبِعَهُمْ، فَأَوَّزُوا إِلَى الْكَهْفِ، فَتَّبِعَهُمُ الْمَلِكُ إِلَى قَمِ الْغَارِ، فَوَجَدَ أَثَرَ دُخُولِهِمْ وَلَمْ يَجِدْ أَثَرَ خُرُوجِهِمْ، فَدَخَلُوا فَأَعْمَى اللَّهُ أَبْصَارَهُمْ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئاً، فَقَالَ الْمَلِكُ: سُدُّوا عَلَيْهِمْ بَابَ الْغَارِ حَتَّى يَمُوتُوا فِيهِ جَوْعاً وَعَطْشاً^(١).

وروى مجاهد عن ابن عباس أيضاً أَنَّ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةَ كَانُوا فِي دِينِ مَلِكٍ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَيَذْبَحُ لَهَا وَيَكْفُرُ بِاللَّهِ، وَقَدْ تَابَعَهُ عَلَى ذَلِكَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، فَوَقَعَ لِلْفِتْيَةِ عِلْمٌ مِنْ بَعْضِ الْحَوَارِيِّينَ - حَسْبَمَا ذَكَرَ النَّقَّاشُ، أَوْ: مِنْ مُؤْمِنِي الْأُمَمِ قَبْلَهُمْ - فَأَمَّنُوا بِاللَّهِ وَرَأَوْا بِبَصَائِرِهِمْ قَبِيحَ فِعْلِ النَّاسِ، فَأَخَذُوا نَفُوسَهُمْ بِالتَّزَامِ الدِّينِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ، فَرُفِعَ أَمْرُهُمْ إِلَى الْمَلِكِ، وَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ قَدْ فَارَقُوا دِينَكَ وَاسْتَخَفُّوا آلِهَتَكَ وَكَفَرُوا بِهَا، فَاسْتَحْضَرَهُمُ الْمَلِكُ إِلَى مَجْلِسِهِ، وَأَمْرَهُمْ بِاتِّبَاعِ دِينِهِ وَالذَّبْحِ لِآلِهَتِهِ، وَتَوَعَّدَهُمْ عَلَى فِرَاقِ ذَلِكَ بِالْقَتْلِ، فَقَالُوا لَهُ فِيمَا رَوَى: ﴿رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَعَزَّزْنَاهُمْ﴾. وَرَوَى أَنَّهُمْ قَالُوا نَحْوَ هَذَا الْكَلَامِ وَلَيْسَ بِهِ، فَقَالَ لَهُمُ الْمَلِكُ: إِنَّكُمْ شَبَابٌ أَغْمَارٌ لَا عَقُولَ لَكُمْ، وَأَنَا لَا أَعْجَلُ بِكُمْ بَلْ أَسْتَأْنِي، فَادْهَبُوا إِلَى مَنَازِلِكُمْ وَدَبِّرُوا رَأْيَكُمْ وَارْجِعُوا إِلَى أَمْرِي، وَضَرَبَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ أَجْلاً، ثُمَّ إِنَّهُ سَافَرَ خِلَالَ الْأَجْلِ، فَتَشَاوَرَ الْفِتْيَةُ فِي الْهَرُوبِ بِأَدْيَانِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ أَحَدُهُمْ: إِنِّي أَعْرِفُ كَهْفاً فِي جَبَلٍ كَذَا، كَانَ أَبِي يُدْخِلُ فِيهِ غَنَمَهُ، فَلْنَذْهَبْ فَلْنَخْتَفِ فِيهِ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ لَنَا، فَخَرَجُوا فِيمَا رَوَى يَلْعَبُونَ بِالصُّوْلُجَانِ وَالْكُرَّةِ، وَهُمْ يَدْحَرُجُونَهَا إِلَى نَحْوِ طَرِيقِهِمْ؛ لَثَلَا يَشْعُرُ النَّاسُ بِهِمْ. وَرَوَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُتَّفِقِينَ^(٢)، فَحَضَرَ عِيْدُ خَرَجُوا إِلَيْهِ، فَركَبُوا فِي جَمَلَةِ النَّاسِ، ثُمَّ أَخَذُوا بِاللَّعْبِ بِالصُّوْلُجَانِ حَتَّى خَلَصُوا بِذَلِكَ^(٣).

وروى وهبُ بْنُ مَنْبِهٍ أَنَّ أَوَّلَ أَمْرِهِمْ إِنَّمَا كَانَ حِوَارِيُّ لَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ جَاءَ إِلَى مَدِينَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ يَرِيدُ دُخُولَهَا، فَأَجَرَ نَفْسَهُ مِنْ صَاحِبِ الْحَمَّامِ وَكَانَ يَعْمَلُ فِيهِ، فَرَأَى صَاحِبُ الْحَمَّامِ فِي أَعْمَالِهِ بَرَكََةً عَظِيمَةً، فَأَلْقَى إِلَيْهِ بِكُلِّ أَمْرِهِ، وَعَرَفَ ذَلِكَ

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩٠ - ٢٩١.

(٢) في (ز) و(م) والمحرم الوجيز: «متفقين».

(٣) المحرم الوجيز ٣/ ٤٩٨.

الرجلَ فتیانٌ من المدينة، فعَرَفَهُمَ اللهُ تعالى، فأَمَنُوا به وَاتَّبَعُوهُ على دينه، واشتهرت خلطُتْهُمُ به، فأَتَى يوماً إلى ذلك الحَمَّامِ وَلَدُ الْمَلِكِ بامرأةٍ أَرَادَ الْخَلْوَةَ بها، فنهاه ذلك الحواريُّ، فانتَهَى، ثم جاء مرَّةً أُخْرَى فنهاه، فشتَّمه، وأمضى عَزْمَهُ في دخول الحَمَّامِ مع الْبَغِيِّ، فدخل فماتا فيه جميعاً، فَأَتَتْهُمُ ذلك الحواريُّ وأَصْحَابُهُ بقتلِهما، ففَرُّوا جميعاً حتى دخلوا الكهفَ^(١). وقيل في خروجهم غير هذا.

وأما الكلبُ فَرُوي أَنَّهُ كان كلبَ صيدٍ لهم، وَرُوي أَنَّهُم وجدوا في طريقهم راعياً له كلبٌ فَاتَّبَعَهُمُ الراعي على رأيهم وذهب الكلبُ معهم، قاله ابن عباس. واسمُ الكلب: حمران، وقيل: قطمير^(٢).

وأما أسماءُ أهل الكهف فأعجميَّةٌ، والسَّنَدُ في معرفتها وإ. والذي ذكره الطبري^(٣) هي هذه: مكسلمينا وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومحسيميلينا ويمليخا، وهو الذي مضى بِالْوَرِقِ إلى المدينة عند بَعْثِهِم مِّن رَقْدَتِهِم، ومرطوس، وكشوطوش، ودينموس، ويطونس، وببيرونس. قال مقاتل: وكان الكلبُ لمكسلمينا، وكان أَسَنَّهُم وصاحبَ غنم.

الثانية: هذه الآية صريحةٌ في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقربات والأصدقاء والأوطان والأموال خوفَ الفتنة وما يلقاهُ الإنسانُ من المحنة. وقد خرج النبي ﷺ فأَرَا بِدِينِهِ، وكذلك أصحابه، وجلس في الغار حسبما تقدَّم في سورة النحل^(٤). وقد نصَّ اللهُ تعالى على ذلك في «براءة» وقد تقدَّم^(٥). وهجروا أوطانَهُم، وتركوا أَرْضَهُم وديارَهُم وأهاليَهُم وأولادَهُم وقرباتهم وإخوانَهُم، رجاءَ السلامة

(١) المحرر الوجيز ٤٩٩/٣، وعرائس المجالس ص ٤٢٣، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٣٩٧/١ - ٣٩٩، والطبري ١٧٥/١٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤٩٩/٣، وينظر المحبَّر ص ٣٥٦، وعرائس المجالس ص ٤١٩.

(٣) في التفسير ١٦٥/١٥ - ١٦٦، وينظر المحبَّر ص ٣٥٦، وعرائس المجالس ص ٤١٩.

(٤) ٤٠٣/١٢ - ٤٠٤، وسلف تخريج الحديث هناك.

(٥) ٢١٠/١٠ وما بعدها.

بالدين والنجاة من فتنة الكافرين. فَسُكِّنَى الجبال ودخول الغيران، والعزلة عن الخلق والانفراد بالخالق، وجواز الفرار من الظالم هي سُنَّة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء. وقد فضّل رسولُ الله ﷺ العزلة، وفضّلها جماعةُ العلماء لا سيما عند ظهور الفتنِ وفساد الناس، وقد نصَّ الله تعالى عليها في كتابه فقال: «فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ»^(١).

قال العلماء: الاعتزالُ عن الناس يكون مرّةً في الجبال والشّعاب، ومرّةً في السواحل والريّاط، ومرّةً في البيوت، وقد جاء في الخبر: «إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكُفّ لسانك». ولم يخصّ موضعاً من مواضع^(٢). وقد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشّرّ وأهله بقلبك وعملك، وإن كنت بين أظهرهم. وقال ابنُ المبارك في تفسير العزلة: أن تكونَ مع القوم فإذا خاضوا في ذكر الله فحُضْ معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت^(٣).

وروى البَغَوِيُّ عن ابنِ عمر عن النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يُخالط الناسَ وَيَصْبِرُ على أذاهم أفضلُ من المؤمن الذي لا يُخالطهم ولا يَصْبِرُ على أذاهم»^(٤). وَرَوَى عن النبي ﷺ قال: «نِعَمَ صوامِعُ المؤمنين بيوثهم» من مراسيل الحسن وغيره^(٥).

(١) التمهيد ٤٤٠/١٧، وينظر العزلة للخطابي ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) التمهيد ٤٤٠/١٧، وأورد الحديث بهذا اللفظ، وأخرجه أحمد (٦٩٨٧)، وأبو داود (٤٣٤٣)، والخطابي في العزلة ص ٦٣ - ٦٤ من حديث عبد الله بن عمرو بنحوه.

(٣) التمهيد ٤٤٦/١٧.

(٤) أبو القاسم البغوي في الجعديات (٧٤٤)، وأبو محمد البغوي في شرح السنة (٣٥٨٥)، وأخرجه أيضاً البخاري في الأدب المفرد (٣٨٨)، والترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢). وحسّن الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٥١٢/١٠ إسناد ابن ماجه، مع أن فيه عبد الواحد بن صالح، وهو مجهول، كما ذكر ذلك ابن حجر في التقریب، وينظر التمهيد ٤٤٦/١٧ - ٤٤٧.

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل ٢٢٧٩/٦ ومن طريقه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٩/٣ من مرسل الحسن، وأخرجه أيضاً ابن عدي مرفوعاً من حديث أنس، وقال: وهذا زاد فيه ابن بنت مطر هذا أنس والنبي ﷺ، وإنما هذا من قول الحسن... وابن بنت مطر هذا أظهر أمراً في الضعف، وأحاديثه عامتها مسروقة سرقها من قوم ثقات ويوصل أحاديثه. اهـ، وهو عند ابن المبارك في زوائد الزهد ص ٤، وابن أبي شيبة ٣٠٩/١٣، والخطابي في العزلة ص ٧٠ - ٧١ عن أبي الدرداء موقوفاً بنحوه، وينظر التمهيد ٤٤٢/١٧.

وقال عقبه بنُ عامر لرسول الله ﷺ: ما النجاة يا رسول الله؟ فقال: «يا عقبه أَمْسِكْ عليك لسانك، وَلَيْسَعَكَ بَيْتُكَ، وابكِ على خطيئتك»^(١). وقال ﷺ: «يأتي على الناس زمانٌ خير مَالِ الرجل المسلم الغنمُ يتبع بها شَعَفَ الجبالِ ومواقع القطر، يَفْرُ بدينه من الفتن». خرَّجه البخاري^(٢).

وذكر عليُّ بنُ سعد، عن الحسن بن واقد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كانت سنة ثمانين ومئة فقد حَلَّتْ لأمّتي العُزْبَةُ والعُزْلَةُ والترهُبُ في رؤوس الجبال»^(٣).

وذكر أيضاً عليُّ بنُ سعد، عن عبد الله بن المبارك، عن مبارك بن فضالة، عن الحسن يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمانٌ لا يَسْلَمُ لذي دينٍ دينه إلا مَنْ فَرَّ بدينه مِنْ شَاهِقٍ إلى شَاهِقٍ، أو حَجَرَ إلى حَجَرٍ، فإذا كان ذلك، لم تُنَلَّ المعيشَةُ إلا بمَعْصِيَةِ الله، فإذا كان ذلك، حَلَّتْ العُزْبَةُ». قالوا: يا رسول الله، كيف تَحِلُّ العُزْبَةُ وأنت تأمرنا بالتزويج؟! قال: «إذا كان ذلك كان فسادُ الرجل على يدي أَوْيّه، فإن لم يكن له أبوان، كان هلاكُه على يدي زوجته، فإن لم تكن له زوجةٌ، كان هلاكُه على يدي ولده، فإن لم يكن له ولدٌ، كان هلاكه على يدي القربات والجيران». قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «يُعَيِّرُونَهُ بِضَيْقِ المعيشة ويكلفونه ما لا يُطِيق، فعند ذلك يُورِدُ نفسَه المواردَ التي يهلك فيها»^(٤).

قلت: أحوالُ الناس في هذا الباب تختلف، فربَّ رجلٍ تكون له قوَّة على سكنى الكهوف والغيران في الجبال، وهي أرفعُ الأحوال؛ لأنَّها الحالة التي اختارها اللهُ لنبيِّه ﷺ في بداية أمره، ونصَّ عليها في كتابه مخبراً عن الفتية، فقال: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾.

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٣٥)، والترمذي (٢٤٠٦)، وابن المبارك في الزهد (١٣٤). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٢) برقم (٣٦٠٠) من حديث أبي سعيد الخدري ؓ، وشَعَفَ الجبال: جمع شَعَفَةٍ، وهي رأس الجبل.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه الخطابي في العزلة ص ٦٦ - ٦٧، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢٥/١، والقزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢١/٢.

وَرُبَّ رَجُلٍ تَكُونُ الْغُرْلَةُ لَهُ فِي بَيْتِهِ أَخْفَتْ عَلَيْهِ وَأَسْهَلَ، وَقَدْ اعْتَزَلَ رَجَالًا مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَلَزِمُوا بَيْوتَهُمْ بَعْدَ قَتْلِ عِثْمَانَ، فَلَمْ يَخْرُجُوا إِلَّا إِلَى قُبُورِهِمْ.

وَرُبَّ رَجُلٍ مَتَوَسِّطٍ بَيْنَهُمَا فَيَكُونُ لَهُ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَصْبِرُ بِهَا عَلَى مَخَالَطَةِ النَّاسِ وَأَذَاهُمْ، فَهُوَ مَعَهُمْ فِي الظَّاهِرِ، وَمَخَالَفٌ لَهُمْ فِي الْبَاطِنِ. وَذَكَرَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: حَدَّثَنَا وَهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى وَهْبِ بْنِ مَنْبَهٍ فَقَالَ: إِنَّ النَّاسَ وَقَعُوا فِيمَا فِيهِ وَقَعُوا! وَقَدْ حَدَّثْتَ نَفْسِي أَلَا أَخَالَظُهُمْ. فَقَالَ: لَا تَفْعَلْ! إِنَّهُ لَا بُدَّ لَكَ مِنَ النَّاسِ، وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْكَ، وَلَكَ إِلَيْهِمْ حَوَائِجٌ، وَلَهُمْ إِلَيْكَ حَوَائِجٌ، وَلَكِنْ كُنْ فِيهِمْ أَصَمًّا سَمِيعًا، أَعْمَى بَصِيرًا، سَكُوتًا نَطُوقًا^(١).

وقد قيل: إِنَّ كُلَّ مَوْضِعٍ يَبْعَدُ عَنِ النَّاسِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي مَعْنَى الْجِبَالِ وَالشُّعَابِ، مِثْلُ الْإِعْتِكَافِ فِي الْمَسَاجِدِ، وَلِزُومِ السَّوَاخِلِ لِلرِّبَاطِ وَالذِّكْرِ، وَلِزُومِ الْبُيُوتِ؛ فِرَارًا عَنْ شُرُورِ النَّاسِ. وَإِنَّمَا جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ بِذِكْرِ الشُّعَابِ وَالْجِبَالِ وَاتِّبَاعِ الْغَنَمِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْأَغْلَبُ فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي يُعْتَزَلُ فِيهَا، فَكُلُّ مَوْضِعٍ يَبْعُدُ عَنِ النَّاسِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي مَعْنَاهُ، كَمَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ وَبِهِ الْعِصْمَةُ^(٢).

وَرَوَى عَقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُعْجَبُ رَبُّكَ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ شِظْيَةِ الْجَبَلِ يُؤَدِّنُ بِالصَّلَاةِ وَيُصَلِّي، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُؤَدِّنُ وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ، يَخَافُ مِنِّي، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي وَأَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ». خَرَّجَهُ النَّسَائِيُّ^(٣).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَهَيَّ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ لَمَّا قَرَأُوا مِمَّنْ يَطْلُبُهُمْ، اسْتَغْلَوْا بِالْأَدْعَاءِ وَلَجَّوْا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحِمَةٌ﴾ أَي: مَغْفِرَةٌ وَرِزْقًا.

(١) التمهيد ٤٤٦/١٧.

(٢) التمهيد ٤٥٠/١٧.

(٣) في المجتبى ٢٠/٢، وفي الكبرى (١٦٤٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٤٤٢)، وأبو داود (١٢٠٣) قال الشوكاني في نيل الأوطار ٣٦/٢: الحديث رجال إسناده ثقات. والشظية: قطعة مرتفعة في رأس الجبل. النهاية (شظي).

﴿وَهَيَّئْ لَنَا^(١) مِنْ أَمْرًا رَشَدًا﴾ توفيقاً للرشاد. وقال ابن عباس: مخرجاً من الغار في سلامة^(٢). وقيل: صواباً. ومن هذا المعنى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا حَزَبَهُ أمرٌ، فَرَعَ إلى الصلاة^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝﴾

عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم. وهذه من فصيحَات القرآن التي أَقَرَّت العربُ بالقصور عن الإتيانِ بمثله. قال الزَّجَّاجُ^(٤): أي: منعناهم عن أن يَسمَعُوا؛ لأنَّ النَّائم إذا سمع انتبه. وقال ابن عباس: ضَرَبْنَا على آذانهم بالنوم، أي: سَدَدْنَا آذَانَهُمْ عن نفوذ الأصوات إليها. وقيل: المعنى «فَضَرَبْنَا على آذانهم» أي: فاستجبنا دعاءهم، وَصَرَفْنَا عنهم شَرَّ قومهم، وَأَمْنَاهُمْ. والمعنى كُلُّه متقارب. وقال قُطْرُب: هذا كقول العرب: ضَرَبَ الأميرُ على يد الرعيَّة؛ إذا منعهم الفساد، وضرب السيّدُ على يد عبده المأذون له في التجارة؛ إذا منعه من التصرُّف. قال الأسود بن يَغْفَرُ وكان ضَرِيرًا: ومن الحوادثِ لا أَبَالُكَ أَنَّنِي ضَرَبْتُ عليَّ الأرضُ بِالْأَسْدَادِ^(٥)

وأما تخصيصُ الآذان بالذكر؛ فلأنَّها الجارحةُ التي منها عظمُ فسادِ النوم، وَقَلَمَّا ينقطع نومُ نائمٍ إلا من جهة أذنه، ولا يُسْتَحْكَمُ نومٌ إلا مع^(٦) تَعَطُّلِ السمع. ومن ذُكِرَ الأذن في النوم قوله ﷺ: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه» خرَّجه الصحيح. أشار عليه الصلاة والسلام إلى رجل طویلِ النوم، لا يقومُ الليل^(٧).

(١) بعدها في (ظ): أي يسر.

(٢) تفسير البغوي ١٥٢/٣.

(٣) سلف ٢٦٢/١.

(٤) في معاني القرآن ٢٧١/٣، وينظر تفسير البغوي ١٥٢/٣، وزاد المسير ١١٤/٥.

(٥) المفضليات ص ٢١٦، والاختيارين ص ٥٥٩، ومنتهى الطلب ٤١٥/١. وضربت عليه الأرضُ بِالْأَسْدَادِ: سُدَّتْ عليه الطرق، وعميت عليه مذاهبه. القاموس (سدد).

(٦) في (م): من.

(٧) المحرر الوجيز ٥٠٠/٣، والحديث أخرجه البخاري (٣٢٧٠)، و مسلم (٧٧٤) من حديث ابن مسعود ؓ.

و﴿عَدَدًا﴾: نعت للسنين، أي: معدودة، والقصد به العبارة عن التكثير؛ لأنَّ القليل لا يحتاج إلى عدد؛ لأنَّه قد عُرف^(١). والعَدُّ: المصدر، والعدد: اسم المعدود، ^(٢)كالتَّقْصُصِ وَالْحَبْطِ^(٢). وقال أبو عبيدة: «عددًا» نصب على المصدر. ثم قال قوم: بيَّن الله تعالى عددَ تلك السنين من بعدُ فقال: ﴿وَلْيَتُوبُوا فِي كَهْفِهِمْ فَلَتْكَ مِائَتَةُ سِنِينَ﴾ وَأَزْدَادُوا قِسْعًا^(٣).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: من بعد نومهم. ويقال لمن أخِيَّ أو أُقِيمَ من نومه: مبعوث؛ لأنَّه كان ممنوعاً من الانبعاث والتصرف.

قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ﴾ «لنعلم» عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ومشاهدته، وهذا على نحو كلام العرب، أي: لنعلم ذلك موجوداً، وإلا فقد كان الله تعالى عَلِمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى الْأَمَدَ. وقرأ الزُّهْرِيُّ «لنعلم»: بالياء^(٣).

والحزبان: الفريقان. والظاهر من الآية أنَّ الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنُّوا لبثهم قليلاً. والحزب الثاني أهل المدينة الذين بُعِثَ الْفِتْيَةُ على عهدهم، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية. وهذا قول الجمهور من المفسرين. وقالت فرقة: هما حزبان من الكافرين، اختلفا في مدة أصحاب الكهف. وقيل: هما حزبان من المؤمنين. وقيل غير ذلك مما لا يرتبط بالفاظ الآية^(٤).

و«أحصى»: فعلٌ ماضٍ. و«أمدًا»: نصب على المفعول به، قاله أبو علي^(٥). وقال

(١) معاني القرآن للفراء ١٣٥/٢، وللزجاج ٢٧١/٣ بنحوه.

(٢-٢) في (د) و(ظ): كالتقصص والخيوط.

(٣) المحرر الوجيز ٥٠٠/٣، وقراءة الزهري في البحر المحيط ١٠٣/٦.

(٤) المحرر الوجيز ٥٠٠/٣.

(٥) المحرر الوجيز ٥٠٠/٣.

الفراء^(١): نصب على التمييز. وقال الزجاج^(٢): نصب على الظرف، أي: أيُّ الحزبين أحصى للبيتهم في الأمد، والأمد: الغاية. وقال مجاهد^(٣): «أمدًا»: معناه عددًا، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب. وقال الطبري^(٤): «أمدًا» منصوب بـ«البثوا». ابن عطية^(٥): وهذا غير مُتَّجِه، وأما من قال: إنه نصب على التفسير، فيلحقه من الاختلال أن «أفعل» لا يكون من فعل رباعيٍّ إلا في الشاذِّ، و«أحصى» فعل رباعي. وقد يحتج له بأن يقال: إن «أفعل» في الرباعي قد كثر، كقولك: ما أعطاه للمال، وآتاه للخير. وقال في صفة حوضه ﷺ: «ماؤه أبيض من اللبن»^(٦). وقال عمر بن الخطاب: فهو لما سواها أضيع^(٧).

قوله تعالى: ﴿تَحْنُ نَفْسُ عَلَيْنِكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾

قوله تعالى: ﴿تَحْنُ نَفْسُ عَلَيْنِكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ لما اقتضى قوله تعالى: «لنعلم أيُّ الحزبين أحصى» اختلافًا وقع في أمدِ الفِتْنَةِ، عَقَّبَ بالخبر عن أنه عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِهِم بِالْحَقِّ الذي وقع.

وقوله تعالى: «إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ» أي: شبابٌ وأحداث حكم لهم بالفتوة حين آمنوا بلا واسطة، كذلك قال أهلُ اللسان: رأسُ الفتوة الإيمان. وقال الجُنَيْد: الفتوة: بَذْلُ النَّدَى وكَفُّ الْأَذَى وَتَرْكُ الشُّكُوى. وقيل: الفتوة: اجْتِنَابُ المحارم واستعجالُ المكارم^(٨).

(١) في معاني القرآن ١٣٦/٢.

(٢) في معاني القرآن ٢٧١/٣.

(٣) في تفسيره ٣٧٤/١.

(٤) في تفسيره ١٧٨/١٥.

(٥) في المحرر الوجيز ٥٠٠/٣.

(٦) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٧) أخرجه مالك في الموطأ ٦/١، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١٩٣/١، والبيهقي في السنن الكبرى ٤٤٥/١ - ٤٤٦.

(٨) ينظر مدارج السالكين ٣٤٢/٢.

وقيل غير هذا. وهذا القول حسن جدًا؛ لأنه يعمُّ بالمعنى جميع ما قيل في الفتوة.

قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ أي: يسرناهم للعمل الصالح، من الانقطاع إلى الله تعالى، ومباعدة الناس، والزهد في الدنيا. وهذه زيادة على الإيمان^(١). وقال السدي: زادهم هدى بكلب الراعي حين طردوه ورجموه مخافة أن ينبح عليهم ويئب بهم، فرفع الكلب يديه إلى السماء كالداعي فأنطقه الله، فقال: يا قوم! لِمَ تطردوني، لم ترحموني! لم تضربوني! فوالله لقد عرفتُ الله قبل أن تعرفوه بأربعين سنة، فزادهم الله بذلك هدى^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ عبارة عن شدة عزم وقوة صبر، أعطاه الله لهم حتى قالوا بين يدي الكفار: «رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا». ولما كان الفزع وخور النفس يُشبه بالتناسب الانحلال، حُسِّنَ في شدة النفس وقوة التصميم أن يُشبه الرِّبْط، ومنه يقال: فلانٌ رابطُ الجأش، إذا كان لا تفرق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها. ومنه الرِّبْط على قلب أم موسى^(٣). وقوله تعالى: ﴿وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] وقد تقدَّم^(٤).

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ فيه مسألان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ يحتمل ثلاثة معان:

أحدها: أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدي الملك الكافر، كما تقدَّم، وهو

(١) المحرر الوجيز ٥٠١/٣.

(٢) عرائس المجالس ص ٤١٩ - ٤٢٠ بنحوه.

(٣) في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لَإِتَّكَفَتْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]، والكلام من المحرر الوجيز ٥٠١/٣.

(٤) ٤٦٦/٩.

مَقَامَ يَحْتَاجُ إِلَى الرِّبْطِ عَلَى الْقَلْبِ حَيْثُ خَالَفُوا دِينَهُ، وَرَفَضُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ هَيْبَتَهُ^(١).

والمعنى الثاني فيما قيل: إِنَّهُمْ أَوْلَادُ عِظَمَاءِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ، فَخَرَجُوا وَاجْتَمَعُوا وَرَاءَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ مِنْ غَيْرِ مِيعَادٍ، فَقَالَ أَسْنُتُهُمْ: إِنِّي أَجِدُ فِي نَفْسِي أَنَّ رَبِّي رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَقَالُوا: وَنَحْنُ كَذَلِكَ نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا. فَقَامُوا جَمِيعاً فَقَالُوا: «رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا»^(٢). أَي: لَنْ نَدْعُوَ إِلَهًا غَيْرَهُ، فَقَدْ قُلْنَا إِذَا جَوْرًا وَمَحَالًا.

والمعنى الثالث: أَنْ يُعَبَّرَ بِالْقِيَامِ عَنْ انْبِعَاطِهِمْ بِالْعَزْمِ إِلَى الْهَرُوبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَمُنَابَذَةِ النَّاسِ، كَمَا تَقُولُ: قَامَ فُلَانٌ إِلَى أَمْرِ كَذَا، إِذَا عَزَمَ عَلَيْهِ بَغَايَةُ الْجِدِّ^(٣).

الثانية: قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ^(٤): تَعَلَّقَتِ الصُّوفِيَّةُ فِي الْقِيَامِ وَالْقَوْلِ بِقَوْلِهِ: «إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

قلت: وَهَذَا تَعَلَّقَ غَيْرُ صَحِيحٍ! هَؤُلَاءِ قَامُوا فَذَكَرُوا اللَّهَ عَلَى هِدَايَتِهِ، وَشَكَرُوا لِمَا أَوْلَاهُمْ مِنْ نِعْمَةٍ وَنِعْمَتِهِ، ثُمَّ هَامُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ مُنْقَطِعِينَ إِلَى رَبِّهِمْ، خَائِفِينَ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الرِّسَالِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْفَضْلَاءِ الْأَوْلِيَاءِ. أَيْنَ هَذَا مِنْ ضَرْبِ الْأَرْضِ بِالْأَقْدَامِ وَالرَّقْصِ بِالْأَكْصَامِ! وَخَاصَّةً فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ عِنْدَ سَمَاعِ الْأَصْوَاتِ الْحَسَانِ مِنَ الْمُرْدِ وَالنِّسْوَانِ، هِيَهَاتَ! بَيْنَهُمَا وَاللَّهُ مَا بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ. ثُمَّ هَذَا حَرَامٌ عِنْدَ جَمَاعَةِ الْعُلَمَاءِ، عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ^(٥)، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي «سَبْحَانَ» عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧] مَا فِيهِ كِفَايَةٌ^(٦). وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ الطَّرْشُوشِيُّ وَسُئِلَ عَنْ مَذْهَبِ الصُّوفِيَّةِ فَقَالَ: وَأَمَّا

(١) المحرر الوجيز ٥٠١/٣.

(٢) زاد المسير ١١٠/٥، وتفسير الرازي ٩٧/٢١ - ٩٨.

(٣) المحرر الوجيز ٥٠١/٣.

(٤) في المحرر الوجيز ٥٠١/٣.

(٥) عند الآية (١٨).

(٦) ص ٨١ فما بعد من هذا الجزء.

الرَّقْصَ والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السَّامِرِيِّ؛ لَمَّا اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار، قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو دينُ الكفارِ وعُباد العجل، على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ أي: قال بعضهم لبعض: هؤلاء قومنا، أي: أهل عصرنا وبلدنا، عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة. ﴿لَوْلَا﴾ أي: هَلَا. ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي: بحجة على عبادتهم الصنم. وقيل: «عليهم» راجع إلى الآلهة، أي: هَلَا أقاموا بينة على الأصنام في كونها آلهة، فقولهم: «لولا» تحضيض بمعنى التعجيز، وإذا لم يمكنهم ذلك، لم يجب أن يلتفت إلى دعواهم^(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوَّاوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهْدِيْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ﴾ قيل: هو من قولِ الله لهم. أي: وإذا اعتزلتموهم فأووا إلى الكهف. وقيل: هو من قولِ رئيسهم يملixa، فيما ذكر ابن عطية^(٢). وقال الغزنوي: رئيسهم مكسلمينا قال لهم ذلك، أي: إذا اعتزلتموهم واعتزلتم ما يعبدون. ثم استثنى وقال ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: إنكم لم تركوا عبادته، فهو استثناء منقطع.

قال ابن عطية^(٣): وهذا على تقدير أن الذين فرَّ أهل الكهف منهم لا يعرفون الله، ولا علم لهم به، وإنما يعتقدون الأصنام في ألوهيتهم فقط. وإن فرضنا أنهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل، لكنهم يشركون أصنامهم معه في العبادة، فالاستثناء متصل؛ لأن الاعتزال وقع في كل ما يعبد الكفار إلا في جهة الله. وفي

(١) المحرر الوجيز ٥٠١/٣.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٤٩٨/٣، وزاد المسير ١١٦/٥.

(٣) في المحرر الوجيز ٥٠١/٣ - ٥٠٢، وقراءة ابن مسعود ذكرها الطبري في التفسير ١٨٢/١٥.

مصحف عبد الله بن مسعود: «وما يعبدون من دون الله». قال قتادة: هذا تفسيرها.

قلت: ويدلُّ على هذا ما ذكره أبو نُعيم الحافظ^(١) عن عطاء الخُراسانيّ في قوله تعالى: «وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله» قال: كان فتيةً من قوم يعبدون الله، ويعبدون معه آلهةً، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة، ولم تعتزل عبادة الله.

ابن عطية^(٢): فعلى ما قال قتادة تكون «إلا» بمنزلة «غير»، و«ما» من قوله: «وما يعبدون إلا الله» في موضع نصب، عطفاً على الضمير في قوله: «اعتزلتموهم». ومُضْمَن هذه الآية أنَّ بعضهم قال لبعض: إذا فارقنا الكفار وانفردنا بالله تعالى، فلنجعل الكهف مأوى ونتكل على الله؛ فإنه سيسيطر لنا رحمته، وينشرها علينا، ويهيئ لنا من أمرنا مِرْفَقاً. وهذا كله دعاء بحسب الدنيا، وعلى ثقة كانوا من الله في أمر آخرتهم. وقال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام: كان أصحاب الكهف صياقلةً. واسم الكهف: حيوم^(٣).

﴿مِرْفَقًا﴾ قرئ بكسر الميم وفتحها، وهو ما يُرتفق به. وكذلك مِرْفَق الإنسان ومِرْفَقه، ومنهم من يجعل: «المِرْفَق» بفتح الميم، الموضع كالمسجد، وهما لغتان^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَرَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّرَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّبُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيْكَانًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّرَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي: ترى

(١) في حلية الأولياء ٥/٢٠٠.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/٥٠٢.

(٣) عرائس المجالس ص ٤٢٠، ٤٢٣ وفيه أن أصحاب الكهف كانوا صيارفة، وأن اسم الكهف كان الوصيد، وقيل: خيرم.

(٤) قرأ نافع وابن عامر: بفتح الميم وكسر الفاء، وقرأ الباقر: بكسر الميم وفتح الفاء. السبعة ص ٣٨٨، والتيسير ص ١٤٢، وينظر معاني القرآن للنحاس ٢/٢٢٤.

أَيُّهَا الْمَخَاطَبُ الشَّمْسَ عِنْدَ طُلُوعِهَا تَمِيلُ عَنْ كَهْفِهِمْ. وَالْمَعْنَى: إِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَهُمْ لَرَأَيْتَهُمْ كَذَا، لَا أَنَّ الْمَخَاطَبَ رَأَاهُمْ عَلَى التَّحْقِيقِ^(١).

و«تزاور»: تَتَنَحَّى وَتَمِيلُ، مِنَ الْاِزْوَارِ. وَالزَّوَرُ: الْمَيْلُ. وَالْأَزُورُ فِي الْعَيْنِ: الْمَائِلُ النَّظَرُ إِلَى نَاحِيَةٍ، وَيَسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ الْعَيْنِ، كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي رَيْعَةَ^(٢):

... وَجَنَّبِي خِيفَةَ الْقَوْمِ أَزُورُ

مِنَ اللَّفْظَةِ قَوْلِ عَتْرَةَ^(٣):

فَازُورٌ مَن وَقَعَ الْقَنَا بِلَبَّانِهِ

وَفِي حَدِيثٍ غَزْوَةُ مُؤْتَةً أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى فِي^(٤) سُرِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ اِزْوَرَارًا عَنْ سُرِيرِ جَعْفَرٍ وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ^(٥).

وَقَرَأَ أَهْلُ الْحَرَمَيْنِ وَأَبُو عَمْرٍو: «تَزَاوَرُ» بِإِذْغَامِ التَّاءِ فِي الزَّايِ، وَالْأَصْلُ: «تَتَزَاوَرُ». وَقَرَأَ عَاصِمٌ وَحُمَازَةُ وَالْكَسَائِيُّ: «تَزَاوَرُ» مَخْفَفَةً الزَّايِ. وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ «تَزَوَرُ» مِثْلَ تَحْمَرُ^(٦). وَحَكَى الْفَرَّاءُ^(٧) «تَزَوَارُ» مِثْلَ تَحْمَارُ، كُلُّهَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ.

﴿وَإِذَا عَزَمْتَ تَقَرِّضُهُمْ﴾ قَرَأَ الْجُمْهُورُ بِالتَّاءِ، عَلَى مَعْنَى: تَتْرَكُهُمْ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ^(٨).

(١) تفسیر الرازي ٩٩/٢١ .

(٢) في ديوانه ص ٦٥ ، والبيت بتمامه فيه :

وَحُفِّضَ عَنِي الصَّوْتُ أَقْبَلْتُ مَشِيَةَ الْـ حَبَابِ وَشَخْصِي خَشِيَةَ الْحَيِّ أَزُورِ

(٣) في ديوانه ص ٣٠ ، وتمامه : وشكا إليّ بعبرة وتجمحم

(٤) بعدها في (ظ): الجنة.

(٥) المحرر الوجيز ٥٠٢/٣ - ٥٠٣ ، والخبر أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣٦٨/٤ ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٥٩/٦ - ١٦٠ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات. وأورده ابن هشام في السيرة النبوية ٣٨٠/٢ .

(٦) السبعة ص ٣٨٨ ، والتيسير ص ١٤٢ .

(٧) في معاني القرآن ١٣٦/٢ .

(٨) في تفسيره ٣٧٤/١ .

وقال قتادة: تَدْعُهُمْ^(١). النَّحَّاسُ: وهذا معروف في اللغة، حكى البصريون أنه يقال: قرضه يقرضه: إذا تركه، والمعنى: أنهم كانوا لا تُصيبهم شمسُ ألبته؛ كرامةً لهم، وهو قول ابن عباس^(٢).

يعني أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين، أي: يمين الكهف، وإذا غربت تمرُّ بهم ذات الشمال، أي: شمال الكهف، فلا تصيبهم في ابتداء النهار ولا في آخر النهار. وكان كهفهم مستقيلَ بنات نَعَشٍ في أرض الروم، فكانت الشمس تميل عنهم طالعةً وغاربةً وجاريةً لا تبلغهم لتؤذيهم بحرّها، وتغيّر ألوانهم، وتُبلي ثيابهم^(٣). وقد قيل: إنه كان لكهفهم حاجبٌ من جهة الجنوب، وحاجبٌ من جهة الدُّبُور وهم في زاويته. وذهب الزجاج^(٤) إلى أن فَعَلَ الشمس كان آيةً من الله، دون أن يكون بابُ الكهف إلى جهة تُوجِبُ ذلك.

وقرأت فرقة: «يقرضهم» بالياء، من القَرْضِ وهو القَطْع، أي: يقطعهم الكهف بظله من ضوء الشمس^(٥).

وقيل: «وإذا غربت تقرضهم» أي: يصيبهم يسيرٌ منها، مأخوذ من قُرَاضة الذهب والفضة، أي: تعطيم الشمس اليسير من شعاعها. وقالوا: كان في مَسْهَا لهم بالعشي؛ إصلاح لأجسادهم. وعلى الجملة فالآية في ذلك أن الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفته لا إلى كهف آخر يتأذون فيه بانسباط الشمس عليهم في معظم النهار. وعلى هذا فيمكن أن يكون صَرَفُ الشمس عنهم بإظلالٍ غمامٍ أو سببٍ آخر. والمقصود بيانُ حِفْظهم عن تطرُّق البلاء وتغيّر الأبدان والألوان إليهم، والتأذي بحرّاً أو برّاً.

(١) أخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٤٠٠/١، والطبري ١٨٨/١٥.

(٢) المحرر الوجيز ٥٠٣/٣.

(٣) الوسيط ١٣٩/٣.

(٤) في معاني القرآن ٢٧٤/٣.

(٥) المحرر الوجيز ٥٠٣/٣، وينظر البحر المحيط ١٠٨/٦.

﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أي: من الكهف. والفَجْوَةُ: المتَّسع، وجمعها فَجَوَات وفِجَاء^(١)، مثل رَكْوَةٍ وركاء وركَّوات. وقال الشاعر:

ونحن مَلَأْنَا كُلَّ وادٍ وفَجْوَةٍ رجالاً وخيلاً غيرَ ميلٍ ولا عُزْلٍ^(٢)
أي: كانوا بحيث يصيبهم نسيمُ الهواء.

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ لطف بهم، وهذا يقوِّي قولَ الرِّجَّاج. وقال أهل التفسير: كانت أعينهم مفتوحةً وهم نائمون، فكذلك كان الرائي يحسبهم أيقاظاً^(٣). وقيل: تحسبهم أيقاظاً؛ لكثرة تقلُّبهم كالمستيقظ في مضجعه^(٤). و﴿أَيْقَظَا﴾ جمع يَقِظ وَيَقْظَان، وهو المتنبه^(٥).

﴿وَهُمْ رُفُودٌ﴾ كقولهم: وهم قومٌ ركوع وسجود وقعود، فوصف الجمع بالمصدر. ﴿وَنُقِلُّهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قال ابن عباس: لثلاً تأكل الأرض لحومهم^(٦). قال أبو هريرة: كان لهم في كل عام تقلبتان. وقيل: في كل سنة مرة^(٧). وقال مجاهد: في كل سبع سنين مرة. وقالت فرقة: إنما قُلِّبُوا في التسع الأواخر، وأما في الثلاث مئة فلا^(٨). وظاهر كلام المفسرين أنَّ التقليبَ كان من فعل الله، ويجوز أن يكون من مَلَّكَ بأمر الله، فيضاف إلى الله تعالى.

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٩٦/١.

(٢) النكت والعيون ٢٩١/٣.

(٣) المحرر الوجيز ٥٠٣/٣.

(٤) تفسير أبي الليث ٢٩٤/٢.

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٤٦٢/١، ومعاني القرآن للأخفش ٦١٧/٢.

(٦) أخرجه عنه الطبري ١٨٦/١٥، ١٩١.

(٧) تفسير البغوي ١٥٤/٣، وتفسير الرازي ١٠١/٢١.

(٨) المحرر الوجيز ٥٠٤/٣، ولم ينسب القول الأول إلى مجاهد، بل إلى فرقة أيضاً، والذي ورد في المصادر أن القول الثاني - وهو إنما قُلِّبُوا في التسع الأواخر - هو قول مجاهد، ينظر تفسير أبي الليث ٢٩٣/٢، والنكت والعيون ٢٩١/٣، وزاد المسير ١١٨/٥.

قوله تعالى: ﴿وَكَلَبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَلَبُهُمْ﴾ قال عمرو بن دينار: إنَّ ممَّا أُخِذَ على العقرب ألا تضرَّ أحداً قال في ليله أو في نهاره: صلى الله على نوح^(١). وإنَّ ممَّا أُخِذَ على الكلب ألا يضرَّ من حَمَلَ عليه إذا قال: وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد^(٢).

أكثر المفسرين على أنَّه كلب حقيقة، وكان لصيد أحدهم أو لزرعه أو غنمه، على ما قال مقاتل. واختلف في لونه اختلافاً كثيراً، ذكره الثعلبي^(٣). تحصيله: أي لون ذكرت أصبَتْ، حتى قيل: لون الحجر، وقيل: لون السماء. واختلف أيضاً في اسمه، فعن عليّ: رِيَّان. ابن عباس: قطمير. الأوزاعي: مشير. عبد الله بن سلام: بسيط^(٤). كعب: صهيا. وهب: نقيا. وقيل: قطمير، ذكره الثعلبي.

وكان اقتناء الكلب جائزاً في وقتهم، كما هو عندنا اليوم جائز في شرعنا. وقال ابن عباس: هربوا ليلاً، وكانوا سبعة، فمروا براعٍ معه كلب فاتَّبَعَهُمْ على دينهم. وقال كعب: مروا بكلب فنبج لهم، فطردوه مراراً، فقام الكلب على رجله ورفع يديه إلى السماء كهيئة الداعي، فنطق فقال: لا تخافوا مني! أنا أحبُّ أحبَّاء الله تعالى، فناموا حتى أحرسكم^(٥).

الثانية: ورد في الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من اقتنى كلباً إلا كلبَ صيد أو ماشية، نقص من أجره كلَّ يوم قيراطان»^(٦). وروى الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتخذ كلباً إلا كلبَ ماشية أو صيد أو زرع، انتُقِصَ من أجره كلَّ يوم قيراط». قال الزهري: وذكر لابن عمر قولُ أبي هريرة فقال:

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٢/٤٤٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٢/٢٥٦، من حديث أبي أمامة مرفوعاً، وأخرجه الأصبهاني في طبقات المحدثين ٣/٤٠٤ من قول الحسن عليه السلام.

(٢) ينظر حياة الحيوان للدميمري ٢/٣٠٤.

(٣) في عرائس المجالس ص ٤١٩.

(٤) في عرائس المجالس: بطيط.

(٥) الوسيط ٣/١٣٩، وعرائس المجالس ص ٤٢٥، وتفسير الرازي ٢١/١٠١.

(٦) سلف ٧/٣١٢.

يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا هُرَيْرَةَ! كَانَ صَاحِبَ زَرْعٍ^(١). فَقَدْ دَلَّتِ السُّنَّةُ الثَّابِتَةُ عَلَى اقْتِنَاءِ الْكَلْبِ لِلصَّيْدِ وَالزَّرْعِ وَالْمَاشِيَةِ. وَجَعَلَ النِّقْصُ فِي أَجْرِ مَنْ اقْتَنَاهَا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمُنْفَعَةِ، إِمَّا لِتَرْوِيعِ الْكَلْبِ الْمُسْلِمِينَ وَتَشْوِيشِهِ عَلَيْهِمْ بِنَبَاحِهِ، أَوْ لَمَنْعِ دُخُولِ الْمَلَائِكَةِ الْبَيْتِ، أَوْ لِنَجَاسَتِهِ، عَلَى مَا يَرَاهُ الشَّافِعِيُّ، أَوْ لِاقْتِحَامِ النَّهْيِ عَنْ اتِّخَاذِ مَا لَا مَنفَعَةَ فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ فِي إِحْدَى الرَّوَايَتَيْنِ: «قِيرَاطَانِ»، وَفِي الْأُخْرَى: «قِيرَاطٌ». وَذَلِكَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي نَوْعَيْنِ مِنَ الْكِلَابِ أَحَدُهُمَا أَشَدُّ أَذَى مِنَ الْآخَرِ، كَالْأَسْوَدِ الَّذِي أَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقَتْلِهِ، وَلَمْ يُدْخِلْهُ فِي الْإِسْتِثْنَاءِ حِينَ نَهَى عَنْ قَتْلِهَا، كَمَا هُوَ مَنْصُوصٌ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ، أَخْرَجَهُ الصَّحِيحُ، وَقَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالْأَسْوَدِ الْبَهِيمِ ذِي النُّقْطَتَيْنِ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ»^(٢). وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ؛ لِاخْتِلَافِ الْمَوَاضِعِ، فَيَكُونُ مُمْسِكُهُ بِالْمَدِينَةِ مَثَلًا أَوْ بِمَكَّةَ يَنْقُصُ قِيرَاطَانِ، وَبِغَيْرِهَا قِيرَاطٌ. وَأَمَّا الْمَبَاحُ اتِّخَاذُهُ، فَلَا يَنْقُصُ، كَالْفَرَسِ وَالْهَرَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الثالثة: وَكَلْبُ الْمَاشِيَةِ الْمَبَاحُ اتِّخَاذُهُ عِنْدَ مَالِكٍ هُوَ الَّذِي يَسْرَحُ مَعَهَا، لَا الَّذِي يَحْفَظُهَا فِي الدَّارِ مِنَ السُّرَّاقِ. وَكَلْبُ الزَّرْعِ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُهَا مِنَ الْوَحُوشِ بِاللَّيْلِ أَوْ بِالنَّهَارِ لَا مِنَ السُّرَّاقِ. وَقَدْ أَجَازَ غَيْرُ مَالِكٍ اتِّخَاذَهَا لِسُرَّاقِ الْمَاشِيَةِ وَالزَّرْعِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي «الْمَائِدَةِ»^(٣) مِنْ أَحْكَامِ الْكِلَابِ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

الرابعة: قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ^(٤): وَحَدَّثَنِي أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْفَضْلِ الْجَوْهَرِيَّ فِي جَامِعِ مِصْرَ يَقُولُ عَلَى مَنْبَرٍ وَعَظَهُ سَنَةً تَسْعٍ وَسِتِينَ وَأَرْبَعَ مِائَةٍ: إِنَّ مَنْ أَحَبَّ أَهْلَ الْخَيْرِ، نَالَ مِنْ بَرَكَتِهِمْ، كَلْبٌ أَحَبُّ أَهْلَ فَضْلٍ وَصَحْبِهِمْ، فَذَكَرَهُ اللَّهُ فِي مُحْكَمِ تَنْزِيلِهِ.

(١) سلف ٣١٢/٧.

(٢) سلف ٣١٣/٧.

(٣) ٢٩٩/٧ وما بعدها.

(٤) في المحرر الوجيز ٥٠٤/٣.

قلت: إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصُحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جلَّ وعلا فما ظنُّك بالمؤمنين الموحِّدين المخالطين المحيِّين للأولياء والصالحين، بل في هذا تسليَّةٌ وأنسٌ للمؤمنين المقصِّرين عن درجات الكمال، المحيِّين للنبي ﷺ وآله خير آل^(١).

روى الصحيح عن أنس بن مالك قال: بينا أنا ورسولُ الله ﷺ خارجان من المسجد، فلقينا رجلاً عند سُدة المسجد فقال: يا رسولَ الله، متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «ما أعددتُ لها» قال: فكأنَّ الرجلَ استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددتُ لها كثيرَ صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكنِّي أحِبُّ الله ورسوله. قال: «فأنتَ مع من أحببتُ»^(٢). في رواية قال أنس بنُ مالك: فما فَرَحنا بعد الإسلام فرحاً أشدَّ من قول النبي ﷺ: «فأنتَ مع من أحببتُ». قال أنس: فأنا أحِبُّ الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكونَ معهم وإن لم أعمل بأعمالهم^(٣).

قلت: وهذا الذي تمسَّك به أنس يشمل من المسلمين كلَّ ذي نفس، فكَذلك تعلَّقت أطماعنا بذلك وإن كنَّا مقصِّرين، ورجونا رحمةَ الرحمن وإن كنَّا غيرَ مستأهلين، كلبٌ أحبَّ قوماً فذكره الله معهم! فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام، وحبُّ النبي ﷺ، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَلَدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقالت فرقة^(٤): لم يكن كلباً حقيقةً، وإنَّما كان أحدهم، وكان قد قعد عند باب الغار طليعةً لهم^(٥)؛ فسُمِّيَ باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع^(٦) كما سُمِّيَ

(١) ينظر لطائف الإشارات ٣٨٤/٢.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩): (١٦٤) واللفظ له.

(٣) البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩): (١٦٣).

(٤) المحرر الوجيز ٥٠٤/٣، وينظر النكت والعيون ٢٩٢/٣.

(٥) بعدها في (د) و(ز) زاد الناسخ قوله: قال ابن عطية ما ذكر موصلاً هنا موضعه وإنما تأخر عن موضعه. اهـ.

(٦) قوله: فسُمِّيَ باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع. تأخَّر في (م) وجاء بعد قوله: قال ابن عطية. والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز.

النجم^(١) التابع للجوزاء كلباً؛ لأنه منها كالكلب من الإنسان، ويقال له: كلب الجبار^(٢). قال ابن عطية^(٣): «أما إنَّ هذا القول يُضعفه ذِكْرُ بَسْطِ الذراعين فإنَّها في العرف من صفة الكلب حقيقة، ومنه قول النبي ﷺ: «ولا ييسط أحدكم ذراعَيْه انبساط الكلب»^(٤).

وقد حكى أبو عمر المطرّز في كتاب «اليواقيت» أنّه قرئ: «وكالْثَم»^(٥) باسط ذراعيه بالوصيد. فيحتمل أن يريد بالكالي^(٦) هذا الرجل على ما روي؛ إذ بَسَطَ الذراعين واللصوق بالأرض مع رَفْعِ الوجه للتطلُّع هي هيئة الرّيبة المستخفي بنفسه. ويحتمل أن يريد بالكالي الكلب. وقرأ جعفر بن محمد الصادق: «وكالْبهم» يعني: صاحب الكلب^(٧).

قوله تعالى: ﴿بَسَطَ ذِرَاعَيْهِ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضِيّ؛ لأنَّها حكايةُ حال ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب^(٨).

والذراع: مِنْ طَرَفِ المرفق إلى طَرَفِ الأصبع الوسطى. ثم قيل: بَسَطَ ذراعيه؛ لطول المدّة. وقيل: نام الكلب، وكان ذلك من الآيات. وقيل: نام مفتوح العين. والوصيد: الفناء، قاله ابن عباس ومجاهد وابن جُبَيْر^(٩)، أي: فناء الكهف،

(١) ليست في (د) و(ظ).

(٢) في (ظ): الخيار. وفي (ز): الحبار. وفي المحرر الوجيز: الحيار. اهـ. والجبار: اسم الجوزاء. القاموس المحيط (جبر).

(٣) في المحرر الوجيز ٥٠٤/٣.

(٤) سلف ٢٦/٢.

(٥) في النسخ: وكالْبهم. في الموضعين وكذا في المحرر الوجيز ٥٠٤/٣ والكلام منه، والمثبت من البحر المحيط ١٠٩/٦، وروح المعاني ٢٢٦/١٥، قال أبو حيان: قرئ: وكالْثَم، اسم فاعل من كَلَأَ، إذا حَفَظَ.

(٦) في (د) و(ظ) و(م): بالكالب، والمثبت من (ز) والبحر المحيط ١٠٩/٦.

(٧) الكشف ٤٧٥/٢، والبحر المحيط ١٠٩/٦ وورد عنده أبو جعفر، بدل: جعفر.

(٨) المحرر الوجيز ٥٠٤/٣، والكشف ٤٧٥/٢ - ٤٧٦.

(٩) أخرجه عنهم الطبري ١٩٢/١٥، وينظر تفسير مجاهد ٣٧٥/١.

والجمع وصائد ووُصِد. وقيل: الباب. وقاله ابن عباس أيضاً^(١). وأنشد:

بأرض فضاء لا يُسَدُّ وصيدُها عليّ ومعروفي بها غيرُ مُنْكَرٍ
وقد تقدّم^(٢). وقال عطاء: عتبة الباب^(٣)، والباب الموصد هو المغلق. وقد
أوصدتُ البابَ وأصدته، أي: أغلقته. والوصيد: النبات المتقارب الأصول^(٤)، فهو
مشترك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قرأ الجمهور: بكسر الواو. والأعمش ويحيى بن
وثاب: بضمتها^(٥). ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ أي: لو أشرفت عليهم لهربت منهم.
﴿وَلَمَلَّيْتُ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي: لما حفهم الله تعالى من الرعب، واكتنفهم من الهيبة.
وقيل: لوحشة مكانهم، وكأنهم آواهم الله إلى هذا المكان الوخشي في الظاهر لينفر
الناس عنهم. وقيل: كان الناس محجوبين عنهم بالرعب، لا يجسر أحد منهم على
الدنو إليهم. وقيل: الفرار منهم؛ لطول شعورهم وأظفارهم، ذكره المهدوي والنحاس
والزجاج والقشيري^(٦). وهذا بعيد؛ لأنهم لما استيقظوا قال بعضهم لبعض: لبثنا يوماً
أو بعض يوم. ودلّ هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها، إلا أن يقال: إنما
قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم. قال ابن عطية^(٧): والصحيح في
أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم
آية، فلم يبذل لهم ثوباً، ولم تغير صفة، ولم ينكر الناهض إلى المدينة إلا معالم

(١) أخرجه الطبري ١٩٤/١٥.

(٢) سلف ص ٢٠٣ من هذا الجزء.

(٣) النكت والعيون ٢٩٢/٣، وتفسير البغوي ١٥٤/٣.

(٤) الصحاح (وصد).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤٥١/٢، والمحزر الوجيز ٥٠٤/٣، وينظر الكشاف ٤٧٦/٢، وإملاء ما من به الرحمن ٥٠٩/٣، والبحر المحيط ١٠٩/٦.

(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢٧٥/٣، والمحزر الوجيز ٥٠٤/٣.

(٧) في المحزر الوجيز ٥٠٤/٣ - ٥٠٥.

الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها، لكانت عليه أهم.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عباس وأهل مكة والمدينة: «لَمُلْتُ مِنْهُمْ» بتشديد اللام على تضعيف المبالغة، أي: مُلِيت، ثم مُلِيت. وقرأ الباقون: «لَمِلْتُ» بالتخفيف، والتخفيف أشهر في اللغة^(١). وقد جاء التثقيل في قول المُخَبِّلِ السَّعْدِيِّ^(٢):

وَإِذْ فَتَكَ النُّعْمَانُ بِالنَّاسِ مُخْرِماً فَمَلَّى مِنْ كَعْبِ بْنِ عَوْفٍ سِلَاسِلَهُ
وقرأ الجمهور: ﴿رُعْبًا﴾ بإسكان العين. وقرأ بضمها أبو جعفر. قال أبو حاتم: هما لغتان^(٣). و«فراراً» نصب على الحال، و«رعباً» مفعول ثانٍ أو تمييز^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ البعث: التحريك عن سكون^(٥). والمعنى: كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدى وقلبناهم، بعثناهم أيضاً، أي: أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئتهم في ثيابهم وأحوالهم. قال الشاعر:
وَفُتَيَانِ صِدْقٍ قَدْ بَعَثْتُ بِسُحْرَةٍ فقاموا جميعاً بين عاثٍ ونشوان^(٦)

(١) السبعة ص ٣٨٩، والتيسير ص ١٤٣، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ والكلام منه.

(٢) المُخَبِّلُ السَّعْدِيُّ هو: ربيع بن مالك بن ربيعة، والبيت في اللسان (فتك).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٥.

(٤) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥١، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٧٥.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٥.

(٦) القائل امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص ٩١، قال شارحه: والعائي: المتناول للشيء، والسُحْرَةُ: السحر الأعلى، أول الأسحار.

أي: أيقظت: واللام في قوله: «ليتساءلوا» لام الصيرورة، وهي لام العاقبة، كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] فبغثهم لم يكن لأجل تساؤلهم. قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَيْسَ لَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك أنهم دخلوه غُدوةً، وبعثهم الله في آخر النهار، فقال رئيسهم تملixa أو مكسلمينا: الله أعلم بالمدّة^(١).

قوله تعالى: ﴿فَاَبْعَثُوا آمَنَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ فيه سبع مسائل: الأولى: قال ابن عباس: كانت ورقهم كأخفاف الرُّبع^(٢)، ذكره النحاس.

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم: «بورقكم» بكسر الراء. وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم: «بورقكم» بسكون الراء، حذفوا الكسرة؛ لثقلها، وهما لغتان^(٣). وقرأ الزجاج^(٤): «بورقكم» بكسر الواو وسكون الراء.

ويروى أنهم انتبهوا جِيعاً، وأنَّ المبعوث هو تملixa، كان أصغرهم، فيما ذكر العَزنوي. والمدينة: أفسوس، ويقال: هي طرسوس، وكان اسمها في الجاهلية: أفسوس، فلما جاء الإسلام سَمَّوها: طرسوس^(٥). وقال ابن عباس: كان معهم دراهم عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم^(٦).

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ قال ابن عباس: أحلُّ ذبيحة؛ لأنَّ أهلَ بلدهم كانوا يذبحون على اسمِ الصنم، وكان فيهم قومٌ يُخْفُونَ إيمانهم. ابن

(١) الوسيط ١٤٠/٣.

(٢) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٨/٧١ دون عزو، قال ابن الأثير في النهاية (ربع): الرباع بكسر الراء، جمع رُبْع، وهو ما ولد من الإبل في الربيع، وقيل: ما ولد في أول التاج.

(٣) السبعة ص ٣٨٩، والتيسير ص ١٤٣، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤٥٢/٢.

(٤) في معاني القرآن ٢٧٥/٣.

(٥) تفسير البغوي ١٥٥/٣.

(٦) الوسيط ١٤٠/٣، وزاد المسير ١٢١/٥، وتفسير الرازي ١٠٣/٢١.

عباس: كان عامَّتُهُمْ مجوساً^(١). وقيل: «أزكى طعاماً» أي: أكثر بركة. قيل: إنَّهم أمروه أن يشتري ما يُظَنُّ أنَّه طعام اثنين أو ثلاثة؛ لئلا يُطْلَع عليهم، ثم إذا طُبِّخ كفى جماعة، ولهذا قيل ذلك الطعام: الأرز. وقيل: كان زيبياً. وقيل: تمرأ، فالله أعلم. وقيل: «أزكى»: أطيب. وقيل: أرخص^(٢).

﴿فَلْيَأْتِكُمْ رِزْقُ مَنَّهُ﴾ أي: بقُوت. ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: في دخول المدينة وشراء الطعام. ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لا يُخْبِرَنَّ. وقيل: إنَّ ظُهر عليه، فلا يوقعنَّ إخوانه فيما وقع فيه.

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ قال الزجاج^(٣): معناه بالحجارة، وهو أخبث القتل. وقيل: يرموكم بالسَّبِّ والشَّتْم^(٤)، والأوَّلُ أصحُّ؛ لأنَّه كان عازماً على قتلهم، كما تقدَّم في قصصهم. والرجم فيما سلف هي كانت - على ما ذكر - قِتْلَةً مخالِف^(٥) دينِ الناس، إذ هي أشفى لجملة^(٦) أهل ذلك الدِّين من حيث إنَّهم يشتركون فيها.

الثالثة: في هذه البعثة بالورق دليلٌ على الوكالة وصحَّتها. وقد وُكِّل عليُّ بن أبي طالب أخاه عقيلاً عند عثمان رضي الله عنه، ولا خلاف فيها في الجملة^(٧). والوكالة معروفة في الجاهلية والإسلام، ألا ترى إلى عبد الرحمن بن عوف كيف وُكِّل أمية بن خَلَف بأهله وحاشيته بمكة، أي: يحفظهم، وأمية مُشْرِك، والتزم عبدُ الرحمن لأمية من حَفِظ حاشيته بالمدينة مثل ذلك؛ مجازاةً لصنعه، روى البخاريُّ عن عبد الرحمن بن عوف قال: كاتبُ أمية بن خَلَف كتاباً بأن يحفظني في صاغيتي بمكة وأحفظه في صاغيتي

(١) تفسير الرازي ١٠٣/٢١.

(٢) ينظر تفسير الطبري ٢١٢/١٥ - ٢١٤، والنكت والعيون ٣/٢٩٤، وزاد المسير ١٢٣/٥.

(٣) في معاني القرآن ٣/٢٧٦.

(٤) تفسير الطبري ٢١٥/١٥ وعزاه إلى ابن جريج.

(٥) في النسخ: ما ذكر قبله مخالفة، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/٥٠٦، والكلام منه.

(٦) في المحرر الوجيز: لحملة.

(٧) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٨١/٦.

بالمدينة، فلما ذكرتُ الرحمنَ، قال: لا أعرفُ الرحمنَ! كاتِبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته: عبدَ عمرو... وذكر الحديث^(١). قال الأصمعي: صاغية الرجل: الذين يميلون إليه ويأتونه، وهو مأخوذ من صغا يَصْغُو وَيَصْغَى إذا مال، وكلُّ مائل إلى الشيء أو معه، فقد صغا إليه وأصغى، من كتاب «الأفعال»^(٢).

الرابعة: الوكالة عقدُ نيابةٍ، أذن الله سبحانه فيه؛ للحاجة إليه، وقيام المصلحة في ذلك، إذ ليس كلُّ أحدٍ يقدر على تناول أموره إلا بمعونية من غيره، أو بترفعه^(٣)، فيستعين به من يريحه.

وقد استدل علماءنا على صحتها بآيات من الكتاب، منها هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وَالْمَعْلِينَ عَلَيْهِمَا﴾ [التوبة: ٦٠]، وقوله: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ [يوسف: ٩٣]. وأما من السنة: فأحاديث كثيرة، منها حديث عروة البارقي، وقد تقدّم في آخر الأنعام^(٤). روى جابر بن عبد الله قال: أردتُ الخروجَ إلى خيبر، فأتيْتُ رسولَ الله ﷺ فقلت له: إنِّي أردتُ الخروجَ إلى خيبر، فقال: «إذا أتيتُ وكيلي، فخذ منه خمسةَ عشرَ وسقاً، فإن ابتغى منك آيةً، فضع يدك على ترَفُوتِه» خرَّجه أبو داود^(٥). والأحاديث كثيرة في هذه المعنى، وفي إجماع الأمة على جوازها كفايةً.

الخامسة: الوكالة جائزة في كلِّ حقٍّ تجوز النيابة فيه، فلو وكَّل الغاصبُ، لم يجز، وكان هو الوكيل؛ لأنَّ كلَّ محرَّم فعله، لا تجوز النيابة فيه.

السادسة: في هذه الآية نُكَّتة بديعة، وهي أنَّ الوكالة إنما كانت مع التَّقيَّة^(٦)

(١) البخاري (٢٣٠١).

(٢) تهذيب اللغة ١٥٩/٨، والأفعال للسرقسطي ٣/٣٨٣، ولاين القطاع ٢/٢٥٦ بنحوه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢١٦، وفيه: يترفعه، بدل: يترفعه.

(٤) ١٤٤/٩ - ١٤٥.

(٥) في سننه (٣٦٣٢)، وأخرجه أيضاً الدارقطني (٤٣٠٤)، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/٨٠. قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/٥١: رواه أبو داود من طريق وهب بن كيسان عن جابر بسند حسن. اهـ، والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢١٦ - ١٢١٧.

(٦) في (ظ): البقية.

خوف أن يشعر بهم أحد؛ لما كانوا عليه من الخوف على أنفسهم. وجواز توكيل ذوي العذر متفق عليه، فأما من لا عذر له، فالجمهور على جوازها. وقال أبو حنيفة وسُحنون: لا تجوز. قال ابن العربي^(١): «وكان سُحنون تلقفه من أسد بن الفُرات، فحكم به أيام قضائه، ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت؛ إنصافاً منهم، وإذلاً لهم، وهو الحق؛ فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل».

قلت: هذا حسن، فأما أهل الدين والفضل، فلهم أن يوكّلوا وإن كانوا حاضرين أصحاء، والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما خرّجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال: كان لرجل على النبي ﷺ سِنٌّ من الإبل، فجاء يتقاضاه فقال: «أعطوه» فطلبوا له سِنّه فلم يجدوا إلا سِنّاً فوقّها، فقال: «أعطوه» فقال: «أوفيتني، أوفى الله لك». قال النبي ﷺ: «إن خيركم أحسنكم قضاء». لفظ البخاري^(٢). فدلّ هذا الحديث - مع صحّته - على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن، فإن النبي ﷺ أمر أصحابه أن يُعطوا عنه السّنّ التي كانت عليه، وذلك توكيلٌ منه لهم على ذلك، ولم يكن النبي ﷺ مريضاً ولا مسافراً، وهذا يردُّ قول أبي حنيفة وسُحنون في قولهما: إنّه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه، وهذا الحديث خلاف قولهما.

السابعة: قال ابن خُوَيزِمَناد: تضمّنت هذه الآية جواز الشركة؛ لأنّ الورق كان لجميعهم. وتضمّنت جواز الوكالة؛ لأنّهم بعثوا من وكلّوه بالشراء. وتضمّنت جواز أكل الرُفقاء وخلطهم طعامهم معاً، وإن كان بعضهم أكثر أكلًا من الآخر^(٣)، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَخَاطَبُوهُمْ فَاخُونُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] حسبما تقدّم بيانه في «البقرة»^(٤). ولهذا قال أصحابنا في المسكين يُتصدّق عليه فيخلطه بطعام لغني ثم يأكل معه: إنّ

(١) في أحكام القرآن ١٢١٩/٣، والكلام السابق منه.

(٢) في «صحيحه» (٢٣٠٥)، وأخرجه أيضاً مسلم (١٦٠١)، وأحمد (٩١٠٦).

(٣) أحكام القرآن للهراسي ٢٦٥/٣، وابن العربي ١٢١٨/٣ بنحوه.

(٤) ٤/٣.

ذلك جائز. وقد قالوا في المضارب يخلط طعامه بطعام غيره ثم يأكل معه: إن ذلك جائز. وقد كان رسول الله ﷺ وكُل من اشترى له أضحية. قال ابن العربي^(١): ليس في الآية دليل على ذلك؛ لأنه يحتمل أن يكون كل واحد منهم قد أعطاه منفرداً، فلا يكون فيه اشتراك، ولا مُعَوَّل في هذه المسألة إلا على حديثين: أحدهما: أن ابن عمر مرَّ بقوم يأكلون تمرّاً فقال: نهى رسول الله ﷺ عن الإقرا^(٢)ن إلا أن يستأذن الرجل أخاه^(٣). الثاني: حديث أبي عبيدة في جيش الحَبْط^(٤). وهذا دون الأوّل في الظهور؛ لأنه يحتمل أن يكون أبو عبيدة يُعطيهم كفافاً من ذلك القوت، ولا يجمعهم عليه.

قلت: ومما يدل على خلاف هذا من الكتاب قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَحَايَطُوا مِنْهُم فَاِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ [النور: ٦١] على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِیَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أطلعنا عليهم وأظهرناهم. و«أعثر» تعديّة عثر بالهمزة، وأصل العثر في القدم^(٥).

﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني الأمة المسلمة الذين بُعث أهل الكهف على عهدهم. وذلك أن دقيانوس مات ومضت قرون، وملك أهل تلك الدار رجل صالح،

(١) في أحكام القرآن ١٢١٨/٣.

(٢) في (د) و(ز) و(م): الاقتران، والمثبت من (ظ) ومصادر التخريج.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٥٥)، ومسلم (٢٠٤٥)، وأحمد (٥٠٣٧).

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٦١)، ومسلم (١٩٣٥)، وأحمد (١٤٣١٥)، قال ابن حجر في فتح الباري ٧٩/٨: والخَبْط: ورق السِّلَم.

(٥) المحرر الوجيز ٥٠٦/٣.

فاختلف أهل بلده في الحشر ويَبْغِثُ الأجساد من القبور، فشكَّ في ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا: إنَّما تُحْشَرُ الأرواح، والجسد تأكله الأرض. وقال بعضهم: تُبْعَثُ الروح والجسد جميعاً، فكبر ذلك على الملك وبقي حيران لا يدري كيف يتبيَّن أمره لهم، حتى لبس المُسْوَح وقعد على الرَّمَاد وتضرَّع إلى الله تعالى في حجة وبيان، فأعثر الله على أهل الكهف^(١).

فيقال: إنَّهم لما بعثوا أحدهم بَورَقهم إلى المدينة ليأتيهم برزق منها، استُنْكَر شخصه واستُنْكَرت دراهمه^(٢)؛ لبُعد العهد، فحُمِل إلى الملك، وكان صالحاً قد آمن وآمن من معه، فلما نظر إليه قال: لعلَّ هذا من الْفِتْيَةِ الذين خرجوا على عَهْد دِقْيَانوس الملك، فقد كنت أدعو الله أن يُرِيَّيْنِيهم، وسأل الفتى، فأخبره^(٣)، فسرَّ الملكُ بذلك وقال: لعلَّ الله قد بعث لكم آيةً، فلنُسِرَ إلى الكهف معه، فركب مع أهل المدينة إليهم، فلما دنوا إلى الكهف قال تملِيخا: أنا أدخل عليهم لئلا يَزْعُبُوا، فدخل عليهم فأعلمهم الأمر، وأنَّ الأُمَّةَ أُمَّةُ إِسْلَام، فرُوي أنَّهم سرُّوا بذلك، وخرجوا إلى الملك وعظَّموه وعظَّمهم، ثم رجعوا إلى كهفهم. وأكثر الروايات على أنَّهم ماتوا - حين حدَّثهم تملِيخا - ميتة الحقِّ، على ما يأتي. ورجع من كان شكَّ في بَغْثِ الأجساد إلى اليقين. فهذا معنى: «أعثرنا عليهم».

﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: ليعلم الملك ورعيته أنَّ القيامةَ حقٌّ والبعثُ حقٌّ.

﴿إِذْ يَنْتَزِعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ وإنما استدلوا بذلك الواحد على خبرهم، وهابوا

الدخول عليهم، فقال الملك: ابنوا عليهم بنياناً، فقال الذين هم على دين الفتية: اتَّخِذُوا عليهم مسجداً. وروي أنَّ طائفةً كافرةً قالت: نبني بيعةً أو مصنعةً^(٤)، فمانعهم

(١) المحرر الوجيز ٥٠٧/٣ .

(٢) في (ظ): وَرَقَه.

(٣) النكت والعيون ٢٩٥/٣ .

(٤) في (ظ): مصنع، وفي (د): مضيعةً، وفي (م): مضيعةً، والمثبت من (ز) والمحرر الوجيز ٥٠٧/٣ ، والكلام منه.

المسلمون، وقالوا: لنتخذنَّ عليهم مسجداً. وروي أنَّ بعضَ القوم ذهب إلى طمسِ الكهف عليهم وتركهم فيه مغيبين.

وروي عن عبيد بن عمير^(١) أنَّ الله تعالى أعمى على الناس حينئذٍ أثرهم، وحجبهم عنهم، فذلك دعا إلى بناء البنيان؛ ليكون معلماً لهم.

وقيل: إنَّ الملكَ أراد أن يدفَنهم في صندوق من ذهب، فأتاه آتٍ منهم في المنام فقال: أردت أن تجعلنا في صندوق من ذهب، فلا تفعل؛ فإنَّا من التراب خُلِقنا وإليه نعود، فدعنا^(٢).

وتنشأ هنا مسائلٌ ممنوعةٌ وجائزةٌ؛ فاتَّخَذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها، إلى غير ذلك مما تَضَمَّنَت السنة من النهي عنه، ممنوعٌ لا يجوز؛ لما روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس قال: لعن رسولُ الله ﷺ زَوَّارات القبور والمتَّخذين عليها المساجدَ والسُّرُجَ^(٣). قال الترمذي: وفي الباب عن أبي هريرة^(٤) وعائشة^(٥)، حديث ابن عباس حديث حسن. وروى الصحيحان^(٦) عن عائشة أنَّ أُمَّ حبيبة وأُمَّ سلمة ذكرتا كنيسةً رأينها بالحبشة - فيها تصاويرٌ - لرسولِ الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بَنَوْا على قبره مسجداً، وصَوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرارُ الخَلْق عند الله تعالى يوم القيامة». لفظ مسلم. قال علماؤنا: وهذا يحرِّم على المسلمين أن يتَّخذوا قبورَ الأنبياء والعلماء مساجدَ. وروى الأئمة عن أبي مَرْثَد الغَنَوِيِّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا

(١) في (د) و(م): عبد الله بن عمر، والمثبت من (ز) و(ظ) والمحرر الوجيز ٥٠٧/٣.

(٢) النكت والعيون ٢٩٦/٣.

(٣) أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (١٥٧٥) مختصراً، وهو عند أحمد (٢٦٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٥٣٠)، وهو عند أحمد (٧٨٢٦).

(٥) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١)، وهو عند أحمد (٢٤٠٦٠).

(٦) سلف ٢٩٤/٢.

تُصَلُّوا إِلَى الْقُبُورِ وَلَا تَجْلِسُوا عَلَيْهَا» لفظ مسلم^(١). أي: لا تتخذوها قبلةً فتصلُّوا عليها أو إليها، كما فعل اليهود والنصارى؛ فيؤدي إلى عبادة من فيها، كما كان السبب في عبادة الأصنام. فحذَّر النبي ﷺ عن مِثْلِ ذلك، وسَدَّ الذرائع المؤدية إلى ذلك فقال: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ»^(٢). وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بن عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا، كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يحذِّر ما صنعوا^(٣). وروى مسلم^(٤) عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُقَعَّدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ. وَخَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ أَيْضاً عَنْ جَابِرٍ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُجَصَّصَ الْقُبُورُ، وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهَا، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهَا، وَأَنْ تَوَطَّأَ^(٥). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وروى الصحيح عن أبي الهيثاج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَّا تَدْعَ تَمَثَالاً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ. في رواية: وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا. وأخرجه أبو داود والترمذي^(٦).

قال علماؤنا: ظاهره مَنعُ تَسْنِيمِ الْقُبُورِ وَرَفْعِهَا، وَأَنْ تَكُونَ لَا طِئَّةَ. وقد قال به بعضُ أهل العلم، وذهب الجمهور إلى أَنَّ هَذَا الارتفاعَ المأمورَ بإزالته هو ما زاد على التسنيم، ويبقى للقبْر ما يُعرف به ويُحترم، وذلك صفةُ قبر نبيِّنا محمد ﷺ وقبرِ صاحبه

(١) سلف ٢٤٧/١٢.

(٢) المفهم ١٢٨/٢ و٦٢٨، والحديث أخرجه مالك في الموطأ ١٧٢/١ من حديث عطاء بن يسار رضى الله عنه مرسلًا.

(٣) سلف ٢٩٥/٢.

(٤) في صحيحه (٩٧٠)، وهو عند أحمد (١٤١٤٩).

(٥) أبو داود (٣٢٢٥)، والترمذي (١٠٥٢)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٢١٦٥)، وابن ماجه (١٥٦٢).

(٦) مسلم (٩٦٩)، وأبو داود (٣٢١٨)، والترمذي (١٠٤٩)، وهو عند أحمد (٧٤١).

رضي الله عنهما - على ما ذكر مالك في «الموطأ»^(١) - وقبر أبينا آدم ﷺ، على ما رواه الدارقطني^(٢) من حديث ابن عباس. وأما تعلية البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعله تفخيماً وتعظيماً، فذلك يُهدم ويُزال؛ فإن فيه استعمال زينة الدنيا في أوّل منازل الآخرة، وتشبُّهاً بمن كان يعظّم القبور ويعبدها. وباعتبار هذه المعاني وظاهر النهي ينبغي أن يقال: هو حرام^(٣).

والتسليم في القبر: ارتفاعه قدر شبر، مأخوذ من سنام البعير^(٤). ويُرش عليه بالماء؛ لئلا ينتثر بالريح. وقال الشافعي: لا بأس أن يطئن القبر. وقال أبو حنيفة: لا يُجصص القبر، ولا يطئن، ولا يُرفع عليه بناء، فيسقط^(٥).

ولا بأس بوضع الأحجار؛ لتكون علامة؛ لما رواه أبو بكر الأثرم قال: حدّثنا مُسَدَّد، حدّثنا نوح بن درّاج، عن أبان بن تغلب، عن جعفر بن محمد، قال: كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تزور قبر حمزة بن عبد المطلب كلّ جمعة وعلمته بصخرة، ذكره أبو عمر^(٦).

وأما الجائزة: فالدفن في التابوت، وهو جائز لا سيّما في الأرض الرخوة. وروى أنّ دانيال صلوات الله عليه كان في تابوت من حَجَر^(٧)، وأنّ يوسف عليه السلام

(١) المفهم ٦٢٥/٢ - ٦٢٦، ولم نقف عليه في الموطأ، وأخرج البخاري (١٣٩٠) عن سفيان الثمّار أنه رأى قبر النبي ﷺ مسّماً. اهـ قال ابن حجر في فتح الباري ٣/٢٥٧: زاد أبو نعيم في المستخرج: وقبر أبي بكر وعمر كذلك. اهـ. وأخرج أبو داود (٣٢٢٠) من طريق القاسم بن محمد بن أبي بكر قال: دخلت على عائشة فقلت: يا أمّك اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما، فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطئة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء.

(٢) في سننه (١٨١٢)، وفيه عبد الرحمن بن مالك بن مغول، وهو متروك.

(٣) المفهم ٦٢٦/٢ - ٦٢٧.

(٤) تهذيب اللغة ١٦/١٦، والصحاح (سنم).

(٥) الأم ١/٢٤٥ - ٢٤٦، وبدائع الصنائع ٢/٣٥٩.

(٦) في التمهيد ٣/٢٣٣ - ٢٣٤.

(٧) ذكر الشريف الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ١/٣٩٥ أن بنهر تستر فيما يقال تابوت دانيال.

أوصى بأن يُتخذ له تابوت من زجاج ويُلقَى في رَكِيَّة؛ مخافة أن يُعبد، وبقي كذلك إلى زمان موسى صلوات الله عليهم أجمعين، فدلَّته عليه عَجُوزٌ، فرفعه ووضعه في حظيرة إسحاق عليه السلام^(١). وفي الصحيح عن سعد بن أبي وقاص أنه قال في مرضه الذي هلك فيه: اتَّخذوا لي لَحْدًا، وانصبوا عليَّ اللَّبَنَ نَضْبًا، كما صُنِعَ برسول الله ﷺ^(٢).

اللَّحْد: هو أن يشقَّ في الأرض ثم يُحفر قبرٌ آخر في جانب الشَّقِّ من جانب القبلة إن كانت الأرض صُلْبَةً، يُدخَل فيه الميتُ ويُسدَّ عليه باللَّبَن. وهو أفضلُ عندنا من الشَّقِّ؛ لأنَّه الذي اختاره الله تعالى لرسول الله ﷺ^(٣). وبه قال أبو حنيفة قال: السُّنَّة اللَّحْد. وقال الشافعي: الشَّقُّ. ويكره الآجُرُّ في اللَّحْد. وقال الشافعي: لا بأس به؛ لأنَّه نوعٌ من الحجر. وكرهه أبو حنيفة وأصحابه؛ لأنَّ الآجُرَّ لإحكام البناء، والقبر وما فيه للبلَى، فلا يليقُ به الإحكام. وعلى هذا يسوَّى بين الحجر والآجُرِّ. وقيل: إنَّ الآجُرَّ أثر النار فيكره تفاؤلاً، فعلى هذا يفرَّق بين الحجر والآجُرِّ. قالوا: ويستحبُّ اللَّبَنُ والقَصَب؛ لما رُوي أنَّه وضع على قبر النبي ﷺ حُزْمَةً من قصب^(٤). وحكي عن الشيخ الإمام أبي بكر محمد بن الفضل الحنفي رحمه الله أنه جَوَّزَ اتِّخَاذَ التابوت في بلادهم؛ لرخاوة الأرض. وقال: لو اتَّخذ تابوتٌ من حديد، فلا بأس به، لكن ينبغي أن يُفرَّش فيه التراب، وتطَيَّن الطبقة العليا مما يلي الميت، ويُجعل اللَّبَنُ الخفيفُ على يمين الميت ويساره؛ ليصير بمنزلة اللَّحْد^(٥).

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢٧/٦ بنحوه، والركيَّة: البئر. القاموس (ركو).

(٢) أخرجه مسلم (٩٦٦)، وأحمد (١٤٥٠).

(٣) المفهم ٦٢٤/٢.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/٣٣٢ - ٣٣٣ عن الشعبي أن النبي ﷺ جعل على لحدّه طَنً قصب. والطنُّ: حزمة القصب. القاموس (طنن).

(٥) ذكره بنحوه الكاساني في بدائع الصنائع ٣٥٤/٢.

قلت: ومن هذا المعنى جعل القطيفة في قبر النبي ﷺ؛ فإن المدينة سَبِيخة^(١)، قال شُقران: أنا والله طرحْتُ القطيفة تحت رسولِ الله ﷺ في القبر. قال أبو عيسى الترمذي: حديث شُقران حديثٌ حسن غريب^(٢).

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الضمير في «سيقولون» يراد به أهلُ التوراة ومعاصري محمد ﷺ. وذلك أنهم اختلفوا في عددِ أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص^(٣).

وقيل: المراد به النَّصارى، فإنَّ قوماً منهم حضروا النبي ﷺ من نَجْران، فجرى ذِكرُ أصحاب الكهف فقالت اليعْقُوبِيَّة: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. وقالت النَّسْطُورِيَّة: كانوا خمسة سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعة ثامنهم كلبهم^(٤).

وقيل: هو إخبارٌ عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبي ﷺ عن أصحاب الكهف.

والواو في قوله: «وِثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ» طريق النحويين أنَّها واو عطف دخلت في آخر إخبارٍ عن عددهم؛ لتفصيل أمرهم، وتدلُّ على أنَّ هذا غاية^(٥) ما قيل، ولو سقطت،

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في المراسيل ٤١٦، وابن أبي شيبة ٣/٣٣٦ عن الحسن مرسلاً، وجعل القطيفة في قبر النبي ﷺ أخرجه مسلم (٩٦٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سنن الترمذي (١٠٤٧)، وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٤٦٨)، والطبراني في الكبير (٧٤٠٩).

(٣) المحرر الوجيز ٣/٥٠٧.

(٤) الوسيط ٣/١٤٢، وزاد المسير ٥/١٢٤.

(٥) في (ظ): نهاية. وكذا في المحرر الوجيز ٣/٥٠٨ والكلام منه.

لصَحَّ الكلام. وقالت فرقة، منها ابنُ خَالَوَيْه: هي واو الثمانية. وحكى الثعلبيُّ عن أبي بكر بن عَيَّاش أنَّ قريشاً كانت تقول في عددها: سِتَّة سبعة وثمانية، فتُدخل الواو في الثمانية^(١). وحكى نحوه القفال، فقال: إِنَّ قوماً قالوا: العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة، فإذا احتيج إلى الزيادة عليها، استؤنف خبرٌ آخر بإدخال الواو، كقوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَبَدُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفَظُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]. يدلُّ عليه أنَّه لما ذكر أبواب جهنم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فَتُحْتَأْتَبُهَا﴾ [الزمر: ٧١] بلا واو، ولما ذكر الجنة قال: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] بالواو. وقال: ﴿خَيْرًا مِّنْكَ مُسْلِمًا﴾ ثم قال: ﴿وَأَبْكَارًا﴾ [التحریم: ٥] فالسبعة نهاية العدد عندهم، كالعشرة الآن عندنا^(٢).

قال القشيريُّ أبو نصر: ومثل هذا الكلام تحكُّم، ومن أين السبعة نهاية عندهم! ثم هو منقوض بقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] ولم يذكر الاسم الثامن بالواو. وقال قومٌ ممن صار إلى أنَّ عددهم سبعة: إنَّما ذكر الواو في قوله: «سبعة وثمانهم» لينبّه على أن هذا العدد هو الحقُّ، وأنَّه مباين للأعداد الأخر التي قال فيها أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى في الجملتين المتقدمتين: «رَجَمًا بِالْغَيْبِ» ولم يذكره في الجملة الثالثة، ولم يقدِّح فيها بشيء، فكأنَّه قال لنبيِّه: هم سبعة وثمانهم كلِّهم. والرَّجَم: القول بالظنِّ، يقال لكل ما يُخرص: رَجَمَ فيه، ومرجوم ومُرَجَّم^(٣)، كما قال:

وما الحربُ إلا ما علمتم ودُثِّمتم وما هو عنها بالحديثِ المُرَجَّم^(٤)

(١) المحرر الوجيز ٥٠٨/٣، وزاد المسير ١٢٥/٥.

(٢) تفسير البغوي ١٥٦/٣، وزاد المسير ١٢٥/٥.

(٣) لسان العرب (رجم).

(٤) القائل زهير بن أبي سلمى، والبيت في ديوانه ص ١٨.

قلت: قد ذكر الماوردي^(١) والعزّوني: وقال ابن جريج ومحمد بن إسحاق: كانوا ثمانية، وجعلوا قوله تعالى: «وثامنهم كلبهم» أي: صاحب كلبهم. وهذا مما يقوّي طريق النحويين في الواو، وأنها كما قالوا^(٢). وقال القشيري: لم يذكر الواو في قوله: رابعهم، سادسهم، ولو كان بالعكس لكان جائزاً، فطلب الحكمة والعلة في مثل هذه الواو تكلف بعيد، وهو كقوله في موضع آخر: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤]. وفي موضع آخر: ﴿إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى﴾ [الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩].

قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية أن يردّد علم عدّتهم إليه عزّ وجلّ. ثم أخبر أنّ عالم ذلك من البشر قليل. والمراد به قوم من أهل الكتاب^(٣)، في قول عطاء. وكان ابن عباس يقول: أنا من ذلك القليل، كانوا سبعة وثامنهم كلبهم^(٤)، ثم ذكر السبعة بأسمائهم، والكلب اسمه قطمير، كلب أنمر، فوق القلطي ودون الكركي^(٥). وقال محمد بن سعيد بن المسيّب: هو كلب صيني. والصحيح أنّه زبيري. وقال: ما بقي بنيسابور محدّث إلا كتب عني هذا الحديث إلا من لم يُقدّر له. قال: وكتبه أبو عمرو الحيريّ عني^(٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرًا﴾ أي: لا تجادل في أصحاب الكهف إلا بما أوحيناه إليك، وهو ردّد علم عدّتهم إلى الله تعالى. وقيل: معنى المراء الظاهر

(١) في النكت والعيون ٢٩٧/٣.

(٢) المحرر الوجيز ٥٠٨/٣.

(٣) المحرر الوجيز ٥٠٨/٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢١٩/١٥ - ٢٢٠، وفي تاريخه ٥/٢، وابن سعد في الطبقات ٣٦٦/٢، وعبد الرزاق في التفسير ٤٠٠/١.

(٥) تفسير البغوي ١٥٤/٣، وعرائس المجالس ص ٤١٩، والقلطي: القصير جداً من الناس والسنانير والكلاب. وورد في النسخ: الكردي، بدل الكركي. والمثبت من عرائس المجالس، والكركي: طائر كبير معروف. حياة الحيوان للدميري ٢٧٣/٢.

(٦) عرائس المجالس ص ٤١٩.

أن تقول: ليس كما تقولون، ونحو هذا، ولا تحتجّ على أمر مقدّر في ذلك^(١). وفي هذا دليل على أن الله تعالى لم يبيّن لأحد عدّهم فلهذا قال: «إلا مِرَاءً ظاهراً» أي: ذاهباً، كما قال:

وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها^(٢)

ولم يبح له في هذه الآية أن يماري، ولكن قوله: «إلا مِرَاءً» استعارةٌ من حيث يماريه أهل الكتاب، سمّيت مراجعته لهم مِرَاءً، ثم قيد بأنّه ظاهر، ففارق المراء الحقيقي المذموم. والضمير في قوله: «فيهم» عائذٌ على أهل الكهف. وفي قوله: «منهم» عائذٌ على أهل الكتاب المعارضين. وقوله: «فلا تمار فيهم» يعني في عدّتهم، وحذفت العدة؛ لدلالة ظاهر القول عليها^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ روي أنّه عليه الصلاة والسلام سأل نصارى نَجْران عنهم، فنهي عن السؤال^(٤). وفي هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ ﴿٣٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۖ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فيه

مسألتان:

الأولى: قال العلماء: عاتب الله تعالى نبيّه عليه الصلاة والسلام على قوله للكفار حين سألوه عن الرّوح والفتية وذو القرنين: غداً أخبركم بجواب أسئلتكم،

(١) المحرر الوجيز ٥٠٨/٣.

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ص ٢١، وصدّره:

وعبّرها الواشون أنّي أحبّها

(٣) المحرر الوجيز ٥٠٨/٣.

(٤) معاني القرآن للفراء ١٣٨/٢، والوسيط ١٤٣/٣.

ولم يستثن في ذلك. فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه، وأرجف الكفار به، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة. وأمر في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور: إني أفعل غداً كذا وكذا، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل^(١)، حتى لا يكون محققاً لحكم الخبر، فإنه إذا قال: لأفعلن ذلك ولم يفعل، كان كاذباً، وإذا قال: لأفعلن ذلك إن شاء الله، خرج عن أن يكون محققاً للمخبر عنه. واللام في قوله «لشيء» بمنزلة «في»، أو كأنه قال: لأجل شيء.

الثانية: قال ابن عطية^(٢): وتكلم الناس في هذه الآية في الاستثناء في اليمين، والآية ليست في الإيمان وإنما هي في سنة الاستثناء في غير اليمين. وقوله: «إلا أن يشاء الله» في الكلام حذف يقتضيه الظاهر، ويحسنه الإيجاز، تقديره: إلا أن تقول: إلا أن يشاء الله، أو إلا أن تقول: إن شاء الله، فالمعنى: إلا أن تذكر مشيئة الله، فليس: «إلا أن يشاء الله»، من القول الذي نهي عنه.

قلت: ما اختاره ابن عطية وارتضاه هو قول الكسائي والقرء والأخفش^(٣). وقال البصريون: المعنى: إلا بمشيئة الله. فإذا قال الإنسان: أنا أفعل هذا إن شاء الله، فمعناه: بمشيئة الله. قال ابن عطية^(٤): وقالت فرقة: «إلا أن يشاء الله» استثناء من قوله: «ولا تقولن». قال: وهذا قول حكاه الطبري^(٥) ورد عليه، وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألا يحكى. وقد تقدم القول في الاستثناء في اليمين وحكمه في «المائدة»^(٦).

(١) المحرر الوجيز ٥٠٨/٣.

(٢) في المحرر الوجيز ٥٠٨/٣.

(٣) معاني القرآن للقرء ١٣٨/٢، وللأخفش ٦١٨/٢.

(٤) في المحرر الوجيز ٥٠٨/٣ - ٥٠٩.

(٥) في التفسير ٢٢٤/١٥ - ٢٢٥.

(٦) ١٣٧/٨.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فيه مسألة واحدة، وهو الأمر بالذكر بعد النسيان، واختلف في الذكر المأمور به، فقيل: هو قوله: «وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشداً». قال محمد الكوفي المفسر: إنها بألفاظها مما أمر أن يقولها كل من لم يستثن، وإنها كفارة لنسيان الاستثناء. وقال الجمهور: هو دعاء مأمور به دون هذا التخصيص^(١). وقيل: هو قوله: «إن شاء الله» الذي كان نسيه عند يمينه. حكى عن ابن عباس^(٢) أنه إن نسي الاستثناء ثم ذكر ولو بعد سنة؛ لم يحنث إن كان حالفاً. وهو قول مجاهد^(٣).

وحكى إسماعيل بن إسحاق ذلك عن أبي العالية في قوله تعالى: «واذكر ربك إذا نسيت» قال: يستثنى إذا ذكره^(٤). الحسن: ما دام في مجلس الذكر^(٥). ابن عباس: سنتين^(٦)، ذكره الغزنوي قال: فيحمل على تدارك التبرك بالاستثناء؛ للتخلص عن الإثم. فأما الاستثناء المفيد حكماً؛ فلا يصح إلا متصلاً. السدي: أي: كل صلاة نسيها إذا ذكرها^(٧). وقيل: استثنى باسمه؛ لثلاث تنسى. وقيل: اذكره متى ما نسيته. وقيل: إذا نسي شيئاً، فاذكره يذكركه. وقيل: اذكره إذا نسي غيرَه أو نسي نفسك؛ فذلك حقيقة الذكر.

وهذه الآية مخاطبة للنبي ﷺ، وهي استفتاح كلام على الأصح، وليست من الاستثناء في اليمين بشيء، وهي بعد تعم جميع أمته؛ لأنه حكم يتردد في الناس لكثرة وقوعه. والله الموفق.

(١) المحرر الوجيز ٥٠٩/٣ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٢٥/١٥ ، وابن أبي حاتم ٢٣٥٥/٧ (١٢٧٥٨)، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٢٩٩/٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٥٠٩/٣ ، وفيه: بعد سنتين.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢٥/١٥ - ٢٢٦ .

(٥) النكت والعيون ٢٩٩/٣ ، والمحرر الوجيز ٥٠٩/٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٥٠٩/٣ وعزاه إلى مجاهد.

(٧) تفسير البغوي ١٥٧/٣ .

قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۖ﴾

هذا خبر من الله تعالى عن مدّة لبثهم، وفي قراءة ابن مسعود: «وقالوا لبثوا»^(١). قال الطبري^(٢): إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدّة بعد الإغثار عليهم إلى مدّة النبي ﷺ، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلاث مئة سنة وتسع سنين، فأخبر الله تعالى نبيه أنّ هذه المدّة في كونهم نياماً، وأنّ ما بعد ذلك مجهول للبشر. فأمر الله تعالى أن يردّ علم ذلك إليه.

قال ابن عطية^(٣): فقله على هذا: «لبثوا» الأوّل يريد في نوم الكهف، و«لبثوا» الثاني يريد بعد الإغثار إلى مدّة محمّد ﷺ، أو إلى وقت عدمهم بالبلاء^(٤). مجاهد: إلى وقت نزول القرآن. الضحّاك: إلى أن ماتوا. وقال بعضهم: إنّه لما قال: «وازدادوا تسعاً» لم يذّر الناس أهّي ساعات، أم أيام، أم جُمع، أم شهور، أم أعوام؟ واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمر الله تعالى برّد العلم إليه في التسع، فهي على هذا مبهمّة. وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنّها أعوام، والظاهر من أمرهم أنّهم قاموا ودخلوا الكهف بعد عيسى يسيّر، وقد بقيت من الحوارين بقيّة. وقيل غير هذا على ما يأتي.

قال القشيري: لا يُفهم من التّسع تسع ليال وتسع ساعات؛ لسبق ذكر السنين، كما تقول: عندي مئة درهم وخمسة، والمفهوم منه خمسة دراهم. وقال أبو علي: «وازدادوا تسعاً» أي: ازدادوا لبث تسع، فحذف. وقال الضحّاك: لما نزلت: «ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة» قالوا: سنين، أم شهور، أم جُمع، أم أيام؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: «سنين»^(٥). وحكى النقّاش ما معناه أنّهم لبثوا ثلاث مئة سنة شمسيّة بحساب

(١) تفسير الطبري ٢٢٩/١٥، والكشاف ٤٨١/٢.

(٢) في التفسير ٢٣١/١٥، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥١٠/٣.

(٣) في المحرر الوجيز ٥١٠/٣.

(٤) في (ظ) والمحرر الوجيز: بالبلّ. وهما بمعنى.

(٥) أخرجه الطبري ٢٣٠/١٥، وابن أبي حاتم ٢٣٥٦/٧ (١٢٧٦٧).

الأيام، فلما كان الإخبارُ هنا للنبيِّ العربيِّ، ذكرت التسع، إذ المفهوم عنده من السنين القمرية، وهذه الزيادة هي ما بين الحسابين^(١). ونحوه ذَكَرَ الغزنويُّ. أي: باختلاف سني الشمس والقمر؛ لأنه يتفاوت في كلِّ ثلاث وثلاثين وثُلث سنةٍ سنةً، فيكون في ثلاث مئة، تسع سنين.

وقرأ الجمهور: «ثلاث مئة سنين» بتنوين مئة ونُضِبَ سنين، على التقديم والتأخير، أي: سنين ثلاث مئة، فقدَّم الصفةَ على الموصوف، فتكون «سنين» على هذا بدلاً، أو عَطَفَ بيان. وقيل: على التفسير والتمييز. و«سنين» في موضع سنة. وقرأ حمزة والكسائيُّ بإضافة مئة إلى سنين، وترك التنوين، كأنَّهم جعلوا سنينَ بمنزلة سنة، إذ المعنى بهما واحد^(٢). قال أبو عليٍّ^(٣): هذه الأعداد التي تُضاف في المشهور إلى الأحاد نحو ثلاث مئة رجل وثوب، قد تُضاف إلى الجموع. وفي مصحف عبد الله: «ثلاث مئة سنة»^(٤). وقرأ الضحاك «ثلاث مئة سنون» بالواو. وقرأ أبو عمرو بخلاف «تَسْعاً» بفتح التاء^(٥)، وقرأ الجمهور بكسرها. وقال الفراء والكسائيُّ وأبو عبيدة: التقدير: ولبثوا في كهفهم سنين ثلاث مئة^(٦).

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرَ بِهِ وَأَسْمِعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾ قيل: بعد موتهم إلى نزول القرآن فيهم،

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠.

(٢) السبعة ص ٣٨٩ - ٣٩٠، والتيسير ص ١٤٣، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٣، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٨.

(٣) في الحجة للفراء السبعة ٥/ ١٣٧.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠، وذكرها ابن خالويه في الشواذ ص ٧٩، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٨١ ونسبها إلى أبي. وينظر البحر المحيط ٦/ ١١٧.

(٥) الشواذ ص ٧٩.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٣، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٨، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٩٨.

على قول مجاهد. أو إلى أن ماتوا، على قول الضحّاك. أو إلى وقت تغيرهم بالبلى، على ما تقدّم. وقيل: بما لبثوا في الكهف، وهي المدة التي ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادةً ونقصاناً^(١). أي: لا يعلم علم ذلك إلا الله أو من علمه ذلك ﴿لَمْ يَغَيِّبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ﴾ أي: ما أبصره وأسمعه. قال قتادة: لا أحد أبصر من الله ولا أسمع^(٢). وهذه عبارات عن الإدراك. ويحتمل أن يكون المعنى: «أبصر به» أي: بوحيه وإرشاده هداك وحججك والحق من الأمور، وأسمع به العالم، فيكونان أمرين لا على وجه التعجب^(٣). وقيل: المعنى: أبصرهم وأسمعهم ما قال الله فيهم^(٤).

﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي: لم يكن لأصحاب الكهف وليّ يتولّى حفظهم دون الله. ويحتمل أن يعود الضمير في: «لهم» على معاصري محمّد ﷺ من الكفار^(٥). والمعنى: ما لهؤلاء المختلفين في مدة لبثهم وليّ دون الله يتولّى تدبير أمرهم، فكيف يكونون أعلم منه، أو كيف يتعلّمون من غير إعلامه إيّاهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ قرئ بالياء ورفّع الكاف، على معنى الخبر عن الله تعالى. وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رجاء وقتادة والجحدري: ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ بالتاء من فوق وإسكان الكاف على جهة النبي ﷺ، ويكون قوله: «ولا تشرك» عطفًا على قوله: «أبصر به وأسمع». وقرأ مجاهد: «يُشْرِكْ» بالياء من تحت والجزم. قال يعقوب: لا أعرف وجهه^(٦).

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٠٠.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٣٣.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٠٠.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠ - ٥١١.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥١١، وقرءة ابن عامر في السبعة ص ٣٩٠، والتيسير ص ١٤٣.

مسألة: اختلف في أصحاب الكهف هل ماتوا وفنّوا، أو هم نيامٌ وأجسادهم محفوظة، فروي عن ابن عباس أنّه مرَّ بالشام في بعض غزواته مع ناسٍ على موضع الكهف وجبّله، فمشى الناسُ معه إليه، فوجدوا عظاماً فقالوا: هذه عظامُ أهل^(١) الكهف. فقال لهم ابن عباس: أولئك قومٌ فنّوا وعُدِموا منذ مدّة طويلة، فسمعه راهبٌ فقال: ما كنتُ أحسب أن أحداً من العرب يعرف هذا، فقليل له: هذا ابنُ عمِّ نبينا ﷺ. وروت فرقةٌ أنّ النبي ﷺ قال: لِيُحْجِزَنَّ عيسى ابنُ مريم ومعه أصحابُ الكهف فإنّهم لم يَحْجُوا بعدُ». ذكره ابن عطية.

قلت: ومكتوب في التوراة والإنجيل أنّ عيسى ابنَ مريم عبدُ الله ورسوله، وأنّه يمرُّ بالروحاء حاجاً أو مُعْتَمِراً أو يجمع الله له ذلك فيجعل الله حوارِيّه أصحابَ الكهف والرقيم، فيمرُّون حجّاجاً، فإنّهم لم يحجوا ولم يموتوا. وقد ذكرنا هذا الخبر بكماله في كتاب «التذكرة»^(٢). فعلى هذا هم نيام ولم يموتوا إلى يومِ القيامة، بل يموتون قُبيلَ الساعة.

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مِثْلًا مَثَلًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ قيل: هو من تمامِ قصّةِ أصحاب الكهف، أي: اتبع القرآن، فلا مُبَدِّلَ لكلماتِ الله، ولا خُلفَ فيما أخبر به من قصّةِ أصحاب الكهف^(٣). وقال الطبري^(٤): لا مغيرٌ لما أوعِدَ بكلماتِهِ أهلَ معاصيه والمخالفين لكتابه، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ﴾ أنت ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ إن لم تتبع القرآن وخالفته ﴿مِثْلًا مَثَلًا﴾ أي: ملجأ. وقيل: موثلاً^(٥). وأصله الميل، ومن لجأت إليه، فقد

(١) في (ظ): أصحاب. وكذا في المحرر الوجيز ٥١١/٣ والكلام منه.

(٢) ص ٦٨٦.

(٣) ينظر الوسيط ١٤٤/٣.

(٤) في تفسيره ٢٣٤/١٥.

(٥) تفسير الطبري ٢٣٥/١٥، والنكت والعيون ٣٠١/٣.

مِلْتُ إِلَيْهِ. قَالَ الْقُسَيْرِيُّ أَبُو نصر عبد الرحيم: وهذا آخرُ قصةِ أصحاب الكهف.

ولما غزا معاويةُ غزوةَ المضيق نحو الروم وكان معه ابنُ عباس، فانتهى إلى الكهف الذي فيه أصحابُ الكهف، فقال معاويةُ: لو كُشِفَ لنا عن هؤلاء فننظرَ إليهم، فقال ابنُ عباس: قد منعَ الله من هو خيرٌ منك عن ذلك، فقال: «لو اطلعتَ عليهم لو لُيِّتَ منهم فراراً» فقال: لا أنتهي حتى أعلمَ علمهم، وبعثَ قوماً لذلك، فلما دخلوا الكهف، بعثَ الله عليهم ريحاً فأخرجتهم^(١)، ذكره الثعلبي أيضاً. وذكر^(٢) أنَّ النبي ﷺ سأل الله أن يريه إياهم، فقال: إنَّك لن تراهم في دارِ الدنيا، ولكن ابعثْ إليهم أربعةً من خيارِ أصحابك ليبلِّغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان، فقال النبي ﷺ لجبريل عليه السلام: كيف أبعثهم؟ فقال: ابسط كساءك، وأجلس على طرفٍ من أطرافه أبا بكر، وعلى الطرفِ الآخر عمر، وعلى الثالث عثمان^(٣)، وعلى الرابع علي بن أبي طالب، ثم ادع الريحَ الرُّخاءَ المسخرة لسليمان، فإنَّ الله تعالى يأمرها أن تطيعك، ففعل فحملتهم الريحُ إلى بابِ الكهف، فقلعوا منه حجراً، فحمل الكلبُ عليهم، فلما رآهم حركَ رأسه، وبصَّبَصَ بذَنَبِه، وأوماً إليهم برأسه أن ادخلوا فدخلوا الكهف، فقالوا: السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، فردَّ الله على الفتية أرواحهم، فقاموا بأجمعهم وقالوا: وعليكم السلام^(٤) ورحمةُ الله وبركاته، فقالوا لهم: معشرَ الفتية، إنَّ النبيَّ محمد بنَ عبد الله ﷺ يقرأُ عليكم السلام، فقالوا: وعلى محمدٍ رسولِ الله السلام ما دامتِ السماوات والأرضُ، وعليكم بما أبلغتُم، وقبِلوا دينه، وأسلموا، ثم قالوا: أقرئوا محمداً رسولَ الله منَّا السلام، وأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخرِ الزمان عندَ خروجِ المهدي. فيقال: إنَّ المهديَّ يسلمُ عليهم فيُحييهم الله ثم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومونَ حتى تقومَ الساعة، فأخبرَ

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٢٣٤٨/٧ (١٢٧٢٠)، وتغليق التعليق ٢٤٤/٤، وصححه ابن حجر هنا وفي فتح الباري ٥٠٥/٦، ووقع في تغليق التعليق: غزوة المصيف، وفي الفتح: الصائفة.

(٢) أي: الثعلبي في عرائس المجالس ص ٤٣١ - ٤٣٢.

(٣) في عرائس المجالس: أبا ذر، فيه أنه على الطرف الرابع من الكساء.

(٤) (م): عليكم.

جبريلُ رسولُ الله ﷺ بما كان منهم، ثم رَدَّتْهُمُ الرِّيحُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كيف وجدتموهم؟» فأخبروه الخبر، فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا تُفَرِّقْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَصْحَابِي وَأَصْهَارِي، وَاغْفِرْ لِمَنْ أَحَبَّنِي وَأَحَبَّ أَهْلَ بَيْتِي وَخَاصَّتِي وَأَصْحَابِي»^(١).

وقيل: إِنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ دَخَلُوا الْكَهْفَ قَبْلَ الْمَسِيحِ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَسِيحَ بِخَبْرِهِمْ، ثُمَّ بُعِثُوا فِي الْفَتْرَةِ بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ ﷺ^(٢). وقيل: كانوا قَبْلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ مُوسَى ذَكَرَهُمْ فِي التَّوْرَةِ، وَلِهَذَا سَأَلَتِ الْيَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وقيل: دَخَلُوا الْكَهْفَ بَعْدَ الْمَسِيحِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيَّ ذَلِكَ كَانَ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ هذا مثلُ قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ في سورة الأنعام^(٤) وقد مضى الكلامُ فيه^(٥). وقال سلمانُ الفارسيُّ ؓ: جاءتِ المؤلفةُ قلوبُهم إلى رسولِ الله ﷺ: عُيْنُهُ بُنُ حِضْنٍ، والأقرعُ بن حابس [وذوهم^(٦)] فقالوا: يا رسولَ الله، إِنَّكَ لو جَلَسْتَ فِي صَدْرِ الْمَجْلِسِ وَنَحَّيْتَ عَنَّا هَؤُلَاءِ وَأَرْوَاحَ جِبَابِهِمْ - يَعْنُونَ سَلْمَانَ وَأَبَا ذَرٍّ وَفُقَرَاءَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَتْ عَلَيْهِمْ جِبَابُ الصُّوفِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ غَيْرُهَا - جَلَسْنَا إِلَيْكَ وَحَادِثْنَاكَ وَأَخَذْنَا عَنْكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا». وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ

(١) عرائس المجالس ص ٤٣١ - ٤٣٢.

(٢) النكت والعيون ٢٨٨/٣.

(٣) تفسير الرازي ١١٣/٢١.

(٤) آية ٥٢.

(٥) ٣٨٩/٨.

(٦) ما بين حاصرتين ليست في النسخ، وهي من تفسير الطبري ٢٤٠/١٥ - ٢٤١، وأسباب النزول للواحدي ص ٣٠٦ - ٣٠٧، والوسيط ١٤٥/٣.

وَالْعَشِيِّ يَرِيدُونَ وَجْهَهُ - حتى بلغ - إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها»
يَتَهَدَّدُهُمُ بِالنَّارِ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ يَلْتَمِسُهُمْ حَتَّى إِذَا أَصَابَهُمْ فِي مُؤَخَّرِ الْمَسْجِدِ يَذْكُرُونَ
اللَّهُ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُمَتِّنِي حَتَّى أَمُرَّ بِنَفْسِي مَعَ رَجَالٍ مِنْ أُمَّتِي،
مَعَكُمْ أَلْمَحْيَا وَمَعَكُمْ أَلْمَمَاتُ»^(١).

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: طاعته. وقرأ نصر بن عاصم، ومالك بن دينار، وأبو عبد
الرحمن: «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغُدُوَّةِ وَالْعَشِيِّ» وَحُجَّتُهُمْ أَنَّهَا فِي السَّوَادِ
بِالْوَاوِ. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ: وَهَذَا لَا يَلْزُمُ؛ لَكِتَابَتِهِمُ الْحَيَاةَ وَالصَّلَاةَ بِالْوَاوِ، وَلَا
تَكَادُ الْعَرَبُ تَقُولُ: الْغُدُوَّةُ؛ لِأَنَّهَا مَعْرِفَةٌ^(٢)، وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ: «وَلَا تُعَدِّ عَيْنِيكَ
عَنْهُمْ»^(٣) أي: لَا تَتَجَاوَزْ عَيْنَاكَ إِلَى غَيْرِهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا طَلِبَاءَ لَزِينَتِهَا؛ حَكَاهُ
الْيَزِيدِيُّ^(٤). وَقِيلَ: لَا تَحْتَقِرْهُمْ عَيْنَاكَ، كَمَا يَقَالُ: فَلَانِ تَنْبُو عَنْهُ الْعَيْنُ، أَيْ:
مُسْتَحْقَرًا^(٥).

﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: تَتَزَيَّنُ بِمَجَالِسَةِ هَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءِ الَّذِينَ اقْتَرَحُوا
إِبْعَادَ الْفُقَرَاءِ مِنْ مَجْلِسِكَ^(٦)، وَلَمْ يُرِدِ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ نَهَاهُ عَنْ أَنْ
يَفْعَلَهُ، وَلَيْسَ هَذَا بِأَكْثَرِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وَإِنْ كَانَ
اللَّهُ أَعَادَهُ مِنَ الشَّرْكِ. وَ«تُرِيدُ» فَعْلٌ مُضَارِعٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ: لَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ
مُرِيدًا^(٧)؛ كَقَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ:

فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا نَحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتُ فَنُعْذَرَا^(٨)

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٢) في (د) و(م): معروفة، والمثبت من (ظ)، وإعراب القرآن للنحاس ٤٥٤/٢، والكلام منه. وينظر
تفسير الطبري ٢٣٦/١٥ - ٢٣٧، ومعاني القرآن للفراء ١٣٩/٢، والمحرم الوجيز ٥١٢/٣.

(٣) البحر المحيط ١١٩/٦، والإملاء للعكبري ٥٦/٢.

(٤) النكت والعيون ٣/٣٠٢، وينظر المحتسب ٢/٢٧، والمحرم الوجيز ٣/٥١٢.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/٢٩٧.

(٦) تفسير الطبري ١٥/٢٣٩.

(٧) الوسيط ٣/١٤٥، وتفسير الرازي ٢١/١١٥.

(٨) في ديوانه ص ٦٦.

وزعم بعضهم أن حق الكلام: لا تُعَدُّ عينيك عنهم؛ لأن «تُعَدُّ» متعدٌ بنفسه. قيل له: والذي وُردت به التلاوة من رفع العينين يؤول إلى معنى النصبِ فيهما، إذ كان «لا تُعَدُّ عيناك عنهم» بمنزلة لا تنصرف عيناك عنهم، ومعنى لا تنصرف عيناك عنهم: لا تُصَرِّفُ عينيك عنهم، فالفعلُ مسندٌ إلى العينين، وهو في الحقيقة موجّه إلى النبي ﷺ^(١)؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٥] فأسند الإعجاب إلى الأموال، والمعنى: لا تُعْجِبْكَ يا محمدُ أموالهم. ويزيدُك وضوحاً قولُ الزجاج^(٢): إن المعنى: لا تصرف بصرَكَ عنهم إلى غيرهم من ذوي الهيئات والزينة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْع مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ روى جُوَيْر، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله تعالى: «ولا تُطْع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا» قال: نزلت في أمية بن خلف الجُمَحِيّ، وذلك أنه دعا النبي ﷺ إلى أمرٍ كرهه من تجرّد الفقراء عنه، وتقريب صناديد أهل مكة، فأنزل الله تعالى: «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا» يعني: مَنْ ختمنا على قلبه عن التوحيد، ﴿وَأَتَّبِعْ هَوَاهُ﴾ يعني: الشرك^(٣)، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ قيل: هو من التفريط الذي هو التقصيرُ وتقديمُ العجزِ بترك الإيمان. وقيل: من الإفراط ومجاوزة الحدِّ، وكان القومُ قالوا: نحن أشرافُ مُضَرَ، إن أسلمنا أسلمَ الناس. وكان هذا من التكبرِ والإفراط في القول^(٤). وقيل: «فُرُطًا» أي: قُدماً في الشرِّ؛ من قولهم: فَرَطَ منه أمرٌ، أي: سبق^(٥). وقيل: معنى: «أغفلنا قلبه» وجدناه غافلاً، كما تقول: لقيت فلاناً فأحمدته، أي: وجدته محموداً. وقال عمرو بن

(١) أمالي ابن الشجري ٢٢٥/١ - ٢٢٦، وينظر تفسير الطبري ٢٣٩/١٥، ومعاني القرآن للفراء ١٤٠/٢، وتفسير الرازي ١١٥/٢١.

(٢) في معاني القرآن ٢٨١/٣، وكلامه في أمالي ابن الشجري ٢٢٦/١، وعنه نقل المصنف.

(٣) أسباب النزول ص ٣٠٧، والوسيط للواحدي ١٤٦/٣، وفيه: «طرد» بدل «تجرّد»، وينظر تفسير الطبري ٢٤١/١٥.

(٤) معاني القرآن للفراء ١٤٠/٢، وتفسير البغوي ١٥٩/٣، وأمالي ابن الشجري ٢٢٦/١ - ٢٢٧.

(٥) وقال الماوردي في النكت والعيون ٣٠٢/٣: وكان أمره فرطاً، فيه خمسة تأويلات: أحدها: ضيقاً، وهو قول مجاهد. الثاني: متروكاً، قاله الفراء. الثالث: ندماً، قاله ابن قتيبة. الرابع: سرفاً وإفراطاً، قاله مقاتل. الخامس: سريعاً، قاله ابن بحر.

مَعِدِّ يَكْرِِبُ لِبَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ: وَاللَّهُ لَقَدْ سَأَلْنَاكُمْ فَمَا أَبْخَلْنَاكُمْ، وَقَاتَلْنَاكُمْ فَمَا أَجَبْنَاكُمْ، وَهَاجَبْنَاكُمْ فَمَا أَفْحَمْنَاكُمْ. أَي: مَا وَجَدْنَاكُمْ بِخَلَاءٍ وَلَا جَبْنَاءٍ وَلَا مُفْحَمِينَ^(١). وَقِيلَ: نَزَلَتْ: «وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا» فِي عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ^(٢)؛ ذَكَرَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَحَكَاهُ النَّحَّاسُ^(٣) عَنْ سَفْيَانَ الثَّوْرِيِّ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ «الْحَقُّ» رَفَعَ عَلَى خَبَرِ الْإِبْتِدَاءِ الْمَضْمَر، أَي: قُل: هُوَ الْحَقُّ^(٤). وَقِيلَ: هُوَ رَفَعَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَخَبَرُهُ فِي قَوْلِهِ: «مِن رَّبِّكُمْ». وَمَعْنَى الْآيَةِ: قُل يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُمْ عَنْ ذِكْرِنَا: أَيُّهَا النَّاسُ، مِن رَّبِّكُمْ الْحَقُّ، فَإِلَيْهِ التَّوْفِيقُ وَالْخِذْلَانُ، وَبِيَدِهِ الْهُدَى وَالضَّلَالُ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَيُؤْمِنُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ فَيُكْفِرُ، لَيْسَ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَاللَّهُ يُؤْتِي الْحَقَّ مَنْ يَشَاءُ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا، وَيَحْرِمُهُ مَنْ يَشَاءُ وَإِنْ كَانَ قَوِيًّا غَنِيًّا، وَلَسْتُ بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ لِهَوَاكُم، فَإِنْ شِئْتُمْ فَأَمِنُوا، وَإِنْ شِئْتُمْ فَافْكُرُوا، وَلَيْسَ هَذَا بِتَرْخِيصٍ وَتَخْيِيرٍ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، وَإِنَّمَا هُوَ وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ. أَي: إِنْ كَفَرْتُمْ فَقَدْ أَعَدَّ لَكُمْ النَّارَ، وَإِنْ آمَنْتُمْ فَلَكُمْ الْجَنَّةُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أَي: أَعَدَدْنَا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ أَي: لِلْكَافِرِينَ الْجَاهِلِينَ^(٥)

(١) أمالي ابن الشجري ٢٢٦/١. و نقل محققه الدكتور محمود الطناحي رحمه الله عن هامش الأصل قول جمال الدين ابن هشام: هذه المقالة أعني كون «أغفلنا» بمعنى وجدناه غافلاً، تقدّمه إليها ابنُ جني، نصٌّ عليها في المحتسب وغيره، وحامله عليها الاعتزال.

(٢) تفسير الطبري ٢٤١/١٥، ومعاني القرآن للفراء ١٤٠/٢.

(٣) في معاني القرآن ٢٣١/٤.

(٤) معاني القرآن للأخفش ٦١٨/٢، وينظر البحر المحيط ١٢٠/٦.

(٥) تفسير الطبري ٢٤٤/١٥ - ٢٤٥.

﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ قال الجوهري^(١): السُرَادِقُ واحدُ السُرَادِقَاتِ التي تُمدُّ فوقَ صحنِ الدارِ، وكلُّ بيتٍ من كُرْسُفٍ فهو سُرَادِق. قال رؤبة^(٢):

يا حَكَمَ بْنَ المنذرِ بنِ الجارودِ سُرَادِقُ المجدِ عليك مَمْدُودُ
يقال: بَيْتٌ مُسَرَّدَق. وقال سلامة بن جندل يذكر أبرويزَ وقتله النعمانَ بن المنذر
تحت أرجل الفَيْلَةِ:

هو المُدْخِلُ النعمانَ بيتاً سماؤه صُدُورُ الفُيُولِ بعدَ بَيْتِ مُسَرَّدَقِ^(٣)
وقال ابن الأعرابي: «سرادقها» سورُها. وعن ابن عباس: حائِطٌ من نار^(٤).
الكلبي: عنقٌ تخرجُ من النار فتحيط بالكفار كالخطيرة^(٥). القُتَيْبِيُّ^(٦): السرادقُ
الحُجْرةُ^(٧) التي تكونُ حولَ الفسْطاط. وقاله ابنُ عُزَيزٍ^(٨). وقيل: هو دخان يحيط
بالكفار يوم القيامة، وهو الذي ذكره الله تعالى في سورة «المرسلات» حيث يقول:
﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾^{(٩)(١٠)} وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّمَنِ يَحْمُومُ﴾ [الواقعة: ٤٣] قاله قتادة.
وقيل: إنَّه البحر المحيطُ بالدنيا. وروى يَعْلَى بْنُ أُمِيَّةٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «البحرُ

(١) في الصحاح (سردق).

(٢) في ملحق ديوانه ص ١٧٢، وتفسير الطبري ١٥/٢٤٥ - ٢٤٦، ومجاز القرآن ١/٣٩٨ - ٣٩٩،
ونسبه سيويه في الكتاب ٢/٢٠٣، والأعلم الشنتمري في تحصيل عين الذهب ص ٣١٤ إلى رجل من
بني الجرماز.

(٣) البيت في ديوان سلامة ص ١٨٤، وتفسير الطبري ١٥/٢٤٦، ومجاز القرآن ١/٣٩٩، ونسبه
الأزهري في تهذيب اللغة ٩/٣٩٤ إلى الأعشى.

(٤) تفسير الطبري ١٥/٢٤٦.

(٥) تفسير السمرقندي ٢/٢٩٧.

(٦) في تفسير غريب القرآن ص ٢٦٧.

(٧) في (م): الحجرة.

(٨) في نزهة القلوب ص ٢٧٧.

(٩) آية ٣٠.

(١٠) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٦٧.

هو جهنم» ثم تلا: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ ثم قال: «والله لا أدخلها أبداً ما دمت حياً، ولا يُصيبني منها قطرة». ذكره الماوردي^(١). وخرَّج ابن المبارك^(٢) من حديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «لسرادق النار أربع جُدُر كُثِفَ كُلُّ جدارٍ مسيرة أربعين سنة». وخرَّجه أبو عيسى الترمذي^(٣)، وقال فيه: حديث حسن صحيح غريب. قلت: وهذا يدل على أن السرادق ما يعلو الكفار من دخان أو نار، وجُدُرُه ما وُصِفَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ قال ابن عباس: المُهْل ماءٌ غليظ مثل دُردي الزيت. مجاهد: القَيْح والْدَم. الضحاك: ماء أسود، وإن جهنم لسوداء، وماؤها أسود، وشجرها أسود، وأهلها سود^(٤). وقال أبو عبيدة: هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص، ونحاس وقزدير، فتموج بالغليان، فذلك المُهْل^(٥). ونحوه عن ابن مسعود^(٦). قال سعيد بن جبیر: هو الذي قد انتهى حره^(٧). وقال: المهل ضرب من القَطران، يقال: مهلت البعير فهو ممهول. وقيل: هو السم^(٨). والمعنى في هذه الأقوال متقارب. وفي الترمذي^(٩) عن النبي ﷺ في قوله: «كالمهل» قال: «كعكر الزيت فإذا قرَّبه إلى وجهه سقطت فروة وجهه» قال أبو عيسى: هذا حديث إنما نعرفه من حديث رشدين بن سعد، ورشدين قد تكلم فيه

(١) في النكت والعيون ٣/٣٠٣، وقول النبي ﷺ أخرجه الطبري ١٥/٢٤٦ - ٢٤٧، وأحمد (١٧٩٦٠).

(٢) في الزهد زيادات نعيم بن حماد (٣١٦).

(٣) في سننه برقم (٢٥٨٤).

(٤) تفسير الطبري ١٥/٢٤٩.

(٥) مجاز القرآن ١/٤٠٠.

(٦) أخرجه الطبري ١٥/٢٤٨.

(٧) تفسير الطبري ١٥/٢٥٠.

(٨) ينظر اللسان (مهل).

(٩) برقم (٢٥٨١)، من حديث أبي سعيد.

من قِبَلِ حَفِظِهِ. وَخَرَجَ عَنْ أَبِي أَمَامَةً، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦] قال: «يُقَرَّبُ إِلَىٰ فِيهِ فَيَكْرَهُهُ، فَإِذَا أُذِنَ مِنْهُ شَوَىٰ وَجْهَهُ وَوَقَعَتْ فَرَوْهُ رَأْسَهُ، فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِنْ دَبْرِهِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ [محمد: ١٥] يقول: ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشَوِيُ الْوُجُوهُ يَنَسُّكَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾» قال: حديثٌ غريبٌ^(١).

قلت: وهذا يدلُّ على صحة تلك الأقوال، وأنها مرادة، والله أعلم. وكذلك نصَّ عليها أهلُ اللغة. في «الصحاح»^(٢): «المهل»: النحاسُ المُذاب. ابن الأعرابي: المهلُّ: المذابُّ من الرصاص. وقال أبو عمرو: المهلُّ: دُرْدِيُّ الزيت. والمهلُّ أيضاً: القيقُ والصديدُ. وفي حديثِ أبي بكرٍ: ادفنوني في ثُوبَيَّ هذين؛ فإنهما للمُهْل والتراب^(٣).

و﴿مُرْتَفَقًا﴾ قال مجاهد: معناه: مجتمعاً كأنه ذهبٌ إلى معنى المرافقة^(٤). ابنُ عباس: منزلاً. عطاء: مقراً^(٥). وقيل: مهاداً. وقال القُتَيْبِيُّ^(٦): مجلساً. والمعنى متقاربٌ، وأصله من المتكأ، يقال منه: ارتفعتُ، أي: اتكأتُ على المرفق، قال الشاعر:

قالت له وارتفعتُ ألا فتى يسوقُ بالقوم غزالاتِ الضُّحَا^(٧)

(١) سنن الترمذي (٢٥٨٣).

(٢) مادة (مهل) دون قول ابن الأعرابي.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٨٧).

(٤) تفسير مجاهد ٣٧٦/١، وأخرجه عنه الطبري ٢٥٣/١٥، وهو في النكت والعيون ٣٠٣/٣.

(٥) تفسير البغوي ١٦٠/٣.

(٦) تفسير غريب القرآن ص ٢٦٧.

(٧) البيت في تفسير الطبري ٢٥٢/١٥، والنوادر ص ١٢٨، وأمالِي القالي ٩٦/٢، وأمالِي الزجاجي ص ١٢. وقال أبو زيد في النوادر ص ١٢٨: ويقال: لقيت فلاناً غزالة الضحى، ورأذ الضحى، وكهز الضحى، كل ذلك بعد ما تنبسط الشمس وتضحى غزالة.

ويُقال: ارتفع الرجل إذا نام على مرفقه لا يأتيه نوم. قال أبو ذؤيب الهذلي:
نام الحلي وبث الليل مُرتفقاً كأن عيني فيها الصاب مذبوح^(١)
الصاب: عصارَةُ شجر مر^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ ﴿٢٩﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَبْهَمُ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۖ ﴿٣٠﴾﴾

لما ذكر ما أعد للكافرين من الهوان، ذكر أيضاً ما للمؤمنين من الثواب، وفي الكلام إضمار، أي: لا نضيع أجر من أحسن منهم عملاً، فأما من أحسن عملاً من غير المؤمنين، فعمله مُحَبَّبٌ^(٣). و«عملاً» نصب على التمييز^(٤)، وإن شئت بإيقاع «أحسن» عليه. وقيل: «إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً» كلامٌ معترض، والخبرُ قوله: «أولئك لهم جنات عدن»^(٥) و«جَنَّتْ عَدْنٍ» سرُّ الجنة، أي: وسطها وسائرُ الجنات مُحَدَّقَةٌ بها، وذكرَت بلفظ الجمع لسعتها؛ لأنَّ كل بقعة منها تصلح أن تكون جنة^(٦). وقيل: العَدْنُ الإقامة^(٧)، يقال: عَدَنَ بالمكان إذا أقامَ به^(٨). وعَدَنَتِ البلد:

(١) ديوان الهذليين ص ١٠٤، وتفسير الطبري ٢٥٣/١٥، ومجاز القرآن ٤٠٠/١، والنكت والعيون ٣٠٤/٣.

وفي ديوان الهذليين: مشجرأ، بدل: مرتفقاً.
وصدره عند أبي عبيدة في مجاز القرآن:

إني أرقفت فبت الليل مرتفقاً

(٢) الصحاح (صوب).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٢٨٣/٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤٥٤/٢.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤٥٤/٢، والطبري ٢٥٤/١٥.

(٦) ذكر نحوه الرازي في التفسير ١٢٢/٢١.

(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢٨٣/٣.

(٨) تهذيب اللغة ٢١٨/٢.

توطنته. وَعَدْنَتِ الْإِبِلُ بِمَكَانٍ كَذَا: لزمته فلم تَبْرَحْ منه، ومنه «جَنَاتُ عَدْنٍ» أي: جَنَاتُ إقامَة. ومنه سُمِّيَ الْمَعْدِن، بكسر الدال؛ لأنَّ الناسَ يقيمون فيه بالصيف والشتاء. ومركزُ كلِّ شيءٍ مَعْدِنُهُ. والعادن: الناقةُ المقيمة في المرعى، وَعَدْنُ بَلَدٌ؛ قاله الجوهري^(١).

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ تقدَّم في غير موضع^(٢). ﴿يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو جمع سِوَار. قال سعيد بن جُبَيْر: على كلِّ واحدٍ منهم ثلاثةُ أسوِرة: واحدٌ من ذهب، وواحدٌ من وِرْق، وواحدٌ من لؤلؤ^(٣).

قلت: هذا منصوصٌ في القرآن، قال هنا: «من ذهب» وقال في «الحج» و«فاطر»^(٤): ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا﴾ وفي «الإنسان»^(٥): ﴿مِنْ فِضَّةٍ﴾. وقال أبو هريرة: سمعتُ خليلي ﷺ يقول: «تبلغُ الحَلِيَّةُ من المؤمن حيثُ يبلغُ الوضوء» خرَّجه مسلم^(٦). وحكى الفراء: «يَحَلَّونَ» بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة؛ يقال: حَلَّيتِ المرأةَ تَحْلِي فهي حَالِيَة إذا لبست الحَلِي. وحَلَّيَ الشيءَ بعيني يَحْلِي؛ ذكره النحاس^(٧). والسَّوَارُ سِوَارُ المرأة، والجمعُ أسورة، وجمع الجمع أساورَة. وقُرئ: «فلولا أَلْقِي عليه أساورَة من ذهب» [الزخرف: ٥٣] وقد يكون الجمع أساور. وقال الله تعالى: ﴿يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] و[الحج: ٢٣] قاله الجوهري^(٨).

(١) في الصحاح (عدن). والمقصود بمدينة عدن: المدينة المشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. معجم البلدان ٨٩/٤.

(٢) ينظر ٣٥٩/١.

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ١٤٧/٣، وابن الجوزي في زاد المسير ١٣٧/٥.

(٤) [الحج: ٢٣] و[فاطر: ٣٣].

(٥) آية: ٢١.

(٦) برقم (٢٥٠)، وسلف ٣٣٤/٧.

(٧) في إعراب القرآن ٤٥٥/٢.

(٨) في الصحاح (سور).

وقال ابنُ عُرَيز^(١): أساور جمع أسورة، وأسورة جمع سوار وسوار، وهو الذي يُلبَس في الذراع من ذهب، فإن كان من فضة فهو قُلب وجمعه قِلَبَة، فإن كان من قرْن أو عاج فهي مَسْكة وجمعه مَسَك. قال النحاس^(٢): وحكى قُطرب في واحد الأساور إسوار، وقُطرب صاحبُ شذوذ، قد تركه يعقوب وغيره، فلم يذكره.

قلت: قد جاء في «الصحاح»: وقال أبو عمرو بن العلاء: واحدها إسوار^(٣). وقال المفسرون: لَمَّا كانتِ الملوك تلبَسُ في الدنيا الأساورَ والتيجانَ، جعلَ الله تعالى ذلك لأهل الجنة^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلْيَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ السُّندُس: الرقيقُ النحيف، واحده سندسة؛ قاله الكسائي^(٥). والإستبرق: ما تُخَن منه - عن عكرمة^(٦) - وهو الحرير. قال الشاعر:

تَراهنَّ يَلْبَسْنَ المشاعرَ مَرَّةً وإِستبرقُ الديباجِ طَوْرًا لِباسُهَا^(٧)
فالإستبرقُ الديباج. ابن بحر: المنسوجُ بالذهب^(٨). القُتْبِي^(٩): فارسي معرب. الجوهري^(١٠): وتصغيره أُبَيْرِق. وقيل: هو استفعل من البريق. والصحيحُ أَنَّهُ وفاقُ بين

(١) في نزهة القلوب ص ٨٥.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٥، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٣.

(٣) الصحاح (سور). ومثل قول أبي عمرو هذا قولُ الكسائي في ما تلحن فيه العامة ص ١١٦: ويقال: سوار المرأة، للذي يكون في يدها، ويقال: إسوار بالالف وبغير ألف. فلم يتفرد قطرب بذلك.

(٤) زاد المسير ٥/ ١٣٧.

(٥) نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٥.

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٣٤)، وابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٧ قال: الإستبرق الديباج الغليظ.

(٧) نسبه الطبري ١٥/ ٢٥٥، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٠٤ - ٣٠٥ إلى المرقش.

(٨) النكت والعيون ٣/ ٣٠٥.

(٩) في تفسير غريب القرآن ص ٢٦٧.

(١٠) في الصحاح (برق).

اللغتين؛ إذ ليس في القرآن ما ليس من لغة العرب^(١)، على ما تقدّم، والله أعلم.
وخصّ الأخضرَ بالذكر؛ لأنه الموافق للبصر؛ لأن البياض يُبدّد النظرَ ويُؤلم،
والسوادُ يُذم، والخضرةُ بينَ البياض والسواد، وذلك يجمع الشعاع. والله أعلم.

روى النسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ
إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله، أخبرنا عن ثياب الجنة، أخلق يُخلق أم نسج
ينسج؟ فضحك بعض القوم. فقال لهم: «مّم تضحكون من جاهل يسأل عالماً؟»
فجلس يسيراً أو قليلاً، فقال رسول الله ﷺ: «أين السائل عن ثياب الجنة؟» فقال:
هاهو ذا يا رسول الله، قال: «لا بل تشقّق عنها ثمر الجنة» قالها ثلاثاً^(٢).

وقال أبو هريرة: دار المؤمن درّة مجوّفة في وسطها شجرة تُنبِت الحُللَ، ويأخذُ
بأصبعه - أو قال بأصبعيه - سبعين حُلّةً منظمّة بالدّر والمرجان. ذكره يحيى بن سلام في
«تفسيره»، وابن المبارك في «رقائقه»^(٣). وقد ذكرنا إسنادَه في كتاب «التذكرة»^(٤).
وذكر في الحديث أنّه يكون على كلّ واحد منهم الحلة لها وجهان لكل وجه لون،
يتكلمان بصوتٍ يستحسنه سامعه، يقول أحدهما للآخر: أنا أكرمُ على وليّ الله
منك، أنا أليّ جسده وأنت لا تلي. ويقول الآخر: أنا أكرمُ على وليّ الله منك، أنا

(١) قال الجواليقي في المعرب ص ٥٢ - ٥٣: فأما ما ورد منه، فقد اختلف فيه أهل العلم، فقال بعضهم: كتاب الله تعالى ليس فيه شيء من غير العربية. وأسندَه إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم في أحرف كثيرة أنه من غير لسان العرب مثل: سجيل، والمشكاة، واليم، والطور، وأباريق، وإستبرق، وغير ذلك فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيدة ولكنهم ذهبوا إلى مذهب، وذهب هذا إلى غيره. وكلاهما مصيب إن شاء الله تعالى.

وقال الشافعي في الرسالة ص ٤٢: والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب.

(٢) السنن الكبرى للنسائي (٥٨٤١)، وهو عند أحمد (٦٨٩٠).

(٣) الزهد (زوائد نعيم بن حماد) (٢٦٢)، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٢٩/١٣، وهناد في الزهد (١٢٥). وفي إسنادَه أبو المَهْزَم واسمه يزيد بن سفيان، وهو متروك. وأورده المصنف في التذكرة ص ٥٠٢ من طريق يحيى بن سلام.

(٤) ص ٥٠٢.

أَبْصِرْ وَجْهَهُ وَأَنْتَ لَا تُبْصِرُ^(١).

قوله تعالى: ﴿مُتَكِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ «الأرائك» جمع أريكة، وهي السرر في الحِجَال^(٢). وقيل: الفرش في الحِجَال؛ قاله الزجاج^(٣). ابن عباس: هي الأسرة من ذهب، وهي مكللة بالدُر والياقوت عليها الحِجَال^(٤). الأريكة ما بين صنعاء إلى أيلة، وما بين عدن إلى الجابية.

وأصل «متكئين» مُتَوَكِّئِينَ، وكذلك اتكأ أصله اوتكأ، وأصل التُّكَاةُ وَكَاةٌ؛ ومنه: التَوَكُّؤُ لِلتَّحَامِلِ عَلَى الشَّيْءِ، فَقُلِبَتِ الْوَاوُ تَاءً وَأُدْغِمَتْ^(٥). ورجل تُكَاةٌ^(٦) كثير الاتكاء.

﴿نِعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يعني: الجنات، عكس «وساءت مرتفقاً». وقد تقدّم. ولو كان «نِعْمَتٌ» لجاز؛ لأنه اسم للجنة. وعلى هذا «وحسنت مرتفقاً».

وروى البراء بن عازب، أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَامَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حِجَةِ الْوُدَاعِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ واقفٌ بعرفاتٍ على ناقته العُضْبَاءُ فقال: إني رجلٌ مسلمٌ، فأخبرني عن هذه الآية «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» الآية؛ فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «ما أنت منهم ببعيد، ولا هم ببعيد منك، هم هؤلاء الأربعة: أبو بكر وعمر، وعثمان وعليّ، فأُعْلِمَ قَوْمَكَ أَنَّ هذه الآية نزلت فيهم». ذكره الماوردي^(٧). وأسند النحاس في كتاب «معاني القرآن»^(٨) قال: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنُ سَهْلٍ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ

(١) أورده المصنف في التذكرة ص ٥٠٢، عن أبي هريرة قال: بلغني أَنَّ ولي الله...، فذكره.

(٢) تفسير الطبري ٢٥٥/١٥، والحجّال جمع حَجَلَة، وهي بيت يُزِين بالثياب والأسرة والستور. الصحاح (حجل).

(٣) في معاني القرآن ٢٨٤/٣.

(٤) الوسيط ١٤٧/٣.

(٥) ينظر سر الصناعة ١٤٦/١.

(٦) في (د) و(م): وَكَاةٌ، والمثبت من (ظ) و(ز) و(ف) وهو الموافق لما في الصحاح (وكأ).

(٧) في النكت والعيون ٣/٣٠٤.

(٨) ٢٣٥/٤.

حميد قال: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ الزُّرَّيْسِ، عَنْ زَهِيرِ بْنِ معاوية، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ البراءِ بْنِ عازِبٍ قال: قامَ أعرابي...؛ فذكره. وأسنده السُّهَيْلِيُّ في كتاب «الإعلام»^(١). وقد رويناه جميع ذلك بالإجازة، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا زَجَلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْتَهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۖ كِلَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظَاهِرْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ۖ وَكَانَ لَمْ تَمُرُّ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا زَجَلَيْنِ﴾ هذا مثلٌ لمن يَتَعَزَّزُ بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين، وهو متَّصل بقوله: «واصبر نفسك». واختلف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما؛ فقال الكلبي: نزلت في أخوين من أهل مكة مخزوميين، أحدهما مؤمنٌ وهو أبو سلمة عبدُ الله بنُ عبد الأسد بنِ هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، زوجُ أم سلمة قبل النبي ﷺ. والآخرُ كافرٌ وهو الأسود^(٢) بن عبد الأسد، وهما الأخوان المذكوران في سورة الصافات في قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١]، وَرِثَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَرْبَعَةَ آلَافِ دِينَارٍ، فَأَنْفَقَ أَحَدُهُمَا مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَطَلَبَ مِنْ أَخِيهِ شَيْئًا فَقَالَ مَا قَالَ...؛ ذكره الثعلبيُّ والقشيريُّ. وقيل: نزلت في النبي ﷺ وأهل مكة. وقيل: هو مثلٌ لجميع مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَجَمِيعَ مَنْ كَفَرَ. وقيل: هو مَثَلٌ لِّعُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ وَأَصْحَابِهِ مَعَ سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ؛ شَبَّهَهُمُ اللَّهُ بِرَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَوَيْنِ أَحَدُهُمَا مُؤْمِنٌ وَاسْمُهُ يَهُوذَا، فِي قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وقال مقاتل: اسمه تَمْلِيخَا. والآخرُ كافرٌ واسمُه قَرطُوش^(٣) وهما اللذان وصفَهُمَا اللَّهُ تعالى في

(١) التعريف والإعلام ص ١٠١، من طريق النحاس.

(٢) في (ظ): الأسود.

(٣) في (ظ) و(ف): قَرطُوش، وبعدها في (ظ): القزويني قَرطيس. وبعدها في (د): القرنوي قَرطُوش.

وبعدها في (ز): القرنوي قَرطُوش.

سورة الصافات^(١). وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ قال: اسمُ الحَيِّرِ منهما تملِيخاً، والآخر قرطوش^(٢)، وأنهما كانا شريكين ثم اقتسما المالَ فصارَ لكل واحدٍ منهما ثلاثة آلاف دينار، فاشتري المؤمنُ منهما عبيداً بألف وأعتقهم، وبالألفِ الثانية ثياباً فكسا العُرَاءَ، وبالألفِ الثالثة طعاماً فأطعمَ الجُوعَ، وبني أيضاً مساجد، وفعل خيراً. وأمّا الآخرُ فنكحَ بماله نساء ذواتِ يَسَارٍ، واشتري دوابَّ وبقراً فاستنتجها فنمت له نماءً مُفْرِطاً، واتَّجرَ بباقيها فربحَ حتى فاقَ أهلَ زمانه غِنًى، وأدركتِ الأوَّلُ الحاجةَ، فأراد أن يستأجر^(٣) نفسه في جنة يخدمها فقال: لو ذهبتُ لشريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعضِ جناته رجوتُ أن يكونَ ذلك أصلحَ بي، فجاءه فلم يَكِدْ يصل إليه من غلظِ الحُجَّابِ، فلَمَّا دخل عليه وعَرَفَه وسأله حاجته قال له: أَلَمْ أَكُنْ قاسمَتِكَ المالَ شطرين^(٤)؟ فما صنعتَ بمالكِ؟ قال: اشتريتُ به من الله تعالى ما هو خيرٌ منه وأبقى. فقال: أَتُنَكُّ لِمَنِ المَصَدُّقِينَ؟! ما أظنُّ الساعةَ قائمةً، وما أراكِ إلا سفيهاً، وما جزاؤك عندي على سفاهتِكَ إلا الحرمانُ، أو ما ترى ما صنعتُ أنا بمالي حتى آلَ إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أَنِّي كَسَبْتُ وَسَفُهْتُ أَنْتَ، اخرج عني. ثم كان من قصةِ هذا الغنيِّ ما ذكره الله تعالى في القرآنِ من الإحاطةِ بثمره وذهابها أصلاً بما أرسلَ عليها من السماءِ من الحُسبانِ^(٥). وقد ذكر الثعلبيُّ هذه القصةَ بلفظٍ آخر، والمعنى متقارب. قال عطاء: كانا شريكين لهما ثمانية آلاف دينار. وقيل: ورثاه من أبيهما وكانا أخوين فاقتهما، فاشتري أحدهما أرضاً بألف دينار، فقال صاحبه: اللهمَّ إن فلاناً قد اشتري أرضاً بألف دينار، وإنني اشتريتُ منك أرضاً

(١) ينظر بحر العلوم ٢/٢٩٨، والمحرر ٣/٥١٥، والكشاف ٢/٤٨٣، وزاد المسير ٥/١٣٩، ومعاني القرآن للزجاج ٣/٢٨٤.

(٢) في (ظ) و(ز): قرطس، وفي (د) قرطش، وفي التعريف والإعلام ص ١٠٢، والكلام منه: موطن.

(٣) في (م): يستخدم.

(٤) في (م) و(د) و(ز): نصفين، والمثبت من (ظ) و(ف) ومن التعريف والإعلام ص ١٠٢، والكلام منه.

(٥) التعريف والإعلام ص ١٠٢.

في الجنة بألف دينار، فتصدَّق بها، ثم إنَّ صاحبه بنى داراً بألف دينار، فقال: اللهمَّ إن فلاناً بنى داراً بألف دينار وإنِّي أشتري^(١) منك داراً في الجنة بألف دينار، فتصدَّق بها، ثم تزوج امرأةً فأنفق عليها ألف دينار، فقال: اللهمَّ إن فلاناً تزوج امرأةً بألف دينار، وإنِّي أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار. ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار، وإنِّي أشتري منك خدماً ومتاعاً من الجنة بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار. ثم أصابته حاجةٌ شديدةٌ فقال: لعلَّ صاحبي ينالني معروفه، فاتاه فقال: ما فعل مالك؟ فأخبره قصته فقال: وإنَّك لمن المُصدِّقين بهذا الحديث! والله لا أعطيك شيئاً!^(٢) ثم قال له: أنتَ تعبدُ إله السماء، وأنا لا أعبدُ إلا صنماً، فقال صاحبه: والله لأعظنه، فوعظه وذكَّره وخوَّفه. فقال: سرُّ بنا نصطلي^(٣) السمك، فمَن صَادَ أكثر فهو على حقٍّ؛ فقال له: يا أخي! إنَّ الدنيا أحقرُّ عند الله من أن يجعلها ثواباً لمحسن، أو عقاباً لكافر. قال: فأكرهه على الخروج معه، فابتلاههما الله، فجعل الكافرُ يرمي شبكتَه ويسمي باسمِ صنمه، فتطلع متدققةً^(٤) سمكاً. وجعل المؤمنُ يرمي شبكتَه ويسمي باسمِ الله، فلا يطلع له فيها شيء؛ فقال له: كيف ترى! أنا أكثرُ منك في الدنيا نصيباً ومنزلةً ونقراً^(٥)، كذلك أكون أفضلُ منك في الآخرة إن كان ما تقولُ بزعمك حقاً. قال: فضجَّ المَلَكُ الموكِّلُ بهما، فأمرَ الله تعالى جبريلَ أن يأخذه فيذهب به إلى الجنان فيريه منازلَ المؤمنين فيها، فلما رأى ما أعدَّ الله له قال: وعزَّتكَ لا يضرُّه ما ناله من الدنيا بعدَ ما يكون مصيره إلى هذا؛ وأراه منازلَ الكافرِ في جهنم فقال: وعزَّتكَ لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا^(٦). ثم إنَّ

(١) في (ظ) و(ز) و(ف): اشتريت.

(٢) تفسير البغوي ١٦١/٣.

(٣) في النسخ الخطية: نصطاد.

(٤) في (ظ) و(ز): مندققة.

(٥) في (د) و(ز): وكفراً، وفي (ف): وبقراً.

(٦) أخرجه بنحوه ابن المبارك في الزهد (٦٢١) عن عطية الخراساني مرسلًا.

الله تعالى تَوَفَّى المؤمن وأهلك الكافر بعذاب من عنده، فلما استقرَّ المؤمن في الجنة ورأى ما أعدَّ الله له؛ أقبل هو وأصحابه يتساءلون، فقال: «إني كان لي قَرِينٌ. يقول أئتتك لمن المصدِّقين» الآية، فنادى منادٍ: يا أهل الجنة! هل أنتم مطَّلعون، فاطلع إلى جهنم فرآه في سواء الجحيم، فنزلت «واضرب لهم مثلاً».

بيَّن الله تعالى حال الأخوين في الدنيا في هذه السورة، وبين حالهما في الآخرة في سورة الصافات في قوله: ﴿إِنِّي كَانُ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَأُنْكَ لَيِّنَ الْمَصَدِّقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لِيُنْثَلْ هَذَا فَلَيعْمَلِ الْعَمِلُونَ﴾^(١).

قال ابن عطية^(٢): وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه في عجائب البلاد أن بحيرة تَنِيْس^(٣) كانت هاتين الجنتين، وكانتا لأخوين، فباع أحدهما نصيبه من الآخر فأنفق في طاعة الله حتى عبَّره الآخر، وجرت بينهما المحاوراة فغرقها الله تعالى في ليلة، وإياها عني بهذه الآية.

وقد قيل: إنَّ هذا مثلُ ضربه الله تعالى لهذه الأمة، وليس بخبر عن حال متقدمة، لتزهَّد في الدنيا وترغب في الآخرة، وجعله زجراً وإنذاراً؛ ذكره الماوردي^(٤). وسياق الآية يدلُّ على خلافِ هذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَحَفَفْتَنَاهُ بِنَخْلٍ﴾ أي: أطفناهما من جوانبهما بنخل^(٥). والجفافُ الجانب، وجمعه أحيقة^(٦)؛ ويقال: حَفَّ القومُ بفلان يحفُّون حَفًّا، أي: طافوا به، ومنه ﴿حَافِيَتَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَبَاجًا﴾ أي: جعلنا حولَ

(١) آية ٥١ حتى ٦١.

(٢) في المحرر الوجيز ٥١٥/٣.

(٣) جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمايط، والفرما في شرقها. معجم البلدان ٥١/٢.

(٤) في النكت والعيون ٣٠٦/٣.

(٥) الطبري ٢٥٧/١٥.

(٦) في (ظ): أحفية.

الأعنان النخل، ووسط الأعنان الزرع. ﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ﴾ أي: كل واحد من الجنتين ﴿ءَأَنْتَ أَكْلَهُمَا﴾ تأماً^(١)، ولذلك لم يقل: آتنا. واختلف في لفظ «كَلْنَا وَكِلا» هل هو مفرد أو مثني؛ فقال أهل البصرة: هو مفرد؛ لأن «كِلا وكلتا» في تأكيد الاثنين نظير «كُلٌّ» في المجموع، وهو اسم مفرد غير مثني؛ فإذا ولي اسماً ظاهراً^(٢) كان في الرفع والنصب والخفض على حالة واحدة، تقول: رأيتُ كِلا الرجلين، وجاءني كِلا الرجلين، ومررت بكِلا الرجلين؛ فإذا اتصل بمضمر؛ قلبت الألف ياء في موضع الجر والنصب، تقول: رأيتُ كِلَيْهِمَا، ومررتُ بكِلَيْهِمَا، كما تقول: عليهما. وقال الفراء^(٣): هو مثني، وهو مأخوذ من كُلٌّ، فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية. وكذلك كلتا للمؤنث، ولا يكونان إلا مضافين، ولا يُتَكلم بواحد، ولو تُكلم به ل قيل: كِلْ وكلت وكِلان وكِلتان. واحتج بقول الشاعر:

فِي كِلْتِ رَجُلِيهَا سُلَامَى وَاحِدَةً كِلْتَاهُمَا مَقْرُونَةٌ بِزَائِدَةٍ^(٤)
أراد: في إحدى رجلَيْها فأفرد. وهذا القول ضعيف عند أهل البصرة؛ لأنه لو كان مثني؛ لوجب أن تكون ألفه في النصب والجر ياء مع الاسم الظاهر، ولأن معنى «كِلا» مخالف لمعنى «كل»؛ لأن «كَلًّا» للإحاطة و«كِلا» يدل على شيء مخصوص،

(١) تفسير البغوي ١٦١/٣، وتهذيب اللغة ٣/٤.

(٢) قوله: ولي اسماً ظاهراً، كذا وقع في النسخ والصحاح (كلى) والكلام منه، وكذا نقله ابن منظور في اللسان (كلى)، وفي العبارة نظر، والصواب فيها أن يقول: وليه اسم ظاهر.

وينظر الإنصاف ٤٤٨/٢ - ٤٤٩، وأمالى ابن السجري ٢٩٠/١ - ٢٩١.

(٣) ينظر معاني القرآن ١٤٢/٢ - ١٤٣، والكلام بحرفيته في الصحاح (كلى) وعنه نقل المصنف.

(٤) البيت في تفسير الطبري ٢٥٨/١٥، ومعاني القرآن للفراء ١٤٢/٢، والصحاح، واللسان (كلى) وخزانة الأدب ١٢٩/١ دون نسبة.

وقال البغدادى في الخزانة ١٢٩/١ - ١٣٠: رأيت في حاشية الصحاح أن هذا البيت من رجز يصف به نعاماً، فضمير رجلَيْها عائد على النعام. والسُّلامَى على وزن حُبَارَى: عظم في فرسين البعير، وعظام صغار طول إصبع أو أقل في اليد والرجل، والجمع سلاميات، والفرسين بكسر أوله وثالثه، هو للبعير بمنزلة الحافر للفرس.

وأما هذا الشاعر؛ فإنما حذف الألف للضرورة، وقدّر أنها زائدة، وما يكون ضرورة لا يجوز أن يُجعل حجة، فثبت أنه اسم مفرد كَمَعَى، إلا أنه وُضع ليدل على التثنية، كما أن قولهم: «نحن» اسم مفرد يدل على اثنين فما فوقهما، يدلُّ على ذلك قولُ جرير:

كَلَا يَوْمِي أَمَامَةَ يَوْمٍ صَدُّ وإن لم نأتها إلّا لِمَا^(١)
فأخبر عن «كلا» بيوم مفرد، كما أفردَ الخبرَ بقوله: «آتت» ولو كان مثني لقال: آتتا، ويوما. واختلف أيضاً في ألف «كلتا»؛ فقال سيبويه^(٢): ألف «كلتا» للتأنيث والتاء بدل من لام الفعل وهي واو، والأصل كلّوا، وإنما أبدلت تاء؛ لأن في التاء علم التأنيث، والألف في «كلتا» قد تصير ياء مع المضمر، فتخرج عن علم التأنيث، فصار في إبدال الواو تاء تأكيداً للتأنيث.

وقال أبو عمر الجرمي: التاء ملحقة بالألف لام الفعل، وتقديرها عنده: فَعْتَلَّ، ولو كان الأمر على ما زعم؛ لقالوا في النسبة إليها: كَلْتَوِي، فلما قالوا: كِلَوِي، وأسقطوا التاء دلّ على أنهم أجروها مُجرى التاء في أخت إذا نسبت إليها قلت: أَخَوِي؛ ذكره الجوهري^(٣).

قال أبو جعفر النحاس^(٤): وأجاز النحويون في غير القرآن الحمل على المعنى، وأن تقول: كلتا الجنتين آتتا أكلهما؛ لأن المعنى: الجنتان^(٥) كلتاها آتتا، وأجاز الفراء^(٦):

(١) ديوان جرير ٧٧٨/٢، وفيه: صدق بدل صد، وقال محمد بن حبيب في شرحه: أي: يوم صالح، كما تقول: رجل صدق، أي: صالح.

والبيت في كتاب الشعر للفارسي ١٢٦/١، والصحاح (كلى).

(٢) ينظر الكتاب ٣١٧/٤.

(٣) في الصحاح (كلى).

(٤) في إعراب القرآن ٤٥٥/٢.

(٥) في (د) و(ز) و(م): المختار، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس.

(٦) في معاني القرآن ١٤٢/٢ - ١٤٣، ونقل كلامه من إعراب القرآن للنحاس ٤٥٥/٢.

كلتا الجنتين آتى أكله، قال: لأنَّ المعنى: كل^(١) الجنتين. قال: وفي قراءة عبد الله «كلُّ الجنتين آتى أكله»^(٢). والمعنى على هذا عند الفراء^(٣): كل شيء من الجنتين آتى أكله. والأكل، بضم الهمزة: ثمر النخل والشجر وكل ما يؤكل فهو أكل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَكْلُهَا دَائِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥] وقد تقدم^(٤). ﴿وَلَمْ تَطْلُرْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لم تنقص.

قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ أي: أجرينا وشققنا وسط الجنتين بنهر. ﴿وَكَانَ لَهُ نَمْرٌ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم ويعقوب وابن أبي إسحاق «نمر» بفتح الشاء والميم^(٥)، وكذلك قوله: «وأحيط بثمره» جمع ثمرة.

قال الجوهري: الثمرة واحدة الثمر والثمرات، وجمع الثمر ثمار، مثل جبل وجبال. قال الفراء: وجمع الثمار ثمر، مثل كتاب وكُتُب، وجمع الثمر أثمار؛ مثل أعناق وعُنُق. والثمر أيضاً المال المثمر؛ يخفف ويثقل. وقرأ أبو عمرو «وكان له ثمر» بضم الشاء وإسكان الميم، وفسره بأنواع المال^(٦). الباقر بضمها في الحرفين^(٧). قال ابن عباس: ذهب وفضة وأموال^(٨). وقد مضى في «الأنعام» نحو هذا مبيناً^(٩) وذكر النحاس^(١٠): حدثنا أحمد بن شعيب قال: أخبرني عمران بن بكار قال: حدثنا

(١) في إعراب القرآن: أكل.

(٢) معاني القرآن للفراء ١٤٣/٢، والكشاف ٤٨٤/٢.

(٣) في معاني القرآن ١٤٣/٢.

(٤) ٨١/١٢.

(٥) ينظر السبعة ص ٣٩٠، والتيسير ص ١٤٣، والمحزر الوجيز ٥١٦/٣، والبحر المحيط ١٢٥/٦.

(٦) الصحاح (نمر)، وقراءة أبي عمرو في التيسير ص ١٤٣، والسبعة ص ٣٩٠، والمحزر الوجيز ٥١٦/٣.

(٧) التيسير ص ١٤٣، والسبعة ص ٣٩٠.

(٨) أخرجه الطبري ٢٦٠/١٥، بلفظ: أنواع المال.

(٩) ٤٧٤/٨.

(١٠) في معاني القرآن ٢٤٠/٤.

إبراهيم بن العلاء الزبيدي قال: حَدَّثَنَا شُعَيْبُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنَا ^(١) هَارُونُ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبَانُ بْنُ تَغْلِبٍ ^(٢)، عَنْ الْأَعْمَشِ، أَنَّ الْحَجَّاجَ قَالَ: لَوْ سَمِعْتُ أَحَدًا يَقْرَأُ «وَكَانَ لَهُ ثُمْرٌ» لَقَطَعْتُ لِسَانَهُ؛ فَقُلْتُ لِلْأَعْمَشِ: أَتَأْخُذُ بِذَلِكَ؟ فَقَالَ: لَا! وَلَا نَعْمَةَ عَيْنٍ ^(٣). فَكَانَ يَقْرَأُ «ثُمْرٌ» وَيَأْخُذُهُ مِنْ جَمْعِ الثَّمَرِ. قَالَ النَّحَّاسُ: فَالتَّقْدِيرُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ أَنَّهُ جَمَعَ ثَمَرَةً عَلَى ثِمَارٍ ^(٤)، ثُمَّ جَمَعَ ثِمَارَ عَلَى ثُمْرٍ؛ وَهُوَ حَسَنٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا أَنَّ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ أَشْبَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: «كَلَّمْنَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا» يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهُ ثَمْرًا.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَصَنِيعِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي: يراجعه في الكلام ويُجاوبه. والمحاورة المجاورة، والتحاوُرُ التجاوب. ويقال: كَلَّمْتُهُ فَمَا أَحَارَ إِلَيَّ جَوَابًا، وَمَا رَجَعَ إِلَيَّ حَوِيرًا وَلَا حَوِيرَةً، وَلَا مَحْوَرَةً وَلَا حَوَارًا، أي: مَا رَدَّ جَوَابًا ^(٥). ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ النفر: الرهط وهو ما دون العشرة ^(٦). وأراد هاهنا الاتِّبَاعَ والخدمَ والولد، حسبما تقدَّم بيَّانه.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ قيل: أَخَذَ بِيَدِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ يُطِيفُ بِهِ فِيهَا وَيُزِيرُهُ إِيَّاهَا ^(٧)، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي: بِكُفْرِهِ ^(٨)، وهو جملةٌ في موضع الحال. وَمَنْ

(١) ليست في (م).

(٢) قوله: ابن تغلب، في (د) و(ز) و(م): عن ثعلب، والمثبت من (ظ) و(ف) وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٢٤٠/٤.

(٣) نَعِمَتِكَ وَأَنْعَمَ بِكَ عَيْنًا: أَقْرَبَكَ عَيْنٍ مِنْ تَحِبِّهِ. القاموس المحيط (نعم)، وذكر فيها اثنا عشر وجهًا.

(٤) في (ظ): أثمار.

(٥) الصحاح (حور).

(٦) تهذيب اللغة ٢٠٩/١٥.

(٧) الوسيط ١٤٨/٣.

(٨) الطبري ٢٦٢/١٥.

أدخلَ نفسه النار بكفره؛ فهو ظالمٌ لنفسه، ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ يَبَدَّ هَذِهِ أَبَدًا﴾ أنكر فناء الدنيا^(١)، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: لا أحسبُ البعثَ كائناً، ﴿وَلَكِنْ رُودَتْ إِلَى رَبِّي﴾ أي: وإن كان بعثٌ، فكما أعطاني هذه النعمَ في الدنيا، فسيعطيني أفضلَ منه؛ لكرامتي عليه^(٢)، وهو معنى قوله: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ وإنما قال ذلك، لما دعاه أخوه إلى الإيمان بالحشر والنشر. وفي مصاحف مكة والمدينة والشام «منهما»، وفي مصاحف أهل البصرة والكوفة «منها» على التوحيد، والثنية أولى؛ لأنَّ الضمير أقربُ إلى الجنتين^(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَمْ صَاحِبُهُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ (٢٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَمْ صَاحِبُهُهُ﴾ يهوذا أو تملیخا، على الخلاف في اسمه: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ وعظه وبين له أن ما اعترف به من هذه الأشياء التي لا يُنكرها أحدٌ أبدع من الإعادة. و«سَوَّكَ رَجُلًا» أي: جعلك معتدلاً القائمة والخلق، صحيح الأعضاء، ذكراً^(٤) «لَكِنَّ»^(٥) هُوَ اللَّهُ رَبِّي كذا قرأه أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ وأبو العالية^(٦)، وروى عن الكسائي. «لَكِنَّ هُوَ اللَّهُ» بمعنى لكنَّ الأمر هو الله ربِّي، فأضمر اسمُها فيها. وقرأ الباقر «لكننا» بإثبات الألف^(٧). قال الكسائي: فيه تقديم وتأخير، تقديره: لكنَّ الله هو ربِّي أنا، فحذفت الهمزة من «أنا»

(١) في (م) و(د) و(ز): الدار، والمثبت من (ف) و(ظ)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للزجاج ٢٨٥/٣، والوسيط ١٤٩/٣، وزاد المسير ١٤٢/٥.

(٢) الوسيط ١٤٩/٣، ومعاني القرآن للزجاج ٢٨٦/٣.

(٣) المحرر الوجيز ٥١٧/٣، وزاد المسير ١٤٢/٥ - ١٤٣.

(٤) الطبري ٢٦٣/١٥.

(٥) في (ظ) و(د) و(م): لكناً، والمثبت من (ز) و(ف)، وهو الموافق لما في فتح القدير ٢٨٧/٣.

(٦) لم نقف عليهما عند غير المصنف.

(٧) السبعة ص ٣٩١، والتيسير ص ١٤٣.

طلباً للخفة؛ لكثرة الاستعمال، وأُدغمت إحدى النونين في الأخرى، وحُذفت ألف «أنا» في الوصل وأُثبتت في الوقف^(١).

وقال النحاس^(٢): مذهبُ الكسائي والفرّاء والمازنيّ أنَّ الأصلَ: لكن أنا، فأُلقيت حركةُ الهمزة على نون لكن، وحُذفت الهمزة، وأُدغمتِ النونُ في النون، فالوقفُ عليها لكنّا، وهي ألفُ أنا؛ لبيان الحركة. وقال أبو عبيد: الأصلُ لكن أنا، فحُذفت الألف فالتقت نونان، فجاء بالتشديد لذلك، وأنشدنا الكسائي:

لَهَنَّاكَ مِنْ عَبْسِيَّةٍ لَوْسِيَمَةٍ عَلَى هَنَوَاتٍ كَاذِبٍ مِنْ يَقُولُهَا^(٣)
أَرَادَ: لله إنَّكَ، فأسقط إحدى اللَّامين من (له)، وحذف الألف من إنَّكَ. وقال آخرُ فجاء به على الأصل:

وَتَرْمِينِي بِالطَّرْفِ أَي أَنْتَ مَذْنِبٌ وَتَقْلِينَنِي لَكِنْ إِيَّاكَ لَا أَقْلِي^(٤)
أي: لكن أنا. وقال أبو حاتم: ورَوَوْا عن عاصم «لكنّا»^(٥) هو الله ربي» وزعم أنَّ هذا لحن، يعني: إثبات الألف في الإدراج. قال الزجاج^(٦): إثبات الألف في «لكنّا» هو الله ربي» في الإدراج جيد؛ لأنه قد حُذفت الألف من أنا، فجاءوا بها عوضاً. قال: وفي قراءة أبيّ «لكنّ أنا هو الله ربي». وقرأ ابن عامر والمسيبي^(٧) عن نافع

(١) معاني القرآن للزجاج ٢٨٦/٣.

(٢) في إعراب القرآن ٤٥٦/٢ - ٤٥٧، وينظر معاني القرآن للفراء ١٤٤/٢.

(٣) البيت في الصحاح (لهن)، والخزانة ٣٤٤/١٠.

(٤) البيت في معاني القرآن للفراء ١٤٤/٢، والمغني ص ١٠٦ و ٥٢٣ و ٥٣٩، وشرح المفصل لابن يعيش ١٤٠/٨، والخزانة ٢٢٥/١١.

(٥) في إعراب القرآن للنحاس ٤٥٧/٢، والكلام منه: لكنّا.

(٦) في معاني القرآن وإعرابه ٢٨٧/٣.

(٧) في (م): المسيلي، وفي (ظ): المثنى، وهما تحريف، والمسيبي هو: إسحاق بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المسيب إمام جليل عالم بالحديث قيم في قراءة نافع ضابط لها محقق فقيه، قرأ على نافع وغيره. طبقات القراء لابن الجزري ١٥٧/١.

ورؤيس عن يعقوب «لكننا» في حال الوقف والوصل معاً بإثبات الألف^(١). وقال الشاعر:

أنا سيفُ العشيرة فاعرفوني حميداً قد تَذَرَيْتُ السَّناما^(٢)
وقال الأعشى:

فكيف أنا وانتحالي القواف يَ بعدَ المشيبِ كفى ذاك عارا^(٣)
ولا خلاف في إثباتها في الوقف.

﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ «هو» ضميرُ القصيدة والشأن والأمر، كقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. ﴿وَلَا أَشْرُكَ بِرَبِّ أَحَدًا﴾ دلٌّ مفهومه على أنَّ الأخ الآخر كان مشركاً بالله تعالى يعبد غيره. ويحتملُ أنه أراد: لا أرى الغنى والفقر إلا منه، وأعلم أنه لو أراد أن يسلب صاحب الدنيا دنياه قَدَر عليه، وهو الذي آتاني الفقر. ويحتمل أنه أراد: جحودك البعث مصيره إلى أنَّ الله تعالى لا يقدر عليه، وهو تعجيزُ الرب سبحانه وتعالى، ومَنْ عَجَّزَه سبحانه وتعالى شَبَّهه بخلقه، فهو إشراك^(٤).

(١) التيسير ص ١٤٣، والسبعة ص ٣٩١، والمحزر الوجيز ٥١٧/٣.

(٢) البيت في أساس البلاغة (ذري) منسوباً إلى حميد بفتح الحاء، وفي معاني الزجاج ٢٨٧/٣ دون نسبة، وقال في الخزانة ٢٤٣/٥: وحميد يروى مصغراً ومكبراً، وتذريت السنام بمعنى علوته، ونسب ياقوت هذا البيت في حاشية الصحاح إلى حميد بن بحدل، وحميد مضاف إلى جده لأنه حميد بن حريث بن بحدل من بني كلب بن وبرة وينتهي نسبه إلى قضاة وهو شاعر إسلامي، وكانت عمته ميسون بنت بحدل أم يزيد بن معاوية.

(٣) ديوان الأعشى ص ١٠٣ وروايته هناك:

فما أنا أم ما انتحالي القوا في بعد المشيب كفى ذاك عارا
وهو في الكامل للمبرد ٥٥٢/٢ كما رواه المصنف.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ١٢٦/٢١.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَقْلَ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا ۝٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠ أَوْ يُصْبِحَ مَاءُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهَا طَلِبًا ۝٤١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بالقلب، وهو توبيخٌ ووصيةٌ من المؤمن للكافر، وردٌ عليه، إذ قال: «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا» و«ما» في موضع رفع، تقديره: هذه الجنة هي ما شاء الله. وقال الزجاج والفراء: الأمر ما شاء الله، أو هو ما شاء الله، أي: الأمر مشيئة الله تعالى. وقيل: الجواب مضمرة، أي: ما شاء الله كان، وما لا يشاء لا يكون^(١). ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: ما اجتمع لك من المال فهو بقدرة الله تعالى وقوته لا بقدرتك وقوتك، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع^(٢).

الثانية: قال أشهب قال مالك: ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول هذا. وقال ابن وهب: قال لي حفص بن ميسرة: رأيت على باب وهب بن منبه مكتوباً «ما شاء الله لا قوة إلا بالله»^(٣). وروي عن النبي ﷺ أنه قال لأبي هريرة: «ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة، أو قال: كنز من كنوز الجنة؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله إذا قالها العبد، قال الله عز وجل: أسلم عبدي واستسلم»^(٤). أخرجه مسلم في «صحيحه»^(٥) من حديث أبي موسى. وفيه: فقال: «يا أبا موسى، أو

(١) معاني القرآن للزجاج ٢٨٨/٣، ومعاني القرآن للفراء ١٤٥/٢، والمحرم الوجيز ٥١٨/٣.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٣٠٠/٢، والكشاف ٤٨٥/٢.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١٢٢٨/٣.

(٤) أخرجه أحمد (٧٩٦٦) و(٨٤٢٦).

(٥) برقم (٢٧٠٤) (٤٥).

يا عبد الله بن قيس، ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة، في رواية: على كنز من كنوز الجنة؟ قلت: ما هي يا رسول الله؟ قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله». وعنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة، أو قال: كنز من كنوز الجنة؟» قلت: بلى، فقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»^(١). وروي أنه من دخل منزله أو خرج منه فقال: باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله، تنافرت عنه الشياطين من بين يديه، وأنزل الله تعالى عليه البركات. وقالت عائشة: إذا خرج الرجل من منزله فقال: باسم الله. قال المَلَك: هُديت، وإذا قال: ما شاء الله. قال المَلَك: كُفيت، وإذا قال: لا قوة إلا بالله. قال المَلَك: وُقيت. خرَّجه الترمذي^(٢) من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال - يعني: إذا خرج من بيته -: باسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله؛ يقال له^(٣): كُفيت ووُقيت وتنحى عنه الشيطان» هذا حديث حسن^(٤) غريب صحيح^(٥) لا نعرفه إلا من هذا الوجه. خرَّجه أبو داود^(٦) أيضاً وزاد فيه: فقال له: «هُدِيت وكُفيت ووُقيت».

وأخرجه ابن ماجه^(٧) من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا خرج الرجل من باب بيته أو باب داره، كان معه ملكان موغلان به، فإذا قال: باسم الله، قالَا: هُديت. وإذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، قالَا: وُقيت. وإذا قال: توكلت على الله، قالَا: كُفيت. قال: فيلقاه قرينه فيقولان: ماذا تريدان من رجلٍ قد هُديَ ووُقيَ وكُفي؟».

(١) صحيح مسلم (٢٧٠٤) (٤٧) دون قوله: العلي العظيم، وهو عند البخاري (٦٣٨٤).

(٢) في سننه (٣٤٢٦)، وحديث عائشة وما قبله لم نقف عليهما.

(٣) ليست في (م) و(د) و(ز).

(٤) ليست في (م) و(د) و(ز)، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في سنن الترمذي، وينظر الأذكار للنووي ص ٣٣.

(٥) ليست في (م) و(د) و(ز) و(ف)، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في سنن الترمذي.

(٦) برقم (٥٠٩٥).

(٧) في سننه برقم (٣٨٨٦)، وفي إسناده هارون بن هارون وهو ضعيف.

وقال الحاكم أبو عبد الله في «علوم الحديث»^(١): «سُئِلَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ خَزِيمَةَ عَنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتْ هَذِهِ - يَعْنِي: الْجَنَّةُ -: يَدْخُلُنِي الضَّعِيفُ» مَنْ الضَّعِيفُ؟ قَالَ: الَّذِي يُبْرئُ نَفْسَهُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ يَعْنِي فِي الْيَوْمِ عَشْرِينَ مَرَّةً أَوْ خَمْسِينَ مَرَّةً. وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ رَأَى شَيْئاً فَأَعْجَبَهُ، فَقَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ لَمْ يَضُرَّهُ عَيْنٌ»^(٢). وَقَدْ قَالَ قَوْمٌ: مَا مِنْ أَحَدٍ قَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، فَأَصَابَهُ شَيْءٌ إِلَّا رَضِيَ بِهِ. وَرُوي أَنَّ مَنْ قَالَ أَرْبَعاً أَمِينَ مِنْ أَرْبَعٍ: مَنْ قَالَ هَذِهِ أَمِينَ مِنَ الْعَيْنِ، وَمَنْ قَالَ: حُسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، أَمِينَ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ قَالَ: وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ، أَمِينَ مَكْرَ النَّاسِ، وَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، أَمِينَ مِنَ الْغَمِّ.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ «إِنْ» شرط «تَرَنِ» مجزوم به، والجواب «فَعَسَى رَبِّي»، و«أَنَا» فاصلة لا موضع لها من الإعراب، ويجوز أن تكون في موضع نصب توكيداً للنون والياء. وقرأ عيسى بْنُ عَمْرٍو: «إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ» بالرفع؛ يَجْعَلُ «أَنَا» مبتدأ، و«أَقَلَّ» خبره، والجملة في موضع المفعول الثاني، والمفعول الأول النون والياء؛ إِلَّا أَنَّ الْيَاءَ حُذِفَتْ؛ لِأَنَّ الْكُسْرَةَ تَدُلُّ عَلَيْهَا، وَإِبَاتُهَا جَيِّدٌ بِالْغِ وَالْأَصْلُ؛ لِأَنَّهَا الْأَسْمُ عَلَى الْحَقِيقَةِ^(٣). و﴿فَسَيِّئٌ﴾ بمعنى لعل، أي: فَلَعَلَّ رَبِّي ﴿أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ أي: فِي الْآخِرَةِ. وَقِيلَ: فِي الدُّنْيَا، ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: عَلَى جَنَّتِكَ ﴿حُسْبَانًا﴾ أي: مَرَامِي مِنَ السَّمَاءِ، وَاحْذَهَا حُسْبَانَةً؛ قَالَ الْأَخْفَشُ وَالْقُتَيْبِيُّ وَأَبُو عُبَيْدَةَ^(٤)، وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: وَالْحُسْبَانَةُ السَّحَابَةُ، وَالْحُسْبَانَةُ

(١) ص ٨٤.

(٢) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٠٧)، وفي إسناده أبو بكر الهذلي وهو ضعيف.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤٥٧/٢، وينظر تفسير الطبري ٢٦٥/١٥، والكشاف ٤٨٥/٢، والمحور الوجيز ٥١٨/٣.

(٤) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٦٧، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٤٠٣/١، وقول الأخفش نقله الماوردي في النكت والعيون ٣٠٧/٣.

الوسادة، والحسابنة الصّاعقة^(١). وقال الجوهري^(٢): والحُسبان، بالضم: العذاب. وقال أبو زياد الكلابي: أصاب الأرض حُسبانٌ، أي: جراد. والحُسبان أيضاً الحساب، قال الله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]. وقد فُسِّر الحُسبان هنا بهذا. قال الزجاج^(٣): الحُسبان من الحساب، أي: يرسل عليها عذاب الحساب، وهو حسابٌ ما اكتسبت يداك. فهو من بابٍ حذف المضاف. والحُسبان أيضاً: سهامٌ قصار يُرمى بها في طليقٍ واحد^(٤)، وكان من رمي الأكَاسرة. والمرامي من السماء عذابٌ. ﴿فَنُصِصَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ يعني: أرضاً بيضاء لا ينبت فيها نباتٌ، ولا يثبت عليها قدم، وهي أضَرُّ أرضٍ بعد أن كانت جنةً أنفع أرضٍ^(٥). و«زلقاً» تأكيد لوصف الصعيد، أي: تزلُّ عنها الأقدام لملاستها. يقال: مكانٌ زَلَقٌ، بالتحريك، أي: دَخَضٌ، وهو في الأصل مصدرٌ قولك: زَلَقْتُ رجله تَزَلُّقٌ زَلَقًا، وأزَلَقها غيره. والزَلَقُ أيضاً عَجْزُ الدابة. قال رؤبة:

كَأَنَّهَا حَفْبَاءُ بَلَقَاءِ الزَّلَقِ^(٦)

والمَزَلَقُ والمَزَلَقَةُ^(٧): الموضع الذي لا يثبت عليه قدمٌ. وكذلك الزَّلَاقَةُ. والزَّلَقُ: الحَلَقُ، زَلَقَ رأسه يَزَلِّقُه زَلَقًا حلقه؛ قاله الجوهري^(٨). والزَّلَقُ: المحلوق، كالنَّقْضِ

(١) تهذيب اللغة ٤/ ٣٣٢.

(٢) في الصحاح (حسب).

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٩٠.

(٤) نسبة في تهذيب اللغة ٤/ ٣٣٢ إلى ابن شميل.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٠٧.

(٦) ديوان رؤبة ص ١٠٤، والرجز في تهذيب اللغة ٨/ ٤٣١، والخزانة ١/ ٨٦، وقال البغدادي: والحقباء: مؤنث الأحقب، وهو حمار الوحش سمي بذلك لبياض في حقويه، شبه الناقة بالأتان الوحشية، وهي في الجلادة والسرعة مثلها. والبلقاء: مؤنث الأبلق. والزَلَقُ: عجز الدابة، أي: المكان الذي تزلق اليده عن كفلها أبيض وأسود.

(٧) في (م): والمَزَلَقَةُ والمَزَلَقَةُ، وفي (ز) و(د): والمزلة والزلة، وسقطت إحداهما من (ف) و(ظ)، والمثبت من الصحاح ومقاييس اللغة (زلق).

(٨) في الصحاح (زلق).

والتَّقْصُ. وليس المراد أنها تصير مَزْلَقَةً، بل المراد أنها لا يبقى فيها نبات كالرأس إذا حُلِقَ لا يَبْقَى عليه شعر؛ قاله القشيري.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا﴾ أي: غائراً ذاهباً، فتكون أعدم أرض للماء بعد أن كانت أوجد أرض للماء^(١). والغور مصدرٌ وُضِعَ موضع الاسم، كما يقال: رجلٌ صَوْمٌ وفَطْرٌ، وَعَدْلٌ وِرْضًا، وَقُضِلَ وَزُورٌ، ونساء نوحٌ، ويستوي فيه المذكر والمؤنث، والشئبة والجمع^(٢). قال عمرو بن كلثوم:

تَظَلُّ جِيَادُهُ نَوْحًا عَلَيْهِ مُقَلَّدَةً أَعْنَتَهَا صُفُونَا^(٣)
آخر:

هَرِيقِي مِنْ دَمْعِهِمَا سِجَامًا ضُبَاعٌ وَجَاوِبِي نَوْحًا قِيَامًا^(٤)
أي: نائحات. وقيل: أويصبح مأواها ذا غورٍ، فحذف المضاف، مثل «واسأل القرية» ذكره النحاس^(٥). وقال الكسائي: مياه^(٦) غورٌ. وقد غار الماء يَغُورُ غَوْرًا وَغُورًا، أي: سَقَل في الأرض، ويجوز الهمز لانضمام الواو. وغارت عينه تَغُورُ غَوْرًا وَغُورًا، دخلت في الرأس، وغارت تَغَارُ لَغَةً فيه. وقال:

أَغَارَتْ عَيْنُهُ أَمْ لَمْ تَغَارًا^(٧)

(١) النكت والعيون ٣/٣٠٧.

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٦٧، والمحرم الوجيز ٣/٥١٨.

(٣) معلقة عمرو بن كلثوم بشرح ابن كيسان ص ٦٠، وشرح القصائد المشهورات لابن النحاس ٢/٩٩، وصدره ثمة: تركنا الخيل عاكفة عليه، وتفسير الطبري ١٥/٢٦٧ دون نسبة، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٤٠٤/١.

ووقع في النسخ الخطية: جياندا. والشافن: القائم. الذي يرفع إحدى قوائمه من الإعياء يعتمد على سنبكها.

(٤) البيت في تفسير الطبري ١٥/٢٦٧، ومجاز القرآن ١/٤٠٤، وأمالى المرتضى ١/٢٠١ دون نسبة. وضباع: ترخيم ضباعة، وهو اسم امرأة.

(٥) في إعراب القرآن ٢/٤٥٨.

(٦) في (د) و(ز) و(م): ماء، والمثبت من (ظ) و(ف)، وإعراب القرآن للنحاس ٢/٤٥٨، والكلام منه.

(٧) عجز بيت نسه في الصحاح (غور) إلى ابن أحمر.

و غَارَتِ الشَّمْسُ تَغُورُ غِيَارًا، أَي: غربت. قال أبو ذؤيب:
 هل الدهرُ إِلَّا لَيْلَةٌ ونهارُها وإلا طلوعُ الشمسِ ثم غيارُها^(١)
 ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَمْ طَلَبًا﴾ أَي: لن تستطيع ردَّ الماء الغائر، ولا تقدر عليه بحيلة.
 وقيل: فلن تستطيع طلبَ غيره بدلاً منه. وإلى هذا الحديث انتهت مناظرةُ أخيه
 وإنذاره^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفْتَهُ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا بَنِيَّ لَمَّا أَشْرَكْتُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ اسمُ ما لم يُسمَّ فاعله مُضمرٌ، وهو المصدر،
 ويجوز أن يكونَ المخفوضُ في موضعِ رفع^(٣). ومعنى «أُحِيطَ بِشَرِّهِ»، أَي: أَهْلِكَ ماله
 كله، وهذا أوَّلُ ما حققَ الله تعالى به إنذارَ أخيه، ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفْتَهُ﴾ أَي: فأصبحَ
 الكافرُ يضربُ إحدى يديه على الأخرى ندمًا؛ لأنَّ هذا يصدر من النادم. وقيل: يقْلُبُ
 ملكه فلا يرى فيه عوضَ ما أنفق، وهذا لأنَّ الملكَ قد يُعَبَّرُ عنه باليد، من قولهم: في
 يده مال، أَي: في ملكه مال^(٤). ودلَّ قوله: «فَأَصْبَحَ» على أن هذا الإهلاكَ جرى
 بالليل، كقوله: ﴿فَنَظَّافَ عَلَيْنَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [ن: ١٩] ويقال:
 أنفقتُ في هذه الدار كذا، وأنفقتُ عليها^(٥). ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أَي: خالية قد
 سقط بعضها على بعض، مأخوذٌ من: خَوَتِ النجوم تخوي خِيًا: أمحلت، وذلك إذا
 سَقَطَتْ ولم تُمَطَّرْ في نَوْنِهَا، وأخَوَتِ مثله. وخَوَتِ الدار خَوَاءً ممدود^(٦): أَقْوَت،

(١) ديوان الهذليين ص ٢١، والصحاح (غور)، وهو في مجالس ثعلب ص ٥٨٣ دون نسبة.

(٢) النكت والعيون ٣/٣٠٨.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/٤٥٨.

(٤) النكت والعيون ٣/٣٠٨.

(٥) ينظر زاد المسير ٥/١٤٦.

(٦) ليست في (م).

وكذلك إذا سقطت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢] ويقال: ساقطة، كما يقال: فهي خاوية على عروشها، أي: ساقطة على سقوفها^(١). فجمع عليه بين هلاك الثمر والأصل، وهذا من أعظم الجوائح، مقابلة على بغيه^(٢).

﴿وَيَقُولُ يَلِّتَنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أي: يا ليتني عرفت نعم الله عليّ، وعرفت أنها كانت بقدرة الله ولم أكفر به. وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يَنْصُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ ٤٢

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يَنْصُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ «فتنة» اسم «تكن»، و«له» الخبر. «يَنْصُرُونَهُ» في موضع الصفة، أي: فتنة ناصرة، ويجوز أن يكون «يَنْصُرُونَهُ» الخبر، والوجه الأول عند سيبويه أولى^(٤)؛ لأنه قد تقدّم «له». وأبو العباس^(٥) يُخالفه، ويحتج بقول الله عز وجل: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدًا﴾ [الإخلاص: ٤]، وقد أجاز سيبويه الآخر، و«يَنْصُرُونَهُ» على معنى فتنة؛ لأن معناها أقوام، ولو كان على اللفظ لقال: ولم تكن له فتنة تنصره^(٦)، أي: فرقة وجماعة يلتجئ إليهم.

﴿وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ أي: ممتنعاً؛ قاله قتادة. وقيل: مُسْتَرِدًّا بدل ما ذهب منه^(٧). وقد تقدّم اشتقاق الفتنة في «آل عمران»^(٨). والهاء عوض من الياء^(٩) التي نقصت من

(١) الصحاح (خوى)، وتهذيب اللغة ٦١٥/٧.

(٢) النكت والعيون ٣٠٨/٣.

(٣) ينظر الوسيط ١٤٩/٣، وزاد المسير ١٤٦/٥.

(٤) ينظر كتاب سيبويه ٥٦/٤.

(٥) أي: المبرد، وكلامه في المقتضب ٩٠/٤ - ٩١.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤٥٨/٢.

(٧) النكت والعيون ٣٠٨/٣، وأخرج قول قتادة الطبري ٢٧٠/١٥.

(٨) ٣٨/٥.

(٩) قال ابن الشجري في أماليه ٢٧٨/٢: والمحذوف من «فتنة» واو، وجمعها فئات، وهي من قولهم: فَأَوْتُ: إذا شققت وفزقت؛ لأن الفتنة كالفرقة.

وسطه، أصله فيءٌ مثلُ فيع؛ لأنه من فاء، ويُجمعُ على فئون وفئات، مثل شِيآت ولِدَات^(١) وهبات^(٢). أي: لم تكن له عشيرة^(٣) يمنعونه من عذابِ الله، وضلَّ عنه من افتخرَ بهم من الخدمِ والولد.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ اختُلفَ في العامل في قوله: «هنالك» وهو ظرف؛ فقيل: العاملُ فيه «ولم تكن له فئة» ولا كان هنالك؛ أي: ما نُصِرَ ولا انتصرَ هنالك، أي: لِمَا أصابه من العذاب. وقيل: تمَّ الكلامُ عندَ قوله: «منتصراً»، والعاملُ في قوله: «هنالك»: «الولاية»، وتقديرُه على التقديم والتأخير: الولايةُ لله الحقُّ هنالك، أي: في القيامة^(٤). وقرأ أبو عمرو، والكسائي: «الحقُّ» بالرفع^(٥) نعتاً للولاية. وقرأ أهلُ المدينة وحمزة: «الحقُّ» بالخفضِ نعتاً لله عزَّ وجلَّ، والتقديرُ: لله ذي الحق. قال الزجاج^(٦): ويجوزُ «الحقُّ» بالنصب على المصدرِ والتوكيد، كما تقول: هذا لك حقاً. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي: «الولاية» بكسر الواو، الباقيون بفتحها^(٧)، وهما بمعنى واحدٍ كالرِّضاعة والرِّضاعة. وقيل: الولايةُ بالفتح من الموالاة، كقوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [محمد: ١١]. وبالكسر يعني: السلطان والقدرة والإمارة^(٨)، كقوله: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ

(١) الصحاح (فياً).

(٢) في (م): مئات، وفي (د) و(ز): هيات، والمثبت من (ظ) و(ف).

(٣) نسبة في النكت والعيون ٣/٣٠٨ إلى مجاهد، وهو في تفسيره ١/٣٧٦ وأخرجه عنه الطبري ١٥/٢٦٩، وينظر تفسير السمرقندي ٢/٣٠٠.

(٤) وقال النحاس في إعراب القرآن ٢/٤٥٩: العامل فيه منتصراً. وقال ابن السجري في أماليه ١/١٦٨: هنالك ظرف في موضع الحال، والعامل فيه قوله: (لله) وذو الحال المضمَرُ المستكنُّ في (لله).

(٥) التيسير ص ١٤٣، والسبعة ص ٣٩٢.

(٦) ينظر معاني القرآن وإعرابه ٣/٢٨٩، وكلام الزجاج وما قبله من إعراب القرآن للنحاس ٢/٤٥٩.

(٧) التيسير ص ١٤٣، والسبعة ص ٣٩٢.

(٨) الكشف ٢/٤٨٦، والمحرم الوجيز ٣/٥١٩.

﴿الانفطار: ١٩﴾ أي: له الملك والحكم يومئذ، أي: لا يُردُّ أمره إلى أحد، والمُلك في كل وقتٍ لله، ولكن تَزُولُ الدَّعَاوَى والتَّوَهُّمَاتُ يومَ القيامة. وقال أبو عبيد: إنَّها بفتح الواو للخالق، وبكسرهما للمخلوق^(١).

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: الله خيرٌ ثواباً في الدنيا والآخرة لمن آمن به، وليس ثمَّ غيرٍ يُرْجَى منه، ولكنَّه أرادَ: في ظنِّ الجُهَّال، أي: هو خيرٌ مَنْ يُرْجَى^(٢). ﴿وَحَيْرٌ عُقْبًا﴾ قرأ عاصم والأعمش، وحمزة ويحيى: «عُقْبًا» ساكنة القاف، الباقون بضمِّها^(٣)، وهما بمعنى واحد؛ أي: هو خيرٌ عاقبةً لمن رَجاه وآمنَ به. يقال: هذا عاقبةُ أمرٍ فلان وعُقْباه^(٤) وعُقْبُهُ، أي: آخره.

قوله تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْنِدًا ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: صِفْ لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طَرْدَ فقراءِ المؤمنين مَثَلِ الحياةِ الدنيا، أي: شَبَّهَهَا^(٥) ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ أي: بالماء ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ حتى استوى. وقيل: إنَّ النبات اختلط ببعضه ببعض حين نزل عليه الماء^(٦)؛ لأنَّ النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر. وقد تقدَّم هذا المعنى في «يونس»^(٧) مبيَّناً.

(١) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/٣٠٩.

(٢) ينظر زاد المسير ١٤٨/٥.

(٣) التيسير ص ١٤٣، والسبعة ص ٣٩٢، عن عاصم وحمزة، وزاد عليهما في المحرر الوجيز ٣/٥١٩ الحسن، وذكر قراءة الأعمش أبو حيان في البحر المحيط ٦/١٣١.

(٤) بعدها في (ظ): وعقبه، وفي (ف): وعقبه، وينظر الطبري ١٥/٢٧١، والصاحح ومقاييس اللغة (عقب).

(٥) ينظر الطبري ١٥/٢٧٢.

(٦) النكت والعيون ٣/٣٠٩، والمحرر الوجيز ٣/٥١٩.

(٧) ٤٧٧/١٠.

وقالت الحكماء: إنما شبه تعالى الدنيا بالماء؛ لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب، كذلك الدنيا تَفْنَى، ولأن الماء لا يَقْدِرُ أحدٌ أن يدخله ولا يبتلّ، كذلك الدنيا لا يَسْلَمُ أحدٌ دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدرٍ كان نافعاً مُنْتَبِهاً^(١)، وإذا جاوزَ المقدار كان ضاراً مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفعُ وفضولُها يضرُّ. وفي حديثِ النبي ﷺ قال له رجل: يا رسولَ الله، إني أريدُ أن أكونَ من الفائزين، قال: «ذَرِ الدنيا وَخُذْ منها كالماء الراكد؛ فإنَّ القليلَ منها يكفي، والكثير منها يُطغِي»^(٢). وفي «صحيح» مسلم عن النبي ﷺ: «قد أفلحَ مَنْ أسلم ورزق كفافاً وقنَّه الله بما آتاه»^(٣). ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: النبات ﴿هَشِيمًا﴾ أي: متكسراً من اليُسِّ متفتتاً، يعني: بانقطاعِ الماءِ عنه، فحذف ذلك إيجازاً لدلالة الكلام عليه^(٤). والهِشْمُ: كسرُ الشيء اليابس. والهشيمُ من النبات اليابس المتكسر، والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء. ومنه قولهم: ما فلانٌ إلا هَشِيمَةٌ كَرَمٍ؛ إذا كان سَمَحاً. ورجلٌ هَشِيمٌ: ضعيفُ البدن. وتهشَّم عليه فلان إذا تعَطَّف. واهتشم ما في ضَرْعِ الناقة إذا احتلبه. ويقال: هَشَمَ الثَّريد، ومنه سُمِّيَ هاشمُ بنُ عبدِ مناف واسمُه عمرو، وفيه يقولُ عبدُ الله بن الزُّبَيْرِ:

عَمَرُوا الْعُلَا هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ ورجالٌ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافٌ^(٥)

(١) في (ظ) و(ف): مبقياً.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) صحيح مسلم (١٠٥٤)، وهو عند أحمد (٦٥٧٢)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٤) النكت والعيون ٣/٣٠٩.

(٥) الصحاح (هشم)، والبيت في ديوان عبد الله ص ٥٣ في ما ينسب إلى عبد الله بن الزبير وإلى غيره من الشعراء، وفي أمالي المرتضى ٢/٢٦٩، والحماسة البصرية ١/١٥٥ - ١٥٦. ومستنون من أستوا: أجذبوا. القاموس (سنت).

وكان سبب ذلك أن قريشاً أصابتهم سنون ذهبن بالأموال، فخرج هاشم إلى الشام، فأمر بخبز كثير فخبز له، فحملة في الغرائر على الإبل حتى وافى مكة، وهشم ذلك الخبز، يعني: كسره وثرده، ونحر تلك الإبل، ثم أمر الطهاة فطبخوا، ثم كفا القدور على الجفان فأشبع أهل مكة؛ فكان ذلك أول الحباء^(١) بعد السنة التي أصابتهم؛ فسُمي بذلك هاشماً^(٢).

﴿لَذُرُّهُ أَلَيْحٌ﴾ أي: تُفرقه؛ قاله أبو عبيدة^(٣). ابن قتيبة: تنسفه^(٤). ابن كيسان: تذهب به وتجيء. ابن عباس: تُديره^(٥)، والمعنى متقارب. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «تذريه الريح»^(٦). قال الكسائي: وفي قراءة عبد الله «تذريه»^(٧). يقال: ذرته الريح تذرؤه ذرواً، وتذريه^(٨) ذرياً، وأذرت تذريره إذراء^(٩) إذا طارت به. وحكى الفراء^(١٠): أذريت الرجل عن فرسه، أي: قلبته. وأنشد سيويه والفراء:

فقلتُ له صَوِّبْ ولا تَجْهَدْنَهُ فَيُذْرِكُ من أُخْرَى القَطَاةِ فَتَزْلُقِي^(١١)

(١) في (ف): الحياة، والحباء: العطاء بلا جزاء ولا من. القاموس (حبو).

(٢) ينظر الروض الأنف ١/١٦١.

(٣) في مجاز القرآن ١/٤٠٥.

(٤) تفسير غريب القرآن ص ٢٦٨.

(٥) في (ز): تدبره.

(٦) أي بالافراد، وذكرها عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٥٢٠، وزاد النخعي والأعمش، وذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٦/١٣٣ عن عدد من القراء.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/٤٥٩، ومعاني القرآن للفراء ٢/١٤٦، وزاد المسير ٥/١٤٨.

(٨) ليست في (د) و(ز).

(٩) الصحاح (ذرا)، والطبري ١٥/٢٧٢.

(١٠) في معاني القرآن ٢/١٤٦.

(١١) البيت لامرئ القيس وهو في ديوانه ص ١٧٤، وهو عند سيويه في الكتاب ٣/١٠١ وعزاه إلى عمرو ابن عمار الطائي ووقع في الكتاب: فَيُذْرِكُ من الإذناء، وعند الفراء في معاني القرآن ٢/١٤٦، والطبري ١٥/٢٧٢، وإعراب القرآن للنحاس ٢/٤٥٩ دون نسبة، وقال الشنتمري في تحصيل عين الذهب ص ٤٢٥: يقول هذا لغلامه وقد حملة على فرسه ليصيد له، ومعنى صَوِّبْ: خذ القصد في السير وارفق بالفرس ولا تجهده. وأخرى القطاة: آخرها، والقطاة: مقعد الردف. ويروى: فَيُذْرِكُ أي: يرمي بك، يقال: أذراه عن فرسه إذا رمى به. وجاء في (د) و(ز) و(ظ): صَوِّت.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا﴾ من الإنشاء والإفناء^(١) والإحياء، سبحانه!

قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ويجوز «زینتا» وهو خبر الابتداء في التثنية والإفراد. وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا؛ لأنَّ في المالِ جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوَّةً ودفعاً^(٢)، فصارا زينة الحياة الدنيا، لكن معه قرينة الضَّعة^(٣) للمال والبنين؛ لأن المعنى: المال والبنون زينة هذه الحياة المحترقة؛ فلا تُتبعوها نفوسكم^(٤). وهو ردٌّ على عُيينة بن حِصْن وأمثاله لما افتخروا بالغنى والشرف، فأخبر تعالى أنَّ ما كان من زينة الحياة الدنيا فهو غرورٌ يمرُّ ولا يبقى، كالهشيم حين ذرته الريح، إنما يبقى ما كان من زاد القبر وعدد الآخرة^(٥). وكان يقال: لا تعقد قلبك مع المال؛ لأنه فيءٌ ذاهب، ولا مع النساء؛ لأنها اليوم معك وغداً مع غيرك، ولا مع السلطان؛ لأنه اليوم لك وغداً لغيرك. ويكفي في هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِن أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أي: ما يأتي به سلمان وصهيب وفقراء المسلمين من الطاعات^(٦) ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: أفضل ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: أفضل

(١) الكشاف ٤٨٦/٢ .

(٢) النكت والميون ٣١٠/٣ .

(٣) في (م): الصفة.

(٤) المحرر الوجيز ٥٢٠/٣ .

(٥) تفسير السمرقندي ٣٠١/٢ ، والطبري ٢٧٣/١٥ بنحوه.

(٦) الوسيط ١٥١/٣ .

أَمْلاً مِنْ ذِي الْمَالِ وَالْبَنِينَ دُونَ عَمَلِ صَالِحٍ^(١)، وَلَيْسَ فِي زِينَةِ الدُّنْيَا خَيْرٌ، وَلَكِنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ قَوْلِهِ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤]. وَقِيلَ: خَيْرٌ فِي التَّحْقِيقِ مِمَّا يَظُنُّهُ الْجَهَالُ أَنَّهُ خَيْرٌ فِي ظَنِّهِمْ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي «الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ»، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو مَيْسَرَةَ عَمْرُو^(٢) بْنُ شَرْحَبِيلٍ: هِيَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ^(٣). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضاً: أَنَّهَا كُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ يَبْقَى لِلْآخِرَةِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَرَجَّحَهُ الطَّبْرِيُّ^(٤)، وَهُوَ الصَّحِيحُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا بَقِيَ ثَوَابُهُ، جَازَ أَنْ يُقَالَ لَهُ هَذَا. وَقَالَ عَلِيٌّ^(٥): الْحِرْثُ حِرْثَانٌ، فَحِرْثُ الدُّنْيَا الْمَالُ وَالْبَنُونَ، وَحِرْثُ الْآخِرَةِ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُنَّ اللَّهُ تَعَالَى لِأَقْوَامٍ^(٥).

وَقَالَ الْجُمْهُورُ: هِيَ الْكَلِمَاتُ الْمَأْثُورُ فَضْلُهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ^(٦). خَرَّجَهُ مَالِكٌ فِي «مَوْطِئِهِ»^(٧) عَنْ عِمَارَةَ بْنِ صِيَادٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ فِي الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ: إِنَّهَا قَوْلُ الْعَبْدِ: اللَّهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. أَسْنَدُهُ النَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اسْتَكْبِرُوا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ» قِيلَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّسْبِيحُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٨). صَحَّحَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠.

(٢) في (م): وعمرُو.

(٣) أخرجه عنهم الطبري ١٥/ ٢٧٤ - ٢٧٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٨٠ - ٢٨١ عنهما ورجَّحه.

(٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ٥٠٣.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠.

(٧) الموطأ ١/ ٢١٠، وهو عند الطبري ١٥/ ٢٧٩.

(٨) لم نقف عليه عند النسائي، وعزاه المزي في تحفة الأشراف ٣/ ٣٦٢ إليه في عمل اليوم والليلة وذكر إنسانه، وصححه عبد الحق الإشبيلي في الأحكام الصغرى ٢/ ٨٩١، وهو عند أحمد (١١٧١٣).

الحق رحمه الله. وروى قتادة أن رسول الله ﷺ أخذَ غُصْنًا فخرطه حتى سقط ورقه وقال: «إنَّ المسلم إذا قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تحاتت خطاياهم كما تحاتت هذا، خُذهنَّ إليك أبا الدرداء قبل أن يُحال بينك وبينهن؛ فإنَّهن من كنوز الجنة وصفايا الكلام، وهنَّ الباقيات الصالحات». ذكره الثعلبي، وخرَّجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «عليك بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر؛ فإنَّهنَّ يعني يحطَّطنَّ الخطايا كما تحطُّ الشجرة ورقها»^(١). وأخرجه الترمذي^(٢) من حديث الأعمش، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ مرَّ بشجرة يابسة الورقة فضرَبها بعَصاهُ فتناثرَ الورقُ فقال: «إنَّ الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر لثَّساقِطُ من ذنوبِ العبد كما تَساقِطُ ورقُ هذه الشجرة». قال: هذا حديثٌ غريب ولا نعرف للأعمش سماعاً من أنس، إلا أنه قد رآه ونظرَ إليه^(٣). وخرَّج الترمذي^(٤) أيضاً عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقِيتُ إبراهيمَ عليه السلام ليلة أُسْرِيَ بي فقال: يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أنَّ الجنةَ طيبةُ الثَّربةِ عذبةُ الماء، وأنها قيعان وأنَّ غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» قال: حديثٌ حسنٌ غريب، خرَّجه الماوردي^(٥) بمعناه. وفيه: فقلتُ: وما غراسُ الجنة؟ قال: «لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله». وخرَّج ابنُ ماجه^(٦) عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ به وهو يُغرسُ غَرساً فقال: «يا أبا هريرة، ما الذي تغرس؟» قلت: غراساً. قال: «ألا أدُلُّكَ على غراسٍ خيرٍ من هذا، سبحانَ الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبر، يُغرسُ لك بكلِّ واحدة شجرةٌ في

(١) سنن ابن ماجه (٣٨١٣)، وضعَّه البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٢٦٤.

(٢) في سننه (٣٥٣٣).

(٣) قوله: ولا نعرف للأعمش سماعاً... ونظر إليه، ليس في السنن

(٤) في سننه (٣٤٦٢).

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣١٠ - ٣١١ دون إسناد.

(٦) في سننه (٣٨٠٧)، وحسَّن إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٢٦٣.

الجنة». وقد قيل: إِنَّ الباقيات الصالحات هي النيات والهَمَّات؛ لأنَّ بها تُقبَل الأعمال وتُرفع؛ قاله الحسن. وقال عُبيد بن عُمير: هُنَّ البنات؛ يدلُّ عليه أوائلُ الآية، قال الله تعالى: «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» ثَمَّنَ قَالَ: «وَالْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ» يعني: البنات الصالحات هُنَّ عِنْدَ اللَّهِ لآبَائِهِنَّ خَيْرٌ ثَوَابًا، وخير أَمَلًا فِي الآخِرَةِ لِمَن أَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ. يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مَسْكِينَةٍ... الْحَدِيثَ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي سُورَةِ النَّحْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَنْزَوِي مِنَ الْقَوَارِ﴾ الآية^(١). وَرُويَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي أَمَرَ بِهِ إِلَى النَّارِ، فَتَعَلَّقَ بِهِ بَنَاتُهُ وَجَعَلْنَ يَصْرُخْنَ وَيَقْلُنَّ: رَبِّ إِنَّهُ كَانَ يُحَسِّنُ إِلَيْنَا فِي الدُّنْيَا، فَرَحِمَهُ اللَّهُ بِهِنَّ»^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَارْزُقْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رِزْقًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١] قَالَ: أَبَدِلَهُمَا مِنْهُ ابْنَةً فَتَزَوَّجَهَا نَبِيًّا، فَوُلِدَتْ لَهُ اثْنِي عَشَرَ غُلَامًا كُلُّهُمْ أَنْبِيَاءُ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ قَالَ بَعْضُ النُّحَوِيِّينَ: التَّقْدِيرُ: وَالبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ. قَالَ النَّحَّاسُ: وَهَذَا غُلَطٌّ مِنْ أَجْلِ الْوَاوِ^(٤). وَقِيلَ: الْمَعْنَى: وَاذْكُرْ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ^(٥)، أَي: نَزِيلَهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا مِنْ

(١) ٥٩ .

(٢) أَخْرَجَ نَحْوَهُ ابْنُ مَاجَهَ (٣٦٦٩)، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي الْعِيَالِ (٨٩) مِنْ حَدِيثِ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ بَلَفَظَ: مِنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ، فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ وَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جَدِّيه، كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. لَفْظُ ابْنِ مَاجَهَ.

(٣) نَسَبَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي الْوَسِيطِ ١٦١/٣، وَابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ ١٨١/٥ لِابْنِ عَبَّاسٍ وَقَالَ: سَبْعِينَ بَدَلَ اثْنِي عَشَرَ نَبِيًّا. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي الْمَحَرَّرِ الْوَجِيزِ ٥٣٦/٣: وَهَذَا بَعِيدٌ، وَلَا تَعْرِفُ كَثْرَةَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ.

(٤) إِعْرَابُ الْقُرْآنِ لِلنَّحَّاسِ ٤٦٠/٢ .

(٥) مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ ٢٩٢/٣ .

على وجه الأرض، ونُسِيرها كما نُسِيرُ السحاب؛ كما قال في آية أخرى: ﴿وَهِيَ تَكُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]. ثم تكسُرُ فتعود إلى الأرض^(١)؛ كما قال: ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ [الواقعة: ٥-٦]. وقرأ ابنُ كثير والحسن، وأبو عمرو وابن عامر: «ويوم تُسِيرُ» بقاء مضمومة وفتح الياء، و«الجبالُ» رفعاً على الفعل المجهول^(٢). وقرأ ابنُ مُحَيِّصٍ^(٣) ومجاهد: «ويوم تُسِيرُ الجبالُ» بفتح التاء مخففاً من سار، «الجبالُ» رفعاً. دليلُ قراءة أبي عمرو: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]. ودليلُ قراءة ابن محييصن: ﴿وَتُسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا﴾ [الطور: ١٠]. واختار أبو عبيد^(٤) القراءة الأولى: «تُسِيرُ» بالنون؛ لقوله: «وحشرناهم».

ومعنى ﴿بَارِزَةً﴾ ظاهرة، وليس عليها ما يسترُها من جبل ولا شجر ولا بنيان؛ أي: قد اجْتُثَّت ثمارُها وقُلِعَت جبالُها، وهُدِمَ بنيانُها، فهي بارزة ظاهرة. وعلى هذا القول أهلُ التفسير. وقيل: «وترى الأرض بارزة» أي: برزَ ما فيها من الكنوز والأموات^(٥)؛ كما قال: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤] وقال: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] وهذا قولُ عطاء^(٦).

﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ أي: إلى الموقف، ﴿فَلَمْ تَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: لم نترك؛ يقال: غَادَرْتُ كذا، أي: تركته. قال عترة:

غَادَرْتُهُ مُتَعَفِّراً أَوْصَالَهُ وَالْقَوْمُ بَيْنَ مُجَرَّحٍ وَمُجَدَّلٍ^(٧)

(١) الوسيط ١٥٢/٣ .

(٢) السبعة ص ٣٩٣، والتيسير ص ١٤٤، وقراءة الحسن في المحرر الوجيز ٥٢٠/٣ .

(٣) القراءات الشاذة ص ٨٠ .

(٤) في (ظ): عبيدة.

(٥) الطبري ٢٨١/١٥، ومعاني القرآن وإعرابه ٢٩٢/٣، والوسيط ١٥٢/٣، وتفسير السمرقندي ٣٠٢/٢، والنكت والعيون ٣١١/٣ .

(٦) تفسير البغوي ١٦٥/٣ .

(٧) ديوانه ص ٦٠ .

أي: تركته. والمغادرة الترك، ومنه الغدر؛ لأنه ترك الوفاء. وإنما سُمي الغدير من الماء غديراً؛ لأن الماء ذهب وتركه. ومنه غداثر المرأة؛ لأنها تجعلها خلفها^(١). يقول: حَشَرْنَا بَرَّهُمْ وَفَاجِرَهُمْ وَجَنَّهُمْ لِيَسْهَمُوا.

قوله تعالى: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَيْكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ۖ﴾

قول تعالى: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَيْكَ صَفًّا﴾ «صفًّا» نُصِبَ عَلَى الْحَالِ^(٢). قال مقاتل: يُعْرَضُونَ صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ كَالصَّفُوفِ فِي الصَّلَاةِ، كُلُّ أُمَّةٍ وَزَمْرَةٍ صَفًّا، لَا أَنَّهُمْ صَفٌّ وَاحِدٌ^(٣). وقيل: جميعاً، كقوله: ﴿ثُمَّ أَقْتُوا صَفًّا﴾ [طه: ٦٤] أي: جميعاً^(٤). وقيل: قياماً^(٥). وخرَّجَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَنْدَهٍ فِي «كِتَابِ التَّوْحِيدِ» عَنْ مُعَاذِ ابْنِ جَبَلٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَوْتٍ رَفِيعٍ غَيْرِ فَطِيعٍ: يَا عِبَادِي، أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ، يَا عِبَادِي، لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، أَخْضِرُوا حُجَّتَكُمْ، وَيَسِّرُوا جَوَابًا؛ فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ مُحَاسِبُونَ، يَا مَلَائِكَتِي، أَقِيمُوا عِبَادِي صَفُوفًا عَلَى أَطْرَافِ أَنَامِلِ أَقْدَامِهِمْ لِلْحِسَابِ»^(٦).

قلت: هذا الحديث غاية في البيان في تفسير الآية، ولم يذكره كثير من المفسرين، وقد كتبناه في «كتاب التذكرة»^(٧)، ومنه نقلناه والحمد لله.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يقال لهم: لقد جئتمونا حُفَاءً عُرَاةً، لَا

(١) الكشف ٤٨٧/٢، والنكت والعيون ٣/٣١١ - ٣١٢، والرازي ١٣٣/٢١.

(٢) إعراب القرآن ٢/٤٦٠.

(٣) النكت والعيون ٣/٣١٢، والوسيط ٣/١٥٢، وتفسير البغوي ٣/١٦٥، دون نسبة.

(٤) نسبة في زاد المسير ٥/١٥١ إلى مقاتل.

(٥) تفسير البغوي ٣/١٦٥.

(٦) ينظر الدر المنثور ٤/٢٢٦.

(٧) ص ٢٥٣ - ٢٥٤.

مَالٍ مَعَكُمْ وَلَا وَلَدًا. وقيل: فرادى^(١)؛ دليله قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]. وقد تقدّم. وقال الزجاج^(٢): أي: بعثناكم كما خلقناكم.

﴿بَلْ زَعَمْتَ﴾ هذا خطاب لمنكري البعث، أي: زعمتم في الدنيا أن لن تبعثوا، وأن لن نجعل لكم موعداً للبعث^(٣). وفي «صحيح» مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةَ غُرَاةٍ غُرْلًا» قلت: يا رسولَ الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: «يا عائشة، الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض»^(٤). «غُرْلًا» أي: غير مختونين. وقد تقدّم في «الأنعام» بيانه^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُنَبِّلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ «الكتاب» اسمُ جنس^(٦)، وفيه وجهان: أحدهما: أنّها كتبُ الأعمال في أيدي العباد؛ قاله مقاتل. الثاني: أنه وضع الحساب؛ قاله الكلبي، فعبر عن الحساب بالكتاب؛ لأنهم يُحاسبون على أعمالهم المكتوبة^(٧). والقول الأول أظهر؛ ذكره^(٨) ابنُ المبارك^(٩) قال: أخبرنا الحكم أو أبو الحكم - شكّ

(١) تفسير السمرقندي ٣٠٢/٢.

(٢) في معاني القرآن وإعرابه ٢٩٢/٣.

(٣) الوسيط ١٥٢/٣.

(٤) صحيح مسلم (٢٨٥٩).

(٥) ٤٦٣/٨.

(٦) الوسيط ١٥٢/٣.

(٧) النكت والعيون ٣١٢/٣.

(٨) في (ظ) و(ف): ذكر.

(٩) في الزهد زيادات نعيم بن حماد (٣٩٦).

نعيم - عن إسماعيل بن عبد الرحمن، عن رجلٍ من بني أسد قال: قال عمرُ لكعب: وَنَحْكَ يا كعب، حَدَّثَنَا من حديث الآخرة، قال: نعم يا أمير المؤمنين! إذا كان يوم القيامة رُفِعَ اللوحُ المحفوظُ فلم يبقَ أحدٌ من الخلائق إلا وهو ينظرُ إلى عمله، قال: ثم يُرْتَى بالصحفِ التي فيها أعمالُ العباد فتُنشر حولَ العرش، وذلك قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَدُّنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ قال الأسدي: الصَّغِيرَةُ ما دون الشُّرْكِ، والكَبِيرَةُ الشُّرْكَ. «إلا أحصاها» قال كعب: ثم يُدعى المؤمنُ فيُعطى كتابه بيمينه، فينظر فيه فإذا حسناته باديات للناس وهو يقرأ سيئاته؛ لكيلا يقول: كانت لي حسناتٌ فلم تُذكر، فأحبَّ الله أن يُريَه عمله كُلَّهُ حتى إذا استنقص^(١) ما في الكتابِ وجدَ في آخر ذلك كُلَّهُ أنه مغفورٌ وأَنَّكَ من أهل الجنة، فعند ذلك يُقِيلُ إلى أصحابه ثم يقول: ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ . إِنْ ظَنَنْتَ أَنْ مَلَئْتُ حِسَابِيَةَ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٠] ثم يدعى الكافر^(٢) فيُعطى كتابه بشماله ثم يُلَفُّ فيجعل من وراء ظهره ويُلَوِّى عنقه، فذلك قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ ظَهْرَهُ﴾ [الانشقاق: ١٠] فينظر في كتابه فإذا سيئاته باديات للناس وينظر في حسناته؛ لكيلا يقول: أفأثاب على السيئات.

وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول: يا ويلتاه! ضُجُّوا إلى الله تعالى من الصَّغائر قبل الكبائر^(٣). قال ابن عباس: الصَّغِيرَةُ التَّبَسُّمُ، والكَبِيرَةُ الضَّحْكَ^(٤). يعني: ما كان من ذلك في معصية الله عزَّ وجلَّ؛ ذكره الثعلبي. وحكى الماوردي عن ابن عباسٍ أَنَّ الصَّغِيرَةَ الضَّحْكَ^(٥).

(١) في (م) و(ز): استنقص، وفي (ف): استفض، وفي الزهد لابن المبارك استنفض. وكلُّها بمعنى التناهي والتلاشي.

(٢) في (د) و(م): بالكافر، والمثبت من (ظ) و(ز) و(ف)، والزهد لابن المبارك (٣٩٦).

(٣) ذكره الرازي ١٣٤/٢١ دون نسبة.

(٤) الوسيط ١٥٢/٣، والبغوي ١٦٦/٣.

(٥) النكت والعيون ٣/٣١٢، وأخرجه الطبري ١٥/٢٨٤ - ٢٨٥، وقال ابن عطية ٣/٥٢١: وهذا مثال.

قلت: فيحتمل أن يكون صغيرة إذا لم يكن في معصية؛ فإن الضحك من المعصية رضاً بها، والرضا بالمعصية معصية، وعلى هذا تكون كبيرة، فيكون وجه الجمع هذا. والله أعلم. أو يُحمل الضحك فيما ذكر الماوردي على التبسّم، وقد قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ صَاحِبًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]. وقال سعيد بن جبیر: إن الصغائر اللَّمَمُ كالمسيب والقُبل، والكبيرة المواقعة والزنى^(١). وقد مضى في «النساء» بيان هذا^(٢). قال قتادة: اشتكى القوم الإحصاء، وما اشتكى أحد ظلماً، فإياكم ومحقرات الذنوب؛ فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه^(٣). وقد مضى ومعنى «أحصاها» عدّها وأحاط بها، وأضيف الإحصاء إلى الكتاب توسعاً. ﴿وَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي: وجدوا إحصاء ما عملوا حاضراً. وقيل: وجدوا جزاء ما عملوا حاضراً. ﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ لَحْدًا﴾ أي: لا يأخذ أحدًا بجُرم أحد، ولا يأخذه بما لم يعملْ؛ قاله الضحاك^(٤). وقيل: لا ينقص طائعا من ثوابه، ولا يزيد عاصياً في عقابه^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٥٠)

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ تقدم في «البقرة» هذا مستوفى^(٦). قال أبو جعفر النحاس: وفي هذه الآية سؤال، يقال: ما معنى: «فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ»؟ ففي هذا قولان أحدهما: وهو

(١) الوسيط ٣/ ١٥٢، والبخاري ٣/ ١٦٦.

(٢) ٢٦١/٦ وما بعدها.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٨٤.

(٤) تفسير البخاري ٣/ ١٦٦.

(٥) تفسير الرازي ٢١/ ١٣٤، والنكت والعيون ٣/ ٣١٣، وتفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٢.

(٦) ٤٣٣/١ وما بعدها.

مذهبُ الخليل وسيبويه أنَّ المعنى: أتاه الفسقُ لَمَّا أُمرَ فعَصَى، فكان سببُ الفسقِ أمرُ ربه، كما تقول: أطعمته عن جوع. والقول الآخر: وهو مذهب محمد بن [المستنير] قُطرب أن المعنى: ففسقَ عن ردِّ أمرِ ربه^(١).

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ وقفَ عزَّ وجلَّ الكفرةَ على جهة التوبيخ بقوله: أفتتخذونه يا بني آدم وذريته أولياءَ وهم لكم عدوٌّ، أي: أعداء، فهو اسمُ جنس. ﴿يَتَسَلَّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ أي: بنس عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الله. أو بنس إبليس بدلاً عن الله^(٢). واختُلف هل لإبليس ذريةٌ من صلبه؟ فقال الشعبيُّ: سألتني رجلٌ فقال: هل لإبليس زوجة؟ فقلت: إنَّ ذلك عُرْسٌ لم أشهده، ثم ذكرت قوله: «أفتتخذونه وذريته أولياء» فعلمتُ أنه لا تكون ذريةٌ إلا من زوجة، فقلت: نعم. وقال مجاهد: إنَّ إبليسَ أدخلَ فرجَه في فرجِ نفسه فباضَ خمسَ بيضات، فهذا أصلُ ذريته^(٣). وقيل: إن الله تعالى خلقَ له في فخذه اليمنى ذكراً، وفي اليسرى فرجاً، فهو ينكح هذا بهذا، فيُخرجُ له كلَّ يومَ عشرَ بيضات، يخرج من كل بيضة سبعون شيطاناً وشيطانة، فهو يُخرج وهو يطير، وأعظمُهم عند أبيهم منزلةً أعظمُهم في بني آدم فتنةً. وقال قومٌ: ليس له أولادٌ ولا ذرية، وذريته أعوانه من الشياطين. قال القشيري أبو نصر: والجملةُ أنَّ الله تعالى أخبرَ أن لإبليس أتباعاً وذرية، وأنهم يُوسوسون إلى بني آدم وهم أعداؤهم، ولا يثبت عندنا كيفيةٌ في كيفية التوالد منهم وحدوثِ الذرية عن إبليس، فيتوقف الأمرُ فيه على نقلٍ صحيح.

قلت: الذي ثبتَ في هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميديُّ في «الجمع بين الصحيحين» عن الإمام أبي بكر البرقاني، أنه خرَّج في كتابه مسنداً عن أبي محمد

(١) معاني القرآن للنحاس ٢٥٤/٤ - ٢٥٥، وما بين حاصرتين سقط منه ومن النسخ، وقد صرح بأنه

قطرب الزجاج في معاني القرآن ٢٩٤/٣، وابن الجوزي في زاد المسير ١٥٤/٥.

(٢) تفسير السمرقندي ٣٠٢/٢.

(٣) تفسير البغوي ١٦٧/٣ - ١٦٨، ونسب قول مجاهد إلى قتادة بنحوه.

عبد الغني بن سعيد الحافظ من رواية عاصم، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكن أوَّلَ مَنْ يدخل السوقَ، ولا آخرَ مَنْ يخرج منها، فبها باض الشيطانُ وفرَّخ»^(١). وهذا يدلُّ على أن للشيطان ذريةً من صلبه، والله أعلم. قال ابنُ عطية^(٢): وقولُه: «وذريته» ظاهرُ اللفظِ يقتضي الموسوسين من الشياطين، الذين يأمرُون^(٣) بالمنكر، ويحملون على الباطل.

وذكر الطبري^(٤) وغيره أنَّ مجاهدًا قال: ذريةُ إبليس الشياطينُ، وكان يَعدُّهم:

رَزَبُور: صاحبُ الأسواق، يضع رأيتَه في كل سوقٍ بين السماء والأرض، يجعل تلك الرأية على حانوتِ أوَّلِ مَنْ يفتح وآخرِ مَنْ يغلق.

وثَبْر: صاحبُ المصائب، يأمر بضربِ الوجوه، وشَقَّ الجيوب، والدعاء بالويل والحرب.

والأعورُ: صاحبُ أبواب الربا^(٥).

ومَسْوَط: صاحبُ الأخبار، يأتي بها فيلقِيها في أفواه الناس فلا يَجِدُون لها أصلًا.

وداسم: الذي إذا دخلَ الرجلُ بيته فلم يُسَلِّمْ ولم يذكرِ اسمَ الله بَصَّرَه من المتاع ما لم يُرفع، وما لم يُحسِّن موضعه، وإذا أكلَ ولم يذكرِ اسمَ الله، أكلَ معه. قال الأعمش: وإني ربما دخلتُ البيتَ فلم أذكرِ الله ولم أُسَلِّمْ، فرأيتُ مطهرةً فقلتُ: ارفعوا هذه، وخاصمتهم، ثم أذكر فأقول: داسم داسم! أعودُ بالله منه^(٦).

زاد الثعلبي وغيره عن مجاهد:

(١) الجمع بين الصحيحين للحميدي ٣/٣٦١، وهو عند مسلم (٢٤٥١).

(٢) في المحرر الوجيز ٣/٥٢٢.

(٣) في النسخ: «يأتون» والمثبت من المحرر الوجيز.

(٤) في التفسير ١٥/٢٩٢.

(٥) في (ز) و(م): «الزنى».

(٦) أخرجه الطبري ١٥/٢٩٣.

والأبيض، وهو الذي يوسوس للأنبياء.

وصخر وهو الذي اختلس خاتم سليمان عليه السلام^(١).

والولهان وهو صاحب الطهارة يوسوس فيها^(٢).

والأقيس وهو صاحب الصلاة يوسوس فيها.

ومرّة وهو صاحب المزامير وبه يُكنّى.

والهفاف^(٣) يكون بالصحارى يُضلّ الناس ويُتيههم، ومنهم الغيلان.

وحكى أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفي في «كتاب اللؤلؤيات» عن مجاهد، أنّ الهفاف هو صاحب الشراب، ولقوس صاحب التحريش، والأعور صاحب أبواب السلطان. قال: وقال الدّراني: إنّ لإبليس شيطاناً يقال له: المتقاضي، يتقاضى ابن آدم فيخبر بعمل كان عمله في السرّ منذ عشرين سنة، فيُحدّث به في العلانية.

قال ابن عطية^(٤): وهذا وما جائسه ممّا لم يأت به سندٌ صحيح، وقد طوّل النقاش في هذا المعنى، وجلب حكايات تبعد عن الصحة، ولم يمرّ بي في هذا صحيح إلا ما في «كتاب مسلم»^(٥) من أنّ للصلاة شيطاناً يسمى خنزب. وذكر الترمذي أنّ للوضوء شيطاناً يسمى الولهان^(٦).

قلت: أما ما ذكر من التعيين في الاسم فصحيح، وأما أنّ له أتباعاً وأعواناً وجنوداً فمقطوع به، وقد ذكرنا الحديث الصحيح في أنّ له أولاداً من صلبه، كما قال مجاهد وغيره.

(١) عرائس المجالس ص ٣٢٥.

(٢) أخرج أحمد (٢١٢٣٨ زوائد)، والترمذي (٥٧)، وابن ماجه (٤٢١)، من حديث أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: للوضوء شيطان يقال له: الولهان، فاتقوه، أو قال: فاحذروه. وفي إسناده خارجه بن مصعب وهو متروك الحديث.

(٣) تفسير البغوي ١٦٧/٣.

(٤) في المحرر الوجيز ٥٢٢/٣.

(٥) برقم (٢٢٠٣)، وهو عند أحمد (١٧٨٩٧)، من حديث عثمان بن أبي العاص.

(٦) تقدم تخريجه آنفاً.

وفي «صحيح» مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: إِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَتَمَثَّلَ فِي صُورَةِ الرَّجُلِ، فَيَأْتِي الْقَوْمَ فَيُحَدِّثُهُمْ بِالْحَدِيثِ مِنَ الْكُذْبِ، فَيَتَفَرَّقُونَ فَيَقُولُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ: سَمِعْتُ رَجُلًا أَعْرَفُ وَجْهَهُ وَلَا أَدْرِي مَا اسْمُهُ يَحْدُثُ^(١).

وفي «مسند» البزار عن سلمان الفارسي قال: قال النبي ﷺ: «لَا تَكُونَنَّ إِنْ اسْتَطَعْتَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ السُّوقَ، وَلَا آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا؛ فَإِنَّهَا مَعْرَكَةُ الشَّيْطَانِ، وَبِهَا يَنْصِبُ رَايَتَهُ»^(٢).

وفي «مسند» أحمد بن حنبل قال: أنبأنا عبد الله بن المبارك قال: حَدَّثَنَا سَفِيَانُ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: إِذَا أَصْبَحَ إِبْلِيسُ بَثَّ جُنُودَهُ فَيَقُولُ: مَنْ أَضَلَّ مُسْلِمًا أَلْبَسْتُهُ التَّاجَ. قَالَ: فَيَقُولُ لَهُ الْقَاتِلُ: لِمَ أَزَلُّ بِفُلَانٍ حَتَّى طَلَّقَ زَوْجَتَهُ. قَالَ: يُوشِكُ أَنْ يَتَزَوَّجَ. وَيَقُولُ آخَرُ: لِمَ أَزَلُّ بِفُلَانٍ حَتَّى عَقَّ. قَالَ: يُوشِكُ أَنْ يَبْرَأَ. قَالَ: وَيَقُولُ الْقَاتِلُ: لِمَ أَزَلُّ بِفُلَانٍ حَتَّى شَرِبَ. قَالَ: أَنْتَ! قَالَ: وَيَقُولُ: لِمَ أَزَلُّ بِفُلَانٍ حَتَّى رَزَى. قَالَ: أَنْتَ! قَالَ: وَيَقُولُ: لِمَ أَزَلُّ بِفُلَانٍ حَتَّى قَتَلَ. قَالَ: أَنْتَ أَنْتَ^(٣).

وفي «صحيح» مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضْعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا. قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ، أَوْ قَالَ: فَيُلْتَزِمُهُ وَيَقُولُ: نِعَمَ أَنْتَ»^(٤). وَقَدْ تَقَدَّمَ.

وسمعتُ شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطي بئغر الإسكندرية يقول: إِنَّ شَيْطَانًا

(١) صحيح مسلم (٧).

(٢) مسند البزار (٢٥٤١)، وهو عند مسلم (٢٤٥١).

(٣) لم نقف عليه في مسند أحمد، ولم يذكره الحافظ ابن حجر في أطراف المسند، ولا في إتحاف المهرة ٣٨/١٠، وعزاه لابن حبان والحاكم، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١١٤/١ إلى الطبراني في الكبير.

وأخرجه ابن حبان (٦١٨٩)، والحاكم ٣٥٠/٤، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ.

(٤) صحيح مسلم (٢٨١٣) (٦٧)، وهو عند أحمد (١٤٣٧٧).

يقال له البَيضاوي يتمثل للفقراء المواصلين في الصيام، فإذا استحكَم منهم الجوع وأضرَّ بأدميتهم، يكشف لهم عن ضياء ونور حتى يملأ عليهم البيوت، فيظنون أنهم قد وصلوا، وأن ذلك من الله، وليس كما ظنوا.

قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضْداً ۝٥١ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝٥٢ وَرَأَى الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ قيل: الضمير عائد على إبليس وذريته^(١)، أي: لم أشاورهم في خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، بل خلقتهم على ما أردت. وقيل: ما أشهدت إبليس وذريته خلق السماوات والأرض «ولا خلق أنفسهم» أي: أنفس المشركين، فكيف اتخذوهم أولياء من دوني؟^(٢). وقيل: الكناية في قوله: «مَا أَشْهَدْتُهُمْ» ترجع إلى المشركين، وإلى الناس بالجملة، فتضمن الآية الرد على طوائف من المنجمين، وأهل الطبائع، والمتحكمين من الأطباء وسواهم من كل من ينخرط^(٣) في هذه الأشياء. وقال ابن عطية^(٤): وسمعت أبي رحمه الله يقول: سمعتُ الفقيه أبا عبد الله محمد بن معاذ المهدي^(٥) بالمهدية يقول: سمعتُ عبدَ الحق الصَّقَلِيَّ يقول هذا القول، ويتأول هذا التأويل في هذه الآية، وأنها رادة على هذه الطوائف، وذكر هذا بعض الأصوليين. قال ابن عطية وأقول: إن الغرض المقصود أولاً بالآية هم إبليس وذريته، وبهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة، وعلى الكهان والعرب والمعظمين للجن، حين يقولون:

(١) تفسير الطبري ٢٩٤/١٥.

(٢) زاد المسير ١٥٤/٥.

(٣) في (ظ): يتخوض، وفي (ز) و(ف): يتخرص.

(٤) في المحرر الوجيز ٥٢٣/٣، وما قبله منه.

(٥) في (م) و(د): المهدي.

أعوذُ بعزيرِ هذا الوادي، إذ الجميعُ من هذه الفرق متعلقون^(١) ببليس وذريته وهم أضلوا الجميع، فهم المرادُ الأول بالمضللين، وتندرجُ هذه الطوائفُ في معناهم. قال الثعلبي: وقال بعضُ أهل العلم: «مَا أَشْهَدُتُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» ردُّ على المنجِّمين أن قالوا: إِنَّ الْأَفْلَاكَ تُحْدِثُ فِي الْأَرْضِ وفي بعضها في بعض، وقوله: «وَالْأَرْضِ» ردُّ^(٢) على أصحاب الهندسة حيث قالوا: إِنَّ الْأَرْضَ كُرِّيَّةٌ^(٣) وَالْأَفْلَاكَ تجري تحتها، والناس ملصقون عليها وتحتها، وقوله: «ولا خلق أنفسهم» ردُّ على الطبائعيين حيث زعموا أن الطبائع هي الفاعلة في النفوس. وقرأ أبو جعفر: «ما أشهدناهم» بالنون والألف على التعظيم. الباقون بالتاء^(٤) بدليل قوله: «وما كنت متخذًا يعني: ما استعنتهم على خلق السماوات والأرض ولا شاورتهم. ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ﴾ يعني: الشياطين. وقيل: الكفار^(٥) ﴿عَصْدًا﴾ أي: أعوانًا^(٦). يقال: اعتضدتُ بفلانٍ إذا استعنتُ به وَتَقَوَّيْتُ^(٧). والأصلُ فيه عَصْدُ اليد، ثم يوضع موضعُ العون؛ لأنَّ اليدَ قِوَامُهَا العَصْدُ. يقال: عَصَدَهُ وَعَاصَدَهُ على كذا إذا أعانه وأعزه. ومنه قوله: ﴿سَنَشُدُّ عَصْدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] أي: سَنُعِينُكَ بِأَخِيكَ. ولفظُ العَصْدِ على جهة المثل، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى عونٍ أحد. وَخَصَّ المضللين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ. وقرأ أبو جعفر والجحدري: «وَمَا كُنْتُ» بفتح التاء^(٨)، أي: وما كنت يا محمدُ متخذًا المضللين عَصْدًا^(٩). وفي عَصْد ثمانية أوجه^(١٠): «عَصْدًا» بفتح

(١) في النسخ الخطية: متعلقين، والمثبت من (م) والمحذر الوجيز ٥٢٣/٣.

(٢) في النسخ الخطية: ردًا.

(٣) في النسخ الخطية: أكرية.

(٤) النشر ٣١١/٢.

(٥) النكت والعيون ٣١٦/٣.

(٦) أخرجه الطبري ٢٩٥/١٥، عن قتادة.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٢٩٤/٣، والصحاح (عصد).

(٨) وقع في النسخ: أبو جعفر الجحدري دون واو، وهو خطأ، والكلام في إعراب القرآن للنحاس ٤٦٠/٢، والمحذر الوجيز ٥٢٣/٣، وقراءة أبي جعفر من العشرة وهي في النشر ٣١١/٢.

(٩) الكلام بنحوه في الكشف ٤٨٨/٢.

(١٠) ذكر ستة أوجه للنحاس في إعراب القرآن ٤٦٠/٢، وذكر خمساً للزجاج في معاني القرآن =

العين وضم الضاد، وهي قراءة الجمهور، وهي أفصحها. و«عَضْدًا» بفتح العين وإسكان الضاد، وهي لغة بني تميم. و«عُضْدًا» بضم العين والضاد، وهي قراءة أبي عمرو والحسن. و«عُضْدًا» بضم العين وإسكان الضاد، وهي قراءة عكرمة. و«عِضْدًا» بكسر العين وفتح الضاد، وهي قراءة الضحاك. و«عَضْدًا» بفتح العين والضاد، وهي قراءة عيسى بن عمر. وحكى هارون القارئ «عِضْدًا». واللغة الثامنة «عِضْدًا» على لغة مَنْ قال: كَتَفَ وَفَحَذَ^(١).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: اذكروا يوم يقول الله: أين شركائي؟ أي: ادعوا الذين أشركتموهم بي، فليمنعوكم من عذابي، وإنما يقول ذلك لعبد الأوثان^(٢). وقرأ حمزة ويحيى وعيسى بن عمر: «نقول» بنون. الباقون بالياء^(٣)؛ لقوله: «شركائي» ولم يقل: شركائنا، ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: فعلوا ذلك، ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي: لم يجيبوهم إلى نصرهم، ولم يكفوا عنهم شيئاً، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ قال أنس بن مالك: هو وادٍ في جهنم من قيح ودم^(٤). وقال ابن عباس: أي: وجعلنا بين المؤمنين والكافرين حاجزاً. وقيل: بين الأوثان وعبدتها^(٥)، نحو قوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]. قال ابن الأعرابي: كلُّ شيءٍ حاجزٌ بين شيئين فهو مَوْبِقٌ. وذكر ابن وهب، عن مجاهد في قوله تعالى: «مَوْبِقًا» قال: وادٍ في جهنم يقال له: مَوْبِقٌ. وكذلك قال نَوْفُ الْبِكَالِيِّ إلا أنه قال: يحجزُ بينهم وبين المؤمنين^(٦). عكرمة: هو نهرٌ في جهنم يسيل ناراً، على حافتيه حياتٌ مثل البغالِ الدُّهم^(٧)، فإذا ثارت إليهم

= ٢٩٤-٢٩٥ ، والزمخشري في الكشاف ٤٨٨/٢ .

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/٤٦٠ ، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٥٢٣ جميع القراءات إلا قراءة هارون القارئ، وينظر القراءات الشاذة لابن خالويه ص ٨٠ .

(٢) تفسير الطبري ١٥/٢٩٥ ، والسمرقندي ٢/٣٠٣ ، وإعراب النحاس ٢/٤٦١ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/٥٢٣ ، دون ذكر عيسى بن عمر، وزاد طلحة والأعمش.

(٤) سبأتي تخريجه قريباً.

(٥) تفسير البغوي ٣/١٦٨ ، ونحوه في المحرر الوجيز ٣/٥٢٣ .

(٦) الوسيط ٣/١٥٣ .

(٧) تفسير البغوي ٣/١٦٨ .

لتأخذهم، استغاثوا منها بالافتحام في النار. وروى يزيد^(١) بن درهم، عن أنس بن مالك قال: «موبقا» واد من قيح ودم في جهنم^(٢). وقال عطاء والضحاك: مهلكاً في جهنم، ومنه يقال: أوبقته ذنوبه إيقاقاً^(٣). وقال أبو عبيدة^(٤): موعداً للهلاك. الجوهري: وبَقَ يَبِقُ وبوقاً: هَلَك، والمَوْبِقُ مثلُ الموعدِ، مَفْعِلٌ من وعد يَعِدُ، ومنه قوله تعالى: «وجعلنا بينهم موبقا». وفيه لغة أخرى: وَبِقَ يَوْبِقُ وَبَقاً، وفيه لغة ثالثة: وَبِقَ يَبِقُ بالكسر فيهما، وأوبقه أي: أهلكه^(٥). وقال زهير:

وَمَنْ يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ يَصُنْ عِرْضَهُ مِنْ كُلِّ شَنْعَاءٍ مُوْبِقٍ^(٦)
قال الفراء^(٧): جَعَلَ تَوَاصَلَهُمْ فِي الدُّنْيَا مَهْلِكاً لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

قوله تعالى: ﴿وَرَعَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ «رأى» أصله رَأَى، قُلِبَتِ الياء ألفاً؛ لانفتاحها وانفتاح ما قبلها، ولهذا زعم الكوفيون أنَّ «رأى» يكتب بالياء، وتابَعَهُمْ على هذا القول بعض البصريين، فأما البصريون الحدائق، منهم محمد بن يزيد، فإنهم يكتبونه بالألف. قال النحاس: سمعتُ عليَّ بنَ سليمان يقول: سمعت محمد بنَ يزيد يقول: لا يجوزُ أن يُكْتَبَ مضى ورمى وكلُّ ما كان من ذواتِ الياء إلا بالألف، ولا فرقَ بين ذواتِ الياء وبين ذواتِ الواو في الخطِّ، كما أنَّه لا فرقَ بينهما في اللفظ، ولو وجبَ أن يكتب ذواتُ الياء بالياء؛ لوجبَ أن يكتب ذواتُ الواو بالواو، وهم مع هذا

(١) في (م): زيد، وهو خطأ.

(٢) أخرجه الطبري ٢٩٨/١٥، وابن حبان في الثقات ٥٣٨/٥ في ترجمة يزيد، والبيهقي في البعث والنشور (٥٢٠).

(٣) تفسير البغوي ١٦٨/٣.

(٤) في مجاز القرآن ٤٠٦/١، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣١٦/٣.

(٥) الصحاح (وبق).

(٦) ديوان زهير ص ٢٥٢، وفيه: ومن يلتمس بدل يشتري. وقال شارحه: شنعاء: قبيحة، وموبق: مهلك، ووقع في النسخ الخطية: عن كل شنعاء، والمثبت من (م)، وديوان زهير.

(٧) في معاني القرآن ١٤٧/٢.

يُنَاقِضُونَ فيكتبون رمى بالياء ورماء بالالف، فإن كانت العلة أنه من ذوات الياء؛ وجب أن يكتبوا رماء بالياء، ثم يكتبون ضحاً جمع ضحوة، وكساً جمع كسوة، وهما من ذوات الواو بالياء، وهذا ما لا يحصل ولا يثبت على أصل^(١). ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا﴾ «فظنوا» هنا بمعنى اليقين والعلم^(٢)، كما قال:

فَقُلْتُ لَهُمْ ظَنُّوا بِالْفَيِّ مُدَجِّجٌ^(٣)

أي: أيقنوا، وقد تقدم^(٤). قال ابن عباس: أيقنوا أنهم مواقعوها^(٥). وقيل: رأوها من مكان بعيد فتوهموا أنهم مواقعوها، وظنوا أنها تأخذهم في الحال. وفي الخبر: «إن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة»^(٦). والمواقعة ملابسة الشيء بشدة^(٧). [وعن علقمة أنه قرأ^(٨)]: «فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّلاَفُوهَا» أي: مجتمعون فيها، واللفف الجمع، ﴿وَلَمْ يَحْدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: مهرباً؛ لإحاطتها بهم من كل جانب. وقال القتيبي^(٩): مَعْدِلًا ينصرفون إليه. وقيل: ملجأ يلجؤون إليه، والمعنى واحد. وقيل: ولم تجد الأصنام مصرفاً للنار عن المشركين^(١٠).

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤٦١/٢ .

(٢) الوسيط ١٥٤/٣ ، ومعاني القرآن للزجاج ٢٩٥/٣ ، وتفسير السمرقندي ٣٠٣/٢ .

(٣) صدر بيت لدريد بن الصمة الجشمي وهو في ديوانه ص ٤٧ وروايته ثمة:

علانية ظنوا بألفي مدجج سرائهم في الفارسي المسرد

(٤) ٧٢/٢ .

(٥) الوسيط ١٥٤/٣ .

(٦) أخرجه أحمد (١١٧١٤)، والطبري ٢٩٩/١٥ ، من حديث أبي سعيد الخدري. وفي إسناده: دراج عن أبي الهيثم سليمان بن عمرو الغوثاري، وروايته عنه ضعيفة.

(٧) الوسيط ١٥٤/٣ .

(٨) ما بين حاصرتين من المحرر الوجيز ٥٢٤/٣ .

(٩) في تفسير غريب القرآن ص ٢٦٩ .

(١٠) النكت والعيون ٣١٧/٣ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا عَائِقِيَّ وَمَا أَنْذَرُوا هُزُومًا ۝٥٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۝٥٧ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ۝٥٨ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۝٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية. الثاني: ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية^(١)، وقد تقدّم في «سبحان»^(٢)، فهو على الوجه الأول زجر، وعلى الثاني بيان.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي: جدالاً ومجادلةً، والمراد به النضر بن الحارث وجداله في القرآن. وقيل: الآية في أبي بن خلف. وقال الزجاج: أي: الكافر أكثر شيء جدلاً؛ والدليل على أنه أراد الكافر قوله: ﴿وَجَعَلْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾^(٣).

وروى أنس أن النبي ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْكَفَارِ فيقولُ الله له: ما صنعتَ فيما أرسلتُ إليك؟ فيقول: ربِّ آمَنْتُ بك، وصدّقت برسلك، وعملتُ بكتابك. فيقول الله له: هذه صحيفتك ليس فيها شيءٌ من ذلك. فيقول: يا رب، إني

(١) النكت والعيون ٣/ ٣١٧.

(٢) ص ٨٧ من هذا الجزء.

(٣) الوسيط ٣/ ١٥٤، وكلام الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٩٦.

لا أقبلُ ما في هذه الصحيفة. فيقال له: هذه الملائكة الحَفَظَةُ يشهدون عليك. فيقول: ولا أقبلُهم يا رب، وكيف أقبلهم ولا هم من عندي، ولا من جهتي؟ فيقول الله تعالى: هذا اللوحُ المحفوظُ أم الكتاب قد شهدَ بذلك. فقال: يا رب، ألم تُجرني من الظلم؟ قال: بلى. فقال: يا رب، لا أقبلُ إلا شاهداً عليّ من نفسي. فيقول الله تعالى: الآنَ نبعثُ عليك شاهداً من نفسك. فَيَتَفَكَّرُ مَنْ ذا الذي يشهدُ عليه من نفسه، فيُخْتَمَ على فيه، ثم تنطقُ جوارحه بالشرك، ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام، فيدخلُ النارَ وإنَّ بعضَه ليلعن بعضاً، يقول لأعضائه: لَعَنَكُنَّ اللهُ فَعَنَكُنَّ كُنْتُ أناضل. فتقول أعضاؤه: لَعَنَكَ الله، أفتعلمُ أَنَّ اللهَ تعالى يُكْتَمُ حديثاً. فذلك قوله تعالى: «وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً»^(١). أخرجه مسلم^(٢) بمعناه من حديث أنس أيضاً.

وفي «صحيح» مسلم، عن عليّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةُ فَقَالَ: «أَلَا تُصَلُّونَ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثْنَا، فَانصرفت رسولُ الله ﷺ حينَ قلتَ له ذلك، ثم سَمِعْتُهُ وهو مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخْذَهُ ويقول: «وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ أي: القرآن والإسلام ومحمدٌ عليه الصلاة والسلام^(٤)، ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: سُنَّتُنَا في إهلاكهم^(٥)، أي: ما مَنَعَهُمْ عن الإيمان إلا حَكْمِي عليهم بذلك، ولو حكمت عليهم بالإيمان؛ آمنوا. وسنةُ الأولين: عادةُ الأولين في عذاب الاستئصال^(٦). وقيل: المعنى: وما منع الناس أن يؤمنوا إلا طلبُ أن تأتِيَهُمْ سنة

(١) لم نقف عليه بهذه السياقة.

(٢) برقم (٢٩٦٩).

(٣) صحيح مسلم (٧٧٥)، وهو عند البخاري (١١٢٧).

(٤) زاد المسير ١٥٧/٥، والنكت والعيون ٣١٨/٣.

(٥) البغوي ١٦٨/٣.

(٦) النكت والعيون ٣١٨/٣.

الأولين، فحذف، وسنة الأولين: معاينة العذاب، فطلب المشركون ذلك، وقالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾^(١) الآية [الأنفال: ٣٢]. «أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ قَبْلًا» نصب على الحال^(٢)، ومعناه عياناً؛ قاله ابن عباس^(٣). وقال الكلبي: هو السيف يوم بذر. وقال مقاتل: فجأة. وقرأ أبو جعفر وعاصم، والأعمش وحمزة، ويحيى والكسائي: «قُبْلًا»^(٤) بضمتين أرادوا به أصناف العذاب كله؛ جمع قَبِيل نحو سَبِيل وسُبُل. النحاس: ومذهب الفراء^(٥) أن «قُبْلًا» جمع قَبِيل أي: متفرقاً يتلو بعضه بعضاً. ويجوزُ عنده أن يكونَ المعنى عياناً. وقال الأعرج - وكانت قراءته «قُبْلًا» - معناه: جميعاً. وقال أبو عمرو - وكانت قراءته «قَبْلًا» - ومعناه: عياناً^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ أي: بالجنة لمن آمن. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ أي: مخوفين بالعذاب من كفر^(٧). وقد تقدّم. ﴿وَيُجَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ قيل: نزلت في المقتسمين، كانوا يُجادلون في الرسول ﷺ، فيقولون: ساحرٌ ومجنونٌ، وشاعرٌ وكاهنٌ كما تقدّم^(٨). ومعنى «يدحضوا»: يزيلوا ويُبطلوا. وأصل الدَّخْضُ الزَّلَقُ. يقال: دَخَضْتُ رِجْلَهُ، أي: زَلَقْتُ، تَدَخَضُ دَخْضًا، ودَخَضَتِ الشَّمْسُ عن كبد السماء: زالت، ودَخَضَتْ حُجَّتَهُ دُحُوضًا: بَطَلَتْ، وأدَحَضَهَا الله. والإِدْحَاضُ الإِزْلَاقُ^(٩). وفي وصف الصراط: «وَيُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَجْلُ

(١) البغوي ١٦٨/٣، ومعاني القرآن للزجاج ٢٩٦/٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤٦٢/٢، و«قَبْلًا» التي قرأ بها المصنف هي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، ونافع، وابن عامر كما في السبعة ص ٣٩٣.

(٣) البغوي ١٦٩/٣.

(٤) السبعة ص ٣٩٣، والتيسير ص ١٤٤، والنشر ٣١١/٢.

(٥) في معاني القرآن ١٤٧/٢.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤٦٢/٢.

(٧) ذكر نحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥٢٥/٣، وسلف ٣٨٤/٨.

(٨) الكلام بنحوه في الوسيط ١٥٤/٣، وسلف ٢٥٥/١٢.

(٩) الصحاح (دحض).

الشفاعة فيقولون: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: «دَحْضُ مَزَلَّةٍ»^(١)، أي: تَزَلُّقٌ فيه القَدَمُ. قال طَرَفَةٌ:

أبا منذرٍ رُمِتَ الوفاءُ فهِبَتْهُ وَجِدَتْ كما حَادَ البعيرُ عن الدَّحْضِ^(٢)

﴿وَاتَّخَذُوا مَا بَيْنَهُ﴾ يعني: القرآن^(٣) ﴿وَمَا أُنْذِرُوا﴾ من الوعيدِ ﴿هُزُؤًا﴾. و«ما»

بمعنى المصدر أي: والإندار. وقيل: بمعنى الذي^(٤)، أي: اتخذوا القرآن^(٥) والذي أُنْذِرُوا به من الوعيدِ هُزُؤًا، أي: لعباً وباطلاً، وقد تقدَّم في «البقرة» بيانه^(٦). وقيل: هو قولُ أبي جهل في الزُّبْدِ والتَّمْرِ: هذا هو الزُّقُومُ^(٧). وقيل: هو قولُهم في القرآن: هو سحرٌ وأضغاثُ أحلامٍ وأساطيرُ الأولين، وقالوا للرسول: ﴿هَذَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] و﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الظَّالِمِينَ مَن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: لا أحدَ أَظْلَمُ لنفسه ممَّنْ وُعِظَ بآياتِ ربه، فتهاونَ بها وأعرضَ عن قبولها^(٨)، ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: ترك كفره ومعاصيه فلم يَتَبَّ منها^(٩)، فالنسيانُ هنا بمعنى التَّرك. وقيل: المعنى: نسي ما قَدَّم لنفسه وحَصَّل من العذاب، والمعنى متقاربٌ. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ

(١) أخرجه مسلم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري، ووقع في (م): مزلة بدل مزلّة.

(٢) ديوان طرفة ص ١٧٢، وهو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٤٠٨/١، ودون نسبة عند الطبري ٣٠٢/١٥، وروايته:

رَوَيْتُ وَنَجَّسَ الْبِشْكَرِيُّ حَذَارَهُ وَحَادَ كَمَا حَادَ الْبَعِيرُ عَنِ الدَّحْضِ

(٣) تفسير السمرقندي ٣٠٣/٢.

(٤) الكشف ٤٨٩/٢.

(٥) البغوي ١٦٩/٣.

(٦) ١٠١/٤.

(٧) سلف في سورة الإسراء، عند الآية (٦٠).

(٨) تفسير الرازي ١٤٢/٢١.

(٩) إعراب النحاس ٤٦٢/٢.

يَفْقَهُوهُ فِي آذَانِهِمْ وَقَرَّاءٌ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، أي: نحن مَنَعْنَا الْإِيمَانَ مِنْ أَنْ يَدْخَلَ قُلُوبَهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ ﴿وَأِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ أي: إِلَى الْإِيمَانِ^(١) ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذَا أَبَدًا﴾ نَزَلَ فِي قَوْمٍ مُعَيَّنِينَ^(٢)، وَهُوَ يَرُدُّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ قَوْلَهُمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ فِي «سَبْحَانَ»^(٣) وَغَيْرِهَا.

قوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي: لِلذُّنُوبِ، وَهَذَا يَخْتَصُّ بِهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ دُونَ الْكُفْرَةِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]. «ذُو الرَّحْمَةِ» فِيهِ أَرْبَعُ تَأْوِيلَاتٍ: أَحَدُهَا: ذُو الْعَفْوِ. الثَّانِي: ذُو الثَّوَابِ، وَهُوَ عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ مُخْتَصٌّ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ دُونَ الْكُفْرِ. الثَّلَاثُ: ذُو النِّعْمَةِ. الرَّابِعُ: ذُو الْهُدَى، وَهُوَ عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ يَعُمُّ أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ؛ لِأَنَّهُ يُنْعِمُ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكَافِرِ، كِنِعَامِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِ، وَقَدْ أَوْضَحَ هُدَاهُ لِلْكَافِرِ كَمَا أَوْضَحَهُ لِلْمُؤْمِنِ، وَإِنْ اهْتَدَى بِهِ الْمُؤْمِنُ دُونَ الْكَافِرِ^(٤). وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: مِنْ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي^(٥) ﴿لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وَلَكِنَّهُ يُمَهِّلُ، ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ أي: أَجَلٌ مُقَدَّرٌ يُؤَخَّرُونَ إِلَيْهِ^(٦)، نَظِيرُهُ: ﴿لِكُلِّ نَبَلٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] أي: إِذَا حُلَّ لَمْ يَتَأَخَّرْ عَنْهُمْ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ، ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْبِلًا﴾ أي: مُلْجَأً؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ زَيْدٍ^(٧)، وَحَكَاهُ الْجَوْهَرِيُّ فِي «الصَّحَاحِ». وَقَدْ وَآلٌ يَيْلُ وَآلَا وَوُؤُولَا عَلَى فُعُولٍ، أي: لَجَأً، وَوَاءٌ مِنْهُ عَلَى فَاعِلٍ،

(١) زاد المسير ١٥٩/٥ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢٩٧/٣ .

(٣) ص ٩٥ من هذا الجزء .

(٤) النكت والعيون ٣٢٠/٣ .

(٥) تفسير السمرقندي ٣٠٤/٢ .

(٦) النكت والعيون ٣٢٠/٣ .

(٧) أخرجه عنهما الطبري ٣٠٥/١٥ .

أي: طلب النجاة^(١). وقال مجاهد: مَحْرَزًا. قتادة: وليًا^(٢). وأبو عبيدة^(٣): مَنْجَى. وقيل: مَحِيصًا، والمعنى واحدٌ. والعربُ تقول: لا وأَلَتْ نفسه، أي: لا نَجَتْ^(٤)، ومنه قولُ الشاعر:

لا وَأَلَتْ نَفْسُكَ خَلِيَّتَهَا لِلْعَامِرِيِّينَ وَلَمْ تُكَلِّمْ^(٥)
وقال الأعشى^(٦):

وقد أَخَالَسُ رَبَّ الْبَيْتِ غَفْلَتُهُ وقد يُحَاذِرُ مِنِّي ثم ما يَئُلُ
أي: ما ينجو^(٧).

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ «تلك» في موضع رفع بالابتداء. «القرى» نعتٌ أو بدل. و«أهلكناهم» في موضع الخبرِ محمول على المعنى؛ لأنَّ المعنى: أهل القرى. ويجوزُ أن تكون «تلك» في موضع نصب على [قول] مَنْ قال: زيدا ضربته^(٨). أي: وتلك القرى التي قَصَصْنَا عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ، نحو قُرَى عَادٍ وَثَمُودَ ومَدْيَنَ وقوم لوط أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وكَفَرُوا. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ أي: وقتاً معلوماً لم تَعُدْهُ^(٩). و«مُهْلِكَ» من أَهْلِكُوا، وقرأ عاصم: «مَهْلِكُهُمْ» بفتح الميم واللام^(١٠).

(١) الصحاح (وأل).

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٣٠٥/١٥ ، وقول مجاهد في تفسيره ٣٧٨/١ .

(٣) في مجاز القرآن ٤٠٨/١ .

(٤) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٦٩ .

(٥) النكت والعيون ٣/٣٢٠ ، والبيت لضمرة بن ضمرة النهشلي، وهو شاعر جاهلي، والبيت في النوادر ص ٥٥ ، وهو دون نسبة عند الطبري ٣٠٤/١٥ ، ومعاني القرآن للفراء ١٤٨/٢ .

وقال البغدادى في الخزانة ٢٨٦/٩ : وقوله: لا وأَلَتْ نفسك.. إلخ، هذا دعاء على رجل استأسر لأعدائه دون أن يجرح.

(٦) في ديوانه ص ١٠٩ .

(٧) زاد المسير ١٦٠/٥ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤٦٣/٢ ، وما بين حاصرتين منه.

(٩) الكشف ٤٨٩/٢ - ٤٩٠ .

(١٠) هذه رواية أبي بكر عن عاصم، وروى حفص عن عاصم: بفتح الميم وكسر اللام. «السبعة» ص ٣٩٣ .

وهو مصدرٌ هَلَكَ، وأجازَ الكسائيُّ والفراءُ: «لَمَهْلِكِهِمْ» بكسر اللامِ وفتح الميم. النحاس: [قال الكسائي]: وهو أَحَبُّ إِلَيَّ؛ لَأَنَّهُ مِنْ هَلَكَ. الزجاج: اسْمٌ لِلزَّمَانِ، والتقديرُ: لوقتِ مَهْلِكِهِمْ، كما يقال: أَتَتِ النَّاقَةُ عَلَى مَضْرِبِهَا^(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ ﴿٦٠﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ﴾ الجمهورُ من العلماءِ وأهلِ التاريخ أَنَّهُ موسى بْنُ عمرانَ المذكور في القرآن ليس فيه موسى غيره. وقالت فرقةٌ منها نَوْفُ الْبِكَالِيِّ: إنه ليس ابنُ عمرانَ، وإنما هو موسى بْنُ منشَا بْنِ يوسفَ بْنِ يعقوبَ، وكان نبيًّا قبل موسى بْنِ عمران^(٢). وقد ردَّ هذا القولَ ابنُ عباسٍ في «صحيح» البخاري^(٣) وغيره. وفتاه: هو يوشعُ بْنُ نونَ. وقد مضى ذكرُهُ في «المائدة» وآخر «يوسف»^(٤). وَمَنْ قال: هو ابنُ منشَا؛ فليسَ الفتى يوشعَ بْنَ نونَ. «لَا أُبْرَحُ» أي لا أزال أُسِيرُ^(٥)؛ قال الشاعر:

وَأُبْرَحُ مَا أَدَامَ اللَّهُ قَوْمِي بِحَمْدِ اللَّهِ مُنْتَطَقًا مُجِيدًا^(٦)

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤٦٣/٢، وما بين حاصرتين منه، والتيسير ص ١٤٤، والسبعة ص ٣٩٣، والنشر ٣١١/٢.

وقوله: أَتَتِ النَّاقَةُ عَلَى مَضْرِبِهَا، قال الزجاج في معاني القرآن ٣/٢٩٧ - ٢٩٨: أي: على زمانِ ضرابها.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢٣٠، والمحزر الوجيز ٣/٥٢٧.

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٤) في المائدة ٧/٤٠٣ وما بعدها، وفي يوسف ١١/٤٦٤.

(٥) الطبري ٣٠٨/١٥.

(٦) البيت لخداش بن زهير العامري، نسبه إليه ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/٨٢، وهو عند الزجاج في معاني القرآن ٣/٢٩٨ دون نسبة. وفي المعاني الكبير: رخيُّ البال، بدل: بحمد الله. وقال ابن قتيبة: =

وقيل: «لَا أَبْرَحُ» لا أفارقك^(١) ﴿حَقَّقَ أَتْلَعُ مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: ملتقاهما. قال قتادة: وهو بحر فارس والروم، وقاله مجاهد^(٢). قال ابن عطية: وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان، فالركن الذي لاجتماع البحرين مما يلي بر الشام هو مجمع البحرين^(٣) على هذا القول. وقيل: هما بحر الأرذون وبحر القلزم^(٤). وقيل: مجمع البحرين عند طنجة؛ قاله محمد ابن كعب^(٥). ورؤي عن أبي بن كعب أنه بأفريقية. وقال السدي: الكُر والرَّس بأرمينية. وقال بعض أهل العلم: هو بحر الأندلس من البحر المحيط؛ حكاه النقاش، وهذا ممَّا يُذكر كثيراً. وقالت فرقة: إنما هما موسى والخضر، وهذا قول ضعيف^(٦)، وحكي عن ابن عباس، ولا يصح^(٧)؛ فإنَّ الأمر يُبين من الأحاديث أنه إنما رُسِمَ له بحر ماء.

وسبب هذه القصة ما خرَّجه الصحيحان^(٨) عن أبي بن كعب، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه؛ إذ لم يرُدَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: إنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا رب، فكيف لي به؟ قال: تأخذُ معك

= منتطقاً فيه قولان، أحدهما أن يشد الدرع عليه بالنطاق، ويروى عن يونس أنه قال: تقول: انتطق الرجل فرسه إذا قاده، مجيداً: أقود فرساً تلد الجياد.

(١) النكت ٣/٣٢٢ - ٣٢٣.

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٣٠٨/١٥ - ٣٠٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٥٢٧.

(٤) التعريف والإعلام ص ١٠٣.

(٥) أخرجه عنه الطبري ٣٠٩/١٥.

(٦) المحرر الوجيز ٣/٥٢٧، وقول السدي في المفهم ٦/١٩٥.

(٧) المفهم ٦/١٩٥.

(٨) في (م): وسم، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز ٣/٥٢٨ والكلام منه.

(٩) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ، فحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمٌّ» وذكر الحديث، واللفظ للبخاري.

وقال ابن عباس: لَمَّا ظَهَرَ مُوسَى وَقَوْمُهُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ، أَنْزَلَ قَوْمَهُ مِصْرَ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّتْ بِهِمُ الدَّارُ، أَمَرَهُ اللَّهُ: أَنْ ذَكَّرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ، فَخَطَبَ قَوْمَهُ فَذَكَّرَهُمْ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالنِّعْمَةِ؛ إِذْ نَجَّاهُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَأَهْلَكَ عَدُوَّهُمْ، وَاسْتَخْلَفَهُمْ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: وَكَلَّمَ اللَّهُ نَبِيَّكُمْ تَكْلِيمًا، وَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَأَلْقَى عَلَيَّ مَحَبَّةً مِنْهُ، وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، فَجَعَلَكُمْ أَفْضَلَ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَرَزَقَكُمْ الْعِزَّ بَعْدَ الذِّلِّ، وَالْغِنَى بَعْدَ الْفَقْرِ، وَالتَّوْرَةَ بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ جُهَالًا، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: عَرَفْنَا الَّذِي تَقُولُ، فَهَلْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا؛ فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ حِينَ لَمْ يَرِدَّ الْعِلْمُ إِلَيْهِ، فَبَعَثَ اللَّهُ جِبْرِيلَ: أَنْ يَا مُوسَى، وَمَا يُدْرِيكَ أَيْنَ [أَضْع] عِلْمِي؟ بَلَى! إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ أَعْلَمُ مِنْكَ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ^(١).

قال علماؤنا: قَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ: «هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ» أَي: بِأَحْكَامٍ وَقَائِعٍ مَفْصَّلَةٍ، وَحُكْمٍ نَوَازِلٍ مَعِينَةٍ، لَا مَطْلَقًا، بِدَلِيلِ قَوْلِ الْخَضِرِ لِمُوسَى: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ أَنَا، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَعَلَى هَذَا فَيَصْدُقُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنَّهُ أَعْلَمُ مِنَ الْآخَرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يَعْلَمُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَلَا يَعْلَمُهُ الْآخَرُ، فَلَمَّا سَمِعَ مُوسَى هَذَا تَشَوَّفَتْ نَفْسُهُ الْفَاضِلَةَ، وَهَمَّتْهُ الْعَالِيَةُ، لِتَحْصِيلِ عِلْمٍ مَا لَمْ يَعْلَمْ، وَلِلْقَاءِ مَنْ قِيلَ فِيهِ: إِنَّهُ أَعْلَمُ مِنْكَ، فَعَزَمَ فَسَأَلَ سُؤَالَ الذَّلِيلِ: بِكَيْفِ السَّبِيلِ؟ فَأَمَرَ بِالِارْتِحَالِ عَلَى كُلِّ حَالٍ. وَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ مَعَكَ حُوتًا مَالِحًا فِي مِكْتَلٍ - وَهُوَ الزَّنْبِيلُ - فَحَيْثُ يَحْيَا وَتَفَقِّدُهُ، فَتَمَّ السَّبِيلُ، فَانْطَلَقَ مَعَ فِتَاهٍ لَمَّا وَاتَاهُ، مُجْتَهِدًا طَلِبًا قَائِلًا: «لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ»^(٢). ﴿أَوْ أَمْضَى حُقُبًا﴾ بِضَمِّ الْحَاءِ وَالْقَافِ وَهُوَ الدَّهْرُ، وَالْجَمْعُ أَحْقَابُ. وَقَدْ تُسَكَّنُ قَافُهُ فَيَقَالُ: حُقْبُ، وَهُوَ ثَمَانُونَ سَنَةً، وَيَقَالُ:

(١) أخرجه الطبري ٣٣٠/١٥، وما بين حاصرتين منه.

(٢) المفهم ١٩٥/٦ - ١٩٦.

أكثر من ذلك، والجمع حِقَاب، والحِقْبَةُ، بكسر الحاء: واحدة الحَقَب وهي السَّنون^(١).

الثانية: في هذا من الفقه: رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخدام والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بُعِدَتْ أقطارهم، وذلك كان دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظِّ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح، فرسخت لهم في العلوم أقدامٌ، وصحَّ لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام^(٢). قال البخاري^(٣): ورَحَلَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مسيرة شهرٍ إلى عبدِ الله بن أنيس في حديثٍ واحد^(٤).

الثالثة: قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ» للعلماء فيه ثلاثة^(٥) أقوال:

أحدها: أنه كان معه يخدمه، والفتى في كلام العرب الشاب، ولما كان الخَدَمَةُ أكثرَ ما يكونون فتياناً قيل للخدام: فتى على جهة حسن الأدب، ونَدَبَتِ الشريعةُ إلى ذلك في قول النبي ﷺ: «لا يقل أحدكم: عبدي ولا أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي» فهذا ندبٌ إلى التواضع، وقد تقدّم هذا في «يوسف»^(٦). والفتى في الآية هو الخادم وهو يوشعُ بْنُ نُون بن إفرائيم بن يوسف عليه السلام.

ويقال: هو ابنُ أختِ موسى عليه السلام. وقيل: إنّما سُمي فتى موسى؛ لأنّه لزمه ليتعلّم منه وإن كان حرّاً، وهذا معنى الأوّل. وقيل: إنّما سماه فتى؛ لأنه قام مقام الفتى وهو العبد، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ اجْعَلُوا يَضَعُغَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢]،

(١) الصحاح (حقب)، وقد نقله المصنف بواسطة أبي العباس القرطبي في المفهم.

(٢) المفهم ١٩٦/٦.

(٣) في الصحيح قبل حديث (٧٨).

(٤) ليست في (د) و(ز) و(م)، وهي من (ظ) و(ف) وصحيح البخاري.

(٥) ليست في (ظ) و(ف)، وفي أحكام ابن العربي ١٢٣٢/٣، والكلام منه قال: فيه قولان.

(٦) ٣٥٣/١١، وما بعدها.

وقال: ﴿تَرَوُدُ فَلَنَهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٣٠] قال ابنُ العربي^(١): فظاهرُ القرآنِ يقتضي أنه عبدٌ، وفي الحديث: أنه كان يوشعَ بنَ نون. وفي التفسير: أنه ابنُ أخته، وهذا كله ممّا لا يُقطع به، والتوقف فيه أسلم.

الرابعة: قوله تعالى: «أَوْ أَمْضِي حُقْبًا» قال عبدُ الله بنُ عمرو: والحُقْب ثمانون سنة. مجاهد: سبعون خريفًا. قتادة: زمان^(٢). النحاس: الذي يعرفه أهلُ اللغة أن الحُقْب والحِقبة زمانٌ من الدهرِ مبهمٌ غيرُ محدود، كما أن رهطاً وقوماً مبهمٌ غيرُ محدود، وجمعه أحقاب^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا بَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلُهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۖ ﴿١١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۖ ﴿١٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۖ ﴿١٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۖ ﴿١٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۖ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا بَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ الضميرُ في قوله: «بينهما» للبحرين؛ قاله مجاهد^(٤). والسَرَب: المسلك؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: جَمَدُ الماءِ فصار كالسَرَب^(٥). وجمهورُ المفسرين أن الحوت بقي موضعَ سلوكه فارغاً، وأن موسى مشى عليه متبعاً للحوت، حتى أفضى به الطريق إلى جزيرة في البحر، وفيها وجد الخَضِرَ. وظاهرُ الروايات والكتاب أنه إنما وجد الخَضِرَ في ضفةِ البحر. وقوله: «نسيا حوتهما» وإنما كان النسيانُ من الفتى وحده فليل: المعنى:

(١) في أحكام القرآن ١٢٣٢/٣، وما قبله منه.

(٢) أخرجه عنهم الطبري ٣١٠/١٥ - ٣١١، وقول مجاهد في التفسير ٣٧٨/١.

(٣) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤٦٣/٢ و ١٣٠/٥.

(٤) في التفسير ٣٧٨/١، وأخرجه عنه الطبري ٣١١/١٥.

(٥) تفسير الطبري ٣١٤/١٥، وقول مجاهد في السرب ذكره في النكت والعيون ٣٢٣/٣.

نَسِيَ أَنْ يُعَلِّمَ مُوسَى بِمَا رَأَى مِنْ حَالِهِ، فَنَسَبَ النِّسْيَانَ إِلَيْهِمَا لِلصَّحْبَةِ^(١)، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخْرِجُ مِنْهُمَا الْقَوْلَ وَالْوَحْيَ﴾ [الرحمن: ٢٢] وَإِنَّمَا يَخْرُجُ مِنَ الْمِلْحِ، وَقَوْلِهِ: ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وَإِنَّمَا الرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ لَا مِنَ الْجِنِّ. وَفِي «الْبَخَارِيِّ»^(٢): فَقَالَ لِفَتَاهُ: لَا أَكْلِفُكَ إِلَّا أَنْ تَخْبِرَنِي بِحَيْثُ يُفَارِقُكَ الْحَوْثُ، قَالَ: مَا كَلَّفْتُ كَثِيرًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ» يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ - لَيْسَتْ عَنْ سَعِيدٍ^(٣) - قَالَ: فَبَيْنَا هُوَ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ فِي مَكَانٍ ثَرَيَّانَ إِذْ تَضَرَّبَ^(٤) الْحَوْثُ وَمُوسَى نَائِمٌ فَقَالَ فَتَاهُ: لَا أُوقِظُهُ، حَتَّى إِذَا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ أَنْ يَخْبِرَهُ، وَتَضَرَّبَ الْحَوْثُ حَتَّى دَخَلَ الْبَحْرَ، فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ جَرِيَّةَ الْبَحْرِ حَتَّى كَأَنَّ أَثَرَهُ فِي حَجَرٍ. قَالَ لِي عَمْرُو^(٥): هَكَذَا كَأَنَّ أَثَرَهُ فِي حَجَرٍ، وَحَلَّقَ بَيْنَ إِبْهَامِيهِ وَاللِّتَيْنِ تَلْيَانِهِمَا. وَفِي رَوَايَةٍ^(٦): وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحَوْثِ جَرِيَّةَ الْمَاءِ فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ^(٧)، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ، نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يَخْبِرَهُ بِالْحَوْثِ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: «آتَيْنَا عَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا» وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: «أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْثَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ».

وَقِيلَ: إِنَّ النِّسْيَانَ كَانَ مِنْهُمَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «نَسِيَ» فَنَسَبَ النِّسْيَانَ إِلَيْهِمَا^(٨)،

(١) الكلام بنحوه في المفهم ١٩٦/٦ - ١٩٧، والمحرر الوجيز ٥٢٨/٣.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٢٦)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث ابن عباس.

(٣) قال الحافظ في فتح الباري ٤١٤/٨: القائل ليست عن سعيد هو ابن جريج، ومراده أن تسمية الفتى ليست عنده في رواية سعيد بن جبيرة.

(٤) ثريان، أي: مبلول، من: ثرى التربة ثرية: بلها. وتضرب: تحرك وماج. القاموس (ثري) (ضرب).

(٥) أي: عمرو بن دينار، والقائل هو ابن جريج كما في فتح الباري لابن حجر ٤١٦/٨.

(٦) عند البخاري (٤٧٢٥).

(٧) الطاق: هو الثقب الذي يدخل منه كما في المفهم ١٩٦/٦.

(٨) الكلام بنحوه في زاد المسير ١٦٥/٥ - ١٦٦، والكشاف ٤٩١/٢.

وذلك أن بدؤ حمل الحوت كان من موسى؛ لأنه الذي أمر به، فلما مضيا؛ كان فتاه هو الحامل له حتى أويا إلى الصخرة نزلا.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ يعني: الحوت هناك منسياً^(١) - أي: متروكاً - فلما سأل موسى الغداء؛ نسب الفتى النسيان إلى نفسه عند المخاطبة، وإنما ذكر الله نسيانهما عند بلوغ مجمع البحرين وهو الصخرة، فقد كان موسى شريكاً في النسيان؛ لأن النسيان التأخير، من ذلك قولهم في الدعاء: أنساً الله في أجلك، فلماً مضيا من الصخرة أخرا حوتهما عن حمليه فلم يحمله واحد منهما، فجاز أن يُنسب إليهما؛ لأنهما مضيا وتركوا الحوت.

قوله تعالى: ﴿ءَاَيْنَا غَدَاءَنَا﴾ فيه مسألة واحدة، وهو اتخاذ الزاد في الأسفار، وهو رد على الصوفية الجهلة الأغمار الذين يقتحمون المهامة والقفار زعماء منهم أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار، هذا موسى نبي الله وكليمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد مع معرفته بربه، وتوكله على رب العباد. وفي «صحيح» البخاري^(٢): إن ناساً من أهل اليمن كانوا يحججون ولا يتزوّدون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألو الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَكَزَوْدُوا﴾ [البقرة: ١٩٧]. وقد مضى هذا في «البقرة»^(٣).

واختلف في زاد موسى ما كان، فقال ابن عباس: كان حوتاً مملوحاً في زنبيل، وكانا يصيبان منه غداء وعشاء، فلما انتهيا إلى الصخرة على ساحل البحر، وضع فتاه المِكتل، فأصاب الحوت جري البحر، فتحرك الحوت في المِكتل، فقلب المِكتل وانسرب الحوت، ونسي الفتى أن يذكر قصة الحوت لموسى. وقيل: إنما كان الحوت دليلاً على موضع الخضر؛ لقوله في الحديث: احمل معك حوتاً في مِكتل، فحيث

(١) النكت والعيون ٣/٣٢٣، وزاد المسير ١٦٦/٥.

(٢) برقم (١٥٣٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ٣/٣٢٨ - ٣٢٩.

فقدت الحوت، فهو ثم، على هذا فيكون تزوداً شيئاً آخر غير الحوت، وهذا ذكره شيخنا الإمام أبو العباس واختاره^(١). وقال ابن عطية^(٢): قال أبي ﷺ: سمعت أبا الفضل الجوهري يقول في وعظه: مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوماً لم يحتج إلى طعام، ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع في بعض يوم.

وقوله: «نصباً» أي: تعباً، والنصب: التعب والمشقة. وقيل: عنى به هنا الجوع، وفي هذا دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح في الرضا، ولا في التسليم للقضاء، لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط.

وفي قوله: «وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره» أن مع الفعل بتأويل المصدر، وهو منصوب بدل اشتمال من الضمير في «أنسانيه» وهو بدل الظاهر من المضمير، أي: وما أنساني ذكره إلا الشيطان، وفي مصحف عبد الله: «وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان». وهذا إنما ذكره يوشع في معرض الاعتذار؛ لقول موسى: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، فقال: ما كلفت كثيراً، فاعتذر بذلك القول^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى، أي: اتخذ الحوت سبيله عجباً للناس. ويحتمل أن يكون قوله: «واتخذ سبيله في البحر» تمام الخبر، ثم استأنف التعجب^(٤) فقال من نفسه: «عجباً لهذا الأمر. وموضع العجب أن يكون حوت قد مات فأكل شقه الأيسر ثم حيي بعد ذلك. قال أبو شجاع في «كتاب الطبري»^(٥): رأيت به - فإذا هو شق حوت وعين

(١) المفهم ١٩٧/٦، والحديث الذي أشار إليه أخرجه البخاري (٤٧٢٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في المحرر الوجيز ٥٢٩/٣.

(٣) المفهم ١٩٧/٦ - ١٩٨، وقراءة عبد الله ﷺ في تفسير الطبري ٣١٧/١٥، والمحرر الوجيز ٥٢٩/٣، وعندهما «أذكره» بدل «أذكره».

(٤) في (م) و(د): التعجب.

(٥) أخرجه عنه الطبري ٣١٥/١٥.

واحدة، وشقَّ آخرُ ليس فيه شيءٌ. قال ابنُ عطية^(١): وأنا رأيته والشَّقُّ الذي ليس فيه شيءٌ عليه قشرة رقيقة ليست تحتها شوكة. ويحتمل أن يكون قوله: «وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ» إخباراً من الله تعالى، وذلك على وجهين: إمّا أن يخبرَ عن موسى أنه اتخذَ سبيلَ الحوت من البحرِ عجباً، أي: تَعَجَّب منه. وإمّا أن يخبرَ عن الحوتِ أنه اتخذَ سبيله عجباً للناس.

ومن غريبٍ ما رُوي في البخاري^(٢) عن ابنِ عباسٍ من قصصِ هذه الآية، أنَّ الحوتَ إنَّما حييَ؛ لأنَّه مَسَّه ماءُ عَيْنٍ هناك تُدعى عَيْنَ الحياة، ما مَسَّتْ قطُّ شيئاً إلا حييَ. وفي «التفسير»: إنَّ العلامةَ كانت أن يحيا الحوتُ، ف قيل: لمَّا نزل موسى بعد ما أجهدته السفرُ على صخرةٍ إلى جنبها ماءُ الحياة، أصابَ الحوتَ شيءٌ من ذلك الماءِ فحييَ. وقال الترمذي^(٣) في حديثه: قال سفيان: يزعمُ ناسٌ أن تلك الصخرةَ عندها عَيْنُ الحياة، ولا يصيبُ ماؤها ميتاً^(٤) إلا عاش. قال: وكان الحوتُ قد أُكِلَ منه، فلما قطرَ عليه الماءُ عاش. وذكر صاحبُ كتابِ «العروس» أنَّ موسى عليه السلام توجَّه من عَيْنِ الحياة، فقَطَرَتْ من لحيته على الحوتِ قطرةٌ فحييَ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي﴾^(٥) أي: قالَ موسى لفتاه: أمرُ الحوتِ وقَدَّه هو الذي كنا نطلب، فإنَّ الرجلَ الذي جئنا له ثَمَّ، فرجعا يَقْضَانِ آثارَهما لئلا يُخْطِئَا طريقَهما^(٦) وفي «البخاري»^(٧): فوجدا خضراً على طِنْفِسَةٍ خضراء على كَيْدِ البحرِ مُسَجَّى بثوبه، قد جعلَ طَرْفَهُ تحت رجله، وطَرْفَهُ تحت رأسه، فسَلَّم عليه موسى،

(١) في المحرر الوجيز ٥٢٩/٣، وما قبله منه.

(٢) برقم (٤٧٢٧).

(٣) في السنن (٣١٤٩).

(٤) في (ظ) و(م): شيئاً، والمثبت من (د) و(ف) و(ز)، وسنن الترمذي.

(٥) قرأ نافع وأبو عمرو والكسائي بياء في الوصل وبغير ياء في الوقف، وابن كثير يثبت الياء فيهما جميعاً في الوصل والوقف كما في السبعة ص ٣٩١.

(٦) المحرر الوجيز ٥٢٩/٣.

(٧) برقم (٤٧٢٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فكشف عن وجهه وقال: هل بأرضي^(١) من سلام؟! مَنْ أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك؟ قال: جئتُ لتعلمني مما علّمت رسداً، الحديث.

وقال الثعلبي في كتاب «العرائس»^(٢): إنَّ موسى وفتاه وجدا الخضرَ وهو نائم على طنفسة خضراء على وجه الماء وهو مُتَشَجَّح بثوب أخضر، فسَلَّم عليه موسى، فكشَفَ عن وجهه فقال: وأنتى بأرضنا السلام؟! ثم رفع رأسه واستوى جالساً وقال: وعليك السلام يا نبيَّ بني إسرائيل، فقال له موسى: وما أدراك بي؟ ومَنْ أخبرك أنِّي نبي بني إسرائيل؟ قال: الذي أدراك بي وذلك عليّ؛ ثم قال: يا موسى، لقد كان لك في بني إسرائيل شغلٌ، قال موسى: إنَّ ربي أرسلني إليك لأتبعك وأتعلم من علمك، ثم جلسا يتحدثان، فجاءت حُطَّافَةٌ وحملت بمنقارها من الماء، وذكر الحديث على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ العبدُ هو الخضرُ عليه السلام في قول الجمهور، وبمقتضى الأحاديث الثابتة. وخالف مَنْ لا يعتد بقوله، فقال: ليس صاحبُ موسى بالخضر بل هو عالمٌ آخر. وحكى أيضاً هذا القول القشيري، قال: وقال قومٌ: هو عبدٌ صالح^(٣)، والصحيح أنَّه كان الخضر، بذلك وردَّ الخبرُ عن النبي ﷺ. قال مجاهد: سُمِّي الخضرَ لأنَّه كان إذا صَلَّى اخضرَّ ما حوله^(٤). وروى الترمذي^(٥) عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّما سُمِّي الخضرُ؛ لأنَّه جلسَ على فروةٍ بيضاء فاهتزت^(٦) تحتَه خضراء» هذا حديث صحيح غريب^(٧). الفروَةُ هنا

(١) في (م): بأرضك.

(٢) ص ٢٢٧، وفيه: قائم على طنفسة بدل نائم، ولعل في النسخة التي اعتمدها المصنف زيادة على المطبوع الذي بين أيدينا.

(٣) المحرر الوجيز ٥٢٩/٣، دون ذكر القشيري.

(٤) البغوي ١٧٢/٣.

(٥) في سننه (٣١٥١).

(٦) في (م) و(د) و(ز): فإذا هي تهتز، والمثبت من (ف) و(ظ) وسنن الترمذي.

(٧) في سنن الترمذي: حديث حسن صحيح.

وجه الأرض؛ قاله الحطّابيّ وغيره. والخضرُ نبيٌّ عند الجمهور. وقيل: هو عبدٌ صالح غير نبيٍّ، والآية تشهدُ بنبوته؛ لأن بواطنَ أفعاله هل كانت^(١) إلا بوحى. وأيضاً فإنَّ الإنسانَ لا يتعلم ولا يتَّبِع إلا مَنْ فوقه، وليس يجوزُ أن يكونَ فوقَ النبيِّ مَنْ ليس بنبيٍّ. وقيل: كان ملكاً أمرَ الله موسى أن يأخذَ عنه ممّا حملَه من علمِ الباطن^(٢). والأوّلُ الصحيحُ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا عِندَنَا﴾ الرحمةُ في هذه الآية النبوة^(٣). وقيل: النعمة^(٤). ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ أي: علم الغيب. ابن عطية^(٥): كان علمُ الخضر^(٦) معرفةً بواطنَ قد أُوحِيت إليه، لا تُعطي ظواهرَ الأحكام أفعاله بحسبها، وكان علمُ موسى علمَ الأحكام والفتيا بظاهرِ أقوالِ الناسِ وأفعالهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ ٦١ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ٦٢ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ ٦٣ ﴿قَالَ فَإِنَّ أَتَّبِعُكَ فَلَا تَنْتَلِينِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ٦٤

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ فيه مسألان: الأولى: قوله تعالى: «قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ» هذا سؤالُ الملاطف، والمخاطب المستنزل المبالغ في حسن الأدب، المعنى: هل يتفقُ لك ويخفُ عليك؟ وهذا كما في الحديث: هل تستطيعُ أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ^(٧)؟

(١) في (م): لا تكون، والمثبت من النسخ الخطية، والمحرو الوجيز ٥٢٩/٣، والكلام منه.

(٢) النكت والعيون ٣٢٥/٣.

(٣) المحرو الوجيز ٥٣٠/٣.

(٤) النكت والعيون ٣٢٤/٣، وزاد: الطاعة وطول الحياة.

(٥) في المحرو الوجيز ٥٢٩/٣.

(٦) بعدها في (م): علم.

(٧) أخرجه أحمد (١٦٤٣١)، البخاري (١٨٥)، ومسلم (٢٣٥)، من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم ؓ.

وعلى بعض التأويلات يجيء كذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢] ^(١) حسب ما تقدم بيانه في «المائدة».

الثانية: في هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب ^(٢)، ولا يُظن أن في تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه، فقد يشد عن الفاضل ما يعلمه المفضل، والفصل لمن فضله الله، فالخضر إن كان ولياً فموسى أفضل منه؛ لأنه نبي والنبي أفضل من الولي، وإن كان نبياً فموسى فضله بالرسالة ^(٣). والله أعلم. «ورشداً» مفعول ثانٍ بـ «تعلمني».

﴿قَالَ﴾ الخضر: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: إنك يا موسى، لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي ^(٤)؛ لأن الظواهر التي هي علمك لا تُعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تُخبر بوجه الحكمة فيه، ولا طريق الصواب، وهو معنى قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ والأنبياء لا يُقرؤون على منكر، ولا يجوز لهم التقرير ^(٥). أي: لا يسعك السكوت جرياً على عادتك وحُكمك. وانتصب «خُبْرًا» على التمييز المنقول عن الفاعل. وقيل: على المصدر الملاقي في المعنى، لأن قوله: «لَمْ تُحِطْ» معناه: لم تُخبره، فكأنه قال: لم تُخبره خُبْرًا، وإليه أشار مجاهد. والخبر بالأمور هو العالم بخفاياها وبما يختبر منها ^(٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ أي: سأصبر بمشيئة الله، ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أي: قد ألزمت نفسي طاعتك. وقد اختلف في الاستثناء، هل هو

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٠.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٣.

(٣) المفهم ٦/ ٢١٧.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٠: عملي، والكلام منه.

(٥) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ١٧٣.

(٦) المفهم ٦/ ٢٠٢. وفي تفسير مجاهد ١/ ٣٨١: خُبْرًا: يعني: علماً.

يشملُ قوله: «وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا» أم لا؟ فقل: يشملُه كقوله: ﴿وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقيل: استثنى في الصَّبْرِ فصَبْرًا، وما استثنى في قوله: «وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا» فاعترضَ وسأل^(١). قال علماؤنا: إنما كان ذلك منه؛ لأنَّ الصبر أمرٌ مستقبل ولا يدري كيف يكون حاله فيه، ونفي المعصية معزومٌ عليه حاصلٌ في الحال، فلا استثناء فيه ينافي العزمَ عليه. ويمكنُ أن يُفَرَّقَ بينهما بأنَّ الصبر ليس مكتسبًا لنا بخلاف فعلِ المعصية وتركها، فإنَّ ذلك كلُّه مكتسبٌ لنا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: حتى أكونَ أنا الذي أفسره لك، وهذا من الخضرِ تأديبٌ وإرشادٌ لما يقتضي دوامَ الصحبة، فلو صَبَرَ ودَّأب؛ لرأى العجبَ، لكنَّه أكثرَ من الاعتراضِ، فتعيَّنَ الفراقُ والإعراض^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: في «صحيح» مسلم والبخاري^(٣): «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرَّت سفينة فكلّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضرَ فحملوه بغير نؤل، فلما ركبا في السفينة لم يَفْجَأ^(٤) إلا والخضرُ قد قلعَ منها لوحاً من ألواح السفينة بالقُدُوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نؤل عمَدَت إلى سفينتهم فخرقَها لتغرقَ أهلها «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٣ - ١٢٣٤.

(٢) المفهم ٦/ ٢٠٣، وما قبله منه.

(٣) البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث ابن عباس ؓ.

(٤) بعدها في (م): موسى.

تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا». قال وقال رسولُ الله ﷺ: «وكانت الأولى من موسى نسياناً قال: وجاء عصفورٌ فوقَ على حَرْفِ السفينة فنَقَرَ في البحر نقرةً، فقال له الخضر: ما عِلْمِي وَعِلْمُكَ من عِلْمِ الله إلا مثل ما نَقَصَ هذا العصفورُ من هذا البحر».

قال علماؤنا: حرفُ السفينة: طَرْفُها، وحَرْفُ كُلِّ شيءٍ: طَرْفُه، [ومنه حرف الجبل]^(١) وهو أعلاه المحدّد. والعِلْمُ هنا بمعنى المعلوم، كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٥٥] أي: من معلوماته، وهذا من الخضر تمثيلٌ، أي: معلوماتي ومعلوماتك لا أثر لها في علم الله، كما أن ما أخذَ هذا العصفورُ من هذا البحر لا أثر له بالنسبة إلى ماء البحر، وإنَّما مثَّلَ له ذلك بالبحر؛ لأنَّه أكثر ما نُشاهدُه ممَّا بين أيدينا، وإطلاقُ لفظِ النقص هنا تجوُّزٌ قُصِدَ به التمثيلُ والتفهيمُ؛ إذ لا نقص في علم الله، ولا نهايةً لمعلوماته. وقد أوضحَ هذا المعنى البخاريُّ فقال: والله ما علمي وما علمك في جنبِ علمِ الله إلا كما أخذَ هذا الطيرُ بمنقاره من البحر^(٢).

وفي «التفسير» عن أبي العالقة: لم يرَ الخضرَ حين خرقَ السفينة غيرَ موسى وكان عبداً لا تراه إلا عينُ مَنْ أرادَ الله له أن يريه، ولو رآه القومُ لمنعوه من خرقِ السفينة. وقيل: خرج أهلُ السفينة إلى جزيرة، وتخلَّفَ الخضرُ فخرقَ السفينة. وقال ابنُ عباس: لما خرقَ الخضرُ السفينة تنحَّى موسى ناحية، وقال في نفسه: ما كنتُ أصنع بمصاحبةِ هذا الرجل! كنت في بني إسرائيل أتلو كتابَ الله عليهم غدوةً وعشيةً فيطيعوني! قال له الخضرُ: يا موسى، أتريدُ أن أخبرك بما حدثتَ به نفسك؟ قال: نعم. قال: كذا وكذا. قال: صدقتَ، ذكره الثعلبيُّ في كتاب «العرائس»^(٣).

الثانية: في خرقِ السفينة دليلٌ على أنَّ للوليَّ أن يَنْقُصَ مالَ اليتيم إذا رآه صلاحاً، مثل أن يخافَ على رِيعه ظالماً فيُخَرِّبَ بعضَه^(٤). وقال أبو يوسف: يجوزُ للوليَّ أن

(١) ما بين حاصرتين من المفهم ٢١٥/٦، والكلام منه.

(٢) المفهم ٢١٥/٦ - ٢١٦.

(٣) ص ٢٢٨.

(٤) الكلام بنحوه في المفهم ٢٠٤/٦.

يصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض. وقرأ حمزة والكسائي: «لِيَغْرَقَ» بالياء «أَهْلُهَا» بالرفع فاعل يَغْرَقُ^(١)، فاللام على قراءة الجماعة في «لِيَغْرَقَ» لامُ المألِ مثل: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرًا﴾ [القصص: ٨]. وعلى قراءة حمزة لامُ كي، ولم يقل: لتغرقني؛ لأنَّ الذي غلب عليه في الحال فرط الشفقة عليهم، ومراعاة حقهم. و«إمراً» معناه عجباً؛ قاله القتيبي^(٢). وقيل: منكرأ؛ قاله مجاهد^(٣). وقال أبو عبيدة: الإمر: الداهية العظيمة؛ وأنشد:

قَدْ لَقِيَ الْأَقْرَانَ مِنِّْي نُكْرًا دَاهِيَةً دَهِيَاءَ إِذَا إِمْرًا^(٤)
وقال الأخفش: يقال: أَمِرَ أمرُهُ يَأْمُرُ [أمرأ] إذا اشتدَّ، والاسمُ الإمرُ^(٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَأْخُذْ بِمَا فِيسَتْ﴾ في معناه قولان: أحدهما: يُروى عن ابن عباس قال: هذا من معارضِ الكلام^(٦). والآخر: أَنَّهُ نسي فاعتذر. ففيه ما يدلُّ على أنَّ النسيان لا يقتضي المؤاخذه، وأنه لا يدخل تحت التكليف، ولا يتعلق به حكم طلاقٍ ولا غيره، وقد تقدَّم، ولو نسي في الثانية لا اعتذر^(٧).

قوله تعالى: ﴿فَاطْلُقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَالُوا قَالَ أَقْنَتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنَ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦)

قوله تعالى: ﴿فَاطْلُقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَالُوا﴾ في «البخاري»^(٨): قال يعلَى: قال

(١) التيسير ص ١٤٤، والسبعة ص ٣٩٥.

(٢) في تفسير غريب القرآن ص ٢٦٩.

(٣) في تفسيره ٣٧٩/١، وأخرجه عنه الطبري ٣٣٦/١٥.

(٤) مجاز القرآن ٤٠٩/١، والرجز عند الطبري ٣٣٦/١٥ - ٣٣٧. وفي الصحاح (أمر).

(٥) الصحاح (أمر) والمفهم ٢٠٤/٦، وما بين حاصرتين منهما.

(٦) تفسير السمرقندي ٣٠٧/٢، وأخرجه الطبري ٣٣٨/١٥ بهذا اللفظ عن أبي بن كعب.

(٧) وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ١٧١/٥ قولاً ثالثاً أنه بمعنى الترك، فالمعنى: لا تأخذني بما تركته مما عاهدتك عليه، ذكره ابن الأنباري.

(٨) برقم (٤٧٢٦)، وسلف في تفسير الآية ٦٤ من هذه السورة.

سعيد: وجدَ غلماناً يلعبون فأخذَ غلاماً كافراً، فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، «قَالَ أَقْتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ» لم تعمل بالحنث. وفي «الصحيحين» و«صحيح» الترمذي^(١): ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضرُ غلاماً يلعبُ مع الغلمان، فأخذَ الخضرُ رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، قال له موسى: «أَقْتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرًا. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» قال^(٢): وهذه أشدُّ من الأولى. «قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا». لفظ البخاري. وفي «التفسير»: إِنَّ الخضرَ مرَّ بغلمانٍ يلعبون فأخذَ بيده غلاماً ليس فيهم أضواءٌ منه، وأخذ حجراً فضرب به رأسه حتى دَمَغَهُ، فقتله^(٣). قال أبو العالية: لم يره إلا موسى، ولو رأوه لحالوا بينه وبين الغلام.

قلت: ولا اختلاف بين هذه الأحوال الثلاثة، فإنه يحتملُ أن يكون دَمَغَهُ أولاً بالحجر، ثم أضجعه فذبحه، ثم اقتلع رأسه؛ والله أعلم بما كان من ذلك، وحسبك بما جاء في «الصحيح».

وقرأ الجمهور: «زَاكِيَّةً» بالالف. وقرأ الكوفيون وابنُ عامر: «زَكِيَّةً» بغير ألف وتشديد الياء^(٤)؛ قيل: المعنى واحد؛ قاله الكسائي. وقال ثعلب: الزكية أبلغ. قال أبو عمرو: الزاكية التي لم تذنّب قط، والزكية التي أذنبت ثم تابت^(٥).

قوله تعالى: «غلاماً» اختلف العلماء في الغلام، هل كان بالغاً أم لا؟ فقال الكلبي: كان بالغاً يقطع الطريق بين قريتين، وأبوه من عظماء أهل إحدى القريتين، وأُمّه من عظماء القرية الأخرى، فأخذه الخضرُ فصرعه، ونزع رأسه عن جسده^(٦).

(١) البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠)، والترمذي (٣١٤٩).

(٢) القائل سفيان بن عيينة كما صرح به البخاري (١٢٢)، وذكره في إرشاد الساري للقسطلاني ٢٢٠/٧.

(٣) تفسير البغوي ١٧٤/٣ بنحوه.

(٤) التيسير ص ١٤٤، والسبعة ص ٣٩٥.

(٥) المفهم ٢٠٥/٦، وفيه أن قول أبي عمرو في الزكية: التي ما حلّ ذنبها.

(٦) تفسير البغوي ١٧٤/٣.

قال الكلبي: واسمُ الغلام شمعون. وقال الضحاك: حيسون. وقال وهب: اسمُ أبيه سلاس، واسمُ أمه رُحَمَى^(١). وحكى السهيلي أن اسمَ أبيه كازير، واسمُ أمه سهوى^(٢). وقال الجمهور: لم يكن بالغاً، ولذلك قال موسى: زاكية لم تذنّب. وهو الذي يقتضيه لفظُ الغلام؛ فإنَّ الغلامَ في الرجال يقال على مَنْ لم يبلغ، وتقابله الجاريةُ في النساء. وكان الخضرُ قتله لِمَا علِمَ من سيِّره، وأنه طُبع كافراً كما في صحيح الحديث، وأنَّه لو أدرك لأرهِقَ أبويه كَفْراً. وقَتْلُ الصَّغِيرِ غَيْرُ مُسْتَحِيلٍ إِذَا أَذَنَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى الْفَعَالُ لَمَّا يَرِيدُ، الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ^(٣).

وفي كتاب «العرائس»: إِنَّ مُوسَى لَمَّا قَالَ لِلْخَضِرِ: «أَقْتُلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً» - الآية - غَضِبَ الْخَضِرُ وَاقْتَلَعَ كَتَفَ الصَّبِيِّ الْأَيْسَرَ، وَقَشَرَ اللَّحْمَ عَنْهُ، وَإِذَا فِي عَظْمٍ كَتَفُهُ مَكْتُوبٌ: كَافِرٌ لَا يُؤْمَنُ بِاللَّهِ أَبَداً^(٤). وقد احتجَّ أَهْلُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ بِأَنَّ الْعَرَبَ تُبْقِي عَلَى الشَّابِّ اسْمَ الْغُلَامِ^(٥)، وَمِنْهُ قَوْلُ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةِ:

شَفَاها مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِي بِهَا غُلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاءَ سَقَاها^(٦)
وقال صفوان لحسان:

تَلَقَّ دُبَابَ السَّيْفِ عَنِّي فَإِنِّي غُلَامٌ إِذَا هُوَ جِيتُ لَسْتُ بِشَاعِرٍ^(٧)

وفي الخبر: إِنَّ هَذَا الْغُلَامَ كَانَ يَفْسُدُ فِي الْأَرْضِ، وَيُقَسِّمُ لِأَبْوَيْهِ أَنَّهُ مَا فَعَلَ، فَيَقْسِمَانِ عَلَى قَسَمِهِ، وَيَحْمِيَانِهِ مِمَّنْ يَطْلُبُهُ. قالوا: وقوله: «بَغَيْرِ نَفْسٍ» يقتضي أنه لو

(١) المفهم ٢٠٥/٦.

(٢) التعريف والإعلام ص ١٠٥.

(٣) الكلام بنحوه في المفهم ٢٠٥/٦، والنكت والعيون ٣/٣٢٨، وزاد المسير ٥/١٧٢.

(٤) عرائس المجالس ص ٢٢٨.

(٥) المحرر الوجيز ٣/٥٣٢.

(٦) سلف ٥/١٢٢.

(٧) البيت في سيرة ابن هشام ٢/٣٠٥، وتاريخ الطبري ٢/٦١٨، والبداية والنهاية ٦/٢٠١. ودُّبَابُ السَّيْفِ: حَذُّهُ أَوْ طَرَفُهُ الْمَتَطَرَفُ كَمَا فِي الْقَامُوسِ (ذَبَب).

كَانَ عَنْ قَتْلِ نَفْسٍ لَمْ يَكُنْ بِهِ بَأْسٌ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كِبَرِ الْغَلَامِ، وَإِلَّا فَلَوْ كَانَ لَمْ يَحْتَلِمَ، لَمْ يَجِبْ قَتْلُهُ بِنَفْسٍ^(١). وَإِنَّمَا جَازَ قَتْلُهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ بِالْغَا عَاصِيًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ شَابًّا يَقْطَعُ الطَّرِيقَ^(٢). وَذَهَبَ ابْنُ جَبْرِ إِلَى أَنَّ بَلَغَ سَنَ التَّكْلِيفِ لِقِرَاءَةِ أَبِي وَابْنِ عَبَّاسٍ «وَأَمَّا الْغَلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ» وَالْكَفَرُ وَالْإِيمَانُ مِنْ صِفَاتِ الْمَكْلُوفِينَ، وَلَا يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِ مَكْلُوفٍ إِلَّا بِحُكْمِ التَّبَعِيَةِ لِأَبُوهِ، وَأَبُو الْغَلَامِ كَانَا مُؤْمِنِينَ بِالنَّصِّ فَلَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْكَافِرِ إِلَّا بِالْبُلُوغِ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يُصَارَ إِلَيْهِ^(٣). وَالْغَلَامُ مِنَ الْإِغْتِلَامِ وَهُوَ شِدَّةُ الشَّبَقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تُكْرَأُ﴾ اِخْتَلَفَ النَّاسُ أَيُّهُمَا أُبْلَغُ «إِمْرًا» أَوْ قَوْلُهُ: «نُكْرَأُ» فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هَذَا قَتْلُ بَيِّنٍ، وَهَنَّاكَ مُتَرَقِّبٌ؛ فَ«نُكْرَأُ» أُبْلَغُ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هَذَا قَتْلُ وَاحِدٍ، وَذَاكَ قَتْلُ جَمَاعَةٍ فَ«إِمْرًا» أُبْلَغُ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ^(٤): وَعِنْدِي أَنَّهُمَا لِمَعْنَيْنِ وَقَوْلُهُ: «إِمْرًا» أَفْطَحُ وَأَهْوَلُ مِنْ حَيْثُ هُوَ مُتَوَقَّعٌ عَظِيمٌ، وَ«نُكْرَأُ» بَيِّنٌ فِي الْفُسَادِ؛ لِأَنَّ مَكْرُوهُهُ قَدْ وَقَعَ. وَهَذَا بَيِّنٌ. قَوْلُهُ: ﴿إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْحِفْهُ﴾ شَرْطٌ وَهُوَ لَازِمٌ، وَالْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ، وَأَحَقُّ الشَّرُوطِ أَنْ يُوفَّى بِهِ مَا التَّزَمَهُ الْأَنْبِيَاءُ، وَالتَّزَمَ لِلْأَنْبِيَاءِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنَ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ يَدُلُّ عَلَى قِيَامِ الْإِعْتِذَارِ بِالْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ مُطْلَقًا، وَقِيَامِ الْحُجَّةِ مِنَ الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ بِالْقَطْعِ؛ قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ^(٥). ابْنُ عَطِيَّةٍ: وَيُشَبَّهُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْقِصَّةُ أَيْضًا أَصْلًا لِلْأَجَالِ فِي الْأَحْكَامِ الَّتِي هِيَ ثَلَاثَةٌ، وَأَيَّامُ التَّلَوُّمِ^(٦) ثَلَاثَةٌ، فَتَأْمَلْهُ^(٧).

(١) المحرر الوجيز ٥٣٢/٣، وإعراب القرآن للنحاس ٤٦٦/٢.

(٢) تفسير السمرقندي ٣٠٧/٢.

(٣) المفهم ٢١١/٦.

(٤) في المحرر الوجيز ٥٣٢/٣، وما قبله منه.

(٥) في أحكام القرآن ٢٣٤/٣، وما قبله منه.

(٦) في (م): المتلوم.

(٧) المحرر الوجيز ٥٣٢/٣.

قوله تعالى: «فَلَا تُصَاحِبْنِي» كذا قرأ الجمهور؛ أي: تتابعني. وقرأ الأعرج: «تُصَحِّبْنِي» بفتح التاء والباء وتشديد النون. وقرأ: «تُصَحِّبْنِي» أي: تتبعني. وقرأ يعقوب «تُصَحِّبْنِي» بضم التاء وكسر الحاء، ورواها سهل، عن أبي عمرو^(١)؛ قال الكسائي: معناه: فلا تتركني أصحبك. «قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا» أي: بلغت مبلغاً تُعذر به في ترك مصاحبتني. وقرأ الجمهور: «مِنْ لَدُنِّي» بضم الدال، إلا أن نافعاً وعاصماً خففا النون، فهي «لدن» اتصلت بها ياء المتكلم التي في غلامي وفرنسي، وكُسر ما قبل الياء كما كُسر في هذه. وقرأ أبو بكر عن عاصم: «لَدُنِّي» بفتح اللام وسكون الدال وتخفيف النون، وزوي عن عاصم: «لَدُنِّي» بضم اللام وسكون الدال، قال ابن مجاهد^(٢): وهي غلط. قال أبو علي: هذا التغليط يشبه أن يكون من جهة الرواية، فأما على قياس العربية؛ فهي صحيحة^(٣). وقرأ الجمهور: «عُذْرًا»، وقرأ عيسى: «عُذْرًا» بضم الذال، وحكى الداني أن أبيتاً روى عن النبي ﷺ: «عُذْرِي» بكسر الراء وياء بعدها^(٤).

مسألة: أسند الطبري^(٥) قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعا لأحدٍ بدأ بنفسه، فقال يوماً: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لو صَبَرَ على صاحبه لرأى العجبَ ولكنه قال: «فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا»». والذي في «صحيح» مسلم قال رسول الله ﷺ: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجل، لرأى العجبَ ولكنه أخذته من صاحبه دَمَامَةً ولو صَبَرَ؛ لرأى العجبَ» قال: وكان إذا ذكر أحداً من الأنبياء بدأ بنفسه: «رحمة الله علينا وعلى أخي كذا»^(٦). وفي البخاري عن النبي ﷺ قال: «يرحمُ الله

(١) المحرر الوجيز ٥٣٢/٣، ونسب ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٨١ قراءة الأعرج إلى ابن مسعود، وقراءة يعقوب إلى الجحدري والنخعي. وقراءة يعقوب ذكرها البغوي ١٧٥/٣.

(٢) في السبعة ص ٣٩٦، وما قبله منه.

(٣) الحجة لأبي علي الفارسي ١٦٢/٥.

(٤) المحرر الوجيز ٥٣٣/٣.

(٥) في التفسير ٣٤٥/١٥، ونقله عنه المصنف بواسطة المحرر الوجيز ٥٣٣/٣.

(٦) صحيح مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

موسى، لَوَدِدْنَا أَنَّهُ صَبَرَ حَتَّى يَقْصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا»^(١).

الدَّمَامَةُ بِالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ الْمَفْتُوحَةِ، وَهُوَ بِمَعْنَى الْمَذْمَةِ بِفَتْحِ الذَّالِ وَكُسْرِهَا، وَهِيَ الرِّقَّةُ، وَالْعَارُ مِنْ تَرْكِ الْحَرَمَةِ: يُقَالُ: أَخَذْتَنِي مِنْكَ مَذْمَةً وَمَذْمَةً وَدَّمَامَةً، وَكَأَنَّهُ اسْتَحْيَا مِنْ تَكَرُّارِ مُخَالَفَتِهِ، وَمِمَّا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ تَغْلِيظِ الْإِنْكَارِ^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ في «صحيح» مسلم^(٣) عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «لثاماً»، فطافا في المجالس ف ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ يقول: مائل. قال: ﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخضرُ بيده قال له موسى: قوم أتيناهم فلم يُضَيِّقُوا، ولم يُطْعِمُونَا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾. قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا قال رسول الله ﷺ: «يرحمُ الله موسى، لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يَقْصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا».

الثانية: واختلف العلماء في القرية، فقيل: هي أيلة^(٤)؛ قاله قتادة، وكذلك قال محمد بن سيرين، وهي أبخلُ قرية وأبعدُها من السماء. وقيل: أنطاكية. وقيل: بجزيرة الأندلس، رُوي ذلك عن أبي هريرة وغيره، ويذكر أنها الجزيرة الخضراء. وقالت

(١) صحيح البخاري (١٢٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المفهم ٢٠٦/٦.

(٣) برقم (٢٣٨٠): ١٧٢.

(٤) في (م): أيلة، والمثبت من النسخ الخطية والمفهم ٢٠٧/٦، وإكمال المعلم ٣٧٧/٧، وعرائس المجالس ص ٢٢٩، ووقع في تفسير الطبري ٣٤٧/١٥، والوسيط ١٦٠/٣، والمحزر ٥٣٣/٣، وزاد المسير ١٧٥/٥، والنكت والعيون ٣/٣٣٠: الأيلة.

فرقة: هي أبو جوزان^(١) وهي بناحية أذربيجان. وحكى السهيلي وقال: إنها برقة^(٢). الثعلبي: هي قرية من قرى الروم يقال لها: ناصرة، وإليها تُنسب النصارى^(٣). وهذا كله بحسب الخلاف في أي ناحية من الأرض كانت قصة موسى، والله أعلم بحقيقة ذلك^(٤).

الثالثة: كان موسى عليه السلام حين سقى لبنتي شعيب أحوج منه حين أتى القرية مع الخضر، ولم يسأل قوتاً بل سقى ابتداءً، وفي القرية سألا القوت، وفي ذلك للعلماء انفصالات كثيرة، منها أن موسى كان في حديث مدين منفرداً، وفي قصة الخضر تبعاً لغيره^(٥).

قلت: وعلى هذا المعنى يتمشى قوله في أول الآية لفتاه: «إِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا» فأصابه الجوع مراعاة لصاحبه يوشع. والله أعلم. وقيل: لما كان هذا سفر تأديب، وُكِّلَ إلى تكلف المشقة، وكان ذلك سفر هجرة، فوُكِّلَ إلى العون والنصرة والقوة^(٦).

الرابعة: في هذه الآية دليل على سؤال القوت، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يردُّ جوعه خلافاً لجهال المتصوفة. والاستطعام سؤال الطعام، والمراد به هنا سؤال الضيافة، بدليل قوله: «فَأَبَوْا أَنْ يُضَيَّفُوهُمْ» فاستحق أهل القرية لذلك أن يُدْمُوا، ويُنسبوا إلى اللؤم والبخل، كما وصفهم بذلك نبينا عليه الصلاة والسلام^(٧). قال قتادة في هذه الآية: شرُّ القرى التي لا تُضيّف الضيف، ولا تعرف لابن السبيل حقّه.

(١) في (م): بآجروان، والمثبت من النسخ، وفي المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣، والكلام منه: أبو حوران.

(٢) التعريف والإعلام ص ١٠٥.

(٣) عرائس المجالس ص ٢٢٩.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٥.

(٦) في (م): بالقوت، والمثبت من النسخ الخطية، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٥، والكلام منه.

(٧) أخرجه أحمد (٢١١٢٠) في الزوائد، ومسلم (٢٣٨٠): (١٧٢)؛ من حديث أبي بن كعب ؓ.

ويظهرُ من ذلك أنَّ الضيافة كانت عليهم واجبةً، وأنَّ الخضر وموسى إنما سألا ما وجبَ لهما من الضيافة، وهذا هو الأليقُ بحالِ الأنبياء، ومنصبِ الفضلاء والأولياء، وقد تقدَّم القولُ في الضيافة في «هود»^(١) والحمدُ لله. ويعفو الله عن الحريري^(٢) حيثُ استخفَّ في هذه الآية وتَمَجَّن، وأتى بِخَطَلٍ من القول وزلَّ، فاستدلَّ بها على الكُذبة^(٣) والإلحاح فيها، وأنَّ ذلك ليس بمعيبٍ على فاعله، ولا منقصة عليه؛ فقال: وإنْ رُدَّتْ فما في الردِّ منقصةٌ عليك قد رُدَّ موسى قبلُ والخضرُ قلت: وهذا لعبٌ بالدين، وانسلاَلٌ عن احترام النبيين، وهي شِسْنَةٌ أدبية، وهفوةٌ سخافية؛ ويرحمُ الله السلفَ الصالح، فلقد بالغوا في وصية كل ذي عقل راجح، فقالوا: مهما كنت لاعباً بشيءٍ فأياك أن تلعبَ بدينك^(٤).

الخامسة: قوله تعالى: «جِدَاراً» الجدارُ والجَدْرُ بمعنى، وفي الخبر: «حتى يبلغ الماءُ الجَدْرَ». ومكانٌ جَدِيرٌ: بُني حَواليه جدارٌ، وأصله الرفع. وأجدرتِ الشجرةُ: طلعت، ومنه الجُدري^(٥).

السادسة: قوله تعالى: «يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ» أي: قَرُبَ أَنْ يَسْقُطَ^(٦)، وهذا مجازٌ وتوسُّع، وقد فسَّره في الحديث بقوله: «ماثل» فكانَ فيه دليلٌ على وجودِ المجازِ في القرآن، وهو مذهبُ الجمهور^(٧). وجميعُ الأفعالِ التي حَقُّها أَنْ تكونَ للحي الناطقِ متى أُسْنِدَتْ إلى جمادٍ أو بهيمة، فإنَّما هي استعارة، أي: لو كان مكانهما إنسانٌ،

(١) ١٥٩/١١ وما بعدها، والكلام في المحرر الوجيز ٢٠٧/٣، وأثر قتادة أخرجه الطبري ٣٤٧/١٥.

(٢) هو: أبو محمد القاسم بن علي بن محمد البصري، له: درة الغواص في وهم الخواص، والملحة، والمقامات. (ت ٥١٦هـ). السير ١٩/٤٦٠ - ٤٦٥.

(٣) الكُذبة: حرفةُ السائلِ المُلِحِّ. المعجم الوسيط (كدي).

(٤) المفهم ٢٠٧/٦ - ٢٠٨، وقول الحريري في مقاماته ص ٣٢٦.

(٥) تهذيب اللغة ١٠/٦٣٤ - ٦٣٥. والخبر أخرجه البخاري (٤٥٨٥)، وسلف ٦/٤٤٠ - ٤٤١.

(٦) تفسير الطبري ١٥/٣٥٠.

(٧) المفهم ٦/٢٠٨.

لكان ممثلاً لذلك الفعل، وهذا في كلام العرب وأشعارها كثير^(١)، فمن ذلك قول الأعشى:

أَتَنْتَهُونَ وَلَا يَنْهَى ذَوِي شَطْطٍ كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَّيْتُ وَالْفُتْلُ^(٢)
فَأَضَافَ النَّهْيَ إِلَى الطَّعْنِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْآخَرِ:

يُرِيدُ الرَّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ وَيَرْغَبُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلِ^(٣)
وَقَالَ آخَرُ:

إِنَّ دَهْرًا يُلْفُ شَمْلِي بِجُمْلٍ لَزَمَانُ يَهُمُّ بِالْإِحْسَانِ^(٤)
وَقَالَ آخَرُ:

فِي مَهْمِهِ فُلِقَتْ بِهِ هَامَاتُهَا فَلَقَ الْفُؤُوسَ إِذَا أُرْدُنُ نُصُولاً^(٥)
أَي: ثُبُوتًا فِي الْأَرْضِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: نَصَلَ السَّيْفُ إِذَا ثَبَتَ فِي الرَّمِيَّةِ؛ فَشَبَّهَ وَقَعَ السُّيُوفِ عَلَى رُؤُوسِهِمْ بِوَقْعِ الْفُؤُوسِ فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّ الْفَأْسَ يَقَعُ فِيهَا وَيُثَبِتُ لَا يَكَادُ يَخْرُجُ^(٦). وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ^(٧):

لَوْ أَنَّ اللَّؤْمَ يُنْسَبُ كَانَ عَبْدًا قَبِيحَ الْوَجْهِ أَعْوَرَ مِنْ ثَقِيفٍ
وَقَالَ عَتْرَةَ:

(١) المحرر الوجيز ٥٣٣/٣ .

(٢) ديوان الأعشى ص ١١٣ ، وسلف ٣٢٠/١ .

(٣) البيت في مجاز القرآن ٤١٠/١ ونسبه للحارثي، وفي تفسير الطبري ٣٤٧/١٥ ، والصناعتين ص ٢٨٤ دون نسبة.

(٤) البيت في الطبري ٣٤٨/١٥ ، والصحاح (دهر)، وتهذيب اللغة ١٩٢/٦ ، بهذه السياقة، وهو في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٢١٩ بلفظ: بسعدى بل بجمل. ولفظه في ديوان يشار بن برد ٥٤٥/٢ :

إِنَّ دَهْرًا يَضُمُّ شَمْلِي بِسَلْمَى لَزَمَانٌ قَدْ هَمَّ بِالْإِحْسَانِ
(٥) البيت للراعي النيمري في ديوانه ص ٢٢٢ ، وفي ديوان المعاني ١٢٣/٢ .

(٦) المفهم ٢٠٨/٦ - ٢٠٩ . وما قبله فيه.

(٧) في ديوانه ص ١٦١ .

فَارْزُقْ مَنْ وَقَعَ الْقَنَا بِلْبَانِهِ وَشَكَا إِلَيَّ بَعْبْرَةَ وَتَحْمُحِمِ
وقد فُسر هذا المعنى بقوله:

لو كان يَذْري ما المَحَاوَرَةُ اشْتَكَى^(١)

وهذا في هذا المعنى كثير جداً. ومنه قولُ الناس: إِنَّ داري تنظرُ إلى دارِ فلان^(٢).
وفي الحديث: «اشتكتِ النارُ إلى ربِّها»^(٣).

وذهب قومٌ إلى منعِ المجاز في القرآن، منهم أبو إسحاق الإسفرايني^(٤) وأبو بكر
محمد بن داود الأصبهاني^(٥) وغيرهما، فإنَّ كلامَ الله عزَّ وجلَّ وكلامَ رسوله حمُّله
على الحقيقةِ أولى بذي الفضلِ والدين؛ لأنه يَقْصُ الحَقَّ كما أخبرَ الله تعالى في
كتابه. وممَّا احتجوا به أن قالوا: لو خاطبنا الله تعالى بالمجاز؛ لزم وصفه بأنه
مُتَجَوِّزٌ أيضاً، فإنَّ العدولَ عن الحقيقةِ إلى المجاز يقتضي العجزَ عن الحقيقة، وهو
على الله تعالى محالٌ^(٦)، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقُولْ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وقال تعالى:
﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَبُّوا لَهَا تَفْظُطًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] وقال تعالى: ﴿تَدْعُوا مَنْ

(١) صدر بيت لعنترة، وعجزه: وكان لو علم الكلام مكلمي، وهو وما قبله في شرح المعلقات لابن
النحاس ٤٤/٢.

وقال النحاس: ازور: مال. والتحمحم: صوت مقطع وليس بالصهيل.

(٢) المحرر الوجيز ٥٣٤/٣، وما قبله منه.

(٣) أخرجه أحمد (٧٧٢٢)، والبخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧): ١٨٥، من حديث أبي هريرة.

(٤) هو: ركن الدين إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، من تصانيفه: كتاب جامع الخلي في أصول
الدين، وغيرها. (ت ٤١٨هـ). السير ٣٥٣/١٧.

ونقل مَنَعَهُ للمجاز ابن العربي في المحصول ص ٣١.

(٥) هو: الظاهري صاحب كتاب الزهرة في الآداب والشعر، وكتاب التقصي في الفقه. (ت ٢٩٧هـ). السير
١٠٩/١٣ وما بعدها.

ونقل مَنَعَهُ للمجاز الرازي في المحصول ٣٣٣/١.

(٦) المحصول للرازي ٣٣٣/١.

أَذْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿المعارج: ١٧﴾، و«اشتكت النار إلى ربها»^(١)، «واحتجت النار والجنة»^(٢) وما كان مثلها حقيقة، وأن خالقها الذي أنطق كل شيء أنطقها.

وفي «صحيح» مسلم من حديث أنس، عن النبي ﷺ: «فِيخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيَقَالُ لِفَخْذِهِ: انطقي، فتتطق فخذُه ولحمه وعظامُه بعمله وذلك لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وذلك المنافقُ وذلك الذي يَسْخُطُ الله عليه»^(٣). هذا في الآخرة.

وأما في الدنيا؛ ففي «الترمذي» عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تقوم الساعةُ حتى تُكَلِّمَ السَّبَّاحُ الْإِنْسَ، وحتى تُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذْبَهُ سَوَاطِيهِ، وشِراكَ نَعْلِهِ، وتُخْبِرَهُ فَخْذُهُ بما أحدثَ أهلهُ مِنْ بَعْدِهِ» [قال أبو عيسى]: وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ^(٤).

السابعة: قوله تعالى: «فَأَقَامَهُ» قيل: هدمَه ثم قعد بينه^(٥)، فقال موسى للخضر: «لَوْ شِئْتُ لَأَتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا» لأنه فعلٌ يَسْتَحِقُّ أَجْرًا. وذكر أبو بكر الأنباري، عن ابن عباس، عن أبي بكر، عن رسول الله ﷺ أنه قرأ «فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد بينه». قال أبو بكر: وهذا الحديثُ إن صحَّ سنَدُه فهو جارٍ من الرسولِ عليه الصلاة والسلام مجرى التفسيرِ للقرآن، وإنَّ بعضَ الناقلين أدخلَ [تفسيراً]^(٦) قرآنٍ في موضعٍ فَسَرَى أَنَّ ذَلِكَ قرآنٌ نَقَصَ مِنْ مُصْحَفِ عِثْمَانَ، على ما قاله بعضُ الطاعنين. وقال سعيد بن جبير: مَسَحَ بِيَدِهِ وَأَقَامَهُ فَقَامَ^(٧)، وهذا القولُ هو الصحيح،

(١) تقدم تخريجه آنفاً.

(٢) أخرجه أحمد (٧٧١٨)، والبخاري (٤٨٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة ر.ه.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٦٨)، وهذا لفظ حديث أبي هريرة، وحديث أنس عند مسلم (٢٩٦٩) بلفظ: قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانها: انطقي فتتطق بأعماله.

(٤) سنن الترمذي (٢١٨١)، وما بين حاصرتين منه، والحديث أخرجه أحمد (١١٧٩٢).

(٥) الطبري ٣٥٠/١٥.

(٦) زيادة من (م) يقتضيها السياق.

(٧) أخرجه عنه الطبري ٣٥١/١٥.

وهو الأشبهُ بأفعالِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل والأولياء. وفي بعض الأخبار: إِنَّ سُمْكَ ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعاً بذراع ذلك القرن، وطوله على وجه الأرض خَمْسُمِائَةِ ذراعٍ، وعرضه خمسون ذراعاً، فأقامه الخضرُ عليه السلام أي: سَوَّاه بيده فاستقام. قاله الثعلبي في كتاب «العرائس»^(١). فقال موسى للخضر: «لَوْ شِئْتُ لَاتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْراً» أي: طعاماً تأكله^(٢)، ففي هذا دليلٌ على كراماتِ الأولياء، وكذلك ما وصف من أحوالِ الخضر عليه السلام في هذا الباب كُلُّها أمورٌ خارقةٌ للعادة، هذا إذا تَنَزَّلنا على أَنَّهُ وَلِيٌّ لَا نَبِيٌّ.

وقوله تعالى: «وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي» يدلُّ على نبوّته وأنه يوحى إليه بالتكليف والأحكام، كما أوحى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير أَنَّهُ ليس برسول، والله أعلم^(٣).

الثامنة: واجبٌ على الإنسان ألا يتعرض للجلوس تحت جدار مائل يُخاف سقوطه، بل يسرع في المشي إذا كان ماراً عليه؛ لأنَّ في حديثِ النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا مرَّ أحدكم بطَرْبَالٍ مائل فليُسِرِعِ المشي»^(٤). قال أبو عبيد القاسم بن سَلَام: كان أبو عبيدة يقول: الطَّرْبَالُ شبيهٌ بالمنظرة من مناظر العجم كهَيْئَةِ الصُّومعة؛ والبناء المرتفع؛ قال جرير:

أَلْوَىٰ بِهَا شَذْبُ الْعُرُوقِ مُشْدَبٌ فكَأَنَّمَا وَكَنْتُ عَلَى طَرْبَالٍ^(٥)

يقال منه: وَكَنْ يَكُن إذا جلس. وفي «الصحيح»: الطَّرْبَالُ: القطعةُ العاليةُ من

(١) عرائس المجالس ص ٢٢٩.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤.

(٣) المفهم ٦/ ٢٠٩.

(٤) ذكره أبو عبيد في غريب الحديث ١٨/ ٢، وما بعده منه.

(٥) ديوان جرير ٢/ ٩٦٠، وقال شارحه: ألوى بها: ذهب بها حيث أراد. شذب العروق: ليس عليه لحم.

وَكَانَتْ: جلست. طربال: حصن معروف.

الجدار، والصخرة العظيمة المشرفة من الجبل، وطراييل الشام صوامعها. ويقال: طَرَبِلَ بَوْلُهُ إذا مَدَّهُ إلى فوق^(١).

التاسعة: كراماتُ الأولياءِ ثابتة على ما دلَّت عليه الأخبارُ الثابتة، والآياتُ المتواترة، ولا يُنكرها إلا المبتدعُ الجاحد، أو الفاسقُ الحائد، فالآياتُ ما أخبر الله تعالى في حقِّ مريم من ظهورِ الفواكهِ الشَّتويةِ في الصيف، والصَّيفِيةِ في الشتاء - على ما تقدم - وما ظهر على يدها حيثُ أمرتِ النخلةُ وكانت يابسةً فأثمرت، وهي ليست بنبيَّة، على الخلاف. ويدلُّ عليها ما ظهرَ على يدِ الخضرِ عليه السلام من خرقِ السفينة، وقتلِ الغلام، وإقامةِ الجدار. قال بعضُ العلماء: ولا يجوزُ أن يقالَ: كان نبياً؛ لأنَّ إثباتِ النبوة لا يجوزُ بأخبارِ الآحادِ، لا سيَّما وقد رُوي من طريقِ التواتر - من غيرِ أن يحتمَلَ تأويلاً - بإجماعِ الأمةِ قوله عليه الصلاة والسلام: «لا نبيَّ بعدي»^(٢). وقال تعالى: ﴿وَحَاقَتْهُمُ الرَّيِّئَةُ﴾ [الأحزاب: ٤٠] والخضرُ والياس^(٣) جميعاً باقيان مع هذه الكرامة، فوجبَ أن يكونا غيرَ نبيين^(٤)؛ لأنَّهما لو كانا نبيين، لوجبَ أن يكونَ بعدَ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام نبيٌّ، إلا ما قامتِ الدلالةُ في حديثِ عيسى أنَّه ينزلُ بعده.

قلت: الخضرُ كان نبياً - على ما تقدم - وليس بعدَ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام نبيٌّ، أي: يَدَّعي النبوةَ بعده أبداً. والله أعلم.

العاشرة: اختلفَ الناسُ، هل يجوزُ أن يعلمَ الوليُّ أنه وليٌّ أم لا؟ على قولين^(٥): أحدهما: أنه لا يجوز، وأنَّ ما يظهر على يديه يجبُ أن يلاحظه بعينِ خوفٍ

(١) الصحاح (طربل).

(٢) سلف ٣٩٨/١.

(٣) في (م) و(د) و(ز) و(ف): دانيال، والمثبت من (ظ).

(٤) قال بذلك القشيري في رسالته ١٦١/٤، وينظر المفهم ٢١٧/٦.

(٥) ذكر هذه المسألة القشيري في رسالته ١٥٠/٤ - ١٥١.

المكر؛ لأنه لا يأمن أن يكون مكرراً واستدراجاً له، وقد حُكي عن السري أنه كان يقول: لو أن رجلاً دخل بستاناً فكلّمه من رأس كل شجرة طيرٌ بلسانٍ فصيح: السلام عليك يا وليّ الله، فلو لم يخف أن يكون ذلك مكرراً، لكان ممكوراً به^(١). ولأنه لو علم أنه وليّ لزال عنه الخوف، وحصل له الأمن. ومن شرط الولي أن يستديم الخوف إلى أن تنزل عليه الملائكة، كما قال عز وجل: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠]، ولأن الولي من كان مختوماً له بالسعادة، والعواقب مستورة ولا يدري أحداً ما يُختم له به؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالخواتيم»^(٢).

القول الثاني: أنه يجوز للولي أن يعلم أنه وليّ؛ ألا ترى أن النبي عليه الصلاة والسلام يجوز أن يعلم أنه وليّ، ولا خلاف أنه يجوز لغيره أن يعلم أنه وليّ الله تعالى، فجاز له أن يعلم ذلك. وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام من حال العشرة من أصحابه أنهم من أهل الجنة، ثم لم يكن في ذلك زوالٌ خوفهم، بل كانوا أكثر تعظيماً لله سبحانه وتعالى، وأشدّ خوفاً وهيبه، فإذا جاز للعشرة ذلك ولم يُخرجهم عن الخوف، فكذلك غيرهم.

وكان الشبلي يقول: أنا أمان هذا الجانب، فلما مات ودُفن عبر الديلم دجلة ذلك اليوم، واستولوا على بغداد^(٣)، ويقول الناس: مُصِيبَتَانِ مَوْتُ الشبليّ وعبورُ الديلم. ولا يقال: إنه يحتمل أن يكون ذلك استدراجاً؛ لأنه لو جاز ذلك؛ لجاز ألا يعرف النبي أنه نبيّ ووليّ الله؛ لجواز أن يكون ذلك استدراجاً، فلمّا لم يجز ذلك؛ لأن فيه إبطال المعجزات لم يجز هذا، لأن فيه إبطال الكرامات. وما روي من ظهور

(١) الرسالة القشيرية ١٥٦/٤.

(٢) سلف ٢٩٦/١.

(٣) ذكر هذا القول صاحب الديباج المذهب ٣٦٣/١. والديلم: جيل سُموا بأرضهم في قول بعض أهل الأثر، وليس باسم لأب لهم، وإقليم الديلم يشمل قُومس وجرجان وطبرستان والديلماني والخزر. معجم البلدان ٥٤٤/٢، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للبشاري ص ٢٧١.

الكراماتِ على يدي بلعام^(١) وانسلاخه عن الدين بعدها لقوله: ﴿فَأَنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] فليس في الآية أنه كان ولياً ثم انسلاخت عنه الولاية. وما نُقِلَ أنه ظهر على يديه ما يجري مجرى الكراماتِ هو أخبارُ آحادٍ لا تُوجب العلمَ^(٢). والله أعلم.

والفرق بين المعجزة والكرامة أن الكرامة من شرطها الاستتار، والمعجزة من شرطها الإظهار. وقيل: الكرامة ما تظهر من غير دعوى، والمعجزة ما تظهر عند دعوى الأنبياء، فيطأبون بالبرهان، فيظهر أثر ذلك^(٣). وقد تقدّم في مقدّمة الكتاب^(٤) شرائط المعجزة، والحمد لله تعالى وحده لا شريك له.

وأما الأحاديث الواردة في الدلالة على ثبوت الكرامات، فمن ذلك ما خرّجه البخاري^(٥) من حديث أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سرية عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري، وهو جد^(٦) عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة وهي بين عسفان ومكة ذكروا لحجّ من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فنقروا إليهم قريبا من مائتي راجل كلهم رام، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلمهم تمرأ تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فاقتصوا آثارهم، فلمّا رأهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدّ^(٧)، وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزلوا فأعطونا بأيديكم^(٨) ولكم العهد والميثاق، ولا^(٩) نقتل منكم أحدا؛ فقال عاصم بن ثابت أمير

(١) هو بلعام بن باعوراء، ينظر ما تقدم في ٣٨٣/٩.

(٢) ذكر بعضاً من أخباره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٩٦/١٠ - ٤٠٤.

(٣) الرسالة القشيرية ١٤٨/٤.

(٤) ١١٢/١ وما بعدها.

(٥) في صحيحه (٣٠٤٥).

(٦) وقال القسطلاني في إرشاد الساري ١٦٣/٥: وقال مصعب الزهري: إنما هو خال عاصم لا جده؛ لأن عاصم بن عمر بن الخطاب أمه جميلة بنت ثابت بن أبي الأفلح أخت عاصم بن ثابت وكان اسمها عاصية. قال الكرمانى: وعليه الأكثر.

(٧) الفدّ: المرتفع. القاموس (فد).

(٨) في (د) و(م): أيديكم.

(٩) في (م): ألا.

السرية: أما أنا^(١) فوالله لا أنزل اليوم في ذمة الكافر، اللهم أخير عنا نبيك، فرموا بالنبل فقتلوا عاصماً في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، وهم: خبيب الأنصاري وابن الدثنة ورجل آخر^(٢)، فلما استمكنوا منهم، أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر! والله لا أصحبكم؛ إن لي في هؤلاء لأسوة - يريد القتلى - فجرّروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، فانطلقوا بخبيب وابن الدثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيراً؛ فأخبرني^(٣) عبيد الله بن عياض أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا، استعار منها موسى يستجدُّ بها فأعارته، فأخذ ابناً^(٤) لي وأنا غافلة حتى أتاه، قالت: فوجدته مُجَلِّسَه على فخذه والموسى بيده، ففزعته فزعة عرفها خبيب في وجهي، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك. قالت: والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب؛ والله لقد وجدته يوماً يأكل من قطف عنب في يده، وإنه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمر؛ وكانت تقول: إنه لرزق رزقه الله تعالى خبيباً، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الجلّ قال لهم خبيب: دعوني أركع ركعتين، فتركوه فركع ركعتين ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزع من الموت لزدت؛ ثم قال^(٥): اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تُبق منهم أحداً، ثم قال: ولست أبا لي حين أُقتل مسلماً على أي شئ كان لله مضرعي وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوي مُمزّع^(٦)

(١) ليست في (د) و(م).

(٢) هو عبد الله بن طارق البلوي كما في إرشاد الساري ١٦٤/٥.

(٣) في (م) و(د): فأخبر.

(٤) في (م): ابن. وهو أبو الحسين بن الحارث بن عدي بن نوفل بن عبد مناف كما في إرشاد الساري ١٦٥/٥.

(٥) قوله: من الموت لزدت ثم قال. ليس في النسخ الخطية.

(٦) وقال القسطلاني ١٦٥/٥: وقال ابن هشام: أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لخبيب.

فقتله بنو الحارث، وكان خُبيب هو الذي سنَّ الركعتين لكلِّ امرئٍ مسلمٍ قُتلَ صَبْرًا، فاستجاب الله تعالى لعاصم يومَ أُصيب، فأخبر النبيُّ عليه الصلاة والسلام وأصحابه خبرهم وما أُصيبوا. وبعثَ ناسٌ من كفارِ قريشٍ إلى عاصم حينَ حَدَّثوا أنه قُتلَ ليُؤْتوا بشيءٍ منه يعرفونه، وكان قد قُتلَ رجلًا من عظمائهم يومَ بدر، فبعثَ الله على عاصم مثلَ الظِّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ^(١) فَحَمَّتهُ من رُسُلِهِم، فلم يَقْدِرُوا على أن يَقْطَعُوا من لحمه شيئًا.

وقال ابن إسحاق^(٢) في هذه القصة: وقد كانت هذيل حين قُتلَ عاصمُ بن ثابت أرادوا رأسه ليبيعوه من سُلَافة بنت سعد بن شُهَيْد، وقد كانت نذرت حين أصابَ ابنِها بأحد: لئن قَدَرْتُ على رأسه لتَشْرَبَنَّ في قِحْفِهِ^(٣) الخمرَ فَمَنَعَهُم الدَّبْرُ، فلمَّا حالت بينه وبينهم قالوا: دعوه حتى يُمَسِّي فتذهب عنه فنأخذه، فبعثَ الله تعالى الوادي فاحتمل عاصمًا فذهب، وقد كان عاصم أعطى الله تعالى عهدًا ألا يمسَّ مشركًا ولا يمسّه مشركٌ أبدًا في حياته، فمَنَعَهُ الله تعالى بعدَ وفاته مما امتنع منه في حياته.

وعن عمرو بن أمية الضَّمْرِي: وكان رسولُ الله ﷺ بعثه عينًا وحده فقال: جئتُ إلى خشبةٍ خُبيبٍ فرقيتُ فيها وأنا أتخوف العيونَ، فأطلقتَه، فوقعَ في الأرض، ثم اقتحمتُ فانتبذتُ قليلًا، ثم التفتُ فكانما ابتلعته الأرضُ. وفي رواية أخرى زيادة: فلم يُذكر لخبيب رِمَّةٌ حتى الساعة. ذكره البيهقي^(٤).

الحادية عشرة: ولا يُنكر أن يكونَ للوليِّ مالٌ وَضِيعَةٌ يصونُ بها مالهَ وعياله،

(١) جماعة النحل والزنابير. القاموس (دبر).

(٢) في السير والمغازي ص ٣٢٩ - ٣٣٠، وقد نقله المصنف بواسطة ابن هشام في السيرة ١٧١/٢.

(٣) القحف: العظم الذي فوق الدماغ. الصحاح (قحف).

(٤) في دلائل النبوة ٣/٣٣٢، وهو عند أحمد (١٧٢٥٢)، وإسناده ضعيف، فيه إبراهيم بن إسماعيل وهو ابن مجمع الأنصاري، وهو ضعيف وقد اضطرب فيه. وفي (م): فلم نذكر لخبيب رمة.

وحسبك بالصحابة وأموالهم مع ولايتهم وفضلهم، وهم الحجة على غيرهم. وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «بينما رجلٌ بفلاةٍ من الأرض فسمع صوتاً في صحابة: اسق حديقه فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءً في حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتبّع الماء فإذا رجلٌ قائم في حديقته يُحوّل الماء بمسحاته، فقال: يا عبد الله، ما اسمك؟ قال: فلان، الاسم الذي سمعه في السحابة، فقال له: يا عبد الله، لم سألتني عن اسمي؟ قال: إني سمعتُ صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقه فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أمّا إذ قلتَ هذا، فإني أنظرُ إلى ما يخرج منها فأصدقُ بثلثه، وأكلُ أنا وعيالي ثلثاً، وأردُّ فيها ثلثه»، وفي رواية «وأجعلُ ثلثه في المساكين والسائلين وابن السبيل»^(١).

قلت: وهذا الحديث لا يناقضه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تتخذوا الضيعة فتركنوا إلى الدنيا» خرّجه الترمذي^(٢) من حديث ابن مسعود وقال فيه: حديث حسن؛ فإنه محمولٌ على من اتخذها مستكثراً أو متنعماً ومتمتعاً بزهرتها، وأمّا من اتخذها معاشاً يصبون بها دينه وعياله؛ فاتخذها بهذه النية من أفضل الأعمال، وهي من أفضل الأموال؛ قال عليه الصلاة والسلام: «نعم المأل الصالح للرجل الصالح»^(٣). وقد أكثر الناس في كرامات الأولياء، وما ذكرناه فيه كفاية، والله الموفق للهداية.

الثانية عشرة: قوله تعالى: «لَا تَتَّخِذْ عَلَيْهِ أَجْراً» فيه دليلٌ على صحة جواز الإجارة، وهي سنّة الأنبياء والأولياء على ما يأتي بيانه في سورة «القصص»^(٤) إن شاء

(١) صحيح مسلم (٢٩٨٤)، وهو عند أحمد (٧٩٤١).

(٢) سنن الترمذي (٢٣٢٨)، وهو عند أحمد (٣٥٧٩)، والبخاري في التاريخ الكبير ٥٤/٤، وإسناده

ضعيف لضعف المغيرة بن سعد بن الأخرم.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٧٦٣)، وابن حبان (٣٢١٠)، من حديث عمرو بن العاص ؓ.

(٤) عند الآية ٢٦.

الله تعالى. وقرأ الجمهور: «لَاتَّخَذَتْ» وأبو عمرو: «لَتَّخَذَتْ» وهي قراءة ابن مسعود والحسن وقتادة^(١)، وهما لغتان بمعنى واحد من الأخذ^(٢)، مثل قولك: تَبِعَ وَاتَّبَعَ، وَتَقَى وَاتَّقَى^(٣). وأدغم بعض القراء الذَّالَّ في التاء، ولم يدغمها بعضهم. وفي حديث أبي بن كعب: لو شئت لأوتيت أجراً^(٤). وهذه صدرت من موسى سؤالاً على جهة العَرَض لا الاعتراض، فعند ذلك قال له الخضر: «هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ» بحكم ما شرطت على نفسك^(٥). وتكريره: «بيني وبينك» وعدوله عن بيننا؛ لمعنى التأكيد. قال سيويه: كما يقال: أخزى الله الكاذب مني ومنك، أي: منّا^(٦). وقال ابن عباس: وكان قول موسى في السفينة والغلام لله، وكان قوله في الجدار لنفسه لطلب شيء من الدنيا، فكان سبب الفراق^(٧). وقال وهب بن مُبَيَّه: كان ذلك الجدار جداراً طوله في السماء مئة ذراع.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: «سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا» تأويل الشيء: مآله، أي: قال له: إني أخبرك لم فعلت ما فعلت. وقيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر: إنها حُجَّة على موسى، وعجباً له. وذلك أنه لما أنكر أمر حرق السفينة نُودي: يا موسى، أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليم؟ فلما أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكرك القبطي وقضائك عليه؟ فلما أنكر إقامة الجدار نُودي: أين هذا من رفْعِكَ حجرَ البئر لبنات شعيب دون أجر؟^(٨)

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤، والكلام منه، والتيسير ص ١٤٥، والسبعة ص ٣٩٦.

(٢) المفهم ٦/ ٢٠٩ - ٢١٠.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٧٦.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤.

(٥) المفهم ٦/ ٢١٠.

(٦) معاني القرآن وإعراجه للزجاج ٣/ ٣٠٤، وإعراجه القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٨.

(٧) لطائف الإشارات ٢/ ٤١١.

(٨) عرائس المجالس ص ٢٣١ - ٢٣٢.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾ وَأَمَّا الْفُلَّةُ فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا كُنَّا عَنْ أَمْرٍ ذَلِكُمْ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ استدلال بهذا من قال: إن المسكين أحسن حالاً من الفقير، وقد مضى هذا المعنى مستوفى في سورة براءة^(١). وقد قيل: إنهم كانوا تجاراً، ولكن من حيث هم مسافرون عن قلة في لجة بحر، وبحال ضعف عن مدافعة خطب، عبر عنهم بمساكين، إذ هم في حالة يُشْفَقُ عليهم بسببها، وهذا كما تقول لرجل غني وقع في وهلة أو خطب: مسكين^(٢). وقال كعب وغيره: كانت لعشرة إخوة من المساكين ورثوها من أبيهم، خمسة زمني، وخمسة يعملون في البحر^(٣). وقيل: كانوا سبعة، لكل واحد منهم زمانة ليست بالآخر. وقد ذكر النقاش أسماءهم^(٤)، فأما العمال منهم؛ فأحدهم كان مجزوماً، والثاني: أعور، والثالث: أعرج، والرابع: آدر، والخامس: محموماً لا تنقطع عنه الحمى الدهر كله، وهو أصغرهم، والخمسة الذين لا يطبقون العمل: أعمى وأصم وأخرس ومُقعَّد ومجنون، وكان البحر الذي يعملون فيه ما بين فارس والروم، ذكره الثعلبي.

وقرأت فرقة: «لِمَسَاكِينٍ» بتشديد السين^(٥)، واختلف في ذلك فقيل: هم ملاحو

(١) ٢٤٦/١٠.

(٢) المحرر الوجيز ٥٣٤/٣ - ٥٣٥.

(٣) تفسير البغوي ١٧٦/٣، والمفهم ٢١٠/٦.

(٤) التعريف والإعلام ص ١٠٤.

(٥) المحرر الوجيز ٥٣٥/٣، وقرأ بها سيدنا علي بن أبي طالب كما في البحر المحيط ١٥٣/٦.

السفينة، وذلك أَنَّ المسَّاك هو الذي يُمَسِّك رجل السفينة، وكلُّ الخدمة تصلح لإمساكه، فسَمِّيَ الجميعُ مَسَّاكِينَ. وقالت فرقة: أراد بالمسَّاكين: دَبَّغَةُ المُسُوك، وهي الجلود، واحدها: مَسْك. والأظهر قراءة: «مساكين» بالتخفيف، جمع مسكين، وأنَّ معناها: إِنَّ السفينةَ لقوم ضعفاء ينبغي أن يُشَفَّقَ عليهم^(١)، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي: أجعلها ذات عيب، يقال: عِيبْتُ الشيء فعاب، إذا صار ذا عيب، فهو معيب وعائب^(٢).

وقوله: ﴿وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ قرأ ابن عباس وابن جبير: «صحيحه»^(٣)، وقرأ أيضاً ابن عباس وعثمان بن عفان: «صالحة»^(٤). و«وراء» أصلها بمعنى خَلْفَ، فقال بعض المفسرين: إِنَّه كان خَلْفَهُ وكان رجوعهم عليه^(٥). والأكثر على أَنَّ معنى «وراء» هنا أمام، يَعْضُدُهُ قراءةُ ابنِ عباس وابنِ جبير: «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَحِيحَةٍ غَصْبًا»^(٦). قال ابن عطية^(٧): «وراءهم» هو عندي على بابه، وذلك أن هذه الألفاظ إنما تجيء مراعى بها الزمان، وذلك أَنَّ الحادث المقدَّم الموجود هو الأمام، والذي يأتي بعده هو الوراء وهو ما خَلْفَ، وذلك بخلاف ما يظهر بادي الرأي، وتأمل هذه الألفاظ في مواضعها حيث وردت، تَجِدُهَا تَطَرُّدَ، فهذه الآية معناها: إِنَّ هؤلاء وعملهم وسعيهم يأتي بعده في الزمان غصب هذا الملك، ومن قرأ: «أمامهم» أراد في المكان، أي: كأنهم يسرون إلى بلد. وقوله عليه الصلاة

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥.

(٢) الصحاح (عيب).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥، وقراءة ابن عباس أخرجه الطبري ١٥/ ٣٥٦.

(٤) قراءة ابن عباس أخرجه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠)، والطبري ١٥/ ٣٥٦، وقراءة عثمان بن عفان ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٠٥.

(٦) تقدمت القراءة قريباً.

(٧) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥.

والسلام: «الصلاة أمامك»^(١) يريد في المكان، وإلا فكونهم في ذلك الوقت كان أمام الصلاة في الزمان، وتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من شغب هذه الألفاظ، ووقع لقتادة في كتاب الطبري^(٢): «وكان وراءهم ملك» قال قتادة: أمامهم، ألا تراه يقول: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] وهي بين أيديهم. وهذا القول غير مستقيم، وهذه هي العجمة التي كان الحسن بن أبي الحسن يضعج منها، قاله الزجاج^(٣).

قلت: وما اختاره هذا الإمام قد سبقه إليه في ذلك ابن عرفة قال الهروي: قال ابن عرفة: يقول القائل كيف قال: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٦] وهي أمامه؟ فزعم أبو عبيد وأبو علي قَطْرُبُ أَنَّ هذا من الأضداد، وَأَنَّ وراء في معنى قُدَّام، وهذا غير محضَّل؛ لأنَّ أمام ضدُّ وراء، وإنما يصلح هذا في الأوقات، كقولك للرجل إذا وعد وعداً في رجب لرمضان ثم قال: ومن ورائك شعبان، لجاز وإن كان أمامه؛ لأنَّه يَخْلُفه إلى وقت وعده، وأشار إلى هذا القول أيضاً القشيريُّ وقال: إنما يقال هذا في الأوقات، ولا يقال للرجل أمامك: إِنَّه وراءك، قاله الفراء^(٤)، وجوّزه غيره، والقوم ما كانوا عالمين بخبر الملك، فأخبر الله تعالى الخضرَ حتى عَيَّب السفينة، وذكره الزجاج^(٥). وقال الماوردي^(٦): اختلف أهل العربية في استعمال «وراء» موضع «أمام» على ثلاثة أقاويل: أحدها: يجوز استعمالها بكلِّ حال، وفي كل مكان، وهو من الأضداد، قال الله تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] أي: من أمامهم: وقال الشاعر:

أَتَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي وَقَوْمِي تَمِيمٌ وَالْقَلَاءُ وَرَائِيَا^(٧)

(١) سلف ٣/٣٤٢.

(٢) في التفسير ١٥/٣٥٤.

(٣) في معاني القرآن ٢/١٥٧.

(٤) في معاني القرآن ٢/١٥٧.

(٥) في معاني القرآن ٣/٣٠٥.

(٦) في النكت والعيون ٣/٣٣٢ - ٣٣٣.

(٧) نسب هذا البيت لسوار بن المضرب، ونسب أيضاً لمساور بن حثان، وسلف ١٢/١٢٠.

يعني: أمامي.

والثاني: أنَّ «وراء» تستعمل في موضع «أمام» في المواقيت والأزمان؛ لأنَّ الإنسانَ يَجُوزُها فتصير وراءه، ولا يجوز في غيرها.

الثالث: أنَّه يجوز في الأجسام التي لا وجه لها كَحَجَرَيْنِ متقابلين، كلُّ واحدٍ منهما وراء الآخر، ولا يجوز في غيرها، وهذا قول علي بن عيسى.

واختلف في اسم هذا الملك فقيل: هُدَدُ بْنُ بُدَدٍ. وقيل: الجَلَنْدِي^(١)، وقال السهيلي^(٢): وذكر البخاريُّ اسمَ الملك الآخذ لكلِّ سفينة غصباً فقال: هو [هُدَدُ بْنُ بُدَدٍ، وذكر اسم الغلام المقتول فقال هو:] جَيْسُور، وهكذا قيَّدناه في «الجامع» من رواية أبي يزيد المَرُوزِيِّ، وفي غير هذه الرواية: حَيْسُور بالحاء^(٣)، وعندي في حاشية الكتاب رواية ثالثة: وهي حسنون^(٤). وكان يأخذ كلَّ سفينة جيِّدة غصباً، فلذلك عابها الخضرُ وَخَرَقَهَا، ففي هذا من الفقه العمل بالمصالح إذا تحقَّق وجهها، وجواز إصلاح كلِّ المال بإفساد بعضه^(٥)، وقد تقدَّم. وفي «صحيح مسلم»^(٦) وجهُ الحكمة بِخَرَقِ السفينة وذلك قوله: فإذا جاء الذي يُسَخِّرُها، وجدها منخرقةً فتجاوَزَها، فأصلحوها بخشبة، الحديث. وتحصَّل من هذا الحضُّ على الصبر في الشدائد، فكم في ضمن ذلك المكروه من الفوائد، وهذا معنى قوله: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]^(٧).

(١) المحرر الوجيز ٥٣٥/٣، والمفهم ٢١٠/٦، وينظر تفسير أبي الليث ٣٠٩/٢.

(٢) في التعريف والإعلام ص ١٠٤ - ١٠٥، وما بين حاصرتين منه، ومن صحيح البخاري (٤٧٢٦)، وينظر فتح الباري ٤٢٠/٨.

(٣) في (د): جيسور بالجيم.

(٤) في (م): حيسون. وفي التعريف والإعلام ص ١٠٥: جنون. وينظر فتح الباري ٤٢٠/٨.

(٥) المفهم ٢٠٤/٦.

(٦) برقم (٢٣٨٠).

(٧) المفهم ٢١٠/٦ - ٢١١.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْفُلُّ فَأَنَّ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ جاء في صحيح الحديث: «أنه طُبع يوم طُبع كافرًا»^(١) وهذا يؤيد ظاهره أنه غير بالغ، ويحتمل أن يكون خبراً عنه مع كونه بالغاً، وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا﴾ قيل: هو من كلام الخضر عليه السلام، وهو الذي يشهد له سياق الكلام، وهو قول كثير من المفسرين^(٢)، أي: خِفْنَا أن يرهقهما طغياناً وكفراً، وكان الله قد أباح له الاجتهاد في قتل النفوس على هذه الجهة. وقيل: هو من كلام الله تعالى وعنه عبّر الخضر، قال الطبري^(٣): معناه: فعلمنا، وكذا قال ابن عباس أي: فعلمنا، وهذا كما كنى عن العلم بالخوف في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وحكي أن أبا قرأ: «فَعَلِمَ رَبُّكَ». وقيل: الخشية بمعنى الكراهة، يقال: فرقت بينهما خشية أن يقتتلا، أي: كراهة ذلك. قال ابن عطية^(٤): والأظهر عندي في توجيه هذا التأويل - وإن كان اللفظ يدافعه - أنها استعارة، أي: على ظنّ المخلوقين والمخاطبين لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين. وقرأ ابن مسعود: «فخاف ربك»^(٥) وهذا بين في الاستعارة، وهذا نظير ما وقع في القرآن في جهة الله تعالى من «لعل» و«عسى» وأن جميع ما في هذا كله من ترجّ وتوقع وخوف وخشية إنما هو بحسبكم أيها المخاطبون. و«يرهقهما»: يجشّمهما ويكلفهما، والمعنى أن يلقيهما حبه في أتباعه، فضلاً ويتدينا بدينه.

قوله تعالى: ﴿فَارْزُقَا أَنْ يَبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ قرأ الجمهور: بفتح الباء وشدّ الدال، وقرأ عاصم: بسكون الباء وتخفيف الدال^(٦)، أي: أن يرزقهما الله ولداً.

(١) المحرر الوجيز ٥٣٦/٣، والحديث أخرجه مسلم (٢٣٨٠)، وأحمد (٢١١١٨) عن أبي بن كعب ؓ.

(٢) المفهم ٢١٣/٦.

(٣) في التفسير ٣٥٧/١٥ - ٣٥٨، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٥٣٦/٣.

(٤) في المحرر الوجيز ٥٣٦/٣.

(٥) أخرجها عنه الطبري ٣٥٧/١٥.

(٦) السبعة ص ٣٩٧، والتيسير ص ١٤٥.

﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾ أي: ديناً وصلاًحاً، يقال: بَدَّلَ وأبدل، مثل مَهَّلَ وأمهل، ونَزَلَ وأنزل. ﴿وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ قرأ ابن عامر^(١): «رُحْمًا» بالضم، قال الشاعر:

وكيف بظلمٍ جاريةٍ ومنها اللين والرحم^(٢)

الباقون بسكونها^(٣)، ومنه قول رُؤبة بن العجاج:

يا مُنْزِلَ الرَّحِمِ على إدريسَا ومُنْزِلَ اللَّغَنِ على إبليسَا^(٤)

واختلف عن أبي عمرو^(٥).

و«رحماً» معطوف على «زكاة» أي: رحمة، يقال: رَحِمَهُ رَحْمَةً ورُحْمًا، وألفه للتأنيث، ومذكره رُحْم. وقيل: الرَّحْم هنا بمعنى الرَّحِم، قرأها ابن عباس: «وأَوْصَلَ رُحْمًا» أي: رَحِمًا^(٦). وقرأ أيضاً: «أزكى منه». وعن ابن جبير وابن جريج أنهما بَدَّلَا جارية^(٧)، قال الكلبي: فتزوَّجها نبيٌّ من الأنبياء، فولدت له نبياً، فهدى الله تعالى على يديه أُمَّة من الأمم. قتادة: ولدت اثني عشر نبياً. وعن ابن جريج أيضاً أَنَّ أُمَّ الغلام يوم قُتِل كانت حاملاً بغلام مسلم، وكان المقتول كافراً. وعن ابن عباس: فولدت جاريةً ولدت نبياً، وفي رواية: أبدلهما الله به جاريةً ولدت سبعين نبياً^(٨)، وقاله جعفر بن محمد عن أبيه^(٩)، قال علماؤنا: وهذا بعيد، ولا تُعرف كثرة الأنبياء

(١) في النسخ: ابن عباس، والمثبت من المحرر الوجيز ٥٣٦/٣ والعبارة منه، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ١٨٠/٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ بفتح الراء وكسر الحاء.

(٢) القائل الوليد بن يزيد، والبيت في ديوانه ص ١١١.

(٣) قرأ ابن عامر بضم الحاء، وقرأ الباؤون بسكونها، واختلف عن أبي عمرو فروي عنه تسكين الحاء وتحريكها. السبعة ص ٣٩٧، والتيسير ص ١٤٥.

(٤) ملحق ديوان رُؤبة ص ١٧٥.

(٥) تقدم الكلام عليها قريباً.

(٦) المفهم ٢١٣/٦، وفيه: ومذكره رحيم.

(٧) المحرر الوجيز ٥٣٦/٣.

(٨) المحرر الوجيز ٥٣٦/٣.

(٩) تفسير البغوي ١٧٧/٣.

إلا في بني إسرائيل، وهذه المرأة لم تكن فيهم^(١).

ويستفاد من هذه الآية تهوينُ المصائب بِفَقْدِ الأولاد وإن كانوا قِطْعاً من الأكباد، ومن سَلَّم للقضاء، أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء^(٢). قال قتادة: لقد فرح به أبواه حين وُلد وحَزِنَا عليه حين قُتِل، ولو بقي، كان فيه هلاكُهما، فالواجب على كلِّ امرئ الرضا بقضاء الله تعالى، فإنَّ قضاء الله للمؤمن فيما يكره خيرٌ له من قضائه له فيما يُحب^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ﴾ هذان الغلامان صغيران بقرينة وَصَفَهُمَا باليتيم، واسمهما أصرم وأصيرم^(٤). وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا يُتَمَّ بعد البلوغ» هذا هو الظاهر. وقد يحتمل أن يبقى عليهما اسمُ التيم بعد البلوغ إن كانا يتيمين، على معنى الشفقة عليهما^(٥). وقد تقدَّم^(٦) أن التيم في الناس من قِبَلِ فَقْدِ الأب، وفي غيرهم من الحيوان من قِبَلِ فَقْدِ الأم.

ودلَّ قوله: ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ على أنَّ القرية تسمَّى مدينةً، ومنه الحديث: «أمرتُ بقرية تأكل القُرى»^(٧) وفي حديث الهجرة: «لمن أنت» فقال الرجل: من أهل

(١) المحرر الوجيز ٣/٥٣٦.

(٢) المفهم ٦/٢١٣.

(٣) عرائس المجالس ص ٢٣٠، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٢١١)، والطبري ١٥/٣٥٩ - ٣٦٠، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠١٧٢).

(٤) في (م): وصريم. وكذا في التعريف والإعلام ص ١٠٥، والمثبت من (د) و(ظ) و(ز) و(ف)، والمفهم ٦/٢١٤.

(٥) المحرر الوجيز ٣/٥٣٦ - ٥٣٧، وتفسير أبي الليث ٢/٣٠٩، والحديث أخرجه أبو داود (٢٨٧٣)، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/٥٧، عن علي بن أبي طالب ؓ أنه قال: حفظتُ عن رسول الله ﷺ: «لا يتم بعد احتلام، ولا صمات يوم إلى الليل». قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/١٠١: وقد أعلَّه العقيلي وعبد الحق وابن القطان والمنذري وغيرهم، وحسَّنه النووي متمسكاً بسكوت أبي داود عليه.

(٦) ٢/٢٢٩، والكلام من المفهم ٦/٢١٤.

(٧) أخرجه البخاري (١٨٧١)، ومسلم (١٣٨٢)، وأحمد (٧٢٣٢) من حديث أبي هريرة ؓ.

المدينة^(١)، يعني: مكة^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ اختلف الناس في الكنز، فقال عكرمة وقتادة: كان مالاً جسيماً^(٣). وهو الظاهر من اسم الكنز، إذ هو في اللغة: المال المجموع، وقد مضى القول فيه^(٤).

وقال ابن عباس: كان علماً في صُحُفٍ مدفونة^(٥). وعنه أيضاً قال: كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبْتُ لمن يؤمن بالقَدَر كيف يحزن، عجبْتُ لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، عجبْتُ لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، عجبْتُ لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، عجبْتُ لمن يؤمن بالدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئن لها، لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله^(٦). وروي نحوه عن عكرمة وعمر مولى غُفْرة^(٧)، ورواه عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ^(٨).

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما دُنيَّة^(٩). وقيل: هو الأب السابع، قاله جعفر بن محمد. وقيل: العاشر، فحفظا فيه وإن لم

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩) في كتاب الزهد والرفائق، باب في حديث الهجرة، واللفظ له، والكلام من المفهم ٢٧٧/٥.

(٢) بعدها في (د) و(ظ): واسم هذه المدينة، قاله مقاتل.

(٣) المحرر الوجيز ٥٣٧/٣، وأخرجه عنهما الطبري ٣٦٥/١٥.

(٤) ١٨٦/١٠.

(٥) المحرر الوجيز ٥٣٧/٣، وأخرجه عنه الطبري ٣٦٢/١٥ بنحوه.

(٦) عرائس المجالس ص ٢٣٠، وتفسير البغوي ١٧٧/٣، وزاد المسير ١٨١/٥.

(٧) أخرجه الطبري ٣٦٤/١٥ - ٣٦٥ عن عمر مولى غفرة، ولم نقف عليه من قول عكرمة.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم ٢٣٧٥/٧ (١٢٨٨٠) عن أبي ذر مرفوعاً، وأبو الليث السمرقندي ٣٠٨/٢، والواحدي في الوسيط ١٦٢/٣، عن أنس مرفوعاً، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٢٣٥/٤ عن علي مرفوعاً، وعزاه لابن مردويه، وينظر الكافي الشاف ص ١٠٤.

(٩) في (د): زينة، وفي (ظ): دفنه.

يُذَكِّرًا بِصَلاَحٍ^(١)، وَكَانَ يُسَمَّى: كَاشِحًا^(٢)، قَالَ مَقَاتِل. وَاسْمُ امْرَأَتِهِمَا: دُنْيَا، ذَكَرَهُ النَّقَّاشُ.

ففيه ما يدلُّ على أَنَّ الله تعالى يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بَعُدُوا عنه. وقد روي أَنَّ الله تعالى يحفظ الصالح في سبعة من ذُرِّيَّتِهِ، وعلى هذا يدلُّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللهَ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِئٍ﴾ يقتضي أَنَّ الخضر نبيٌّ، وقد تقدَّم الخلاف في ذلك.

﴿ذَلِكَ تَأْوِيلٌ﴾ أي: تفسير. ﴿وَمَا لَمْ نَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ قرأت فرقة: «تَسْتَطِيعُ». وقرأ الجمهور: «تَسْطِيعُ» قال أبو حاتم: كذا نقرأ كما في خطِّ المصحف^(٤). وهنا خمس مسائل:

الأولى: إن قال قائل: لم يُسَمَّعْ لفتى موسى ذُكْرٌ في أوَّل الآية ولا في آخرها، قيل له: اختلف في ذلك، فقال عكرمة لابن عباس: لم يُسَمَّعْ لفتى موسى بذكر وقد كان معه؟ فقال: شرب الفتى من الماء فخلد، وأخذَه العالم فطبَّق عليه سفينة ثم أرسله في البحر، وإنَّها لتموج به فيه إلى يوم القيامة، وذلك أَنَّهُ لم يكن له أن يشرب منه، فشرب منه. قال القشيريُّ: وهذا إن ثبت فليس الفتى يوشع بن نون، فَإِنَّ يوشَعَ

(١) المحرر الوجيز ٥٣٧/٣ إلا أنه لم يذكر جعفر بن محمد، وذكره الواحدي في الوسيط ١٦٢/٣ - ١٦٣، والزمخشري في الكشاف ٤٩٦/٢.

(٢) تفسير أبي الليث ٣١٠/٢، والبغوي ١٧٧/٣، والمفهم ٢١٤/٦ وفيه أن اسمه: كاشحاً. وكذا في (ظ).

(٣) المفهم ٢١٤/٦، وأخرج ابن المبارك في الزهد ١١١/١ - ١١٢، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١٤٨/٣، والواحدي في الوسيط ١٥٩/٣ عن محمد بن المنكدر أنه قال: إن الله عزَّ وجلَّ ليحفظ بصلاح العبد ولده، وولد ولده، وأهل دويرته، وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله تعالى ما دام فيهم. وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣٣٦/٣ وقال بعده: وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ مثله. اهـ ولم نقف عليه.

وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ٢٣٧٥/٧ (١٢٨٨٣) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) المحرر الوجيز ٥٣٧/٣.

ابن نون قد عُمِّرَ بعد موسى وكان خليفته، والأظهر أن موسى صرف فتاه لما لقي الخضر. وقال شيخنا الإمام أبو العباس^(١): يحتمل أن يكون اكتفى بذكر المتبوع عن التابع، والله أعلم.

الثانية: إن قال قائل: كيف أضاف الخضر قصة استخراج كنز الغلامين لله تعالى، وقال في خرق السفينة: «فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا» فأضاف العيب إلى نفسه؟ قيل له: إنما أسند الإرادة في الجدار إلى الله تعالى؛ لأنها في أمر مستأنف في زمن طويل غيب من الغيوب، فحسُنَ إفرادُ هذا الموضع بذكر الله تعالى، وإن كان الخضر قد أراد ذلك، الذي أعلمه الله تعالى أنه يريد. وقيل: لما كان ذلك خيراً كله أضافه إلى الله تعالى، وأضاف عيب السفينة إلى نفسه؛ رعاية للأدب، لأنها لفظة عيب، فتأدب بأن لم يُسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى، وأسند إلى نفسه المرض، إذ هو معنى نقص ومصيبة^(٢)، فلا يُضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يُستحسن منها دون ما يُستقبح، وهذا كما قال تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ واقتصر عليه فلم ينسب الشر إليه، وإن كان بيده الخير والشر والضر والنفع، إذ هو على كل شيء قدير، وهو بكل شيء خبير.

ولا اعتراض بما حكاه عليه الصلاة والسلام عن ربه عز وجل أنه يقول يوم القيامة: «يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، واستطعمتك فلم تطعمني، واستسقيتك فلم تسقني»^(٣) فإن ذلك تنزل في الخطاب، وتلطف في العتاب، مقتضاه التعريف بفضل ذي الجلال، وبمقادير ثواب هذه الأعمال، وقد تقدّم هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

(١) في المفهم ٢٠٣/٦.

(٢) المحرر الوجيز ٥٣٧/٣.

(٣) سلف ٤٣٨/٢.

ولله تعالى أن يُطْلِقَ على نفسه ما يشاء، ولا نُطْلِقُ نحن إلا ما أذن لنا فيه من الأوصاف الجميلة، والأفعال الشريفة، جلَّ وتعالى عن النقائص والآفات علوًّا كبيراً. وقال في الغلام: «فأردنا» فكأنَّه أضاف القتلَ إلى نفسه، والتبديلَ إلى الله تعالى. والأشدُّ كمال الخلق والعقل. وقد مضى الكلام فيه في «الأنعام»^(١)، والحمد لله.

الثالثة: قال شيخنا الإمام أبو العباس: ذهب قومٌ من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق يلزم منه هـ^(٢) الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يُحكم بها على الأغبياء^(٣) والعامة، وأمَّا الأولياء وأهلُ الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يُراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويُحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم. وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم، عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر؛ فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم، عمّا كان عند موسى من تلك الفهوم. وقد جاء فيما ينقلون: استفتى قلبك وإن أفتاك المفتون^(٤). قال شيخنا رحمه الله: وهذا القول زندقة وكفر، يُقتل قائله ولا يستتاب؛ لأنَّه إنكار ما علم من الشرائع، فإنَّ الله تعالى قد أجرى سنَّته، وأنفذ حكمته، بأن أحكامه لا تُعلم إلا بواسطة رُسُلِهِ السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلَّغون عنه رسالته وكلامه، المبيِّنون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك، وخصَّهم بما هنالك، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ

(١) ١١١/٩ وما بعدها.

(٢) في النسخ: هذه، والمثبت من المفهم ٢١٨/٦، الكلام منه.

(٣) في (ظ) والمفهم: الأغنياء، وفي (م): الأنبياء. والمثبت من (ز) و(د).

(٤) سلف ٤٥٨/٨.

اللَّهُ النَّبِيَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴿البقرة: ٢١٣﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي، واليقين الضروري، واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يُعرف شيء منها إلا من جهة الرسل، فمن قال: إنَّ هناك طريقاً آخر يُعرف بها أمره ونهيه غير الرسل بحيث يُستغنى عن الرسل، فهو كافر، يُقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام، الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبي بعده ولا رسول. وبيان ذلك أن من قال: يأخذ عن قلبه، وأنَّ ما يقع فيه حكم الله تعالى، وأنَّه يعمل بمقتضاه، وأنَّه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سُنَّة، فقد أثبت لنفسه خاصَّة النبوة، فإنَّ هذا نحو ما قاله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ روح القدس نفث في رُوعي» الحديث^(١).

الرابعة: ذهب الجمهور من الناس إلى أنَّ الخضر مات ﷺ. وقالت فرقة: حيٌّ؛ لأنَّه شرب من عين الحياة، وأنه باقٍ في الأرض، وأنَّه يحجُّ البيت. قال ابن عطية^(٢): وقد أطنب النقَّاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن عليِّ بن أبي طالب

(١) المفهم ٢١٩/٦، والحديث أخرجه الشافعي في مسنده (١٣/١ - ١٤ بدائع المنن)، والبخاري في شرح السنة (٤١١٠)، من حديث المطلب بن حنطب مرفوعاً مرسلأ، وابن أبي شيبة (١٣/٢٢٧)، وهناد في الزهد (٤٩٤)، والعسكري في تصحيقات المحدثين ٢٠٩/١، والحاكم في المستدرک ٤/٢، والبخاري في شرح السنة (٤١١١) و(٤١١٢) و(٤١١٣) من طرق، عن ابن مسعود مرفوعاً وبعضه منقطع، والآخر مرسل. وأخرجه أيضاً الزوار في مسنده (٢٩١٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧١/٤: رواه الزوار وفيه: قدامة بن زائدة بن قدامة ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات.

وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٧٦٩٤)، وأبو نعيم في الحلية ٢٦/١٠ - ٢٧ من حديث أبي أمامة مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١١٦/٨: وفيه غفير بن معدان، وهو ضعيف.

وله شاهد من حديث أبي الزبير عن جابر عند الحاكم ٤/٢ وقال: صحيح على شرط مسلم. قال العسكري في تصحيقات المحدثين ٢١٠/١: النفث بالفم شبيه بالنفخ، ومعنى رُوعي: في خَلْدي ونفسي.

(٢) في المحرر الوجيز ٥٣٧/٣، وما قبله منه.

وغيره، وكلُّها لا تقوم على ساقٍ. ولو كان الخضرُ عليه السلام حيًّا يحجُّ لكان له في ملة الإسلام ظهور، والله العليم بتفاصيل الأشياء لا ربَّ غيره. ومما يقضي بموت الخضر عليه السلام الآن قوله عليه الصلاة والسلام: «أرأيَتم ليلتكم هذه، فإنَّه لا يَبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ»^(١).

قلت: إلى هذا ذهب البخاريُّ، واختاره القاضي أبو بكر بن العربي^(٢)، والصحيح القول الثاني، وهو أنَّه حيٌّ على ما نذكره. والحديث خرَّجه مسلم في «صحيحه»^(٣) عن عبد الله بن عمر قال: صَلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته، فلما سلَّم قام فقال: «أرأيَتم ليلتكم هذه، فإنَّ على رأس مئة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحدٌ» قال ابن عمر: فَوَهَلُ^(٤) النَّاسُ في مقالة رسول الله ﷺ تلك فيما يتحدَّثون من هذه الأحاديث عن مئة سنة، وإنَّما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ» يريد بذلك أن يَنخرم ذلك القَرْن.

ورواه أيضاً من حديث جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموتَ بشهر: «تسألوني عن الساعة وإنَّما عِلْمُها عند الله وأقسم بالله، ما على الأرض من نفسٍ مَنفُوسة تأتي عليها مئة سنة» وفي أخرى: قال سالم: تذاكرنا أنَّها هي مخلوقة يومئذ. وفي أخرى: «ما من نفسٍ مَنفُوسة اليوم يأتي عليها مئة سنة وهي حيَّة يومئذ». وفسَّرها عبد الرحمن صاحبُ السقاية قال: نقص العمر^(٥).

وعن أبي سعيد الخدري نحو هذا الحديث^(٦).

(١) سيأتي تخريجه قريباً.

(٢) التعريف والإعلام ص ١٠٤.

(٣) برقم (٢٥٣٧)، وهو عند البخاري (١١٦)، وأحمد (٥٦١٧).

(٤) وَهَلَ: غلط، وَهَلَّتْ إليه وَهَلًّا: إذا ذهب وهمك إليه وأنت تريد غيره. المفهم ٤٩١/٦.

(٥) صحيح مسلم الأولى برقم (٢٥٣٨): (٢١٨)، والثانية برقم (٢٥٣٨): (٢٢٠)، والثالثة برقم

(٢٥٣٨): (١٠٠)، وكلام عبد الرحمن صاحب السقاية إثر هذه الرواية.

(٦) أخرجه مسلم (٢٥٣٩).

قال علماؤنا: وحاصل ما تَضَمَّنَه هذا الحديثُ أَنَّهُ عليه الصلاة والسلام أخبر قبل موته بشهر أَنَّ كُلَّ مَنْ كان من بني آدم موجوداً في ذلك الوقت لا يزيد عمره على مئة سنة لقوله عليه الصلاة والسلام: «ما من نفس مَنفوسة» وهذا اللفظ لا يتناول الملائكة ولا الجن؛ إذ لم يَصَحَّ عنهم أَنهم كذلك، ولا الحيوان غير العاقل؛ لقوله: «مَنْ هو على ظهر الأرض أحد» وهذا إِنَّمَا يقال بأصل وَضَعه على من يعقل، فتعيَّن أَنَّ المراد بنو آدم. وقد بيَّن ابنُ عمر هذا المعنى، فقال: يريد بذلك أن يَنْخَرَمَ ذلك القَرْن. ولا حِجَّة لمن استدل به على بطلان قول من يقول: إِنَّ الخضر حيٌّ؛ لعموم قوله: «ما من نفس منفوسة» لأنَّ العموم وإن كان مؤكِّد الاستغراق، فليس نَصّاً فيه، بل هو قابلٌ للتخصيص، فكما لم يتناول عيسى عليه السلام، فَإِنَّه لم يمت ولم يقتل، فهو حيٌّ بنصِّ القرآن ومعناه، ولا يتناول الدَّجَالَ مع أَنَّهُ حيٌّ؛ بدليل حديث الجَسَّاسة، فكذلك لم يتناول الخضر عليه السلام وليس مشاهداً للناس، ولا ممن يخالطهم حتى يخطر ببالهم حالة مخاطبة بعضهم بعضاً، فمثل هذا العموم لا يتناوله^(١).

وقد قيل: إِنَّ أصحاب الكهف أحياءٌ ويحجُّون مع عيسى عليه الصلاة والسلام، كما تقدَّم. وكذلك فتى موسى في قول ابن عباس كما ذكرنا. وقد ذكر أبو إسحاق الثعلبي في كتاب «العرائس»^(٢) له: والصحيح أَنَّ الخضر نبيٌّ مُعَمَّرٌ محجوب عن الأبصار، وروى محمد بن المتوكل، عن ضمرة^(٣)، عن عبد الله بن سُوَّار قال: الخضر عليه السلام من وَلَدِ فارس، وإلياس من بني إسرائيل، يلتقيان كلَّ عام في الموسم. وعن عمرو بن دينار قال: إِنَّ الخضر وإلياس لا يزالان حيَّين في الأرض ما دام القرآن على الأرض، فإذا رُفِعَ، ماتا.

(١) المفهم ٦/ ٤٩٠، وحديث الجساسة أخرجه مسلم (٢٩٤٢) من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها.

(٢) ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٣) ليست في (د).

وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطي بن محمود بن عبد المعطي اللّخمي في «شرح الرسالة» له للقسيري حكايات كثيرة عن جماعة من الصالحين والصالحات بأنهم رأوا الخضر عليه السلام ولقوه، يفيد مجموعها غاية الظنّ بحياته مع ما ذكره النقّاش والشعلبي وغيرهما.

وقد جاء في «صحيح مسلم»^(١): «أنّ الدجّال ينتهي إلى بعض السّباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس، أو: من خير الناس» الحديث، وفي آخره قال أبو إسحاق: يعني أنّ هذا الرجل هو الخضر.

وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب «الهواتف»^(٢) بسند يوقفه إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه لقي الخضر وعلمه هذا الدعاء، وذكر أنّ فيه ثواباً عظيماً ومغفرة ورحمة لمن قاله في إثر كل صلاة، وهو: يا من لا يشغله سمع عن سمع، يا من لا تغلظه المسائل، يا من لا يتبرّم من إلحاح الملحّين، أذقني برّد عفوك، وحلاوة مغفرتك.

وذكر أيضاً عن عمر بن الخطاب عليه السلام في هذا الدعاء بعينه نحواً مما ذكر عن عليّ ابن أبي طالب عليه السلام في سماعه من الخضر^(٣). وذكر أيضاً اجتماع إلياس مع النبي عليه الصلاة والسلام^(٤). وإذا جاز بقاء إلياس إلى عهد النبي ﷺ جاز بقاء الخضر، وقد ذكر أنّهما يجتمعان عند البيت في كلّ حول، وأنّهما يقولان عند افتراقهما: ما شاء الله ما شاء الله، لا يصرف السوء إلا الله، ما شاء الله ما شاء الله، ما يكون من نعمة فمن الله، ما شاء الله ما شاء الله، توكلت على الله، حسبنا الله ونعم الوكيل^(٥). وأما خبر

(١) برقم (٢٩٣٨).

(٢) ص ٥٢، وفي إسناده صالح بن أبي الأسود، قال عنه الذهبي: وإو.

(٣) الهواتف ص ٥٧.

(٤) الهواتف ص ٧٨ - ٧٩، وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرک ٦١٧/٢، قال الذهبي في التلخيص: موضوع، قُبِحَ الله من وضعه. وسيأتي مطولاً في الصفات (١٢٣).

(٥) من قوله: وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب الهواتف... إلى هنا نقله من التعريف والإعلام ص ١٠٧.

إلباس فيأتي في «والصافات»^(١) إن شاء الله تعالى. وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب «التمهيد»^(٢) عن عليّ عليه السلام قال: لما توفي النبي ﷺ وسُجِّي بثوب، هتف هاتف من ناحية البيت يسمعون صوته ولا يرون شخصه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، السلام عليكم أهل البيت، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٥]، إن في الله خَلْفاً من كلِّ هالك، وعِوضاً من كلِّ تالف، وعِزاء من كلِّ مصيبة، فبالله فثقوا، وإيَّاه فارجوا، فإنَّ المصابَّ من حُرِّم الثواب. فكانوا يرون أنَّه الخضر عليه الصلاة والسلام، يعني: أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام.

والألف واللام في قوله: «على الأرض»^(٣) للعهد لا للجنس، وهي أرض العرب، بدليل تصرُّفهم فيها وإليها غالباً، دون أرض يأجوج ومأجوج، وأقاصي جزر الهند والسند مما لا يقرع السمع اسمه، ولا يُعَلِّم علمه. ولا جواب عن الدِّجَال.

قال السهيلي^(٤): واختلف في اسم الخضر اختلافاً متبايناً، فعن ابنِ منبّه أنَّه قال: إيليا بن ملكان بن فالغ بن شالغ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وقيل: هو ابن عاميل بن سمالجين بن أريا بن علقما بن عيصو بن إسحاق، وأنَّ أباه كان ملكاً، وأنَّ أمّه كانت بنت فارس واسمها ألها، وأنَّها ولدته في مغارة، وأنَّه وجد هنالك وشاة ترضعه في كلِّ يوم من غنم رجل من القرية، فأخذه الرجل فربَّاه، فلما شبَّ وطلب الملك - أبوه - كاتباً وجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتب الصُّحف التي أنزلت على إبراهيم وشيث، كان ممَّن أقدم عليه من الكتَّاب ابنُ الخضر وهو لا يعرفه، فلما استحسَّن خطَّه ومعرفته، وبحث عن جليَّة أمره، عرف أنَّه ابنُ، فضمَّه لنفسه، وولَّاه أمر الناس، ثم إنَّ الخضر فرَّ من الملك لأسباب يطول ذكرها إلى أن وجد عينَ الحياة فشرب منها،

(١) عند الآية (١٢٣).

(٢) ١٦٢/٢، والمؤلف نقله عن ابن عبد البر بواسطة السهيلي في التعريف والإعلام ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٣) في قوله ﷺ: «أريتكم ليلتكم هذه...» الحديث المتقدم قريباً، والكلام من المفهم ٤٩٠/٦.

(٤) في التعريف والإعلام ص ١٠٣ - ١٠٤، وفيه: عماتيل، بدل: عاميل.

فهو حيٌّ إلى أن يخرج الدجَّالُ، وأنه الرجلُ الذي يقتله الدجَّالُ ويقطعه، ثم يحييه الله تعالى. وقيل: لم يدرك زمنَ النبي ﷺ، وهذا لا يصحُّ. وقال البخاريُّ وطائفة من أهل الحديث منهم شيخنا أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى: إنَّه مات قبل انقضاءِ المئة، من قوله عليه الصلاة والسلام: «إلى رأسِ مئة عام لا يَبْقَى على هذه الأرض ممن هو عليها أحدٌ»^(١) يعني: من كان حيًّا حين قال هذه المقالة. قلت: قد ذكرنا هذا الحديث والكلامَ عليه، وبَيَّنَّا حياةَ الخضر إلى الآن، والله أعلم.

الخامسة: قيل: إنَّ الخضرَ لما ذهب يفارق موسى قال له موسى: أوصني. قال: كن بَسَامًا ولا تكن ضَحَّاكًا، ودع اللِّجاجة، ولا تمشِ في غير حاجة، ولا تَعِبْ على الخطَّائين خطاياهم، وابكِ على خطيئتك يا ابنَ عمران^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۚ إِنَّا مَكِّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۚ ۞ فَاَنْبَغَ سَبَبًا ۚ ۞ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقُرْنَيْنِ بِمَا آتَىٰ أَنْ نُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَخَذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۚ ۞ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ۚ ۞ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۚ ۞ ثُمَّ أَنْبَغَ سَبَبًا ۚ ۞ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ۚ ۞ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۚ ۞﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ قال ابن إسحاق^(٣): وكان من خبر ذي القرنين أنه أوتي ما لم يؤت غيره، فمدَّت له الأسباب حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الأرض ومغاربها، لا يطاء أرضاً إلا سلَّط على أهلها، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخلق. قال ابن

(١) سلف تخريجه قريباً.

(٢) تفسير أبي الليث ٣١٠/٢، والتعريف والإعلام ص ١٠٦.

(٣) السيرة النبوية ٣٠٧/١ - ٣٠٨.

إسحاق: حَدَّثَنِي مَنْ يَسُوقُ الْأَحَادِيثَ عَنِ الْأَعَاجِمِ فِيمَا تَوَارَثُوا مِنْ عِلْمِ ذِي الْقَرْنَيْنِ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ كَانَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، اسْمُهُ مَرْزَبَانُ بْنُ مَرْذَبَةَ الْيُونَانِيِّ مِنْ وَلَدِ يُونَانَ بْنِ يَافَثَ بْنِ نُوحٍ ^(١).

قال ابنُ هشامٍ: واسمه الإسكندر، وهو الذي بنى الإسكندرية فُسِّبَتْ إليه. قال ابنُ إسحاق: وقد حَدَّثَنِي ثورُ بْنُ يَزِيدٍ، عن خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ الْكَلَّاعِيِّ - وكان خَالِدٌ رجلاً قد أدرك الناس - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ فَقَالَ: «مَلِكٌ مَسَحَ الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِهَا بِالْأَسْبَابِ». وقال خَالِدٌ: وسمعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ رجلاً يقول: يا ذَا الْقَرْنَيْنِ، فقال: اللَّهُمَّ غَفِّراً، أما رَضِيتُمْ أَنْ تُسَمُّوا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى تَسْمَيْتُمْ بِأَسْمَاءِ الْمَلَائِكَةِ؟ ^(٢) قال ابنُ إسحاق: فالله أعلم أي ذلك كان؟ أَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذلك أم لا؟ وَالْحَقُّ مَا قَالَ.

قلت: وقد روي عن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ مثَلُ عُمَرَ، سمع رجلاً يدعو آخَرَ: يا ذَا الْقَرْنَيْنِ، فقال عليٌّ: أما كفاكم أَنْ تَسْمَيْتُمْ بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى تَسْمَيْتُمْ بِأَسْمَاءِ الْمَلَائِكَةِ؟! وعنه: أَنَّهُ عَبْدُ مَلِكٍ - بكسر اللام - صَالِحٌ، نَصَحَ اللَّهَ فَأَيَّدَهُ ^(٣). وقيل: هو نَبِيُّ مَبْعُوثٌ فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ الْأَرْضَ. وذكر الدارقطني في كتاب «الأخبار» أَنَّ مَلَكاً يُقَالُ لَهُ: رَبَاقِيلُ كَانَ يَنْزِلُ عَلَى ذِي الْقَرْنَيْنِ، وَذَلِكَ الْمَلِكُ هُوَ الَّذِي يَطْوِي الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَنْقُضُهَا، فَتَقَعُ أَقْدَامُ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ بِالسَّاهِرَةِ، فِيمَا ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وقال السهيليُّ: وهذا مشاكل بتوكيله بذِي الْقَرْنَيْنِ الَّذِي قَطَعَ الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، كَمَا أَنَّ قِصَّةَ خَالِدِ بْنِ سَنَانَ فِي تَسْخِيرِ النَّارِ لَهُ مُشَاكَلَةٌ بِحَالِ الْمَلِكِ الْمُوَكَّلِ بِهَا، وَهُوَ مَالِكٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَلَى جَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ أَجْمَعِينَ.

(١) أخرجه الطبري ٣٨٩/١٥ - ٣٩٠، وأبو الشيخ في العظمة (٩٨٥)، وفيهما أن اسمه: مرزبان بن مردبه.

(٢) أخرجه الطبري ٣٩٠/١٥، وأبو الشيخ في العظمة (٩٨٥) و(٩٨٦).

(٣) المحرر الوجيز ٥٣٨/٣.

ذكر ابنُ أبي خَيْثَمَةَ في كتاب «البدء» له خَالِدُ بْنُ سِنَانِ الْعَبْسِيِّ، وذكر نبوّته، وذكر أنّه وُكِّلَ به من الملائكة مالكُ خازن النار، وكان من أعلام نبوّته أنّ ناراً يقال لها: نار الحدّثان، كانت تخرج على الناس من مغارة فتأكلُ الناسَ ولا يستطيعون ردّها، فردّها خَالِدُ بْنُ سِنَانٍ فلم تَخْرُجْ بعد^(١).

واختلف في اسم ذي القرنين، وفي السبب الذي سُمِّيَ به بذلك اختلافاً كثيراً: فأما اسمه فقليل: هو الإسكندر الملك اليوناني المقدوني، وقد تُشَدَّدَ قافُه فيقال: المقدوني^(٢). وقيل: اسمه هرمس. ويقال: اسمه هرديس. وقال ابن هشام: هو الصعب بنُ ذي يزن الحميريُّ من ولد وائل بنِ حمير^(٣)، وقد تقدّم قولُ ابنِ إسحاق. وقال وهب بن منبه: هو روميّ. وذكر الطبريّ حديثاً عن النبيّ عليه الصلاة والسلام أنّ ذا القرنين شابٌّ من الروم. وهو حديثٌ واهي السند، قاله ابن عطية^(٤). قال السُّهيليّ^(٥): والظاهر من عِلْمِ الأخبار أنّهما اثنان: أحدهما: كان على عهد إبراهيم عليه السلام، ويقال: إنّ الذي قضى لإبراهيم عليه السلام حين تحاكموا إليه في بئر السبع بالشام. والآخر: أنّه كان قريباً من عهد عيسى عليه السلام. وقيل: إنّهُ أفريدون الذي قتل بيوراسب بن أروانداشب الملك الطاغي على عهد إبراهيم عليه السلام، أو قبله بزمان.

وأما الاختلاف في السبب الذي سمي به، فقليل: إنه كان ذا ضفيرتين من شعر فسُمِّيَ بهما، ذكره الثعلبي وغيره^(٦). والصفائر: قرون الرأس، ومنه قول الشاعر^(٧):

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٩٨/١١ (١١٧٩٣)، والحاكم في المستدرک ٥٩٩/٢ - ٦٠٠ عن ابن عباس، قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٢) المحرر الوجيز ٥٣٨/٣.

(٣) التعريف والإعلام ص ١٠٨، وفيه: من ولد وائل بن حمير.

(٤) في المحرر الوجيز ٥٣٨/٣، والخبر عند الطبري ٣٩٠/١٥.

(٥) في التعريف والإعلام ص ١٠٨، وجاء فيه: بيوراسف بن أندراسف.

(٦) المحرر الوجيز ٥٣٨/٣، وعرائس المجالس ص ٣٦٢.

(٧) القائل عمر بن أبي ربيعة، والبيت في ديوانه ص ٤٣.

فَلْتَمْتُ فَأَمَّا آخِذًا بِقُرُونِهَا شُرْبَ النَّزِيرِ بِبَرْدِ مَاءِ الْحَشْرِجِ
وقيل: إنه رأى في أوّل ملكه كأنه قابضٌ على قرني الشمس، فقَصَّ ذلك، ففسّر
أنّه سيغلب ما ذرت عليه الشمس، فسمّي بذلك ذا القرنين. وقيل: إنّما سُمّي بذلك؛
لأنّه بلغ المغربَ والمشرقَ، فكأنّه حاز قرني الدنيا. وقالت طائفة: إنّهُ لما بلغ مطلعَ
الشمس كشف بالرؤية قرونها، فسمّي بذلك ذا القرنين، أو قرني الشيطان بها. وقال
وهب بن منبه: كان له قرنان تحت عمامته^(١).

وسأل ابنُ الكوّاء علياً عليه السلام عن ذي القرنين أنبيأ كان أم ملكاً؟ فقال: لا ذا ولاذا،
كان عبداً صالحاً، دعا قومه إلى الله تعالى، فشجّوه على قرنه، ثم دعاهم، فشجّوه
على قرنه الآخر، فسمّي ذا القرنين^(٢).

واختلفوا أيضاً في وقت زمانه، فقال قوم: كان بعد موسى. وقال قوم: كان في
الفترة بعد عيسى. وقيل: كان في وقت إبراهيم وإسماعيل، وكان الخضر عليه السلام
صاحبَ لوائه الأعظم، وقد ذكرناه في «البقرة»^(٣). وبالجمله فإنّ الله تعالى مكّنه
وملكه ودانت له الملوك، فرؤي أنّ جميع ملوك الدنيا كلها أربعة: مؤمنان وكافران،
فالمؤمنان: سليمان بن داود وإسكندر، والكافران: نمرود وبختنصر^(٤)، وسيملكها
من هذه الأمة خامس؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرُوا عَلَى الَّذِينَ كُفَرُوا﴾ وهو المهدي. وقد
قيل: إنّما سُمّي ذا القرنين؛ لأنّه كان كريمَ الطرفين من أهل بيت شريف من قبل أبيه
وأُمّه. وقيل: لأنّه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حيّ. وقيل: لأنّه كان إذا قاتل
قاتل بيديه وركابيه جميعاً. وقيل: لأنّه أُعطي علمَ الظاهر والباطن. وقيل: لأنّه دخل
الظلمة والنور. وقيل: لأنّه ملك فارس والروم^(٥).

(١) المحرر الوجيز ٥٣٨/٣.

(٢) أخرجه الطبري ٣٧٠/١٥، وأبو الشيخ في العظمة (٩٧٠) بنحوه.

(٣) ٢٩٥/٤ - ٢٩٦.

(٤) المحرر الوجيز ٥٣٨/٣، وذكر الخبر أبو الليث في التفسير ٣١٠/٢ ونسبه إلى مجاهد.

(٥) عرائس المجالس ص ٣٦٢ - ٣٦٣، وزاد المسير ١٨٣/٥ - ١٨٤.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ قال عليّ ؑ: سَخَّرَ لَهُ السحاب، ومُدَّتْ لَهُ الأسباب، ويُسِّطُ لَهُ فِي النور، فكان الليل والنهارُ عليه سواء^(١). وفي حديث عقبة بن عامر أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لرجال من أهل الكتاب سألوه عن ذي القرنين فقال: «إِنَّ أَوَّلَ أمره كان غلاماً من الروم فأعطي ملكاً، فسار حتى أتى أرض مصر فابتنى بها مدينة يقال لها: الإسكندرية، فلما فرغ أتاه مَلَكٌ فعرج به فقال له: انظر ما تحتك؟ قال: أرى مدينتي وحدها لا أرى غيرها. فقال له المَلَكُ: تلك الأرض كُلُّها وهذا السواد الذي تراه محيطاً بها هو البحر، وإنَّما أراد الله تعالى أن يُرِكَ الْأَرْضَ، وقد جعل لك سلطاناً فيها، فسير في الأرض فعلم الجاهل وثبت العالم» الحديث^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَعَايَنْتُهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال ابن عباس: من كل شيء علماً يتسبب به إلى ما يريد. وقال الحسن: بلاغاً إلى حيث أراد^(٣). وقيل: من كل شيء يحتاج إليه الخلق. وقيل: من كل شيء يستعين به الملوك، من فتح المدائن وقهر الأعداء^(٤). وأصل السبب: الحبل، فاستعير لكل ما يتوصل به إلى شيء^(٥).

﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: «فَاتَّبَعَ سَبَبًا» مقطوعة الألف. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو: «فَاتَّبَعَ سَبَبًا» بوضلها^(٦)، أي: اتبع سبباً من الأسباب التي أوتيتها. قال الأخفش: تَبَعْتَهُ وَأَتْبَعْتَهُ بِمعنى، مثل ردفته وأردفته^(٧)، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَلَفَ الْخَلْفَةَ فَاتَّبَعُهُمْ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] ومنه الإتيان في

(١) الوسيط ٣/ ١٦٤، وتفسير البغوي ٣/ ١٧٨، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (٩٦٩).

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٦٨ - ٣٦٩، وأبو الشيخ في العظمة (٩٧٦)، والبيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٧٨، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ١٥/ ٣٧١.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٣٨.

(٥) تفسير الرازي ٢١/ ١٦٥.

(٦) السبعة ص ٣٩٧ - ٣٩٨، والتيسير ص ١٤٥.

(٧) الصحاح (تبع).

الكلام، مثل حَسَنٌ بَسَنٌ، وَقَبِيحٌ شَقِيحٌ. قال النحاس^(١): واختار أبو عبيد قراءة أهل الكوفة قال: لأنها من السَّير، وحكى هو والأصمعي أنه يقال: تَبِعَهُ وَاتَّبَعَهُ، إذا سار ولم يلحقه، وأتبعه إذا لحقه، قال أبو عبيد: ومثله: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]. قال النحاس^(٢): وهذا التفريق وإن كان الأصمعي قد حكاه، لا يُقْبَلُ إلا بعلّة أو دليل. وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ليس في الحديث أنهم لحقوهم، وإنما الحديث: لما خرج موسى عليه السلام وأصحابه من البحر، وحصل فرعون وأصحابه، انطبق عليهم البحر. والحق في هذا أن تَبَعَ وَاتَّبَعَ وأتبع لغات بمعنى واحد، وهي بمعنى السَّير، فقد يجوز أن يكون معه لَحَاقٌ، وألا يكون.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْغُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: «حامية» أي: حارّة. الباكون: ﴿حَمِئَةٍ﴾ أي: كثيرة الحمأة، وهي الطينة السوداء^(٣)، تقول: حَمَأْتُ البئرَ حَمَأً - بالتسكين - إذا نزعت حَمَأَتِهَا. وَحِمِئَتِ البئرُ حَمَأً - بالتحريك - كثرت حَمَأَتِهَا. ويجوز أن تكون: «حامية» من الحمأة، فخففت الهمزة وقلبت ياء. وقد يُجْمَعُ بين القراءتين فيقال: كانت حارّة وذات حَمَأَةٍ^(٤). وقال عبد الله بن عمرو: نظر النبي ﷺ إلى الشمس حيث غربت، فقال: «نارُ الله الحامية، لولا ما يَزْعُهَا من أمرِ الله لأحرقت ما على الأرض»^(٥). وقال ابن عباس: أقرأنيها أُبَيُّ كما أقرأه رسولُ الله ﷺ: «في عين حَمِئَةٍ»^(٦)، وقال معاوية: هي «حامية»، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص: فأنا مع أمير المؤمنين، فجعلوا كعباً بينهم حَكَمًا

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠.

(٣) السبعة ص ٣٩٨، والتيسير ص ١٤٥، وحجة القراءات ١٦٩/٥ - ١٧٠.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٠٨.

(٥) أخرجه أحمد (٦٩٣٤)، والطبري ١٥/ ٣٧٨، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٣١: رواه أحمد، وفيه راوٍ لم يسم، وبقيّة رجاله ثقات.

(٦) أخرجه أبو داود (٣٩٨٦)، والترمذي (٢٩٣٤)، والطبري ١٥/ ٣٧٨.

وقالوا: يا كعبُ كيف تَجِدُ هذا في التوراة؟ فقال: أجدُها: تغرب في عين سوداء، فوافق ابنُ عباس^(١). وقال الشاعر وهو تُبّع اليمانيُّ:

قد كان ذو القرنين قبلي مُسْلِماً مَلِكاً تدينُ له الملوك وتَسْجُدُ
بَلَّغَ المِغَارِبَ والمِشَارِقَ يَبْتَغِي أسبابَ أمرٍ من حكيم مُرْشِدِ
فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عند غروبِها في عينِ ذي خُلْبٍ وثَأْطِ حِرْمِدِ
الخُلْبُ: الطين. والثَأْطُ: الحمأة. والحِرْمِدُ: الأسود^(٢).

وقال القفال: قال بعض العلماء: ليس المراد أنَّه انتهى إلى الشمس مغرباً ومشرقاً حتى وصل إلى جِزْمِها ومَسْها؛ لأنَّها تدور مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض، وهي أعظم من أن تدخل في عينٍ من عيون الأرض، بل هي أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفةً، بل المراد أنَّه انتهى إلى آخر العِمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق، فوجدَها في رأي العين تغرب في عينٍ حمئة، كما أنَّنا نشاهدها في الأرض الملساء كأنَّها تدخل في الأرض، ولهذا قال: «وَجَدَهَا تَظْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً» ولم يُرد أنَّها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم، بل أراد أنَّهم أولٌ من تطلع عليهم.

وقال القتبِيُّ: ويجوز أن تكون هذه العينُ من البحر، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءها أو معها أو عندها، فيقام حرفُ الصفة مقامَ صاحبه، والله أعلم.

﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ أي: عند العين، أو عند نهاية العين، وهم أهل جَابَرْس، ويقال لها بالسريانية: جرجيسا، يسكنها قومٌ من نسلِ ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح، ذكره السُّهيلي^(٣).

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٤١١/١، والطبري ٣٧٥/١٥، والواحدي في الوسيط ١٦٤/٣ - ١٦٥، والثعلبي في عرائس المجالس ص ٣٦٦.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٧٠، ومعاني القرآن للنحاس ٢٨٧/٤، وعرائس المجالس ص ٣٦٦.

(٣) في التعريف والإعلام ص ١٠٨.

وقال وهب بن منبه: كان ذو القرنين رجلاً من الروم، ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره، وكان اسمه الإسكندر، فلما بلغ وكان عبداً صالحاً قال الله تعالى: يا ذا القرنين! إني باعثك إلى أمم الأرض وهم أمم مختلفة ألسنتهم، وهم أمم جميع الأرض، وهم أصناف: أمتان بينهما طول الأرض كله، وأمتان بينهما عرض الأرض كله، وأمم في وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج، فأما اللتان بينهما طول الأرض فأمة عند مغرب الشمس يقال لها: ناسك، وأما الأخرى فعند مطلعها ويقال لها: منسك. وأما اللتان بينهما عرض الأرض، فأمة في قطر الأرض الأيمن يقال لها: هاويل، وأما الأخرى التي في قطر الأرض الأيسر يقال لها: تاويل. فقال ذو القرنين: إلهي! قد ندبتني لأمر عظيم لا يقدر قدره إلا أنت، فأخبرني عن هذه الأمم بأي قوة أكاثرتهم؟ وبأي صبر أقاسيهم؟ وبأي لسان أناطقهم؟ فكيف لي بأن أفقه لغتهم وليس عندي قوة؟ فقال الله تعالى: سأظفرك^(١) بما حملتك، أشرح لك صدرك فتسمع كل شيء، وأثبت لك فهمك فتفقه كل شيء، وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء، وأسخر لك النور والظلمة فيكونان جنداً من جنودك، يهديك النور من أمامك، وتحفظك الظلمة من ورائك.

فلما قيل له ذلك، سار بمن أتبعه، فانطلق إلى الأمة التي عند مغرب الشمس؛ لأنها كانت أقرب الأمم منه وهي ناسك، فوجد جموعاً لا يحصيها إلا الله تعالى، وقوة وبأساً لا يطيقه إلا الله، وألسنة مختلفة، وأهواء متشتتة، فكاثرتهم بالظلمة، فضرب حولهم ثلاث عساكر من جند الظلمة قدر ما أحاط بهم من كل مكان، حتى جمعتهم في مكان واحد، ثم دخل عليه بالنور، فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته، فممنهم من آمن به، ومنهم من كفر وصد عنه، فأدخل على الذين تولوا الظلمة، فغشيتهم من كل مكان، فدخلت إلى أفواههم وأنوفهم وأعينهم وبيوتهم وغشيتهم من كل مكان، فتحيروا وماجوا وأشفقوا أن يهلكوا، فعجوا^(٢) إلى الله تعالى بصوت

(١) في عرائس المجالس ص ٣٦٥ : سأطوقك. والكلام منه.

(٢) في عرائس المجالس ص ٣٦٦ : ضجوا. والكلام منه.

واحد: إنا آمنة، فكشفها عنهم، وأخذهم عنوةً، ودخلوا في دعوته، فجند من أهل المغرب أمماً عظيمة، فجعلهم جنداً واحداً، ثم انطلق بهم يقودهم، والظلمة تسوقهم وتحرسه من خلفه، والنور أمامهم يقوده ويدله، وهو يسير في ناحية الأرض اليمنى يريد الأمة التي في قطر الأرض الأيمن وهي هاويل، وسخر الله تعالى يده وقلبه وعقله ونظره فلا يُخطئ إذا عمل عملاً، فإذا أتوا مخاضة أو بحراً، بنى سفناً من ألواح صغار مثل النعال، فنظمها في ساعة، ثم جعل فيها جميع من معه من تلك الأمم، فإذا قطع البحار والأنهار، فتقها ودفع إلى كل رجل لوحاً، فلا يكثرث بحمله، فانتهى إلى هاويل وفعل بهم كفعله بناسك فآمنوا، وفرغ منهم، وأخذ جيوشهم وانطلق إلى ناحية الأرض الأخرى حتى انتهى إلى منسك عند مطلع الشمس، فعمل فيها وجند منها جنوداً كفعله في الأولى، ثم كَرَّ مقبلاً حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى يريد تاويل، وهي الأمة التي تقابل هاويل بينهما عرض الأرض، ففعل فيها كفعله فيما قبلها.

ثم عطف إلى الأمم التي في وسط الأرض من الجن والإنس ويأجوج ومأجوج، فلما كان في بعض الطريق مما يلي منقطع التُّرك من المشرق، قالت له أمة صالحة من الإنس: يا ذا القرنين! إن بين هذين الجبلين خلقاً من خلق الله تعالى كثيراً ليس لهم عدد، وليس فيهم مشابهة من الإنس، وهم أشباه البهائم، يأكلون العشب، ويفترسون الدواب والوحش كما تفترسها السباع، ويأكلون حشرات الأرض كلها من الحيات والعقارب والوزغ وكل ذي روح مما خلق الله تعالى في الأرض، وليس لله تعالى خلق ينمو نماءهم في العام الواحد، فإن طالت المدة فسيملؤون الأرض، ويُجلون أهلها، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً؟ وذكر الحديث^(١)، وسيأتي من صفة يأجوج ومأجوج والترك إذ هم نوع منهم ما فيه كفاية.

(١) عرائس المجالس ص ٣٦٤ - ٣٦٨، وأخرجه الطبري ١٥/٣٩٠ - ٣٩٨، وأبو الشيخ في العظمة

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَذَّاقُوا الْعَذَابَ﴾ قال القشيري أبو نصر: إن كان نبياً فهو وحي، وإن لم يكن نبياً فهو إلهام من الله تعالى.

﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ قال إبراهيم بن السري^(١): خيره بين هذين، كما خيّر محمدًا ﷺ فقال: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢] ونحوه.

وقال أبو إسحاق الزجاج: المعنى أن الله تعالى خيره بين هذين الحكيمين. قال النحاس^(٢): ورد علي بن سليمان عليه قوله؛ لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبي فيخاطب بهذا، فكيف يقول لربه عز وجل: «ثم يرد إلى ربي؟» وكيف يقول: «فسوف نعذبه» فيخاطب بالنون؟ قال: التقدير: قلنا يا محمد، قالوا: يا ذا القرنين. قال أبو جعفر النحاس: هذا الذي قاله أبو الحسن لا يلزم منه شيء. أمّا قوله: «قلنا يا ذا القرنين» فيجوز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبي في وقته، ويجوز أن يكون قال له هذا كما قال لنبيه: ﴿فَلَمَّا مَتَّأ بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤]، وأمّا إشكال: «فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربي» فإن تقديره أن الله تعالى لما خيره بين القتل في قوله: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَبَيْنَ الْإِسْتِبْقَاءِ فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ: «وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا» قال لأولئك القوم: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: أقام على الكفر منكم: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ أي: بالقتل ﴿ثُمَّ يَرْدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ أي: شديداً في جهنم ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ أي: تاب من الكفر ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ قال أحمد بن يحيى: «أن» في موضع نصب في «إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً» قال: ولو رُفعت كان صواباً، بمعنى: فإمّا هو، كما قال:

فَسِيرَا فِيمَا حَاجَةً تَقْضِيَانَهَا وَإِمَّا مَقِيلٌ صَالِحٌ وَصَدِيقٌ^(٣)

(١) وهو أبو إسحاق الزجاج، وكلامه في معاني القرآن ٣/ ٣٠٩، وما بعده منه.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠ - ٤٧١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧١، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٥٨، وتفسير الطبري ١٦/ ١٠٩، والتدوين في أخبار قزوين ٢/ ٤١٦.

﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى﴾ قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم: «فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى» بالرفع على الابتداء أو بالاستقرار. و«الحسنى» في موضع خفض بالإضافة، ويحذف التنوين للإضافة^(١)، أي: له جزاء الحسنى عند الله تعالى في الآخرة وفي الجنة، فأضاف الجزاء إلى الجنة، كقوله: ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]، قاله الفراء^(٢). ويحتمل أن يريد: بـ «الحسنى» الأعمال الصالحة. ويمكن أن يكون الجزاء من ذي القرنين، أي: أعطيه وأتفضل عليه.

ويجوز أن يحذف التنوين؛ لالتقاء الساكنين، ويكون «الحسنى» في موضع رفع على البدل عند البصريين، وعلى الترجمة عند الكوفيين، وعلى هذا قراءة ابن أبي إسحاق: «فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى» إلا أنك لم تحذف التنوين، وهو أجود. وقرأ سائر الكوفيين: «فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى» منصوباً منوئاً، أي: فله الحسنى جزاءً. قال الفراء: «جزاء» منصوب على التمييز. وقيل: على المصدر، وقال الزجاج: هو مصدر في موضع الحال، أي: مجزياً بها جزاء^(٣).

وقرأ ابن عباس ومسروق: «فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى» منصوباً غير منوئ. وهي عند أبي حاتم على حذف التنوين؛ لالتقاء الساكنين، مثل «فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى» في أحد الوجهين. النحاس^(٤): وهذا عند غيره خطأ؛ لأنه ليس موضع حذف تنوين؛ لالتقاء الساكنين، ويكون تقديره: فله الثواب جزاء الحسنى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ تقدّم معناه أن أتبع وأتبع بمعنى، أي: سلك طريقاً ومنازل. ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ وقرأ مجاهد وابن محيصن: بفتح الميم

(١) السبعة ص ٣٩٨، والتيسير ص ١٤٥، وإعراب القرآن للنحاس ٤٧١/٢.

(٢) في معاني القرآن ١٥٩/٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤٧١/٢، وكلام الفراء في معاني القرآن ١٥٩/٢، وكلام الزجاج في معاني القرآن ٣٠٩/٣.

(٤) في إعراب القرآن ٤٧١/٢ - ٤٧٢، وما قبله منه.

واللام^(١)، يقال: طَلَعَتِ الشَّمْسُ والكواكبُ طُلُوعاً وَمَظْلَعاً. والمَطْلَعُ والمَطْلِعُ أيضاً: موضعُ طلوعها، قاله الجوهري^(٢). المعنى أَنَّهُ انتهى إلى موضع قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحدٌ من الناس، والشمس تَطْلُعُ وراء ذلك بمسافة بعيدة، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ﴾.

وقد اختلف فيهم، فعن وهب بن منبه ما تقدّم، وأنها أُمَّةٌ يقال لها: منسك، وهي مقابلة ناسك، وقاله مقاتل. وقال قتادة: يقال لها: الزنج^(٣). وقال الكلبي: هم تارس وهاويل ومنسك، حفاة عراة عماء عن الحق^(٤)، يتسافدون مثل الكلاب، ويتهارجون تهارج الحمر.

وقيل: هم أهل جَابَلُق، وهم من نسل مؤمني عاد الذين آمنوا بهود، ويقال لهم بالسريانية: مرقيسا. والذين عند مغرب الشمس هم أهل جَابَرْس، ولكل واحد من المدينتين عشرة آلاف باب، بين كل بابين فرسخ، ووراء جَابَلُق أمم، وهم: تافيل وتارس، وهم يجاورون يأجوج ومأجوج. وأهل جَابَرْس وجَابَلُق آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام، مرّ بهم ليلة الإسراء، فدعاهم فأجابوه، ودعا الأمم الآخرين فلم يجيبوه، ذكره السهيلي^(٥) وقال: اختصرت هذا كله من حديث طويل رواه مقاتل بن حيان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ. ورواه الطبري مسنداً إلى مقاتل يرفعه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَنْ نَجْعَلَ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: حجاباً يَسْتَرُونَ منها عند طلوعها. قال قتادة: لم يكن بينهم وبين الشمس ستر، كانوا في مكان لا يستقرّ عليه بناء، وهم

(١) الكشاف ٢/٤٩٨، وزاد المسير ٥/١٨٧، والبحر المحيط ٦/١٦١.

(٢) في الصحاح (طلع).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/٤١٢، والطبري ١٥/٣٨٣.

(٤) عرائس المجالس ص ٣٦٧، والوسيط ٣/١٦٥.

(٥) في التعريف والإعلام ص ١٠٩، والخبر أخرجه الطبري في تاريخه ١/٦٥ - ٧٥.

يكونون في أسراب لهم، حتى إذا زالت الشمس عنهم رجعوا إلى معاشهم وحروثهم^(١)، يعني: لا يستترون منها بكهف جبل ولا بيت يكتئبونها.

وقال أمية: وجدت رجلاً بسمرقند يحدثون الناس، فقال بعضهم: خرجت حتى جاوزت الصين، فقيل لي: إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فاستأجرت رجلاً يرينهم حتى صبحتهم، فوجدت أحدهم يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى، وكان صاحبي يحسن كلامهم، فبتنا بهم، فقالوا: فيم جئتم؟ قلنا: جئنا ننظر كيف تطلع الشمس، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهية الصلصلة، فغشي عليّ، ثم أفقت وهم يمسخونني بالدهن، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي على الماء كهية الزيت، وإذا طرف السماء كهية الفسطاط، فلما ارتفعت أدخلوني سرباً لهم، فلما ارتفع النهار وزالت الشمس عن رؤوسهم، خرجوا يصطادون السمك، فيطرحونه في الشمس فينضج^(٢).

وقال ابن جريج: جاءهم جيش مرة، فقال لهم أهلها: لا تطلع الشمس وأنتم بها، فقالوا: ما نبرح حتى تطلع الشمس. ثم قالوا: ما هذه العظام؟ قالوا: هذه والله عظام جيش طلعت عليهم الشمس هاهنا، فماتوا. قال: فولّوا هارين في الأرض^(٣).

وقال الحسن: كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، وكانت لا تحمل البناء، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا في الماء، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا، فيتراعون كما تتراعى البهائم^(٤).

قلت: وهذه الأقوال تدلّ على أن لا مدينة هناك، والله أعلم. وربما يكون منهم من يدخل في النهر، ومنهم من يدخل في السرب، فلا تناقض بين قول الحسن وقاعدة.

(١) أخرجه الطبري ٣٨٢/١٥.

(٢) عرائس المجالس ص ٣٦٧.

(٣) أخرجه الطبري ٣٨٢/١٥ - ٣٨٣.

(٤) أخرجه الطبري ٣٨٢/١٥، وأبو الشيخ في العظمة (٩٨٠).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْبَعُ سَبِيًّا ۖ﴾ ٩٢ حَقَّ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۖ ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَنْذَا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۚ ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۚ ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفِخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلُهُم نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۚ ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۚ ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُم دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۖ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْبَعُ سَبِيًّا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ﴾ وهما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان. روى عطاء الخراساني عن ابن عباس: «بين السدين»: الجبلين: أرمينية وأذربيجان^(١). ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ أي: من ورائهما: ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ وقرأ حمزة والكسائي: «يُفْقَهُونَ» بضم الياء، وكسر القاف، من أفقه: إذا أبان، أي: لا يفقهون غيرهم كلاماً. الباقون: بفتح الياء والقاف، أي: يعلمون^(٢). والقراءتان صحيحتان، فلا هم يفقهون من غيرهم ولا يفقهون غيرهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَنْذَا الْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي: قالت له أمة من الإنس صالحة: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾. قال الأخفش^(٣): من همز «يا جوج» فجعل الألفين من الأصل يقول: يا جوج: يفعل، وما جوج: مفعول؛ كأنه من أجيج النار. قال: ومن لا يهمز، ويجعل الألفين زائدتين يقول: «يا جوج» من يَجَجْتُ، وما جوج من مَجَجْتُ. وهما غير مصروفين، قال رؤية:

لو أن ياجوج وماجوج معاً وعاد عاد واستجاشوا تُبْعاً

(١) معاني القرآن للنحاس ٢٩٣/٤، وأخرجه الطبري ٣٨٧/١٥.

(٢) السبعة ص ٣٩٩، والتيسير ص ١٤٥، والطبري ٣٨٧/١٥.

(٣) في معاني القرآن ٦٢١/٢.

ذكره الجوهري^(١).

وقيل: إنما لم ينصرفا؛ لأنهما اسمان أعجميان، مثل: طالوت وجالوت، غير مشتقين، علّتاها في منع الصّرف: العُجمة والتعريف والتأنيث. وقالت فرقة: هو معرب، من أَجَّ وأَجَّج، علّتاها في منع الصّرف: التعريف والتأنيث^(٢).

وقال أبو علي^(٣): يجوز أن يكونا عربيّين، فمن همز «يأجوج» فهو على وزن يَفْعُول، مثل يَرْبُوع، من قولك: أَجَّت النارُ، أي: ضويت، ومنه: الأَجِيج، ومنه: ملح أجاج، ومن لم يهمز، أمكن أن يكون خَفَّفَ الهمزة، فقلبها ألفاً، مثل راس، وأما «مأجوج» فهو مَفْعُول، من أَجَّ، والكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق، ومن لم يهمز، فيجوز أن يكون خَفَّفَ الهمزة، ويجوز أن يكون فاعولاً مِنْ مَجَّ، وترك الصرف فيهما؛ للتأنيث والتعريف، كأنه اسم للقبيلة.

واختلف في إفسادهم: سعيد بن عبد العزيز: إفسادهم أَكَل بني آدم. وقالت فرقة: إفسادهم إنما كان متوقّفاً، أي: سيفسدون، فطلبوا وجه التحرُّز منهم. وقالت فرقة: إفسادهم هو الظُّلم والغشْم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر^(٤)، والله أعلم.

وقد وردت أخبار بصفاتهم وخروجهم وأنهم ولد يافث. روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «وُلِدَ لنوح سامٌ وحامٌ ويافثٌ، فولد سامُ العربَ وفارسَ والرومَ، والخيرَ فيهم، وولد يافثُ يأجوجَ ومأجوجَ والتركَ والصقالبةَ، ولا خيرَ فيهم، وولد حامٌ القبطَ والبربرَ والسودانَ»^(٥).

(١) في الصحاح (أجج)، والبيت في ديوان روبة ص ٩٢، ورواية الشطر الأول هكذا:

والناس أحلفاً علينا شيعا

(٢) المحرر الوجيز ٥٤٢/٣.

(٣) في الحجة ١٧٣/٥.

(٤) المحرر الوجيز ٥٤٢/٣، والغشْم: الظلم والغصب. لسان العرب (غشم).

(٥) أخرجه البزار (٢١٨ كشف الأستار) وقال في إثره: لا نعلم أسنده عن النبي ﷺ إلا أبو هريرة بهذا =

وقال كعب الأحبار: احتلم آدم عليه السلام، فاختلط ماؤه بالتراب، فأسِف، فخلقوا من ذلك الماء، فهم متّصلون بنا من جهة الأب لا من جهة الأم^(١). وهذا فيه نظر؛ لأنّ الأنبياء - صلوات الله عليهم - لا يحتلمون^(٢)، وإنّما هم من ولد يافث، وكذلك قال مقاتل وغيره^(٣).

وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنّه قال: «لا يموت رجل منهم حتى يُولّد لصلبه ألف رجل»^(٤). يعني: يأجوج ومأجوج.

وقال أبو سعيد: هم خمس وعشرون قبيلةً من وراء يأجوج ومأجوج، لا يموت الرجل من هؤلاء ومن يأجوج ومأجوج حتى يَخْرُجَ من صلبه ألف رجل، ذكره القشيري.

وقال عبد الله بن مسعود: سألتُ النبي ﷺ عن يأجوج ومأجوج، فقال عليه الصلاة والسلام: «يأجوج ومأجوج أُمّتان، كلُّ أمةٍ أربع مئة ألف أمة^(٥)، كلُّ أمةٍ لا يَعْلَمُ عددها إلا الله، لا يموت الرجل منهم حتى يُولّد له ألف ذَكَرٍ من صُلْبِهِ، كلّهم قد حمل السلاح» قيل: يا رسول الله صِفْهُمْ لنا. قال: «هم ثلاثة أصناف، صِنْفٌ منهم أمثال الأرز - شجر بالشام، طول الشجرة عشرون ومئة ذراع - وصِنْفٌ عرضه وطوله

= الإسناد، تفرد به يزيد بن سنان، وتفرد به ابنه عنه، ورواه غيره مرسلًا، وإنّما جعله من قول سعيد. اهـ وأخرجه أحمد في العلل ٣/٣٥، وابن سعد في الطبقات ١/٤٢ - ٤٣، والحاكم في المستدرک ٤/٤٦٣ من قول سعيد بن المسيب.

(١) الوسيط ٣/١٦٧، وتفسير البغوي ٣/١٨١، والتذكرة ص ٦٩٦.

(٢) أخرج الطبراني في الكبير ١١/٢٢٥ (١١٥٦٤) وفي الأوسط (٨٠٥٨)، عن ابن عباس قال: ما احتلم نبي قط، إنّما الاحتلام من الشيطان. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/٢٦٧: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عبد العزيز بن أبي ثابت، وهو مجمع على ضعفه.

وأخرجه ابن عدي في الكامل ٣/٩٥٩ عن ابن عباس مرفوعاً.

(٣) التذكرة ص ٦٩٦.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/٤٠٠.

(٥) ليست في (د) و(ز).

سواء، نحواً من الذراع، وصُنِفَ يفتَرش أذنه ويلتحف بالأخرى، لا يمرُّون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ويأكلون من مات منهم، مُقدِّمَتهم بالشام وساقَتهم بخراسان، يشربون أنهارَ الشرق وبحيرة طبرية، فيمنعهم الله من مكَّة والمدينة وبيت المقدس^(١).

وقال عليٌّ ؑ: وصُنِفَ منهم في طول شبر، لهم مخالب وأنياب السباع، وتداعي الحمام، وتسافد البهائم، وغواء الذئب، وشعور تقيهم الحرَّ والبرد، وأذان عظام، إحداها وبرة يشتون فيها، والأخرى جلدة يصيفون فيها^(٢)، يحفرون السدَّ حتى كادوا ينقبونه، فيُعِده الله كما كان، فيقولون: ننقبه غداً إن شاء الله تعالى، فينقبونه ويخرجون، ويتحصَّن الناس بالحصون، فيرمون إلى السماء فيُرْدُ السهم عليهم ملطخاً بالدم، ثم يهلكهم الله تعالى بالتَّغْف^(٣) في رقابهم. ذكره الغزنوي.

وقال عليٌّ عن النبيّ ﷺ: «يأجوج أمة لها أربع مئة أمير، وكذا مأجوج لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده»^(٤).

قلت: وقد جاء مرفوعاً من حديث أبي هريرة، خرَّجه ابن ماجه في «السنن» قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ يأجوج ومأجوج يحفرون كلَّ يوم، حتى إذا كادوا يروْنَ شعاعَ الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيُعِده الله أشدَّ ما كان، حتى إذا بلغت مُدَّتْهم، وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس، حفروا، حتى إذا كادوا يروْنَ شعاعَ الشمس قال: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله تعالى، فاستثنوا، فيعودون إليه وهو كهيتته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس فينْشِفون الماء،

(١) أخرجه الطبري ٤٠٠/١٥ - ٤٠١ موقوفاً مختصراً، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٣٨٦٧) عن حذيفة بن اليمان ؓ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/٨: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه يحيى بن سعيد العطار، وهو ضعيف.

(٢) التذكرة ص ٦٩٦.

(٣) التَّغْف: دود يكون في أنوف البعير والغنم. النهاية (نغف).

(٤) التذكرة ص ٦٩٤.

وَيَتَحَصَّنَ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حَصُونِهِمْ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ عَلَيْهَا الدَّمُ الَّذِي اجْفَظَ^(١) فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ نَعْفًا فِي أَقْفَائِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُ وَتَشْكُرُ شُكْرًا مِنْ لَحُومِهِمْ»^(٢). قَالَ الْجَوْهَرِيُّ^(٣): شَكِرَتِ النَّاقَةُ تَشْكُرُ شُكْرًا فَهِيَ شَكِيرَةٌ، وَأَشْكُرُ الضَّرْعَ: امْتَلَأَ لَبَنًا.

وقال وهب بن منبه: رأهم ذو القرنين، وطول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منّا، لهم مخالب في مواضع الأظفار وأضراس وأنياب كالسباع، وأحنك كأحنك الإبل، وهم هُلْبٌ، عليهم من الشعر ما يُوارِيهم، ولكل واحد منهم أُذنان عظيمتان، يلتحف إحداهما ويفترش الأخرى، وكل واحد منهم قد عرف أجله، لا يَمُوتُ حتى يخرج له من صلبه ألف رجل إن كان ذكراً، ومن رحمها ألف أنثى إن كانت أنثى^(٤). وقال السُّدِّيُّ والضَّحَّاكُ: التَّرك: شِرْذِمَةٌ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ خَرَجَتْ تُغَيِّرُ، فَجَاءَ ذُو الْقَرْنَيْنِ فَضْرَبَ السَّدَّ، فَبَقِيَتْ فِي هَذَا الْجَانِبِ^(٥). قَالَ السُّدِّيُّ: بُنِيَ السَّدُّ عَلَى إِحْدَى وَعَشْرِينَ قَبِيلَةً، وَبَقِيَتْ مِنْهُمْ قَبِيلَةٌ وَاحِدَةٌ دُونَ السَّدِّ، فَهَمُ التُّرْكِ. وَقَالَ قَتَادَةُ.

(١) فِي النسخ: أَحْفَظَ. وَكَذَا فِي شَرْحِ السَّنْدِيِّ لِابْنِ مَاجَهَ ٥١٧/٢ حَيْثُ قَالَ: لَعَلَّ هَذَا مِنْ كَلَامِ الرَّائِي بِتَقْدِيرٍ: هَذَا الَّذِي أَحْفَظَهُ. اهـ. وَالمُثَبَّتُ مِنْ سَنَنِ ابْنِ مَاجَهَ (٤٠٨٠) وَشَرْحُهُ مَصْبَاحُ الزَّجَاجَةِ ٢٠١/٢. قَالَ السِّيُوطِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى سَنَنِ ابْنِ مَاجَهَ ٢٩٩/١: الَّذِي اجْفَظَ: أَيُّ مَلَأَهَا، أَيُّ: تَرْجِعُ السَّهْمَ عَلَيْهِمْ حَالُ كَوْنِ الدَّمِ مُحْفُوفًا وَمَمْتَلَأًا عَلَيْهَا، فَكَانَ قَوْلُهُ: عَلَيْهَا الدَّمُ اجْفَظَ: جُمْلَةً حَالِيَةً مِنْ قَوْلِهِ: فَتَرْجِعُ. فَلَفَظَ: جَفَظَ، مِنْ بَابِ احْمَرَّ مِنَ الْجَفَظِ. وَفِي الْقَامُوسِ (جَفَظَ): الْجَفِيزُ: الْمَقْتُولُ الْمَتَفَخُّ، وَالْجَفْظُ: الْمَلَأَ.

(٢) ابْنُ مَاجَهَ (٤٠٨٠)، وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا أَحْمَدُ (١٠٦٣٢)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣١٥٣)، وَالحَاكِمُ ٤٨٨/٤، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ وَقَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.

(٣) فِي الصَّحَاحِ (شُكِرَ)، وَفِيهِ: وَاشْتَكُرَ الضَّرْعَ، بَدَلُ: وَأَشْكُرُ الضَّرْعَ.

(٤) سَلَفُ ص ٣٧١ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ.

(٥) زَادَ الْمَسِيرَ ١٩٠/٥.

قلت: وإذا كان هذا، فقد نعت النبي ﷺ التُّركَ كما نعت يأجوجَ ومأجوجَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعةُ حتى يقاتلَ المسلمون التُّركَ، قوماً وجوهُهم كالمجانِّ المُطَرَّقة، يلبسون الشُّعرَ ويمشون في الشُّعر» في رواية: «ينتعلون الشُّعر» خرَّجه مسلم وأبو داود وغيرهما^(١).

ولما عَلِمَ النبي ﷺ عددهم وكثرتهم وحِدَّةَ شوكتهم قال عليه الصلاة والسلام: «اتركوا التُّركَ ما تركوكم»^(٢). وقد خرج منهم في هذا الوقت أُمم لا يُحصيهم إلا الله تعالى، ولا يردهم عن المسلمين إلا الله تعالى، حتى كأنَّهم يأجوج ومأجوج أو مُقدِّمتهم.

وروى أبو داود^(٣) عن أبي بَكْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «ينزل ناس من أمتي بغائط يسمونه البصرة عند نهر، يقال له: دِجْلَة، يكون عليه جِسْر، يكثر أهلها وتكون من أمصار المهاجرين» قال ابنُ يحيى: قال أبو معمر: «وتكون من أمصار المسلمين فإذا كان في آخر الزمان، جاء بنو قنطوراء عِراض الوجوه، صغار الأعين، حتى ينزلوا على شاطئ النهر، فيتفرَّق أهلها ثلاث فِرَق، فِرْقَة يأخذون أذنانَ البقر والبريَّة وهلكوا، وفِرْقَة يأخذون لأنفسهم وكفروا، وفِرْقَة يجعلون ذراريهم خَلْفَ ظهورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء». الغائط: المُطمئنُّ من الأرض. والبصرة: الحجارة الرخوة، وبها سُمِّيت البصرة. وبنو قنطوراء: هم التُّرك. يقال: إنَّ قنطوراء اسمُ جارية كانت لإبراهيمَ صلوات الله وسلامه عليه، ولدت له أولاداً جاء من نسلهم التُّرك^(٤).

(١) الرواية الأولى عند مسلم (٢٩١٢): (٦٥)، وأبي داود (٤٣٠٣)، والنسائي في المجتبى ٤٤/٦ - ٤٥، وهي عند البخاري (٢٩٢٨)، وأحمد (٧٢٦٣) بنحوه، والثانية عند مسلم (٢٩١٢): (٦٣)، وأبي داود (٤٣٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٠٢)، والنسائي في المجتبى ٤٣/٦ - ٤٤، والبيهقي في السنن الكبرى ١٧٦/٩ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

(٣) في سننه برقم (٤٣٠٦).

(٤) معالم السنن ١٦٨/٦.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ سَدًّا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ استفهام على جهة حُسن الأدب^(١). «خَرْجًا»: أي: جُعلًا. وقُري: «خراجًا»^(٢) والخرج أخَصُّ من الخراج. يقال: أَدَّ خَرْجَ رأسك وخَرْجَ مدينتك. وقال الأزهري^(٣): الخراج يقع على الضريبة، ويقع على مال الفيء، ويقع على الجزية، وعلى الغلَّة. والخراج: اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال. والخرج: المصدر^(٤).

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ سَدًّا﴾ أي: ردمًا، والردم: ما جعل بعضه على بعض حتى يتَّصل. وثوب مردم، أي: مرقع، قاله الهروي^(٥). يقال: رَدَمْتُ الثُّلْمَةَ أَرَدِمَهَا بالكسر ردمًا، أي: سدتها. والردم أيضاً الاسم، وهو السدُّ^(٦).

وقيل: الردم أبلغ من السدِّ، إذ السدُّ: كلُّ ما يسدُّ به، والردم: وَضْعُ الشيء على الشيء، من حجارة أو تراب أو نحوه، حتى يقوم من ذلك حجاب منيع. ومنه: رَدَمَ ثوبه، إذا رَفَعَهُ برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض. ومنه قول عنترة:

هَلْ غَادَرَ الشَّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ

أي: من قول يُرْكَبُ بعضه على بعض^(٧).

وقُري: «سدًّا»: بالفتح في السين، فقال الخليل وسيبويه: الضَّمُّ هو الاسم، والفتح المصدر. وقال الكسائي: الفتح والضَّمُّ لغتان بمعنى واحد. وقال عكرمة وأبو

(١) المحرر الوجيز ٥٤٢/٣.

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. السبعة ص ٤٠٠، والتيسير ص ١٤٦.

(٣) في تهذيب اللغة ٤٧/٧ - ٥٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤٧٣/٢.

(٥) في غريب الحديث ٤٣٧/٣ - ٤٣٨.

(٦) الصحاح (ردم)، وفيه: تردم ثوبه.

(٧) المحرر الوجيز ٥٤٢/٣، والبيت في ديوان عنترة ص ١٥، وتماه: أم هل عرفت الدار بعد توهم

عمرو بن العلاء وأبو عبيدة^(١): ما كان من خَلْقَةِ الله لم يشارك فيه أحد بعمل فهو بالضَّمِّ، وما كان من صُنْعِ البشر، فهو بالفتح. ويلزم أهل هذه المقالة أن يقرؤوا «سَدًّا» بالفتح، وقبله «بين السُّدَّيْنِ» بالضَّمِّ، وهي قراءة حمزة والكسائي^(٢). وقال أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكس ما قال أبو عبيدة. وقال ابن أبي إسحاق: ما رأته عينك فهو سُدٌّ، بالضَّمِّ، وما لا ترى فهو سَدٌّ، بالفتح.

الثانية: في هذه الآية دليل على اتِّخَاذِ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرُّف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضرباً ويحبسون أو يكفلون ويطلقون كما فعل عمر رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ المعنى: قال لهم ذو القرنين: ما بسطه الله تعالى لي من القُدرة والملك خيرٌ من خَرَجكم وأموالكم، ولكن أعينوني بقوة الأبدان، أي: برجال وعمل منكم بالأبدان^(٣)، والآلة التي أبني بها الردم، وهو السَّدُّ. وهذا تأييد من الله تعالى لذي القرنين في هذه المحاوراة، فإنَّ القوم لو جمعوا له خراجاً لم يعنه أحدٌ وَلَوَكَّلُوهُ إِلَى البنيان، ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع في انقضاء هذا العمل، وربما أربى ما ذكره له على الخرج.

وقرأ ابن كثير وحده: «مَا مَكَّنِّي» بنونين، وقرأ الباقون: «مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي»^(٤).

الثانية: في هذه الآية دليل على أَنَّ المَلِكَ فرضٌ عليه أن يقوم بحماية الخَلْقِ في

(١) في مجاز القرآن ٤١٤/١، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥٤١/٣ وما قبله منه، وقرأ بالفتح حمزة والكسائي. السبعة ص ٣٩٩، والتيسير ص ١٤٦.

(٢) السبعة ص ٣٩٩، والتيسير ص ١٤٥، وحجة القراءات للفراسي ١٧١/٥، والكلام من المحرر الوجيز ٥٤١/٣ وما بعده منه أيضاً.

(٣) المحرر الوجيز ٥٤٢/٣.

(٤) السبعة ص ٤٠٠، والتيسير ص ١٤٦.

حفظ بيضتهم، وسدّ فرجتهم، وإصلاح ثغورهم، من أموالهم التي تفيء عليهم، وحقوقهم التي تجمعها خزنتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتها الحقوق، وأنفدتها المؤمن، لكان عليهم جَبْرُ ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر لهم، وذلك بثلاثة شروط:

الأول: ألا يستأثر عليهم بشيء.

الثاني: أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم.

الثالث: أن يسوّي في العطاء بينهم على قدر منازلهم، فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صُفْراً فأطلعتِ الحوادثُ أمراً، بذلوا أنفسهم قبل أموالهم، فإن لم يَغْنِ ذلك فأموالهم تُؤْخَذُ منهم على تقدير، وتُصَرَّفُ بتدبير، فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال في أن يكفّ عنهم ما يحذرونه من عادية يأجوج ومأجوج، قال: لستُ أحتاج إليه، وإنّما أحتاج إليكم ﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: اخدموا بأنفسكم معي، فإنّ الأموال عندي والرجال عندكم، ورأى أنّ الأموال لا تغني عنهم، فإنّه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه، فيعود بالأجر عليهم، فكان التطوُّع بخدمة الأبدان أولى. وضابط الأمر أنّه لا يحلُّ مالٌ أحدٍ إلا لضرورة تُعرِّض، فيؤخذ ذلك المال جهراً لا سراً، وينفق بالعدل لا بالاستئثار، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالأمر، والله تعالى الموفق للصواب^(١).

قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي: أعطوني زُبَرَ الحديد وناولونيها. أمرهم بنقل الآلة، وهذا كلّهُ إنّما هو استدعاء العطية التي بغير معنى الهبة، وإنّما هو استدعاء للمناولة؛ لأنّه قد ارتبط من قوله: إنّهُ لا يأخذ منهم الخرج، فلم يبقَ إلا استدعاء المناولة، وأعمال الأبدان^(٢).

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢٣٦.

(٢) المحرر الوجيز ٣/٥٤٣.

و«زُبَرَ الْحَدِيدُ»: قَطَعَ الحديد. وأصل الكلمة: الاجتماع، ومنه: زُبْرَةُ الأسد؛ لما اجتمع من الشعر على كاهله. وزبرتُ الكتابَ، أي: كتبتُه وجمعت حروفه^(١).

وقرأ أبو بكر والمفضل: «ردماً ايتوني»^(٢) من الإتيان الذي هو المجيء، أي: جيئوني بِزُبَرِ الحديد، فلما سقط الخافض انتصب الفعل، على نحو قول الشاعر:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ . . .

حذف الجار فنصب الفعل^(٣). وقرأ الجمهور: «زُبَرَ» بفتح الباء. وقرأ الحسن: بضمّها، وكلُّ ذلك جمع زُبْرَة، وهي القطعة العظيمة منه^(٤).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَتْكُمَا بِلَآءٍ مِّمَّنْ جَاءَكُمُ الْمَوْتُ﴾ يعني: البناء، فحذف لقوّة الكلام عليه. ﴿بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ قال أبو عبيدة^(٥): هما جانبَا الجبل، وسُمِّيَا بذلك؛ لتصادفهما، أي: لتلاقيهما. وقاله الهروي^(٦) وابن عباس^(٧)، كأنّه يُعْرَضُ عن الآخر، من الصدوف، قال الشاعر:

كَلَا الصَّدَفَيْنِ يَنْفُذُهُ سَنَاهَا تَوَقَّدَ مِثْلَ مِصْبَاحِ الظَّلَامِ^(٨)

ويقال للبناء المرتفع: صدف، تشبيهه بجانب الجبل. وفي الحديث: كان إذا مرَّ

(١) تهذيب اللغة ١٣/١٩٦ - ١٩٨ ، والصاحح (زبر).

(٢) قراءة أبي بكر في السبعة ص ٤٠١ ، والتيسير ص ١٤٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/٥٤٣ ، والبيت لعمر بن معديكرب وهو في ديوانه ص ٣٥ ، وسلف ٤/١٢٣ وهو بتمامه:

أمرتُك الخيرَ فاصنع ما أمرتُ به فقد تركتُك ذا مالٍ وذا نسبٍ

(٤) المحرر الوجيز ٣/٥٤٣ ، والقراءة في البحر المحيط ٦/١٦٤ .

(٥) في مجاز القرآن ١/٤١٤ .

(٦) في (ز) و(د) و(ف): الزهري، والمثبت من (ظ) وزاد المسير ٥/١٩٣ ، والكلام في تهذيب اللغة ١٢/١٤٦ .

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٥/٤٠٦ .

(٨) النكت والعيون ٣/٣٤٣ ونسبه لعمر بن شاش.

بصدف مائل أسرع المشي. قال أبو عبيد^(١): الصدف والهدف: كلُّ بناء عظيم مرتفع. ابن عطية: الصَّدَفَان: الجبلان المتناوحيان^(٢)، ولا يقال للواحد: صَدَف، وإنما يقال: صَدَفَان، للاثنيين؛ لأنَّ أحدهما يصادف الآخر. وقرأ نافع وحمة والكسائي: «الصَّدْفَيْنِ»: بفتح الصاد وشدّها وفتح الدال، وهي قراءة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعمر ابن عبد العزيز، وهي اختيار أبي عبيدة؛ لأنها أشهر اللغات. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو «الصَّدْفَيْنِ»: بضمّ الصاد والدال. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر «الصَّدْفَيْنِ»: بضمّ الصاد وسكون الدال، نحو الجُرْف والجُرْف. فهو تخفيف. وقرأ ابن الماجشون: بفتح الصاد وضمّ الدال. وقرأ قتادة: «بين الصَّدْفَيْنِ» بفتح الصاد وسكون الدال، وكلُّ ذلك بمعنى واحد، وهما الجبلان المتناوحيان^(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْفُخُوا﴾ إلى آخر الآية، أي: على زُبُر الحديد بالأكيار، وذلك أنّه كان يأمر بوضع طاقة من الزُّبُر والحجارة، ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى، والحديد إذا أُوقد عليه صار كالنار، فذلك قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا» ثم يُؤْتَى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد بحسب الخلاف في القطر، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة، فإذا التأم واشتدَّ ولصق البعض ببعض، استأنف وُضِع طاقة أخرى، إلى أن استوى العمل فصار جبلاً صَليداً^(٤).

قال قتادة: هو كالبرْد المحبَّر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء^(٥).

ويُروى أَنَّ رسولَ الله ﷺ جاءه رجل فقال: يا رسولَ الله! إنِّي رأيت سَدَّ يَأْجُوج

(١) في غريب الحديث ١/٧٧ - ٧٨، وما قبله منه، والحديث أورده ابن الأثير في النهاية (صدف).

(٢) التناوح: التقابل. القاموس (نوح)، والكلام من المحرر الوجيز ٣/٥٤٣ وما بعده منه.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٥٤٣، وينظر مجاز القرآن ١/٤١٤، والسبعة ص ٤٠١، والتيسير ص ١٤٦، وزاد المسير ١٩٢/٥ - ١٩٣.

(٤) المحرر الوجيز ٣/٥٤٣.

(٥) الوسيط ٣/١٦٨، وتفسير البغوي ٣/١٨٢.

ومأجوج، قال: «كيف رأيته» قال: رأيته كالبرد المحبّر، طريقة صفراء، وطريقة حمراء، وطريقة سوداء، فقال رسول الله ﷺ: «قد رأيته»^(١).

ومعنى ﴿حَقَّ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ أي: كالنار. ومعنى ﴿مَأْتُونٍ أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ أي: أعطوني قطراً أفرغ عليه، على التقديم والتأخير. ومن قرأ: «اثنوني» فالمعنى عنده: تعالوا أفرغ عليه نحاساً.

والقِطْر عند أكثر المفسرين: النحاس المذاب^(٢)، وأصله من القَطْر؛ لأنه إذا أذيب، قَطَرَ كما يقطر الماء. وقالت فرقة: القِطْر: الحديد المذاب^(٣). وقالت فرقة منهم ابن الأنباري: الرصاص المذاب. وهو مشتق من قَطَرَ يَقْطُر قَطْراً^(٤). ومنه: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَمَّ عَيْنَ الْقَاطِرِ﴾ [سبا: ١٢].

قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أي: ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه؛ لأنه أَمْلَسُ مُسْتَوٍ مع الجبل، والجبل عالٍ لا يُرام^(٥). وارتفاع السدّ متنا ذراع وخمسون ذراعاً^(٦). روي في طوله ما بين طَرَفِي الجبلين مئة فَرَسَخ، وفي عرضه خمسون فرسخاً^(٧)، قاله وهب بن منبه.

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢٧٥٨)، وابن حجر في تغليق التعليق ١٢/٤ عن أبي بكره الثقفي. قال ابن حجر: هذا إسناد صحيح إلى قتادة، فإن كان سمعه من هذا الرجل فهو حديث صحيح، لأن عدم معرفة اسم الصحابي لا تضر عند الجمهور لأن كلهم عدول، ولكن قد اختلف فيه على قتادة... اهـ. وأخرجه الطبري ٤٠٤/١٥ عن قتادة مرسلًا.

(٢) المحرر الوجيز ٥٤٣/٣، وأخرجه الطبري ٤٠٩/١٥ ونسبه لابن عباس ومجاهد وقاتدة والضحاك.

(٣) منهم أبو عبيدة في مجاز القرآن ٤١٥/١.

(٤) المحرر الوجيز ٥٤٣/٣.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣١٢/٣.

(٦) النكت والعيون ٣٤٤/٣.

(٧) المحرر الوجيز ٥٤٣/٣.

﴿وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْبًا﴾ بُعِدَ عَرْضُهُ وَقَوَّتُهُ، وروى في «الصحيح»^(١) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «فُتِحَ اليومَ من رَذَمٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَعَقَدَ وَهَبُ بْنُ مَنبِهِ بِيَدِهِ تَسْعِينَ - وَفِي رِوَايَةٍ - وَحَلَّقَ بِإصْبَعِهِ الْإِبْهَامَ وَالَّتِي تَلِيهَا، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

وذكر يحيى بن سلام، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي رافع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَخْرُقُونَ السِّدَّ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شِعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسْتَخْرِقُونَهُ غَدًا، فَيُعِيدُهُ اللَّهُ كَأَشَدُّ مَا كَانَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مِدَّتُهُمْ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ، حَفَرُوا حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شِعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسْتَخْفِرُونَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرْكُوهُ، فَيَخْرِقُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ» الْحَدِيثُ وَقَدْ تَقَدَّمَ (٢).

قوله تعالى: «فَمَا اسْتَطَاعُوا» بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور. وقيل: هي لغة بمعنى استطاعوا. وقيل: بل استطاعوا بعينه، كثر في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء فقالوا: استطاعوا. وحذف بعضهم منه الطاء فقال: استطاع يستطيع، بمعنى استطاع يستطيع، وهي لغة مشهورة. وقرأ حمزة وحده: «فَمَا اسْتَطَاعُوا» بتشديد الطاء، كأنه أراد: استطاعوا، ثم أدغم التاء في الطاء فشَدَّدها، وهي قراءة ضعيفة الوجه، قال أبو علي: هي غير جائزة. وقرأ الأعمش: «فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا» بالتاء في الموضعين^(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي﴾ القائل: ذو القرنين، وأشار بهذا إلى الردم،

(١) البخاري (٣٣٤٧)، ومسلم (٢٨٨١) واللفظ له.

(٢) ص ٣٨٠ من هذا الجزء.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥، وقراءة حمزة في السبعة ص ٤٠١، والتيسير ص ١٤٦، وكلام أبي علي في الحجة ١٧٨/٥.

والقوّة عليه، والانتفاع به في دفع ضرر يأجوج ومأجوج. وقرأ ابن أبي عبلة: «هذه رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي»^(١).

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: يوم القيامة. وقيل: وقت خروجهم^(٢).
﴿جَعَلَهُ دَكَّاءً﴾ أي: مستوياً بالأرض، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ﴾ [الفجر: ٢١] قال ابن عرفة: أي: جعلت مستوية لا أكمة فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءً﴾ [الأعراف: ١٤٣] قال اليزيدي: أي: مستوياً، يقال: ناقة دكاء: إذا ذهب سنامها. وقال القتيبي^(٣): أي: جعله مذكوكاً ملصقاً بالأرض. وقال الكلبي: قطعاً متكسراً، قال:

هل غيرُ غادٍ دَكٌّ غاراً فانهدم^(٤)

وقال الأزهري: يقال: دكته، أي: دققته. ومن قرأ: «دكَّاء» أراد جعل الجبل أرضاً دكَّاء: وهي الراية التي لا تبلغ أن تكون جبلاً، وجمعها دكاوات^(٥).

وقرأ حمزة وعاصم والكسائي «دكاء» بالمد على التشبيه بالناقة الدكَّاء، وهي التي لا سنام لها، وفي الكلام حذف، تقديره: جعله مثل دكاء، ولا بد من تقدير هذا الحذف؛ لأنَّ السد مذكر فلا يوصف بدكَّاء. ومن قرأ: «دكَّاء» فهو مصدر دَكَّ يدك، إذا هدم ورضّ، ويحتمل أن يكون «جعل» بمعنى خَلَق. وينصب «دكَّاء» على الحال. وكذلك النصب أيضاً في قراءة من مدَّ يحتمل الوجهين^(٦).

(١) المحرر الوجيز ٥٤٤/٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في غريب القرآن ص ٢٧١.

(٤) النكت والعيون ٣/٣٤٥، ونسب البيت لأغلب.

(٥) ينظر الصحاح (دكك)، وتهذيب اللغة ٩/٤٣٦ - ٤٣٨.

(٦) المحرر الوجيز ٥٤٤/٣، والقراءة في السبعة ص ٤٠٢، والتيسير ص ١٤٦، والحجة ٥/١٨٢ - ١٨٣.

قوله تعالى: ﴿وَرَكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ بِمُوجٍ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْهُمْ جَمْعًا ۝٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْنِ أَوْلِيَائِهِ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۝١٠٢ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝١٠٥ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا عِبَادِي ورُسُلِي هُزُلًا ۝١٠٦ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوْلًا ۝١٠٨ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ۝١٠٩ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝١١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ بِمُوجٍ فِي بَعْضٍ﴾ الضمير في «تركنا» لله تعالى، أي: تركنا الجنَّ والإنس يوم القيامة يموج بعضهم في بعض. وقيل: تركنا يأجوجَ ومأجوجَ «يومئذ» أي: وقت كمال السدِّ يموج بعضهم في بعض. واستعارة الموج لهم عبارة عن الحيرة، وتردُّد بعضهم في بعض، كالمولهي من همٍّ وخوف، فشبههم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض^(١). وقيل: تركنا يأجوجَ ومأجوجَ يوم انفتاح السدِّ يمجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم^(٢).

قلت: فهذه ثلاثة أقوال، أظهرها أوسطها، وأبعدها آخرها، وحسن الأول؛ لأنه تقدَّم ذكر القيامة في تأويل قوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي»، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ تقدَّم في «الأنعام»^(٣). ﴿فُجِعَتْهُمْ جَمْعًا﴾ يعني: الجنَّ

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٦٥.

(٢) الوسيط ٣/ ١٦٩.

(٣) ٤٣٠/ ٨.

والإنسَ في عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي: أبرزناها لهم ^(١) ﴿يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ في موضع خفض، نعت «للكافرين» ﴿فِي غَطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أي: هم بمنزلة من عينه مغطاة، فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى ^(٢) ﴿وَكَاثُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يطيعون أن يسمعوا كلامَ الله تعالى، فهم بمنزلة مَنْ صَمَّ.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ظنَّ. وقرأ عليٌّ وعكرمة ومجاهد وابن محيصن: «أَفَحَسِبُ» بإسكان السين وضَمَّ الباء، أي: كَفَّاهُمْ. ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ يعني: عيسى والملائكة وعزيراً ^(٣) ﴿مِن دُونِ آيَاتِهِ﴾ ولا أعاقبهم؟! ففي الكلام حذف. وقال الزجاج: المعنى: أفحسبوا أن ينفعهم ذلك. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ إلى قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الآية، فيه دلالة على أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْمَلُ الْعَمَلَ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مُحْسِنٌ، وَقَدْ خَبِطَ سَعِيهِ، وَالَّذِي يُوْجِبُ إِحْبَاطَ السَّعْيِ إِمَّا فِسَادُ الْإِعْتِقَادِ أَوْ الْمَرَاءَةُ، وَالْمُرَادُ هُنَا الْكُفْرُ ^(٤). روى البخاري ^(٥) عن مصعبٍ قال: سألت أبي: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ أَمُّ الْحُرُورِيَّةِ؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى. أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة، فقالوا: لا طعامَ فيها ولا شراب، والحرورية: ﴿الَّذِينَ يَتَفَضَّلُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧٥.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٢، والقراءة قرأ بها علي وابن عباس وابن يعمر والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن كثير بخلاف ونعيم بن ميسرة والضحاك ويعقوب وابن أبي ليلى. القراءات الشاذة ص ٨٢، والمحتسب ٢/ ٣٤.

(٤) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٢٦٨.

(٥) في صحيحه برقم (٤٧٢٨).

مِثْقَلِ ذَرَّةٍ [البقرة: ٢٧] وكان سعد يُسمِّيهم الفاسقين.

والآية معناها التوبيخ، أي: قل لهؤلاء الكفرة الذين عبدوا غيري: يخيب سعيهم وآمالهم غداً، فهم الأخسرون أعمالاً، وهم ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ في عبادة من سواي. قال ابن عباس: يريد كفار أهل مكة. وقال علي: هم الخوارج أهل حروراء^(١). وقال مرة: هم الرهبان أصحاب الصوامع^(٢). وروي أن ابن الكواء سأله عن الأخسرين أعمالاً فقال له: أنت وأصحابك^(٣). قال ابن عطية^(٤): ويضعف هذا كله قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ وليس من هذه الطوائف من يكفر بالله ولقائه والبعث والنشور، وإنما هذه صفة مشركي مكة عبدة الأوثان، وعلي وسعد رضي الله عنهما ذكرا أقواماً أخذوا بحطّهم من هذه الآية. و«أعمالاً» نصب على التمييز. و«حبطت» قراءة الجمهور: بكسر الباء. وقرأ ابن عباس «حبطت»: بفتحها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ قراءة الجمهور: «نقيم» بنون العظمة. وقرأ مجاهد: بياء الغائب، يريد: فلا يقيم الله عز وجل. وقرأ عبيد بن عمير: «فلا يقوم»، ويلزمه أن يقرأ: «وزن»، وكذلك قرأ مجاهد: «فلا يقوم لهم يوم القيامة وزن»^(٥). قال عبيد بن عمير: يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكل الشروب فلا يزُن عند الله جناح بعوضة^(٦).

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/٤١٣، ومن طريقه الطبري ١٥/٤٢٦ - ٤٢٧.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/٤٢٣ - ٤٢٤، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ١/١٩٥ - ١٩٦.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/٤٢٦.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/٥٤٥، وقرأه ابن عباس ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٦/١٦٧.

(٥) المحرر الوجيز ٣/٥٤٦ - ٥٤٧، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٨٢، والبحر المحيط ٦/١٦٧، وذكرها العكبري في إملأ ما من به الرحمن ٣/٥٤١ دون نسبة.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/١٦٩ - ١٧٠، وابن أبي حاتم في التفسير ٥/١٤٤٠ (٨٢٢٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٣/٢٧٠.

قلت: هذا لا يقال مثله من جهة الرأي، وقد ثبت معناه مرفوعاً في «صحيح البخاري ومسلم»^(١) عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾». والمعنى: أنهم لا ثواب لهم، وأعمالهم مقابلة بالعذاب، فلا حسنة لهم توزن في موازين القيامة، ومن لا حسنة له فهو في النار. وقال أبو سعيد الخدري: يؤتى بأعمال كجبال تهامة، فلا تزن شيئاً. وقيل: يحتمل أن يريد المجاز والاستعارة، كأنه قال: فلا قدر لهم عندنا يومئذ^(٢)، والله أعلم.

وفي هذا الحديث من الفقه ذم السمن لمن تكلفه؛ لما في ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم، بل يدل على تحريم الأكل الزائد على قدر الكفاية المبتغى به الترفه والسمن. وقد قال ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الحبر السمين». ومن حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم - قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة - ثم إن من بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يؤفون، ويظهر فيهم السمن» وهذا ذم. وسبب ذلك أن السمن المكتسب إنما هو من كثرة الأكل والشرة، والدعة والراحة والأمن والاسترسال مع النفس على شهواتها، فهو عبد نفسه لا عبده ربّه، ومن كان هذا حاله، وقع لا محالة في الحرام^(٣)، وكل لحم تولد عن سحت، فالنار أولى به، وقد ذم الله تعالى الكفار بكثرة الأكل فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢] فإذا كان المؤمن يتشبه بهم، ويتنعم بتنعمهم في كل أحواله وأزمانه، فأين حقيقة الإيمان، والقيام بوظائف

(١) البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥.

(٣) المفهم ٣٥٩/٧ - ٣٦٠، والحديث الأول سلف ٨/ ٤٥٥، وحديث عمران أخرجه البخاري

(٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥): (٢١٥).

الإسلام؟! ومن كثر أكله وشربه، كثر نَهْمُهُ وحرصه، وزاد بالليل كسله ونومه، فكان نهاره هائماً، وليله نائماً. وقد مضى في «الأعراف» هذا المعنى^(١)، وتقدّم فيها ذكر الميزان^(٢)، وأن له كفتين توزن فيهما صحائف الأعمال فلا معنى للإعادة.

وقال عليه الصلاة والسلام حين ضحكوا من حَمْش ساقِ ابنِ مسعود وهو يصعد النخلة: «تضحكون من ساقٍ تُوزَنُ بعمل أهل الأرض»^(٣) فدلّ هذا على أنَّ الأشخاص تُوزَنُ، ذكره الغزنوي.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ «ذلك» إشارة إلى ترك الوزن، وهو في موضع رفع بالابتداء، «جزاؤهم» خبره، و﴿جَهَنَّمَ﴾ بدل من المبتدأ الذي هو «ذلك»، و«ما» في قوله: ﴿يَمَّا كَفَرُوا﴾ مصدرية، والهزة: الاستخفاف والسُّخْرية^(٤)، وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ قال قتادة: الفردوس رُبُوعُ الْجَنَّةِ وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها^(٥). وقال أبو أمامة الباهلي: الفردوس سُورَةُ الْجَنَّةِ^(٦). وقال كعب: ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس،

(١) ١٩٦/٩.

(٢) ١٥٦/٩.

(٣) أخرجه أحمد (٩٢٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٣٧)، وأبو يعلى (٥٥٥)، والطبراني في الكبير (٨٥١٦) من حديث علي بن أبي طالب بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٨٨/٩ - ٢٨٩ بعد أن عزاه إلى أحمد وأبي يعلى والطبراني: رجالهم رجال الصحيح غير أم موسى، وهي ثقة.

وأخرجه أيضاً أحمد (٣٩٩١)، والبخاري (٢٦٧٨)، وأبو يعلى (٥٣١٠)، والطبراني في الكبير (٨٤٥٢)، وأبو نعيم في الحلية ١٢٧/١ من حديث عبد الله بن مسعود بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٨٩/٩: رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري والطبراني من طرق... وأمثل طرقها فيه عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح. اهـ واستحشم الرجل حَمْشاً وَحَمْشاً: صار دقيق الساقين.

(٤) المحرر الوجيز ٥٤٦/٣.

(٥) أخرجه الطبري ٤٣١/١٥، والبيهقي في السنن الكبرى ١٦٧/٩.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤٨/١٣، والطبري ٤٣١/١٥.

فيها الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر^(١). وفي «صحيح البخاري»^(٢) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أو جلس في أرضه التي ولد فيها» قالوا: يا رسول الله أفلا نبشّر الناس؟ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِثَّةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ما بين الدرجَتَيْنِ كما بين السماء والأرض، فإذا سألتُم اللَّهَ تَعَالَى فاسأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَأَاهُ قَالَ: - وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ».

وقال مجاهد: والفردوس: البستان بالرومية^(٣). الفراء^(٤): هو عربي. والفردوس: حديقة في الجنة. وفردوس: اسم روضة دون اليمامة. والجمع فراديس، قال أمية بن أبي الصلت الثقفي:

كَانَتْ مَنَازِلُهُمْ إِذْ ذَاكَ ظَاهِرَةً فِيهَا الْفَرَادِيسُ وَالْفُومَانُ وَالْبِصْلُ
وَالْفَرَادِيسُ: مَوْضِعٌ بِالشَّامِ. وَكَرَّمَ مُفَرَّدَسٌ، أَي: مُعَرَّشٌ^(٥).

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَي: دَائِمِينَ. ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أَي: لَا يَطْلُبُونَ تَحْوِيلًا عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا. وَالْحَوْلُ: بِمَعْنَى التَّحْوِيلِ، قَالَهُ أَبُو عَلِيٍّ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ^(٦): حَالٌ مِنْ مَكَانِهِ حَوْلًا كَمَا يَقَالُ: عَظُمَ عِظْمًا. قَالَ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحِيلَةِ، أَي: لَا يَحْتَالُونَ مَنْزِلًا غَيْرَهَا. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ^(٧): التَّحَوُّلُ: التَّنَقُّلُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، وَالْإِسْمُ: الْحَوْلُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا».

(١) أخرجه الطبري ٤٣١/١٥ ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٣٨٠/٥ .

(٢) برقم (٢٧٩٠).

(٣) أخرجه الطبري ٤٣٢/١٥ .

(٤) في معاني القرآن ٢٣١/٢ .

(٥) الصحاح (فردس)، دون قول أمية، وهو في ديوانه ص ٩٨ .

(٦) في معاني القرآن ٣١٥/٣ .

(٧) في الصحاح (حول).

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ نفد الشيء: إذا تم وفرغ، وقد تقدّم. ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ أي: زيادة على البحر عدداً أو وزناً. وفي مصحف أبي: «مِدَاداً» وكذلك قرأها مجاهد وابن محيصن وحמיד^(١). وانتصب «مدداً» على التمييز أو الحال^(٢).

وقال ابن عباس: قالت اليهود لما قال لهم النبي ﷺ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] قالوا: وكيف وقد أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فنزلت: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ الآية^(٣).

وقيل: قالت اليهود: إنك أوتيت الحكمة، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، ثم زعمت أنك لا علم لك بالروح؟! فقال الله تعالى قل: وإن أوتيت القرآن وأوتيت التوراة، فهي بالنسبة إلى كلمات الله تعالى قليلة^(٤). قال ابن عباس: «كَلِمَاتُ رَبِّي» أي: مواعظ ربي. وقيل: عنى بالكلمات الكلام القديم الذي لا غاية له ولا منتهى، وهو وإن كان واحداً فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع؛ لما فيه من فرائد الكلمات، ولأنه ينوب منابها، فجازت العبارة عنها بصيغة الجمع؛ تفخيماً، وقال الأعشى:

ووجهٌ نقيُّ اللونٍ صافٍ يزيئُهُ مع الجيدِ لبَّاتٌ لها ومَعاصِمُ^(٥)
فَعَبَّرَ بِاللَّبَّاتِ عَنِ اللَّبَّةِ. وفي التنزيل: ﴿نَحْنُ أَوْلَىٰ أَوَّلَاتِكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] و﴿إِنَّا نَحْنُ
نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] و﴿إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُثَبِّتُ﴾ [الحجر: ٢٣] وكذلك: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

(١) القراءات الشاذة ص ٨٢، والمحتسب ٣٥/٢، والبحر المحيط ١٦٩/٦، وذكرها الأخفش في معاني القرآن ٦٢٣/٢، وأبو الليث في التفسير ٣١٥/٢، والطبري ٤٣٨/١٥.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣١٦/٣.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٣٠٨، وتفسير البغوي ١٨٦/٣.

(٤) السيرة النبوية ٣٠٨/١، وتفسير أبي الليث ٣١٥/٢ بنحوه.

(٥) ديوان الأعشى ص ١٢٧، واللُّبَّة: المنحر. القاموس (لبب).

كَانَ أُمَّةً ﴿[النحل: ١٢٠] لَأَنَّهُ نَابَ مِنْابَ أُمَّةٍ. وقيل: أي ما نفدت العبارات والدلالات التي تدل على مفهومات معاني كلامه سبحانه وتعالى^(١). وقال السُّدِّيُّ: أي: إن كان البحر مداداً لكلمات ربِّي لنفد البحر قبل أن تنفد صفات الجنة التي هي دار الثواب. وقال عكرمة: لنفد البحر قبل أن ينفد ثواب من قال: لا إله إلا الله. ونظير هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. وقرأ حمزة والكسائي: «قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ» بالياء؛ لتقدم الفعل^(٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: لا أعلم إلا ما يعلمني الله تعالى، وعلم الله تعالى لا يحصى، وإنما أمرت بأن أبلغكم بأنه لا إله إلا الله. ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: يرجو رؤيته وثوابه، ويخشى عقابه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ قال ابن عباس: نزلت في جُندب بن زهير العامري، قال: يا رسول الله إنني أعمل العمل لله تعالى، وأريد وجه الله تعالى، إلا أنه إذا أُطلع عليه سرّني، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَلَا يَقْبَلُ مَا شُورَكَ فِيهِ» فنزلت الآية. وقال طاوس: قال رجل: يا رسول الله! إنني أحبُّ الجهاد في سبيل الله تعالى، وأحبُّ أن يرى مكاني، فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد: جاء رجلٌ للنبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنني أتصدّق وأصلُّ الرِّجَمَ ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى، فيذكر ذلك مني وأحمد عليه فيسرّني ذلك وأعجب به، فسكت رسولُ الله ﷺ ولم يقل شيئاً، فأنزل الله تعالى: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٣).

قلت: والكلُّ مراد، والآية تعمُّ ذلك كلّه وغيره من الأعمال. وقد تقدّم في سورة «هود»^(٤) حديث أبي هريرة الصحيح في الثلاثة الذين يقضى عليهم أوّل الناس. وقد

(١) المحرر الوجيز ٥٤٧/٣.

(٢) السبعة ص ٤٠٢، والتيسير ص ١٤٦.

(٣) أسباب النزول للواحي ص ٣٠٨.

(٤) ٨٤/١١.

تقدّم في سورة النساء^(١) الكلام على الرياء، وذكرنا من الأخبار هناك ما فيه كفاية.

وقال الماوردي^(٢) وقال جميع أهل التأويل: معنى قوله تعالى: «وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» إنه لا يرائي بعمله أحداً. وروى الترمذي الحكيم رحمه الله تعالى في «نوادير الأصول»^(٣) قال: حدّثنا أبي رحمه الله تعالى قال: حدّثنا مكّي بن إبراهيم قال: حدّثنا عبد الواحد بن زيد، عن عبادة بن نسي، قال: أتيت شداد بن أوس في مصلاه وهو يبكي، فقلت: ما الذي أبكاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ يوماً، إذ رأيت بوجهه أمراً ساءني فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما الذي أرى بوجهك؟ قال: «أمراً أتخوفه على أمّتي من بعدي» قلت: ما هو يا رسول الله؟ قال: «الشرك والشهوة الخفية» قلت: يا رسول الله! وتُشرك أمّتك من بعدك؟ قال: «يا شداد أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً، ولكنهم يُراؤون بأعمالهم. قلت: والرياء شرك هو؟ قال: «نعم». قلت: فما الشهوة الخفية؟ قال: «يُصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوات الدنيا فيفطر». قال عبد الواحد: فلقيت الحسن، فقلت: يا أبا سعيد! أخبرني عن الرياء أشرك هو؟ قال: نعم، أما تقرأ: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

وروى إسماعيل بن إسحاق قال: حدّثنا محمد بن أبي بكر قال: حدّثنا المعتمر ابن سليمان، عن ليث، عن شهر بن حوشب قال: كان عبادة بن الصامت وشداد بن أوس جالسين، فقالا: إننا نتخوف على هذه الأمة من الشرك والشهوة الخفية، فأما الشهوة الخفية فمن قبل النساء. وقالوا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «من صلى صلاة يراني بها فقد أشرك، ومن صام صياماً يراني به فقد أشرك» ثم تلا: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾.

(١) ٢٩٩/٦.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٣٥٠.

(٣) ص ٤٠٠ بدون إسناد، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٧١٤٤)، والحاكم في المستدرک ٤/ ٣٣٠، وأبو نعیم في الحلیة ١/ ٢٦٨، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٣٠) من طرق، عن عبد الواحد بن زيد، به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: عبد الواحد بن زيد متروك.

رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا^(١).

قلت: وقد جاء تفسير الشهوة الخفية بخلاف هذا، وقد ذكرناه في «النساء»^(٢). وقال سهل بن عبد الله: وسئل الحسن عن الإخلاص والرياء فقال: من الإخلاص أن تحب أن تُكتم حسناتك، ولا تحب أن تُكتم سيئاتك، فإن أظهر الله عليك حسناتك تقول: هذا من فضلك وإحسانك، وليس هذا من فعلي ولا من صنيعي، وتذكر قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ الآية [المؤمنون: ٦٠]، يؤتون الإخلاص، وهم يخافون ألا يُقبل منهم، وأما الرياء: فطلب حظ النفس من عملها في الدنيا، قيل له: كيف يكون هذا؟ قال: من طلب بعمل بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة، فهو رياء.

وقال علماؤنا رضي الله تعالى عنهم: وقد يُفضي الرياء بصاحبه إلى استهزاء الناس به، كما يُحكى أن طاهر بن الحسين قال لأبي عبد الله المروزي: منذ كم صرت إلى العراق يا أبا عبد الله؟ قال: دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائمٌ. فقال: يا أبا عبد الله سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين. وحكى الأصمعي أن أعرابياً صلى فأطال، وإلى جانبه قوم، فقالوا: ما أحسن صلاتك؟! فقال: وأنا مع ذلك صائم^(٣). أين هذا من قول الأشعث بن قيس وقد صلى فخفف، فقيل له: إنك خففت. فقال: إنه لم يُخالطها رياء^(٤). فخلص من تنقصهم بنفي الرياء

(١) أخرجه الطيالسي (١٢١٦)، وأحمد (١٧١٤٠)، والبخاري (٣٤٨٢)، والطبراني في الكبير (٧١٣٩)، والحاكم في المستدرک ٣٢٩/٤، وأبو نعيم في الحلية ٢٦٨/١ - ٢٦٩، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٤٤) من طرق، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، عن شداد بن أوس بنحوه، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٠/١٠ - ٢٢١: رواه أحمد، وفيه شهر بن حوشب، وثقه أحمد وغير واحد، وبقي رجاله ثقات.

(٢) ٢٩٩/٦.

(٣) البيان والتبيين ٣١٩/٢، والعقد الفريد ٢١٦/٣.

(٤) البيان والتبيين ٣٣٤/٢، والعقد الفريد ٢١٦/٣، عن أشعث بن جبير، واسمه أشعث، وهو الذي يضرب به المثل في الطمع. سمط اللآلي ٩٥٨/٣، وفوات الوفيات ١٩٧/١.

عن نفسه، والتصنُّع من صلاته، وقد تقدَّم في «النساء»^(١) دواء الرياء من قول لقمان، وأنه كتمان العمل.

وروى الترمذيُّ الحكيم^(٢): حَدَّثَنَا أَبِي رحمه الله تعالى قال: أنبأنا الجُمَانِي قال: أنبأنا جرير، عن ليث، عن شيخ، عن مَعْقِل بنِ يَسَار قال: قال أبو بكر وشَهِدَ به على رسول الله ﷺ، قال: ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ الشُّرْكَ، قال: «هو فيكم أخفى من ذَبِيب النمل، وسأدُلُّك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره، تقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وأستغفركَ لما لا أعلم، تقولها ثلاث مرات».

وقال عمر بن قيس الكندي: سمعتُ معاويةَ تلا هذه الآيةَ على المنبر ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ فقال: إِنَّهَا لَأَخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ^(٣). وقال عمر: قال النبي ﷺ: «أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ مَنْ قَرَأَ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ رَفَعَ لَهُ نُورًا مَا بَيْنَ عَدْنٍ إِلَى مَكَّةَ، حَشَوْهُ الْمَلَائِكَةُ يَصْلُونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ»^(٤).

وقال معاذ بن جبل: قال النبي ﷺ: «مَنْ قَرَأَ أَوَّلَ سُورَةِ الْكَهْفِ وَأَخْرَجَهَا، كَانَتْ لَهُ نُورًا مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ، وَمَنْ قَرَأَهَا كُلَّهَا، كَانَتْ لَهُ نُورًا مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ»^(٥).

(١) ٢٩٩/٦.

(٢) في نواذر الأصول ص ٤٠٠ بدون إسناد، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦)، والمروزي في مسند أبي بكر برقم (١٨) من طريق ليث، به.

وأخرجه أيضاً المروزي في مسند أبي بكر (١٧)، وأبو يعلى (٥٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٨٦) من طريق ليث، عن أبي محمد، عن حذيفة، عن أبي بكر الصديق بنحوه مطولاً. ووقع عند ابن السني: أبي مجلز، بدل: أبي محمد، وفي إسنادهما: ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف، والراوي عنه، وهو مجهول.

(٣) أخرجه الطبري ٤٤١/١٥ - ٤٤٢، والطبراني في الكبير ٣٩٢/١٩ (٩٢١).

(٤) أخرجه البزار (٢٩٧). وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٣٦٠) وقال: رواه البزار، ورواه ثقات إلا أن أبا قرّة الأسدي لم يرو عنه - فيما أعلم - غير النضر بن شميل.

(٥) أخرجه أحمد (١٥٦٢٦)، والطبراني في الكبير ١٩٧/٢٠ (٤٤٣)، والبغوي في شرح السنة (١٢٠٥) عن معاذ بن أنس ؓ. وفي إسناده: زبَّان بن فائد الحمراوي، وهو ضعيف.

وعن ابن عباس أنه قال له رجل: إني أضمر أن أقوم ساعة من الليل فيغلبني النوم، فقال: إذا أردت أن تقوم أي ساعة شئت من الليل فاقرأ إذا أخذت مضجعت ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْقَالَ رَيْبٍ﴾ إلى آخر السورة، فإن الله تعالى يوقظك متى شئت من الليل، ذكر هذه الفضائل الثعلبي رحمه الله.

وفي «مسند الدارمي»^(١) أبي محمد، أخبرنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن عبدة، عن زر بن حبيش، قال: من قرأ آخر سورة الكهف لساعة يريد أن يقوم من الليل، قامها، قال عبدة: فجزئناه، فوجدناه كذلك. قال ابن العربي^(٢): كان شيخنا الطرطوشي الأكبر يقول: لا تذهب بكم الأزمان في مصاولة الأقران، ومواصلة الإخوان، وقد ختم سبحانه وتعالى البيان بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

تَمَّتْ سُورَةُ الْكَهْفِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ،
وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ.

(١) برقم (٣٤٠٩).

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٣٧

تفسير سورة مريم عليها السلام

وهي مكية بإجماع، وهي تسعون وثمان آيات

ولمّا كانت وقعة بدر، وقتل الله فيها صناديد الكفار، قال كفار قريش: إنّ ثأركم بأرض الحبشة، فأهّدوا إلى النجاشي، وابعثوا إليه رجلين من ذوي رأيكم لعلّه يعطيكم من عنده من قريش، فقتلونهاهم بمن قُتل منكم ببدر، فبعث كفار قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، فسمع رسول الله ﷺ بيعتهما، فبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري، وكتب معه إلى النجاشي، فقَدِمَ على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورة مريم «كهيعص»، وقاموا تفيض أعينهم من الدَّمع، فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]. وقرأ إلى قوله: ﴿الشَّاهِدِينَ﴾. ذكره أبو داود^(١). وفي «السيرة»^(٢): فقال النجاشي: هل معك ممّا جاء به عن الله شيء؟ قال جعفر: نعم، فقال له النجاشي: اقرأه عليّ. قال: فقرأ «كهيعص» فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيتّه، وبكت أساقفتهم حتى أخضلوا لحاهم حين سمعوا ما يُتلى عليهم، فقال النجاشي: هذا والذي جاء به موسى^(٣) ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً، وذكر تمام الخبر.

(١) أخرجه ابن عبد البر في الدرر في اختصار المغازي والسير ص ١٣٤ من طريق أبي داود، وليس هو في سنن أبي داود كما يوهّم كلام المصنف، وسلف ١٠٧/٨ - ١٠٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ٣٣٦/١ ، والنقل من الدرر لابن عبد البر ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٣) في سيرة ابن هشام: جاء به عيسى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿كَهَيْعَصَ ①﴾ ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ② إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ⑤ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِي يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑥ بَنَزَكْرِيًّا إِنَّا نَبْشِرُكَ بِعِلْمٍ آسَمُ يَخْبَى لَمْ يَجْعَلْ لَّهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ⑦ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ⑧ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ⑨ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑩ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ⑪ يَبْخَبُونَ خِذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ⑫ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ⑬ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ⑭ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ⑮﴾

قوله تعالى: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ تقدّم الكلام في أوائل السور^(١). وقال ابن عباس في «كهيعص»: إِنَّ الكاف من كافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق؛ ذكره ابن عزيز^(٢) القشيري عن ابن عباس معناه: كافٍ لخلقه، هادٍ لعباده، يده فوق أيديهم، عالمٌ بهم، صادقٌ في وعده^(٣)؛ ذكره الثعلبي عن الكلبي والسُّدي، ومجاهد والضحاك. وقال الكلبي أيضاً: الكاف من كريم وكبير

(١) ٢٣٧/١ وما بعدها.

(٢) في نزهة القلوب ص ٥٨، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٣/٢.

(٣) الوسيط ١٧٥/٣.

وكافٍ، والهَاءُ من هَادٍ، والياءُ من رحيم، والعَيْنُ من عليم وعظيم، والصادُ من صادق^(١). والمعنى واحد. وعن ابن عباس أيضاً: هو اسمٌ من أسماءِ الله تعالى. وعن عليٍّ ؑ: هو اسمُ الله عزَّ وجلَّ وكان يقول: يا كهيعص، اغفرْ لي^(٢)؛ ذكره العَزنوي. السُّدِّيُّ: هو اسمُ الله الأعظم الذي إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دُعِيَ به أجاب. قتادة: هو اسمٌ من أسماءِ القرآن؛ ذكره عبدُ الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عنه^(٣). وقيل: هو اسمٌ للسورة^(٤)، وهو اختيارُ القشيري في أوائلِ الحروف.

وعلى هذا قيل: تمامُ الكلامِ عندَ قوله: «كهيعص» كأنه إعلَامٌ باسمِ السورة، كما تقول: كتابُ كذا أو بابُ كذا ثم تشرعُ في المقصود. وقرأ ابنُ جعفر هذه الحروفَ متقطعةً، ووصلها الباقون، وأمالَ أبو عمرو الهاءَ وفتحَ الياءَ، وابنُ عامر وحمزةُ بالعكس، وأمالهما جميعاً الكسائيُّ وأبو بكر وخلف، وقرأهما بينَ اللفظين أهلُ المدينةِ نافعٌ وغيره، وفتحهما الباقون^(٥). وعن خارجةَ أنَّ الحسنَ كان يضمُّ كافَ، وحكى غيره أنه كان يضمُّ ها، وحكى إسماعيلُ بنُ إسحاق أنه كان يضمُّ يا. قال أبو حاتم: ولا يجوزُ ضمُّ الكافِ والهَاءِ والياءِ؛ قال النَّحاسُ^(٦): قراءةُ أهلِ المدينة من أحسن ما في هذا، والإمالةُ جائزةٌ في ها ويا.

وأما قراءةُ الحسن؛ فأشكلت على جماعةٍ حتى قالوا: لا تجوزُ، منهم أبو حاتم، والقولُ فيها ما بينه هارون القارئ، قال: كان الحسنُ يُشِمُّ الرفعَ، فمعنى هذا أنه كان يُومئُ، كما حكى سيبويه، أنَّ من العرب من يقول: الصلاةُ والزكاةُ يُومئُ إلى الواو،

(١) نسبه البغوي في التفسير ١٨٨/٣ لابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري ٤٥١/١٥ - ٤٥٢، عن ابن عباس وعليٍّ ؑ.

(٣) تفسير عبد الرزاق ٣/٢، وأخرجه الطبري أيضاً ٤٥٢/١٥.

(٤) النكت والعيون ٣/٣٥٢ - ٣٥٣، وزاد المسير ٢٠٥/٥ - ٢٠٦.

(٥) التيسير ص ١٤٧-١٤٨، والسبعة ص ٤٠٦، والمحذر الوجيز ٣/٤ - ٤، وتفسير السمرقندي ٣١٧/٢.

(٦) في إعراب القرآن ٣/٣، وما قبله منه.

ولهذا كتبها في المصحف بالواو^(١). وأظهر الدال من هجاء «ص» نافع وابن كثير، وعاصم ويعقوب، وهو اختيار أبي عبيد، وأدغمها الباقون^(٢).

قوله تعالى: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبُّهُ يَدَّاءُ خَفِيًّا﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ في رفع «ذكر» ثلاثة أقوال: قال الفراء^(٣): هو مرفوع بـ «كهيعص». قال الزجاج^(٤): هذا محال؛ لأن «كهيعص» ليس هو ممّا أنبأنا الله عزّ وجلّ به عن زكريا، وقد خبر الله تعالى عنه وعن ما بُشّر به، وليس «كهيعص» من قصته. وقال الأخفش^(٥): التقدير: فيما نُقِصُ^(٦) عليكم ذكرُ رحمة ربك. والقول الثالث: أن المعنى: هذا الذي يتلوهُ عليكم ذكرُ رحمة ربك^(٧). وقيل: «ذكرَ رحمة ربك» رُفِعَ بإضمارٍ مبتدأ، أي: هذا ذكرُ رحمة ربك^(٨). وقرأ الحسن: «ذَكَرَ رحمة ربك» أي: هذا المتلو من القرآن ذَكَرَ رحمة ربك. وقرئ: «ذَكَرَ» على الأمر^(٩). «ورحمة» تكتب ويُوقف عليها بالهاء، وكذلك كل ما كان مثلها، لا اختلاف فيها بين النّحويين، واعتلوا في ذلك أن هذه الهاء لتأنيث الأسماء فرقا بينها وبين الأفعال^(١٠).

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/٣.

(٢) السبعة ص ٤٠٦، والتيسير ص ١٤٨، والنشر ١٧/٢، والمحزر الوجيز ٤/٤.

(٣) في معاني القرآن ١٦١/٢.

(٤) في معاني القرآن وإعرابه ٣١٨/٣.

(٥) في معاني القرآن ٦٢٤/٢.

(٦) في (م) و(د): يقص، والمثبت من (ظ) و(ف) ومعاني القرآن للأخفش ٦٢٤/٢.

(٧) ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣١٨/٣، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٤/٣.

(٨) ذكره الفراء في معاني القرآن ١٦١/٢.

(٩) المحزر الوجيز ٤/٤.

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٤/٣.

الثانية: قوله تعالى: ﴿عَبْدُكُمْ﴾ قال الأخفش^(١): هو منصوب بـ «رحمة». «زكريا» بدل منه^(٢)، كما تقول: هذا ذكرٌ ضرب زيدَ عمرًا، فـ «عمرًا» منصوبٌ بالضرب، كما أنَّ «عبده» منصوبٌ بالرحمة. وقيل: هو على التقديم والتأخير، معناه: ذكُرُ ربِّك عبده زكريا برحمة^(٣)، فـ «عبده» منصوبٌ بالذكر؛ ذكره الزجاج والفراء^(٤). وقرأ بعضهم: «عَبْدُهُ زَكْرِيَا» بالرفع، وهي قراءة أبي العالية^(٥). وقرأ يحيى بن يعمر: «ذَكَرَ» بالنصب على معنى هذا القرآن ذَكَرَ رحمةَ عبده زكريا^(٦). وتقدّمت اللغات والقراءة في «زكريا» في «آل عمران»^(٧).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ مثلُ قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْمُتَعَدِّينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] وقد تقدّم^(٨). والنداء: الدعاء والرغبة، أي: ناجى ربه بذلك في محرابه. دليله قوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُعْبَدُ فِي الْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩] فبيّن أنه استجاب له في صلاته، كما نادى في الصلاة. واختلّف في إخفائه هذا النداء، فقليل: أخفاه من قومه؛ لئلا يلام على مسألة الولد عند كبر السن؛ ولأنه أمرٌ دنيوي، فإن أجيب فيه، نال بغيته، وإن لم يُجب، لم يعرف بذلك أحدٌ. وقيل: مخلصاً فيه لم يطلع عليه إلا الله تعالى. وقيل: لما كانت الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء، أخفاه. وقيل: «خَفِيًّا» سرّاً من قومه في جوف الليل^(٩)، والكلُّ محتملٌ والأوّل أظهر. والله أعلم. وقد تقدّم أنّ المستحبّ من الدعاء

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٢٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٣.

(٣) تفسير الطبري ٤٥٣/ ١٥.

(٤) معاني القرآن للفراء ١٦١/ ٢.

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٨٣ إلى يحيى بن يعمر.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤.

(٧) ١٠٧/ ٥.

(٨) ٢٤٤/ ٩.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٤، والنكت والعيون ٣/ ٣٥٤، والكشاف ٢/ ٥٠٢.

الإخفاء في سورة الأعراف^(١)، وهذه الآية نص في ذلك؛ لأنه سبحانه أثنى بذلك على زكريا. وروى إسماعيل قال: حَدَّثَنَا مسدد قال: حَدَّثَنَا يحيى بن سعيد، عن أسامة بن زيد، عن محمد بن عبد الرحمن وهو ابن أبي كبشة، عن سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ خَيْرَ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ، وَخَيْرَ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي»^(٢) وهذا عام. قال يونس بن عبيد: كان الحسن يرى أن يدعو الإمام في القنوت، ويؤمن مَنْ خلفه من غير رفع صوت، وتلا يونس: «إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَاؤُهُ خَفِيًّا». قال ابن العربي^(٣): وقد أسرَّ مالك القنوت وجهراً به الشافعي، والجهراً به أفضل؛ لأنَّ النبي ﷺ كان يدعو به جهراً.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ فيه مسالتان^(٤):

الأولى: قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ قَرِيٌّ وَهَنٌ» بالحركات الثلاث، أي: ضَعْف. يقال: وَهَنَ يَهِنُ وَهْنًا، إِذَا ضَعُفَ فَهُوَ وَاهِنٌ^(٥). وقال أبو زيد: يقال: وَهَنَ يَهِنُ وَهْنًا وَهْنٌ يَوْهَنُ. وإنما ذكر العظم؛ لأنَّ عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصلُ بنائه، فإذا وَهَنَ تداعى وتساقط سائر قوته؛ ولأنَّه أشدُّ ما فيه وأصلبُه، فإذا وَهَنَ كان ما وراءه أَوْهَنَ منه، ووَحَّدَه؛ لأنَّ الواحد هو الدالُّ على معنى الجنسية، وقصده إلى أنَّ هذا الجنس الذي هو العمود والقوام، وأشدُّ ما ترَكَّبَ منه الجسدُ قد أصابه الوهنُ، ولو جَمَعَ لكان قَصْدٌ إلى معنى آخر، وهو أَنَّهُ لم يَهِنَ منه بعضُ عظامِهِ ولكن كُلُّهَا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَشْتَاعَلَ الرَّأْسُ سَكِينًا﴾ أدغم السين في الشين أبو عمرو^(٦). وهذا من أحسن الاستعارة في كلام العرب. والاشتعال: انتشار شعاع النار، شبه به

(١) ٢٤٤/٩.

(٢) سلف ٢٤٤/٩.

(٣) في أحكام القرآن ١٢٣٨/٣.

(٤) كذا في النسخ، وقد ذكر المصنف ثلاث مسائل لا تثنين.

(٥) تهذيب اللغة ٤٤٤/٦، ومقاييس اللغة ١٤٩/٦ (وهن).

(٦) الكشف ٥٠٢/٢، وما قبله منه.

انتشارَ الشيبِ في الرأس^(١)، يقول: شِخْتُ وَضَعْتُ، وأضاف الاشتعالَ إلى مكان الشعر ومَنْبِتِهِ وهو الرأسُ، ولم يُضَفْ الرأسَ اكتفاءً بعلمِ المخاطبِ أَنَّهُ رأسُ زكريا عليه السلام^(٢). «وشيباً» في نصبه وجهان: أحدهما: أَنَّهُ مصدرٌ؛ لأنَّ معنى اشتعل شاب؛ وهذا قولُ الأخفش^(٣). وقال الزجاج^(٤): وهو منصوبٌ على التمييز. النحاس^(٥): قولُ الأخفشِ أولى؛ لأنَّه مشتقٌّ من فعلٍ، فالمصدرُ أولى به. والشيبُ مخالطةُ الشعرِ الأبيضِ الأسودَ.

الثالثة: قال العلماء: يُستحبُّ للمرء أن يذكرَ في دعائه نِعَمَ الله تعالى عليه وما يليق بالخضوع؛ لأنَّ قوله تعالى: «وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي» إظهارٌ للخضوع، وقوله: «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا» إظهارٌ لعاداتٍ تَفَضَّلَها في إجابته أدعيتَه^(٦)، أي: لم أكن بدعائي إياك شقيًّا، أي: لم تكن تُخَيِّبُ دعائي إذا دَعَوْتُكَ، أي: إنك عَوَّدتني الإجابة فيما مضى^(٧). يقال: شَقِيَ بكذا، أي: تعبَ فيه ولم يُحْصَلْ مقصوده. وعن بعضهم أنَّ محتاجاً سأله وقال: أنا الذي أحسنتُ إليه في وقت كذا، فقال: مرحباً بمن تَوَسَّلَ بنا إلينا، وقضى حاجته^(٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَّ مِنْ وَرَأَى وَكَأَنِّي آمَرْتُ عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ فيه سبعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَّ» قرأ عثمانُ بن عفان، ومحمدُ بن

(١) الوسيط ٣/ ١٧٥، والنكت والعيون ٣/ ٣٥٥.

(٢) الكشف ٢/ ٥٠٢.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٢٤.

(٤) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣١٩.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٥.

(٦) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٢٦٩.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٨٨.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٩، والكشاف ٢/ ٥٠٢.

علي، وعلي بنُ الحسين رضي الله تعالى عنهم، ويحيى بن يعمر: «خَفَّتْ» بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسرِ التاء وسكونِ الياء من «الموالي» لأنه في موضعٍ رفعٍ بـ «خَفَّتْ» ومعناه: انقطعت بالموت^(١). وقرأ الباقون: «خِفْتُ» بكسرِ الخاء وسكونِ الفاء وضمِّ التاء ونصبِ الياء من «المَوَالِي»؛ لأنه في موضعٍ نصبٍ بـ «خفت». و«الموالي» هنا الأقاربُ وبنو العم والعصبَةُ الذين يلوّنُهُ في النسبِ^(٢)، والعربُ تُسمي بني العم الموالِي؛ قال الشاعر:

مَهْلًا بَنِي عَمِّنَا مَهْلًا مَوَالِينَا لَا تَنْبُشُوا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَذْفُونًا^(٣)

قال ابنُ عباس ومجاهدٌ وقتادة: خاف أن يرثوا ماله، وأن ترثه الكلالَةُ، فأشفقَ أن يرثه غيرُ الولد^(٤). وقالت طائفة: إنّما كان مواليه مُهْمِلِينَ للدين، فخافَ بموته أن يضيع الدين، فطلبَ وليًا يقوم بالدين بعده؛ حكى هذا القولُ الزجاج^(٥)، وعليه: فلم يَسْلُ مَنْ يرثُ ماله؛ لأن الأنبياء لا تُورَث. وهذا هو الصحيحُ من القولين في تأويل الآية^(٦)، وأنه عليه الصلاة والسلام أرادَ وِثَاةَ العلم والنبوة لا وِثَاةَ المال؛ لِمَا ثَبَتَ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّا مَعَشَرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً»^(٧) وفي «كتاب» أبي داود: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَثُوا الْعِلْمَ»^(٨). وسيأتي في هذا مزيدُ بيانٍ عند قوله: «يرثني».

(١) الكشف ٥٠٢/٢ دون ذكر يحيى بن يعمر، وذكر الطبري ٤٥٧/١٥ عثمانٌ فقط، وذكر قراءة ابن يعمر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٤.

(٢) زاد المسير ٢٠٧/٥.

(٣) البيت للأخضر اللهبي، وهو الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب، والبيت في الكامل للمبرد ١٤١٠/٣، والمؤتلف والمختلف للأدي ص ٤١، ومعجم الشعراء للمرزباني ص ١٧٨.

(٤) أخرجه عنهم الطبري ٤٥٥/١٥ - ٤٥٧.

(٥) في معاني القرآن وإعرابه ٣/٣٢٠، وقول الزجاج وما قبله في المحرر الوجيز ٤/٤ - ٥.

(٦) زاد المسير ٢٠٩/٥.

(٧) أخرجه البخاري (٦٧٢٥) و(٦٧٢٦) و(٦٧٢٧)، ومسلم (١٧٥٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها، دون قوله: «إنا معشر الأنبياء».

(٨) سنن أبي داود (٣٦٤١)، وهو عند الترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، من حديث أبي الدرداء ؓ.

الثانية: هذا الحديث يدخل في التفسير المسند لقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] وعبارة عن قول زكريا: «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» وتخصيص للعموم في ذلك، وأن سليمان لم يرث من داود مالا خلفه داود بعده، وإنما ورث منه الحكمة والعلم، وكذلك ورث يحيى من آل يعقوب، هكذا قال أهل العلم بتأويل القرآن ما عدا الروافض، وإلا ما روي عن الحسن أنه قال: «يرثني مالا»، «يرث من آل يعقوب» النبوة والحكمة^(١). وكل قول يخالف قول النبي ﷺ فهو مدفوع مهجور؛ قاله أبو عمر^(٢). قال ابن عطية: و الأكثر من المفسرين على أن زكريا إنما أراد وراثته المال، ويحتمل قول النبي ﷺ: «إنا معشر الأنبياء لا نُورَث» ألا يريد به العموم، بل على أنه غالب أمرهم، فتأمل، والأظهر الأليق بزكريا عليه السلام أن يريد وراثته العلم والدين، فتكون الوراثة مستعارة، ألا ترى أنه لما طلب وليا ولم يُخصَّص ولداً بلغه الله تعالى أمله على أكمل الوجوه. وقال أبو صالح وغيره: قوله «من آل يعقوب» يريد العلم والنبوة^(٣).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِنْ وَرَاءِ﴾ قرأ ابن كثير بالمد والهمز وفتح الياء^(٤)، وعنه أنه قرأ أيضاً مقصوراً مفتوح الياء مثل: عصاي. الباقون بالهمز والمد وسكون الياء^(٥). والقراء على قراءة «خَفْتُ» مثل: نمت إلا ما ذكرنا عن عثمان^(٦)، وهي قراءة شاذة بعيدة جداً، حتى زعم بعض العلماء أنها لا تجوز. قال: كيف يقول: خَفْتُ الموالى من بعدي، أي: من بعد موتي وهو حي؟! النحاس^(٧): والتأويل لها ألا يعني بقوله:

(١) أخرجه الطبري ٤٥٩/١٥ بلفظ: نبوته وعلمه.

(٢) في التمهيد ١٧٥/٨.

(٣) المحرر الوجيز ٥/٤.

(٤) تفسير البغوي ١٨٨/٣.

(٥) السبعة ص ٤٠٧، والكشاف ٥٠٢/٢، والمحرر الوجيز ٥/٤.

(٦) في المسألة الأولى من هذه الآية.

(٧) في إعراب القرآن ٥/٣، وما قبله منه.

«من ورائي» أي: من بعد موتي، ولكن من ورائي في ذلك الوقت، وهذا أيضاً بعيداً يحتاج إلى دليلٍ أَنَّهُمْ خَفُّوا في ذلك الوقت وقلُّوا، وقد أخبرَ الله تعالى بما يدلُّ على الكثرة حين قالوا: ﴿أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]. ابن عطية^(١): «من ورائي» من بعدي في الزمن، فهو الوراء على ما تقدَّم في «الكهف»^(٢).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَكَاَنَتْ أَمْرَأَىٰ عَاقِرًا﴾ امرأته هي إشيع بنت فاقود^(٣) بن قبيل، وهي أختُ حَنَّةَ بنتِ فاقود؛ قاله الطبري^(٤)، وَحَنَّةُ هي أم^(٥) مريم حسب ما تقدَّم في «آل عمران» بيانه^(٦). وقال القتيبي: امرأةُ زكريا هي إشيع بنتُ عمران، فعلى هذا القول يكون يحيى ابنُ خالةِ عيسى عليهما السلام على الحقيقة، وعلى القول الآخر يكون ابنُ خالةِ أمِّه، وفي حديث الإسراء: قال عليه الصَّلَاة والسلام: «فلقيْتُ ابْنِي الخَالَةَ يحيى وعيسى»^(٧) شاهداً للقول الأول^(٨). والله أعلم^(٩). والعاقِرُ التي لا تلدُ لكبر سنِّها، وقد مضى بيانه في «آل عمران»^(١٠). والعاقِرُ من النساءِ أيضاً التي لا تلدُ من غيرِ كبر^(١١). ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٥٠]. وكذلك العاقِرُ من الرجال، ومنه قولُ عامر بن الطفيل:

(١) في المحرر الوجيز ٥/٤ .

(٢) ص ٣٤٩ من هذا الجزء.

(٣) في (م): إشيع بنت فاقود، والمثبت من النسخ الخطية ومن التعريف والإعلام ص ١١٠ ، وفي (ف): كافودا بدل فاقود.

(٤) في التاريخ ٥٨٥/١ ، ونقل المصنف عنه بواسطة التعريف والإعلام ص ١١٠ .

(٥) في (د) و(ظ): أخت.

(٦) ٩٩/٥ .

(٧) أخرجه أحمد (١٧٨٣٥)، والبخاري (٣٤٣٠)، ومسلم (١٦٢)، من حديث مالك بن صعصعة .

(٨) أي: قول القتيبي.

(٩) التعريف والإعلام ص ١١٠ .

(١٠) ١٢١/٥ .

(١١) المحرر الوجيز ٥/٤ .

لبئس الفتى إن كنتُ أعورَ عاقراً جباناً فما عُذري لَدَى كُلِّ مَحْضَرٍ^(١)

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ سؤالٌ ودعاء، ولم يُصرِّح بولد؛ لِمَا عَلِمَ من حالِهِ وبُعْدِهِ عنه بسببِ المرأة. قال قتادة: جرى له هذا الأمرُ وهو ابنُ بضِعِّ وسبعين سنة. مقاتل: خمس وتسعين سنة، وهو أشبه؛ فقد كان غَلِبَ على ظَنِّهِ أنه لا يولد له لكبرِهِ^(٢)؛ ولذلك قال: «وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا». وقالت طائفة: بل طَلَبَ الولدَ، ثم طَلَبَ أن تكون الإجابةُ في أن يعيشَ حتى يرثه، تَحْفَظاً من أن تقع الإجابةُ في الولدِ ولكن يُخْتَرَمُ، ولا يَتَحَصَّلُ منه الغرضُ^(٣).

السادسة: قال العلماء: دعاءُ زكريا عليه السلام في الولدِ إِنَّمَا كان لإظهارِ دينه، وإحياءِ نبوّته، ومضاعفةِ لأجره لا للدنيا، وكان ربه قد عَوَّدَهُ الإجابة، ولذلك قال: «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا»، أي: بدعائي إياك، وهذه وسيلةٌ حسنة أن يَتَشَفَّعَ إليه بنعمِهِ، يَسْتَدِرُّ فضلَهُ بفضله، يُروى أنَّ حاتمَ الجودِ لَقِيَ رجلاً فسأله، فقال له حاتم: مَنْ أنت؟ قال: أنا الذي أحسنتُ إليه عامَ أول، فقال: مرحباً بَمَنْ تَشَفَّعَ إلينا بنا^(٤).

فإن قيل: كيف أقدمَ زكريا على مسألةٍ ما يَخْرِقُ العادةَ دون إذن؟ فالجوابُ أنَّ ذلك جائزٌ في زمانِ الأنبياء، وفي القرآنِ ما يكشفُ عن هذا المعنى؛ فإنه تعالى قال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ أَتَى هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فلَمَّا رأى خارقَ العادة، استحکم طمعه في إجابةِ دعوتِهِ، فقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ

(١) الديوان ص ٩٩.

(٢) المحرر الوجيز ٥/٤ - ٦، دون ذكر مقاتل، وذكر غير ذلك الزجاج في معاني القرآن ٣/٣١٩، والزمخشري في الكشاف ٥٠٢/٢.

(٣) المحرر الوجيز ٥/٤.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢٣٩، وقد ذكر هذه الحادثة في المسألة الثالثة عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴿١﴾ [آل عمران: ٣٨].

السابعة: إن قال قائل: هذه الآية تدل على جواز الدعاء بالولد، والله سبحانه وتعالى قد حذرنا من آفات الأموال والأولاد، ونبه على المفسد الناشئة من ذلك، فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. وقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]. فالجواب أن الدعاء بالولد معلوم من الكتاب والسنة حسب ما تقدم في «آل عمران» بيانه (٢).

ثم إن زكريا عليه السلام تحرز فقال: «ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً» وقال: «وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا»، والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة، وخرج من حدّ العداوة والفتنة إلى حدّ المسرة والنعمة. وقد دعا النبي ﷺ لأنس خادمه فقال: «اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته» (٣) فدعا له بالبركة تحرزاً ممّا يؤدّي إليه الإكثار من الهلكة. وهكذا فليتضرع العبد إلى مولاه في هداية ولده، ونجاته في أولاه وأخراه اقتداءً بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والفضلاء؛ وقد تقدم في «آل عمران» بيانه (٤).

قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «يَرِثُنِي» قرأ أهل الحرمين والحسن، وعاصم وحمزة: «يَرِثُنِي وَيَرِثُ» بالرفع فيهما. وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى بن وثاب والأعمش والكسائي بالجزم فيهما (٥)، وليس هما جواب «هب» على مذهب سيويه، إنّما تقديره: إن تهبه يرثني ويرث، والأول أصوب في المعنى؛ لأنه طلب وارثاً موصوفاً (٦)، أي: هب لي من لدنك الولي الذي هذه حاله وصفته؛ لأن الأولياء منهم

(١) أحكام القرآن للهراسي ٢٧٠/٤.

(٢) ١١٠/٥.

(٣) سلف ١١١/٥ و ١١٢.

(٤) ١١١/٥ - ١١٢.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٦/٣. وقراءة أبي عمرو والكسائي في السبعة ص ٤٠٧، والتيسير ص ١٤٨.

(٦) المحرر الوجيز ٥/٤.

مَنْ لَا يَرِثُ، فقال: هَبْ لِي الَّذِي يَكُونُ وَارِثِي؛ قاله أَبُو عبيد، وَرَدَّ قِرَاءَةَ الْجَزْمِ، قال: لِأَنَّ مَعْنَاهُ: إِنْ وَهَبْتَ وَرِثَ، وَكَيْفَ يَخْبِرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذَا وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُ؟! النّحاس^(١): وَهَذِهِ حُجَّةٌ مُسْتَفِيضَةٌ^(٢)؛ لِأَنَّ جَوَابَ الْأَمْرِ عِنْدَ النّحْوِيِّينَ فِيهِ مَعْنَى الشَّرْطِ وَالْمَجَازَاةِ؛ تَقُولُ: أَطْعِ اللَّهَ يُدْخِلْكَ الْجَنَّةَ، أَيْ: إِنْ تُطْعِمَهُ يُدْخِلْكَ الْجَنَّةَ.

الثانية: قال النّحاس^(٣): فَأَمَّا مَعْنَى «يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» فَلِلْعُلَمَاءِ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَجْوِبَةٍ: قِيلَ: هِيَ وَرَاثَةُ نَبَوَّةٍ. وَقِيلَ: هِيَ وَرَاثَةُ حِكْمَةٍ. وَقِيلَ: هِيَ وَرَاثَةُ مَالٍ. فَأَمَّا قَوْلُهُمْ: وَرَاثَةُ نَبَوَّةٍ فَمُحَالٌ؛ لِأَنَّ النَبَوَّةَ لَا تُورَثُ، وَلَوْ كَانَتْ تُورَثُ لَقَالَ قَائِلٌ: النَّاسُ يَتَسَبَّوْنَ إِلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ.

ووراثَةُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ مَذْهَبٌ حَسَنٌ، وَفِي الْحَدِيثِ: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ». وَأَمَّا وَرَاثَةُ الْمَالِ فَلَا يَمْتَنِعُ، وَإِنْ كَانَ قَوْمٌ قَدْ أَنْكَرُوهُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً»^(٤) فَهَذَا لَا حُجَّةَ فِيهِ؛ لِأَنَّ الْوَاحِدَ يُخْبِرُ عَنْ نَفْسِهِ بِأَخْبَارِ الْجَمْعِ، وَقَدْ يُؤَوَّلُ هَذَا بِمَعْنَى: لَا تُورَثُ، الَّذِي تَرَكْنَا صَدَقَةً؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُخْلَفْ شَيْئاً يُورَثُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أَبَاحَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِيَّاهُ فِي حَيَاتِهِ بِقَوْلِهِ تَبَارَكَ اسْمُهُ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١] لِأَنَّ مَعْنَى (لِلَّهِ) لِسَبِيلِ اللَّهِ، وَمِنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَا يَكُونُ فِي مَصْلَحَةِ الرِّسُولِ ﷺ مَا دَامَ حَيًّا.

فإن قيل: ففي بعضِ الراويات «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً» ففيهِ التَّأْوِيلَانِ^(٥) جَمِيعاً، أَنْ يَكُونَ «مَا» بِمَعْنَى الَّذِي. وَالْآخِرُ لَا يُورَثُ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالَهُ^(٦).

(١) فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ ٦/٣ - ٧.

(٢) فِي (م): مُقْتَصَاةٌ، وَفِي إِعْرَابِ النَّحَاسِ: مُقْتَصَاةٌ، وَالْمَثْبُتُ مِنَ النُّسخِ الْخَطِيئَةِ.

(٣) فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ ٦/٣ - ٧.

(٤) سَلَفَ هَذَا الْحَدِيثِ وَالَّذِي قَبْلَهُ فِي الْمَسْأَلَةِ الْأُولَى عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ آلَ مَرْيَمَ﴾.

(٥) فِي (د) وَ(ز) وَ(ظ): التَّأْوِيلَاتُ، وَسَقَطَتْ مِنْ (ف).

(٦) إِعْرَابُ الْقُرْآنِ لِلنَّحَاسِ ٦/٣ - ٧.

وقال أبو عمر^(١): واختلف العلماء في تأويل قوله عليه الصلاة والسلام: «لا نُورَث ما تركنا صدقة» على قولين: أحدهما - وهو الأكثرُ وعليه الجمهورُ - أنَّ النبي ﷺ لا يُورَث وما ترك صدقةً. والآخر: أنَّ نبيَّنا عليه الصلاة والسلام لم يُورَث؛ لأنَّ الله تعالى خصَّه بأن جعلَ ماله كلَّه صدقةً زيادةً في فضيلته، كما خصَّ في النكاح بأشياء أباحها له وحرَّمها على غيره، وهذا القولُ قاله بعضُ أهل البصرة منهم ابنُ عُليَّة، وسائرُ علماء المسلمين على القولِ الأوَّل.

الثالثة: قوله تعالى: «مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» قيل: هو يعقوبُ إسرائيل، وكان زكريا متزوجاً بأخت مريم بنتِ عمران، ويرجع نسبُها إلى يعقوب؛ لأنها من ولدِ سليمان بن داود وهو من ولدِ يهوذا بن يعقوب، وزكريا من ولدِ هارون أخي موسى، وهارون وموسى من ولدِ لاوي بن يعقوب، وكانت النبوةُ في سبطِ يعقوب بن إسحاق. وقيل: المعنيُّ بـيعقوب هاهنا يعقوبُ بنُ ماثان أخو عمران بن ماثان أبي مريم، أخوانٍ من نسل سليمان بن داود عليهما السلام؛ لأنَّ يعقوب وعمران ابنا ماثان، وبنو ماثان رؤساء بني إسرائيل؛ قاله مقاتلٌ وغيره. وقال الكلبي: وكان آلُ يعقوب أخواله، وهو يعقوبُ بن ماثان، وكان فيهم الملك، وكان زكريا من ولدِ هارون بن عمران أخي موسى. وروى قتادة أنَّ النبي ﷺ قال: «يرحمُ الله تعالى زكريا ما كان عليه من ورثته»^(٢). ولم ينصرف يعقوبُ؛ لأنَّه أعجمي^(٣).

الرابعة: قوله تعالى: «وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» أي: مرضيًّا في أخلاقه وأفعاله. وقيل: راضيًّا بقضائك وقدرك. وقيل: رجلاً صالحاً ترضى عنه. وقال أبو صالح: نبياً كما جعلتُ أباه نبياً^(٤).

(١) في التمهيد ٨/١٦٠ - ١٦١، والاستذكار ٢٧/٣٨٥.

(٢) النكت والعيون ٣/٣٥٦، والكشاف ٢/٥٠٣، وتفسير الرازي ٢١/١٨٤ - ١٨٥. والحديث أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٣/٢، ومن طريقه الطبري ١٥/٤٦٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٧/٣.

(٤) النكت والعيون ٣/٣٥٦، دون قوله: رجلاً صالحاً ترضى عنه، ولم ينسب القول الأخير لأبي صالح.

قوله تعالى: ﴿يَنْزَكِرِيَّ﴾ في الكلام حذف، أي: فاستجاب الله دعاءه فقال: ﴿يَنْزَكِرِيَّ إِنَّا نَبِّئُكَ يُقَالُ اسْمُهُ يَحْيَى﴾^(١) فتضمنت هذه البشرى ثلاثة أشياء: أحدها: إجابة دعائه وهي كرامة. الثاني: إعطاؤه الولد وهو قوة. الثالث: أن يفرد بتسميته، وقد تقدّم معنى تسميته في «آل عمران»^(٢). وقال مقاتل: سمّاه يحيى؛ لأنه حيّ بين أب شيخ وأم عجوز^(٣)، وهذا فيه نظر؛ لما تقدّم من أن امرأته كانت عقيماً لا تلد. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَّهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: لم نسّم أحداً قبل يحيى بهذا الاسم؛ قاله ابن عباس وقتادة، وابن أسلم والسدي^(٤). ومنّ عليه تعالى بأن لم يكلّ تسميته إلى الأبوين^(٥). وقال مجاهد وغيره: «سمياً» معناه: مثلاً ونظيراً^(٦)، وهو مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَّهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] معناه: مثلاً ونظيراً كأنه من المساماة والسمو، وهذا فيه بعد؛ لأنه لا يُفضّل على إبراهيم وموسى، اللهم إلا أن يُفضّل في خاصّ كالسودد والحصر^(٧) حسب ما تقدّم بيانه في «آل عمران»^(٨). وقال ابن عباس أيضاً: معناه: لم تلِد العواقر مثله ولداً^(٩). وقيل: إنّ الله تعالى اشترط القبل؛ لأنه أراد أن يخلق بعده أفضل منه وهو محمد ﷺ.

وفي هذه الآية دليل وشاهد على أن الأسمي السنع^(١٠) جديرة بالآثرة، وإياها

(١) البغوي ٣/ ١٨٩.

(٢) ١١٥/٥.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٥٦.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٦٢ - ٤٦٣ عن قتادة وابن أسلم والسدي، وقول ابن عباس ذكره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٢٠، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢١٠.

(٥) الوسيط ٣/ ١٧٦.

(٦) تفسير مجاهد ١/ ٣٨٤، وتفسير الطبري ١٥/ ٤٦٢.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٦.

(٨) ١١٦/٥ وما بعدها.

(٩) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٦١ - ٤٦٢.

(١٠) والسنع: الجمال. القاموس (سنع).

كانت العربُ تتحي في التسمية؛ لكونها أُنْبَهَ وأنزَه عن النَّبِزِ حتى قال قائل:
 سُنْعُ الْأَسَامِي مُسْبِلِي أُرْزُرٍ حُمْرِ تَمَسُّ الْأَرْضَ بِالْهُدْبِ
 وقال رؤبة للنسابة البكري وقد سأله عن نسبه: أنا ابنُ الْعَجَّاجِ، فقال: فَصَّرَتْ
 وَعَرَفَتْ^(١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ ليس على معنى الإنكارِ لِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تعالى به، بل على سبيلِ التعجب من قدرة الله تعالى أن يخرج ولدًا من امرأة عاقر وشيخ كبير^(٢). وقيل غيرُ هذا ممَّا تقدَّم في «آل عمران» بيانه^(٣). ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنْ أَلْكَبَرِ عِتِيًّا﴾ يعني: النهاية في الكبر واليبس والجفاف، ومثله العسي، قال الأصمعي: عَسَا الشيءُ يَعْسُو عُسُوًا وَعَسَاءَ ممدودٌ، أي: يَيْسُ وَصَلْبٌ، وقد عسا الشيخُ يعسو عُسيًّا: وَلَّى وكَبِرَ مثل عَتَا، يقال: عَتَا الشيخُ يَعْتُو عُتِيًّا وَعِتِيًّا كبر وولَّى، وعتوتَ يا فلانُ تعتو عُتُوًا وَعِتِيًّا^(٤). والأصلُ عُتُوٌ؛ لأنه من ذواتِ الواو، فأبدلوا من الواو ياء؛ لأنها أختُها وهي أخفُّ منها، والآياتُ على الياءات، ومَن قال: «عِتِيًّا» كره الضمة مع الكسرة والياء^(٥)، وقال الشاعر:

إِنَّمَا يُعَذِّرُ الْوَلِيدُ وَلَا يُعَذِّرُ مَنْ كَانَ فِي الزَّمَانِ عِتِيًّا^(٦)

وقرأ ابنُ عباس: «عُسيًّا» وهو كذلك في مصحفِ أبي^(٧). وقرأ يحيى بنُ وثَّاب وحَمْزَةُ، والكسائي وحفص: «عِتِيًّا» بكسر العين وكذلك «جُثِيًّا» و«صِلِيًّا» حيثُ كُنْ،

(١) الكشف ٥٠٣/٢، والبيت لأبي نواس وهو في ديوانه ص ٧٧، وفيه: شنع.

(٢) الكلام بنحوه عند السمرقندي ٣١٩/٢، والرازي ١٨٧/٢١ - ١٨٨.

(٣) ١٢٠/٥ وما بعدها.

(٤) الصحاح (عتو) و(عسو).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٨/٣.

(٦) البيت لإبراهيم بن هرمة في ديوانه ص ٢٢٦، وفيه: «عاش في الزمان» بدل «كان في الزمان».

(٧) النكت والعيون ٣/٣٥٧ - ٣٥٨، ومعاني الفراء ١٦٢/٢.

وَضَمَّ حَفْصٌ «بُكْيًا» خاصةً، وكذلك الباقون في الجميع، وهما لغتان^(١). وقيل: «عَيْيًا» قَسِيًّا؛ يقال: مَلِكٌ عَابٍ إِذَا كَانَ قَاسِي الْقَلْبِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ أي: قال له المَلَكُ: «كَذَلِكَ قال ربك» والكاف في موضع رفع، أي: الأمرُ كذلك^(٢)، أي: كما قيل لك: «هو عليَّ هين». قال الفراء^(٣): خَلَقَهُ عَلَيَّ هَيْنٌ. ﴿وَقَدْ خَلَقْتَكُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل يحيى^(٤)، وهذه قراءة أهل المدينة والبصرة وعاصم، وقرأ سائر الكوفيين: «وَقَدْ خَلَقْتَاكَ» بنونٍ وألف بالجمع على التعظيم^(٥). والقراءة الأولى أشبه بالسَّوَادِ^(٦)، ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ أي: كما خَلَقَكَ الله تعالى بعدَ العدم ولم تَكُ شَيْئًا موجوداً، فهو القادرُ على خلقِ يحيى وإيجاده.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ طلبَ آيَةً على حَمَلِهَا بعدَ بَشَارَةِ الملائكةِ إِيَّاهُ^(٧)، وبعدَ قوله تعالى: «وَقَدْ خَلَقْتَكُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا» زيادةً طمَأنِينَةً، أي: تَمِّمِ النعمةَ بأن تجعلَ لي آيةً، وتكونَ تلك الآيةُ زيادةً نعمةٍ وكرامةٍ. وقيل: طلبَ آيَةً تَدْلُهُ على أَنَّ البَشْرَى منه بيحيى لا من الشيطان؛ لأنَّ إبليسَ أُوهمه ذلك. قاله الضحاك^(٨) وهو معنى قول السُّدِّي، وهذا فيه نظرٌ؛ لإخبارِ الله تعالى بأن الملائكةَ

(١) التيسير ص ١٤٨، والسبعة ص ٤٠٧، والكشاف ٥٠٣/٢، والمحزر الوجيز ٦/٤، والبغوي ١٨٩/٣.

(٢) معاني القرآن وإعراجه للزجاج ٣٢١/٣، والكشاف ٥٠٣/٢، وتفسير الرازي ١٨٨/٢١.

(٣) في معاني القرآن ١٦٢/٢.

(٤) البغوي ١٨٩/٣.

(٥) التيسير ص ١٤٨، والسبعة ص ٤٠٨، والكشاف ٥٠٤/٢، والمحزر الوجيز ٦/٤، وزاد المسير ٢١٢/٥.

(٦) في (م): بالسَّوَادِ.

(٧) قال الرازي في التفسير ١٨٩/٢١: وهذا بعيد؛ لأنَّ بقول الله تعالى قد تحققت البشارة فلا يكون إظهار الآية أقوى في ذلك من صريح القول.

(٨) النكت والعيون ٣٥٨/٣.

نادته حسب ما تقدّم في «آل عمران»^(١). ﴿قَالَ أَيُّنَاكَ أَلَّا تَكَلِّمَ النَّاسَ تِلْكَ لَيْسَ لِي سَوِيًّا﴾ تقدّم في «آل عمران» بيانه^(٢) فلا معنى للإعادة.

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي: أشرف عليهم من المصلى، والمحرابُ أرفعُ المواضع، وأشرفُ المجالس، وكانوا يتخذون المحارِبَ فيما ارتفع من الأرض؛ دليله محرابُ داودَ عليه السلام على ما يأتي.

واختلف الناس في اشتقاقه، فقال فرقة: هو مأخوذ من الحَرْبِ كأنَّ ملازمه يُحارب الشيطانَ والشهوات. وقالت فرقة: هو مأخوذ من الحَرْبِ بفتحِ الراء كأنَّ ملازمه يلقي منه حرباً وتعباً ونصباً^(٣).

الثانية: هذه الآية تدلُّ على أنَّ ارتفاعَ إمامهم على المأمومين كان مشروعاً عندهم في صلاتهم، وقد اختلف في هذه المسألة فقهاء الأمصار، فأجاز ذلك الإمامُ أحمد وغيره متمسكاً بقصة المنبر، ومنع مالك ذلك في الارتفاعِ الكثير دون اليسير، وعَلَّل أصحابُه المنعَ بخوفِ الكِبَرِ على الإمام^(٤).

قلت: وهذا فيه نظر، وأحسنُ ما فيه ما رواه أبو داود^(٥)، عن همام، أنَّ حذيفة أَمَّ الناسَ بالمدائنِ على دكانٍ، فأخذَ أبو مسعود بقميصه فجَبَذَهُ، فلما فرغَ من صلاته

(١) ١١٢/٥.

(٢) ١٢٣/٥ وما بعدها.

(٣) المحرر الوجيز ٧/٤.

(٤) المفهم ١٥٣/٢ - ١٥٤، والمراد بقصة المنبر ما أخرجه أحمد (٢٢٨٧١)، والبخاري (٤٤٤٨) و(٢٠٩٤)، ومسلم (٥٤٤)، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ، ...، فعلم المنبر ثلاث درجات، فأرسلت به إلى النبي ﷺ، فوضع في موضعه هذا الذي ترون، فجلس عليه أول يوم وضع، فكَبَّرَ وهو عليه، ثم ركَع ثم نزل القهقري فسجد وسجد الناس معه، ثم عاد حتى فرغ...

(٥) في السنن (٥٩٧).

قال: ألم تعلم أنهم كانوا يُنْهَوْنَ عن هذا، أو يُنْهَى عن ذلك؟ قال: بلى، قد ذكرت حينَ مددتنِي. وَرَوَى أيضاً^(١) عن عدي بن ثابت الأنصاري قال: حَدَّثَنِي رجلٌ أنه كان مع عمار بن ياسر بالمدائن، فأقيمت الصلاة فتقدَّم عمار بنُ ياسر، وقام على دكان يصلي والناسُ أسفلُ منه، فتقدَّم حذيفةُ فأخذَ على يديه فاتبعه عمار حتى أنزله حذيفة، فلما فرغ عمار من صلاته، قال له حذيفة: ألم تسمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا أمَّ الرجلُ القوم، فلا يقم في مكانٍ أرفعَ من مقامِهِمْ» أو نحو ذلك؟ فقال عمار: لذلك اتبعْتُكَ حينَ أخذتَ على يدي.

قلت: فهؤلاء ثلاثة من الصحابة قد أخبروا بالنهي عن ذلك، ولم يحتج أحدُ منهم على صاحبه بحديث المنبر، فدل على أنه منسوخ. ومما يدلُّ على نسخه أن فيه عملاً زائداً في الصلاة، وهو النزولُ والصعودُ، فنسخ كما نسخ الكلام والسلام. وهذا أولى ممَّا اعتذر به أصحابنا من أن النبي ﷺ كان معصوماً من الكبر؛ لأنَّ كثيراً من الأئمة يوجد لا كبرَ عندهم، ومنهم من علَّله بأنَّ ارتفاع المنبر كان يسيراً. والله أعلم^(٢).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال الكلبي وقناة وابنُ منبِّه: أوحى إليهم: أشار^(٣). القتبي^(٤): أوماً. مجاهد: كتبَ على الأرض^(٥). عكرمة: كتبَ في كتاب. والوحي في كلام العرب: الكتابة^(٦)؛ ومنه قولُ ذي الرُّمَّة:

(١) أي أبو داود في السنن (٥٩٨)، وقال المنذري في مختصر السنن ٣٠٩/١: في إسناده رجل مجهول.

(٢) المفهم ١٥٤/٢.

(٣) ذكر قول الكلبي الماوردي في النكت والعيون ٣٥٩/٣، وذكر قول قناة وابن منبِّه ابن عطية في المحرر الوجيز ٧/٤، وأخرج الطبري ٤٧١/١٥ - ٤٧٢ قول ابن منبِّه فقط.

(٤) في تفسير غريب القرآن ص ٢٧٣.

(٥) أخرجه عنه الطبري ٤٧٢/١٥، وهو في تفسير مجاهد ٣٨٤/١ بلفظ: أشار إليهم.

(٦) الصحاح (وحي).

سوى الأربع الذُّهُم اللّواتي كأنّها بَقِيَّةٌ وَخِي فِي بُطُونِ الصَّحَائِفِ^(١)
وقال عَتْرَة:

كوحى صحائف من عهد كسرى فأهداها لأعجم طُمْطُمِي^(٢)
و«بكرة وعشيًا» ظرفان، وزعم الفراء أنَّ العشيَّ يُؤنث، ويجوزُ تذكيره إذا
أَبْهَمْتَ؛ قال: وقد يكونُ العشيُّ جمعَ عشيَّة^(٣).

الرابعة: قد تقدّم الحكمُ في الإشارة في «آل عمران»^(٤).

واختلف علماؤنا فيمن حلف ألا يكلم إنساناً فكتب إليه كتاباً، أو أرسل إليه
رسولاً، فقال مالك: إنه يحنث إلا أن ينوي مشافهته، ثم رجع فقال: لا يُنَوَّى في
الكتابِ ويحنثُ إلا أن يرتجعَ الكتابَ قبل وصوله. قال ابنُ القاسم: إذا قرأ كتابه
حنث، وكذلك لو قرأ الحالفُ كتابَ المحلوف عليه. وقال أشهب: لا يحنثُ إذا قرأه
الحالف، وهذا بَيِّن؛ لأنه لم يكلمه ولا ابتدأه بكلام، إلا أن يريدَ ألا يعلمَ معنى
كلامه، فإنَّه يحنثُ وعليه يُخرجُ قولُ ابنِ القاسم، فإنَّ حلفَ ليكلمته، لم يبرَّ إلا
بمشافهته، وقاله^(٥) ابن الماجشون. وإن حلف: لئن عَلِمَ كذا ليعلمنه أو ليُخبرنه،
فكتبَ إليه أو أرسلَ إليه رسولاً برّاً، ولو علماه جميعاً لم يبر، حتى يُعلمه؛ لأنَّ
علمهما مختلف.

الخامسة: واتفق مالكُ والشافعيُّ والكوفيون أنَّ الأخرسَ إذا كتبَ الطلاقَ بيده

(١) الديوان ١٦٢٢/٣، وفيه: الأربع الذهُم.

(٢) الديوان ص ٧٨، ورجل طُمْطُمِي: في لسانه عجمة. القاموس (طمم).

(٣) المذكر والمؤنث للفراء ص ٣٠، ونقل عنه المصنف بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٩/٣.

(٤) ١٢٣/٥ وما بعدها.

(٥) في (م): وقال، والمثبت من (ظ) و(د)، وكلام ابن الماجشون وما قبله في النواذر والزيادات ١٢٥/٤

- ١٢٧، وكلام مالك في المدونة ١٣٠/٢ - ١٣١.

لزمه^(١)، قال الكوفيون: إلا أن يكونَ رجلٌ أُصِيتَ أياماً فكتبَ لم يَجْزُ من ذلك شيءٌ. قال الطحاوي^(٢): الخرسُ مخالفٌ للصمتِ العارض، كما أنَّ العجزَ عن الجماع العارضِ لمرضٍ ونحوه يوماً أو نحوه مخالفٌ للعجزِ المأبوس منه الجماع، نحو الجنون في بابِ خيارِ المرأة في الفرقة.

قوله تعالى: ﴿يَبْحِثُ خِذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ في الكلام حذفٌ، المعنى: فوُلِدَ له ولدٌ، وقال الله تعالى للمولود: «يا يحيى خذِ الكتابَ بقوة». وهذا اختصار يدلُّ الكلام عليه. و«الكتاب» التوراةُ بلا خلاف^(٣). «بقوة» أي: بجِدِّ واجتهادٍ، قاله مجاهد^(٤). وقيل: العلمُ به، والحفظُ له، والعملُ به، وهو الالتزامُ لأوامره، والكفُّ عن نواهيه، قاله زيدُ بن أسلم^(٥)، وقد تقدّم في «البقرة»^(٦). ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ قيل: الأحكام والمعرفة بها. وروى معمرُ أنَّ الصبيان قالوا ليحيى: اذهب بنا نلعب، فقال: ما لِلْعِب خُلِقْتَ. فأنزلَ الله تعالى: «وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا»^(٧). وقال قتادة: كان ابنُ سنتين أو ثلاثِ سنين. وقال مقاتل: كان ابنُ ثلاثِ سنين^(٨). و«صبيًّا» نصب على الحال^(٩). وقال ابنُ عباس: مَنْ قرأ القرآنَ قبل أن يحتلّم؛ فهو ممّن أُوتي الحكمَ صبيًّا^(١٠).

(١) مالك في المدونة ٢٤/٣، والشافعي في الأم ٢٢٧/٥، والكوفيون في مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٤٥١/٢.

(٢) في مختصر اختلاف العلماء ٤٥١/٢، وما قبله منه.

(٣) المحرر الوجيز ٧/٤.

(٤) في التفسير ٣٨٤/١، وأخرجه عنه الطبري ٤٧٣/١٥ - ٤٧٤.

(٥) النكت والعيون ٣/٣٦٠.

(٦) ١٦٥/٢.

(٧) تفسير عبد الرزاق ٤/٢، وتفسير الطبري ٤٧٤/١٥.

(٨) زاد المسير ٢١٣/٥، ونقل قول مقاتل فقط الماوردي في النكت والعيون ٣/٣٦٠.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٩/٣.

(١٠) المحرر الوجيز ٧/٤، وزاد المسير ٢١٣/٥.

ورُوي في تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن عمرو^(١)، عن النبي ﷺ قال: «كلُّ بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذَنْبٌ إلا ما كان من يحيى بن زكريا»^(٢). وقال قتادة: إنَّ يحيى عليه السلام لم يعص الله قطُّ بصغيرة ولا كبيرة ولا همَّ بامرأة^(٣). وقال مجاهد: وكان طعامُ يحيى عليه السلام العشب، وكان للدمع في خديهِ مجارٍ ثابتةً^(٤). وقد مضى الكلام في معنى قوله: «وَسَيِّدًا وَخَصُورًا» في «آل عمران»^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾: «حناناً» عطفٌ على «الحكم»^(٦). ورُوي عن ابن عباسٍ أنه قال: والله ما أدري ما «الحنان»؟. وقال جمهورُ المفسرين: الحنانُ: الشفقةُ والرحمةُ والمحبةُ، وهو فعلٌ من أفعالِ النفس^(٧). النحاس: وفي معنى الحنانِ عن ابن عباس قولان: أحدهما: قال: تَعَطَّفُ الله عزَّ وجلَّ عليه بالرحمة. والقول الآخر ما أعطيه من رحمة الناس حتى يخلصهم من الكفر والشرك^(٨). وأصله من حنين الناقة على ولدها^(٩). ويقال: حنانك وحنانك، قيل: هما لغتان بمعنى واحد. وقيل: حنانك ثنية الحنان^(١٠). وقال أبو عبيدة: والعرب تقول: حنانك ياربُّ، وحنانك

(١) في النسخ: عمر، والمثبت من المحرر الوجيز ٨/٤، والكلام منه.

(٢) لم نقف عليه من حديث عبد الله بن عمرو، وأخرجه الطبري ٣٧٧/٥ - ٣٧٨، والحاكم ٣٧٣/٢ و ٢٤٤/٤، من حديث عمرو بن العاص.

وأخرجه الطبري ٣٧٨/٥، عن سعيد بن المسيب قال: قال ابن العاص - إماماً عبد الله وإماماً أبوه -: ما أحد... فذكره من قوله، ولم يرفعه.

وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٦/٢، ومن طريقه الطبري ٤٨١/١٥، قال: كان ابن المسيب يذكر قال: قال رسول الله ﷺ: ما من أحد... فذكره.

(٣) تفسير الطبري ٤٨١/١٥، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٥/٢، عن معمر، عن قتادة، عن الحسن، عن النبي ﷺ قال: ما أذنَّب يحيى بن زكريا ذنباً، ولا همَّ بامرأة.

(٤) المحرر الوجيز ٨/٤، وما قبله منه.

(٥) ١١٦/٥ وما بعدها.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٩/٣.

(٧) المحرر الوجيز ٧/٤ - ٨.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٩/٣.

(٩) تفسير السمرقندي ٣٢٠/٢.

(١٠) المحرر الوجيز ٧/٤.

يَارْبُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ^(١)، تَرِيدُ رَحْمَتَكَ. وَقَالَ امْرَأُ الْقَيْسِ^(٢):

وَيَمْنَحُهَا بَنُو شَمَجَى بْنِ جَرْمٍ مَعِيزُهُمْ حَنَانُكَ ذَا الْحَنَانِ
وَقَالَ طَرْفَةُ^(٣):

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِ بَعْضَنَا حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ
وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ^(٤): «حَنَانًا» رَحْمَةً لِأَبْوَيْهِ وَغَيْرِهِمَا وَتَعْطَفًا وَشَفَقَةً؛ وَأَنْشَدَ
سَيَّوِيَّةً^(٥):

فَقَالَتْ حَنَانٌ مَا أَتَى بِكَ هَاهُنَا أَذُو نَسَبٍ أَمْ أَنْتَ بِالْحَيِّ عَارِفٌ
قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: الْحَنَانُ مِنْ صِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى مُشَدَّدًا: الرَّحِيمُ. وَالْحَنَانُ مُخَفَّفٌ:
الْعَطْفُ وَالرَّحْمَةُ. وَالْحَنَانُ: الرِّزْقُ وَالْبَرَكَةُ^(٦). ابْنُ عَطِيَّةٍ: وَالْحَنَانُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ
أَيْضًا مَا عُظِمَ مِنَ الْأُمُورِ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْهُ قَوْلُ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ فِي
حَدِيثِ بِلَالٍ: وَاللَّهِ لَشَنْ قَتَلْتُمْ هَذَا الْعَبْدَ لِأَتَّخِذَنَّ قَبْرَهُ حَنَانًا^(٧). وَذَكَرَ هَذَا الْخَبَرَ
الْهَرَوِيُّ، فَقَالَ: وَفِي حَدِيثِ بِلَالٍ: وَمرَّ عَلَيْهِ وَرَقَةٌ بَنُ نُوْفَلٍ وَهُوَ يُعَذِّبُ فَقَالَ: وَاللَّهِ
لَشَنْ قَتَلْتُمُوهُ لِأَتَّخِذَنَّهُ حَنَانًا، أَيِ: لِأَتَمَسَّحَنَّ بِهِ^(٨). وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ: مَعْنَاهُ لِأَتَّعَطَفَنَّ
عَلَيْهِ وَلِأَتَرْحَمَنَّ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

قُلْتُ: فَالْحَنَانُ الْعَطْفُ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ. وَ«حَنَانًا» أَيِ: تَعْطَفًا مَنًّا عَلَيْهِ، أَوْ مِنْهُ

(١) الْكَلَامُ بِنَحْوِهِ فِي الطَّبْرِيِّ ٤٧٨/١٥ .

(٢) فِي دِيَوَانِهِ ص ١٤٣ ، وَسَلَفُ ٧٨/٩ .

(٣) فِي دِيَوَانِهِ ص ٦٦ ، وَسَلَفُ ١٤٨/٥ .

(٤) فِي الْكَشَافِ ٥٠٤/٢ .

(٥) فِي الْكِتَابِ ١/٣٢٠ وَ ٣٤٩ ، وَهُوَ لِلْمُنْذَرِ بْنِ دُرْهَمٍ الْكَلْبِيِّ كَمَا فِي خَزَانَةِ الْأَدَبِ ٢/١١٤ .

(٦) تَهْذِيبُ اللَّغَةِ ٤٤٦/٣ .

(٧) الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ ٧/٤ - ٨ .

(٨) أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي حَلِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ ١/١٤٨ ، وَابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَارِيخِ دِمَشْقَ ١٠/٤٤٠ - ٤٤١ وَ ٢٥/٢٣ ، وَابْنُ حَجَرٍ فِي تَغْلِيْقِ التَّغْلِيْقِ ٣/٢٦٨ ، مِنْ حَدِيثِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: كَانَ وَرَقَةُ بْنُ نُوفَلٍ يَمُرُّ بِبِلَالٍ... وَأَوْرَدَهُ الذَّهَبِيُّ فِي السَّيْرِ ١/١٢٩ وَقَالَ: هَذَا مَرْسَلٌ. وَوَرَقَةُ لَوْ أَدْرَكَ هَذَا لَعُدَّ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَإِنَّمَا مَاتَ الرَّجُلُ فِي فِتْرَةِ الْوَحْيِ بَعْدَ النَّبُوَّةِ وَقَبْلَ الرِّسَالَةِ كَمَا فِي الصَّحِيحِ.

على الخلق؛ قال الحطيئة^(١):

تَحَنَّنْ عَلَيَّ هَذَاكَ الْمَلِكُ فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالَا

عكرمة: محبة^(٢). وَحَنَّةُ الرَّجُلِ: امرأته^(٣)؛ لتوادُّهما؛ قال الشاعر:

فَقَالَتْ حَنَانٌ مَا أَتَى بِكَ هَاهُنَا أَذُو نَسَبٍ أَمْ أَنْتَ بِالْحَيِّ عَارِفٌ^(٤)

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُ﴾ الزكاة: التطهير والبركة والتنمية في وجوه الخير والبر^(٥)،

أي: جعلناه مباركاً للناس يهديهم. وقيل: المعنى: زكَّيناه بحسنِ الشَّاءِ عليه كما تُزَكِّي

الشهود إنساناً^(٦). وقيل: «زكاة» صدقة به على أبويه؛ قاله ابنُ قتيبة^(٧). ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾

أي: مطيعاً لله تعالى، ولهذا لم يعمل خطيئة ولم يُلَمَّ بها^(٨).

قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ البرُّ بمعنى البار: وهو الكثيرُ البرِّ^(٩). و﴿جَبَّارًا﴾

متكبراً، وهذا وصفٌ ليحيى عليه السلام بليين الجانبِ وخفيضِ الجناح.

قوله تعالى: ﴿وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ قال الطبري^(١٠) وغيره: معناه: أمان. ابنُ

عطية: والأظهرُ عندي أنها التحيةُ المتعارفةُ فهي أشرفُ وأنبهُ من الأمان؛ لأنَّ الأمان

مُتَحَصِّلٌ له بنفي العصيانِ عنه وهي أقلُّ درجاته، وإنَّما الشرفُ في أن سلَّم الله عليه،

وحَيَّاهُ في المواطنِ التي الإنسانُ فيها في غايةِ الضَّعْفِ والحاجةِ، وقلَّةِ الحيلةِ والفقْرِ

إلى الله تعالى، وعظيمِ الهولِ^(١١).

(١) في ديوانه ص ٢٢٢.

(٢) أخرجه الطبري ٤٧٧/١٥.

(٣) تهذيب اللغة ٤٤٨/٣.

(٤) سلف آنفاً.

(٥) المحرر الوجيز ٨/٤.

(٦) النكت والعيون ٣/٣٦٠.

(٧) في تفسير غريب القرآن ص ٢٧٣، ونقله عنه المصنف بواسطة النكت والعيون ٣/٣٦١.

(٨) الوسيط ١٧٨/٣.

(٩) الوسيط ١٧٩/٣، والمحرر الوجيز ٨/٤.

(١٠) في التفسير ٤٨١/١٥.

(١١) في (م) و(د): عظيم الحول، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٨/٤، والكلام منه، وقد سقط هذا الموضع من (ز) و(ف) و(خ).

قلت: وهذا قولٌ حسن، وقد ذكرنا معناه عن سفيان بن عيينة في سورة سبحان^(١) عند قتل يحيى.

وذكر الطبري عن الحسن، أن عيسى ويحيى التقيان - وهما ابنا الخالة - فقال يحيى لعيسى: ادعُ الله لي؛ فأنت خيرٌ مني. فقال له عيسى: بل أنت ادعُ الله لي؛ فأنت خيرٌ مني؛ سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسي^(٢). فانتزع بعض العلماء من هذه الآية في التسليم فضل عيسى، بأن قال: إدلأه^(٣) في التسليم على نفسه، ومكانته من الله تعالى التي اقتضت ذلك حين قُدر^(٤) وحكي في محكم التنزيل أعظم في المنزلة من أن يُسلم عليه. قال ابن عطية^(٥): ولكل وجه.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا ۖ قَالَتْ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۖ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۖ قَالَتْ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۖ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۖ فَلَجَّاءَهَا الْخَمَاضُ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ۖ فَادَّهَبَا مِنْ حَتَّىٰ آتَا تَحْرِيًّا ۖ فَذَجَلْ رَبُّكِ نَحْنُكَ سَرِيًّا ۖ وَهَرَيَ إِلَيْكَ بِجَنْعِ النَّخْلَةِ فَسَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۖ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ القصّة إلى آخرها. هذا ابتداء قصّة ليست

(١) ص ٢٧ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٤/٢، والطبري ٤٨٢/١٥، ونقله المصنف بواسطة المحرر الوجيز ٨/٤.

(٣) في (د): إذلأه، وهي كذلك في المحرر الوجيز ٨/٤، والكلام منه، ومعنى إدلأه: ثقته، من قولهم: فلان يؤد بفلان، أي: يثق به، كما في الصحاح (دل).

(٤) في (م): قرر.

(٥) في المحرر الوجيز ٨/٤، والكلام بنحوه عند الرازي ١٩٤/٢١.

من الأولى، والخطابُ لمحمدٍ ﷺ^(١)، أي: عَرَفَهُمْ قَصَّتْهَا ليعرفوا كمالَ قدرتنا. ﴿إِذْ أَنْبَأْتَ أَي: تَنَحَّتْ وتباعدت. والنَبَذُ: الطَرْحُ والرمي، قال الله تعالى: ﴿فَتَبَدُّوهُ وَرَأَى ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ أَي: مِمَّنْ كان معها.

و«إِذْ» بدل من «مريم» بدل اشتمال؛ لأنَّ الأحيان مشتملةٌ على ما فيها، والانتبأذ: الاعتزَالُ والانفراد^(٢).

واختلف الناسُ لم انتبذت؟ فقال السُّدِّيُّ: انتبذت لَتَطَهَّرَ من حيضٍ^(٣). وقال غيره: لتعبدَ الله، وهذا حسنٌ؛ وذلك أنَّ مريمَ عليها السلامُ كانت وقفاً على سُدانةِ المعبدِ وخدمتهِ والعبادةِ فيه، فتنحَّت من الناسِ لذلك، ودخلت في المسجدِ إلى جانبِ المحرابِ في شرفه لتخلو للعبادةِ، فدخل عليها جبريل عليه السلام. فقله: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أَي: مكاناً من جانبِ الشرقِ. والشَّرْقُ بسكونِ الراء: المكانُ الذي تُشرق فيه الشمسُ. والشَّرْقُ بفتحِ الراء: الشمسُ^(٤). وإنَّما حُصِّصَ المكانُ بالشرق؛ لأنهم كانوا يُعظمون جهةَ المشرق، ومن حيثُ تطلع الأنوار، وكانت الجهاتُ الشرقية من كل شيءٍ أفضلَ من سواها، حكاه الطبري^(٥). وحكى عن ابنِ عباس أنه قال: إني لأعلمُ الناسَ لِمَ اتخذ النَّصارى المشرقَ قبلةً؛ لقول الله عزَّ وجلَّ: «إِذْ أَنْبَأْتَ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا» فاتخذوا ميلادَ عيسى عليه السلام قبلة، وقالوا: لو كان شيءٌ من الأرض خيراً من المشرق لوضعت مريمُ عيسى عليه السلام فيه.

واختلف الناس في نبوةِ مريم، فقليل: كانت نبيةً بهذا الإرسال والمحاورة للملك. وقيل: لم تكن نبيةً، وإنما كلَّمها مثالُ بشر، ورؤيتها للملك كما رُئي جبريلُ

(١) المحرر الوجيز ٨/٤.

(٢) الكشف ٥٠٤/٢ - ٥٠٥.

(٣) بعدها في (م) و(د): أو نفاس، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٩/٤ والكلام منه، وقد سقط هذا الموضع من بقية النسخ.

(٤) تهذيب اللغة ٣١٦/٨.

(٥) في التفسير ٤٨٤/١٥ - ٤٨٥، وقول ابن عباس الآتي فيه.

في صفة دُخية حين سؤاله عن الإيمان والإسلام. والأول أظهر^(١). وقد مضى الكلام في هذا المعنى مستوفى في «آل عمران»^(٢) والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ قيل: هو روح عيسى عليه السلام؛ لأن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد، فرُكِب الروح في جسد عيسى عليه السلام الذي خلقه في بطنها. وقيل: هو جبريل، وأضيف الروح إلى الله تعالى تخصيصاً وكرامة^(٣). والظاهر أنه جبريل عليه السلام؛ لقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ أي: تمثل الملك لها ﴿بَشَرًا﴾ تفسير أو حال^(٤) ﴿سَوِيًّا﴾ أي: مستوي الخلقة؛ لأنها لم تكن لتطيق أن^(٥) تنظر جبريل في صورته. ولما رأت رجلاً حسن الصورة في صورة البشر قد خرق عليها الحجاب ظنّت أنه يريد بها بسوء، ف ﴿قَالَتْ إِنَّيْ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾ أي: ممن يتقي الله. البكالي: فنكص جبريل عليه السلام فزعاً من ذكر الرحمن تبارك وتعالى. الثعلبي: كان رجلاً صالحاً فتعوّذت به تعجباً. وقيل: تقي فعيل بمعنى مفعول، أي: كنت ممن يُتَّقَى منه. في «البخاري»: قال أبو وائل: علمت مريم أن التقي ذو نهيّة حين قالت: «إن كنت نقياً»^(٦). وقيل: تقي: اسم فاجر معروف في ذلك الوقت، قاله وهب بن منبه، حكاه مكي وغيره. ابن عطية^(٧): وهو ضعيف ذاهب مع التّخرّص. فقال لها جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله. وقرأ ورش، عن نافع: ﴿لِيَهَبَ لَكِ﴾^(٨) على معنى: أرسلني الله ليهب لك. وقيل: معنى: «لأهب» بالهمز

(١) المحرر الوجيز ٩/٤.

(٢) ١٢٦/٥ وما بعدها.

(٣) النكت والعيون ٣/٣٦٢، ومعاني القرآن وإعراجه للزجاج ٣/٣٢٢، والمحرر الوجيز ٩/٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١٠/٣.

(٥) في (د) و(م): أو، والمثبت من (ظ)، وسقط هذا الموضع من (ف) و(ز) و(خ).

(٦) صحيح البخاري قبل حديث (٤٧٣٠)، وأخرجه الطبري ٤٨٧/١٥.

(٧) في المحرر الوجيز ٩/٤، وما قبله منه.

(٨) التيسير ص ١٤٨، والبغوي ٣/١٩١، وزاد المسير ٥/٢١٧، والرازي ٢١/١٩٨.

محمولٌ على المعنى، أي: قال: أرسلته لأهب لك. ويحتمل «ليهب» بلا همز أن يكون بمعنى المهموز ثم خُففت الهمزة. فلما سمعت مريم ذلك من قوله، استفهمت عن طريقه ف ﴿قَالَتْ أَأَنْ يَكُونَ لِي غُلَمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ أي: بنكاح، ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي: زانية، وذكرت هذا تأكيداً؛ لأن قولها: لم يمسنني بشر، يشمل الحلال والحرام. وقيل: ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئاً، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد؟ من قبل الزوج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداءً^(١)؟ وروي أن جبريل عليه السلام حين قال لها هذه المقالة نفخ في جيب درعها وكمها؛ قاله ابن جريج^(٢). ابن عباس: أخذ جبريل عليه السلام رُذْن قميصها بإصبعه فنفخ فيه، فحملت من ساعتها بعيسى^(٣). قال الطبري^(٤): وزعمت النصارى أن مريم حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وأن عيسى عاش إلى أن رُفِع اثنتين وثلاثين سنة وأياماً، وأن مريم بقيت بعد رفعه ست سنين، فكان جميع عمرها نيفاً وخمسين سنة.

وقوله: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّكَ﴾ متعلقٌ بمحذوف، أي: ونخلقه لنجعلهُ ﴿ءَايَةً﴾ دلالةً على قدرتنا عجيبة ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمنَ به ﴿وَكَاثَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مقدراً في اللوح مسطوراً^(٥). قوله تعالى: ﴿فَأَنْبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي: تنحّت بالحمل إلى مكان بعيد، قال ابن عباس: إلى أقصى الوادي، وهو وادي بيت لحم بينه وبين إيلياء أربعة أميال، وإنما بعدت فراراً من تعيير قومها إياها بالولادة من غير زوج^(٦). قال ابن عباس: ما هو إلا أن حملت فوضعت في الحال^(٧). وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى ذكر الانتبأ عقب الحمل^(٨). وقيل غير ذلك على ما يأتي.

(١) تفسير الطبري ٤٨٨/١٥ - ٤٨٩.

(٢) أخرجه الطبري ٤٩١/١٥.

(٣) الوسيط ١٨٠/٣.

(٤) في التاريخ ٥٨٥/١.

(٥) الكشف ٥٠٥/٢.

(٦) الوسيط ١٨٠/٣، والمحرم الوجيز ١٠/٤.

(٧) أخرجه الطبري ٤٩٧/١٥.

(٨) زاد المسير ٢١٩/٥.

قوله تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ «أَجَاءَهَا» اضطرها، وهو تعدية جاء بالهمز^(١). يقال: جاء به وأجاءه إلى موضع كذا، كما يقال: ذهب به وأذهب^(٢). وقرأ شبيل ورويت عن عاصم: «فاجأها» من المفاجأة. وفي مصحف أبي: «فلما أجاءها المخاض». وقال زهير:

وَجَارٍ سَارَ مَعْتَمِدًا إِلَيْنَا أَجَاءَتْهُ الْمَخَافَةُ وَالرَّجَاءُ
وقرأ الجمهور: «المَخَاضُ» بفتح الميم، وابن كثير فيما روي عنه بكسرها وهو الطَّلُقُ وشدة الولادة وأوجاعها^(٣). مَخَضَتِ المرأةُ تَمَخَضُ مَخَاضًا وَمَخَاضًا، وناقَةٌ مَخَضُ، أي: دنا ولادها^(٤). «إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ» كأنها طلبت شيئاً تستند إليه وتتعلق به، كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق. والجذع: ساق النخلة اليابسة في الصحراء الذي لا سعف عليه ولا غصن، ولهذا لم يقل: إلى النخلة^(٥).

﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ تَمَنَّتْ مَرِيَمُ عليها السلام الموتَ من جهة الدِّينِ لوجهين: أحدهما: أنها خافت أن يُظَنَّ بها الشرُّ في دينها وتُعَيَّرَ فيفتنها ذلك^(٦). الثاني: لثلا يقع قومٌ بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنى، وذلك مهلك^(٧). وعلى هذا الحدّ يكون تمنى الموت جائزاً، وقد مضى هذا المعنى مبيناً في سورة يوسف^(٨) عليه السلام. والحمد لله.

قلت: وقد سمعتُ أن مَرِيَمَ عليها السلام سمعت نداءً من يقول: اخرج يا مَنْ

(١) المحرر الوجيز ١٠/٤ .

(٢) شرح ديوان زهير ص ٧٧ .

(٣) المحرر الوجيز ١٠/٤ ، وبيت زهير في شرح ديوانه ص ٧٧ .

(٤) تهذيب اللغة ١٢٢/٧ .

(٥) الكلام بنحوه عند البغوي ١٩٢/٣ .

(٦) المحرر الوجيز ١٠/٤ .

(٧) زاد المسير ٢٢٠/٥ .

(٨) ٢٦٩/٩ وما بعدها.

يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَحَزَنْتَ لَذَلِكَ، ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾^(١) النَّسِيُّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الشَّيْءُ الْحَقِيرُ الَّذِي شَأْنُهُ أَنْ يُنْسَى وَلَا يُتَأَلَمَ لِفَقْدِهِ كَالْوَتِدِ وَالْحَبْلِ لِلْمَسَافِرِ وَنَحْوِهِ^(٢). وَحُكِيَ عَنِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا الرِّحِيلَ عَنْ مَنْزِلٍ قَالُوا: احْفَظُوا أَنْسَاءَكُمْ^(٣). الْأَنْسَاءُ جَمْعُ نَسِيٍّ: وَهُوَ الشَّيْءُ الْحَقِيرُ يُغْفَلُ فَيُنْسَى. وَمِنْهُ قَوْلُ الْكَمِيتِ^(٤):

أَتَجْعَلُنَا جِسْرًا لِكَلْبٍ قُضَاعَةٌ وَلَسْتُ بِنَسِيٍّ فِي مَعَدٍّ وَلَا دَخَلٍ
وَقَالَ الْفَرَاءُ^(٥): النَّسِيُّ: مَا تُلْقِيهِ الْمَرْأَةُ مِنْ خِرْقٍ اعْتَلَالِهَا، فَقَوْلُ مَرْيَمَ: «نَسِيًّا مَنَسِيًّا»، أَيُ: حِيْضَةٌ مُلْقَاةٌ، وَقُرِئَ «نَسِيًّا» بِفَتْحِ النُّونِ^(٦)، وَهِيَ لَغَتَانِ مِثْلُ: الْحَجَرِ وَالْحَجَرِ، وَالْوَتْرِ وَالْوَتْرِ.

وَقَرَأَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ بِالْهَمْزِ: «نِسْنًا» بِكَسْرِ النُّونِ، وَقَرَأَ نُوْفُ الْبِكَالِيُّ: «نَسْنًا» بِفَتْحِ النُّونِ مِنْ: نَسَأَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَجَلِهِ، أَيُ: أَخَّرَهُ، وَحَكَاهَا أَبُو الْفَتْحِ وَالدَّانِي عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ. وَقَرَأَ بَكْرُ بْنُ حَبِيبٍ «نَسًا» بِتَشْدِيدِ السِّينِ وَفَتْحِ النُّونِ دُونَ هَمْزٍ^(٧).

وَقَدْ حَكَى الطَّبْرِيُّ^(٨) فِي قِصَصِهَا أَنَّهَا لَمَّا حَمَلَتْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَمَلَتْ أَيْضًا أَخْتُهَا بِيْحَى، فَجَاءَتْهَا أَخْتُهَا زَائِرَةً فَقَالَتْ: يَا مَرْيَمُ، أَشَعَرْتَ أَنْتِ أَنِّي حَمَلْتُ؟ فَقَالَتْ لَهَا: وَإِنِّي أَجِدُ مَا فِي بَطْنِي يَسْجُدُ لِمَا فِي بَطْنِكَ، فَذَلِكَ أَنَّهُ رَوَى أَنَّهَا أَحْسَتْ بِجَنِينِهَا يَخْرُ بَرَأْسِهِ إِلَى نَاحِيَةِ بَطْنِ مَرْيَمَ، قَالَ السِّدِّي: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: «مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ

(١) المحرر الوجيز ١٠/٤.

(٢) الكشف ٥٠٦/٢.

(٣) في ديوانه ص ٢٦٢.

(٤) في معاني القرآن ١٦٤/٢ - ١٦٥.

(٥) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي بكسر النون. وقرأ حمزة وحفص بالفتح، واختلف عن عاصم. السبعة ص ٤٠٨، والتيسير ص ١٤٨.

(٦) المحتسب ٤٠/٢، والمحرر الوجيز ١٠/٤ - ١١ وفي المحتسب أن قراءة بكر بن حبيب السهمي: نَسْنًا بفتح النون مهموزة.

(٧) في التاريخ ٥٩٩/١.

اللَّهُ وَسَيِّدًا وَخَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ».

وذكر أيضاً^(١) من قصصها أنها خرجت فارّةً مع رجلٍ من بني إسرائيل يقال له يوسف النجار، كان يخدم معها في المسجد، وطَوَّل في ذلك. قال الكلبي: قيل ليوسف، وكانت سُميت له: إنها حملت من الزنى، فالآن يقتلها الملك، فهرب بها، فهمّ في الطريق بقتلها، فأتاه جبريلُ عليه السلام وقال له: إنه من روح القدس^(٢).

قال ابنُ عطية^(٣): وهذا كلّهُ ضعيف، وهذه القصة تقتضي أنها حملت، واستمرت حاملاً على عرفِ النساء، وتظاهرت الرواياتُ بأنّها ولدته لثمانية أشهر. قاله عكرمة؛ ولذلك قيل: لا يعيش ابنُ ثمانية أشهرٍ حفظاً لخاصة عيسى. وقيل: ولدته لسبعة^(٤). وقيل: لستة. وما ذكرناه عن ابنِ عباسٍ أصحُّ وأظهر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَيْنَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ قُرئ بفتح الميم وكسرها^(٥). قال ابنُ عباس: المراد بـ «من» جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها؛ وقاله علقمة والضحاك وقتادة، ففي هذا لها آية وأمارّة أنّ هذا من الأمور الخارقة للعادة التي لله فيها مرادٌ عظيم^(٦). وقوله: ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾ تفسيرُ النداء، «وَأَنْ» مفسّرة بمعنى أي، المعنى: فلا تحزني بولادتك. ﴿فَدَجَمَلْ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سَرِيًّا﴾ يعني عيسى. والسريُّ من الرجال العظيم الخصال السيّد. قال الحسن: كان والله سريّاً من الرجال. ويقال: سري فلان على فلان، أي: تكرم، وفلان سريٌّ من قوم سراًة. وقال الجمهور: أشار لها إلى الجدول

(١) أي الطبري في التاريخ ٥٩٥/١.

(٢) عرائس المجالس ص ٣٨٦.

(٣) في المحرر الوجيز ١٠/٤ - ١١.

(٤) في (م): لتسعة، والمثبت من (ظ) و(د)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ١١/٤، وذكر الماوردي في النكت والعيون ٣/٣٦٢ أربعة أقوال في مدة حملها وهي: تسعة أشهر، وستة أشهر، ويوماً واحداً، وثمانية أشهر.

(٥) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وشعبة بفتح الميم، والباقون بكسرها. السبعة ص ٤٠٨-٤٠٩، والتيسير ص ١٤٨.

(٦) المحرر الوجيز ١١/٤، وفي (د) و(ظ): عكرمة بدل علقمة.

الذي كان قريب جذع النخلة^(١). قال ابن عباس: كان ذلك نهراً قد انقطع ماؤه، فأجراه الله تعالى لمريم^(٢)، والنهرُ يسمَّى سَرِيًّا؛ لأنَّ الماءَ يسري فيه، قال الشاعر:
سَلَّمَ تَرَى الدَّالِيَّ مِنْهُ أَزُورَا إِذَا يَعُجُّ فِي السَّرِيِّ هَرَهَرَا^(٣)
وقال لبيد:

فَتَوَسَّطَا غُرْضَ السَّرِيِّ وَصَدَّعَا مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قُلَامُهَا^(٤)
وقيل: ناداها عيسى، وكان ذلك معجزةً وآيةً وتسكيناً لقلبها، والأول أظهر^(٥).
وقرأ ابن عباس: «فناداها ملك من تحتها» قالوا: وكان جبريل عليه السلام في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت هي عليها.
قوله تعالى: ﴿وَهَزَيَ إِلَيْكَ الْجَنَّةَ النَّخْلَةَ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غِنًى فُكِّلَ وَأَشْرَى وَقَرَى عَيْنًا﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «وَهَزَيَ» أمرها بهزُّ الجذع اليابس لترى آيةً أخرى في إحياء مواتِ الجذع، والباء في قوله: «بجذع» زائدة مؤكدة^(٦) كما يقال: خذ بالزمام، وأعط بيدك؛ قال الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥] أي: فليمدد سبباً^(٧).

(١) المحرر الوجيز ١١/٤، والنكت والعيون ٣/٣٦٥ - ٣٦٦، وزاد المسير ٢٢٢/٥، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/٣٢٥.

(٢) أخرجه الطبري ٥٠٦/١٥ - ٥٠٧ بنحوه.

(٣) البيت في معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/٣٢٥، والكامل للمبرد ٣/١١٤٥، وتهذيب اللغة ٥/٣٦١ بدون نسبة، وفي (م): «يعبُّ» بدل «يعج»، والمثبت من النسخ الخطية والكامل ومعاني القرآن، وفي الكامل فقط الدالج بدل الدالي، وخطاً المبرد رواية الدالي، وقال: السُّلَم: الدلو الذي له عروة واحدة، وهو دلو السقائين، والدالج: الذي يمشي بالدلو بين البئر والحوض.

(٤) شرح ديوان لبيد ص ٣٠٧، وقال شارحه: عرض: ناحية، السري: نهر صغير: مسجورة: مملوءة يعني عيناً، القلَام: نبت، وقيل: هو القصب.

(٥) الوسيط ٣/١٨١، والنكت والعيون ٣/٣٦٤، وزاد المسير ٥/٢٢١.

(٦) المحرر الوجيز ١١/٤ - ١٢.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/١٦٥، والوسيط ٣/١٨١، والكشاف ٢/٥٠٧، وزاد المسير ٥/٢٢٢.

وقيل: المعنى: وهزي إليك رطباً على جذع النخلة. و«تَسَاقَطَ» أي: تتساقط فأدغم التاء في السين. وقرأ حمزة: «تَسَاقَطَ» مخففاً، فحذف التي أدغمها غيره. وقرأ عاصم في رواية حفص: «تُسَاقَطَ» بضم التاء مخففاً وكسر القاف^(١). وقرئ: «تَتَسَاقَطَ» بإظهار التاءين و: «يَسَاقَطَ» بالياء وإدغام التاء: و«تُسَقِطُ» و«يُسَقِطُ» و«تَسْقُطُ» و«يَسْقُطُ» بالتاء للنخلة وبالياء للجذع، فهذه تسع قراءات ذكرها الزمخشري^(٢) رحمة الله تعالى عليه. «رطباً» نُصِبَ بالهز^(٣)، أي: إذا هَزَزْتَ الجذعَ هَزَزْتَ بهزّه «رطباً» جنياً». وعلى الجملة فـ «رطباً» يختلفُ نصبه بحسبِ معاني القراءات، فمرة يستند الفعلُ إلى الجذع، ومرة إلى الهز، ومرة إلى النخلة. «وجنياً» معناه: قد طابت وصلحت للاجتماع، وهي من جنيت الثمرة^(٤). ويروى عن ابن مسعود - ولا يصح - أنه قرأ: «تُسَاقَطَ عليك رطباً جنياً بَرْنِيّاً»^(٥). وقال مجاهد: «رطباً جنياً» قال: كانت عجوة^(٦). وقال عباس بن الفضل: سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله: «رطباً جنياً» فقال: لم يَذُو^(٧). قال: وتفسيره: لم يجف ولم يبس ولم يبعد عن يدي مُجْتَنِيه، وهذا هو الصحيح. قال الفراء^(٨): الجَنِيُّ والمَجْنِيُّ واحدٌ. يذهبُ إلى أنهما بمنزلة القَتِيلِ والمَقْتُولِ والجَرِيحِ والمَجْرُوحِ. وقال غيرُ الفراء: الجَنِيُّ: المَقْطُوعُ من نخلة واحدة^(٩)، والمأخوذُ من مكان نشأته، وأنشدوا:

(١) السبعة ص ٤٠٩، والتيسير ص ١٤٩.

(٢) في الكشف ٥٠٧/٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٣/٣. وقال أيضاً ١٢/٣، والزجاج في معاني القرآن ٣/٣٢٦: إنها منصوبة على التمييز، وقال الزمخشري ٥٠٧/٢، والرازي ٢٠٦/٢١: رطباً تمييز أو مفعول.

(٤) المحرر الوجيز ١٢/٤.

(٥) لم نقف عليها عند غير المصنف، والبرنئي: ضَرَبَ من التمر. الصحاح (برن).

(٦) النكت والعيون ٣/٣٦٧، وأخرجه عنه الطبري ٥١٢/١٥.

(٧) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٣/٣٦٧.

(٨) في معاني القرآن ١٦٦/٢.

(٩) ذكر نحو هذا الطبري ٥١٤/١٥ - ٥١٥.

وطيبُ ثمارٍ في رياضٍ أريضةٍ وأغصانُ أشجارٍ جناها على قُربٍ^(١)
 يريدُ بالجنَى ما يُجنَى منها، أي: يُقطع ويُؤخذ. قال ابنُ عباس: كان جذعاً
 نخراً^(٢)، فلَمَّا هَزَّتْ نظرتُ إلى أعلى الجِذع فإذا السَّعْفُ^(٣) قد طلع، ثم نظرتُ إلى
 الطلعِ قد خرجَ من بينِ السَّعْفِ، ثم اخضرَّ فصار بلحاً، ثم احمرَّ فصار زهواً، ثم
 رطباً، كلُّ ذلك في طرفَةِ عينٍ، فجعلَ الرطبُ يقعُ بين يديها لا ينشدُ^(٤) منه شيءٌ.
 الثانية: استدَلَّ بعضُ الناسِ من هذه الآية على أنَّ الرزقَ وإن كان محتوماً، فإنَّ
 الله تعالى قد وَكَّلَ ابنَ آدمَ إلى سعيِّ ما فيه؛ لأنه أمرَ مريمَ بهزِّ النخلةِ لترى آيةً،
 وكانت الآيةُ تكونُ بآلاً تَهْزُ^(٥).

الثالثة: الأمرُ بتكليفِ الكسبِ في الرزقِ سنَّةُ الله تعالى في عباده، وإنَّ ذلك لا
 يقدحُ في التوكلِ، خلافاً لما تقولُه جُهاُلُ المُتزهدة، وقد تقدَّم هذا المعنى والخلافُ
 فيه. وقد كانت قبلَ ذلك يأتِيها رزقُها من غير تكسبٍ كما قال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا
 الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ الآية [آل عمران: ٣٧]، فلما وَلَدَتْ أُمِرَتْ بهزِّ الجِذع. قال
 علماؤنا: لَمَّا كان قلبُها فارغاً، فرَّغَ اللهُ جارحتَها عن النصبِ، فلَمَّا وَلَدَتْ عيسى
 وتعلَّقَ قلبُها بحبه، واشتغلَ سيرُها بحديثه وأمره، وكَلَّها إلى كسبِها، وردَّها إلى العادةِ
 بالتعلُّقِ بالأسبابِ في عباده^(٦).

وحكى الطبريُّ عن ابنِ زَيْدٍ، أنَّ عيسى عليه السلام قالَ لها: لا تحزني، فقالت
 له: وكيفَ لا أحزنُ وأنتَ معي؟! لا ذاتَ زوجٍ ولا مملوكة! أيُّ شيءٍ عُذري عندَ

(١) البيت لبعض الأعراب كما في الأضداد لابن الأنباري ص ٢١٩، وهو أيضاً في ذيل الأماشي والنوادر
 لأبي علي القالي ص ١٢٨، وزهر الآداب للقيرواني ٩٩٩/٢.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري ٥١١/١٥ بلفظ: كان جذعاً يابساً، فقال لها: هُزِّي تساقط عليك رطباً جنيًا.

(٣) السَّعْفُ: جمع سَعْفَةٍ وهي غصن النخل. الصحاح (سقف).

(٤) الشَّدْحُ: كسر الشيء الأجوف. الصحاح (شدخ).

(٥) المحرر الوجيز ١٢/٤.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ١٢٤٠/٣.

الناس؟! «يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا» فقال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام^(١).

الرابعة: قال الربيعُ بْنُ خُثَيْمٍ: ما للنفساءِ عندي خيرٌ من الرُّطْبِ^(٢) لهذه الآية، ولو علم الله شيئاً هو أفضلٌ من الرُّطْبِ للنفساءِ لأطعمه مريمَ، ولذلك قالوا: التمرُ عادةٌ للنفساءِ من ذلك الوقت، وكذلك التَّحْنِيكُ. وقيل: إذا عُسِرَ ولادُها لم يكن لها خيرٌ من الرُّطْبِ، ولا للمريضِ خيرٌ من العسلِ؛ ذكره الزمخشري^(٣).

قال ابنُ وهب: قال مالكٌ: قال الله تعالى: ﴿رُطْبًا جَنِيًّا﴾ الجَنِيُّ من التمرِ ما طابَ من غيرِ نَقْشٍ ولا إفسادٍ. والنَّقْشُ أن يُنْقَشَ من أسفلِ البسرةِ حتى تُرْطَبَ، فهذا مكروه. يعني مالكٌ أنَّ هذا تعجيلٌ للشيءِ قبلَ وقته، فلا ينبغي لأحدٍ أن يفعله، وإن فَعَلَهُ فاعِلٌ ما كَانَ ذلك مُجَوِّزاً لبيعِهِ، ولا حُكْماً بطبيعِهِ، وقد مضى هذا القولُ في «الأنعام»^(٤). والحمد لله.

عن طلحة بن سليمان «جَنِيًّا» بكسر الجيم للإتباع، أي: جمعنا^(٥) لك في السريِّ والرُّطْبِ فائدتين: إحداهما: الأكلُ والشربُ، الثانيةُ: سَلَوَةُ الصدرِ؛ لكونهما معجزتين، وهو [في معنى] قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: فأكلي من الجَنِيِّ، واشربي من السَّريِّ، وقَرِّي عيناَ برؤية الولدِ النبيِّ. وقُرئ بفتح القاف وهي قراءةُ الجمهورِ. وحكى الطبريُّ قراءةً: «وَقَرِّي» بكسرِ القافِ وهي لغةُ نجد^(٦). يقال: قَرَّ عيناَ يَقَرُّ وَيَقَرُّ بِضَمِّ القافِ وكسرها، وأقرَّ الله عينَهُ فَقَرَّتْ. وهو مأخوذٌ من القُرِّ

(١) تفسير الطبري ٥٠٥/١٥ و ٥١٨، ونقل عنه بواسطة المحرر الوجيز ١٢/٤.

(٢) تفسير السمرقندي ٣٢٢/٢، والبغوي ١٩٣/٣.

(٣) في الكشف ٥٠٧/٢.

(٤) ٤٧٦/٨، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ١٢٤١/٣.

(٥) في (د) و(م): جعلنا، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في الكشف ٥٠٧/٢، والكلام منه، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٦) تفسير الطبري ٥١٦/١٥.

والقِرَّةَ وهما البَرْد. ودمعة السرور باردة، ودمعة الحزن حارة. وضَعَفَ فرقة هذا وقالت: الدمعُ كُلُّه حارٌّ، فمعنى أقرَّ الله عينه، أي: سَكَنَ الله عينه بالنظرِ إلى مَنْ يُحِبُّه حتى تَقَرَّ وتسكن، وفلانٌ قَرَّةُ عيني، أي: نفسي تسكنُ بقربه. وقال الشَّيباني: «وقرِّي عيناً» معناه: نامي، حضَّها على الأكلِ والشربِ والنوم. قال أبو عمرو: أقرَّ الله عينه، أي: أنامَ عينه، وأذهبَ سهره. و«عيناً» نُصِبَ على التمييزِ؛ كقولك: طب نفساً. والفعلُ في الحقيقةِ إنّما هو للعين، فنقل ذلك إلى ذي العين، ويُنصبُ الذي كان فاعلاً في الحقيقةِ على التفسير. ومثله: طبْتُ نفساً، وتَفَقَّأتُ شحماً، وتَصَبَّيْتُ عرقاً، ومثله كثيرٌ^(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ فيه ثلاث مسائل: الأولى: قولُ تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيَنَّ﴾ الأصلُ في «تَرَيَنَّ»: «تَرَأَيْنَ»، فحُذِفَت الهمزة كما حُذِفَت من «تري»، ونُقِلَت فتحتُها إلى الراء فصارَ «تريين»، ثم قُلِبَت الياءُ الأولى ألفاً؛ لتحركِها وانفتاحِ ما قبلها، فاجتمعَ ساكنانِ الألفُ المنقلبةُ عن الياءِ وياءُ التانيث، فحُذِفَت الألفُ؛ لالتقاءِ الساكنين، فصارَ «تَرَيْنَ» ثم حُذِفَت النونُ علامةً للجزم؛ لأنَّ «إن» حرفُ شرطٍ و«ما» صلةٌ فبقيَ تَرَيَّ، ثم دخله نونُ التوكيدِ وهي مثقلةٌ، فكُسِرَ ياءُ التانيثِ؛ لالتقاءِ الساكنين؛ لأنَّ النونَ المثقلةَ بمنزلةِ نونين الأولى ساكنةً، فصارَ تَرَيْنَ^(٢). وعلى هذا النحو قولُ ابنِ دُرَيْدٍ:

إِمَّا تَرَيَّ رَأْسِي حَاكِي لُونُهُ^(٣)

وقولُ الأَفْوهِ: إِمَّا تَرَيَّ رَأْسِي أَرْزَى بِهِ^(٤)

(١) المحرر الوجيز ١٢/٤، وإعراب القرآن للنحاس ١٣/٣، وتهذيب اللغة ٢٧٦/٨، وما بعدها.

(٢) البيان لابن الأنباري ١٢٣/٢، والمحرر الوجيز ١٢/٤ - ١٣، وأمالى ابن الشجري ٤٨٩/٢، وما بعدها.

(٣) شرح مقصورة ابن دريد للتبريزي ص ٣، وعجزة: طُرَّةٌ صبح تحت أذيالِ الدُّجَى.

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١٢/٤، والمعري في رسالة الملائكة ص ١٣، وعجزة: مَأْسُ زمان ذي انتكاس مؤوس.

وقال المعري: مَأْسُ بين القوم إذا أفسد بينهم.

وإنما دخلت النون هنا بتوطئة «ما» كما يوطئ لدخولها أيضاً لأم القسم، وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة: «تَرَيْنَ» بسكون الياء وفتح النون خفيفة، قال أبو الفتح^(١): وهي شاذة.

الثانية: قوله تعالى: «فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ» هذا جواب الشرط وفيه إضمار، أي: فسألك عن ولدك «فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً» أي: صمتاً^(٢)؛ قاله ابن عباس وأنس بن مالك^(٣). وفي قراءة أبي بن كعب: «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً صَمْتاً». وروي عن أنس^(٤). وعنه^(٥) أيضاً «وصمتاً» بواو، واختلاف اللفظين يدل على أن الحرف ذكر تفسيراً لا قرآناً، فإذا أتت معه واو فممكن أن يكون غير الصوم، والذي تتابع به الأخبار عن أهل الحديث ورواة اللغة^(٦) أن الصوم هو الصمت؛ لأن الصوم إمساك، والصمت إمساك عن الكلام. وقيل: هو الصوم المعروف، وكان يلزمهم الصمت يوم الصوم إلا بالإشارة^(٧)، وعلى هذا تخرج قراءة أنس: «وصمتاً» بواو، وأن الصمت كان عندهم في الصوم ملتزماً بالندب، كما أن من نذر من المشي إلى البيت اقتضى ذلك الإحرام بالحج أو العمرة. ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمرها على لسان جبريل عليه السلام - أو ابنها على الخلاف المتقدم - بأن تمسك عن مخاطبة البشر، وتحيل على ابنها في ذلك؛ ليرتفع عنها خجلها، وتبين الآية فيقوم عذرهما. وظاهر الآية أنها أبيع لها أن تقول هذه الألفاظ التي في الآية، وهو قول الجمهور.

(١) في المحتسب ٤٢/٢، والكلام من المحرر الوجيز ١٢/٤ - ١٣.

(٢) تفسير البغوي ١٩٣/٣، والوسيط ١٨١/٣.

(٣) أخرجه عنهما الطبري ٥١٦/١٥ - ٥١٧.

(٤) النكت والعيون ٣٦٧/٣، والكشاف ٥٠٧/٢، وزاد المسير ٢٢٥/٥.

(٥) أي: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وأخرجه الطبري ٥١٧/١٥، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٨٤.

(٦) كما في الصحاح (صوم)، وتهذيب اللغة ٢٥٩/١٢ - ٢٦٠.

(٧) الكلام بنحوه في الطبري ٥٢٠/١٥، وتفسير السمرقندي ٣٢٢/٢.

وقالت فرقة: معنى «قولي» بالإشارة لا بالكلام^(١). الزمخشري: وفيه أن السكوت عن السفية واجب، ومن أذل الناس سفية لم يجد مسافها^(٢).

الثالثة: من التزم بالنذر ألا يكلم أحداً من الآدميين، فيحتمل أن يقال: إنه قربة فيلزم بالنذر، ويحتمل أن يقال: ذلك لا يجوز في شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس، كنذر القيام في الشمس ونحوه. وعلى هذا كان نذر الصمت في تلك الشريعة لا في شريعتنا، وقد تقدّم^(٣). وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام^(٤)، وهذا هو الصحيح؛ لحديث أبي إسرائيل، خرّجه البخاري^(٥) عن ابن عباس. وقال ابن زيد والسدي: كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام^(٦).

قلت: ومن سنتنا نحن في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح، قال عليه الصلاة والسلام: «إذا كان أحدكم صائماً، فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ قاتله أو شاتمته؛ فليقل: إني صائم»^(٧). وقال عليه الصلاة والسلام: «من لم يدع قول الزور والعمل به؛ فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»^(٨).

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ۝١٧ يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْوً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ۝١٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ روي أن مريم لما اطمأنت بما رأت من

(١) المحرر الوجيز ١٣/٤.

(٢) الكشف ٥٠٧/٢.

(٣) ٢٣٦/٣ - ٢٣٧.

(٤) المحرر الوجيز ١٣/٤.

(٥) البخاري (٦٧٠٤)، وسلف ٢٣٧/٣.

(٦) المحرر الوجيز ١٣/٤.

(٧) أخرجه أحمد (٧٣٤٠)، ومسلم (١١٥١)، من حديث أبي هريرة.

(٨) أخرجه البخاري (١٩٠٣)، من حديث أبي هريرة، وسلف ١٢٣/٣.

الآيات، وعلمت أن الله تعالى سَيِّبُ عَذْرَهَا، أَتَتْ بِهِ تَحْمِلُهُ مِنَ الْمَكَانِ الْقَصِيِّ الَّذِي كَانَتْ انْتَبَذَتْ فِيهِ^(١). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِمْ حِينَ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، فَجَاءَتْهُمْ عِنْدَ الظَّهْرِ وَمَعَهَا صَبِيٌّ تَحْمِلُهُ، فَكَانَ الْحَمْلُ وَالْوِلَادَةُ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ^(٢). وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: وَلَدَتْ حَيْثُ لَمْ يَشْعَرْ بِهَا قَوْمُهَا، وَمَكَّثَتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا لِلنَّفَاسِ، ثُمَّ أَتَتْ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، فَلَمَّا رَأَوْهَا وَمَعَهَا الصَّبِيُّ حَزَنُوا وَكَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ صَالِحِينَ، فَقَالُوا مِنْكَرِينَ: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا قَرِيبًا﴾ أَي: جِئْتَ بِأَمْرِ عَظِيمٍ كَالَّذِي بِالشَّيْءِ يَفْتَرِيهِ^(٣). قَالَ مُجَاهِدٌ: «فَرِيًّا» عَظِيمًا^(٤). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ مُسْعَدَةَ: أَي: مُخْتَلَقًا مَفْتَعَلًا، يُقَالُ: فَرَيْتَ وَأَفَرَيْتَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ^(٥). وَالْوَلَدُ مِنَ الزَّوْنِ كَالشَّيْءِ الْمَفْتَرَى. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ﴾ [الْمُمْتَحَنَةُ: ١٢] أَي: بَوْلِدَ بِقَصْدِ إِلْحَاقِهِ بِالزَّوْجِ وَلَيْسَ مِنْهُ. يُقَالُ: فَلَانٌ يَفْرِى الْفَرِيَّ، أَي: يَعْمَلُ الْعَمَلَ الْبَالِغَ، وَقَالَ أَبُو عَبِيدَةَ^(٦): الْفَرِيُّ الْعَجِيبُ النَّادِرُ، وَقَالَ الْأَخْفَشُ^(٧): قَال: فَرِيًّا عَجِيبًا. وَالْفَرِيُّ: الْقَطْعُ، كَأَنَّهُ مِمَّا يَخْرُقُ الْعَادَةَ، أَوْ يَقْطَعُ الْقَوْلَ بِكَوْنِهِ عَجِيبًا نَادِرًا^(٨). وَقَالَ قُطْرُب: الْفَرِي: الْجَدِيدُ مِنَ الْأَسْقِيَةِ، أَي: جِئْتَ بِأَمْرِ جَدِيدٍ بَدِيعٍ لَمْ تُسَبِّقْ إِلَيْهِ. وَقَرَأَ أَبُو حَيَوَةَ: «شَيْئًا قَرِيًّا» بِسُكُونِ الرَّاءِ^(٩). وَقَالَ السُّدِّيُّ وَوَهْبُ بْنُ مَنْبِهٍ: لَمَّا أَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، تَسَامَعَ بِذَلِكَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَاجْتَمَعَ رِجَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ، فَمَدَّتْ امْرَأَةً

(١) المحرر الوجيز ١٣/٤ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٧/٢ ، والطبري ٤٩٧/١٥ ، بلفظ: ليس إلا أن حملته ثم وضعت.

(٣) الوسيط ١٨٢/٣ .

(٤) تفسير مجاهد ٣٨٦/١ ، وأخرجه عنه الطبري ٥٢١/١٥ - ٥٢٢ .

(٥) الذي في الصحاح، ومقاييس اللغة (فري)، وتهذيب اللغة ٢٤٢/١٥ : أن أفرّيت الأديم: قطعته على جهة الإفساد، وفريته: قطعته على جهة الإصلاح.

(٦) في مجاز القرآن ٧/٢ .

(٧) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣٦٨/٣ .

(٨) الكلام بنحوه في مقاييس اللغة (فري).

(٩) المحرر الوجيز ١٣/٤ ، وذكر قول قطرب السابق دون نسبة.

يُدها إليها لتضربها، فأجفَّ الله شطرَها فَحَمِلَتْ كَذَلِكَ. وقال آخر: ما أراها إلا زَنْتٌ، فأخرسه الله تعالى، فتحامى الناسُ من أن يضربوها، أو يقولوا لها كلمة تُؤذيها، وجعلوا يخفضون إليها القولَ ويلينون، فقالوا: «يا مريم لقد جئت شيئاً فريئاً»، أي: عظيماً؛ قال الراجز:

قد أطعمتني دَقْلاً حَوْلِيَا مُسَوَّساً مُدَوِّداً حَجْرِيَا
قد كنتِ تَفْرِينِ بِهِ الْفَرِيَا^(١)
أي: [تُعْظِمِينَهُ]^(٢).

قوله تعالى: ﴿يَتَأَخَذَ هَؤُلَاءُ﴾ يختلف الناسُ في معنى هذه الأخوة، ومَن هارونُ؟ فقليل: هو هارون أخو موسى؛ والمرادُ: مَن كَثَّأَ نَظْئُهَا مِثْلَ هَارُونَ فِي الْعِبَادَةِ تَأْتِي بِمِثْلِ هَذَا. وقيل: على هذا كانت مريمُ من ولد هارون أخي موسى، فنُسبت إليه بالأخوة؛ لأنها من ولده، كما يقالُ للتميمي: يا أخا تميم، وللعربي: يا أخا العرب^(٣). وقيل: كان لها أخٌ من أبيها اسمه هارون؛ لأنَّ هذا الاسمَ كان كثيراً في بني إسرائيل تبركاً باسمِ هارون أخي موسى، وكان أمثلاً رجلاً في بني إسرائيل؛ قاله الكلبي^(٤). وقيل: هارونُ هذا رجلٌ صالح في ذلك الزمان تبع جنازته يومَ مات أربعون

(١) الرجز لزرارة بن صعب كما في اللسان (دود) (سوس) (فرا)، وهي دون نسبة في الاقتضاب ص ٣٨٥ - ٣٨٦، وذكر ابن قتيبة في أدب الكاتب ص ٣٩٠ الأول والثاني، وذكر الفراء في معاني القرآن ١٦٧/٢، والطبري ٥٢١/١٥، والأزهري في تهذيب اللغة ٢٤١/١٥ الأول والثالث فقط.

وقال ابن السيد البطليوسي في الاقتضاب ص ٣٨٦: والدقل نوع من التمر رديء، وحجري منسوب إلى حجر وهي قصبة اليمامة، وقوله: قد كنت تفرين به الفريا، أي: قد كنت تكثرين فيه القول وتعظمين أمره.

(٢) في (ظ) و(د): تطعمينه، ولم يرد هذا الموضع في (ف) و(ز)، والمثبت من (م)، وينظر تهذيب اللغة ٢٤١/١٥، والاقتضاب ص ٣٨٦.

(٣) نسبة الطبري ٥٢٥/١٥، والماوردي في النكت والعيون ٣/٣٦٩، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/٢٢٧ إلى السدي.

(٤) تفسير البغوي ٣/١٩٤.

ألفاً كلهم اسمُهُ هارون^(١). وقال قتادة^(٢): كان في ذلك الزمان في بني إسرائيل عابدٌ منقطعٌ إلى الله عزَّ وجلَّ يُسمَّى هارون فنسبوا إلى أخوته من حيث كانت على طريقته قبل؛ إذ كانت موقوفةً على خدمة البيع، أي: يا هذه المرأة الصالحة، ما كُنْتَ أهلاً لذلك. وقال كعبُ الأحبار بحضرة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: إنَّ مريمَ ليست بأختِ هارونَ أخي موسى. فقالت له عائشة: كَذَبْتَ. فقال لها: يا أمَّ المؤمنين، إن كان رسولُ الله ﷺ قاله؛ فهو أَصْدَقُ وأخبر، وإلا فلاني أَجْدُ بينهما من المدة ستَّ مئة سنة. قال: فَسَكَنْتَ^(٣). وفي «صحيح» مسلمٍ عن المغيرة بن شعبة قال: لَمَّا قَدِمْتُ نجرانَ سألوني فقالوا: إنكم تقرؤون: «يا أخت هارون» وموسى قبلَ عيسى بكذا وكذا، فَلَمَّا قَدِمْتُ على رسولِ الله ﷺ سألتُه عن ذلك، فقال: «إنَّهم كانوا يُسمُّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»^(٤). وقد جاء في بعضِ طرقه في غير الصحيح، أنَّ النصراني قالوا له: إنَّ صاحبَكَ يزعمُ أنَّ مريمَ هي أختُ هارونَ وبينهما في المدة ستَّ مئة سنة؟! قال المغيرة: فلم أدْرِ ما أقول^(٥)، وذكر الحديث. والمعنى: أنَّه اسمٌ وافقَ اسماً^(٦). ويُستفاد من هذا جوازُ التسمية بأسماء الأنبياء، والله أعلم.

قلت: فقد دلَّ الحديث الصحيح أنه كان بينَ موسى وعيسى وهارونَ زمانٌ مديد. الزمخشري: كان بينهما وبينه ألف سنة أو أكثر^(٧). فلا يُتخيلُ أنَّ مريمَ كانت أختَ موسى وهارونَ، وإن صحَّ فكما قال السُّدي: لأنها كانت من نسله، وهذا كما تقول للرجل من قبيلة: يا أخا فلان. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ أخا ضدَاء قد

(١) الكشف ٥٠٨/٢.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٧/٢ - ٨، ومن طريقه الطبري ٥٢٣/١٥.

(٣) أخرجه الطبري ٥٢٣/١٥ - ٥٢٤، وأورده ابن كثير في تفسير هذه الآية، وقال: وفي هذا التاريخ نظر.

(٤) صحيح مسلم (٢١٣٥)، وهو عند أحمد (١٨٢٠١).

(٥) أخرجه الطبري ٥٢٤/١٥، دون ذكر المدة بينهما.

(٦) أخرجه الطبري ٥٢٤/١٥، عن ابن زيد، والكلام من المحرر الوجيز ١٣/٤.

(٧) الكشف ٥٠٨/٢.

أَذَّن، فَمَنْ أَذَّنَ فَهُوَ يُقِيمُ»^(١) وهذا هو القول الأول. ابن عطية^(٢): وقالت فرقة: بل كان في ذلك الزمان رجلٌ فاجر اسمه هارون فنسبوا إليه على جهة التعيير والتوبيخ؛ ذكره الطبري^(٣) ولم يُسمَّ قائله.

قلت: ذكره الغزنوي عن سعيد بن جبیر، أنه كان فاسقاً مثلاً في الفجور، فنُسبت إليه^(٤). والمعنى: ما كان أبوك ولا أمك أهلاً لهذه الفعل، فكيف جئت أنت بها؟!^(٥) وهذا من التعريض الذي يقوم مقام التصريح، وذلك يوجب عندنا الحد، وسيأتي في سورة النور^(٦) القول فيه إن شاء الله تعالى. وهذا القول الأخير يردُّ الحديث الصحيح، وهو نص صريح فلا كلام لأحدٍ معه، ولا غبار عليه. والحمد لله. وقرأ عمر بن لجأ التيمي: «مَا كَانَ أَبَاكَ امْرُؤُ سَوْءٍ»^(٧).

قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۖ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ التزمت مريم عليها السلام ما أمرت به من ترك الكلام، ولم يرد في هذه الآية أنها

(١) سلف ٦٩/٨ ، والكلام من المحرر الوجيز ١٣/٤ .

(٢) في المحرر الوجيز ١٤/٤ .

(٣) في التفسير ٥٢٥/١٥ .

(٤) ونسبه ابن الجوزي أيضاً في زاد المسير ٢٢٧/٥ إلى سعيد بن جبیر.

(٥) المحرر الوجيز ١٤/٤ .

(٦) في تفسير الآية (٤) و(٥) في المسألة الخامسة.

(٧) الكشف ٥٠٨/٢ ، والقراءات الشاذة ص ٨٥ .

نطقت بـ ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦] وإنما وردَ بأنها أشارت، فَيَقْوَى بهذا قولَ مَنْ قال: إِنَّ أَمْرَهَا بـ «قولي» إِنَّمَا أُرِيدُ بِهِ الإِشَارَةَ.

وَيُرَوَّى أَنَّهُمْ لَمَّا أَشَارَتْ إِلَى الطِّفْلِ قَالُوا: اسْتَخْفَاهُ بِنَا أَشَدُّ عَلَيْنَا مِنْ زَنَاهَا، ثُمَّ قَالُوا لَهَا عَلَى جِهَةِ التَّقْرِيرِ: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ و«كان» هنا ليس يرادُّ بها الماضي؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ قَدْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، وَإِنَّمَا هِيَ فِي مَعْنَى هُوَ^(١). وقال أبو عبيدة: «كان» هنا لغو^(٢)، كما قال:

وَجِيرَانِ لَنَا كَانُوا كِرَامِ^(٣)

وقيل: هي بمعنى الوجود والحدوث^(٤) كقوله: ﴿وَلَنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] وقد تقدّم^(٥). وقال ابنُ الأنباري: لا يجوزُ أَنْ يَقَالَ: زَائِدَةٌ، وقد نَصَبْتُ «صَبِيًّا»، ولا أَنْ يَقَالَ: «كان» بمعنى حَدَث؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ بِمَعْنَى الْحَدُوثِ وَالْوُقُوعِ؛ لَاسْتَغْنَى فِيهِ عَنِ الْخَبَرِ، تقول: كَانَ الْحَرُّ وَتَكَتَفَى بِهِ^(٦). والصَّحِيحُ أَنَّ «مَنْ» فِي مَعْنَى الْجَزَاءِ، و«كان» بمعنى يَكُنْ، التَّقْدِيرُ: مَنْ يَكُنْ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، فَكَيْفَ نُكَلِّمُهُ؟! كما

(١) المحرر الوجيز ١٤/٤، وبعدها في (م): الآن.

(٢) نقله عنه الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٣/٣٢٨، وذكر أبو عبيدة في مجاز القرآن ٧/٢ - ٨ عدة مواضع لـ «كان».

(٣) عجز بيت للفزدقي في ديوانه ص ٢٩٠، وصدرة: فكيف إذا رأيت ديار قوم، وسلف ٥/٢٦٠.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/٣٢٨.

(٥) ٤١٨/٤.

(٦) كذا هنا، وقال أبو البركات ابن الأنباري في البيان ٢/١٢٥: كان فيها ثلاثة أوجه: الأول: أن تكون بمعنى حدث ووقع، فيكون «صَبِيًّا» منصوباً على الحال من الضمير في «كان». والثاني: أن يكون بمعنى صار، فيكون «صَبِيًّا» منصوباً؛ لِأَنَّهُ خَبَرُ صَارَ. والثالث: أن تكون «كان» زائدة، و«صَبِيًّا» منصوبٌ على الحال، والعامل فيها على هذا الاستقرار. ولا يجوز أن تكون «كان» ههنا الناقصة؛ لِأَنَّهُ لَا اخْتِصَاصَ لِعَيْسَى فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا كَانَ صَبِيًّا فِي الْمَهْدِ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ، وَإِنَّمَا تَعَجَّبُوا مِنْ كَلَامِ مَنْ وَجَدَ وَصَارَ فِي حَالِ الصَّبِيِّ فِي الْمَهْدِ.

وقال أبو بكر الأنباري في الأضداد ص ٦٢: وقول أبي عبيدة: «كان» زائدة في قوله تبارك وتعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَوًّا رَئِيًّا﴾ ليس بصحيح؛ لِأَنَّهُ لَا تُلْفَى مُبْتَدَأَةً نَاصِبَةً لِلْخَبَرِ.

تقول: كيف أُعطي مَنْ كان لا يقبلُ عطيةً، أي: مَنْ يكن لا يقبل. والماضي قد يُذكر بمعنى المستقبل في الجزاء^(١)؛ كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفرقان: ١٠] أي: إِنْ شَاءَ يجعل. وتقول: مَنْ كان إِلَيَّ منه إحسانٌ كان إِلَيَّ منه مثله، أي: مَنْ يكن منه إِلَيَّ إحسانٌ يكن إِلَيَّ منه مثله.

و«المهد» قيل: كان سريراً كالْمهد. وقيل: «المهد» هاهنا حِجْرُ الأم^(٢). وقيل: المعنى: كيف نكلّم مَنْ كان سبيله أن ينوّم في المهد لصغره، فلَمَّا سمع عيسى عليه السلام كلامهم، قالَ لهم من مرقده: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وهي:

الثانية: فقيل: كان عيسى عليه السلام يرضعُ، فلما سمع كلامهم ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه، واتكأ على يساره، وأشار إليهم بسبابته اليمنى، و«قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ»^(٣) فكان أوّل ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى وربوبيته، ردّاً على مَنْ غلا مِنْ بعده في شأنه^(٤). والكتاب: الإنجيل^(٥)، قيل: آتاه في تلك الحالة الكتاب، وفهمه وعلمه، وآتاه النبوة كما علّم آدم الأسماء كلّها، وكان يصومُ ويصلي. وهذا في غاية الضعف على ما نبينه في المسألة بعد هذا. وقيل: أي: حكم لي بإتياء الكتاب والنبوة في الأزل، وإن لم يكن الكتاب منزلاً في الحال^(٦)، وهذا أصحُّ. ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أي: ذا بركاتٍ ومنافع في الدين والدعاء إليه ومعلماً له. التُسْتَرِي: وجعلني أمرًا بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأرشد الضال، وأنصر المظلوم، وأغيث الملهوف، ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أي: لأؤدّبهما إذا أدركني التكليف، وأمكنني

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/٣٢٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/١٥، والوسيط ٣/١٨٢ - ١٨٣، وزاد المسير ٥/٢٢٨.

(٢) النكت والعيون ٣/٣٦٩ - ٣٧٠، وأخرج القول الثاني الطبري ١٥/٥٢٧، عن قتادة.

(٣) الكشف ٢/٥٠٨، والبلغوي ٣/١٩٤، والمحرم الوجيز ٤/١٤.

(٤) الوسيط ٣/١٨٣، والنكت والعيون ٣/٣٧٠، وزاد المسير ٥/٢٢٨.

(٥) الكشف ٢/٥٠٨.

(٦) الوسيط ٣/١٨٣، والبلغوي ٣/١٩٤.

أداؤهما^(١)، على القول الأخير الصحيح، ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ في موضع نصبٍ على الظرف^(٢)، أي: دوام حياتي.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْنِي﴾ قال ابن عباس: لما قال: «وَبَرًّا بِوَالِدَيْنِي» ولم يقل: بوالدي، عُلِمَ أنه شيء من جهة الله تعالى، ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ أي: متعظماً متكبراً يقتل ويضرب على الغضب^(٣). وقيل: الجبار الذي لا يرى لأحد عليه حقاً قط، ﴿شَقِيًّا﴾ أي: خائباً من الخير. ابن عباس: عاقاً. وقيل: عاصياً لربه^(٤). وقيل: لم يجعلني تاركاً لأمره فأشقى كما شقي إبليس لما ترك أمره.

الثالثة: قال مالك بن أنس رحمه الله تعالى في هذه الآية: ما أشدّها على أهل القدر! أخبر عيسى عليه السلام بما قُضي من أمره، وبما هو كائن إلى أن يموت. وقد روي في قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أنهم لما سمعوا كلام عيسى أذعنوا وقالوا: إن هذا الأمر^(٥) عظيم. وروي أن عيسى عليه السلام إنما تكلم في طفولته بهذه الآية، ثم عاد إلى حالة الأطفال، حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان، فكان نطقه إظهار براءة أمه لا أنه كان ممن يعقل في تلك الحالة، وهو كما يُنطق الله تعالى الجوارح يوم القيامة. ولم يُنقل أنه دام نطقه، ولا أنه كان يصلي وهو ابن يوم أو شهر، ولو كان يدوم نطقه وتسيّحه، ووعظه وصلاته في صغره من وقت الولادة؛ لكان مثله ممّا لا ينكتم، وهذا كله مما يدلّ على فساد القول الأول، ويصرحُ بجهالة قائله. ويدلّ أيضاً على أنه تكلم في المهد خلافاً لليهود والنصارى. والدليل على ذلك إجماع الفرق على أنها لم تُحدّد. وإنما صحّ براءتها من الزنى بكلامه في المهد.

(١) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ١٩٥ .

(٢) البيان لابن الأنباري ٢/ ١٢٥ .

(٣) الوسيط ٣/ ١٨٣ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٧ .

(٤) زاد المسير ٥/ ٢٣٠ .

(٥) في (د) و(م): لأمر، والمثبت من (ظ) والمحذور الوجيز ٤/ ١٥ ، والكلام منه.

ودلت هذه الآية على أنَّ الصلاة والزكاة وبرَّ الوالدين كان واجباً على الأمم السالفة^(١)، والقرون الخالية الماضية، فهو ممَّا يثبت حكمه، ولم يُنسخ في شريعة أمره. وكان عيسى عليه السلام في غاية التواضع؛ يأكلُ الشجر، ويلبسُ الشعر، ويجلسُ على التراب، ويأوي حيثُ جَنَّه الليل، لا مسكنَ له، ﷺ^(٢).

الرابعة: الإشارةُ بمنزلة الكلام، وتُفهم ما يُفهم القول. كيف لا، وقد أخبر الله تعالى عن مريم فقال: «فأشارت إليه» وفهم منها القومُ مقصودها وعَرَضها، فقالوا: «كيف نكلم» وقد مضى هذا في «آل عمران»^(٣) مستوفى.

الخامسة: قال الكوفيون: لا يصحُّ قذفُ الأخرس ولا لعانه^(٤). ورؤي مثله عن الشعبي، وبه قال الأوزاعي وأحمد وإسحاق^(٥)، وإنما يصحُّ القذفُ عندهم بصريح الزنى دون معناه، وهذا لا يصحُّ من الأخرس ضرورةً، فلم يكن قاذفاً، ولا يتميزُ بالإشارة الزنى^(٦) من الوطء الحلال والشبهة. قالوا: واللعانُ عندنا شهاداتٌ، وشهادةُ الأخرس لا تقبلُ بالإجماع. قال ابنُ القصار: قولهم: إنَّ القذف لا يصحُّ إلا بالتصريح فهو باطلٌ بسائرِ الألسنة ما عدا العربية، فكَذلك إشارةُ الأخرس. وما ذكره من الإجماع في شهادة الأخرس فغلط. وقد نصَّ مالك أنَّ شهادته مقبولةٌ إذا فُهمت إشارته^(٧)، وأنها تقوم مقامَ اللفظ بالشهادة، وأمَّا مع القدرة باللفظ؛ فلا تقعُ منه إلا باللفظ. قال ابنُ المنذر: والمخالفون يُلزمون الأخرس الطلاق والبيوع وسائر الأحكام، فينبغي أن يكونَ القذفُ مثلاً ذلك. قال المهلب: وقد تكونُ الإشارة في كثيرٍ من أبوابِ الفقه أقوى من الكلام، مثلُ قوله عليه الصلاة والسلام: «بُعِثت أنا والساعة

(١) في (ظ): السابقة.

(٢) المحرر الوجيز ١٥/٤.

(٣) ١٢٣/٥ وما بعدها.

(٤) المبسوط ٤٢/٧، وبدائع الصنائع ٤٦/٥.

(٥) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٥٠٨/٢ - ٥٠٩، والمغني ١٢٧/١١ - ١٢٨، والإشراف ٢٦٦/٤.

(٦) في (م): بالزنى.

(٧) المدونة ١١٧/٣.

كهاتين»^(١) نعرفُ قربَ ما بينهما بمقدارِ زيادةِ الوسطى على السَّبابة. وفي إجماع العقولِ على أنَّ العيانَ أقوى من الخبرِ دليلٌ على أنَّ الإشارةَ قد تكون في بعضِ المواضع أقوى من الكلام.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾ أي: السلامة عليَّ من الله تعالى^(٢). قال الزجاج^(٣): ذُكِرَ السَّلامُ قبل هذا بغيرِ ألفٍ ولام، فَحَسَّنَ في الثانيةِ ذَكَرُ الألفِ واللام. وقوله: ﴿يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ يعني: في الدنيا. وقيل: مِنْ هَمَزِ الشَّيْطَانِ كما تقدَّم في «آلِ عمران»^(٤). ﴿وَيَوْمَ أُمُوتُ﴾ يعني: في القبر، ﴿وَيَوْمَ أُبْعِثُ حَيًّا﴾ يعني: في الآخرة؛ لأنَّ له أحوالاً ثلاثة: في الدنيا حَيًّا، وفي القبرِ ميتاً، وفي الآخرةِ مبعوثاً، فَسَلَّمَ في أحواله كلها، وهو معنى قولِ الكلبي. ثم انقطعَ كلامُه في المهدِ حتى بلغَ مبلغَ الغِلْمان^(٥). وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ عيسى عليه السلام رآته امرأةٌ يُحيي الموتى، ويُبرئ الأكمه والأبرص في سائرِ آياته، فقالت: طوبى للبطنِ الذي حَمَلَك، والثدي الذي أَرْضَعَك، فقال لها عيسى عليه السلام: طوبى لمن تلا كتابَ الله تعالى، واتَّبَعَ ما فيه وعَمِلَ به^(٦).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَتُّونَ ۚ﴾ (٢٩) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ (٣٠) وَلَئِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۚ (٣١) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۚ (٣٢) أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۚ (٣٣) وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ (٣٤) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۚ (٣٥)

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: ذلك الذي ذكرناه عيسى ابنُ مريم،

(١) سلف ٢٦٨/١٢.

(٢) الوسيط ١٨٣/٣.

(٣) في معاني القرآن وإعرابه ٣٢٩/٣.

(٤) ١٠٣/٥ - ١٠٤، والكلام في النكت والعيون ٣٧١/٣.

(٥) النكت والعيون ٣٧١/٣ - ٣٧٢.

(٦) أخرجه الطبري ٥٣٣/١٥.

فكذلك اعتقدوه، لا كما تقول اليهود: إنه لغير رَشْدَةٍ، وأنه ابنُ يوسف النجار، ولا كما قالت النصارى: إنه الإله أو ابنُ الإله^(١) ﴿قَوْلُ الْحَقِّ﴾ قال الكسائي: «قَوْلُ الْحَقِّ» نعتٌ لعيسى^(٢)، أي: ذلك عيسى ابنُ مريم [قَوْلُ الْحَقِّ]^(٣). وسُمِّي قولُ الحق كما سُمي كلمةُ الله^(٤)، والحقُّ هو الله عزَّ وجلَّ. وقال أبو حاتم: المعنى: هو قولُ الحق. وقيل: التقديرُ: هذا الكلامُ قولُ الحق^(٥). قال ابنُ عباس: يريدُ هذا كلامُ عيسى ﷺ قولُ الحقِّ ليس بباطلٍ، وأضيف القولُ إلى الحقِّ كما قال: ﴿وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾^(٦) [الأحقاف: ١٦] أي: الوعد الصدق. وقال: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ١٠٩]، أي: وللدَّارُ^(٧) الآخرة. وقرأ عاصمٌ وعبدُ الله بنُ عامر: «قَوْلُ الْحَقِّ» بالنصب^(٨) على الحال، أي: أقولُ قولاً حقًّا، والعاملُ معنى الإشارةِ في «ذلك». الزجاج: هو مصدرٌ، أي: أقولُ قولَ الحق؛ لأنَّ ما قبله يدلُّ عليه^(٩). وقيل: مدح^(١٠). وقيل: إغراء.

وقرأ عبدُ الله: «قَالَ الْحَقُّ»^(١١). وقرأ الحسنُ: «قَوْلُ الْحَقِّ» بضمِّ القاف، وكذلك

(١) النكت والعيون ٣/٣٧٢، والوسيط ٣/١٨٣، والطبري ١٥/٥٣٤ - ٥٣٥، وقوله: لغير رَشْدَةٍ، أي: لِرَئِيَّةٍ، كما في القاموس (رشد).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/١٦.

(٣) زيادة يقتضيها السياق، وينظر الطبري ١٥/٥٣٥.

(٤) الكشف ٢/٥٠٩.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/١٦.

(٦) تفسير الطبري ١٥/٥٣٥، والبغوي ٣/١٩٥، دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) في (د) و(م): ولا الدار، والمثبت من (ظ)، وقد سقط هذا الموضع من (ف) و(ز)، والكلام في معاني القرآن للفرأ ٢/١٦٨.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/١٦، والتيسير ص ١٤٩.

(٩) معاني القرآن وإعرابه ٣/٣٢٩، ونقل عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣/١٦ - ١٧.

(١٠) الكشف ٢/٥٠٩.

(١١) تفسير الطبري ١٥/٥٣٥، والمحور الوجيز ٤/١٥، والقراءات الشاذة ص ٨٤.

في «الأنعام» ﴿قَوْلُهُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٧٣]. والقَوْلُ والقَالُ والقَوْلُ بمعنى واحد، كالرَّهْبِ والرَّهَبِ والرَّهْبِ^(١)، ﴿الَّذِي﴾ من نعتِ عيسى، ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، أي: يَشْكُونَ^(٢)، أي: ذلك عيسى ابنُ مريم الذي فيه يمترون القولَ الحقَّ. وقيل: «يمترون» يختلفون^(٣).

ذكر عبدُ الرزاق قال: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قال: اجتمع بنو إسرائيل، فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم، فامتروا في عيسى حين رُفِعَ، فقال أحدهم: هو الله هبَّط إلى الأرضِ فأحيا من أحياء، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء. وهم اليعقوبية، فقالت الثلاثة: كذبت. ثم قال اثنانٍ منهم للثالث: قل فيه، قال: هو ابن الله. وهم النسطورية، فقال الاثنان: كذبت. ثم قال أحدُ الاثنين للآخر: قل فيه، فقال: هو ثالثُ ثلاثة، الله إله، وهو إله، وأمه إله، وهم الإسرائيلية ملوكُ النصارى. قال الرابع: كذبت، بل هو عبدُ الله ورسولُه وروحُه وكلمته. وهم المسلمون، فكان لكل رجلٍ منهم أتباعٌ، على ما قال، فافتتلوا فظهر على المسلمين، فذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١]. وقال قتادة: وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَلَاخْلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم: ٣٧]، اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً^(٤).

فهذا معنى قوله: «الذي فيه يمترون» بالتاء المعجمة من فوق، وهي قراءة أبي عبد الرحمن السلمي وغيره^(٥). قال ابنُ عباس: ففر^(٦) بمریم ابنُ عمِّها ومعها ابنُها إلى مصر، فكانوا فيها اثنتي عشرة سنة حتى ماتَ الملكُ الذي كانوا يخافونه؛

(١) الكشف ٥٠٩/٢.

(٢) الوسيط ١٨٣/٣.

(٣) النكت والعيون ٣٧٢/٣.

(٤) تفسير عبد الرزاق ٨/٢، وأخرجه من طريقه الطبري ٥٣٧/١٥ - ٥٣٨.

(٥) المحرر الوجيز ١٥/٤، وهي قراءة علي بن أبي طالب كما في الكشف ٥٠٩/٢.

(٦) في (م) و(ظ) و(د): فمر، وسقط هذا الموضع من (ف) و(ز)، والمثبت من النكت والعيون ٣٧٣/٣.

ذكره الماوردي.

قلت: ووقع في «تاريخ مصر» فيما رأيت: وجاء في الإنجيل^(١): «الظاهر أنَّ السيد المسيح لَمَّا وُلِدَ في بيت لحم كان هيرودس في ذلك الوقت ملكاً، وأنَّ الله تعالى أوحى إلى يوسف النجار في الحلم وقال له: قم فخذ الصبيَّ وأمه، واذهب إلى مصر، وكن هناك حتى أقول لك، فإنَّ هيرودس مُزمِعٌ أن يطلب عيسى ليُهْلِكَه، فقام من نومه: وامثل أمر ربِّه، وأخذ السيد المسيح ومريمَ أمَّه وجاء إلى مصر^(٢)، وفي حالٍ مجيئه إلى مصر نزلَ بيثرب البَلْسَانَ^(٣) التي بظاهر القاهرة، وغَسَلَتْ ثيابه على ذلك البئر، فالبَلْسَانَ لا يطلُع ولا ينبت إلا في تلك الأرض، ومنه يخرجُ الدهنُ الذي يخالطُ الزيت الذي تُعَمِّدُ به النصارى، ولذلك كانت قاروة واحدة في أيام المصريين لها مقدارٌ عظيم، وتقع في نفوس ملوك النصارى مثل ملك القُسطنطينية، وملك صِقلية^(٤)، وملك الحبشة، وملك التوبة، وملك الفرنجة، وغيرهم من الملوك عندما يهاديهم به ملوك مصر موقعاً جليلاً جدًّا، وتكون أحبَّ إليهم من كل هدية لها قدرٌ، وفي تلك السَّفرة وصل السيد المسيح إلى مدينة الأشمونين^(٥) وقسقام المعروفة الآن بالمحرقه^(٦)، فلذلك يُعظمها النصارى إلى الآن، ويحضرُون إليها في عيد الفصح

(١) إنجيل متى ص ٣٧ - ٣٩.

(٢) الكلام بنحوه في تاريخ الطبري ٦٠٥/١.

(٣) البَلْسَانَ: شجر صغار كشجر الحناء لا ينبت إلا بعين شمس ظاهر القاهرة، يُتنافس في دهنها. القاموس (بلس).

(٤) القُسطنطينية: اصطنبول، وهي دار ملك الروم، وصقلية، بكسرات مشددة اللام: أكبر جُزر البحر الأبيض المتوسط. معجم البلدان ٣٤٧/٤، ودائرة معارف البستاني ٧٤٥/١٠.

(٥) الأشمونين: مدينة قديمة أزلية عامرة أهلة وهي قصبة كورة من كُور الصعيد الأدنى غربي النيل ذات بساتين ونخل كثير، سُميت باسم عامرها، وهو أشمن بن مصر بن بيسر بن حام بن نوح. معجم البلدان ٢٠٠/١.

(٦) وهي دِيرُ المُحَرَّق في غربي النيل بمصر على رأس جبل من الصعيد الأدنى. معجم البلدان ٥٣٢/٢ - ٥٣٣، وتعرف اليوم باسم الدير المحرق، وهي تابعة لمركز منفلوط.

من كل مكان؛ لأنها نهاية ما وصل إليها من أرض مصر، ومنها عاد إلى الشام.
والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾، أي: ما ينبغي له ولا يجوز ﴿أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ «من» صلة للكلام، أي: أن يتخذ ولداً^(١). و«أن» في موضع رفع اسم «كان»^(٢)، أي: ما كان لله أن يتخذ ولداً، أي: ما كان من صفته اتخاذ الولد، ثم نزه نفسه تعالى عن مقاتلتهم فقال: ﴿سُبْحَنَهُ﴾^(٣) أن يكون له ولد، ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ تقدم في «البقرة»^(٤) مستوفى.

﴿وَلَئِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ قرأ أهل المدينة، وابن كثير، وأبو عمرو بفتح «أن»، وأهل الكوفة «وإن» بكسر الهمزة على أنه مستأنف^(٥)، تدل عليه قراءة أبي: «كُنْ فَيَكُونُ. إِنَّ اللَّهَ» بغير واو^(٦) على العطف على: «قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ».

وفي الفتح أقوال: فمذهب الخليل وسيبويه أن المعنى: ولأن الله ربي وربكم، وكذا ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] ف«أن» في موضع نصب عندهما. وأجاز الفراء أن يكون في موضع خفض على حذف اللام، وأجاز أن يكون أيضاً في موضع خفض بمعنى: وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبأن الله ربي وربكم. وأجاز الكسائي أن يكون في موضع رفع بمعنى: والأمر أن الله ربي وربكم. وفيها قول خامس حكى أبو عبيد أن أبا عمرو بن العلاء قاله، وهو أن يكون المعنى: وقضى أن الله ربي وربكم^(٧)، فهي معطوفة على قوله: «أمراً» من قوله: «إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا»

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/٣٢٩، والبيان ٢/١٢٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/١٧، والطبري ١٥/٥٣٨.

(٣) الوسيط ٣/١٨٣.

(٤) ٣٣٦/٢ وما بعدها.

(٥) السبعة ص ٤١٠، والتيسير ص ١٤٩، والطبري ١٥/٥٣٩ - ٥٤٠.

(٦) الطبري ١٥/٥٤٠، ومعاني القرآن للفراء ٢/١٦٨، والكشاف ٢/٥٠٩، والمححر الوجيز ٤/١٦، وهي قراءة شاذة.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/١٧ - ١٨.

والمعنى: إذا قضى أمراً وقضى أن الله. ولا يبدأ بـ «أن» على هذا التقدير، ولا على التقدير الثالث، ويجوز الابتداء بها على الأوجه الباقية، ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: دينٌ قويم لا اعوجاج فيه.

قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ «من» زائدة، أي: اختلف الأحزاب بينهم^(١). وقال قتادة: أي: ما بينهم. فاختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى عليه السلام، فاليهود بالقدح والسحر. والنصارى قالت النسطورية منهم: هو ابن الله. والملكانية: ثالث ثلاثة. وقالت اليعقوبية: هو الله، فأفرطت النصارى وعَلَّت، وفرطت اليهود وقصّرت^(٢). وقد تقدّم هذا في «النساء»^(٣). وقال ابن عباس: المراد من الأحزاب الذين تحزّبوا على النبي ﷺ وكذبوه من المشركين. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أي: من شهود يوم القيامة^(٤)، والمشهد بمعنى المصدر، والشهود الحضور، ويجوز أن يكون الحضور لهم، ويضاف إلى الظرف لوقوعه فيه، كما يقال: ويلٌ لفلانٍ من قتال يوم كذا، أي: من حضوره ذلك اليوم. وقيل: المشهد بمعنى الموضع الذي يشهده الخلائق^(٥)، كالمحشر للموضع الذي يحشر إليه الخلق. وقيل: فويلٌ للذين كفروا من حضورهم المشهد العظيم الذي اجتمعوا فيه للتشاور، فأجمعوا على الكفر بالله، وقولهم: إنّ الله ثالث ثلاثة^(٦).

قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا﴾ قال أبو العباس: العرب تقول هذا في

(١) الوسيط ١٨٤/٣.

(٢) تفسير السمرقندي ٣٢٤/٢، والكشاف ٥٠٩/٢، وزاد المسير ٢٣٢/٥ - ٢٣٣. والنسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمن المأمون، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه. والملكانية: أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم، واستولى عليها، ومعظم الروم ملكانية. واليعقوبية: أصحاب يعقوب، وهذه الفرق كبار فرق النصارى. الملل والنحل ٢٢٢/١ - ٢٢٥.

(٣) ٢٣٠/٧ - ٢٣٥.

(٤) المحرر الوجيز ١٦/٤، ومعاني القرآن وإعرابه ٣٣٠/٣.

(٥) تهذيب اللغة ٧٥/٦.

(٦) الكلام بنحوه في الكشاف ٥٠٩/٢.

موضع التعجب، فتقول: أسمع يزيد وأبصر يزيد، أي: ما أسمع وأبصره^(١). قال: فمعناه أنه عَجَبَ نبيّه منهم. قال الكلبي: لا أحد أسمع منهم يوم القيامة ولا أبصر، حين يقول الله تبارك وتعالى لعيسى: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَهْمَى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٢) [المائدة: ١١٦]. وقيل: «أسمع» بمعنى الطاعة، أي: ما أطوعهم لله في ذلك اليوم، ﴿لَنْ يَكُنِ الظَّالِمُونَ أَلْيَوْمَ﴾ يعني: في الدنيا^(٣) ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وأي ضلال أبين من أن يعتقد المرء في شخص مثله حملته الأرحام، وأكل وشرب، وأحدث واحتاج أنه إله؟! ومن هذا وصفه، فهو أصم أعمى ولكنه سيبصر ويسمع في الآخرة إذا رأى العذاب، ولكنه لا ينفعه ذلك؛ قال معناه قتادة وغيره^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: ما من أحد يدخل النار إلا وله بيت في الجنة فيتحسر عليه. وقيل: تقع الحسرة إذا أعطي كتابه بشماله^(٥). «إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ» أي: فرغ من الحساب، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. وفي «صحيح» مسلم من حديث أبي سعيد الخدري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أُمْلَحُ، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ فيشرّبون وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت. قال: ثم يقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ فيشرّبون وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، يا أهل النار، خلود فلا موت. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٦)

(١) ذكر نحو هذا الكلام في المقتضب ١٨٣/٤.

(٢) تفسير البغوي ١٩٦/٣.

(٣) الطبري ٥٤٤/١٥.

(٤) أخرجه عنه الطبري ٥٤٣/١٥، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/٣٧٣.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١٨/٣.

(٦) صحيح مسلم (٢٨٤٩): (٤٠) (٤١)، وهو عند أحمد (١١٠٦٦)، والبخاري (٤٧٣٠). والأملح =

خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ بِمَعْنَاهُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ^(١)، وَابْنُ مَاجَةٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ^(٢)، وَالتِّرْمِذِيُّ^(٣) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ يَرْفَعُهُ وَقَالَ فِيهِ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَقَدْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِي كِتَابِ «التَّذَكُّرَةِ»^(٤) وَبَيْنَا هُنَا أَنَّ الْكُفَّارَ مَخْلُودُونَ بِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَالْآيِ رَدًّا عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّ صِفَةَ الْغَضَبِ تَنْقَطِعُ، وَإِنَّ إِبْلِيسَ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنَ الْكُفْرَةِ كَفَرَعُونَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ وَأَشْبَاهَهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أَي: نُمِيتُ سَكَانَهَا فَنَرِثُهَا^(٥)، ﴿وَالَّذِينَ يُرْجَوْنَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَنَجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا فِي «الْحَجَرِ»^(٦) وَغَيْرِهَا.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ٤١ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِي مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يُعْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ ٤٢ ﴿يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ ٤٣ ﴿يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ ٤٤ ﴿يَتَّبِعْ إِنِّي خَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ ٤٥ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَّبِعُهُ لِي لَمْ تَنْتَهُ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ ٤٦ ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ ٤٧ ﴿وَأَعِزَّنَا لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ ٤٨ ﴿فَلَمَّا أَعَزَّنَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ ٥٠ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ المعنى: واذكر في

= الذي بياضه أكثر من سواده، وقيل: هو النقي البياض. النهاية في غريب الحديث (ملح).

(١) صحيح البخاري (٦٥٤٨)، وهو عند أحمد (٥٩٩٣)، ومسلم (٢٨٥٠).

(٢) سنن ابن ماجه (٤٣٢٧)، وهو عند أحمد (٧٥٤٦).

(٣) في السنن (٢٥٥٨).

(٤) ص ٤٣٥ وما بعدها.

(٥) الوسيط ١٨٥/٣.

(٦) ٢٠٠/١٢.

الكتاب الذي أنزل عليك - وهو القرآن - قصة إبراهيم وخبره^(١). وقد تقدّم معنى الصديق في «النساء»^(٢)، واشتقاق الصدق في «البقرة»^(٣) فلا معنى للإعادة. ومعنى الآية: اقرأ عليهم يا محمد في القرآن أمر إبراهيم، فقد عرفوا أنهم من ولده، فإنه كان حنيفاً مسلماً وما كان^(٤) يتخذ الأنداد، فهو لاء لم يتخذون^(٥) الأنداد؟! وهو كما قال: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهو آزر، وقد تقدّم^(٦): ﴿يَتَأْتٍ﴾ قد تقدّم القول فيه في «يوسف»^(٧) ﴿لَمْ تَعْبُدْ﴾ أي: لأي شيء تعبد ﴿مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ يريد الأصنام^(٨).

﴿يَتَأْتٍ إِيَّيْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أي: من اليقين والمعرفة بالله وما يكون بعد الموت، وأن من عبد غير الله عذب ﴿فَاتَّبَعْنِي﴾ إلى ما أدعوك إليه. ﴿أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي: أرشدك إلى دين مستقيم فيه النجاة^(٩).

﴿يَتَأْتٍ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أي: لا تطعه فيما يأمرك به من الكفر، ومن أطاع شيئاً في معصية فقد عبده^(١٠). ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ «كان» صلة زائدة. وقيل: بمعنى صار^(١١). وقيل: بمعنى الحال^(١٢)، أي: هو للرحمن. وعصياً وعاصٍ بمعنى

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣١.

(٢) ٤٤٩/٦.

(٣) ٣٥١/١.

(٤) كلمة «كان» ليست في النسخ الخطية، وهي في (م).

(٥) في النسخ الخطية: يتخذوا، وفي (م) على الصواب.

(٦) ٤٣٣/٨.

(٧) ٢٤٥/١١.

(٨) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٢.

(٩) الوسيط ٣/ ١٨٥.

(١٠) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٣٤، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢.

(١١) تقدم هذا المعنى في سورة البقرة ١/ ٤٤٢ - ٤٤٣.

(١٢) تفسير البغوي ٣/ ١٩٧.

واحد. قاله الكسائي^(١).

﴿يَتَأَبَّتُ إِلَىٰ أَخَافَ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: إن ميتاً على ما أنت عليه^(٢). ويكون «أخاف» بمعنى أعلم^(٣). ويجوز أن يكون «أخاف» على بابها، فيكون المعنى: إنني أخاف أن تموت على كفرك فيمسك العذاب^(٤). ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أي: قريباً في النار^(٥).

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنتَ عَنِ الْهَيِّ يَتَّبِعُكُمْ﴾ أي: أترغب عنها إلى غيرها. ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَوِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قال الحسن: يعني بالحجارة. الضحاك: بالقول؛ أي: لأشتمنك^(٦). ابن عباس: لأضربنك^(٧). وقيل: لأظهرن أمرك. ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾. قال ابن عباس: أي: اعتزلني سالم العرض لا يُصَبِّحْكَ مَنِي مَعْرَةً^(٨). واختاره الطبري^(٩)، فقوله: «ملياً» على هذا حالاً من إبراهيم. وقال الحسن ومجاهد: «ملياً»: دهنراً طويلاً؛ ومنه قول المهلهل:

فَتَصَدَّعَتْ صُفْمُ الْجِبَالِ لِمَوْتِهِ وَبَكَتْ عَلَيْهِ الْمُزْمِلَاتُ مَلِيًّا^(١٠)

قال الكسائي: يقال: هجرته ملئاً وملوّة وملوّة وملوّة وملوّة وملوّة^(١١)، فهو على هذا القول ظرف^(١٢)، وهو بمعنى الملاوة من الزمان، وهو الطويل منه.

(١) نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ١٩/٣.

(٢) تفسير الطبري ٥٥١/١٥.

(٣) معاني القرآن للفراء ١٦٩/٢.

(٤) تفسير الطبري ٥٥١/١٥، ومجمع البيان ٤٢/٢١ بمعناه.

(٥) الوسيط ١٨٥/٣، وتفسير البغوي ١٩٧/٣، وزاد المسير ٢٣٦/٥.

(٦) المحرر الوجيز ١٨/٤. وأخرج الطبري ٥٥٢/١٥ قول الضحاك.

(٧) تفسير البغوي ١٩٧/٣.

(٨) ذكره النحاس في معاني القرآن ٣٣٥/٤ عن الضحاك. وكذلك أخرجه الطبري ٥٥٥/٥.

(٩) في تفسيره ٥٥٥/١٥.

(١٠) النكت والعيون ٣٧٤/٣.

(١١) نقله عنه النحاس في معاني القرآن ٣٣٥/٤.

(١٢) إملاء ما من به الرحمن على هامش الفتوحات الإلهية ٥٥٨/٢، ومجمع البيان ٤١/١٦.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ لم يُعارضه إبراهيم عليه السلام بسوء الرد؛ لأنه لم يؤمر بقتاله على كفره. والجمهور على أن المراد بسلامه المسالمة التي هي المتاركة لا التحية؛ قال الطبري: معناه: أمنة مني لك، وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام. وقال النقاش: حليم خاطب سفيهاً، كما قال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. وقال بعضهم في معنى تسليمه: هو تحية مفارق؛ وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها^(١). قيل لابن عُيينة: هل يجوز السلام على الكافر؟ قال: نعم؛ قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨]. وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية [المتحنة: ٤]؛ وقال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾^(٢).

قلت: الأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة، وفي الباب حديثان صحيحان؛ روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروا إلى أضيجه» خرجه مسلم^(٣). وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد أن النبي ﷺ ركب حماراً عليه إكاف تحته قطيفة فدكيّة، وأردف وراءه أسامة بن زيد، وهو يعود سعد بن عباد في بني الحارث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مرّ في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول، وفي المجلس عبد الله بن رَوَاحَة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمر عبد الله بن أبيّ أنفه بردائه، ثم قال: لا تُغبروا علينا. فسلم عليهم النبي ﷺ... الحديث^(٤). فالأول يُفيد ترك السلام عليهم ابتداءً؛ لأنّ ذلك

(١) المحرر الوجيز ١٩/٤.

(٢) عزاه الحافظ ابن حجر في الفتح ٣٩/١١ إلى الطبري.

(٣) صحيح مسلم (٢١٦٧). وقع في (د) و(م): خرجه البخاري ومسلم. والحديث أخرجه أحمد (٧٥٦٧).

(٤) صحيح البخاري (٥٦٦٣)، وصحيح مسلم (١٧٩٨). وأخرجه أحمد (٢١٧٦٧). قال السندي في حاشيته على المسند: إكاف: هو للحمار كالسرج للفرس. فدكية: نسبة إلى فذك. عجاجة الدابة: غبارها الذي يثيره مشي الدابة. خمر: غطى.

إكرام، والكافر ليس أهله. والحديث الثاني يُجَوِّزُ ذلك. قال الطبري: ولا يُعَارَضُ ما رواه أسامة بحديث أبي هريرة، فإنه ليس في أحدهما خلافٌ للآخر؛ وذلك أن حديث أبي هريرة مَخْرَجُهُ العموم، وخبر أسامة يُبَيِّنُ أن معناه الخصوص. وقال النَّخَعِيُّ: إذا كانت لك حاجةٌ عند يهوديٍّ أو نصرانيٍّ فابدأه بالسلام. فبان بهذا أن حديث أبي هريرة «لا تبدؤوهم بالسلام» إذا كان لغير سببٍ يدعوكم إلى أن تبدؤوهم بالسلام، من قضاء ذِمَامٍ أو حاجةٍ تَعْرُضُ لكم قَبْلَهُمْ، أو حقٌّ صحبةٍ أو جوارٍ أو سفر. قال الطبري: وقد رُوي عن السَّلفِ أَنَّهُمْ كانوا يُسَلِّمون على أهل الكتاب. وفعله ابن مسعود بدهقانٍ صحبَه في طريقه؛ قال علقمة: فقلتُ له: يا أبا عبد الرحمن، أليس يُكرَهُ أن يُبدؤوا بالسلام؟ قال: نعم، ولكن حقُّ الصحبة. وكان أبو أسامة إذا انصرف إلى بيته لا يمرُّ بمسلمٍ ولا نصرانيٍّ ولا صغيرٍ ولا كبيرٍ إلا سلَّم عليه، فقليل له في ذلك، فقال: أُمِرْنَا أن نُفشي السلام. وسُئِلَ الأوزاعيُّ عن مسلمٍ مرَّ بكافرٍ فسَلَّم عليه، فقال: إن سلَّمتَ فقد سلَّم الصالحون قبلك، وإن تركتَ فقد تركَ الصالحون قبلك. ورُوي عن الحسن البصريِّ أنه قال: إذا مررتَ بمجلسٍ فيه مسلمونَ وكفارٌ فسَلِّم عليهم.

قلت: وقد احتجَّ أهلُ المقالة الأولى بأنَّ السلام الذي معناه التحية إنما خُصَّ به هذه الأمة؛ لحديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَى أُمَّتِي ثَلَاثًا لَمْ يُعْطَ^(١) أَحَدًا قَبْلَهُمُ السَّلَامُ، وَهِيَ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ» الحديث^(٢). ذكره الترمذيُّ الحكيم؛ وقد مضى في الفاتحة بسنده^(٣). وقد مضى الكلام في معنى قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾. وارتفع السلامُ بالابتداء، وجاز ذلك مع نكرته؛ لأنه نكرةٌ مُخَصَّصةٌ، فقرنت المعرفة^(٤).

(١) في (م): تُعْط.

(٢) كلمة الحديث ليست في النسخ الخطية، وهي في (م).

(٣) نواذر الأصول ١٨٥/٢، وقد سلف ٢٠١/١.

(٤) المحرر الوجيز ١٩/٤. وفيه: فقربت من المعرفة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ فِي حَفِيٍّ﴾: الحَفِيُّ: المبالغ في البرِّ والإلطاف، يُقال: حَفِيَّ به وَتَحَفَّى إِذَا بَرَّه^(١). وقال الكسائي: يقال: حَفِيَّ بي حَفَاوَةً وَحِفْوَةً^(٢). وقال الفراء^(٣): ﴿إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ فِي حَفِيٍّ﴾ أي: عالماً لطيفاً يُجِيبُنِي إِذَا دَعَوْتُهُ.

قوله تعالى: ﴿وَأَعَزَّ لَكُمْ﴾: العزلة: المفارقة، وقد تقدَّم في «الكهف» بيانها^(٤). وقوله: ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ قيل: أراد بهذا الدعاء أَنْ يَهَبَ اللَّهُ تعالى له أهلاً وولداً يتقوَّى بهم حتى لا يستوحش بالاعتزال عن قومه. ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا أَعَزَّكُمْ وَمَا يَبْذُلُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: أنسنا وحشته بولد. عن ابن عباس وغيره^(٥). وقيل: «عسى» يدلُّ على أَنَّ العبد لا يَقْطَعُ بأنه يبقى على المعرفة أم لا في المستقبل. وقيل: دعا لأبيه بالهداية. ف«عسى» شك؛ لأنه كان لا يدري هل يُسْتَجَابُ له فيه أم لا؟ والأول أظهر. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي: أثبتنا عليهم ثناءً حسناً^(٦)؛ لأنَّ جميع الملل تُحَسِّنُ الثناءَ عليهم^(٧). واللسان يُذَكِّرُ ويؤنِّثُ، وقد تقدَّم^(٨).

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝ وَنَذِيرًا ۝ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ﴾ أي: واقرأ عليهم من القرآن قصَّة موسى. ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا﴾ في عبادته غير مُرَاءٍ. وقرأ أهل الكوفة: بفتح اللام^(٩)، أي:

(١) معاني القرآن للنحاس ٣٣٦/٤.

(٢) نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ١٩/٣.

(٣) في معاني القرآن له ١٦٩/٢.

(٤) ص ٢٢٥ من هذا الجزء.

(٥) تفسير البغوي ١٩٨/٣ من غير نسبة.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣٣٦/٤، والوسيط ١٨٦/٣.

(٧) مجمع البيان ٤٤/١٦ بمعناه.

(٨) ١٨٤/٥.

(٩) السبعة ص ٤١٠، والتيسير ص ١٤٩.

أَخْلَصْنَاهُ فَجَعَلْنَاهُ مَخْتَاراً^(١). ﴿وَنَدَبْنَاهُ﴾ أي: كُلَّمَا نَاه لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ. ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: يَمِينُ مُوسَى، وَكَانَتِ الشَّجَرَةُ فِي جَانِبِ الْجَبَلِ عَنْ يَمِينِ مُوسَى حِينَ أَقْبَلَ مِنْ مَدْيَنَ إِلَى مِصْرَ، قَالَ الطَّبْرِيُّ^(٢) وَغَيْرُهُ، فَإِنَّ الْجِبَالَ لَا يَمِينَ لَهَا وَلَا شِمَالَ^(٣).

﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ نَصَبَ عَلَى الْحَالِ^(٤)، أَي: كُلَّمَا نَاه مِنْ غَيْرِ وَحْيٍ^(٥). وَقِيلَ: أَدْنَيْنَاهُ لِتَقْرِيبِ الْمَنْزِلَةِ حَتَّى كُلَّمَا نَاه^(٦). وَذَكَرَ وَكَيْعٌ وَقِيصَةُ عَنْ سَفْيَانَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا» أَي: أَدْنَيْنَا حَتَّى سَمِعَ صَرِيرَ الْأَقْلَامِ^(٧). ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ وَذَلِكَ حِينَ سَأَلَ فَقَالَ: ﴿وَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾. [طه: ٢٩-٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۝﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ اختلف فيه، فقيل: هو إسماعيل ابن حزقيل، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه، فخيرَه الله تعالى فيما شاء من عذابهم، فاستعفاه ورضي بثوابه، وفوض أمرهم إليه في عفوهِ وعقوبته. والجمهور أنه

(١) تفسير أبي الليث ٣٢٦/٢.

(٢) في التفسير ٥٥٩/١٥.

(٣) تفسير أبي الليث ٣٢٦/٢.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢١/٣.

(٥) تفسير أبي الليث ٣٢٦/٢.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣٣٣/٣.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ٥٣٣/١١، والحاكم في المستدرک ٣٧٣/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

إسماعيل الذبيح أبو العرب ابن إبراهيم^(١). وقد قيل: إنَّ الذبيحَ إسحاق^(٢)، والأول أظهر على ما تقدّم، ويأتي في «الصفات»^(٣) إن شاء الله تعالى. وخصَّه الله تعالى بصِدْق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء؛ تشريفاً له وإكراماً، كالتلقيب بنحو الحليم والأوّاه والصّدّيق؛ ولأنَّه المشهور المتواصف من خصاله^(٤).

الثانية: صِدْق الوعد محمود، وهو من خُلُق النبيّين والمرسلين، وضدّه - وهو الخُلْف - مذموم، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين على ما تقدّم بيانه في «براءة»^(٥).

وقد أثنى الله تعالى على نبيّه إسماعيل فوصفّه بصِدْق الوعد، واختلف في ذلك، فقيل: إنّه وعد من نفسه بالصبر على الذبح، فصبر حتى فدي^(٦). هذا في قول من يرى أنّه الذبيح. وقيل: وعد رجلاً أن يلقاه في موضع، فجاء إسماعيل وانتظر الرجل يومه وليلته، فلما كان في اليوم الآخر جاء فقال له: ما زلت هاهنا في انتظارك منذ أمس^(٧). وقيل: انتظره ثلاثة أيّام^(٨). وقد فعل مثله نبيّنا ﷺ قبل بعثته، ذكره النقّاش، وخرّجه الترمذي وغيره^(٩) عن عبد الله بن أبي الحَمَساء قال: بايعتُ النبيَّ ﷺ ببيع قبل

(١) النكت والعيون ٣/٣٧٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٢٠.

(٣) عند الآية (١٠٢).

(٤) الكشف ٢/٥١٣.

(٥) ١٠/٣١٢.

(٦) الكشف ٢/٥١٣.

(٧) المحرر الوجيز ٤/٢١.

(٨) تفسير أبي الليث ٢/٣٢٦ وعزاه إلى مقاتل.

(٩) المحرر الوجيز ٤/٢١، والحديث أخرجه أبو داود (٤٩٩٦)، وابن سعد في الطبقات ٧/٥٩، وابن أبي الدنيا في الصمت (٤٦٠)، والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٣١ - ٣٢، والطبراني في الكبير ٣/٢٢٤، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/١٩٨، وابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/٧٢٦ وقال: هذا حديث لا يصح. اهـ. ولم تقف عليه عند الترمذي.

أَنْ يُبْعَثَ، وَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ، فَوَعَدْتَهُ أَنْ آتِيَهُ بِهَا فِي مَكَانِهِ فَنَسِيتُ، ثُمَّ ذَكَرْتُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَجِئْتُ فَإِذَا هُوَ فِي مَكَانِهِ، فَقَالَ: «يَا فَتَى لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ، أَنَا هَاهُنَا مِنْذُ ثَلَاثِ أَنْتَظَرُكَ» لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ. وَقَالَ يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ: أَنْتَظَرُهُ إِسْمَاعِيلُ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا، ذَكَرَهُ الْمَاوَرِدِيُّ^(١). وَفِي كِتَابِ ابْنِ سَلَامٍ أَنَّهُ أَنْتَظَرَهُ سَنَةً^(٢). وَذَكَرَهُ الزَّمْخَشَرِيُّ^(٣) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ وَعَدَ صَاحِبًا لَهُ أَنْ يَنْتَظَرَهُ فِي مَكَانٍ، فَانْتَظَرَهُ سَنَةً. وَذَكَرَهُ الْقَشِيرِيُّ قَالَ: فَلَمْ يَبْرَحْ مِنْ مَكَانِهِ سَنَةً حَتَّى أَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: إِنَّ التَّاجِرَ الَّذِي سَأَلْتُكَ أَنْ تَقْعُدَ لَهُ حَتَّى يَعُودَ هُوَ إِبْلِيسَ، فَلَا تَقْعُدْ، وَلَا كِرَامَةً لَهُ. وَهَذَا بَعِيدٌ وَلَا يَصَحُّ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ إِسْمَاعِيلَ لَمْ يَعِدْ شَيْئًا إِلَّا وَفَّى بِهِ، وَهَذَا قَوْلٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُ الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الثالثة: من هذا الباب قوله ﷺ: «الْعِدَّةُ ذَيْن»^(٤). وَفِي الْأَثَرِ: «وَأَيُّ الْمُؤْمِنِ وَاجِبٌ» أَيُّ: فِي أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ. وَإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِوَاجِبٍ فَرَضًا؛ لِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ عَلَى - مَا حَكَاهُ أَبُو عَمَرَ^(٥) - أَنَّ مَنْ وَعَدَ بِمَا لَمْ يَكُنْ لِيَضْرِبَ بِهِ مَعَ الْغُرَمَاءِ، فَلِذَلِكَ قُلْنَا: إِيْجَابُ الْوَفَاءِ بِهِ حَسَنٌ مَعَ الْمَرْوَةِ، وَلَا يَقْضَى بِهِ. وَالْعَرَبُ تَمْتَدِّحُ بِالْوَفَاءِ، وَتَذُمُّ بِالْخُلْفِ وَالْعَدْرِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأُمَمِ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

مَتَى مَا يَقْلُ حُرٌّ لَصَاحِبٍ حَاجَةٍ نَعَمْ يَقْضِيهَا وَالْحُرُّ لِلْوَأْيِ ضَامِنٌ^(٦)

(١) فِي النَّكَتِ وَالْعَيُونِ ٣/٣٧٦، وَأَخْرَجَهُ عَنْهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي الصَّمْتِ (٤٦١).

(٢) الْمَحْرُورُ الْجَوِيزُ ٤/٢١.

(٣) الْكَشَافُ ٢/٥١٣.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ (٣٥٣٧) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَبِرَقْمِ (٣٥٣٨) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَعَلِيٍّ، مَعَ زِيَادَةٍ فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي أَخْبَارِ أَصْفَهَانَ ٢/٢٧٠، وَالْقَضَاعِيُّ فِي مَسْنَدِ الشَّهَابِ ١/٤٠، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ ٤/١٦٦ عَنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: وَفِيهِ حِمْزَةُ بَنِ دَاوُدَ، ضَعَفَهُ الدَّارِقُطْنِيُّ. اهـ. وَيَنْظُرُ كَشَفُ الْخَفَاءِ ٢/٧٣ - ٧٤.

(٥) فِي التَّمْهِيدِ ٣/٢٠٦ - ٢٠٧، وَمَا قَبْلَهُ مِنْهُ، وَالْأَثَرُ أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي الْمَرَاثِلِ (٥٢٣) عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَضَعَفَهُ ابْنُ حَزْمٍ فِي الْمَحَلِيِّ ٨/٢٩. وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَالْوَأْيُ: الْعِدَّةُ.

(٦) التَّمْهِيدُ ٣/٢٠٧، وَنَسَبَهُ لِسَابِقِ بْنِ خَدِيمٍ، وَمَا بَعْدَهُ مِنْهُ.

ولا خلاف أنَّ الوفاء يستحقُّ صاحبه الحمد والشكر، وعلى الخُلْف الذم. وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من صدق وعده، ووفَّى بنذره، وكفى بهذا مدحاً وثناءً، وبما خالفه ذمّاً.

الرابعة: قال مالك: إذا سأل الرجلُ الرجلَ أن يهبَ له الهبة، فيقول له: نعم، ثم يبدو له ألا يفعل، فما أرى يلزمه. قال مالك: ولو كان ذلك في قضاء دين فسأله أن يقضيه عنه فقال: نعم، وثُمَّ رجلاً يشهدون عليه، فما أحراه أن يلزمه إذا شهد عليه اثنان. وقال أبو حنيفة وأصحابه والأوزاعيُّ والشافعيُّ وسائر الفقهاء: إنَّ العِدَّة لا يلزم منها شيء؛ لأنَّها منافع لم يقبضها في العارية؛ لأنَّها طارئة، وفي غير العارية هي أشخاص وأعيان موهوبة لم تقبض، فلصاحبها الرجوع فيها^(١).

وفي البخاري^(٢): ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ وقضى ابن أشوع بالوعد، وذكر ذلك عن سَمُرَةَ بن جُنْدَب. قال البخاريُّ: ورأيت إسحاق بن إبراهيم يحتجُّ بحديث ابنِ أشوع.

الخامسة: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ قيل: أرسل إسماعيلُ إلى جُزْهم^(٣). وكلُّ الأنبياء كانوا إذا وعدوا، صدَّقوا، وخصَّ إسماعيل بالذكر؛ تشريعاً له، والله أعلم.

السادسة: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ قال الحسن: يعني أمته. وفي حرف ابن مسعود: «وكان يأمر أهله جُزْهم وولده بالصلاة والزكاة»^(٤).

(١) التمهيد ٢٠٨/٣ - ٢٠٩.

(٢) في صحيحه، في كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، قبل حديث (٢٦٨١). قال ابن حجر في تغليق التعليق ٣/ ٣٩٤: وأما ابن أشوع - واسمه سعيد بن عمرو بن أشوع - فرواه محمد بن خلف وكيع في كتاب «الغرر من الأخبار» له. اهـ. وقال في فتح الباري ٥/ ٢٩٠: وقد وقع بيان روايته [أي: ابن أشوع] كذلك عن سمرة بن جندب في تفسير إسحاق بن راهويه.

(٣) الوسيط ١٨٧/٣.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢١، وفيه أن حرف ابن مسعود: وكان يأمر قومه. وكذا جاءت في البحر المحيط ٦/ ١٩٩.

﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ أي: رضيًا زاكياً صالحاً^(١). قال الكسائي والفراء^(٢): من قال: مرضي، بناء على رَضِيتُ، قالوا: وأهل الحجاز يقولون: مرضو. وقال الكسائي والفراء: من العرب من يقول: رَضَوَان وَرْضِيَان، فِرَضَوَان على مرضو، وَرْضِيَان على مرضي، ولا يجوز البصريون أن يقولوا إلا رَضَوَان وِرْوَان. قال أبو جعفر النحاس^(٣): سمعت أبا إسحاق الزجاج يقول: يخطئون في الخط فيكتبون رباً بالياء، ثم يخطئون فيما هو أشد من هذا، فيقولون: رِبيان، ولا يجوز إلا رِبَوَان وِرَضَوَان، قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ [الروم: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ ٥٦ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ إدريس عليه السلام أول من خطَّ بالقلم، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط، وأول من نظر في علم النجوم والحساب وسيرها. وسُمِّي إدريس؛ لكثرة دَرَسه لكتاب الله تعالى^(٤). وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة، كما في حديث أبي ذر^(٥).

الزمخشري^(٦): وقيل: سُمِّي إدريس إدريس؛ لكثرة دَرَسه كتاب الله تعالى، وكان اسمه أخنوخ، وهو غير صحيح؛ لأنه لو كان إفعيلاً من الدرس، لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية وكان منصرفاً، فامتناعه من الصَّرف دليل على العجمة، وكذلك إبليس أعجمي، وليس من الإبلas كما يزعمون، ولا يعقوب من العقب، ولا إسرائيل بإسرا، كما زعم ابن السكيت، ومن لم يحقق ولم يتدرب بالصناعة؛ كثرت

(١) تفسير أبي الليث ٣٢٦/٢.

(٢) في معاني القرآن ١٦٩/٢ - ١٧٠ ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢٠/٣ - ٢١.

(٣) في إعراب القرآن ٢٠/٣ - ٢١ وما قبله منه.

(٤) عرائس المجالس ص ٥٠.

(٥) أخرجه ابن حبان (٣٦١)، وأبو نعيم في الحلية ١٦٦/١، وفيه: إبراهيم بن هشام بن يحيى، قال عنه أبو حاتم في الجرح والتعديل ١٤٢/٢: كذاب.

(٦) في الكشف ٥١٣/٢.

منه أمثال هذه الهنات، يجوز أن يكون معنى إدريس عليه السلام في تلك اللغة قريباً من ذلك، فحسبه الراوي مشتقاً من الدرس.

قال الثعلبي والغزنوي وغيرهما: وهو جدُّ نوح، وهو خطأ، وقد تقدّم في «الأعراف» بيانه^(١). وكذا وقع في السيرة أنَّ نوحاً عليه السلام بن لامك بن متوشلخ ابن أخنوخ وهو إدريس النبي فيما يزعمون، والله تعالى أعلم - وكان أوَّل من أُعطي النبوة من بني آدم، وخطَّ بالقلم - ابن يرد بن مهلائيل بن قينان بن يانش بن شيث بن آدم ﷺ^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال أنس بن مالك^(٣) وأبو سعيد الخدري^(٤) وغيرهما^(٥): يعني: السماء الرابعة. وروي ذلك عن النبي ﷺ، وقاله كعب الأحبار^(٦). وقال ابن عباس والضحاك: يعني: السماء السادسة^(٧)، ذكره المهدوي.

قلت: ووقع في البخاري^(٨) عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر قال: سمعت أنس ابن مالك يقول: ليلة أُسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة، الحديث، وفيه: كلُّ سماء فيها أنبياء - قد سمَّاهم - منهم إدريس في الثانية. وهو وهمٌ، والصحيح أنَّه في السماء الرابعة، كذلك رواه ثابت البناني عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ، ذكره مسلم في «الصحيح»^(٩). وروى مالك بن صعصعة قال: قال النبي ﷺ: «لما عُرج بي إلى

(١) ٢٥٨/٩.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/١.

(٣) أخرجه أحمد (١٣٧٣٩)، والترمذي (٣١٥٧)، وأبو يعلى (٢٩١٤)، والطبري ٥٦٥/١٥ عن أنس مرفوعاً. قال الترمذي: وهذا حديث حسن.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٥٥١/١١، والطبري ٥٦٤/١٥ عن أبي سعيد الخدري موقوفاً.

(٥) منهم أبو هريرة وأخرجه عنه الطبري ٥٦٤/١٥.

(٦) المحرر الوجيز ٢١/٤.

(٧) أخرجه عنهما الطبري ٥٦٤/١٥.

(٨) برقم (٧٥١٧).

(٩) برقم (١٦٢).

السماء أتيت على إدريس في السماء الرابعة». خرَّجه مسلم أيضاً^(١).

وكان سبب رَفْعِهِ على ما قال ابن عباس وكعب وغيرهما: أَنَّهُ سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس، فقال: يا ربِّ أنا مشيت يوماً فكيف بمن يحملها خمس مئة عام في يوم واحد! اللهمَّ خَفِّفْ عنه من ثقلها. يعني: المَلَكُ الموكِّلُ بفلک الشمس، يقول إدريس: اللهمَّ خَفِّفْ عنه من ثقلها، واحمل عنه من حرِّها. فلما أصبح المَلَكُ وجد من خَفَّةِ الشمس والظِّلِّ ما لا يعرف، فقال: يا ربِّ خلقتني لحمل الشمس فما الذي قضيت فيه؟ فقال الله تعالى: أما إِنَّ عبيدي إدريس سألني أن أخَفِّفَ عنك حملها وحرِّها، فأجبته، فقال: يا ربِّ اجمع بيني وبينه، واجعل بيني وبينه خَلَّةً. فأذنَ الله له حتى أتى إدريسَ، وكان إدريس عليه السلام يسأله. فقال: أُخبرت أَنَّكَ أكرمُ الملائكة وأمكنهم عند مَلَكِ الموت، فاشفع لي إليه ليؤخَّرَ أَجَلِي، فأزادَ شُكْرًا وعبادة. فقال المَلَكُ: لا يؤخَّرُ اللهُ نفساً إذا جاء أَجلُها، فقال للمَلَكِ: قد علمت ذلك ولكنَّه أَطيبُ لنفسي. قال: نعم. ثم حمّله على جناحه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس، ثم قال لمَلَكِ الموت: لي صديق من بني آدم تشفَّع بي إليك لتؤخَّرَ أَجله. فقال: ليس ذلك إِلَيَّ ولكن إن أحببتِ عِلْمَهُ أعلمته متى يموت. قال: نعم. ثم نظر في ديوانه، فقال: إِنَّكَ تسألني عن إنسان ما أراه يموت أبداً. قال: وكيف؟ قال: لا أَجده يموت إلا عند مطلع الشمس. قال: فإني أتيتك وتركته هناك، قال: انطلق فما أراك تجده إلا وقد مات، فوالله ما بقي من أَجل إدريس شيء. فرجع المَلَكُ فوجده ميتاً^(٢).

وقال السَّديُّ: إِنَّهُ نام ذات يوم، واشتدَّ عليه حرُّ الشمس، فقام وهو منها في كرب، فقال: اللهمَّ خَفِّفْ عن مَلَكِ الشمس حرِّها، وأَعِنِّه على ثقلها، فَإِنَّهُ يمارس ناراً حامية. فأصبح مَلَكُ الشمس وقد نُصب له كرسيٌّ من نور، عنده سبعون ألف مَلَك

(١) في صحيحه برقم (١٦٤).

(٢) عرائس المجالس ص ٥٠ - ٥١، وتفسير البغوي ٣/ ١٩٩ - ٢٠٠.

عن يمينه، ومثلها عن يساره يخدمونه، ويتولَّون أمره وعمله من تحت حكمه، فقال ملكُ الشمس: يا ربُّ من أين لي هذا؟ قال: دعا لك رجل من بني آدم يقال له: إدريس. ثم ذكر نحو حديث كعب. قال: فقال له ملكُ الشمس: أتريدُ حاجة؟ قال: نعم، وددت أنِّي لو رأيت الجنة. قال: فرفعه على جناحه، ثم طار به، فبينما هو في السماء الرابعة، التقى بملك الموت ينظر في السماء، ينظر يميناً وشمالاً، فسَلَّم عليه ملكُ الشمس، وقال: يا إدريس هذا ملكُ الموت فسَلَّم عليه. فقال ملكُ الموت: سبحانَ الله! ولأَيِّ معنى رفعته هنا؟ قال: رفعتُه لأُريه الجنَّة. قال: فإنَّ الله تعالى أمرني أن أقبضَ روح إدريس في السماء الرابعة. قلت: يا ربُّ وأين إدريس من السماء الرابعة، فنزلت فإذا هو معك، فقبضَ روحه، فرفعها إلى الجنة، ودفنت الملائكة جثته في السماء الرابعة، فذلك قوله تعالى: «ورفعناه مكاناً عليّاً».

قال وهب بن منبّه: كان يُرْفَع لإدريس كلَّ يوم من العبادة مثل ما يُرْفَع لأهل الأرض في زمانه، فعجب منه الملائكة، واشتاق إليه ملكُ الموت، فاستأذن ربّه في زيارته، فأذن له، فأتاه في صورة آدمي، وكان إدريس عليه السلام يصوم النهار، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه، فأبى أن يأكل، ففعل به ذلك ثلاث ليال، فأنكره إدريس، وقال له: من أنت! قال: أنا ملكُ الموت، استأذنتُ ربِّي أن أصحبك فأذن لي، فقال: إنَّ لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: أن تقبضَ روحي. فأوحى الله تعالى إليه أن اقبض روحه، فقبضه وردّه إليه بعد ساعة، وقال له ملكُ الموت: ما الفائدة في قبض روحك؟ قال: لأذوقُ كُرْبَ الموت؛ فأكون له أشدَّ استعداداً. ثم قال له إدريس بعد ساعة: إنَّ لي إليك حاجة أخرى. قال: وما هي؟ قال: أن ترفعني إلى السماء فأنظر إلى الجنَّة والنار، فأذن الله تعالى له في رَفْعهِ إلى السماوات، فرأى النار فصَبَقَ، فلما أفاق قال: أرني الجنَّة. فأدخله الجنة، ثم قال له ملكُ الموت: اخرج لتعودَ إلى مقرِّك. فتعلَّقَ بشجرة وقال: لا أخرجُ منها. فبعث الله تعالى بينهما ملكاً حكماً، فقال: مالك لا تخرج؟ قال: لأنَّ الله تعالى قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وأنا ذقُّته، وقال: ﴿وَلَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] وقد

وردتها، وقال: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] فكيف أخرج؟ قال الله تبارك وتعالى لملك الموت: بإذني دخل الجنة وبأمرني يخرج. فهو حيٌّ هنالك فذلك قوله تعالى: «ورفعناه مكاناً علياً»^(١).

قال النحاس^(٢): قول إدريس: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] يجوز أن يكون الله أَعْلَمَ هذا إدريس، ثم نزل القرآن به.

قال وهب بن منبه: فإدريس تارة يرتع في الجنة، وتارة يعبد الله تعالى مع الملائكة في السماء^(٣).

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝٥٨﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ يريد إدريس وحده. ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ يريد إبراهيم وحده. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِسْرَءِيلَ﴾ موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى^(٤). فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم، ولإبراهيم شرف القرب من نوح، ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب شرف القرب من إبراهيم^(٥).

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ أي: إلى الإسلام ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ بالإيمان. ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ وقرأ شبيل بن عباد المكي: «يتلى» بالتذكير؛ لأن التأنيث غير حقيقي مع

(١) عرائس المجالس ص ٥١.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٣٣٨.

(٣) عرائس المجالس ص ٥١.

(٤) زاد المسير ٥/ ٢٤٤.

(٥) الوسيط ٣/ ١٨٧.

وجود الفاصل^(١).

﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ وصفهم بالخشوع لله والبكاء. وقد مضى في «سبحان»^(٢).

يقال: بكى يبكي بكاءً وبُكْيًا، وإلا أنَّ الخليل قال: إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن، أي: ليس معه صوت، كما قال الشاعر:

بكت عيني وحُقَّ لها بكاءها وما يغني البكاء ولا العويلُ
«وسجداً» نصبٌ على الحال، «وبكياً» عطف عليه^(٣).

الثانية: في هذه الآية دلالة على أنَّ لآيات الرحمن تأثيراً في القلوب. قال الحسن: ﴿إِنَّا نُنْزِلُ عَلَيْهِم آيَاتٍ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ في الصلاة. وقال الأصمُّ: المراد بآيات الرحمن الكتب المتضمنة لتوحيده وحُجَّجه، وأنَّهم كانوا يسجدون عند تلاوتها، ويبكون عند ذكرها. والمروي عن ابن عباس أنَّ المراد به القرآن خاصَّةً، وأنَّهم كانوا يسجدون ويبكون عند تلاوته. قال الكيا^(٤): وفي هذا دلالةٌ من قوله على أنَّ القرآن هو الذي كان يتلى على جميع الأنبياء، ولو كان كذلك لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام مختصاً بإنزاله إليه.

الثالثة: احتج أبو بكر الرازي بهذه الآية على وجوب سجود القرآن على المستمع والقارئ. قال الكيا^(٥): وهذا بعيدٌ، فإنَّ هذا الوصف شاملٌ لكلِّ آيات الله تعالى، وضم السجود إلى البكاء، وأبان به عن طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في تعظيمهم لله تعالى وآياته، وليس فيه دلالةٌ على وجوب ذلك عند آية مخصوصة.

الرابعة: قال العلماء: ينبغي لمن قرأ سجدةً أن يدعو فيها بما يليقُ بآياتها، فإن قرأ سورة السجدة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك،

(١) الكشف ٥١٤/٢، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٨٥.

(٢) عند الآية (١٠٧) من سورة الإسراء.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢١/٣، والبيت لكعب بن مالك، يرثي فيه حمزة ؑ، وهو في ديوانه ص ٢٠٠.

(٤) في أحكام القرآن له ٢٧٠/٤، وما قبله منه.

(٥) في أحكام القرآن له ٢٧١/٤، وما قبله منه.

المسبِّحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك. وإن قرأ سجدة «سبحان» قال: اللهم اجعلني من الباكين إليك، الخاشعين لك. وإن قرأ هذه قال: اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم، المهدئين الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك^(١).

قوله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ٦٠ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعْدُ مَا بَيْنَا ٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ٦٣﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: أولاد سوء. قال أبو عبيد: حَدَّثَنَا حَجَّاج، عن ابن جريج، عن مجاهد قال: ذلك عند قيام الساعة، وذهب صالحى هذه الأمة أمة محمد ﷺ ينزو بعضهم على بعض في الأزقة زنى^(٢). وقد تقدّم القول في «خلف» في «الأعراف»^(٣) فلا معنى للإعادة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ وقرأ عبد الله والحسن: «أَضَاعُوا الصَّلَوَاتِ» على الجمع^(٤). وهو ذمٌ ونصٌّ في أن إضاعة الصلاة من الكبائر التي يوبق بها صاحبها، ولا خلاف في ذلك. وقد قال عمر: ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع^(٥).

(١) الكشف ٥١٤/٢.

(٢) أخرجه الطبري ٥٧٠/١٥ من طريق الحسين، عن حجاج، به، وأخرجه أيضاً الطبري ٥٧٠/١٥، وأبو نعيم في الحلية ٢٨٢/٣ من طريق ابن أبي نجیح، عن مجاهد، به. وهو في تفسير مجاهد ٣٨٧/١.

(٣) ٣٧١/٩.

(٤) القراءات الشاذة ص ٨٥.

(٥) سلف ٢٥٣/١.

واختلفوا فيمن المراد بهذه الآية، فقال مجاهد: النصارى خَلَفُوا بعد اليهود. وقال محمد بن كعب القرظي ومجاهد أيضاً وعطاء: هم قومٌ من أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ في آخر الزمان، أي: يكون في هذه الأُمَّة من هذه صفته، لا أنهم المراد بهذه الآية^(١).

واختلفوا أيضاً في معنى إضاعتها، فقال القرظي: هي إضاعة كُفْرٍ وَجَحْدٍ بها. وقال القاسم بن مخيمرة، وعبد الله بن مسعود: هي إضاعة أوقاتها، وعدم القيام بحقوقها. وهو الصحيح، وأنها إذا صليت مَخْلَى بها لا تصح ولا تُجْزَى؛ لقوله ﷺ للرجل الذي صَلَّى وجاء فسَلَّمَ عليه: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» ثلاث مرات، خَرَّجَهُ مسلم^(٢).

وقال حذيفة لرجل يصلي فَطَقَّفَ^(٣): منذ كم تصلي هذه الصلاة؟ قال: منذ أربعين عاماً. قال: ما صليت، ولو مِتَّ وأنت تصلي هذه الصلاة لَمِتَّ على غير فطرة مُحَمَّدٍ ﷺ. ثم قال: إِنَّ الرجل ليخفّف الصلاة ويتّم وَيُحْسِن. خَرَّجَهُ البخاري، واللفظ للنسائي^(٤).

وفي الترمذي عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُجْزَى صلاةٌ لا يُقِيم فيها الرجل، يعني: صلبه في الركوع والسجود» قال: حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وَمَنْ بعدهم، يرون أن يقيم الرجلُ صلبه في الركوع والسجود. قال الشافعي وأحمد وإسحاق: من لم يُقِم صلبه في الركوع والسجود، فصلاته فاسدة^(٥).

قال ﷺ: «تلك الصلاةُ صلاةُ المنافق يجلس يَرُقُب الشمسَ حتى إذا كانت بين

(١) المحرر الوجيز ٢٢/٤، والكلام الآتي منه أيضاً، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٥٧١/١٥.

(٢) في صحيحه (٣٩٧)، وهو عند البخاري أيضاً (٧٥٧)، وسلف ١٨٥/١.

(٣) من التطفيف، أي: نقص من الركوع والسجود.

(٤) البخاري (٣٨٩)، والنسائي في الكبرى (٦١١)، وهو عند أحمد (٢٣٢٥٨).

(٥) الترمذي (٢٦٥)، وأخرجه أيضاً أبو داود (٨٥٥)، والنسائي في المجتبى ١٨٣/٢، وابن ماجه

(٨٧٠)، وأحمد (١٧٠٧٣).

قرني الشيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً^(١). وهذا ذم لمن يفعل ذلك. وقال فروة بن خالد بن سنان: استبطأ أصحاب الضحّاك مرةً أميراً في صلاة العصر حتى كادت الشمس تغرب، فقرأ الضحّاك هذه الآية، ثم قال: والله لأن أدعها أحب إليّ من أن أضيّعها.

وجملة القول في هذا الباب أن من لم يحافظ على كمال وضوئها وركوعها وسجودها فليس بمحافظ عليها، ومن لم يحافظ عليها فقد ضيّعها، ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيع، كما أن من حافظ عليها حفظ الله عليه دينه، «ولا دين لمن لا صلاة له»^(٢). وقال الحسن: عطلوا المساجد، واشتغلوا بالصنائع والأسباب. «وَاتَّبِعُوا الشَّهَوَاتِ» أي: اللذات والمعاصي.

الثالثة: روى الترمذي وأبو داود عن أنس بن حكيم الضبي أنه أتى المدينة، فلقي أبا هريرة فقال له: يا فتى ألا أحدثك حديثاً لعل الله تعالى أن ينفعك به. قلت: بلى. قال: «إنَّ أوَّلَ ما يحاسب به الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة، فيقول الله تبارك وتعالى لملائكته - وهو أعلم -: انظروا في صلاة عبدي أتمّها أم نقصها، فإن كانت تامة، كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئاً، قال: انظروا هل لعبدي من تطوُّع فإن كان له تطوُّع، قال: أكملوا لعبدي فريضته من تطوُّعه، ثم تؤخذ الأعمال على ذلك». قال يونس: وأحسبه عن النبي ﷺ، لفظ أبي داود^(٣).

وقال: حدّثنا موسى بن إسماعيل، حدّثنا حماد، حدّثنا داود بن أبي هند، عن

(١) أخرجه مسلم (٦٢٢)، وهو عند أحمد (١١٩٩٩).

(٢) التمهيد ٢٣/٣٠٠، والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٣١٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أبو داود (٨٦٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٧٩٠٢)، وابن ماجه (١٤٢٥)، وهو عند الترمذي (٤١٣) من رواية الحسن، عن حريث بن قبيصة، عن أبي هريرة ؓ، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه. اهـ وسيأتي من رواية النسائي قريباً.

قال الدارقطني في العلل ٨/٢٤٨ بعد ما ذكر اضطراب الحديث: أشبهها بالصواب قول من قال: عن الحسن عن أنس بن حكيم عن أبي هريرة.

زُرارة بن أوفى، عن تميم الداري، عن النبي ﷺ بهذا المعنى، قال: «ثم الزكاة مثل ذلك، ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك»^(١).

وأخرجه النسائي عن همام، عن الحسن، عن حُرَيْث بن قَبِيصة، عن أبي هريرة، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يَحَاسِبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ، فَإِنْ صَلَحَتْ، فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ، فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ - قَالَ هَمَّامٌ: لَا أَدْرِي هَذَا مِنْ كَلَامِ قَتَادَةَ، أَوْ مِنَ الرَّوَايَةِ - فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ، فَيَكْمَلُ بِهِ مَا نَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ». خالفه أبو العوام فرواه عن قتادة، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يَحَاسِبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَلَاتَهُ، فَإِنْ وُجِدَتْ تَامَّةً، كُتِبَتْ تَامَّةً، وَإِنْ كَانَ انْتَقَصَ مِنْهَا شَيْءٌ، قَالَ: انْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ يُكْمَلُ مَا ضَيَّعَ مِنْ فَرِيضَتِهِ مِنْ تَطَوُّعِهِ، ثُمَّ سَائِرُ الْأَعْمَالِ تَجْرِي عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ»^(٢). قال النسائي: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم، قال: حَدَّثَنَا النُّضْرُ بْنُ شَمِيلٍ، قَالَ: أَنْبَأَنَا حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنِ الْأَزْرَقِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَوَّلُ مَا يَحَاسِبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَلَاتَهُ، فَإِنْ كَانَ أَكْمَلَهَا، وَإِلَّا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ، فَإِنْ وَجَدَ لَهُ تَطَوُّعًا، قَالَ: أَكْمَلُوا بِهِ الْفَرِيضَةَ»^(٣).

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب «التمهيد»^(٤): «أَمَّا إِكْمَالُ الْفَرِيضَةِ مِنَ التَّطَوُّعِ فَإِنَّمَا يَكُونُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - فِيمَنْ سَهَا عَنْ فَرِيضَةٍ فَلَمْ يَأْتِ بِهَا، أَوْ لَمْ يُحَسِّنْ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا وَلَمْ يَذَرِ قَدْرَ ذَلِكَ، وَأَمَّا مَنْ تَرَكَهَا، أَوْ نَسِيَ ثُمَّ ذَكَرَهَا، فَلَمْ يَأْتِ بِهَا عَامِداً، وَاشْتَغَلَ بِالتَّطَوُّعِ عَنْ آدَاءِ فَرَضِهَا وَهُوَ ذَاكِرٌ لَهَا، فَلَا تَكْمُلُ لَهُ فَرِيضَةٌ مِنْ تَطَوُّعِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ رَوَى مِنْ حَدِيثِ الشَّامِيِّينَ فِي هَذَا الْبَابِ حَدِيثٌ مِنْكَرٌ يَرْوِيهِ

(١) أبو داود (٨٦٦)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (١٤٢٦). من طريق سليمان بن حرب، عن حماد، به، ومن طريق عفان، عن حماد، عن حميد، عن الحسن، عن رجل، عن أبي هريرة به.

(٢) النسائي في المجتبى ٢/ ٢٣٢ - ٢٣٣، وفي الكبرى (٣٢٢) مقتصرأ على الراوية الأولى.

(٣) النسائي في المجتبى ٢/ ٢٣٣ - ٢٣٤، وفي الكبرى (٣٢١).

(٤) ٨١/٢٤.

محمد بن حمير، عن عمرو بن قيس السكوني، عن عبد الله بن قُرط، عن النبي ﷺ قال: «من صَلَّى صلاة لم يكمل فيها ركوعه وسجوده، زِيدَ فيها من تسبيحاته حتى تتم». قال أبو عمر: وهذا لا يحفظ عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه، وليس بالقوي، وإن كان صحَّحَ كان معناه أنه خرج من صلاة كان قد أتمَّها عند نفسه، وليست في الحكم بتأمّة.

قلت: فينبغي للإنسان أن يُحسِّن فرضه ونَفْلَه، حتى يكون له نفل يجده زائداً على فرضه يقربه من ربه، كما قال سبحانه وتعالى: «وما يزال عبيدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»^(١) الحديث. فأما إذا كان نفل يكمل به الفرض، فحكمه في المعنى حكم الفرض. ومن لا يُحسِّن أن يصلي الفرض فأحرى وأولى ألا يحسن التنفل، لا جرم تنفل الناس في أشد ما يكون من النقصان والخلل؛ لحفّته عندهم، وتهاونهم به، حتى كأنه غير معتدّ به. ولعمُرُ الله لقد يشاهد في الوجود من يشار إليه، ويظن به العلم تنفّله كذلك، بل فرضه إذ ينقره نَقَرُ الديك لعدم معرفته بالحديث، فكيف بالجهال الذين لا يعلمون. وقد قال العلماء: ولا يُجزئ ركوع ولا سجود، ولا وقوف بعد الركوع، ولا جلوس بين السجدين، حتى يعتدل رакعاً وواقفاً وساجداً وجالسا. وهذا هو الصحيح في الأثر، وعليه جمهور العلماء وأهل النظر. وهذه رواية ابن وهب وأبي مصعب عن مالك. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»^(٢). وإذا كان هذا فكيف يكمل بذلك التنفل ما نقص من هذا الفرض على سبيل الجهل والسهو؟! بل كان ذلك غير صحيح ولا مقبول؛ لأنّه وقع على غير المطلوب، والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ وعن عليّ عليه السلام في قوله تعالى: «واتبعوا الشهوات» هو من بنى الشديد، وركب المنظور، ولبس المشهور.

قلت: الشهوات عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه ويلائمه ولا يتقيه. وفي «الصحيح»: «حُفَّتِ الجنة بالمكاره، وحُفَّتِ النار بالشهوات»^(٣). وما ذكر عن عليّ عليه السلام

(١) سلف ٤١١/٧.

(٢) ٢٦٢/١ وما بعدها.

(٣) سلف ٤٣/٥.

جزء من هذا.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال ابن زيد: شرًّا أو ضلالاً أو خيبة^(١)، قال: فمن يَلْقَ خيراً يَحْمَدُ الناسُ أمره ومن يَغْوُ لا يَغْدُمُ على الغيِّ لائماً^(٢) وقال عبد الله بن مسعود: هو وادٍ في جهنم^(٣). والتقدير عند أهل اللغة: فسوف يلقون جزاء الغيِّ، كما قال جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]. والأظهر أنَّ الغيَّ اسم للوادي سُمِّيَ به؛ لأنَّ الغاوينَ يصيرون إليه^(٤). قال كعب: يظهر في آخر الزمان قوم بأيديهم سياط كأذناب البقر، ثم قرأ: «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» أي: هلاكاً وضلالاً في جهنم.

وعنه: غيٌّ: وادٍ في جهنم أبعدا قعرًا، وأشدّها حرًّا، فيه بثر يسمى البهيم، كلما خبت جهنم، فتح الله تعالى تلك البثر فتسعر بها جهنم. وقال ابن عباس: غيٌّ: وادٍ في جهنم، وإنَّ أودية جهنم لتستعيز من حرّه، أعدَّ الله تعالى ذلك الوادي للزاني المُصِرُّ على الزنى، ولشارب الخمر المدمن عليه، ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه، ولأهل العقوق، ولشاهد الزور، ولامرأة أدخلت على زوجها ولدًا ليس منه^(٥).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ أي: من تضييع الصلاة واتباع الشهوات، فرجع إلى طاعة ربّه. ﴿وَأَمِنْ﴾ به ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾. قرأ أبو جعفر وشيبة وابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر: «يَدْخُلُونَ» بفتح الخاء. وفتح الياء الباقون^(٦).

(١) أخرجه عنه الطبري ٥٧٣/١٥ - ٥٧٤.

(٢) القائل: المرقش الأصغر، وسلف ١٧١/٩.

(٣) أخرجه هناد في الزهد (٢٧٦)، والطبري ٥٧٢/١٥، والطبراني في الكبير (٩١١٠).

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣٣٦/٣.

(٥) تفسير البغوي ٢٠١/٣.

(٦) السبعة ٢٣٧ - ٢٣٨، والتيسير ص ٩٧.

﴿وَلَا يَظْلُمُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقص من أعمالهم الصالحة شيء، إلا أنهم يكتب لهم بكل حسنة عشر إلى سبع مئة. ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ بدلاً من الجنة فانتصبت. قال أبو إسحاق الزجاج^(١): ويجوز «جَنَّاتٍ عَدْنٍ» على الابتداء. قال أبو حاتم: ولولا الخط لكان «جَنَّةٌ عَدْنٍ» لأنَّ قبله: «يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ». ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: من عبده وحفظ عهده بالغيب. وقيل: آمنوا بالجنة ولم يَرَوْهَا.

﴿إِذْ كَانُوا وَعَدُومًا﴾ «مأتياً» مفعول من الإتيان. وكلُّ ما وصل إليك فقد وصلت إليه، تقول: أتت عليّ ستون سنة، وأتيتُ على ستين سنة. ووصل إليّ من فلان خير، ووصلتُ منه إلى خير^(٢). وقال القتيبي^(٣): «مأتياً» بمعنى آتٍ، فهو مفعول بمعنى فاعل. و«مأتياً» مهموز؛ لأنَّه من أتى يأتي. ومن خَفَّفَ الهمزة جعلها ألفاً^(٤).

وقال الطبري^(٥): الوعد هاهنا: الموعد، وهو الجنة، أي: يأتيها أولياؤه.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: في الجنة. واللغو معناه: الباطل من الكلام والفحش منه والفضول وما لا ينتفع به. ومنه الحديث: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة: أنصت، والإمام يخطب؛ فقد لغوت»^(٦) ويروى: «لغيت» وهي لغة أبي هريرة، كما قال الشاعر:

وَرَبَّ أَسْرَابٍ حَاجِجٍ كُظِّمَ عَنِ اللَّغَا وَرَفَّتِ التَّكَلُّمُ^(٧)

قال ابن عباس: اللغو: كلُّ ما لم يكن فيه ذكر الله تعالى، أي: كلامهم في الجنة حمد الله وتسييحه.

(١) في معاني القرآن ٣/٣٣٦، ونقله عنه القرطبي بواسطة النحاس في معاني القرآن ٣/٢٢، وما بعده منه.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/٣٣٦.

(٣) في تفسير غريب القرآن ص ٢٧٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/٢٢.

(٥) في التفسير ١٥/٥٧٥.

(٦) تقدم في ١٧/٤.

(٧) القائل: العجاج، والحديث سلف ١٧/٤، والبيت سلف ٣/١٨٨ و ١٧/٤.

﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ أي: لكن يسمعون سلاماً، فهو من الاستثناء المنقطع^(١)، يعني: سلام بعضهم على بعض، وسلام الملك عليهم، قاله مقاتل وغيره^(٢). والسلام: اسم جامع للخير، والمعنى أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: لهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرة وعشيًا، أي: في قدر هذين الوقتين، إذ لا بكرة ثم ولا عشيًا، كقوله تعالى: ﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢] أي: قَدَرُ شهر، قال معناه ابن عباس وابن جريج وغيرهما. وقيل: عرفهم اعتدال أحوال أهل الجنة، وكان هنا النعمة عند العرب التمكين من المطعم والمشرب بكرة وعشيًا^(٤).

قال يحيى بن أبي كثير وقتادة: كانت العرب في زمانها من وجد غداء وعشاء معاً، فذلك هو الناعم، فنزلت^(٥). وقيل: أي: رَزَقَهُمْ فيها غير منقطع، كما قال: ﴿لَا مَقْطُوعُوْهُ وَلَا مَتَّوْعُوْهُ﴾ [الواقعة: ٣٣] وهو كما تقول: أنا أصبح وأمسي في ذُكْرِكَ. أي: ذكرى لك دائم. ويحتمل أن تكون البكرة قبل تشاغلهم بلذاتهم، والعشي بعد فراغهم من لذاتهم؛ لأنه يتخللها فترات انتقال من حال إلى حال. وهذا يرجع إلى القول الأول.

وروى الزبير بن بكار عن إسماعيل بن أبي أويس، قال: قال مالك بن أنس: طعام المؤمنين في اليوم مرتان، وتلا قول الله عز وجل: ﴿وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ثم قال: وعَوْضُ الله عز وجل المؤمنين في الصيام السحور بدلاً من الغداء ليقووا به على عبادة ربهم. وقيل: إنما ذكر ذلك؛ لأنَّ صفة الغداء وهيئته غير صفة

(١) المحرر الوجيز ٢٣/٤.

(٢) النكت والعيون ٣٨١/٣.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣٣٧/٣.

(٤) النكت والعيون ٣٨١/٣ بنحوه.

(٥) تفسير أبي الليث ٣٢٩/٢، والمحرر الوجيز ٢٣/٤ عن قتادة بنحوه.

العشاء وهيئته، وهذا لا يعرفه إلا الملوك. وكذلك يكون في الجنة رِزْقُ الغداء غير رِزْقِ العشاء، تَلَوْنَ عليهم النعم؛ ليزدادوا تنعماً وغبطة.

وخرَّج الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول» من حديث أبان عن الحسن وأبي قلابة قالا: قال رجل: يا رسول الله هل في الجنة من ليل؟ قال: «وما هيَّجك على هذا». قال: سمعتُ الله تعالى يذكر في الكتاب: ﴿وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فقلت: الليل بين البكرة والعشي. وقال رسول الله ﷺ: «ليس هناك ليلٌ إنما هو ضوء ونور يَرُدُّ الغدوَّ على الرواح، والرواح على الغدوَّ، وتأتيهم طُرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلُّون فيها في الدنيا وتسلم عليهم الملائكة» وهذا في غاية البيان لمعنى الآية، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»^(١). وقال العلماء: ليس في الجنة ليل ولا نهار، وإنما هم في نور أبداً، إنما يعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء الحجب، وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برَفْعِ الحجب وفتح الأبواب. ذكره أبو الفرج الجوزي والمهدوي وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي﴾ أي: هذه الجنة التي وصفنا أحوال أهلها ﴿نُورُثُ﴾ بالتخفيف. وقرأ يعقوب: «نُورُثُ» بفتح الواو وتشديد الراء^(٢). والاختيار التخفيف؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ [فاطر: ٣٢]. «مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» قال ابن عباس: أي: من اتَّقاني وعمل بطاعتي. وقيل: هو على التقديم والتأخير، تقديره: نورث من كان تقيًّا من عبادنا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا ۖ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۝٦٥﴾

روى الترمذي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما منعك أن

(١) ص ٥٠٤ - ٥٠٥ وما بعده منه.

(٢) رواها عنه رويس كما في النشر ٣١٨/٢.

تزورنا أكثر ممّا تزورنا» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية. قال: هذا حديث حسن غريب. ورواه البخاري: حَدَّثَنَا خَلَادُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَحْدُثُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَجَبْرِيلَ: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا» فنزلت: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية. قال: كان هذا الجواب لمحمّد ﷺ^(١).

وقال مجاهد: أبطأ الملك على رسول الله ﷺ ثم أتاه، فقال: «ما الذي أبطأك» قال: كيف نأتيكم وأنتم لا تقصّون أظفاركم، ولا تأخذون من شواربكم، ولا تُنْقُونَ رَوَاجِبَكُمْ، ولا تستاكون، قال مجاهد: فنزلت الآية في هذا. وقال مجاهد أيضاً وقتادة وعكرمة والضحاك ومقاتل والكلبي: احتبس جبريل عن النبي ﷺ حين سأله قومه عن قصّة أصحاب الكهف وذوي القرنين والروح، ولم يذر ما يجيبهم، ورجا أن يأتيه جبريل بجواب ما سألوا عنه. قال عكرمة: فأبطأ عليه أربعين يوماً. وقال مجاهد: اثنتي عشرة ليلة. وقيل: خمسة عشر يوماً. وقيل: ثلاثة عشر. وقيل: ثلاثة أيام، فقال النبي ﷺ: «أبطأت عليّ حتى ساء ظنّي واشتقت إليك» فقال جبريل عليه السلام: إني كنت أشوق، ولكنني عبد مأمور إذا بعثت نزلت، وإذا حُبست احتبست، فنزلت الآية: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وأنزل ﴿وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ١-٣]. ذكره الثعلبي والواحدي والقشيري وغيرهم^(٢).

وقيل: هو إخبار من أهل الجنّة أنهم يقولون عند دخولها: وما ننزل هذه الجنان

(١) الترمذي (٣١٥٨)، والبخاري (٧٤٥٥)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٠٤٣).

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٣١٠، وذكره عنهم ابن أبي حاتم ٢٤١٤/٧ (١٣١٧٢) و(١٣١٧٠)، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٢٤٩/٥ أقوال إبطاء جبريل عن النبي ﷺ، إلا أنه ذكر خمسة وعشرين يوماً، بدل: ثلاثة عشر يوماً. وورد في أسباب النزول: براجمكم، بدل: رواجبكم. قال الجوهر في الصحاح (رجب): والراجعة في الإصبع: واحدة الرواجب، وهي مفاصل الأصابع اللاتي تلي الأنامل، ثم البراجم، ثم الأشاجع اللاتي يلين الكف.

إلا بأمر ربك^(١). وعلى هذا تكون الآية متصلة بما قبل. وعلى ما ذكرنا من الأقوال قيل: تكون غير متصلة بما قبلها، والقرآن سور، ثم السور تشتمل على جمل، وقد تنفصل جملة عن جملة.

﴿وَمَا نَنْزِلُ﴾ أي: قال الله تعالى: قل يا جبريل: «وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ». وهذا يحتمل وجهين: أحدهما: إِنَّا إِذَا أَمَرْنَا نَزَّلْنَا عَلَيْكَ. الثاني: إِذَا أَمَرْنَا رَبُّكَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ، فيكون الأمر على الأول متوجهاً إلى النزول، وعلى الوجه الثاني متوجهاً إلى التنزيل^(٢).

وقوله تعالى: ﴿لَهُ﴾ أي: لله. ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أي: علم ما بين أيدينا ﴿وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ قال ابن عباس وابن جريج: ما مضى أمامنا من أمر الدنيا، وما يكون بعدنا من أمرها وأمر الآخرة، «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ»: من البرزخ^(٣).

وقال قتادة ومقاتل: «له ما بين أيدينا»: من أمر الآخرة، «وما خلفنا»: ما مضى من الدنيا، «وما بين ذلك»: ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة^(٤).

الأخفش^(٥): «ما بين أيدينا»: ما كان قبل أن نخلق، «وما خلفنا»: ما يكون بعد أن نموت، «وما بين ذلك»: ما يكون منذ خلقنا إلى أن نموت.

وقيل: «ما بين أيدينا»: من الثواب والعقاب وأمور الآخرة. «وما خلفنا»: ما مضى من أعمالنا في الدنيا. «وما بين ذلك»: أي ما يكون من هذا الوقت إلى يوم القيامة^(٦).

(١) زاد المسير ٢٥٠/٥.

(٢) النكت والعيون ٣/٣٨٢.

(٣) النكت والعيون ٣/٣٨٢ ونسبه للطبري، وأخرجه الطبري ٥٨٣/١٥ عن ابن جريج.

(٤) النكت والعيون ٣/٣٨٢، وتفسير البغوي ٣/٢٠٢.

(٥) في معاني القرآن ٢/٦٢٦.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/٣٣٧.

ويحتمل خامساً: «ما بين أيدينا»: السماء، «وما خلفنا»: الأرض، «وما بين ذلك»: أي: ما بين السماء والأرض.

وقال ابن عباس في رواية: «له ما بين أيدينا»: يريد الدنيا إلى الأرض، «وما خلفنا»: يريد السماوات - وهذا على عكس ما قبله - «وما بين ذلك»: يريد الهواء، ذكر الأول الماوردي^(١) والثاني القشيري^(٢). الزمخشري^(٣): وقيل ما مضى من أعمارنا وما غبر منها، والحال التي نحن فيها. ولم يقل: ما بين ذينك؛ لأن المراد ما بين ما ذكرنا، كما قال: ﴿لَا فَارِضَ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] أي: بين ما ذكرنا. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا﴾ أي: ناسياً، إذا شاء أن يُرسل إليك أرسل. وقيل: المعنى: لم ينسك وإن تأخر عنك الوحي^(٣). وقيل: المعنى أنه عالم بجميع الأشياء متقدمها ومتأخرها، ولا ينسى شيئاً منها.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ربهما وخالقهما وخالق ما بينهما، ومالكهما ومالك ما بينهما، فكما إليه تدبير الأزمان، كذلك إليه تدبير الأعيان. ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ أي: وحده لذلك. وفي هذا دلالة على أن اكتسابات الخلق مفعولة لله تعالى، كما يقوله أهل الحق، وهو القول الحق؛ لأن الرب في هذا الموضع لا يمكن حمله على معنى من معانيه إلا على المالك، وإذا ثبت أنه مالك ما بين السماء والأرض، دخل في ذلك اكتساب الخلق، ووجبت عبادته؛ لما ثبت أنه المالك على الإطلاق، وحقيقة العبادة الطاعة بغاية الخضوع، ولا يستحقها أحد سوى المالك المعبود.

﴿وَأَصْطَبِرْ لِمُنَادٍ﴾ أي: لطاعته، ولا تحزن لتأخير الوحي عنك، بل اشتغل بما أمرت به. وأصل اصطبر: اصتبر، فثقل الجمع بين التاء والصاد لاختلافهما، فأبدل

(١) في النكت والعيون ٣/ ٣٨٢.

(٢) في الكشف ٢/ ٥١٦.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٧ بنحوه.

من التاء طاء، كما تقول من الصوم: اصطام^(١).

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ قال ابن عباس: يريد هل تعلم له ولداً، أي: نظيراً، أو مثلاً، أو شبيهاً يستحق مثل اسمه الذي هو الرحمن. وقاله مجاهد. مأخوذ من المساماة^(٢).

وروى إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: هل تعلم له أحداً سُمِّيَ الرحمن. قال النحاس^(٣): وهذا أجلُّ إسناده علمته روي في هذا الحرف، وهو قول صحيح، لا يقال الرحمن إلا لله. قلت: وقد مضى هذا مبيناً في البسملة^(٤) والحمد لله، روى ابن أبي نجيح عن مجاهد «هل تعلم له سميّاً» قال: مثلاً.

ابن المسيب: عدلاً^(٥). قتادة والكلبي: هل تعلم أحداً يُسَمَّى الله تعالى غير الله^(٦)، أو يقال له: الله، إلا الله. و«هل» بمعنى «لا»، أي: لا تعلم. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ۖ﴾ ٦٦ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ۖ﴾ ٦٧ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ۖ﴾ ٦٨ ﴿ثُمَّ لَنَعْلَمَنَّ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلَاً ۖ﴾ ٦٩ ﴿وَلَنَمُنَّكَ إِلَّا وَارِدَهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ﴾ ٧٠ ﴿ثُمَّ نَنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۖ﴾ ٧١

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا﴾ الإنسان هنا أبي بن

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢٣/٣.

(٢) النكت والعيون ٣/٣٨٢، وأخرجه عنهما الطبري ١٥/٥٨٥ - ٥٨٦.

(٣) في معاني القرآن ٤/٣٤٤ وما قبله منه.

(٤) ١٥٩/١ وما بعدها.

(٥) تفسير البغوي ٣/٢٠٣ ونسبه لابن جبير.

(٦) النكت والعيون ٣/٣٨٢.

خَلَفَ، وجد عظاماً باليةً ففَتَّها بيده، وقال: زعم محمد أنَّا نبعث بعد الموت، قاله الكلبي. ذكره الواحدي^(١) والثعلبي والقشيري. وقال المهدوي: نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه، وهو قول ابن عباس^(٢).

واللام في: «لسوف أخرج حياً» للتأكيد. كأنه قيل له: إذا ما متَّ لسوف تُبعث حياً فقال: «أئذا ما متَّ لسوف أخرج حياً»! قال ذلك منكرأ؛ فجاءت اللام في الجواب كما كانت في القول الأول، ولو كان مبتدئاً لم تدخل اللام؛ لأنها للتأكيد والإيجاب وهو مُنْكَرٌ للبعث.

وقرأ ابن ذكوان: «إذا ما مِتُّ» على الخبر، والباقون بالاستفهام على أصولهم بالهمز^(٣). وقرأ الحسن وأبو حيو: «لَسَوْفَ أَخْرُجُ حَيًّا»^(٤)، قاله استهزاء؛ لأنَّهم لا يُصدِّقون بالبعث، والإنسان هاهنا الكافر.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ أي: أولاً يذكر هذا القائل ﴿أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل سؤاله وقوله هذا القول ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ فالإعادة مثل الابتداء، فلم يناقض.

وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً، وأهل مكة وأبو عمرو وأبو جعفر: «أَوَلَا يَذْكُرُ». وقرأ شيبة ونافع وعاصم: «أَوَلَا يَذْكُرُ» بالتخفيف - والاختيار التشديد، وأصله يتذكَّر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩] وأخواتها - وفي حرف أبي: «أَوَلَا يَتَذَكَّرُ» وهذه القراءة على التفسير، لأنها مخالفة لخط المصحف: ومعنى «يَتَذَكَّرُ»: يتفكَّر، ومعنى «يَذْكُرُ»: يتنبَّه ويعلم، قاله النحاس^(٥).

(١) في أسباب النزول ص ٣١٠.

(٢) الوسيط ١٩٠/٣.

(٣) التيسير ص ١٤٩.

(٤) المحرر الوجيز ٢٥/٤، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٨٥.

(٥) في إعراب القرآن ٢٣/٣ إلا ما بين معترضتين فمن الطبري ٥٨٧/١٥ بنحوه، والقراءة في السبعة ص ٤١٠، والتيسير ص ١٤٩، وتحرفت لفظة: شيبة، في مطبوع إعراب القرآن للنحاس إلى: شعبة.

قوله تعالى: ﴿فَوَرِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أقسم بنفسه بعد إقامة الحجة بأنه يحشرهم من قبورهم إلى المعاد كما يحشر المؤمنون ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي: ولنحشرن الشياطين قرناء لهم. قيل: يُحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة^(١)، كما قال: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾. الزمخشري^(٢): والواو في: «وَالشَّيَاطِينَ» يجوز أن تكون للعطف، وبمعنى «مع»، وهي بمعنى «مع» أوقع. والمعنى أنهم يُحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووه، يقرنون كل كافر مع شيطان في سلسلة. فإن قلت: هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة، فإن أريد الأناسي على العموم فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين؟ قلت: إذا حشر جميع الناس حشراً واحداً وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين، فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة.

فإن قلت: هلاً غزل السعداء عن الأشقياء في الحشر كما غزلوا عنهم في الجزاء؟ قلت: لم يفرق بينهم في المحشر، وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم، وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التي نجاهم الله منها وخلّصهم، فيزدادوا لذلك غبطةً، وسروراً إلى سرور، ويشمتوا بأعداء الله تعالى وأعدائهم، فتزداد مساءتهم وحسرتهم، وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم^(٣).

فإن قلت: ما معنى إحضارهم جثثاً؟ قلت: أمّا إذا فُسر الإنسان بالخصوص فالمعنى أنهم يعتلون^(٤) من المحشر إلى شاطئ جهنم عتلاً على حالهم التي كانوا عليها في الموقف، جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم. وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو، قال الله تعالى: ﴿وَرَبَّى كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [البجائية: ٢٨] على الحالة

(١) الوسيط ١٩٠/٣.

(٢) في الكشف ٥١٩/٢.

(٣) الكشف ٥١٩/٢، وما بعده منه.

(٤) في الكشف ٥١٩/٢: يقولون. قال الأزهري في تهذيب اللغة ٢/٢٧٠: وقال الليث: القتل: أن تأخذ بتلييب الرجل فتعتله، أي: تجرّه إليك وتذهب به إلى حبس أو بليّة.

المعهودة في مواقف المقاولات والمناقلات^(١)، من تجائي أهلها على الرُّكَب، لما في ذلك من الاستيفاز^(٢) والقلق، وإطلاق الحُبَى^(٣)، وخلاف الطمأنينة، أو لما يدهمهم من شدة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على رُكَبهم جثواً^(٤). وإن فُسِّر بالعموم فالمعنى أَنَّهُم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم. على أَنَّ «جِثَّاً» حال مقدَّرة كما كانوا في الموقف متجاثين؛ لأنَّه من توابع التوافق للحساب، قبل التواصل إلى الثواب والعقاب.

ويقال: إِنَّ معنى ﴿لَنُخْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَّاتٌ﴾ أي: جِثَّاً على رُكَبهم، عن مجاهد وقتادة^(٥)، أي: إِنَّهم لشدة ما هم فيه لا يقدرُونَ على القيام.

و«حول جهنم» يجوز أن يكون: داخلها، كما تقول: جلس القوم حول البيت، أي: داخله مطيفين به^(٦). فقوله: «حول جهنم» على هذا يجوز أن يكون بعد الدخول، ويجوز أن يكون قبل الدخول.

و«جِثَّاتٌ» جمع جاثٍ. يقال: جثا على رُكَبتيه يَجْثُو وَيَجْثِي جُثْوًا وَجُثَّاتًا على فُعُولَ فيهما. وأجثاه غيره. وقوم جُثِّيَّ أيضاً، مثل جلس جلوساً وقوم جلوس، وجِثي أيضاً بكسر الجيم لما بعدها من الكسر^(٧).

وقال ابن عباس: «جِثَّاتٌ»: جماعات. وقال مقاتل: جمعاً جمعاً، وهو على هذا التأويل جمع جُثْوَة وَجُثْوَة وَجُثْوَة، ثلاث لغات، وهي الحجارة المجموعة والتراب

(١) في (د) و(ظ): والمناقلات.

(٢) قال الجوهري في الصحاح (وفز): قعد مستوفزاً: أي: غير مطمئن.

(٣) الحَبْوَة: الثوب الذي يحتبى به، والجمع: حَبِيَّ وَحَبَّى. متن اللغة (حبو).

(٤) في الكشف: فيحبون على ركبهم حبواً.

(٥) الوسيط ٣/١٩٠ عن مجاهد، والمحزر الوجيز ٤/٢٦ عن قتادة.

(٦) الوسيط ٣/١٩٠.

(٧) الصحاح (جثا).

المجموع^(١)، فأهل الخمر على حدة، وأهل الزنى على حدة، وهكذا، قال طرفة^(٢):
تَرَى جُثُوتَيْنِ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا صَفَائِحُ ضُمَّ مِنْ صَفِيحٍ مُنْضَدٍ
وقال الحسن والضَّحَّاك: جاثية على الركب^(٣). وهو على هذا التأويل جمع جاثٍ
على ما تقدّم. وذلك لضيق المكان، أي: لا يمكنهم أن يجلسوا جلوساً تاماً. وقيل:
جثياً على رُكَبِهِم للخاصم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِمُونَ﴾
[الزمر: ٣١]. وقال الكميت:

هَم تَرَكُّوْا سَرَائِهِمْ جَثِيًّا وَهَم دُونِ السَّرَاةِ مَقَرَّنِيْنَا^(٤)
قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: لنستخرجنَّ من كلِّ أمةٍ وأهل دين
﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ النحاس^(٥): وهذه آيةٌ مُشْكِلَةٌ فِي الإِعْرَابِ؛ لِأَنَّ الْقُرَّاءَ
كُلَّهُمْ يَقْرَءُونَ: «أَيُّهُمْ» بِالرَّفْعِ إِلَّا هَارُونَ الْقَارِئُ الْأَعُورُ، فَإِنَّ سَبِيوِيَةَ حَكَى عَنْهُ: «ثُمَّ
لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ» بِالنَّصْبِ أَوْقَعَ عَلَى «أَيُّهُمْ» لَنَنْزِعَنَّ^(٦).

قال أبو إسحاق^(٧): فِي رَفْعِ «أَيُّهُمْ» ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ، قَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ - حَكَاهُ
عَنْ سَبِيوِيَةَ^(٨) -: إِنَّهُ مَرْفُوعٌ عَلَى الْحِكَايَةِ، وَالْمَعْنَى: ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ الَّذِي
يَقَالُ مِنْ أَجْلِ عَتْوِهِ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا، وَأَنْشَدَ الْخَلِيلُ، فَقَالَ^(٩):

(١) الوسيط ٣/ ١٩٠.

(٢) فِي دِيَوَانِهِ ص ٣٣.

(٣) تَفْسِيرُ الْبَغْوِيِّ ٣/ ٢٠٣.

(٤) دِيَوَانُ الْكُمَيْتِ ص ٤٥٨ وَعَجَزَهُ فِيهِ هَكَذَا: وَمَا دُونَ السَّرَاةِ مَغْرَبِلُنَا

(٥) فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ ٣/ ٢٣ - ٢٤.

(٦) الْكِتَابُ ٢/ ٣٩٩، وَنَسَبَهَا هَارُونَ إِلَى الْكُوفِيِّينَ، وَنَسَبَهَا ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي الْقُرَآءَاتِ الشَّاذَّةِ ص ٨٦ إِلَى
مَعَاذِ الْهَرَاءِ وَطَلْحَةَ بْنِ مَصْرُوفٍ.

(٧) فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ٣٩٩، وَنَقَلَهُ عَنْهُ الْقُرْطُبِيُّ بِوَسَاطَةِ النَّحَّاسِ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ ٣/ ٢٤.

(٨) فِي الْكِتَابِ ٢/ ٣٩٩.

(٩) الْقَائِلُ هُوَ الْأَخْطَلُ، وَالْبَيْتُ فِي دِيَوَانِهِ ص ٨٤.

ولقد أبيت من الفتاة بمنزل فأبيت لا حرج ولا محروم
 أي: فأبيت بمنزلة الذي يقال له: لا هو حرج ولا محروم. وقال أبو جعفر
 النحاس^(١): ورأيت أبا إسحاق^(٢) يختار هذا القول ويستحسنه، قال: لأنه معنى قول
 أهل التفسير. وزعم أن معنى «ثم لنزعن من كل شيعة»: ثم لنزعن من كل فرقة
 الأعتى فالأعتى. كأنه يبدأ بالتعذيب بأشدّهم عتياً ثم الذي يليه، وهذا نصّ كلام أبي
 إسحاق في معنى الآية. وقال يونس: «لنزعن» بمنزلة الأفعال التي تلغى، ورفع
 «أيهم» على الابتداء.

المهدوي: والفعل الذي هو «لنزعن» عند يونس معلق، قال أبو علي^(٣): معنى
 ذلك أنه يعمل في موضع «أيهم أشد» لا أنه ملغى. ولا يعلق عند الخليل وسيبويه مثل
 «لنزعن»، إنما يعلق بأفعال الشك وشبهها ما لم يتحقّق وقوعه.

وقال سيبويه: «أيهم» مبني على الضم؛ لأنها خالفت أخواتها في الحذف؛ لأنك
 لو قلت: رأيت الذي أفضل، ومن أفضل، كان قبيحاً، حتى تقول: من هو أفضل،
 والحذف في «أيهم» جائز.

قال أبو جعفر^(٤): وما علمت أحداً من النحويين إلا وقد خطأ سيبويه في هذا،
 وسمعت أبا إسحاق يقول: ما يتبين لي أن سيبويه غلط في كتابه إلا في موضعين هذا
 أحدهما، قال: وقد علمنا أن سيبويه أعرب «أيأ» وهي مفردة؛ لأنها تضاف، فكيف
 يبينها وهي مضافة؟! ولم يذكر أبو إسحاق فيما علمت إلا هذه الثلاثة الأقوال. أبو
 علي: إنما وجب البناء على مذهب سيبويه؛ لأنه حذف منه ما يتعرّف به وهو الضمير
 مع افتقار إليه، كما حذف في «من قبل» و«من بعد» ما يتعرّفان به مع افتقار المضاف

(١) في إعراب القرآن ٢٤/٣.

(٢) أي: الزجاج، وكلامه في معاني القرآن ٣٤٠/٣.

(٣) نقله عنه القرطبي بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٢٦/٤.

(٤) في إعراب القرآن ٢٤/٣، وما قبله منه.

إلى المضاف إليه؛ لأنَّ الصلة تبيِّن الموصولَ وتوضِّحه، كما أنَّ المضاف إليه يبيِّن المضاف ويخصِّصه. قال أبو جعفر: وفيه أربعة أقوال سوى هذه الثلاثة التي ذكرها أبو إسحاق، قال الكسائي: «لنزعنَّ» واقعة على المعنى، كما تقول: لبستُ من الثياب، وأكلتُ من الطعام، ولم يقع «لنزعنَّ» على «أيهم» فينصبها.

زاد المهدي: وإنَّما الفعل عنده واقع على موضع «من كلِّ شيعة» وقوله: «أيهم أشدُّ» جملة مستأنفة مرتفعة بالابتداء، ولا يرى سببويه زيادة «من» في الواجب.

وقال الفراء^(١): المعنى: ثم لنزعنَّ بالنداء، ومعنى «لنزعنَّ»: لننادينَّ. المهدي: و«نادى» فعل يعلِّق إذا كان بعده جملة، كظننت فتعمل في المعنى ولا تعمل في اللفظ. قال أبو جعفر^(٢): وحكى أبو بكر بن شقير أنَّ بعضَ الكوفيين يقول في «أيهم» معنى الشرط والمجازاة، فلذلك لم يعمل فيها ما قبلها، والمعنى: ثم لنزعنَّ من كلِّ فرقة إن تشايعوا أو لم يتشايعوا، كما تقول: ضربت القومَ أيهم غَضِبَ، والمعنى: إن غضبوا، أو لم يغضبوا. قال أبو جعفر^(٣): فهذه ستَّة أقوال، وسمعت عليَّ بن سليمان يحكي عن محمد بن يزيد قال: «أيهم» متعلِّق بـ «شيعة» فهو مرفوع بالابتداء، والمعنى: ثم لنزعنَّ من الذين تشايعوا أيهم، أي: من الذين تعاونوا فنظروا أيهم أشدَّ على الرحمن عتياً، وهذا قول حسن. وقد حكى الكسائي أنَّ التشايع التعاون. و«عتياً» نصب على البيان.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلَاً﴾ أي: أحقُّ بدخول النار. يقال: صَلَّى يَصْلِي صِلِيًّا، نحو مضى الشيء يمضي مُضِيًّا: إذا ذهب، وهوى يهوي هُويًّا. وقال

(١) نقله عنه المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢٥/٣.

(٢) في إعراب القرآن ٢٥/٣، وما قبله منه.

(٣) في إعراب القرآن ٢٥/٣، وتنظر المسألة بتمامها في الكتاب لسببويه ٣٩٨/٢ - ٤٠٢، وإعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ٤٥٨ - ٤٦٠، والبيان ١٣٠/٢ - ١٣٣، والإنصاف ٧٠٩/٢ - ٧١٦ لابن الأنباري.

الجوهري^(١): ويقال: صَلَّيْتُ الرجلَ ناراً، إذا أدخلته النار وجعلته يَصْلَاهَا، فإن ألقىته فيها إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت: أَصْلَيْتُهُ، بالألف، وَصَلَّيْتُه تَصْلِيَةً. وقرئ: «وَيُصَلَّى سَعِيرًا»^(٢) [الانشقاق: ١٢]. ومن خَفَّفَ فهو من قولهم: صَلِّي فلانٌ بالنار - بالكسر - يَصْلَى صِلِيًّا: احترق، قال الله تعالى: ﴿هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾. قال العجاج^(٣):

والله لولا النار أن نَصْلَاهَا

ويقال أيضاً: صَلِّيَ بالامر: إذا قاسى حرَّه وشدَّته. قال الطَّهَوِيُّ^(٤):
وَلَا تَبْلَىٰ بِسَالَتُهُمْ وَإِنْ هُمْ صَلُّوا بالحرب حِيناً بعد حينٍ
واصطليْتُ بالنار وتصلَّيْتُ بها. قال أبو زَيْيد:
وقَدْ تَصَلَّيْتُ حَرَّ حَرْبِهِمْ كَمَا تَصَلَّى المَقْرورُ من قَرَسٍ^(٥)
وفلانٌ لَا يُصَطِّلَى بناره: إذا كان شجاعاً لَا يُطَاق.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ فيه خمس مسائل:
الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ﴾ هذا قَسَمٌ، والواو يتضمَّنُه^(٦). ويفسِّره حديث
النبي ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسَّه النار إلا تَحِلَّه القسم»

(١) في الصحاح (صلا).

(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع وعامر والكسائي. السبعة ص ٦٧٧، والتيسير ص ٢٢١.

(٣) الصحاح (صلا)، ولم نقف عليه عند العجاج، ونسبه ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/٤٧٥ لرؤية، ولم نقف عليه أيضاً، وذكر الصغاني في التكملة والذيل والصلة ٦/٣٥٣ أن الجوهري نسبته للعجاج، والأزهري لرؤية، وكلاهما غلط، وإنما هو للزَّقْيَان. اهـ. والزَّقْيَان هو عطاء بن أسيد. معجم الشعراء للمرزباني ص ١٥٩.

(٤) أمالي الفالحي ١/٢٦٠، وبهجة المجالس ٢/٥١٨، والطَّهَوِيُّ: ذو الخَرَق، واسمه: ذو الخرق بن قرط من بني طُهَيْة. المؤلف والمختلف ص ١٧٢.

(٥) طبقات فحول الشعراء ٢/٦١١، ودرة الغواص ص ٢٤٦، وأبو زيد هو: حرملة بن المنذر الطائي، والمقرور: الذي أصابه القُرُّ، وهو البَرْد. والقرس: البرد الشديد. القاموس (قرر) و(قرس).

(٦) المحرر الوجيز ٤/٢٧.

قال الزهري: كأنه يريد هذه الآية: «وإن منكم إلا واردة» ذكره أبو داود الطيالسي^(١)، فقله: «إلا تحلة القسم» يخرج في التفسير المسند؛ لأنَّ القسم المذكور في هذا الحديث معناه عند أهل العلم قوله تعالى: «وإن منكم إلا واردة»^(٢). وقد قيل: إنَّ المراد بالقسم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَفَّ﴾ [الذاريات: ١-٥] والأوّل أشهر، والمعنى متقارب.

الثانية: واختلف الناس في الورد، فقل: الورد: الدخول، روي عن جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الورد: الدخول، لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برّاً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾» أسنده أبو عمر في كتاب «التمهيد»^(٣). وهو قول ابن عباس^(٤) وخالد بن معدان^(٥) وابن جريج^(٦) وغيرهم. وروي عن يونس أنه كان يقرأ: «وإن منكم إلا واردة» الورد: الدخول، على التفسير للورد، فغلط فيه بعض الرواة فألحقه بالقرآن.

وفي «مسند الدارمي»^(٧) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُرِدُّ الناس النار ثم يصدرون منها بأعمالهم فمنهم كلّمح البصر، ثم كالريح، ثم كحُضِر^(٨) الفرس، ثم كالراكب المجدّ في رحله، ثم كشدّ الرّجل في مشيته».

(١) في مسنده (٢٤٢٣)، وهو عند أحمد (٧٢٦٥)، والبخاري (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٢).

(٢) الاستذكار ٣٢٦/٨.

(٣) ٣٥٥/٦ - ٣٥٦، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٥٢٠).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١١/٢، وهناد في الزهد (٢٢٩)، والطبري ٥٩٠/١٥ - ٥٩١.

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٠٧)، وابن أبي شيبة ٥٦١/١٣، وهناد في الزهد (٢٣١)، والطبري ٥٩٢/١٥.

(٦) تفسير الطبري ٥٩١/١٥، وأخرجه أيضاً عن ابن مسعود.

(٧) برقم (٢٨١٣)، وأخرجه أيضاً أحمد (٤١٢٨)، والترمذي (٣١٥٩) وقال: هذا حديث حسن. اهـ.

(٨) قال ابن الأثير في النهاية (حضر): الحُضِر بالضم: العدو، وأحضر يُحْضِر فهو محضر: إذا عدا.

وروي عن ابن عباس أنه قال في هذه المسألة لنافع بن الأزرق الخارجي: أما أنا وأنت فلا بُدَّ أن نردّها، أما أنا فينجيني الله منها، وأما أنت فما أظنّه ينجيك؛ لتكذيبك^(١). وقد أشفق^(٢) كثير من العلماء من تحقّق الورود والجهل بالصّدْر، وقد بيّناه في «التذكرة»^(٣).

وقالت فرقة: الورود: الممرُّ على الصراط. وروي عن ابن عباس^(٤) وابن مسعود^(٥) وكعب الأحبار^(٦) والسدي^(٧)، ورواه السدي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ^(٨)، وقاله الحسن أيضاً، قال: ليس الورود الدخول، إنّما تقول: وردت البصرة ولم أدخلها. قال: فالورود أن يمرّوا على الصراط^(٩). قال أبو بكر الأنباري: وقد بنى على مذهب الحسن قوم من أهل اللغة، واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] قالوا: فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده منها. وكان هؤلاء يقرؤون «ثم» بفتح الثاء^(١٠) «نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا». واحتج عليهم الآخرون أهل المقالة الأولى بأنّ معنى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ عن العذاب فيها، والإحراق بها. قالوا: فمن دخلها وهو لا يشعر بها، ولا يحسّ منها وجعاً ولا ألماً، فهو مبعد عنها في الحقيقة. ويستدلون بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا بِضُمِّ الثَّاءِ، فـ «ثم» تدلُّ على نجاء بعد الدخول.

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١١/٢، وهناد في الزهد (٢٢٩)، والطبري ١٥/٥٩٠، ٥٩٨.

(٢) في (د) و(ظ): اشتق.

(٣) ص ٣٣٦ - ٣٣٣.

(٤) التمهيد ٦/٣٥٦، والاستذكار ٨/٣٢٧.

(٥) أخرجه الطبري ١٥/٥٩٥، والطبراني في الكبير (٩٠٨٤).

(٦) أخرجه أبو الليث في التفسير ٢/٣٣٠ - ٣٣١.

(٧) التمهيد ٦/٣٥٦، والاستذكار ٨/٣٢٧.

(٨) تقدم تخريجه قريباً.

(٩) معاني القرآن للزجاج ٣/٣٤١ بنحوه.

(١٠) قرأ بها ابن عباس والجاحدي وابن أبي ليلى. القراءات الشاذة ص ٨٦.

قلت: وفي «صحيح مسلم»^(١): «ثم يُضْرَبُ الجسرُ على جهنَّمَ وتَحِلُّ الشفاعة فيقولون: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ» قيل: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «دَخَضُ مَزَلَّةٍ فِيهِ خَطَاطِيفٌ وَكَغَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُؤْبَةٌ يُقَالُ لَهَا: السَّغْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالْريِّحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرُّكَّابِ، فَنَاجٍ مُسَلِّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ» الحديث. وبه احتج من قال: إِنَّ الْجَوَازَ عَلَى الصَّرَاطِ هُوَ الْوُرُودُ الَّذِي تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ لَا الدَّخُولُ فِيهَا.

وقالت فرقة: بل هو ورودُ إشرافٍ وإطِّلاعٍ وقُرب. وذلك أَنَّهُمْ يَحْضُرُونَ مَوْضِعَ الْحِسَابِ وَهُوَ بِقُرْبِ جَهَنَّمَ، فَيُرَوْنَهَا وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهَا فِي حَالَةِ الْحِسَابِ، ثُمَّ يَنْجِي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا مِمَّا نَظَرُوا إِلَيْهِ، وَيَصَارُ بِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ. ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: يؤمر بهم إلى النار، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصاص: ٢٣] أي: أشرف عليه لا أَنَّهُ دَخَلَهُ^(٢). وقال زهير:

فَلَمَّا وَرَدَّنَا الْمَاءَ زُرْقًا جَمَامُهُ وَضَعْنَ عِصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ^(٣)

وروت حفصة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَالْحَدِيثِ» قالت: فقلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيْنَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَارِدَهَا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «قَمَهُ» ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَاً». أخرجه مسلم من حديث أم مَبِشَّرٍ، قالت: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ. الحديث^(٤). وَرَجَّحَ الزَّجَّاجُ^(٥) هَذَا الْقَوْلَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾. وقال مجاهد^(٦): وَرُودُ الْمُؤْمِنِينَ النَّارَ: هُوَ الْحُمَى الَّتِي تُصِيبُ الْمُؤْمِنَ

(١) برقم (١٨٣)، وهو عند البخاري (٧٤٣٩)، وأحمد (١١١٢٧).

(٢) التذكرة ص ٣٣٥.

(٣) ديوان زهير ص ١٣ - ١٤، قال شارحه: الجمام: ما اجتمع من الماء. وَضَعْنَ عِصِيَّ: أي أَقَمْنَ.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٢٧٠٤٢)، وهو عند مسلم (٢٤٩٦) بنحوه.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٤١.

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٩٧، وابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٣٥٨.

في دار الدنيا، وهي حظُّ المؤمن من النار فلا يردّها.

روى أبو هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ عاد مريضاً من وعك به، فقال له النبي ﷺ: «أبشر فإنَّ الله تبارك وتعالى يقول: هي ناري أسلَّطها على عبدي المؤمن لتكون حظُّه من النار» أسنده أبو عمر قال: حدَّثنا عبد الوارث بنُ سفيان، قال: حدَّثنا قاسم بنُ أصبغ، قال: حدَّثنا محمد بنُ إسماعيل الصائغ، قال: حدَّثنا أبو أسامة، قال: حدَّثنا عبد الرحمن بنُ يزيد بنِ جابر، عن إسماعيل بنِ عبيد الله [عن أبي صالح] الأشعري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ عاد مريضاً فذكره^(١). وفي الحديث: «الحُمى حظُّ المؤمن من النار»^(٢).

وقالت فرقة: الورود: النظر إليها في القبر، فينجى منها الفائز، ويصلاها من قدر عليه دخولها، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله تعالى. واحتجوا بحديث ابن عمر: «إذا مات أحدكم عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي» الحديث^(٣).

وروى وكيع، عن شعبة، عن عبد الله بنِ السائب، عن رجل، عن ابنِ عباس أنَّه قال في قول الله تعالى: «وإنَّ مِنْكُمْ إِلَّا واردة» قال: هذا خطابٌ للكفار. وروي عنه أنَّه كان يقرأ: «وإنَّ مِنْهُمْ» ردًّا على الآيات التي قبلها في الكفار: قوله «فَوَرَّبُّكَ

(١) التمهيد ٣٥٩/٦، وأخرجه أيضاً الترمذي (٢٠٨٨)، وابن ماجه (٣٤٧٠)، وأحمد (٩٦٧٦)، والحاكم في المستدرک ٣٤٥/١ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. اهـ وما بين حاصرتين سقط من التمهيد والنسخ، واستدركناه من مصادر التخریج.

(٢) ورد هذا الحديث عن عدد من الصحابة منهم: عائشة وأخرجه عنها البزار (٧٦٥ كشف الأستار) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٠٦/٢: وإسناده حسن. اهـ

وأبو أمانة وأخرجه عنه أحمد (٢٢١٦٥)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٢١٦)، وابن عبد البر في التمهيد ٣٥٩/٦.

وأنس وأخرجه عنه الطبراني في الأوسط (٧٥٣٦).

قال ابن حجر في الكافي الشاف ص ١٠٧: وكلها ضعيفة.

(٣) التذكرة ص ٣٣٤، والحديث أخرجه البخاري (٦٥١٥)، ومسلم (٢٨٦٦) واللفظ له، وهو عند أحمد (٤٦٥٨).

لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا. ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا. ثُمَّ لَنَحْنُ أَغْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا. وَإِنْ مِنْهُمْ قَرَأَ عِكْرِمَةَ وجماعة^(١). وعليها فلا شغب في هذه القراءة.

وقالت فرقة: المراد بـ «منكم» الكفرة، والمعنى: قل لهم يا محمد^(٢). وهذا التأويل أيضاً سهل التناول، والكاف في «منكم» راجعة إلى الهاء في «لنحشرنهم» والشیاطین. ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً فلا ينكر رجوع الكاف إلى الهاء، فقد عرف ذلك في قوله عز وجل: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرْجَاءَ وَكَانَ سَعِيرًا مَشْكُورًا [الإنسان: ٢١-٢٢] معناه: كان لهم، فرجعت الكاف إلى الهاء^(٣).

وقال الأكثر: المخاطب العالم كله، ولا بُدَّ من ورود الجميع، وعليه نشأ الخلاف في الورد^(٤). وقد بينا أقوال العلماء فيه. وظاهر الورد الدخول؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «فتمسه النار»^(٥) لأنَّ المسيس حقيقته في اللغة المماسَّة، إلا أنَّها تكون برِّداً وسلاماً على المؤمنين، وينجون منها سالمين. قال خالد بن معدان: إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا: ألم يقل ربنا: إنَّا نرد النار؟ فيقال: لقد وردتموها فالفيتموها رماداً^(٦).

قلت^(٧): وهذا القول يجمع شتات الأقوال، فإنَّ من وردھا ولم تُؤذ به لبھھا وحرھا، فقد أبعد عنها ونُجِّي منها. نجَّانا الله تعالى منها بفضلہ وكرمه، وجعلنا ممن وردھا فدخلھا سالماً، وخرج منها غانماً.

(١) التذكرة ص ٣٣٥، وأخرج قول ابن عباس الطبري ٥٩٦/١٥، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٨٦.

(٢) التذكرة ص ٣٣٥، والمحرم الوجيز ٢٧/٤.

(٣) الاستذكار ٣٢٨/٨ - ٣٢٩ وعزاه إلى ابن الأنباري وغيره.

(٤) التذكرة ص ٣٣٥، وما بعده منه.

(٥) سلف ص ٤٩١ من هذا الجزء.

(٦) أخرجه الواحدي في الوسيط ١٩١/٣ - ١٩٢ بنحوه.

(٧) القائل هو القرطبي في التذكرة ص ٣٣٥.

فإن قيل: فهل يدخل الأنبياء النار؟ قلنا: لا نُطْلِقُ هذا، ولكن نقول: إِنَّ الْخَلْقَ جميعاً يردونها كما دلَّ عليه حديث جابر أوَّل الباب، فالعصاة يدخلونها بجرائمهم، والأولياء والسعداء لشفاعتهم، فبين الدخولين بَوْنٌ.

وقال ابن الأنباري محتجاً لمصحف عثمان وقراءة العامة: جائز في اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب، كما قال: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ سَرَابًا طَهُورًا﴾ * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُزْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكَ مَشْكُورًا ﴿[الإنسان: ٢١-٢٢] فأبدل الكاف من الهاء^(١). وقد تقدَّم هذا المعنى في «يونس»^(٢).

الثالثة: الاستثناء في قوله عليه الصلاة والسلام: «إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ» يحتمل أن يكون استثناء منقطعاً: لكن تحلَّة القسم، وهذا معروف في كلام العرب، والمعنى ألا تمسه النار أصلاً، وتمَّ الكلام هنا، ثم ابتدأ: «إِلَّا تحلة القسم» أي: لكن تحلَّة القسم لا بُدَّ منها في قوله تعالى: «وإن مِنكُمْ إِلَّا واردة» وهو الجواز على الصراط، أو الرؤية، أو الدخول دخول سلامة، فلا يكون في ذلك شيء من ميسر؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يموت لأحدكم ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جُنة من النار» والجُنة: الوقاية والستر، ومن وُقِيَ النارَ وسُتر عنها فلن تمسه أصلاً، ولو مسَّته لما كان موقى^(٣).

الرابعة: هذا الحديث يفسر الأوَّل؛ لأنَّ فيه ذكر الحسنة، ولذلك جعله مالك بإثره مفسراً له. ويقيده هذا الحديث الثاني أيضاً ما رواه البخاري^(٤) عن أبي هريرة،

(١) الاستذكار ٨/٣٢٨ - ٣٢٩، والتمهيد ٦/٣٥٧.

(٢) ٤٧٤/١٠.

(٣) التمهيد ٦/٣٦١ - ٣٦٢، والحديث أخرجه مالك في الموطأ ١/٢٣٥، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢١٦٦)، من حديث أبي النضر السلمي. قال ابن عبد البر في التمهيد ١٣/٨٧: أبو النضر هذا مجهول في الصحابة والتابعين. اهـ وأصل الحديث في الصحيحين كما مرَّ معنا.

(٤) معلقاً في صحيحه، قبل حديث (١٣٨١)، وأخرجه مستنداً برقم (١٢٥٠) بنحوه، وهو عند مسلم (٢٦٣٢): (١٥١)، وأحمد (٨٩١٦).

عن النبي ﷺ: «من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الجَنَّةَ، كان له حجاباً من النار، أو دخل الجنة» فقوله عليه الصلاة والسلام: «لم يبلغوا الجَنَّةَ»: ومعناه عند أهل العلم لم يبلغوا الحُلُمَ، ولم يبلغوا أن يلزمهم جَنَّةٌ دليلٌ على أن أطفال المسلمين في الجنة، والله أعلم؛ لأن الرحمة إذا نزلت بآبائهم استحال أن يُرحموا من أجل [من]^(١) ليس بمرحوم. وهذا إجماع من العلماء في أن أطفال المسلمين في الجنة، ولم يخالف في ذلك إلا فرقة شذت من الجبرية فجعلتهم في المشيئة، وهو قول مهجور، مردود بإجماع الحجة الذين لا تجوز مخالفتهم، ولا يجوز على مثلهم العَلَطُ، إلى ما روي عن النبي ﷺ من أخبار الآحاد الثقات العدول، وأن قوله عليه الصلاة والسلام: «الشقي من شقي في بطن أمه»، والسعيد من سعد في بطن أمه، وأن الملك ينزل فيكتب أجله وعمله ورزقه» الحديث مخصوص، وأن من مات من أطفال المسلمين قبل الاكتساب فهو ممن سعد في بطن أمه ولم يَشَقْ؛ بدليل الأحاديث والإجماع^(٢).

وكذلك قوله ﷺ لعائشة رضي الله تعالى عنها: «يا عائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم» ساقط ضعيف، مردود بالإجماع والآثار، وطلحة بن يحيى يرويه ضعيف لا يُحتجُّ به، وهذا الحديث مما انفرد به فلا يعرَّج عليه^(٣).

وقد روى شعبة، عن معاوية بن قرة بن إياس المزني، عن أبيه، عن النبي ﷺ أن

(١) ما بين حاصرتين ليست في النسخ، واستدركناه من التمهيد ٦/ ٣٤٨ - ٣٤٩ والكلام منه.

(٢) التمهيد ٦/ ٣٤٩ - ٣٥٠، والحديث بشطره الأول أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١٠٥٧)، والبخاري (٢١٥٠) كشف الأستار عن أبي هريرة مرفوعاً، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٩٣: رواه البزار والطبراني في الصغير، ورجال البزار رجال الصحيح. اهـ وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٠٤٠) عن ابن مسعود من قوله، والشطر الثاني عند البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، وأحمد (٣٦٢٤)، وينظر كشف الخفاء ١/ ٥٤٨.

(٣) التمهيد ٣/ ٣٥٠ - ٣٥١، والحديث أخرجه مسلم (٢٦٦٢)، وأحمد (٢٤١٣٢)، وطلحة بن يحيى مختلف فيه، وقد انتقى له مسلم هذا الحديث. تهذيب التهذيب ٢/ ٢٤٤.

رجلاً من الأنصار مات له ابن صغير فَوَجِدَ عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «أما يَسْرُكُ ألا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته يَسْتَفْتِحُ لك» فقالوا: يا رسول الله أله خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: «بل للمسلمين عامة» قال أبو عمر^(١): هذا حديث ثابت صحيح، يعني ما ذكرناه مع إجماع الجمهور، وهو يُعارض حديث [طلحة بن] يحيى ويُدفعه. قال أبو عمر^(٢): والوجه عندي في هذا الحديث وما أشبهه من الآثار أنها لمن حافظ على أداء فرائضه، واجتنب الكبائر، وصبر واحتسب في مصيبتيه، فإنَّ الخطاب لم يتوجَّه في ذلك العصر إلا إلى قوم الأغلب من أمرهم ما وصفنا، وهم الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وذكر النقاش عن بعضهم أنه قال: نَسَخَ قوله تعالى: «وَأِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا» قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وهذا ضعيف، وهذا ليس موضع نَسْخٍ^(٣). وقد بينا أنه إذا لم تمسه النار فقد أبعد عنها. وفي الخبر: «تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي»^(٤).

الخامسة: قوله تعالى: «كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا» الحُتْمُ: إيجاب القضاء، أي: كان ذلك حتماً. «مقضيًّا» أي: قضاه الله تعالى عليكم. وقال ابن مسعود: أي: قسماً واجباً^(٥).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَنفِخُ فِي الْبُوقِ نَفْثًا﴾ أي: نخلصهم ﴿وَنَذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَا﴾ وهذا مما يدل على أنَّ الورود الدخول؛ لأنَّه لم يقل: وندخل الظالمين. وقد مضى

(١) في التمهيد ٦/٣٤٩ - ٣٥١، وما قبله منه، وما بين حاصرتين ليست في النسخ واستدر كناه من التمهيد، والحديث أخرجه أحمد (١٥٥٩٥)، والنسائي في المجتبى ٢٢/٤ - ٢٣ بنحوه.

(٢) في التمهيد ٦/٣٦٢.

(٣) الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/٢٥٨ (٦٦٨)، وابن عدي في الكامل ٦/٢٣٩٠، وأبو نعيم في الحلية ٩/٣٢٩، والبيهقي في شعب الإيمان ١/٣٣٩ - ٣٤٠، وقال: تفرد به سليم بن منصور، وهو منكر.

(٥) أخرجه الطبري ١٥/٦٠٦.

هذا المعنى مستوفى.

والمذهب أن صاحب الكبيرة وإن دخلها فإنه يُعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو. وقالت المرجئة: لا يدخل. وقالت الوعيدية: يُخلد. وقد مضى بيان هذا في غير موضع. وقرأ عاصم الجحدري ومعاوية بن قرّة: «ثُمَّ نُنْجِي» مخففة من أنجي. وهي قراءة حميد ويعقوب والكسائي. وثقل الباقون. وقرأ ابن أبي ليلى: «ثُمَّ» بفتح الثاء، أي: هناك. و«ثُمَّ» ظرف إلا أنه مبني؛ لأنه غير محصل فبني كما بُني ذا، والهاء يجوز أن تكون لبيان الحركة فتحذف في الوصل، ويجوز أن تكون لتأنيث البقعة فتثبت في الوصل تاء^(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۖ ﴿٧٦﴾ وَكَوْا أَهْلَكَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَا وَرَبِّكَ ۖ ﴿٧٧﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا ۖ وَأَضَعُفُ جُنْدًا ۖ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: على الكفار الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى: «أَيُّدَا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أُخْرِجُ حَيًّا». وقال فيهم: «ونذر الظالمين فيها جيئاً» أي: هؤلاء إذا قرئ عليهم القرآن تعززوا بالدنيا، وقالوا: فما بالنا - إن كنا على باطل - أكثر أموالاً وأعز نفراً. وعرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين، وإيهامهم أن من كثر ماله دل ذلك على أنه المحق في دينه، وكأنهم لم يروا في الكفار فقيراً ولا في المسلمين غنياً، ولم يعلموا أن الله تعالى نحى أولياءه عن الاغترار بالدنيا، وفرط الميل إليها.

و«بينات» معناه: مرتلات الألفاظ، ملخصة المعاني، مبينات المقاصد، إما

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢٦/٣، وفيه أن عاصماً الجحدري ومعاوية بن قرّة قرأا: بفتح الثاء، وقراءة الكسائي في السبعة ص ٤١١، والتيسير ص ١٤٩، وقراءة يعقوب في النشر ٣١٨/٢، وقراءة ابن أبي ليلى في القراءات الشاذة ص ٨٦، وينظر البحر المحيط ٢١٠/٦.

محكمات، أو متشابهات، قد تبعها البيان بالمحكمات، أو تبين الرسول ﷺ قولاً أو فعلاً. أو ظاهرات الإعجاز تُحدِّي بها فلم يُقدَّر على معارضتها. أو حججاً وبراهين^(١). والوجه أن تكون حالاً مؤكدة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١] لأنَّ آيات الله تعالى لا تكون إلا واضحة وحججاً.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يريد مشركي قريش النضر بن الحارث وأصحابه ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني فقراء أصحاب النبي ﷺ، وكانت فيهم قشافة، وفي عيشهم خشونة، وفي ثيابهم رثاثة، وكان المشركون يرجلون شعورهم، ويدهنون رؤوسهم، ويلبسون خير ثيابهم، فقالوا للمؤمنين: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عبَّاد: «مَقَامًا» بضم الميم، وهو موضع الإقامة. ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى الإقامة. الباقون «مَقَامًا» بالفتح، أي: منزلاً ومسكناً^(٢). وقيل: المقام: الموضع الذي يُقام فيه بالأمور الجليلة، أي: أيُّ الفريقين أكثر جاهاً وأنصاراً.

«وَأَحْسَنُ نَدِيًّا» أي: مجلساً، عن ابن عباس^(٣). وعنه أيضاً: المنظر، وهو المجلس في اللغة وهو النادي. ومنه دار الندوة؛ لأنَّ المشركين كانوا يتشاورون فيها في أمورهم^(٤). وناداه: جالسه في النادي. قال:

أُنَادِي بِهِ آلَ الْوَلِيدِ وَجَعْفَرًا

وَالنَّديُّ على فَعِيل: مجلس القوم ومتحدثهم، وكذلك النَّدْوَةُ وَالنَّادِي وَالْمُتَدَيُّ^(٥)، فَإِنْ تَفَرَّقَ الْقَوْمُ فَلَيْسَ بِنَدِيٍّ، قاله الجوهري.

(١) تفسير الرازي ٢١/٢٤٦.

(٢) تفسير البغوي ٣/٢٠٧، وقراءة ابن كثير في السبعة ص ٤١١، والتيسير ص ١٤٩، وينظر حجة القراءات للفارسي ٥/٢٠٥، والبحر المحيط ٦/٢١٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/٦٠٨.

(٤) غريب القرآن ص ٢٧٥.

(٥) في النسخ: والمتدي، والمثبت من الصحاح (ندي) والكلام منه ونسب البيت فيه إلى المرقش.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمة وجماعة. ﴿هُم أَحْسَنُ أَثَنًا﴾ أي: متاعاً كثيراً، قال:

وَفَرِعَ يَزِينُ الْمَثَنَ أَسْوَدَ فَاجِمٍ أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَثِّكِ^(١)
والأثاث: متاع البيت. وقيل: هو ما جدَّ من القَرش، والخُرثي: ما لبس منها،
وأشد الحسن بن علي الطوسي فقال:

تَقَادِمُ الْعَهْدُ مِنْ أُمِّ الْوَلِيدِ بِنَا دَهْرًا وَصَارَ أَثَاثُ الْبَيْتِ خُرْثِيًّا^(٢)
وقال ابن عباس: هيئة. مقاتل: ثياباً^(٣).

«وَرِثِيًّا» أي: منظرًا حسنًا^(٤). وفيه خمس قراءات: قرأ أهل المدينة: «وَرِثِيًّا» بغير
همز. وقرأ أهل الكوفة: «وَرِثِيًّا» بالهمز. وحكى يعقوب أن طلحة قرأ: «وَرِيًّا» بياء
واحدة مخففة. وروى سفيان، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: «هُمُ
أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِثِيًّا» بالزاي، فهذه أربع قراءات. قال أبو إسحاق^(٥): ويجوز «هُمُ أَحْسَنُ
أَثَاثًا وَرِثِيًّا» بياء بعدها همزة.

النَّحَاسُ^(٦): وقراءة أهل المدينة في هذا حسنة، وفيها تقديران: أحدهما: أن
تكون من رأيت، ثم خَفَّتْ الهمزة فأبدل منها ياء، وأدغمت الياء في الياء، وكان هذا
حسنًا؛ لتتفق رؤوس الآيات؛ لأنها غير مهموزات. وعلى هذا قال ابن عباس:
الرثي: المنظر، فالمعنى: هم أحسن أثاثاً ولباساً.

(١) القائل امرؤ القيس، وسلف ٣٩٥/١٢.

(٢) الكشف ٥٢١/٢.

(٣) تفسير البغوي ٢٠٧/٣.

(٤) أخرجه الطبري ٦١٢/١٥ وعزاه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) في معاني القرآن ٣/٣٤٢، ونقله عنه المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٢٦ والكلام
منه، وقراءة أهل الكوفة والمدينة في السبعة ص ٤١١، والتيسير ص ١٤٩، وقراءة طلحة في القراءات
الشاذة ص ٨٦، والمحتسب ٤٣/٢، وقراءة ابن عباس في المحرر الوجيز ٢٩/٣.

(٦) في إعراب القرآن ٣/٢٦ - ٢٧.

والوجه الثاني: أنَّ جلودَهم مرتوية من النُّعمة، فلا يجوز الهمز على هذا. وفي رواية ورش عن نافع، وابن ذكوان عن ابن عامر: «ورثياً» بالهمز تكون على الوجه الأوَّل، وهي قراءة أهل الكوفة وأبي عمرو من رأيت على الأصل. وقراءة طلحة بن مُصَرِّف: «ورياً» بياء واحدة مخفَّفة، أحسبها غلطاً. وقد زعم بعض النحويين أنَّه كان أصلها الهمز فقلبت الهمزة ياء، ثم حُذفت إحدى اليائين. المهدوي: ويجوز أن يكون: «رِثْياً» فقلبت ياءً، فصارت ريثاً، ثم نقلت حركة الهمزة على الياء وحذفت. وقد قرأ بعضهم «ورياً» على القلب، وهي القراءة الخامسة. وحكى سيبويه راءً بمعنى رأى.

الجوهري^(١): من هَمَزَه جعله من المنظر من رَأَيْتُ، وهو ما رَأَتْه العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة. وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفي فقال:

أشاقَّتْكَ الظَّعائِنُ يومَ بانوا بذِي الرِّثْيِ الجميلِ من الأناث

ومن لم يهمز إمَّا أن يكون على تخفيف الهمز، أو يكون من رَوَيْتُ ألوانهم وجلودهم ريثاً، أي: امتلأت وحسنت.

وأما قراءة ابن عباس وأبي بن كعب وسعيد بن جبير والأعسم المكيّ ويزيد البربري: «وزيئاً» بالزاي، فهو الهيئة والحُسن. ويجوز أن يكون من رَوَيْتُ، أي: جمعت، فيكون أصلها زَوَيْاً، فقلبت الواو ياء^(٢). ومنه قول النبي ﷺ: «زُويت لي الأرض» أي: جمعت^(٣). أي: فلم يُغْنِ ذلك عنهم شيئاً من عذاب الله تعالى، فليعيش هؤلاء ما شاؤوا، فمصيرهم إلى الموت والعذاب وإن عُمِّروا، أو العذاب العاجل يأخذهم الله تعالى به.

(١) في الصحاح (رأى)، والبيت الآتي سلف ٣٩٣/١٢.

(٢) المحتسب ٢/ ٤٤ - ٤٥ دون أن ينسب القراءة لابن عباس، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩.

(٣) الحديث أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (٣٩٥٢)، والطبراني في الأوسط (٨٣٩٢)، وابن عبد البر في التمهيد ١٩٨/١٩ عن ثوبان رضي الله عنه، وهو عند أحمد (٢٢٣٩٥)، ومسلم (١٩٢٠) بلفظ: إن الله زوى لي الأرض... الحديث.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ أي: في الكفر ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ أي: فليدعه في طغيان جهله وكفره، فلفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر، أي: من كان في الضلالة مده الرحمن مدًّا حتى يطول اغتراره فيكون ذلك أشدَّ لعقابه، نظيره: ﴿إِنَّمَا تُحِلُّ لَهُمْ لِلَّذِينَ إِتَمَّوْا إِتْمَامًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]^(١) ومثله كثير، أي: فليعش ما شاء، وليوسّع لنفسه في العمر، فمصيره إلى الموت والعقاب^(٢). وهذا غاية في التهديد والوعيد. وقيل: هذا دعاء أمر به النبي ﷺ، تقول: من سرق مالي، فليقطع الله تعالى يده، فهو دعاء على السارق. وهو جواب الشرط. وعلى هذا فليس قوله: «فليمدد» خبراً.

قوله تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ قال: «رأوا» لأنَّ لفظ «من» يصلح للواحد والجمع. و«إذا» مع الماضي بمعنى المستقبل، أي: حتى يروا ما يوعدون. والعذاب هنا إما أن يكون بنصر المؤمنين عليهم فيعذبونهم بالسيف والأسر، وإما أن تقوم الساعة فيصيرون إلى النار^(٣). ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي: تنكشف حينئذ الحقائق. وهذا ردُّ لقولهم: «أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسن ندياً».

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ أي: ويثبت الله المؤمنين على الهدى، ويزيدهم في النصرة، وينزل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين، مجازاة لهم. وقيل: يزيدهم هدى بتصديقهم بالناسخ والمنسوخ الذي كفر به غيرهم، قال معناه الكلبي ومقاتل. ويحتمل ثالثاً: أي: «يزيد الله الذين اهتدوا» إلى الطاعة «هدى» إلى الجنة^(٤). والمعنى متقارب. وقد تقدّم القول في معنى زيادة الأعمال

(١) تفسير أبي الليث ٣/٣٣١ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٢٧.

(٣) تفسير البغوي ٣/٢٠٨، وزاد المسير ٥/٢٥٩ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٣/٣٨٧.

وزيادة الإيمان والهدى في «آل عمران»^(١) وغيرها.

﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ﴾ تقدم في «الكهف» القول فيها^(٢). ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء ﴿وَعَبْرٌ مُرَدًّا﴾ أي: في الآخرة مما افتخر به الكفار في الدنيا. و«المَرَد» مصدر كالرَد، أي: وخير ردًا على عاملها بالثواب، يقال: هذا أرَدُ عليك، أي: أنفع لك^(٣). وقيل: «خير مردًا» أي: مرجعًا، فكلُّ أحد يردُّ إلى عمله الذي عمله.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ۖ اطَّلَعِ الْفَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۖ وَنَرِيهِمْ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ روى الأئمة - واللفظ لمسلم - عن خَبَّاب قال: كان لي على العاص بن وائل دينٌ، فأتيته أتقاضاه، فقال لي: لن أقضيك حتى تكفر بمحمد. قال: فقلت له: لن أكفر به حتى تموت ثم تُبعث. قال: وإنِّي لمبعوثٌ من بعد الموت؟! فسوف أقضيك إذا رجعتُ إلى مال وولد. قال وكيع: كذا قال الأعمش، فنزلت هذه الآية: «أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا» إلى قوله: «ويأتينا فردا». في رواية قال: كنت قيناً في الجاهلية فعملت للعاص بن وائل عملاً فأتيته أتقاضاه. خرَّجه البخاري أيضاً^(٤).

وقال الكلبي ومقاتل: كان خَبَّاب قيناً، فصاغ للعاص حلياً ثم تقاضاه أجرته، فقال العاص: ما عندي اليوم ما أقضيك. فقال خَبَّاب: لست بمفارقك حتى تقضيني، فقال العاص: يا خَبَّاب، ما لك؟! ما كنت هكذا، وإن كنت لحسن الطلب. فقال

(١) ٤٢٣/٥ .

(٢) عند الآية (٤٦).

(٣) الوسيط ١٩٤/٣ .

(٤) البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥)، والواحد في أسباب النزول ص ٣١١، والقَيْن: الحداد والصائف. النهاية (قين).

خَبَّاب: إِنِّي كُنْتُ عَلَى دِينِكَ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَأَنَا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ مَفَارِقٌ لَدِينِكَ. قَالَ: أَوْلَسْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ ذَهَبًا وَفِضَّةً وَحَرِيرًا؟ قَالَ خَبَّاب: بَلَى. قَالَ: فَأَخْرَنِي حَتَّى أَقْضِيكَ فِي الْجَنَّةِ - اسْتَهْزَأَ - فَوَاللَّهِ لَشَنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا إِنِّي لَأَقْضِيكَ فِيهَا، فَوَاللَّهِ لَا تَكُونِ أَنْتَ يَا خَبَّابَ وَأَصْحَابُكَ أَوْلَى بِهَا مِنِّي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا» يَعْنِي: الْعَاصِ بْنِ وَائِلَ، الْآيَاتُ^(١).

﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنْظَرَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ؟! وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَعْلِمَ الْغَيْبَ حَتَّى يَعْلَمَ أَفِي الْجَنَّةِ هُوَ أَمْ لَا؟^(٢) ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَالثَّوْرِيُّ: أَيُّ: عَمَلًا صَالِحًا^(٣). وَقِيلَ: هُوَ التَّوْحِيدُ. وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الْوَعْدِ^(٤). وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: عَاهَدَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةُ^(٥).

﴿كَلَّا﴾ رَدُّ عَلَيْهِ، أَيُّ: لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ، لَمْ يَطْلُعِ الْغَيْبَ، وَلَمْ يَتَّخِذْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا^(٦)، وَتَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ: «كَلَّا». وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ^(٧). وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ؛ لِأَنَّهُ مَدُونٌ فِي الصُّحُوحِ.

وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ «وَوُلِدَا» بَضَمَّ الْوَاوِ، وَالْبَاقُونَ بَفَتْحِهَا^(٨). وَاخْتَلَفَ فِي الضَّمِّ وَالْفَتْحِ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمَا لَغْتَانِ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ، يُقَالُ: وَلَدَ وَوُلِدَ كَمَا يُقَالُ: عَدِمَ وَغُدِمَ. وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ حِزْزَةَ:

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مُعَاشِرًا قَدْ تَمَّرُوا مَالًا وَوُلِدَا^(٩)

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٣١٢.

(٢) تفسير البغوي ٢٠٨/٣.

(٣) أخرجه الطبري ٦٢١/١٥ عن قتادة.

(٤) تفسير أبي الليث ٣٣٢/٢ بنحوه.

(٥) تفسير البغوي ٢٠٨/٣.

(٦) الوسيط ١٩٤/٣.

(٧) زاد المسير ٢٦٠/٥، وتفسير الرازي ٢٤٩/٢١.

(٨) السبعة ص ٤١٢، والتيسير ص ١٥٠.

(٩) النكت و العيون ٣/٣٨٧، والبيت ذكره أيضاً الفراء في معاني القرآن ١٧٣/٢، والطبري ٦٢٠/١٥.

وقال آخر:

فَلَيْتَ فَلاناً كَانَ فِي بطنِ أُمِّهِ وَلَيْتَ فَلاناً كَانَ وُلَدَ جِمارٍ^(١)
والثاني: أَنَّ قيساً تجعل الولد بالضمّ جمعاً، والولد بالفتح واحداً. قال
الماوردي^(٢): وفي قوله تعالى: «لَأُوتِيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا» وجهان: أحدهما: أَنَّهُ أراد في
الجنة استهزاء بما وعد الله تعالى على طاعته وعبادته، قاله الكلبي. الثاني: أَنَّهُ أراد
في الدنيا، وهو قول الجمهور، وفيه وجهان محتملان: أحدهما: إن أقمتُ على دين
آبائي وعبادة آلهتي لأُوتِيَنَّ مَالاً وولداً. الثاني: ولو كنت على باطل لَمَا أُوتيت مَالاً
وولداً.

قلت: قول الكلبي أشبه بظاهر الأحاديث، بل نصّها يدلُّ على ذلك، قال
مسروق: سمعت خباب بن الأرت يقول: جئت العاصي بن وائل السهمي أتقاضاه
حقاً لي عنده. فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا حتى تموت ثم تُبعث.
قال: وإني لميت ثم مبعوث؟! فقلت: نعم. فقال: إن لي هناك مالاً وولداً فأقضيك،
فنزلت هذه الآية، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح^(٣).

قوله تعالى: «أَطَّلَعَ الْغَيْبَ» ألفه ألف استفهام لمجيء «أم» بعدها، ومعناه
التوبيخ، وأصله: أطلع، فحذفت الألف الثانية؛ لأنها ألف وصل^(٤). فإن قيل: فهلاً
أتوا بمدة بعد الألف فقالوا: أطلع كما قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ﴾ [النمل: ٥٩] ﴿الذَّكْرَيْنِ
حَرَّمَ﴾ [الأنعام: ١٤٣] قيل له: كان الأصل في هذا «أالله»، «الذكرين» فأبدلوا من

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ١٧٣/٢، وابن جني في المحتسب ٣٦٥/١، والطبري ٦٢٠/١٥ دون
نسبة، ونسبه التبريزي في تهذيب إصلاح المنطق ٥٨/١، والعكبري في المشرف المجلد ٨٤١/٢ لنافع
ابن صفار الأسلمي يهجو الأخطل، وجاء في المحتسب: زياداً، بدل: فلاناً، في الموضعين.

(٢) في النكت والعيون ٣٨٨/٣، وما قبله منه.

(٣) الترمذي (٣١٦٢)، وسلف تمام تخريجه قريباً.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢٧/٣.

الألف الثانية مدَّة ليفرَّقوا بين الاستفهام والخبر، وذلك أنَّهم لو قالوا: الله خير، بلا مدَّة، لالتبس الاستفهام بالخبر^(١)، ولم يحتاجوا إلى هذه المدَّة في قوله: «أَطْلَع» لأنَّ ألف الاستفهام مفتوحة، وألف الخبر مكسورة، وذلك أنَّك تقول في الاستفهام: أَطْلَع؟ أَفْتَرَى؟ أَصْطَفَى؟ أَسْتَغْفِرُ؟ بفتح الألف، وتقول في الخبر: اِطْلَع، اِفْتَرَى، اِصْطَفَى، اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ، بالكسر، فجعلوا الفرق بالفتح والكسر، ولم يحتاجوا إلى فرق آخر.

قوله تعالى: «كَلَّا» ليس في النصف الأوَّل ذكر «كَلَّا» وإنَّما جاء ذكره في النصف الثاني^(٢). وهو يكون بمعنيين: أحدهما: بمعنى حقًّا. والثاني: بمعنى «لا». فإذا كانت بمعنى حقًّا جاز الوقف على ما قبله، ثم تبتدئ «كَلَّا» أي: حقًّا. وإذا كانت بمعنى «لا»، كان الوقف على «كَلَّا» جائزاً، كما في هذه الآية؛ لأنَّ المعنى: لا ليس الأمر كذا. ويجوز أن تقف على قوله: «عَهْدًا» وتبتدئ «كَلَّا» أي: حقًّا «سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ». وكذا قوله تعالى: ﴿لَمَلَّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ [المؤمنون: ١٠٠] يجوز الوقف على «كَلَّا» وعلى «تركت». وقوله: ﴿وَلَكُمْ عَلَىٰ ذُنُوبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ قَالَ كَلَّا﴾ [الشعراء: ١٤-١٥] الوقف على «كَلَّا» لأنَّ المعنى: لا، وليس الأمر كما تظن ﴿فَاذْهَبَا﴾. فليس للحق في هذا المعنى موضع^(٣).

وقال الفراء^(٤): «كَلَّا» بمنزلة سوف؛ لأنها صلة، وهي حرف ردٍّ، فكأنَّها «نعم» و«لا» في الاكتفاء. قال: وإن جعلتها صلة لما بعدها لم تقف عليها، كقولك: كَلَّا وَرَبُّ الكعبة، لا تقف على كَلَّا؛ لأنَّه بمنزلة: إي وربُّ الكعبة. قال الله تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ [المدثر: ٣٢] فالوقف على «كَلَّا» قبيح؛ لأنَّه صلة لليمين. وكان أبو جعفر محمد ابن سعدان يقول في «كَلَّا» مثل قول الفراء. وقال الأخفش: معنى «كَلَّا» الردع

(١) سر صناعة الإعراب لابن جني ١/ ٣٤٠.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٣٢.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٤٢٥ - ٤٢٧.

(٤) بنظر شرح المفصل لابن يعيش ٩/ ١٦.

والزجر. وقال أبو بكر بن الأنباري^(١): وسمعت أبا العباس يقول: لا يُوقَف على «كلا» في جميع القرآن؛ لأنها جواب، والفائدة تقع فيما بعدها. والقول الأول هو قول أهل التفسير.

قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: سنحفظ عليه قوله فنجازيه به في الآخرة. ﴿وَنَسُدُّ لَكَ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: سنزيده عذاباً فوق عذاب^(٢). ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: نسلبه ما أعطيناه في الدنيا من مال وولد. وقال ابن عباس وغيره: أي: نرثه المال والولد بعد إهلاكنا إياه. وقيل: نحرمه ما تمنّاه في الآخرة من مال وولد^(٣)، ونجعله لغيره من المسلمين. ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي: منفرداً لا مال له ولا ولد ولا عشيرة تنصره.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ❶ ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ❷

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ يعني: مشركي قريش. و«عِزًّا» معناه: أعواناً ومنعة، يعني: أولاداً. والعِزُّ: المطر الجود^(٤) أيضاً، قاله الهروي^(٥). وظاهر الكلام أن «عِزًّا» راجع إلى الآلهة التي عبدوها من دون الله. ووَحَّد؛ لأنه بمعنى المصدر، أي: لينالوا بها العِزَّ ويمتنعون بها من عذاب الله، فقال الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما ظنُّوا وتوهموا، بل يكفرون بعبادتهم، أي: ينكرون أنهم عبدوا الأصنام، أو تجحد الآلهة عبادة المشركين لها، كما قال: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا نَا يَبْدُوتُ﴾ [القصص: ٦٣]. وذلك أن الأصنام جمادات لا تعلم العبادة^(٦).

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٤٢٥/١ .

(٢) الوسيط ١٩٥/٣ .

(٣) النكت والعيون ٣/٣٨٨ ، دون قول ابن عباس وأخرجه عنه الطبري ١٥/٦٢٣ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/٢٦١ .

(٤) المطر الجود: أي المطر الغزير .

(٥) وينظر الصحاح (عزز).

(٦) زاد المسير ٥/٢٦٢ .

﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: أعواناً في خصومتهم وتكذيبهم. عن مجاهد^(١)، والضحّاك: يكونون لهم أعداء^(٢). ابن زيد: يكونون عليهم بلاء^(٣). فتحشر آلهتهم، وترغب لهم عقول فتنتطق، وتقول: يا ربّ عذب هؤلاء الذين عبدونا من دونك. و«كلا» هنا يحتمل أن تكون بمعنى «لا»، ويحتمل أن تكون بمعنى حقاً، أي: حقاً «سيكفرون بعبادتهم». وقرأ أبو نهيك: «كَلَّا سيكفرون» بالتنوين^(٤). وروي عنه مع ذلك ضمّ الكاف وفتحها^(٥).

قال المهدوي: «كلا» ردع وزجر وتنبيه وردّ لكلام متقدّم، وقد تقع لتحقيق ما بعدها والتنبيه عليه كقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا﴾ [العلق: ٦] فلا يوقف عليها على هذا، ويوقف عليها في المعنى الأول، فإن صلح فيها المعنيان جميعاً، جاز الوقف عليها والابتداء بها. فمن نَوْن «كلا» من قوله: «كَلَّا سيكفرون بعبادتهم» مع فتح الكاف فهو مصدر كَلَّ، ونصبه بفعل مضمر، والمعنى: كَلَّ هذا الرأي والاعتقاد كَلًّا، يعني: اتخذاهم الآلهة «ليكونوا لهم عزّاً» فيوقف على هذا على «عزّاً» وعلى «كَلَّا». وكذلك في قراءة الجماعة؛ لأنها تصلح للردّ لما قبلها، والتحقيق لما بعدها^(٦). ومن روى ضمّ الكاف مع التنوين، فهو منصوب أيضاً بفعل مضمر، كأنه قال: سيكفرون «كَلَّا سيكفرون بعبادتهم»^(٧) يعني: الآلهة.

قلت: فتحصّل في «كَلَّا» أربعة معانٍ: التحقيق وهو أن تكون بمعنى حقاً، والنفي، والتنبيه، وصلة للقسّم، ولا يوقف منها إلا على الأوّل. وقال الكسائي: «لا»

(١) تفسير مجاهد ١/ ٣٩٠ - ٣٩١، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٦٢٤.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٦٢٥.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٨٩.

(٤) القراءات الشاذة ص ٨٦، والمحتسب ٢/ ٤٥.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣١.

(٦) المحتسب ٢/ ٤٥، وإيضاح الوقف والابتداء ١/ ٤٢٥ وما بعدها، وإملاء ما من به الرحمن ٣/ ٥٦٧ بنحوه.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١.

تنفي فحسب، و«كلًا» تنفي شيئاً وتثبت شيئاً، فإذا قيل: أكلت تمرًا، قلت: كلًا إنني أكلت عسلًا لا تمرًا، ففي هذه الكلمة نفى ما قبلها، وتحقق ما بعدها. والضد يكون واحداً ويكون جمعاً، كالعدو والرسول. وقيل: وقع الضد موقع المصدر، أي: ويكونون عليهم عوناً، فلهذا لم يجمع، وهذا في مقابلة قوله: «ليكونوا لهم عزاً» والعز مصدر، فكذلك ما وقع في مقابله. ثم قيل: الآية في عبدة الأصنام، فأجرى الأصنام مجرى من يعقل، جرياً على توهم الكفرة. وقيل: فيمن عبد المسيح أو الملائكة أو الجن أو الشياطين، فالله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ۖ فَلَا تَعَجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ۖ يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۖ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ۖ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اخْتَدَّ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ﴾ (٨٧)

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: سلطناهم عليهم بالإغواء، وذلك حين قال لإبليس: ﴿وَأَسْتَفِرِّزُ مِنَ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]. وقيل: «أرسلنا» أي: خلينا، يقال: أرسلت البعير، أي: خلّيته. أي: خلينا الشياطين وإياهم ولم نعصمهم من القبول منهم^(١). الزجاج^(٢): قيضنا.

﴿تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ قال ابن عباس: تزعجهم إزعاجاً من الطاعة إلى المعصية. وعنه تغريهم إغراءً بالشر: امضِ امضِ في هذا الأمر، حتى توقعهم في النار. حكى الأول الثعلبي، والثاني الماوردي^(٣)، والمعنى واحد. الضحّاك: تغويهم إغواء^(٤). مجاهد:

(١) الوسيط ١٩٥/٣ .

(٢) في معاني القرآن ٣/٣٤٥ .

(٣) في النكت والعيون ٣/٣٨٩ ، وذكر قول ابن عباس الأول الواحدي في الوسيط ٣/١٩٥ ، وأخرج الثاني الطبري ١٥/٦٢٧ .

(٤) النكت والعيون ٣/٣٨٩ ، وأخرجه عنه الطبري ١٥/٦٢٧ ، بلفظ: تغريهم إغراء.

تُسْلِيهِمْ إِشْلَاءً^(١).

وأصله الحركة والغليان، ومنه الخبر المروي عن النبي ﷺ قام إلى الصلاة ولجوفه أزيز كازيز المزجل من البكاء. واَثَّرَتِ الْقَدْرُ اثْتِزَازًا: اشتدَّ غليانها. والأزُّ: التَّهْيِيجُ والإغراء، قال الله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا» أي: تُغْرِبُهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي. والأزُّ: الاختلاط. وقد أَرَزْتُ الشَّيْءَ أَوْزُهُ أَزًّا، أي: ضَمَمْتُ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ. قاله الجوهري^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: تَطْلُبِ الْعَذَابَ لَهُمْ. ﴿إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذَابًا﴾ قال الكلبي: آجالهم، يعني الأيام والليالي والشهور والسنين إلى انتهاء أجل العذاب^(٣). وقال الضحَّاك: الأنفاس. ابن عباس: أي: نَعْدُ أَنْفَاسَهُمْ فِي الدُّنْيَا كَمَا نَعْدُ سَنِيهِمْ^(٤). وقيل: الخطوات. وقيل: اللذات. وقيل: اللحظات. وقيل: الساعات. وقال قطرب: نَعْدُ أَعْمَالَهُمْ عَذَابًا^(٥). وقيل: لَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ فَإِنَّمَا نُوَخِّرُهُمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا.

روي أَنَّ الْمَأْمُونِ قَرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ، فَمَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ، فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ إِلَى ابْنِ السَّمَاءِ أَنْ يَعْظُمَهُ، فَقَالَ: إِذَا كَانَتِ الْأَنْفَاسُ بِالْعَدَدِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مَدَدٌ، فَمَا أَسْرَعَ مَا تَفْنَدُ. وقيل في هذا المعنى:

حَيَاتُكَ أَنْفَاسٌ تُعَدُّ فِكْلًا مَضَى نَفْسٌ مِنْكَ انْتَقَصَتْ بِهِ جُزْءًا
يَمِيتُكَ مَا يَحْيِيكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ وَيَحْدُوكَ حَادٍ مَا يُرِيدُ بِهِ الْهُزْءُ^(٦)

(١) أخرجه الطبري ٦٢٧/١٥ ونسبه لابن زيد.

(٢) في الصحاح (أرز)، والحديث أخرجه أحمد (١٦٣١٢)، وأبو داود (٩٠٤)، والنسائي في المجتبى ١٣/٣، وفي الكبرى (٥٤٩) عن عبد الله بن الشَّخِيرِ.

(٣) تفسير البغوي ٢٠٩/٣، والنكت والعيون ٣٨٩/٣ بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري ٦٢٨/١٥.

(٥) زاد المسير ٢٦٣/٥.

(٦) القائل علي بن أبي طالب، والبيتان في ديوانه ص ١١، وذكرهما ابن عبد البر في بهجة المجالس =

ويقال: إِنَّ أَنْفَاسَ ابْنِ آدَمَ بَيْنَ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَرْبَعَةٌ وَعَشْرُونَ أَلْفَ نَفْسٍ؛ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ نَفْسٍ فِي الْيَوْمِ، وَاثْنَا عَشَرَ أَلْفًا فِي اللَّيْلَةِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - فَهِيَ تَعُدُّ وَتَحْصِي إِحْصَاءً، وَلَهَا عَدَدٌ مَعْلُومٌ، وَلَيْسَ لَهَا مَدَدٌ، فَمَا أَسْرَعَ مَا تَنْفَدُ.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ في الكلام حذف، أي: إلى جَنَّةِ الرحمن، ودار كرامته^(١)، كقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصفات: ٩٩]، وكما في الخبر: «من كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله»^(٢).

والوفد: اسمٌ للوافدين، كما يقال: صَوْمٌ وَقَطْرٌ وَزُورٌ، فهو جمع الوافد، مثل رَكْبٍ وَرَاكِبٍ، وَصَنْحَبٍ وَصَاحِبٍ، وَهُوَ مَنْ وَقَدَ يَفْدُ وَفْدًا وَوَفُودًا وَوَفَادَةً، إِذَا خَرَجَ إِلَى مَلِكٍ فِي فَتْحٍ أَوْ أَمْرٍ خَطِيرٍ^(٣). الجوهري^(٤): يقال: وَقَدَ فُلَانٌ عَلَى الْأَمِيرِ، أَي: وَرَدَ رَسُولًا، فَهُوَ وَافِدٌ، وَالْجَمْعُ وَفْدٌ، مِثْلُ صَاحِبٍ وَصَنْحَبٍ، وَجَمْعُ الْوَفْدِ: أَوْفَادٌ وَوَفُودٌ، وَالْإِسْمُ: الْوَفَادَةُ، وَأَوْفَدْتُهُ أَنَا إِلَى الْأَمِيرِ، أَي: أَرْسَلْتُهُ.

وفي التفسير: «وفدًا» أي: ركبَانًا عَلَى نَجَائِبٍ طَاعَتِهِمْ^(٥). وهذا لِأَنَّ الْوَافِدَ فِي الْغَالِبِ يَكُونُ رَاكِبًا، وَالْوَفْدُ: الرِّكْبَانُ، وَوَحَّدَ؛ لِأَنَّهُ مُصَدَّرٌ. ابْنُ جَرِيرٍ: وَفْدًا عَلَى النِّجَائِبِ^(٦).

وقال عمرو بن قيس المُلَائِي: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ اسْتَقْبَلَهُ عَمَلُهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَأَطْيَبِ رِيحٍ، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ قَدْ طَيَّبَ

= ٣/٣٣٩ ونسبها إلى محمود الوراق، وابن الجوزي في المدهش ص ٤٥٣ ولم ينسبها، وجاءت رواية البيت الثاني في الديوان هكذا:

ويحييك ما يفنيك في كل حالة ويحدوك حادٍ ما يريد بك الهزء

(١) الوسيط ٣/١٩٥ .

(٢) سلف ٣/٢٧٠ .

(٣) الوسيط ٣/١٩٥ .

(٤) في الصحاح (وفد).

(٥) لطائف الإشارات ٢/١٥١ .

(٦) أخرجه الطبري ١٥/٦٣٠ - ٦٣١ .

رِنْحِكَ وَحَسَّنْ صُورَتَكَ. فيقول: كذلك كنت في الدنيا، أنا عملك الصالح، طالما ركبْتُكَ في الدنيا، اركبني اليوم، وتلا: «يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا». وإنَّ الكافر يستقبله عمله في أقبح صورة وأنتن رِيح، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أنَّ الله قد قَبَّحَ صورتك وأنتنَ رِنْحِكَ. فيقول: كذلك كنت في الدنيا، أنا عملك السيِّئ، طالما ركبتنني في الدنيا وأنا اليوم أركبك. وتلا: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١]. ولا يصحُّ من قبل إسناده، قاله ابن العربي في «سراج المريدين»^(١)، وذكر هذا الخبر في تفسيره أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري، عن ابن عباس بلفظه ومعناه.

وقال أيضاً عن ابن عباس: من كان يحبُّ الخيلَ وقد إلى الله تعالى على خيل لا تَرُوث ولا تَبُول، لجمها من الياقوت الأحمر، ومن الزَّبرجد الأخضر، ومن الدُّرُّ الأبيض، وسُروجها من السندس والإستبرق، ومن كان يحبُّ ركوبَ الإبل فعلى نجائب لا تَبْعَر ولا تبول، أزمَّتْها من الياقوت والزَّبرجد، ومن كان يحبُّ ركوب السفن، فعلى سفن من ياقوت، قد أَمِنُوا الغرق، وأَمِنُوا الأهوال.

وقال أيضاً عن عليٍّ ؑ: ولما نزلت الآية قال عليٌّ ؑ: يا رسول الله! إنني قد رأيت الملوك ووفودهم، فلم أَرْ وفداً إلا ركبانا، فما وفد الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما إنَّهم لا يُحْشَرُونَ على أقدامهم ولا يُسَاقُونَ سَوْقاً، ولكنَّهم يؤتون بُنُوق من نوق الجنة، لم ينظر الخلائق إلى مثلها، رحالها الذهب، وزمامها الزَّبرجد، فيركبونها حتى يقرعوا بابَ الجنة»^(٢). ولفظ الثعلبي في هذا الخبر عن عليٍّ أبين.

وقال عليٌّ: لما نزلت هذه الآية، قلت: يا رسول الله! إنني رأيت الملوك

(١) التذكرة ص ١٨٩ - ١٩٠، والخبر أخرجه الطبري ٦٣٠/١٥ مقتصراً على الطرف الأول، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم في التفسير ١٢٨١/٤ (٧٢٢٩)، والطبري ٢١٧/٩ عن السدي بنحوه.

(٢) التذكرة ص ٢٠١، وأخرجه ابن أبي شيبه ١١٩/١٣، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٥٣)، والطبري ٦٢٩/١٥، والحاكم ٥٦٥/٤، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥٨). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وردّه الذهبي بقوله: لا.

وفودهم، فلم أرَ وفداً إلا ركبانا. قال: «يا عليّ إذا كان المنصرف من بين يدي الله تعالى تلقت الملائكة المؤمنين بنوقٍ يبيض رحالها، وأزمتها الذهب، على كلِّ مركب حُلّة لا تساويها الدنيا، فيلبس كلُّ مؤمن حُلّة، ثم تسير بهم مراكبهم فتُهوي بهم النوق حتى تنتهي بهم إلى الجنّة، فتتلقاهم الملائكة: ﴿سَلِّمُ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾».

قلت: وهذا الخبر ينصُّ على أنَّهم لا يركبون ولا يلبسون إلا من الموقف، وأمّا إذا خرجوا من القبور فمشاةٌ حُفّاءٌ عُراةٌ عُراً إلى الموقف؛ بدليل حديث ابن عباس قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنَّكم تُحشرون إلى الله - تعالى - حُفّاءَ عُراةٍ عُراً» الحديث خرَّجه البخاريُّ ومسلم^(١)، وسيأتي بكماله في سورة «المؤمنين» إن شاء الله تعالى، وتقدّم في «آل عمران» من حديث عبد الله بن أنيس بمعناه، والحمد لله تعالى^(٢). ولا يبعد أن تحصل الحالتان للسعداء، فيكون حديث ابن عباس مخصوصاً، والله أعلم.

وقال أبو هريرة: «وفداً»: على الإبل^(٣). ابن عباس: ركبناً يؤتون بنوق من الجنّة، عليها رحائل من الذهب، وسروجها وأزمتها من الزبرجد فيحشرون عليها. وقال عليّ: ما يُحشرون والله على أرجلهم، ولكن على نُوقٍ رحالها من ذهب، ونُجُبٍ سروجها يواقيت، إن همّوا بها سارت، وإن حركوها طارت^(٤). وقيل: يَفْدُونَ على ما يحبُّون من إبل أو خيل أو سفن، على ما تقدّم عن ابن عباس. والله أعلم. وقيل: إنّما قال: «وفداً» لأنَّ من شأن الوفود عند العرب أن يقدّموا بالبشارات، ويتنظرون الجوائز، فالمتّقون ينتظرون العطاء والثواب.

(١) البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠) واللفظ له.

(٢) لم نقف عليه في سورة المؤمنين، وتقدم في آل عمران ٤١٣/٥ مختصراً، وفي المائدة ٨/٣٠٤ بتمامه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١١٩/١٣، والطبري ٦٢٩/١٥ - ٦٣٠.

(٤) تفسير البغوي ٢٠٩/٣.

﴿وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَيْ جَهَنَّمَ وَرِدَا﴾ السَّوْقُ: الحثُّ على السير. و«وَرِدَا»: عِطَاشًا، قاله ابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهما والحسن^(١). والأخفش والفراء^(٢) وابن الأعرابي: حفاة مشاة. وقيل: أفواجًا. وقال الأزهري^(٣): أي: مشاة عِطَاشًا، كالإبل تَرِدُ الماء، فيقال: جاء وِرْد بني فلان. القشيري: وقوله «وَرِدَا» يدلُّ على العطش؛ لأنَّ الماءَ إنَّما يورد في الغالب للعطش. وفي «التفسير»: مشاة عِطَاشًا^(٤)، تتقطَّع أعناقهم من العطش^(٥)، وإذا كان سَوْق المجرمين إلى النار، فحشر المتقين إلى الجنة.

وقيل: «وَرِدَا» أي: الورد، كقولك: جئتكَ إكرامًا لك، أي: لإكرامك، أي: نسوقهم لورود النار.

قلت: ولا تناقض بين هذه الأقوال، فيساقون عِطَاشًا حفاة مشاة أفواجًا. قال ابنُ عرفة: الورد: القوم يَرِدُون الماء، فسُمِّي العطاش وِرْدًا؛ لطلبهم ورود الماء؛ كما تقول: قوم صَوْم، أي: صيام، وقوم زَوْر، أي: زوَّار، فهو اسم على لفظ المصدر، واحدهم وارد.

والورد أيضاً: الجماعة التي تَرِدُ الماء من طير وإبل. والورد: الماء الذي يورد^(٦). وهذا من باب الإيحاء بالشيء إلى الشيء.

والوَرْد: الجزء. يقال: قرأت وِردي. والورد: يوم الحمى إذا أخذت صاحبها لوقت - فظاهره لفظ مشترك - وقال الشاعر يصف قَلْبًا:

(١) أخرجه عنهم الطبري ٦٣١/١٥ - ٦٣٢، وعلقه عن ابن عباس البخاري في كتاب التفسير، قبل حديث ٤٧٣٠، وأخرجه أيضاً عن الحسن بن أبي شيبه ١٧٢/١٣، وهناد في الزهد (٢٨٦) و(٢٨٧).

(٢) في معاني القرآن ١٧٢/٣، وفيه: مشاة عِطَاشًا.

(٣) في تهذيب اللغة ١٦٤/١٤.

(٤) نزهة القلوب ص ٤٧١.

(٥) تفسير البغوي ٢٠٩/٣.

(٦) تهذيب اللغة ١٦٤/١٤.

يَظْمُو إِذَا الْوَرْدُ عَلَيْهِ التَّكَا^(١)

أي: الوراد الذين يَرْدُونَ الماء.

قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ﴾ أي: هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ وهم المسلمون فيملكون الشفاعة، فهو استثناء الشيء من غير جنسه، أي: لكن «من اتخذ عند الرحمن عهداً» يشفع، فـ «من» في موضع نصب على هذا. وقيل: هو في موضع رفع على البذل من الواو في «يملكون»، أي: لا يملك أحد عند الله الشفاعة «إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» فإنه يملك^(٢)، وعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً.

و«المجرمين» في قوله: «وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا» يعلم الكفرة والعصاة، ثم أخبر أنهم لا يملكون الشفاعة إلا العصاة المؤمنون، فإنهم يملكونها بأن يشفع فيهم. قال رسول الله ﷺ: «لا أزال أشفع حتى أقول: يا رب شفعني فيمن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله فيقول: يا محمد إنها ليست لك ولكنها لي»^(٣) خرجه مسلم بمعناه، وقد تقدّم^(٤).

وتظاهرت الأخبار بأن أهل الفضل والعلم والصلاح يشفعون فيشفعون^(٥)، وعلى القول الأول يكون الكلام متصلاً بقوله: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا» فلا تقبل غداً شفاعة عبدة الأصنام لأحد، ولا شفاعة الأصنام لأحد، ولا يملكون شفاعة أحد لهم، أي: لا تنفعهم شفاعة، كما قال: ﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المندر: ٤٨].

وقيل: أي: نحشر المتقين والمجرمين، ولا يملك أحد شفاعة «إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ

(١) الصحاح (ورد)، وقيله: صَبَحْنَ مِنْ وَشَحَا قَلِيًّا سَكَا

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/٣٤٦ بنحوه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٣٢ - ٣٣.

(٤) مسلم (١٩٣): (٣٢٦)، وهو بهذا اللفظ عند أبي يعلى في مسنده (٢٧٨١).

(٥) المحرر الوجيز ٤/٣٣.

الرحمن عهداً» أي: إذا أذن له الله في الشفاعة، كما قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهذا العهد هو الذي قال: «أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» وهو لفظ جامع للإيمان وجميع الصالحات التي يصل بها صاحبها إلى حيز من يشفع.

وقال ابن عباس: العهد: لا إله إلا الله. وقال مقاتل وابن عباس أيضاً: لا يشفع إلا من شهد أن لا إله إلا الله، وتبرأ من الحول والقوة لله، ولا يرجو إلا الله تعالى^(١).

وقال ابن مسعود: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهداً» قيل: يا رسول الله وما ذاك؟ قال: «يقول عند كل صباح ومساء: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، إِنِّي أَعِثُّ إِلَيْكَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَكَلَّنِي إِلَى نَفْسِي تَبَاعَدَنِي مِنَ الْخَيْرِ وَتَقَرَّبَنِي مِنَ الشَّرِّ، وَإِنِّي لَا أَثِقُ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ، فَاجْعَلْ لِي عِنْدَكَ عَهْدًا تَوْفِينِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ، فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ، طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا طَابِعًا، وَوَضَعَهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: أَيُّنَ الَّذِينَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ. فَيَقُومُ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۚ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَتَشَقَّقُ الْأَرْضُ وَغِيْرُ اللَّجَالِ هَذَا ۚ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۚ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۚ﴾ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ يعني اليهود والنصارى، ومن زعم أن

(١) أخرجه الطبري ٦٣٣/١٥، والطبراني في الدعاء (١٥٧٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص ١٠٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الكشف ٥٢٥/٢، والثعلبي كما في الكافي الشاف ص ١٠٨، وأخرجه أحمد (٣٩١٦) بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٧٤/١٠: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، إلا أن عون بن عبد الله لم يسمع من ابن مسعود. اهـ وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرک ٣٧٧/٢ - ٣٧٨ عن ابن مسعود من قوله. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

الملائكة بناتُ الله^(١). وقرأ يحيى والأعمش وحمزة والكسائي وخلف^(٢): «وُلِدَا» بضم الواو وإسكان اللام، في أربعة مواضع: من هذه السورة قوله تعالى: ﴿لَا أُوتِيكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ وقد تقدّم^(٣)، وقوله: ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾. وفي سورة نوح: ﴿مَالَهُ وَوَلَدُهُ﴾ [الآية: ٢١]. ووافقهم في «نوح» خاصة ابن كثير ومجاهد وحميد وأبو عمرو ويعقوب. والباقون في الكل بالفتح في الواو واللام^(٤)، وهما لغتان، مثل: العَرَبُ والعُرْبُ والعَجْمُ والعُجْمُ. قال:

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَعَاشِرًا قَدْ تَمَرُّوا مَالًا وَوُلِدَا
وقال آخر:

وَلَيْتَ فَلَانًا كَانَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَلَيْتَ فَلَانًا كَانَ وُلْدَ حِمَارٍ
وقال في معنى ذلك النابغة^(٥):

مَهْلًا فِدَاءَ لَكَ الْأَقْوَامُ كُلُّهُمْ وَمَا أَثْمَرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدٍ
ففتح. وقيسُ يجعلون الولد بالضمّ جمعاً، والولد بالفتح واحداً^(٦). قال
الجوهري^(٧): «الولدُ قد يكون واحداً وجمعاً، وكذلك الولدُ بالضمّ. ومن أمثال بني
أسد: «وُلْدُكَ مِنْ دَمِي عَقَبَيْكَ»^(٨) وقد يكون الولدُ جمعَ الولدِ مثلَ أُسْدٍ وَأُسْدٍ: والولدُ

(١) الوسيط ١٩٦/٣، وتفسير البغوي ٢٠٩/٣، وزاد المسير ٢٦٤/٥.

(٢) قبلها في (د) و(م) زيادة: وعاصم، وهي خطأ.

(٣) ص ٥٠٦-٥٠٧ من هذا الجزء.

(٤) قرأ الكسائي وحمزة: «وُلِدَا» بضمّ الراء وسكون اللام في جميع تلك المواضع، ووافقهم في آية نوح: ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وخلف. وقرأ الباقر بفتح الواو واللام في جميع المواضع. ينظر الحجة في القراءات ٢١١/٥، والسبعة ص ٤١٢، والتيسير ص ١٥٠ و ٢١٥، والنشر ٢٩١/٣.

(٥) وهو الذبياني في ديوانه ص ٣٦.

(٦) من قوله: وهما لغتان إلى هذا الموضع - دون بيت النابغة - من النكت والعيون ٣٨٧/٣، وقد سلف قريباً.

(٧) في الصحاح (ولد).

(٨) أي: من نَفَسْتِ به. مجمع الأمثال للميداني ٣٩/١.

بالكسر لغة في الولد. النحاس^(١): وفرّق أبو عبيد بينهما، فزعم أنّ الولد يكون للأهل والولد جميعاً. قال أبو جعفر: وهذا قول مردود لا يعرفه أحد من أهل اللغة، ولا يكون الولد والولد إلا ولد الرجل وولد ولده، إلا أنّ ولدًا أكثر في كلام العرب؛ كما قال:

مَهْلًا فِدَاءَ لَكَ الْأَقْوَامُ كُلُّهُمْ وَمَا أَثْمَرُ مِنْ مَالٍ وَمَنْ وَلَدٍ
قال أبو جعفر: وسمعت محمد بن الوليد يقول: يجوز أن يكون ولدٌ جمعٌ وولدٌ، كما يُقال: وَثْنٌ وَوُثْنٌ وَأَسَدٌ وَأُسْدٌ، ويجوز أن يكون ولدٌ وولدٌ بمعنى واحد، كما يُقال: عَجَمٌ وَعُجَمٌ، وَعَرَبٌ وَعُرَبٌ، كما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ أي: منكرًا عظيمًا. عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما^(٢). قال الجوهري^(٣): الإْدُّ والإْدَّة: الداهيةُ والأمرُ الفظيع؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ وكذلك الآدُّ مثل فاعل. وجمعُ الإْدَّةِ إِدَدٌ، وأدّت فلاناً داهيةٌ تؤدّه آدًا، بالفتح. والآدُّ أيضاً: القوة^(٤)؛ قال الراجز:

نَضَّوْثٌ^(٥) عَنِّي شِرَّةٌ^(٦) وَأَدَا مِنْ بَعْدِ مَا كُنْتُ صُمْلًا^(٧) جَلْدًا^(٨)
انتهى كلامه. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: «أَدَا» بفتح الهمزة^(٩). النحاس^(١٠):
يُقال: أَدَّ يُوْدُّ أَدًا فهو آدٌ، والاسم الإْدُّ؛ إذا جاء بشيءٍ عظيمٍ منكر. وقال الراجز:

(١) في إعراب القرآن ٢٨/٣.

(٢) النكت والعيون ٣/٣٩٠، وأخرجه الطبري ١٥/٦٣٥ - ٦٣٦ عن قتادة.

(٣) في الصحاح (أدد).

(٤) في (د) و(م): والإدُّ أيضاً الشدة، والآدُّ الغلبة والقوة.

(٥) في (د) و(م): نَضَوْن. ونضا: خلع. الصحاح (نضا).

(٦) في (م): شدة. والشرة: مصدر الشر. الصحاح (شر).

(٧) أي: شديد الخلق. الصحاح (صمل).

(٨) أي: صلباً. الصحاح (جلد). وفي الصحاح: نهذاً، بدل: جلدًا، والثَّهْدُ: أقوى القوم. تاج العروس (نهذ).

(٩) المحتسب ٢/٤٥، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٨٦ ونسبها إلى علي عليه السلام.

(١٠) في إعراب القرآن ٢٨/٣.

قَدْ لَقِيَ الْأَقْرَانُ مِنِّي نُكْرًا دَاهِيَةً دَهِيَاءَ إِذَا إِنَّمَا
عن غير النحاس، الشعلي: وفيه ثلاث لغات «إِذَا» بالكسر، وهي قراءة العامة،
و«أَذَا» بالفتح، وهي قراءة السُّلَمي، و«آذ» مثل مادّ، وهي لغة لبعض العرب^(١)،
رويت عن ابن عباس وأبي العالية، وكأنها مأخوذة من الثَّقَل، آذَه الحملُ يؤوده أَوْدًا:
أثقله.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ قراءة العامة هنا وفي «الشورى» بالتاء، وقراءة
نافع ويحيى والكسائي: «يكاد» بالياء^(٢)؛ لتقدّم الفعل^(٣). ﴿يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ﴾ أي:
يتشققن^(٤). وقرأ نافع وابن كثير وحفص وغيرهم بتاء بعد الياء وشدّ الطّاء من التفطير
هنا وفي «الشورى»، ووافقهم حمزة وابن عامر في «الشورى». وقرأ هنا: «يَنْفَطِرْنَ»
من الانفطار، وكذلك قرأها أبو عمرو وأبو بكر والمفضل في السورتين^(٥). وهي
اختيار أبي عبيد^(٦)؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وقوله: ﴿السَّمَاءُ
مُنْفَطِرَةٌ بِرَبِّكَ﴾^(٧) [المزمل: ١٨]. وقوله: ﴿وَتَنَشَقُّ الْأَرْضُ﴾ أي: تنصدّع. ﴿وَيَخْرُجُ الْجِبَالُ
هَدًّا﴾ قال ابن عباس: هدمًا^(٨)؛ أي: تسقط بصوتٍ شديد.

وفي الحديث: «اللهم إني أعوذُ بك من الهدّ والهدّة». قال شَمِر: قال أحمد بن
غياث المَرَوَزي: الهدّ: الهدم، والهدّة: الخسوف. وقال الليث: هو الهدم الشديد،
كحائط يهدّ بمرّة؛ يقال: هدّني الأمرُ وهدّ ركني، أي: كسرني وبلغ مني. قاله

(١) قال نحوه الطبري في تفسيره ٦٣٦/١٥ - ٦٣٧، والرجز سلف ص ٣٢٩ من هذا الجزء.

(٢) السبعة ص ٤١٣، والتيسير ص ١٥٠ عن نافع والكسائي.

(٣) تفسير أبي الليث ٣٣٤/٢، وتفسير البغوي ٢٠٩/٣.

(٤) مجاز القرآن ١٢/٢، وتفسير الطبري ٦٣٧/١٥.

(٥) السبعة ص ٤١٣، والتيسير ص ١٥٠ عنهم دون ذكر المفضل.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢٩/٣.

(٧) تفسير البغوي ٢٠٩/٣.

(٨) أخرجه الطبري ٦٣٩/١٥.

الهروي^(١). الجوهري^(٢): وهَذَا الْبِنَاءُ يَهْدُهُ هَذَا: كَسَرَهُ وَضَغَضَعَهُ، وَهَذَتْهُ الْمَصِيبَةُ، أَي: أَوْهَنْتْ رُكْنَهُ، وَانْهَدَّ الْجَبَلُ: انْكَسَرَ. الْأَصْمَعِيُّ: وَالْهَدُّ: الرَّجُلُ الضَّعِيفُ؛ يَقُولُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَوْعَدَهُ: إِنِّي لَغَيْرُ هَذَا، أَي: غَيْرُ ضَعِيفٍ. وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: الْهَدُّ مِنَ الرِّجَالِ: الْجَوَادُ الْكَرِيمُ، وَأَمَّا الْجَبَانُ الضَّعِيفُ: فَهُوَ الْهَدُّ بِالْكَسْرِ، وَأُنْشِدُ:

لَيْسُوا بِهَدِيَّينَ فِي الْحُرُوبِ إِذَا تَغَقَّدَ فَوْقَ الْحَرَاقِفِ النَّطْقُ^(٣)

وَالْهَدَّةُ: صَوْتُ وَقَعَ الْحَائِطُ وَنَحْوَهُ، وَتَقُولُ مِنْهُ: هَذَا يَهْدُّ - بِالْكَسْرِ - هَدِيدًا. وَالْهَادُّ: صَوْتُ يَسْمَعُهُ أَهْلُ السَّاحِلِ، يَأْتِيهِمْ مِنْ قِبَلِ الْبَحْرِ لَهُ دَوِيٌّ فِي الْأَرْضِ، وَرَبَّمَا كَانَتْ مِنْهُ الزَّلْزَلَةُ، وَدَوِيُّهُ هَدِيدُهُ.

النحاس^(٤): «هَذَا» مصدر؛ لِأَنَّ مَعْنَى «تَخَرُّ» تَهْدُّ. وَقَالَ غَيْرُهُ: حَالٌ^(٥)، أَي: مَهْدُودَةٌ^(٦). ﴿أَنْ دَعَا لِلزَّمَنِ وَلَكَ﴾ «أَنْ» فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ عِنْدَ الْفَرَاءِ، بِمَعْنَى: لِأَنَّ دَعَا وَمَنْ أَنْ دَعَا، فَمَوْضِعٌ «أَنْ» نَصَبٌ بِسُقُوطِ الْخَافِضِ. وَزَعَمَ الْفَرَاءُ أَنَّ الْكَسَائِيَّ قَالَ: هِيَ فِي مَوْضِعٍ خَفَضَ بِتَقْدِيرِ الْخَافِضِ^(٧). وَذَكَرَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: حَدَّثَنَا مُسْعَرٌ، عَنْ وَاصِلٍ، عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ الْجَبَلَ لَيَقُولُ لِلْجَبَلِ: يَا فُلَانُ، هَلْ مَرَّ بِكَ الْيَوْمَ ذَاكِرٌ لِلَّهِ؟ فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، سُرَّ بِهِ. ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: ﴿وَقَالُوا أَتُخَذُ الرَّحْمَنُ وَلَكَ﴾ الْآيَةُ، قَالَ: أَفْتَرَاهُنَّ يَسْمَعْنَ الزُّورَ وَلَا يَسْمَعْنَ الْخَيْرَ؟!^(٨). قَالَ:

(١) وقاله الأزهرى في تهذيب اللغة ٣٥٣/٥ .

(٢) في الصحاح (هدد).

(٣) الحراقف، جمع حُرْقُفَة: وهي رأس الورك. والنطق، جمع نطق: وهو ما يُشَدُّ به الوسط. تهذيب اللغة ٣٠٠/٥ ، والصحاح (نطق).

(٤) في إعراب القرآن ٢٩/٣ .

(٥) إملاء ما من به الرحمن على هامش الفتوحات الإلهية ٥٦٨/٣ .

(٦) تفسير الرازي ٢٥٤/٢١ .

(٧) معاني القرآن للفراء ١٧٢/٢ .

(٨) الزهد لابن المبارك (٣٣٣). عون بن عبد الله لم يسمع من عبد الله بن مسعود. تهذيب التهذيب ٣٣٨/٣ .

وحدَّثني عوف، عن غالب بن عَجْرَد قال: حَدَّثني رجلٌ من أهل الشام في مسجد مني، قال: إِنَّ اللهَ تعالى لَمَّا خَلَقَ الأرضَ وَخَلَقَ ما فيها من الشجر، لم تَكُ في الأرض شجرةٌ يَأْتِيها بنو آدمَ إلا أَصابوا منها منفعةً، وكان لهم منها منفعةٌ، فلم تزل الأرضُ والشجرُ كذلك حتى تَكَلَّم فَجَرَةُ بني آدمَ تلكَ الكلمةَ العظيمةَ، قولهم: اتَّخَذَ الرحمنُ ولدًا، فلما قالوها اقشعرتِ الأرضُ وشاكَ الشجرُ^(١).

وقال ابن عباس: اقشعرتِ الجبالُ وما فيها من الأشجار، والبحارُ وما فيها من الحيتان، فصار من ذلك الشوكُ في الحيتان، وفي الأشجار الشوك.

وقال ابن عباس أيضاً وكعب: فزعتِ السماواتُ والأرضُ والجبالُ وجميع المخلوقات إلا الثقلين، وكادت أن تزول، وغضبتِ الملائكةُ فاستعرتُ جهنمُ، وشاكَ الشجر، واكفهرتِ الأرضُ وَجَدَبَتْ^(٢) حين قالوا: اتَّخَذَ اللهُ ولدًا. وقال محمد بن كعب: لقد كاد أعداءُ الله أن يقيموا علينا الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ قال ابن العربي^(٣): وصدق، فإنه قولٌ عظيمٌ سبق به القضاء والقدر، ولولا أن الباري تبارك وتعالى لا يَضَعُهُ كُفْرُ الكافر، ولا يرفعُهُ إيمانُ المؤمن، ولا يزيدُ هذا في ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه، لما جرى شيءٌ من هذا على الألسنة، ولكنه القدوس الحكيم الحليم، فلم يُيالَ بعد ذلك بما يقوله المبطلون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ نفى عن نفسه سبحانه

(١) الزهد لابن المبارك (٣٣٧). غالب بن عجرد فيه جهالة، روى عنه اثنان فيما ذكر البخاري في التاريخ الكبير ١٠٠/٧، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٤٧/٧. وذكره ابن حبان في الثقات ٢٩٠/٥ على عادته في توثيق المجاهيل.

(٢) تفسير البغوي ٣/٢١٠ دون قوله: وشاك الشجر، واكفهرت الأرض وجدبت.

(٣) في أحكام القرآن له ٣/١٢٤١.

وتعالى الولد؛ لأنَّ الولد يقتضي الجنسية والحدوث على ما بيَّناه في «البقرة»^(١) أي: لا يليق به ذلك ولا يوصفُ به ولا يجوز في حقه^(٢)؛ لأنه لا يكون ولدًا إلا من والدٍ، يكون له والدٌ وأصل، والله سبحانه يتعالى عن ذلك ويتقدَّس. قال:

فِي رَأْسِ خَلْقَاءَ مِنْ عَنَقَاءَ مُشْرِفَةٍ مَا يَنْبَغِي دُونَهَا سَهْلٌ وَلَا جَبَلٌ^(٣)
 ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ «إن» نافية بمعنى ما^(٤)،
 أي: ما كلُّ من في السماوات والأرض إلا وهو يأتي يوم القيامة مُقِرًّا له بالعبودية،
 خاضعاً ذليلاً كما قال: ﴿وَكُلُّ أَتَوْهُ ذَخِيرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] أي: صاغرين أذلاء، أي:
 الخلق كلُّهم عبيده، فكيف يكون واحدٌ منهم ولدًا له عزَّ وجلَّ، تعالى عما يقول
 الظالمون والجاحدون علوًّا كبيراً.

و«آتى» بالياء في الخطِّ، والأصل التنوين، فحُذِفَ استخفافاً وأُضِيفَ^(٥).

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على أنه لا يجوز أن يكون الولدُ مملوكاً للوالد، خلافاً
 لمن قال: إنه يشتريه فيملكه ولا يعتقُ عليه إلا إذا أعتقه. وقد أبان الله تعالى المنافاة
 بين الأولاد والملك^(٦)، فإذا ملكَ الوالدُ ولدَه بنوعٍ من التصرفات عتقَ عليه. ووجه
 الدليل عليه من هذه الآية أنَّ الله تعالى جعل الولدية والعبدية في طرفي تقابل، فنفي
 أحدهما وأثبت الآخر، ولو اجتمعا لما كان لهذا القول فائدةٌ يقع الاحتجاجُ بها. وفي
 الحديث الصحيح: «لا يَجْزِي ولدٌ والدًا إلا أن يَجِدَه مملوكاً فيشترِيه فيعتقه» خرَّجه
 مسلم^(٧). فإذا لم يملك الأبُ ابنَه مع مرتبته عليه، فالابنُ بعدم ملك الأبِ أولى؛

(١) ٣٣/٢.

(٢) تفسير البغوي ٢١٠/٣.

(٣) قائله عمرو بن أحمر، وهو في كتاب الحيوان ٣٠٤/٢. والخلفاء: الصخرة الملساء. والعنقاء: أكمة في جبل مشرف. تهذيب اللغة ٢٩/٧ و ٢٥٤/١.

(٤) المحرر الوجيز ٣٤/٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢٩/٣.

(٦) أحكام القرآن للكنيا الطبري ٢٧١/٣.

(٧) برقم (١٥١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وأخرجه أحمد (٧١٤٣).

لقصوره عنه^(١).

الثالثة: ذهب إسحاق بن راهويه في تأويل قوله عليه الصلاة والسلام: «من أعتق شريكاً له في عبد»^(٢) أن المراد به ذكور العبيد دون إناثهم، فلا يكمل على من أعتق شريكاً في أنثى، وهو على خلاف ما ذهب إليه الجمهور من السلف ومن بعدهم، فإنهم لم يفرقوا بين الذكر والأنثى؛ لأن لفظ العبد يُراد به الجنس، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِلَيْنَا الرَّحْمَنُ عَبْدًا﴾ فإنه قد يتناول الذكر والأنثى من العبد قطعاً. وتمسك إسحاق بأنه قد حكي عبدة في المؤنث^(٣).

الرابعة: روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه: ليس يُعيدني كما بداني، وليس أولُ الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن لي كفواً أحد»^(٤) وقد تقدّم في «البقرة»^(٥) وغيرها، وإعادته في مثل هذا الموضع حسنٌ جداً.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُ﴾ أي: عليم عددهم ﴿وَعَدَّاهُمْ عَدًّا﴾ تأكيد، أي: فلا يخفى عليه أحد منهم^(٦).

قلت: ووقع لنا في أسمائه سبحانه المحصي؛ أعني في السُّنة من حديث أبي هريرة. خرّجه الترمذي^(٧)، واشتقاق هذا الفعل يدلُّ عليه. وقال الأستاذ أبو إسحاق

(١) من قوله: ووجه الدليل إلى هذا الموضع من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤١ - ١٢٤٢.

(٢) سلف ٦/ ٢٤١.

(٣) المفهم ٤/ ٣١١.

(٤) صحيح البخاري (٤٤٨٢).

(٥) ٢/ ٣٣٣.

(٦) الوسيط ٣/ ١٩٧.

(٧) برقم (٣٥٠٧)، وقد سلف الكلام عليه ٩/ ٣٩١.

الإسفراييني: ومنها المُحصي، ويختصُّ بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم، مثل ضوء النور، واشتداد الريح، وتساقط الأوراق، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة، فكيف لا يعلم، وهو الذي يخلق، وقد قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١) [الملك: ١٤]. ووقع في تفسير ابن عباس أنَّ معنى ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ يريد أفرؤا له بالعبودية، وشهدوا له بالربوبية.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ أي: واحداً لا ناصر له ولا مال معه ينفعه^(٢)، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩] فلا ينفعه إلا ما قدَّم من عمل، وقال: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ﴾ على لفظ كل، وعلى المعنى: آتوه. قال القشيري: وفيه إشارة إلى أنَّكم لا ترضون لأنفسكم باستعباد أولادكم والكلُّ عبيده، فكيف رضيتم له ما لا ترضون لأنفسكم؟! وقد ردَّ عليهم في مثل هذا، في أنهم لا يرضون لأنفسهم بالبنات، ويقولون: الملائكة بناتُ الله - تعالى الله عن ذلك - وقولهم: الأصنامُ بناتُ الله. وقال: ﴿فَمَا كَانَتْ إِشْرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(٣) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: صدَّقوا. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ أي: حُبًّا في قلوب عباده^(٤). كما رواه الترمذي من حديث أبي هريرة^(٤)، أنَّ النبي ﷺ قال: «إذا أحبَّ الله عبداً نادى جبريلُ إني قد أحببتُ فلاناً فأجبه - قال - فينادي في السماء، ثم تنزل له المحبةُ في أهل الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ وإذا أبغضَ الله عبداً نادى

(١) وقد ذكر المصنف هذا الكلام في كتابه الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ص ٢٦٨ .

(٢) الوسيط ١٩٧/٣ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/٣٤٦ .

(٤) في (د) و(م): سعد وأبي هريرة.

جبريلَ إني أبغضتُ فلاناً، فينادي في السماء، ثم تنزل له البغضاء في الأرض» قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح^(١). وخرَّجه البخاري ومسلم بمعناه، ومالك في الموطأ^(٢). وفي «نوادر الأصول»: وحدَّثنا أبو بكر بن سابق الأموي قال: حدَّثنا أبو مالك الجنبي، عن جُوَيْر، عن الضَّحَّاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَعْطَى الْمُؤْمِنَ الْمِقَّةَ^(٣) وَالْمَلَاةَ وَالْمَحَبَّةَ فِي صَدُورِ الصَّالِحِينَ وَالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ» ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(٤). واختلفَ فيمن نزلت؛ فقيل: في عليٍّ ؑ؛ روى البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ بن أبي طالب: «قُلْ يَا عَلِي: اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي عِنْدَكَ عَهْدًا، واجْعَلْ لِي فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مَوَدَّةً» فنزلت الآية. ذكره الثعلبي^(٥). وقال ابن عباس: نزلت في عبد الرحمن بن عوف؛ جعل الله تعالى له في قلوب العباد مودةً، لا يلقاه مؤمنٌ إلَّا وقره، ولا مشركٌ ولا منافقٌ إلَّا عظمه. وكان هرْمُ بْنُ حَيَّانَ يقول: ما أقبلَ أحدٌ بقلبه على الله تعالى إلَّا أقبلَ الله تعالى بقلوب أهل الإيمان إليه، حتى يرزقه مودَّتْهم ورحمتَهم^(٦). وقيل: يجعل الله تعالى لهم مودةً في قلوب المؤمنين والملائكة يوم القيامة^(٧).

قلتُ: إذا كان محبوباً في الدنيا فهو كذلك في الآخرة؛ فإنَّ الله تعالى لا يحبُّ إلَّا مؤمناً تقيّاً، ولا يرضى إلَّا خالصاً نقيّاً، جعلنا الله تعالى منهم بَمنَّةً وكرمه. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأُحِبُّهُ، فَيُحِبُّهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ ينادي في السماء

(١) سنن الترمذي (٣١٦١).

(٢) صحيح البخاري (٧٤٨٥)، وصحيح مسلم (٢٦٣٧)، والموطأ ٩٥٣/٢. وأخرجه أحمد (٧٦٢٥).

(٣) في (د) و(م): الألفة. والمِقَّةُ: المحبة. الصحاح (ومق).

(٤) نوادر الأصول ص ٣٧٣، وضعفه السيوطي في الدر المنثور ٢٨٧/٤.

(٥) وذكره الديلمي في الفردوس (١٩٣٢) من غير ذكر سبب النزول.

(٦) الوسيط ٣/١٩٧، وتفسير البغوي ٣/٢١٠.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/١٧٤.

فيقول: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَجِبْهُ، فَيُجِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ - قال - ثم يَوْضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ: إِنِّي أَبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، فَيُبْغِضُهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يَنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ - قال - فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تَوْضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ^(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: القرآن، يعني: بيَّناه بلسانك العربي، وجعلناه سهلاً على من تدبره وتأمله. وقيل: أنزلناه عليك بلسان العرب ليسهل عليهم فهمه.

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ اللد جمع الألد: وهو الشديدُ الخصومة^(٢)، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] وقال الشاعر:

أَبَيْتُ نَجِيًّا لِلْهَمُومِ كَأَنِّي أَخَاصِمُ أَقْوَاماً ذَوِي جَدَلٍ لَّدَا

وقال أبو عبيدة^(٣): الألد: الذي لا يقبل الحقَّ ويدَّعي الباطل. الحسن: اللدُّ: الصُّمُّ عن الحق^(٤). قال الربيع: صُمُّ أَذَانِ الْقُلُوبِ. مجاهد: فُجَّاراً^(٥). الضحَّاك: مجادلين في الباطل^(٦). ابن عباس: شداداً في الخصومة^(٧). وقيل: الظالم الذي لا يستقيم^(٨). والمعنى واحد، وَخُصُّوا بِالْإِنْذَارِ؛ لِأَنَّ الَّذِي لَا عِنَادَ عِنْدَهُ يَسْهَلُ انْقِيَادُهُ.

(١) مسلم (٢٦٣٧) (١٣٧). وقد ساقه المصنف آنفاً بلفظ الترمذي.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/٣٤٧.

(٣) في مجاز القرآن ١٣/٢.

(٤) تفسير البغوي ٣/٢١٠.

(٥) النكت والعيون ٣/٣٩١.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/٣٩١، والواحد في الوسيط ٣/١٩٨ عن قتادة.

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٣/٢١٠ من غير نسبة.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/٣٦٦ عن مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَفْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَفْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: من أمة وجماعة من الناس؛ يخوف أهل مكة. ﴿هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ في موضع نصب^(١)، أي: هل ترى منهم أحداً أو تجد. ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي: صوتاً. عن ابن عباس وغيره^(٢)، أي: قد ماتوا وحصلوا على أعمالهم^(٣). وقيل: حساً. قاله ابن زيد. وقيل: الرّكز: ما لا يفهم من صوت أو حركة. قاله اليزيدي^(٤) وأبو عبيدة؛ كركز الكتبة، وأنشد أبو عبيدة بيت لبيد:

وَتَوَجَّسْتُ رِكْزَ الْأَنْبِيسِ فَرَاغَهَا
عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ وَالْأَنْبِيسُ سَقَامُهَا^(٥)
وقيل: الصوت الخفي، ومنه ركز الرّمح إذا غيّب طرفه في الأرض^(٦). وقال
طرفة:

وَصَادِقَتَا سَمْعِ التَّوَجُّسِ لِلْسُرَى
لِرِكْزِ خَفِيٍّ أَوْ لِصَوْتِ مُنْدَدٍ^(٧)
وقال ذو الرّمة يصف ثوراً تسمع إلى صوت صائد وكلاب:
إِذَا تَوَجَّسَ رِكْزاً مُقْفِرٌ نَدِسٌ
بِنِبَاءِ الصَّوْتِ مَا فِي سَمْعِهِ كَذِبٌ^(٨)

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣٠/٣.

(٢) معاني القرآن للفراء ١٧٤/٢، والنكت والعيون ٣٩١/٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣٠/٣.

(٤) فيما نقله الماوردي في النكت والعيون ٣٩١/٣.

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١٤/٢، والبيت في ديوان لبيد ص ١٧٣، ووقع فيه: «رّزاً» بدل «ركز». التوجّس: التسمع إلى الصوت الخفي. الصحاح (سقم).

(٦) الكشف ٥٢٧/٢، وتفسير الرازي ٢٥٦/٢١.

(٧) ديوان طرفة ص ٢٧. السرى: سير الليل. والمندد: الصوت المبالغ في النداء. اللسان (سرى) و(ندد).

(٨) الديوان ٨٩/١.

أي: ما في استماعه كذب؛ أي: هو صادق الاستماع. والنَّدِس: الحاذق؛
يقال: نَدِسٌ ونَدُسٌ، كما يقال: حَذِرٌ وحَذُرٌ، وَيَقْظُ وَيَقُظُ. والنبأة: الصوت الخفي،
وكذلك الرُّكْز، والرُّكاز: المال المدفون. والله تعالى أعلم بالصواب.

تم الجزء الثالث عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء الرابع عشر، ويبدأ بسورة طه

فهرس الجزء الثالث عشر

- ٥ - قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا...﴾ [١]
- ١٦ - قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا نَنْجِيهِمْ مِنَ دُونِ وَصِيلَةٍ...﴾ [٢]
- ١٧ - قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عِبَادًا شَاكِرِينَ﴾ [٣]
- ١٩ - قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [٤]
- ٢٠ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدِينَ...﴾ [٥]
- ٢٣ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَوْثَرَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ...﴾ [٦-٧]
- ٣٢ - قوله تعالى: ﴿عَسَى زُكُوفُ أَنْ يَرْجِعَكُمُ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدَّا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [٨]
- ٣٤ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقَوْمَ يَهْدِي إِلَيْنَا مِنْ أَوَّلِهِمْ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [٩-١١]
- ٣٧ - قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَحَوَّاهُ آيَةَ اللَّيْلِ...﴾ [١٢]
- ٣٩ - قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْشَاءٍ أَرْسَنَهُ مَلَكُهُمْ فِي عُرُوقِهِمْ وَمِنْهُمُ الَّذِي خَرَجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [١٣-١٤]
- ٤١ - قوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَى فَأَنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا...﴾ [١٥]
- ٤١ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَوْ نُهْلِكَ قَوْمًا مَقَرَّهَا مُتَمَرِّضِينَ فِيهَا فَنَفْسُهَا فِيهَا فَهِيَ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [١٦]
- ٤٨ - قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [١٧-١٩]
- ٤٩ - قوله تعالى: ﴿كَلَّا نُمِدُّ هُنُوْلَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ عِطْلِهِ رِيًّا...﴾ [٢٠-٢٢]
- ٥٠ - قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْ رِيًّا إِلَّا تَتَّبِعُوا إِلَّا يَأْتِيَهُمُ الرَّاغِبِينَ إِسْتَسْنَأُوا...﴾ [٢٣-٢٤]
- ٦٣ - قوله تعالى: ﴿زُرُّكُمْ أَتَعْلَمُونَ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ عَقُورًا﴾ [٢٥]
- ٦٤ - قوله تعالى: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَيْنِ حَقًّا وَالْيَاسِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْزُرُ بَيْدَرًا﴾ [٢٦-٢٧]
- ٦٥ - قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا نُرْصِصْ عَنْهُمْ أَيْنَاءَهُمْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجِعُهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ [٢٨]
- ٦٧ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [٢٩]
- ٦٩ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُمْ كَانُوا بِبَادِيِهِمْ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [٣٠-٣١]
- ٧٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُمْ كَانُوا فَجُوسًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [٣٢-٣٣]
- ٧٣ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ...﴾ [٣٤]
- ٧٦ - قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقَنْطَارِيسِ الَّتِي تَعْتَمِدُ...﴾ [٣٥]
- ٧٧ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [٣٦]
- ٨١ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسُوا فِي الْأَرْضِ مَسْرًا﴾ [٣٧-٣٨]
- ٨٦ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنَحْلِهِمْ يَدْعُونَ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ آبَائِهِمْ مَخْرَجًا فَلْتَلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْمُورًا﴾ [٣٩-٤٠]

- ٨٧ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلذِّكْرِ وَمَا يَرْبِدُ إِلَّا نَذْرًا﴾ [٤١]
- ٨٨ - قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ عَالِمَةٌ مَّا يَكُولُونَ إِذَا لَا يَنْفَعُوا إِلَيَّ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [٤٢-٤٣]
- ٨٩ - قوله تعالى: ﴿تَسْجُدَ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ...﴾ [٤٤]
- ٩٢ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ الْآخِرَةَ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [٤٥]
- ٩٥ - قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا...﴾ [٤٦]
- ٩٥ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَغْلَى أَعْيُنًا يَسْمَعُونَ بِهِ إِذْ يَسْمَعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [٤٧]
- ٩٨ - قوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [٤٨-٤٩]
- ٩٨ - قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ [٥٠-٥١]
- ٩٩ - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَسْرَةٍ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٥٢]
- ١٠١ - قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِيَعْبُدِيَ يَقُولُوا أَلَيْسَ مِنْ أَحْسَنَ...﴾ [٥٣]
- ١٠٣ - قوله تعالى: ﴿وَذِكْرُ آخِرٍ بِكُمْ إِنْ يَسَأَ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنْ يَسَأَ يُعَذِّبَكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا...﴾ [٥٤]
- ١٠٥ - قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ آخِرُ بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ...﴾ [٥٥-٥٦]
- ١٠٦ - قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَهَ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ...﴾ [٥٧]
- ١٠٦ - قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ إِلَّا تَعْنُ مَهْلِكُهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْسَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [٥٨]
- ١٠٨ - قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ...﴾ [٥٩]
- ١٠٩ - قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحْكَمُ مُنْتَابِ...﴾ [٦٠]
- ١١٥ - قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ...﴾ [٦١-٦٢]
- ١١٧ - قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ...﴾ [٦٣]
- ١١٨ - قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفِيزُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْنِكَ وَأَتْلِبَ عَلَيْهِمْ بِحَبْلِكَ...﴾ [٦٤]
- ١٢١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [٦٥-٦٦]
- ١٢٢ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُنا...﴾ [٦٧]
- ١٢٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَفَأَنْتُمْ أَنْ يَخِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ [٦٨]
- ١٢٤ - قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُبْعِدَكُمْ فِيهِ نَارُ أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِنْ الرِّيحِ فَيُغَرِّقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [٦٩]
- ١٢٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ رِزْقَهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْصِيلًا﴾ [٧٠]
- ١٢٩ - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ فَمَنْ أُوْفَىٰ كِتَابُهُ يَتَّبِعْنَاهُ فَاُولَئِكَ يَفْرَحُونَ كِتَابُهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ قَوْلًا...﴾ [٧١-٧٢]
- ١٢٩ - قوله تعالى: ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الذِّمَّةِ أَوْ حِمَاً إِلَيْكَ لِنَفَرٍ عَلَيْنَا عَيْدُهُ إِذَا تَأَخَّذُوكَ حَلِيلًا﴾ [٧٣]

- قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن تَبْتَئَكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرَكُنَّ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [٧٥-٧٤]

قوله تعالى: ﴿وَلَا كَذِبُوا لَسْتَغْفِرَنَّكَ مِنْ الْأَرْضِ لِيُخْرِجَكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُوكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٧٦]

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [٧٧]

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّذُلَ الْفَتِيرَ إِلَى عَسَى الْأَيْلِ وَقُرْمَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْمَانَ الْفَجْرِ كَانَتْ مَشْهُودًا﴾ [٧٨]

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَلَيْلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [٧٩]

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّي آتَانِي مَذَلًا مِنْ دُونِ الَّذِي آتَانِي وَآخِرُ حَيْثُ فَتَنِي مِنْهُ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا أُفْعَلُ﴾ [٨٠]

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [٨١]

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [٨٢]

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَقْبَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَغْرَهِ وَكُنَّا بِعَيْنَيْهِ وَإِذَا سَأَلَكَ عَنْ الْفَلَكِ الْفَتْرَ فَقُلْ إِنَّهُ يَسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ عَظِيمٍ﴾ [٨٣]

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَنُكْحِمُ أَعْمَلُ مِنْهُ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُ﴾ [٨٤]

قوله تعالى: ﴿وَسْتَعِظُوا عَلَى الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْغُلِيِّ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٨٥] ..

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [٨٦-٨٧]

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِي أَجْتَمِعَ الْإِنْسَانَ وَالْجِنَّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [٨٨-٨٩]

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْفِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ بِأُتُوعًا﴾ [٩٠-٩٣]

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [٩٤] ..

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مُلْكًا لَمَنْعَكُمْ بِشْرُوتَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [٩٥-٩٧]

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِعَاقِبَتِنَا وَقَالُوا أَوْفَا كُنَّا عِظَمًا وَفُتْنَا أَوْفَا لِمَعْبُودُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [٩٨-١٠٠]

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى إِسْحَاقَ مَا يَنْتَظِرُ فَتَسَلَّ بِنِي إِسْرَافِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَكُونُ مَشْهُورًا﴾ [١٠١]

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَزَلَّ هَؤُلَاءُ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ إِلَيَّ لِأُظْهِرَ لِيَفْرَعُونَ مَشْهُورًا﴾ [١٠٢]

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَ مِنْ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ [١٠٣-١٠٤]

قوله تعالى: ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [١٠٥-١٠٦]

قوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُشْلَىٰ عَنْهُمْ يُجْرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا سَجْدًا﴾ [١٠٧]

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [١٠٨-١٠٩]

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِهَذَا وَلَا تَكْفُرُوا بِهِ وَلَا تُقَالُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا قُلُوبُهُمْ مُغْشَوَةٌ بِمَا عَصَوْا قُلُوبَهُمْ فَكَانُوا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [١١٠-١١١]

- ١٩١ ﴿... ذَلِكَ سَبِيلًا...﴾ [١١٠]
 - قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ
 ١٩٤ الدُّلِّ وَكَوْنُهُ تَكْوِيلًا﴾ [١١١]
 ١٩٧ تفسير سورة الكهف
 - قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِجَابًا﴾ [١-٣]
 ١٩٨ قوله تعالى: ﴿وَنَذِيرٌ لِلَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [٤-٥]
 ٢٠٦ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَبِهَاجٌ تَقَفَّ عَلَيْهِمَا فَقَرَّبَهُمَا فَقَالَ: إِنَّمَا اتَّخَذْتُمَا بَهْزَامًا يَهْزَأُ بِكُمَا هَذَا الْحَدِيثُ أَتَقَارِبُونَ...﴾ [٦-٧]
 ٢٠٧ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُثًا﴾ [٨-٩]
 ٢١٠ قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا
 ٢١٤ رَشَدًا﴾ [١٠]
 ٢٢٠ قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [١١]
 ٢٢١ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَاهُمُ لَنِغْلٍ ثَمَنِ لَّيْلٍ لَّعَلَّ لِبَاسَهُمْ آخِصٌ لِّمَا كَانُوا آتِينَ﴾ [١٢]
 ٢٢٢ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [١٣] ..
 - قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ
 ٢٢٣ إِلَهًا لَّهَذَا قَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [١٤]
 ٢٢٥ قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً...﴾ [١٥-١٦]
 - قوله تعالى: ﴿وَرَبِّ السَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّرٌ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتُ
 ٢٢٦ الْيَسَارِ...﴾ [١٧-١٨]
 ٢٣٥ قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴿١٩-٢٠﴾
 ٢٤٠ قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَنْتِيهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ...﴾ [٢١]
 ٢٤٦ قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْنَاهُمْ كَلْبُهُمْ يَقُولُونَ حَمْسَةً سَادِسْتُهُمْ كَلْبُهُمْ...﴾ [٢٢]
 ٢٤٩ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [٢٣-٢٤]
 ٢٥٢ قوله تعالى: ﴿وَلِيُتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [٢٥]
 ٢٥٣ قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيُتُوا لَمْ يَغَيِّبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ...﴾ [٢٦] ..
 ٢٥٥ قوله تعالى: ﴿وَأَكَلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ...﴾ [٢٧]
 ٢٥٧ قوله تعالى: ﴿وَأَمِيرٌ فَتَقَالَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْفَيْحِ...﴾ [٢٨]
 ٢٦٠ قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...﴾ [٢٩]
 - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [٣٠-٣١]
 ٢٦٤ قوله تعالى: ﴿وَأَمَرْتُ لَمْ تَمَلَّا تَجْلِي جَعَلْنَا لَأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا
 ٢٦٩ زُرْعًا﴾ [٣٢-٣٤]
 ٢٧٦ قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُمْ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ [٣٥-٣٦]
 - قوله تعالى: ﴿قَالَ لَمْ صَاحِبُهُمْ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَ مِنْ تُرَابٍ نَّمٍ مِنْ تُطَعْرِ ثُمَّ سَوَّكَ
 ٢٧٧ رَجُلًا﴾ [٣٧-٣٨]

- قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلَ مِنْكَ مَالًا
وَلَوْلَا...﴾ [٣٩-٤١] ٢٨٠
- قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْبَلُ كَلِمَتَهُ عَلَىٰ مَا اتَّفَقَ فِيهَا وَهُوَ خَائِفُهُ عَلَىٰ عُرُوشِهِ وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي
لَمْ أُثْرِكْ بِرَبِّكَ لَمَّا...﴾ [٤٢] ٢٨٥
- قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ يَفْتَهُ يَصْرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ [٤٣] ٢٨٦
- قوله تعالى: ﴿هَٰذَاكَ الْوَلِيُّ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [٤٤] ٢٨٧
- قوله تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَكُم مَّثَلًا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ
هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ...﴾ [٤٥] ٢٨٨
- قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾
[٤٦] ٢٩٤
- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَسُفُ السَّيِّئَاتِ الَّتِي بَارَزَ وَحَشَرْنَهُمْ فَلَمْ تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَسَدًا﴾ [٤٧] ٢٩٤
- قوله تعالى: ﴿وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُو أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُم
مَّوَدًّا﴾ [٤٨] ٢٩٦
- قوله تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَىٰ الْمُعْجِرِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُبَوِّكُنَا مَالٌ هَٰذَا الْكِتَابُ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا...﴾ [٤٩] ٢٩٧
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ
رَبِّهِ...﴾ [٥٠] ٢٩٩
- قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ...﴾ [٥١-٥٣] ٣٠٤
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ...﴾ [٥٤-٥٩] ٣٠٩
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَتْلِهِ لَا أَتَّبِعُ حَتَّىٰ أَتْلُعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾
[٦٠] ٣١٥
- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَبَسَا حَتَّىٰ خَافَا فَاَتَخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا...﴾ [٦١-٦٥] ... ٣١٩
- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَمْ مَوْسَىٰ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلِمَ مِمَّا عَلِمْتَ رُسُلًا...﴾ [٦٦-٧٠] ٣٢٥
- قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَا لِتَفْرُقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا
إِمْرًا...﴾ [٧١-٧٣] ٣٢٧
- قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ...﴾ [٧٤-٧٦] ٣٢٩
- قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَظْهَمَ أَهْلُهَا...﴾ [٧٧-٧٨] ٣٣٤
- قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا...﴾ [٧٩-٨٢] ٣٤٨
- قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْيَتَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا...﴾ [٨٣-٩١] ٣٦٤
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْبِئْ سَبِيحًا...﴾ [٩٢-٩٨] ٣٧٧
- قوله تعالى: ﴿وَرَكِبْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجَ فِي بَعْضٍ...﴾ [٩٩-١١٠] ٣٩١
- تفسير سورة مريم
- قوله تعالى: ﴿كَهَيِّصَ...﴾ [١-١٥] ٤٠٤
- قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا...﴾ [١٦-٢٦] ٤٢٧

- قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ قُرْمَهَا فَنَحْمِلُهُمْ قَالُوا يَسِّرُهُ لَكَ جَنَّتْ شَيْئًا قَرِينًا...﴾ [٢٧-٢٨] ٤٤٠
- قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تُنَكِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا...﴾ [٢٩-٣٣] ٤٤٤
- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ...﴾ [٣٤-٤٠] ٤٤٩
- قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا...﴾ [٤١-٥٠] ٤٥٦
- قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِذْ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا...﴾ [٥١-٥٣] ٤٦١
- قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِذْ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا...﴾ [٥٤-٥٥] ٤٦٢
- قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا...﴾ [٥٦-٥٧] ٤٦٦
- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ [٥٨] ٤٧٠
- قوله تعالى: ﴿خَلَقَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفَ أَصَاغُوا الصَّلَاةَ وَآتَمَعُوا الْأَثْمُونَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا...﴾ [٥٩-٦٣] ٤٧٢
- قوله تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِإَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا...﴾ [٦٤-٦٥] ٤٨٠
- قوله تعالى: ﴿وَقُولِ الْإِنْسَانُ إِنَّا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ نُخْرِجُ حَيًّا. أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا...﴾ [٦٦-٧٢] ٤٨٤
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلْنَا بِتَنَزُّوتِنَا قَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمَ آمَنُوا أَتَى الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَبِيًّا...﴾ [٧٣-٧٥] ٥٠٠
- قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتِ الصَّالِحِينَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا...﴾ [٧٦] ٥٠٤
- قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا...﴾ [٧٧-٨٠] ٥٠٥
- قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا يَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا...﴾ [٨١-٨٢] ٥٠٩
- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزَعُمْ أَرْأ...﴾ [٨٣-٨٧] ٥١١
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا...﴾ [٨٨-٩٥] ٥١٨
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [٩٦] ٥٢٦
- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا يَسْرِتْ بِهِ بِلَاسِكَ يُتَنَبَّرُ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُذَرِ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [٩٧] ٥٢٨
- قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُخَشِ مِنْهُمْ مِنَ الْهَلِكِ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا﴾ [٩٨] ... ٥٢٩
- الفهرس ٥٣١